التدبر في القرآن

أفلا يتدبرون القرآن

سماحة الفقيه

آية الله السيد محمد رضا الحسيني الشيرازي

٣/١

دار العلوم



التدبر في القرآن

كافة الحقوق محفوظة ومسجلة

الطبعة الثالثة

١٤٣١هـ/٢٠١٠م



المكتب : الرويس - بناية صروص الرويس - تلفاكس : 01/545182 - 03/473919
ص . ب : 140 / 24 - المستودع : بئر العبد - مقابل البنك اللبناني الفرنسي - هاتف : 01/541650
www.daraloloum.com E-mail:info@daraloloum.com

التدبر في القرآن

الجزء الأول

سماحة الفقيه
آية الله السيد محمد رضا الحسيني الشيرازي

دار العلوم
للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلّمه «حقائق التأويل» و«البيان»، والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله خير من أوصى وعلم «التدبّر في القرآن»، وعلى آله الطيبين الطاهرين خزائن آيات القرآن، صلاة دائمة ما غرّد القُمري على الأغصان.

وبعد. . .

لقد ورد الترغيب والحثّ الشديد على التدبر ـ وهو أخذ الشيء بعد الشيء والتأمل بعد التأمل في القرآن الكريم والتفكّر في آيات القرآن وأحكامه النازلة وحكمه وقصصه ومواعظه وغير ذلك. .

قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾[3].

---

(١) سورة ص: ٢٩.

(٢) سورة النساء: ٨٢.

(٣) سورة محمد: ٢٤.

وكذلك ورد الترغيب والحثّ الحثيث عن السنة الصادقة.

فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إن هذا القرآن فيه منار الهدى ومصباح الدجى فليجل جال بصره ويفتح للضياء نظره فإن التفكير حياة قلب البصر كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور»(١).

وعن الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «آيات القرآن خزائن فكلما فتحت خزانة ينبغي لك أن تنظر ما فيها»(٢).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «ألا أخبركم بالفقيه؟ من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤمنهم من عذاب الله ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يرخّص في معاصي الله، ولم يترك القرآن رغبة عنه إلى غيره، ألا لا خير في علم ليس فيه تفهم، ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبر، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه»(٣).

ومن هذا المنطلق كان اختيارنا لهذا المصنف (التدبر في القرآن) الذي يعتبر خير مصداق المتدبر في القرآن الكريم، فمن هو مؤلفه؟

هو السيد محمد رضا ابن سماحة آية الله العظمى السيد محمد ابن سماحة السيد ميرزا مهدي ابن السيد حبيب الله ابن أقا بزرك ابن السيد محمود بن السيد إسماعيل الحسيني الشيرازي.

ولد في كربلاء المقدسة سنة (١٣٧٩هجرية ـ ١٩٥٩ ميلادية). ونشأ وترعرع في ظل سماحة والده المرجع آية الله العظمى الإمام السيد محمد

---

(١) الوسائل، المحدث الحر العاملي، مج٤ ص٨٢٨.

(٢) الوسائل، المحدث الحر العاملي، مج٤، ص٨٢٩.

(٣) الوسائل، المحدث الحر العاملي، مج٤، ص٨٢٩.

الحسيني الشيرازي (قدس سره) وسماحة عمه المرجع سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي (دام ظله الوارف). واعتنى به عناية خاصة في علم الأصول لما أدرك منه امتيازات وقدرات في المطالب والأصول عندما كان يحضر بحثه الخارج.

ولقد امتاز من الآداب والأخلاق والسكينة والوقار، ما يدلّ على أن القرآن كان مؤدبه حيث أنه كان حافظاً للقرآن الكريم.

ولقد لازم سماحة الحجة المرجع والده في سفره وحضره وقد هاجر معه إلى الكويت وقد كان نشط في إدارة المدرسة وتلقي طلابها وبعدها انتقل إلى إيران ودرس عند سماحة آية الله العظمى الشيخ وحيد الخراساني وعمه ووالده حتى نال درجة الاجتهاد. وقد تتلمذ على يده كثير من الطلبة من السطوح والبحث الخارج. ولقد ترك مؤلفات كثيرة منها الترتب: عالج فيه مسألة أصولية، التدبر في القرآن الكريم وهو الذي بين يديك، الرسول الأعظم رائد الحضارة الإنسانية، كيف نفهم القرآن، وقد ذكرناه في أول هذا الكتاب وهو ممتاز جداً عنوان دلَّ على معنونه، إرادة الإنسان فوق التحديات، خطب الجمعة.

وقد وفاه الأجل في صبيحة يوم الأحد ٦ جمادى الأولى سنة ١٤٢٩هـ - ١/٦/٢٠٠٨م في قم المقدّسة ثم نقل جثمانه إلى كربلاء المقدّسة بجوار جدّه الإمام الحسين عليه السلام ودُفن فيها عقب ثمان أولاد؛ ستة إناث وإثنان من ذكور.

ولسماحته مع مدير دار العلوم الشيخ محمود المتقي حدث بشأن الكتاب مع سماحة الفقيه المؤلف حيث كنا في معرض الكتاب في إيران

وكان من اهتمامنا مقابلة سماحة آية الله الفقيه السيد محمد رضا الحسيني الشيرازي مؤلف الكتاب لأخذ الموافقة منه في إعادة طبع المصنف (التدبر في القرآن) فذهبنا إليه وكان له استقبال يذكرنا فيه عن سيرة الأئمة الأطهار عليهم السلام في الاستقبال، فعرضنا عليه الموضوع بإعادة طبع الكتاب فما كان منه إلا أن يوافق مع كثرة الأشغال المحيطة به وهموم هذه الأمة التي لا يحمل الثقل العظيم إلا أهله، وأعطانا موعد بمراجعته ووضع تعليقاته الشريفة عليه، ولكن عند عودتنا إلى لبنان فقد فوجئنا بخبر وفاته (قدس سره) وهذا لم يبطل من عزيمتنا فإنه لم يمت عندنا بل العلماء باقون ما بقي الدهر، أجسادهم مفقودة وأرواحهم موجودة، علمهم، فكرهم، عقيدتهم، فقههم.

فشددنا العزم على طبعه بعد أن وفقنا الله أن نحصل على النسخة التي كانت عنده بعد الاتصال بذوي العلاقة وفقهم الله.

وهذه هي النسخة التي بين يديك بحلتها الجديدة من خط وأوراق وتنظيم وتخريج للآيات والروايات والتصحيح.

ومن الله نستمد التوفيق.

دار العلوم

للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾(1).

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(2).

---

(1) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(2) سورة ص، الآية: ٢٩.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين.

وبعد: فهذه محاضرات مبسطة تعبر عن تصورات أولية في التفسير، ألقيت على مجموعة من المؤمنين الكرام، مشفوعة بإضافات وتنقيحات.

وقد أدرجت في مقدمتها كتاب «كيف نفهم القرآن» الذي ألفته في غابر الأزمان.

وأسأل الله تعالىٰ أن يجعل هذا الكتاب ذخراً ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، ومنه أستمد التوفيق، إنه نعم المولىٰ ونعم النصير.

محمد رضا بن السيد محمد الحسيني الشيرازي

٢٣/ محرم الحرام/ ١٤١٤هـ

المدخل

المطلوب

فهم القرآن بشكل جديد!

ـ: هل استنفد القرآن أغراضه؟

هكذا يتساءل الكثير من الشباب. . ويضيفون:

ـ: لقد قام القرآن بدور كبير قبل أربعة عشر قرناً من الزمن. . فهل يستطيع أن يقوم بدور تغييري في هذا العصر أيضاً؟! أم أنه قد تغير، وانتهى مفعوله؟

ـ: الحقيقة: إن القرآن لم يتغير، ولم يستنفد أغراضه. . فالقرآن لا يزال الكتاب الإلهي الذي هبط لإنقاذ البشرية. . وهو يستطيع أن يقوم بدور كبير في البناء الحضاري ـ في الوقت الراهن. .

ولكن الذي تغير هو المسلمون. . .

إن طريقة تعامل الأمة مع القرآن، وكيفية تلقيها لمفاهيمه ورؤاه. . تختلف اليوم بشكل جذري عما كانت عليه بالأمس. .

لقد كان المسلمون الأولون يفهمون القرآن كتاباً للحياة. . ومنهجاً

للتطبيق والتنفيذ.. أما المسلمون اليوم فهم يتعاملون مع القرآن بشكل معاكس تماماً[1]..

وهل يتحمل القرآن ذنوب أتباعه؟!

والآن..

لنلاحظ كيف يفهم المسلمون (اليوم): القرآن الكريم؟ وكيف يتعاملون معه؟!

والجواب: لقد عانت أمتنا ـ منذ أمد بعيد ـ مشاكل كثيرة في تعاملها مع القرآن الكريم.. ولا زالت رواسب تلك المشاكل موجودة حتى الآن.. فلننظر ماذا كانت تلك المشاكل؟

١ ـ تحجيم التعامل»..

ويعني ذلك: أن الأمة أخذت تحصر الاستفادة من القرآن في مجالات محدودة.. فالبعض: اتخذ القرآن طريقاً للكسب، وباباً للارتزاق.

والبعض الآخر.. اعتبره «وسيلة للعلاج» فحسب، فإذا ضعف بصره، أو وجعت أسنانه، أو آلمته امعاؤه.. هرول إلى القرآن.. ليتلو آيات معينة منه.. حتى ترتفع بسببها هذه الأسقام.. أما في غير هذه الحالة: فلا شأن له بالقرآن.

وهنالك مجموعات أخرى.. لا تفتح القرآن إلا عند الاستخارة.. أو حين السفر.. أو عندما يموت أحد الأقرباء.. وليس أكثر من ذلك؟

ومن الواضح: أننا لا ننتقد هنا الاستفادة من القرآن في هذه المجالات.. وإنما ننتقد: تحديد الإستفادة منها ضمن هذه الإطارات.

---

(١) لا يقصد بهذه الكلمات وأمثالها الاستغراق الحقيق، بل العُرفي.

إن القرآن كتاب حياة.. يقول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

ولذلك: فإنه يجب الانتفاع من القرآن في كل مجالات الحياة.. وليس في مجال أو مجالين..

٢ ـــ التلاوة السطحية.. للقرآن..

إن أمتنا تقرأ القرآن.. وتستمع إلى تلاوته.. ولكن: كحروف بلا معنى.. وكلمات بلا مفهوم.. ومن هنا: فإنها لا تعمل بالقرآن، كما هو المطلوب.. لأنها لا تفهم القرآن.. والفهم هو المقدمة الطبيعية للعمل بالشيء..

بينما كان المسلمون الأولون لا يقرأون آية.. حتى يتفكرون في أبعادها المختلفة.. وحتى يعوها بشكل كامل.

إن على من يقرأ القرآن أن يستثير عقله به، ويفقه ما وراءه من أبعاد كامنة.. وإلا.. فسينطبق عليه حديث الرسول الأعظم ﷺ حين قال عن بعض الآيات:

«ويل لمن لاكها بين لحييه [وهما عظمتا الفم] ثم لم يتدبرها».

٣ ـــ الاهتمامات الثانوية:

.. ولأن أمتنا أهملت فهم «لباب» القرآن.. اندفعت في طريق البحث عن القشور..

فأخذوا يصرفون جهودهم على قضائي ثانوية.. كان الأحرى بهم أن يصرفوها في مجالات أكثر تأثيراً، وفائدة..

فهذا أحدهم يقضي آماداً طويلة من عمره لكي يجيب على الأسئلة التالية:

كم هي عدد كلمات القرآن؟

وكم هي حروفه؟

وكم تكرر حرف الألف فيه؟

وكم تكرر حرف الباء؟

وكم تكرر حرف التاء؟

وهكذا.. إلى آخر حروف الهجاء..

والله يعلم: كم من الجهود صُرفت في سبيل معرفة هذه القضية خصوصاً: وأنها لم تتم في العصر الحديث، حيث يسرت العقول الالكترونية الأمر.. بل تمت في عصور ماضية.

ثم.. نجد أن كثيراً من الدراسات التي كتبت حول القرآن.. لا تتناول إلا القضايا الهامشية..

فمثلاً في «١٢٣» كتاباً أُلّف حول القرآن الكريم.. تجد أن «٣٧» منها تتحدث حول قضايا شكلية مثلاً:

ـ عدد آيات القرآن ـ الجمع والتثنية ـ طبقات القرّاء. نقط القرآن!. الرومي والمعرَّب في القرآن.. الخ..[١].

وهذا يعني: أن حوالي ثلث الجهود والطاقات صرفت في قضايا جانبية..

ومثال آخر للاهتمامات الثانوية حين قراءة القرآن: الاهتمام

---

(١) من الكتب التي تبحث حول هذه المواضيع: (عدد أي القرآن)، (الجمع والتثنية في القرآن)، (المحكم في النقط)، (املاء ما منّ به الرحمان في وجوه الإعراب والقراءات)، (النشر في القراءات العشر)، (القول المهذب في بيان ما في القرآن من الرومي والمعرب)، (اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر)، (نثر المرجان في رسم القرآن) و(رسم الشواذ).. الخ.

راجع التمهيد ـ في علوم القرآن ج١ ـ المقدمة.

بأشخاص القصص القرآنية.. وبقضايا هامشية في حياتهم تنسى الفرد: القضايا الهامة والعبر التي هي الهدف من ذكر تلك القصص.

٤ ـــ الفهم التجزيئي للقرآن

ويعني ذلك: فهم القرآن بشكل تفكيكي، ينفصل بعضه عن البعض الآخر.. وبعبارة أخرى: فهم كل آية قرآنية وكأنها عالم مستقل قائم بذاته من دون ربطها بالآيات الأخرى.

وقد يترتب على ذلك نتائج خطيرة.. سوف نشرحها في الفصل الثاني ـ بإذن الله ـ.

٥ ـــ الفهم المصلحي للقرآن

ويعني ذلك:

أ ـ فهم آيات القرآن بشكل يكرس مصالح الفرد في الحياة.. ويبرر أهواءه وشهواته..

ب ـ الاقتصار على جانب معين من «قيم القرآن» وإهمال سائر الجوانب.. التي تتطلب من الإنسان: العطاء والتضحية.

مثلاً: يفهم القرآن في جانبه الذي يتحدث عن العباد فحسب ـ لأن العبادة هي عادة درج عليها، ولا تكلفه كثيراً ـ ولكنه لا يفهم القرآن في جوانبه السلوكية، والعملية، والجهادية.. لأن ذلك يكلفه مصالحه وأنانياته.

٦ ـــ الفهم الميت للقرآن

ويتم ذلك بفصل القرآن عن الواقع المعاش.. وربطه بقضايا ميتافيزيقية، أو قصص تاريخية لا تؤثر في الواقع القائم شيئاً.

٧ ـــ الفهم بديلاً عن العمل..

إن القرآن الكريم «صراط» و«طريق».. وذلك يعني: أن على الفرد أن يعبر من خلال القرآن إلى العمل بالقرآن..

من هنا كانت الطلائع المسلمة في عصور الرسالة الأولى تفهم القرآن: طريقاً للعمل، ومنهاجاً للمسير.

ولكن أجيالنا الحاضرة تفهم القرآن هدفاً بذاته وليس وسيلة للعمل به.

وهكذا..

لم يبق من الإسلام إلى اسمه، ومن القرآن إلا رسمه ـ كما تنبأ بذلك الإمام علي عليه السلام من ذي قبل ـ.

هذه هي أهم المشاكل التي عانت منها الأمة في تعاملها مع القرآن..

وهذه المشاكل هي التي سببت سقوط أمتنا في الحضيض.

وعلينا ـ الآن ـ أن ننفض عن أنفسنا غبار الماضي.. ونبدأ في تعامل جديد مع القرآن.. كما أراده الله سبحانه منا.. حتى يغير الله ما بنا.. ويأخذ بأيدينا إلى القمة..

ونأمل أن يكون هذا الكتاب، الذي يتضمن تصورات أولية في كيفية فهم القرآن الكريم، خطوة إلى فهم القرآن بشكل آخر.. والتعامل معه بشكل جديد.

والله الموفق المستعان.

قم المشرفة

٢ شوال/ ١٣٩٩هـ

الفصل الأول

أفلا يتدبرون القرآن؟

القرآن
حروف بلا معانٍ!

في طليعة المشاكل التي تعاني منها قطاعات واسعة من أمتنا في تعاملها مع القرآن: «القراءة السطحية» لهذا الكتاب المجيد.

إنها تتعامل مع القرآن كحروف وكلمات ميتة.. وليس كمفاهيم تنبض بالحركة والحياة!

إنها تستمع إلى القرآن.. وتتلو آياته.. ولكن: كتمائم سحرية.. وطلسمات غيبية.. لا يكاد أحد يفهم منها شيئاً!

وبذلك أصبح القرآن: حروفاً بلا معانٍ.. وكلمات بلا مفاهيم..!

والسؤال الآن هو:

كيف أصبحت هذه القطاعات هكذا؟وما هي العوامل الكامنة وراء ذلك؟

والجواب:

١ ـ تشوش الرؤية..

فقد ترسخت في أذهان الكثيرين فكرة «تعالي القرآن عن الإدراك

البشري». . إنه كتاب الله. . وهل تستطيع ذرة تافهة في الوجود ـ اسمها: الإنسان ـ أن تصل إلى تلك القمّة الرّفيعة؟!

ولقد تطرف البعض في هذا الإتجاه حتى قال:

«إن القرآن كله متشابه بالنسبة إلينا، ولا يجوز لنا أن نتكلم في محكمه»!

وعندما سأله بعض الحاضرين:

ـ: ما تقول في ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.. هل هذه ـ أيضاً ـ تعتبرها آية متشابهة؟!

أجاب:

بأن الأحد ما معناه؟ وما مبدأ اشتقاقه؟ وما الفرق بينه وبين الواحد. . وأطال الكلام في مثل هذا. . ![1].

وهذا يعني أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾[2] أو قوله: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾[3] أو قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾[4] وأمثال هذه الآيات هي آيات متشابهة.. لا يحق لأحد ـ أي أحد ـ أن يحاول فهمها، أو أن يتكلم فيها؟

---

(١) راجع الأنوار النعمانية ج١، ص٣٠٨: «ويبدو أنه نسي في الجواب أن يضيف: وما هو إعرابه؟ وما هي أوجه قراءته؟ وما هو حركاته وسكناته؟ وما هو معنى الله؟ وما هو الأصل الذي اشتق منه؟ إلى آخر هذه الأسئلة التي تبدأ ولا تنتهي!

(٢) سورة النحل، الآية ٩٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ٣٦.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٣٢.

٢ ـ وقد لعب عدم الإستعداد النفسي ـ للتعمق الفكري. . دوراً ما في هذا المجال. . . بالنسبة ـ إلى بعض الأجيال المعاصرة.

إنها تبحث عن «سندويشة» طازجة تستطيع أن تتناولها بسهولة. . . أما «القضايا الفكرية المعمقة» فهي لا تود كثيراً البحث فيها. . إنه عصر السرعة. . إليس كذلك؟!

ولكن: فات لهؤلاء أن السطحية في الرؤية والتفكير قد ترضي شهوات الإنسان. . . ولكنها كثيراً ما توقعه في أخطاء قاتلة.

وفاتهم كذلك: أن الملاحظة الدقيقة والتفكير العميق. . هما الخطوة الأولى التي لا غنى عنها في أية مسيرة حضارية.

ولذلك نجد أن عالماً قد يقضي من عمره عشرين عاماً أو أكثر وهو يراقب أمراً قد يبدو لنا تافهاً، ولكنه يخرج من ذلك بنتائج هامة. . وكبيرة.

٣ ـ ولا ننسى هنا الأثر الذي تركه ابتعاد الجيل المعاصر عن اللغة العربية الأصيلة. .

فقد ساهم هذا العامل في عدم فهم هذا الجيل لبعض الآيات القرآنية. . . لأنه لم يعرف المدلول الحقيقي لبعض «الكلمات والجمل القرآنية». مما جعله يجهل معنى الآيات التي تضمنت تلك الكلمات والجمل.

التدبر؟ أم التحجر؟؟

ـ: هل يجوز لنا التدبر في القرآن؟

لكي نجيب على هذا السؤال. . لا بد أن نعود إلى مصادر الإسلام ـ النقية. . ونستخرج منها الإجابة الحاسمة.

ـــ ١ ـــ

عندما نلقي نظرة سريعة على القرآن الكريم. . نجد فيه دعوة صريحة إلى التدبر في آياته. .

١ ـ في البداية. . يؤكد القرآن أن الهدف من نزوله هو أن يتدبر الناس فيه. . فيقول:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾[1].

ذلك لأن التدبر هو الطريق الطبيعي للعمل بما جاء في القرآن الكريم. . إذن: فمن الطبيعي أن يعتبر «التدبر» الهدف المبدئي لنزول القرآن.

٢ ـ وفي سبيل الوصول إلى هذه الغاية. . جعل الله القرآن كتاباً ميسراً للفهم. . وفي هذا المجال يقول القرآن:

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٩.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾[1]؟.

ولأهمية هذا الأمر يكرر القرآن هذه الآية الكريمة في سورة (القمر) أربع مرات.

ويقول ـ أيضاً ـ:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾[2].

ويقول:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[3].

٣ ـ والقرآن ليس ـ فقط ـ يدعو الناس إلى التدبر في آياته.. وإنما يطلب منهم أن يمارسوا التدبر العميق أيضاً.. كما نفهم ذلك من قوله سبحانه:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؟

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[4].

قال العلامة الطباطبائي في الميزان:

«الآية تحضيض في صورة الاستفهام. والتدبر هو أخذ الشيء بعد الشيء، وهو في مورد الآية التأمل في الآية عقيب الآية، أو التأمل بعد التأمل في الآية [الواحدة] لكن: لما كان الغرض: بيان أن القرآن لا اختلاف فيه، وذلك إنما يكون بين أزيد من آية واحدة كان المعنى الأول،

---

(١) سورة القمر، الآية: ١٧.

(٢) سورة الدخان، الآية: ٥٨.

(٣) سورة مريم، الآية: ٩٧.

(٤) سورة النساء، الآية: ٨٢.

أعني: التأمل في الآية عقيب الآية هو العمدة، وإن كان ذلك لا ينفي المعنى الثاني أيضاً.

«فالمراد ترغيبهم أن يتدبروا في الآيات القرآنية، ويراجعوا في كل حكم نازل، أو حكمة مبيّنة أو قصة أو عظة أو غير ذلك في جميع الآيات المرتبطة به مما نزلت مكّيها ومدنيّها، ومحكمها ومتشابهها، ويضموا البعض إلى البعض حتى يظهر لهم أنه لا اختلاف بينها.

«فالآيات يصدّق قديمها حديثها، ويشهد بعضها على بعض، من غير أن يكون بينها أي اختلاف مفروض: لا اختلاف التناقض بأن ينفي بعضها بعضاً أو يتدافعا، ولا اختلاف التفاوت بأن تتفاوت الآيتان من حيث تشابه البيان، أو متانة المعاني والمقاصد..

«فارتفاع هذه الاختلافات من القرآن يهديهم إلى أنه كتاب منزل من الله، وليس من عند غيره..»[1].

وإذا لاحظنا:

أ ـ أن هذه الآية نزلت في «المنافقين» و«المترددين» ـ كما يظهر من الآيات السابقة ـ.

ب ـ أنها تدعو هؤلاء إلى التدبر في القرآن.. حتى يطمئنوا بأنه من عند الله.. ويزول بذلك نفاقهم، وترددهم.

جـ ـ أن كشف عدم (الاختلاف) وعدم (التناقض) بين الآيات القرآنية المختلفة يحتاج إلى تدبر عميق، وتأمل كبير..

إذا لاحظنا ذلك.. لوجدنا أن القرآن يفتح للناس أبواب «التدبر

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ج٥، ص١٩ (الطبعة الثانية).

الذاتي» في قضية عميقة من القضايا القرآنية.. وليس هذا فقط، بل وإنه يدعوهم إلى ذلك!

٤ ـ ثم.. يؤكد القرآن: أن هنالك «أقفالاً معينة» تغلق قلوب البشر.. وتصرفهم عن التدبر في آياته.. ويقول:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؟

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[١]؟.

ولكن ما هي هذه القلوب؟!

إنها أقفال الجهل، والهوى، والتهرب من المسؤوليات الثقيلة![٢].

وكما كانت هذه الأقفال قديماً.. فهي موجودة حديثاً.. ولكن: بصورة جديدة، وأشخاص جدد وشعارات جديدة!

وعلينا أن نحطم هذه الأقفال.. ونفتح قلوبنا أمام نور الله المضيء.. عن طريق التدبر في الآيات القرآنية الكريمة[٣].

---

(١) سورة محمد، الآية: ٢٤.

(٢) أشار القرآن إلى هذه «الاقفال» في الآيات السابقة.. فقال: ـ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾؟
ـ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾
ـ ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾.

(٣) قال الطبرسي في «مجمع البيان»:
(.. وفي هذا دلالة على بطلان قول من قال: لا يجوز تفسير شيء من ظاهر القرآن إلا بخبر وسمع). (الميزان، ج١٨، ص٢٤١).

وعندما نعود إلى الروايات ـ نجدها تؤكد المعنى ذاته[١].

أ ـ فهي تأمر بالتأمل في القرآن الكريم، من أجل استخراج معارفه وكنوزه الدفينة..

ففي الحديث المروي عن النبي ﷺ:

اعرفوا القرآن (أي أحكموا إعراب أواخر الكلمات والجمل) والتمسوا غرائبه (أي تأملوا فيه، وتفهموا معانيه الغريبة).

وفي الكافي عن علي بن الحسين عليه السلام أنه قال:

«آيات القرآن خزائن، فكلما فتحت خزينة ينبغي لك أن تنظر ما فيها».

ب ـ ومن أجل ذلك ورد الأمر بترتيل القرآن لأنه أقرب إلى التركيز والتأمل.

فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾:

بيّنه تبييناً ولا تهذه هذ الشعر، ولا تنثره نثر الرمل، ولكن افزعوا قلوبكم القاسية، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة»[٢].

فالهذ سرعة القراءة، ونثر الرمل هو التباطي فيها بحيث لا ترتبط

---

(١) هذه الروايات وإن لم تكن متواترة لفظاً إلا أنه لا يبعد ادعاء كونها متواترة معنىً، أما التواتر الإجمالي فيها فهو أمر مفروغ عنه.

(٢) البرهان ـ المجلد الرابع ـ ص٣٩٧ (الطبعة الثالثة).

كلماتها، والتدبر في كلمات القراءة، هو التأمل في الآيات، والتدبر في كلمات الله.

وعن الإمام الصادق عليه السلام:

﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾: قف عند وعده ووعيده، وتفكّر في أمثاله ومواعظه.

جـ ـ وتعطينا الروايات نماذج عملية في هذا المجال..

فعن الإمام الصادق عليه السلام

«كان أصحاب محمد صلى الله عليه وآله يقرأ أحدهم القرآن في شهر واحد أو أقل، إن القرآن لا يقرأ هذرمة، ولكن يرتل ترتيلاً، فإذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها واسأل الله الجنة، وإذا مررت بآية فيها ذكر النار فقف عندها، وتعوذ بالله من النار».

وفي حديث آخر أن الإمام الرضا عليه السلام كان يقرأ القرآن في فترة غير قصيرة.. وعندما سأل عن ذلك أجاب:

«ما مررت بسورة إلا فكرت في مكيها ومدنيها، وعامها وخاصها، وناسخها ومنسوخها» الخ..

د ـ ونجد في بعض الروايات دعوة ضمنية إلى التدبر في آيات القرآن.. واستنباط الأحكام والقيم الإسلامية منها ـ لمن كان من أهله ـ.

فعن الكافي والتهذيب والاستبصار ـ عن عبد الأعلى مولى آل سام قال:

قلت لأبي عبد الله عليه السلام عثرت فانقطع ظفري، فجعلت على أصبعي مرارة[1] فكيف أصنع بالوضوء؟

قال عليه السلام:

يعرف هذا وأشباهه من كتاب الله عزَّ وجل. قال الله عزَّ وجل: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ امسح عليه[2].

والمفهوم من قول الإمام «يعرف هذا وأشباهه من كتاب الله عزَّ وجل» هو أن هذا الأمر لا يحتاج إلى السؤال.

علماً بأن استخراج هذا الحكم يحتاج إلى التأمل.. ذلك لأن الآية الكريمة تدل على عدم وجوب مسح الرجل مباشرة لأنه حرج.. فيدور الأمر ـ في النظرة الأولية ـ بين:

سقوط المسح رأساً.

وبين بقاءه لكن مع سقوط شرط (مباشرة الماسح للممسوح).

إذن.. فالآية بظاهرها لا تدل على لزوم المسح على المرارة.

لكن التأمل الدقيق يقضي: بأن المسح ـ بما هو مسح ـ لا حرج فيه، وإنما الموجب للحرج هو اشتراط (المباشرة) في المسح.

إذن.. فالمنفي في الآية الكريمة هو (المسح المباشر) وليس (أصل المسح).

---

(١) المرارة شحمة شبه كيس، لازقة بالكبد، تكون فيها مادة صفراء هي المرة.

(٢) القواعد الفقهية للسيد ميرزا حسن البجنوردي ـ ج١، ص٢٠٩. وراجع أيضاً: بحار الأنوار ج٢، ص٢٧٧.

ولذلك فالمفروض في هذه الحالة المسح على الأصبع المغطاة[1].

وهنا يجد بنا أن نشير إلى كلمة (وأشباهه) في قول الإمام: «يعرف هذا وأشباهه من كتاب الله عزَّ وجلَّ».

فالإمام عليه السلام لم يقصر الحكم على هذه الآية الكريمة.. وإنما سحب الحكم إلى كافة الآيات القرآنية المشابهة.

وهكذا..

نجد الإمام عليه السلام يدعو أصحابه إلى التأمل في الآيات القرآنية.. واستنباط المفاهيم والأحكام الدقيقة منها..

هذا كله..

بالإضافة إلى:

١ ـ أن القرآن هو رسالة الله إلى الإنسان.. كما قال سبحانه:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[2].

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾[3].

ومن الطبيعي أن تكون الرسالة متناسبة مع فهم المرسل إليه.

٢ ـ القرآن يصدر خطاباته ـ عادة ـ بكلمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أو ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) هكذا أفاده العلامة المحقق الشيخ مرتضى الأنصاري ـ رضوان الله عليه ـ في مبحث «حجية ظواهر الكتاب» من كتابه القيم «فرائد الأصول».

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٨

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أو ما أشبه.. وليس صحيحاً أن يوجه أحد الخطاب لمن لا يفهم من كلماته شيئاً.

٣ ـ القرآن نزل حجة على الرسالة.. وقد تحدى النبي ﷺ البشر أن يأتوا بسورة من مثله..

ومعنى ذلك: أن العرب كانوا يفهمون القرآن من ظواهره.. ولو كان القرآن من قبيل الألغاز لم تصح مطالبتهم بمعارضته.. ولم يثبت لهم إعجازه لأنهم ما كانوا يستطيعون فهمه.

٤ ـ لقد استوعب المسلمون الأولون معاني كثير من الآيات وفهموها بمجرد نزولها عليهم.. ـ باستثناء آيات معيّنة سألوا النبي ﷺ عنها ـ.. ولم يتعاملوا يوماً مع آيات القرآن تعاملهم مع الأحاجي والألغاز..

وفي ختام هذا الفصل ينبغي أن نشير إلى نقطة هامة وهي: أن الاستنباط من آيات الأحكام ونحوها يتوقف على «خبروية» معيّنة، لا تحصل إلا ببلوغ الإنسان مرحلة «الإجتهاد».. فالتدبر في هذه الآيات يكون وقفاً على «المجتهدين» بالطبع.. أما التدبر في الآيات الأخرىٰ فهو أمر مفتوح لغيرهم أيضاً.. وسنفصل الكلام في هذه النقطة في البحوث القادمة بإذن الله.

وماذا نصنع بهذه الشبهات؟

هنالك بعض الشبه والإشكالات.. التي قد يتمسك بها البعض للتدليل على عدم جواز التدبر في القرآن الكريم.. بل ولاعتبار «التدبر» في القرآن معصية كبيرة تهوي بصاحبها في نار جهنم.. وساءت مصيرا!

فما هي هذه الشبه؟

وما هي الإجابة عنها؟[1].

الشبهة الأولى: الروايات نهت عن ذلك:

يقولون: لقد نهت الروايات الشريفة عن «التفسير بالرأي».. وهددت من يفعل ذلك بنار جهنم.. وقالت:

من فسر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر، وإن أخطأ فهوى أبعد من السماء»[2].

«من فسر برأيه آية من كتاب الله فقد كفر»[3].

---

(١) تفصيل الكلام والنقض والإبرام في هذه الشبهات موكول إلى «علم الأصول» والمقصود هنا الإشارة العابرة على نحو ينسجم مع وضع هذا الكتاب.

(٢) مقدمة «البرهان في تفسير القرآن» ص١٦ (طبعة دار الكتاب العلمية ـ إيران).

(٣) تفسير «البرهان» المجلد الأول ص١٩.

ولكن: ما هي النتيجة؟ عن ذلك يجيبنا حديث آخر فيقول:

«من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»[1].

وفي مواجهة هذا المنطق نقول:

إنّ «التفسير بالرأي» لا يعني «التدبر في القرآن» إذ أن هذه الروايات لا يمكن أن تنهى عن نفس ما أمر به القرآن الكريم والروايات الأخرى[2]. . بل إنها تعني أحد المحتملات التالية:

١ ـ أن تحمل الفرد آراؤه الشخصية. . على تفسير معاني آيات القرآن بأحد الأشكال التالية:

أ ـ حمل اللفظ القرآني على خلاف ظاهره.

ب ـ حمل اللفظ القرآني على أحد احتماليه ـ دون أي دليل.

مثلاً: يحمل «القرء» في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[3] على الحيض دون الطهر (باعتبار أن «القرء» لفظة مشتركة بين الطهر والحيض) من دون أي دليل.

جـ ـ التعسف في تأويل الآيات القرآنية. . وسوف نضرب على ذلك بعض الأمثلة فيما بعد ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ.

أما الأسباب الكامنة وراء هذا «التحريف المعنوي» الذي يأتي تلبية لآراء الفرد فهي:

---

(١) تفسير «الصافي» المجلد الأول ـ ص٢١ (الطبعة الخامسة).

(٢) راجع الفصل السابق: «التدبر، أو التحجر»؟.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

أولاً: الأهواء الشخصية للفرد.

إن بعض من لم يدخل نور الإيمان قلوبهم يحاولون أن يخضعوا آيات القرآن، لأهوائهم وشهواتهم. . ولذلك فهم يحاولون فهم الآيات القرآنية «بآرائهم» أي حسب أهواءهم وشهواتهم. .

فهذا «يحيى بن أكثم» ـ القاضي الشهير كان يعاني من «الشذوذ الجنسي» حتى قال عنه ابن خلكان: «ألوط قاض بالعراق نعرفه»!

وكان محبوب المأمون. . فقال له يوماً: لمن هذا الشعر:

قاض يرى الحد في الزناء ولا يرى على من يلوط من بأس

فأجابه: الذي قال:

ما أحسب الجور ينقضي وعلى الأمة وآل من آل عباس!

يحيى بن أكثم هذا. . كان «يديّن» عمله الشائن. . ويتمسك بآية من القرآن في مشروعية ذلك! والآية هي قوله تعالى:

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾[1].

فكان يستفيد من ذلك: إباحة «الزواج» وإباحة «الشذوذ» كذلك!

إن الآية الكريم تقول: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾[2].

وهي تعني أن الناس تجاه «إنجاب الذريةُ على أربعة أقسام. . فقسم

(١) سورة الشورى، الآية: ٥٠.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٩ ـ ٥٠.

لا يولد له إلا الإناث وقسم لا يولد له إلا الذكور. وثالث: يولد له الإثنان معاً. ورابع: لا يولد له أي واحد منهما. بل يظل عقيما!.

ولكن يحيى بن أكثم اقتطع هذه الجملة من القرآن.. وفصلها عن سياقها العام.. لكي يرضي أهواءه وشهواته[1].

والآن لنستمع إلى حوار بين يحيى بن أكثم.. وبين الإمام الهادي عليه السلام.. في هذا الصدد.

فقد سأل الإمام عن قوله تعالى: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾.

فأجاب الإمام عليه السلام:

أي: يولد له الذكور، ويولد له إناث. يقال لكل اثنين مقرنين: زوجان. كل واحد منهما زوج.

وأضاف الإمام وهو يضرب على الوتر الحساس:

«ومعاذ الله؛ أن يكون عنى الجليل [أي الله تعالى] ما لبست به على نفسك، تطلب الرخص لارتكاب المآثم. ومن يفعل ذلك يلق أثاماً. يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا».

واستدرك الإمام قائلاً: «إن لم يتب»[2].

إن هذا الشكل من «التحريف المعنوي» هو الذي يصدق عليه ـ

---

(١) للمزيد من التفاصيل حول «السياق القرآني» راجع القسم الثاني من هذا الكتاب (الفهم التجزيئي للقرآن).

(٢) سفينة البحار، المجلد الأول ص٣٦٧ ـ ٣٦٨. وراجع أيضاً «الأنكياء» لابن الجوزي ص١٣٢.

حسب الإحتمال الأول ـ «من فسر القرآن برأيه» أي حسب أهواءه وشهواته.

وهذا الشكل من التحريف ـ لا تزال قطاعات من الأمة تعاني من أثاره السلبية حتى الآن..

مثلاً:

يفسرون قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ بأن على الفرد أن لا يعمل، ولا يجاهد، ولا يتحرّك، لأن ذلك يعني «التهلكة» التي قد نهانا الله عنها.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾.

بأن مسؤولية الفرد محصورة في إطار ذاته.. ولا شأن له بالآخرين..؟ فليذهب العالم كله إلى الجحيم! ليس ذلك مهماً! المهم أن يحافظ الفرد على صومه وصلاته.. وبعض آخر من الواجبات الفردية وليس أكثر من ذلك..

ويقول شاعرهم في ذلك:

وما أبالي إذا نفسي تطاوعني على النجاة بمن قد ضل أو هلكا

ويفسرون «الصبر» الذي رد الأمر به كثيراً في القرآن الكريم والسنة الشريفة.. بأنه يعني: الخضوع للطواغيت، والاستسلام لهم.

و«التقية» بأنها تعني: الجمود والتوقف.

و«التوكل» بأنه يعني: إيكال المسؤوليات إلى الله.. والجلوس في زوايا البيوت دون أي عمل.

و«الزهد» بأنه يعني: اعتزال الدنيا.. وترك «الفاسقين» و«الكفار» يمرحون فيها ويلعبون.. وانتظار ثوب الله في الآخرة.. بدلاً من ذلك..

وهكذا.. وهلم جراً..

وهذا هو أحد مصاديق «التفسير بالرأي» المنهي عنه في الروايات.. والذي يعني حمل آيات القرآن الكريم على طبق «الآراء» التي تكونت للإنسان من خلال أهوائه وشهواته.

إن القضية تبدأ بـ«هوى» يسعى خلفه الإنسان.

وعلى مر الزمن: يتحول هذا «الهوى» إلى رأي ـ ونظرية..

ثم يحاول الإنسان ـ تطويع «الدين» ليأتي مؤيداً.. بل ومشجعاً على هذا «الرأي»..

وهنا.. يأتي الحديث الشريف:

«من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار!.

ثانياً: المسبقات الفكرية المترسّبة في عقلية الفرد..

فهنالك كثيرون يقرأون القرآن.. وأدمغتهم مشحونة بالأفكار، والرؤى والمفاهيم المسبقة.. ولذلك فهم لا يرون القرآن إلا من خلال أفكارهم.. ولا يجدون في القرآن إلا ما يؤيد هذه الأفكار..

تماماً.. كالذي يضع على عينيه نظارة سوداء.. إنه يرى جميع الأشياء بلون نظارته!

وكذلك هؤلاء. . فهم يرون آيات القرآن. . بلون المفاهيم القابعة في عقولهم.

إنهم يحاولون فهم القرآن كما تقتضي اتجاهاتهم وأفكارهم. . بدل أن يكونوا «تلامذة» متواضعين بين يديه. .

إنهم يحاولون توجيه القرآن على حسب ما تقتضيه أفكارهم. . بدل أن يحاولوا تهذيب أفكارهم على حسب ما تقتضيه مفاهيم القرآن ـ الرفيعة.

وهذا هو عين الخطأ.

وهذا هو ـ أيضاً ـ أحد مصاديق «التفسير بالرأي» المنهي عنه.

ونجد في التاريخ الغابر، كما في التاريخ المعاصر: أمثلة كثيرة على ذلك. .

وأول ما نجده في هذا المجال هو: تفسير القرآن الكريم على حسب (الأفكار العقائدية) المسبقة. . كما نلمس ذلك في أصحاب مذاهب من أمثال (الأشاعرة) أو (الباطنية) أو (الكراميّة) أو غيرهم. .

هذه الطوائف كانت تحمل آراء خاصة في (الله) و(صفاته الثبوتية) و(صفاته السلبية). . وغير ذلك. . وعندما اصطدمت عقائدها بالقرآن أخذت تفسر الآيات القرآنية على حسب أراءها السابقة[1].

* ونجد كذلك: تفسير آيات القرآن حسب (الفكر الصوفي) و(الذوق

---

(١) راجع «التمهيد في علوم القرآن» ج٣.

العرفاني) ـ بشكله المنحرف ـ . والذي جاء من أجل: تدعيم أفكار هذين الإتجاهين. . وإعطاءهما صبغة «شرعية». .

فمثلاً:

باعتبار أن مذهب بعض العرفان هو «وحدة الوجود». . لذلك فهم يفسرون ـ قول هارون عليه السلام لأخيه موسى عليه السلام:

«يابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي».

يفسرونه بأن موسى عليه السلام: بعد أن عاد من «الطور» ورأى قومه قد عبدوا العجل. . عاتب أخاه هارون عليه السلام قائلاً له:

ـ: لماذا لم تدع الناس يعبدون العجل؟ ألا تعلم أن الله سبحانه يُحبّ أن يعبد ـ في أية صورة كان المعبود!

وكذلك أيضاً يفسر بعض العرفاء قوله تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤﴾ بأن المقصود من «فرعون» ليس شخصاً معيناً.. بل المقصود به «القلب القاسي..».. وهذه الآية تشير ـ إلى مجاهدة هذا القلب[1].

وهنالك ـ أيضاً ـ تفسير القرآن الكريم حسب (الفكر المادي). . والذي حدث متأثراً بالفترة التي أخذت الحضارة الغربية تخطو فيها خطوات واسعة في المجالات العلمية والتكنولوجية. مما أبهر بريقها عيون بعض المسلمين. .

هؤلاء أخذوا يفسرون القرآن بطريقة خاصة، ترك الإتجاه المادي بصماته واضحة عليها. .

---

(١) تفسير «الصافي» المجلد الأول ـ ص٢٢.

فالملائكة، والجن، والشياطين فسروها بـ«القوى الطبيعية» التي تسيّر الإنسان والكون..

ومعاجز الأنبياء.. أخذت تعطي مدلولات جديدة، وتفسر بشكل جديد..

وهكذا.. وهلم جرا..

إن كل هذه الأنواع من التلاعب بمعاني القرآن الكريم.. وتوجيه الآيات القرآنية على حسب الأفكار (العقائدية المسبقة) أو (الأفكار الصوفية والعرفانية) أو (الإتجاهات المادية). كل هذه تعتبر من أنواع التفسير بالرأي ـ المرفوض أساساً من قبل الدين ـ حسب الاحتمال الأوّل ـ.

.. أما الاحتمال الثاني في معنى (التفسير بالرأي) فهو:

٢ ـ التسرع في تفسير الآيات القرآنية على حسب ما يظهر للفرد في بادىء الرأي.. ووفق ما توحي إليه ظنونه الأولية.. من دون الاستيقان، ومن دون الرجوع إلى سائر الآيات والروايات الواردة في ذلك الموضوع..

ذلك لأن الرأي في اللغة يعني: «الظن» و«التخمين» ـ كما تشير إليه بعض المصادر[1] ـ فالتفسير بالرأي ـ وفقاً لهذا الإحتمال ـ يعني: أن

(١) قال الراغب في «مفرداته»: الرأي عبارة عن ترجيح أحد طرفي القضية بالظن والتخمين: وقال المحقق الأنصاري: الظاهر أن المراد بالراي هو الاعتبار العقلي الظني الراجع إلى الإستحسان».. راجع فرائد الأصول مبحث «حجية ظواهر الكتاب».

يفسر القرآن بسبب بعض الظنون النيئة، التي لم تنضج بعد، رغم: «أن الظن لا يغني من الحق شيئاً» ـ كما يؤكده القرآن الكريم ـ.

ومما يجدر ذكره في هذا المجال.

أن امرأة على عهد عمر بن الخطاب كانت تمارس الجنس مع مملوكها وهذا بالطبع أمر محرم في نظر الإسلام.

فذكر ذلك لعمر. فأمر أن يؤتى بها.

ولما جاءت سألها:

ـ: ما حملك على ذلك؟!

فقالت: تأولت آية من كتاب الله. وهي: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾[1].

وفي بعض الروايات:

«كنت أراه يحل لي بملك يميني كما يحل للرجل المرأة بملك اليمين!» إلى آخر القصة[2].

ومن هذا القبيل: أن يقرأ الإنسان قوله تعالى:

﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾[3].

فيتصور الله جسماً قد تربع على عرشه العظيم!

إن هذا الشكل من الفهم المتسرع للآيات القرآنية.. على حسب ما

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٨.

(٢) الغدير للعلامة الأميني: ج٦، ص١١٨، (الطبعة الثالثة).

(٣) سورة طه، الآية: ٥.

يقتضيه الظن والتخمين، وبعض الإستحسانات العقلية. . هو ما نهت عنه الروايات السابقة ـ حسب الإحتمال الثاني ـ.

٣ ـ فهم آيات القرآن الكريم المرتبطة بالأحكام، والآيات المتشابهة، والآيات المجملة وما شابه ـ بعيداً عن روايات أهل البيت عليهم الصلاة والسلام وبدون توفير قاعدة علمية رصينة تؤهل الإنسان للاستنباط. ذلك لأنه في عهد الرسالة كان النبي ﷺ هو الذي يشرح للمسلمين الآيات الغامضة. . المبهمة. . وفي ذلك يقول الله سبحانه:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[(١)].

ولكن: ماذا بعد رحيل الرسول ﷺ؟

لقد خلف النبي ﷺ من بعده: كتاب الله، والعترة. . وقد قرن النبي ﷺ القرآن بالعترة في أحاديث كثيرة. .[(٢)] من هنا. . فإن أية محاولة للفصل بينهما. . هي محاولة خاطئة.

ويؤيد ذلك. .

إن كثيراً من الروايات التي ورد فيها النهي عن «التفسير بالرأي» جاءت رداً على أولئك الذين كانوا يحاولون فهم القرآن بعيداً عن أهل البيت عليهم السلام. . بل ونقيضاً لهم ـ في بعض الأحيان ـ كقتادة وغيره.

كما جاءت مجموعة من الروايات في هذا الصدد:

منها: ما روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام:

---

(١) سورة النحل، الآية: ٤٤.

(٢) رويت هذه الأحاديث في كتب الفريقين.. راجع: «المراجعات» للعلامة شرف الدين ص١٩ ـ ٢٥.

«إنما هلك الناس في المتشابه لأنهم لم يقفوا على معناه، ولم يعرفوا حقيقته، فوضعوا له تأويلاً من عند أنفسهم بآرائهم، واستغنوا عن مسألة الأوصياء فيعرّفونهم».

ومنها: ما روي عنه ـ أيضاً ـ:

«إنهم [أي المخالفين] ضربوا القرآن بعضه ببعض، واحتجوا بالمنسوخ، وهم يظنون أنه الناسخ، واحتجوا بالخاص وهم يظنون أنه العام، واحتجوا بأول الآية وتركوا السنة في تأويلها ولم ينظروا إلى ما يفتح به الكلام وإلى ما يختمه، ولم يعرفوا موارده ومصادره. إذ لم يأخذوه عن أهله. فضلوا وأضلوا»[1].

وهكذا..

نجد أن فهم القرآن ـ في طوائف من الآيات ـ بشكل مستقل.. وبعيداً عن أهل البيت أو بدون توفر القاعدة العلمية الكافية (المتمثلة في الوصول إلى درجة «الإجتهاد») يعتبر «تفسيراً بالرأي» ـ حسب الإحتمال الثالث.

والسؤال الآن هو:

لقد برزت أمامنا حتى الآن ثلاثة احتمالات في معنى «من فسر القرآن برأيه» وهي:

١ ـ فسر القرآن بآرائه الشخصية، وذلك بقسميه: فسر القرآن بهواه، وفسر القرآن بمسبقاته الفكرية.

---

(١) فرائد الأصول ـ مبحث حجية ظواهر الكتاب وأيضاً: مقدمة «البرهان» ص١٩ (طبعة دار الكتب العلمية ـ إيران).

٢ ـ فسر القرآن بظنه.

٣ ـ فسر القرآن بفهمه المستقل عن أهل البيت عليهم السلام، أو بدون توفر القاعدة العلمية الكافية.

فأي واحد من هذه المعاني هو المقصود؟!

والجواب: يمكننا أن نستفيد من إضافة كلمة «رأي» إلى «الهاء» في قول الإمام «برأيه» معنى عاماً يشمل هذه المعاني.. وذلك المعنى هو:

«تفسير القرآن بالرأي الشخصي، النابع من الذات، لا من الواقع».

وهذا المعنى العام يشمل:

القسم الأول من المعنى الأول.. لأنه تفسير للقرآن بالهوى.. وليس بالواقع.

والقسم الثاني من المعنى الأول لأنه تفسير للقرآن بالتعصب والأفكار المسبقة.. وليس بالواقع..

والمعنى الثاني.. لأنه تفسير للقرآن بظنه الشخصي الذي لا يغني من الحق شيئاً.. وليس بالواقع.

والمعنى الثالث.. لأنه تفسير للقرآن بالأفكار الشخصية.. وليس بالواقع (الذي مقياسه هو: أهل البيت عليهم الصلاة والسّلام، والذي تكشف عنه القاعدة العلمية المشار إليها) فتأمل.

وهكذا..

نجد: أن الروايات التي تنهى عن «التفسير بالرأي» لا تقصد بذلك

النهي عن التدبر في القرآن الكريم. . وإنما تنهى عن «تفسير القرآن بالرأي الشخصي النابع من الذات، لا من الواقع، بمختلف صورة وأشكاله».

الشبهة الثانية: كيف نعرف العام والخاص والمطلق والمقيد والناسخ والمنسوخ؟

إن في القرآن عاماً وخاصاً. . ومطلقاً ومقيداً. . وناسخاً ومنسوخاً. . وهل يعرف ذلك إلا الراسخون في العلم؟!

والجواب: إن هذا العلم الإجمالي ينحلّ بالعثور على القدر المتيقن من موارد النسخ والتقييد والتخصيص، فتحكم في سائر الآيات «أصالة الظهور» التي تقضي بأن ظواهر الكلام حجة إذا لم تقم قرينة على الخلاف، وحيث تنتفي تلك القرينة ـ بالفحص ـ يكون الظهور حجة بلا أشكال.

وينبغي هنا أن نذكر ملاحظتين.

١ ـ إن الآيات التي طرأ عليها التخصيص أو التقييد أو النسخ هي آيات محدودة ولا يمكن أن نسحب الحكم المنطبق على بعض الآيات، على القرآن الكريم ككل[١].

٢ ـ إن أغلب ـ أو كل ـ الآيات التي طرأ عليها التخصيص، أو

---

(١) مجموع الآيات التي ادعوا نسخها هي (٢٢٨) آية تقريباً وقد ذكر في (التمهيد) أنّ (٢٠) آية منها فقط هي المنسوخة.. بينما الـ(٢٠٨) الباقية ليست منسوخة.. (راجع: التمهيد ـ في علوم القرآن ج٢، الصفحات، ٢٩٦ ـ ٤٠٤).. وإذا قارنا هذه الكمية الضئيلة بمجموع آيات القرآن التي تبلغ (٦٦٦٦)آية ـ على المعروف ـ لوجدنا أنها لا تشكل سوى قطرة صغيرة في بحر خضم. ويمكن أن نقول مثل ذلك القول ـ بشكل تقريبي طبعاً ـ في الآيات المخصصة وفي الآيات المقيدة.

التقييد، أو النسخ هي الآيات التي تتناول «الأحكام الشرعية» ـ كأحكام القتال والطلاق والزنا والعدة وما أشبه ـ ومن الطبيعي: أن الاستنباط من (آيات الأحكام) ونحوها يختصّ بالفقهاء والمجتهدين. ولا يحق للرجل العادي أن يستنبط منها. وحديثنا هنا في التدبر في الآيات الأخرى.. تلك الآيات التي تتناول القضايا الخلقية، والإجتماعية، والثقافية.. وما أشبه، مما لا يترتب عليه حكم شرعي، وليس في آيات الأحكام فتأمل.

الشبهة الثالثة: الذين أخطأوا في فهم القرآن:

لقد أخطأ الكثيرون في فهم الآيات القرآنية.. وانحرفوا ـ بذلك ـ عن سواء السبيل.. فمن يضمن لنا: عدم الوقوع في الخطأ.. كما وقعوا ـ هم؟!

أليس من الأفضل أن ندفن رؤوسنا في الرمال.. ولا ندور حول مواضع الزلل؟

الجواب:

لقد أوضحنا ـ بشكل ضمني ـ فيما سبق: أن خطأ البعض في فهم القرآن يعود إلى أحد العوامل التالية:

١ ـ تحكيم «الأهواء الشخصية» في تفسير القرآن.

٢ ـ التعصّب لـ«المسبقات الفكرية» المغروسة في أعماق الفرد.. وبالتالي: تطويع القرآن لهذه الآراء.. بدلاً من تطويع هذه الآراء للقرآن.

ومما يدخل ضمن هذا الإطار «التعصب للأفكار المذهبية» الخاطئة.. ومحاولة تفسير الآيات القرآنية بشكل يؤيد هذه الأفكار..

٣ ـ التسرع في اعتناق الأفكار التي تظهر للإنسان في بادىء الرأي. . وعدم التدقيق في صحة هذه الأفكار أو سقمها.

٤ ـ عدم الرجوع إلى روايات أهل البيت عليهم السلام في الآيات المجملة، أو الآيات المتشابهة. . وما شابه، وعدم توفر القاعدة العلمية اللازمة فيما يتوقف على ذلك.

أما عندما يكون الفرد تلميذ القرآن المتواضع. . ويكيف أهواءه وأفكاره وفق قيم القرآن ومبادئه. . وليس العكس.

ويتأنى في تقبل ما يخطر على باله من أفكار. .

ويعود إلى أهل البيت عليهم السلام فيما تشابه عليه، ويوفر في ذاته القاعدة العلمية الرصينة فيما يتوقف فهمه علىٰ وجود مثل تلك القاعدة. . عندئذ. . تقل نسبة الخطأ في فهم القرآن. . إلى حدود كبيرة.

ويمكن أن تنعدم بالتالي(١).

الشبهة الرابعة: القرآن كتاب غامض.. فكيف نفهمه؟

يقولون:

القرآن كتاب يكتنفه الإبهام والغموض. . ففيه غموض في الكلمة. . وغموض في المعنى. . وغموض في المغزى. . فكيف نستطيع ـ بعد ذلك ـ أن نفهمه؟!

لقد نزل القرآن قبل ألف وأربعمائة عام. . وخاطب جيلاً قد مات منذ أمد سحيق. . فهل تستطيع أجيالنا أن تفهم القرآن الآن. .؟!

---

(١) هذا مضافاً إلى أن الملاك في صحة المؤاخذة (قيام الحجة) لا (إصابة الواقع) فتدبّر.

والجواب:

١ ـ إن أغلب الآيات القرآنية: هي آيات واضحة.. في الكلمات والمعاني.. والأهداف: كما قال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾؟

وبإمكان أي فرد أن يتصفح القرآن الكريم ليجد هذه الحقيقة ماثلة أمام عينيه.

٢ ـ ولكن:

تظل هنالك مجموعة من الآيات غامضة، ومبهمة.. وذلك يعود إلى ابتعاد أمتنا عن اللغة العربية الأصيلة.. وليس إلى القرآن ذاته[١].

والسؤال الآن هو:

ـ: كيف نفهم هذه الآيات الغامضة؟

والجواب:

هنالك ثلاثة طرق:

أ ـ الرجوع إلى معاجم اللغة.. واستخراج معاني الألفاظ منها.

ب ـ التدبر في السياق العام للآية.. واستنباط معنى الكلمة، أو الآية من خلال ذلك..

ورغم أن السياق ليس عاملاً نهائياً وحاسماً في فهم الآيات القرآنية.

---

(١) هذا بالغض ـ طبعاً ـ عن الآيات المتشابهة ونحوها التي يفتقر فهمها إلى التفكير المنطقي السليم وإلى مراجعة روايات أهل البيت عليهم السلام وإلى توفر القاعدة العلمية الرصينة.

إلا أنه يعيننا ـ كثيراً ـ في هذا المجال (إذا كان بحيث يشكّل ظهوراً عرفياً للكمة أو الجملة) مثلاً:

إذا أردنا اكتشاف معنى «حول» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝١٠٨﴾[1] فما علينا إلا أن ننظر إلى سياق الآية الكريمة لكي نكتشف أن معنى «الحول» هو «التحول» و«الانتقال».

أو إذا أردنا فهم معنى «الإملاق» في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾[2] فما علينا إلا أن ننظر إلى الجو العام المحيط بالآية لنعرف أن معناه هو «الفقر» و«الحاجة».

وهكذا . .

جـ ـ التفسير . .

إن لمعرفة الإطار التاريخي الذي هبط فيه الوحي . . والمورد الذي نزلت فيه الآية الكريم . . الأثر الكبير في فهم معاني «الآيات القرآنية» . . والأهداف التي نزلت من أجل تكريسها هذه الآيات . .

ذلك لأن القرآن نزل بشكل تدريجي، واكب فيه: الأحداث التي واجهها المسلمون في عهد الرسالة . . ولم ينزل على الناس مرة واحدة . . ولذلك كان من الطبيعي: أن تحمل الآيات طابع الظروف التي هبطت فيها . .

وكتب التفسير هي التي تسلط الأضواء على هذه الظروف . . وتعطي

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٢.

ـ بالتالي ـ الأبعاد الحقيقية للآية الكريمة . . (بالإضافة إلى الفوائد الهامة الأخرى التي تمنحنا إياها كتب التفسير).

. . هذه كانت أهم الشبهات التي يتمسك بها للتدليل على عدم جواز ـ وحتى عدم إمكان (التدبر) في الآيات القرآنية .

وقد عرفنا من خلال هذا المبحث : (إمكان) و(مشروعية) التدبر في القرآن الكريم .

ويبقى أن نشرح : ضرورة التدبر في القرآن . . وهذا ما يتكفل به الفصل القادم ـ بإذن الله .

معطيات التدبر في القرآن

ـ: لماذا التدبر في القرآن؟

هكذا يتساءل البعض.. ويضيفون:

ـ: إننا نقرأ القرآن، ونستمع إلى تلاوته كل صباح ومساء.. أفلا يكفينا هذا؟!

والجواب:

١ ـ التدبر في القرآن.. هو الطريق للاستفادة من آياته.. والتأثر بها..

إن القراءة الميتة للقرآن لا تعني أكثر من كلمات يرددها اللسان دون أن تؤثر في واقع الفرد التأثير المطلوب أما «التلاوة الواعية» فهي تتجاوز اللسان لكي تنفذ إلى القلب، فتهزه، وتأثر فيه.

لقد كان أولياء الله العارفون يتلون القرآن بوعي.. فكانت جلودهم تقشعر، وقلوبهم ترتجف حين يقرأون آية، بل ربما كانوا يصعقون لعظم وقع الآية في نفوسهم..

لقد تلى الإمام الصادق عليه السلام آية في صلاته ورددها عدة مرات فصعق صعقة، ووقع مغشياً عليه.. ولما أفاق سئل عن ذلك، فقال:

لقد كررتها حتى كأني سمعتها من المتكلم بها.. فلم يثبت لها جسمي، لمعاينة قدرته..

وكانت الآية هي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1].

بل إن التدبر لحظات في القرآن الكريم.. كان منعطفاً تغييرياً كبيراً.. في حياة الكثيرين.

فهذا «الفضيل بن عياض» كان في بداية حياته مجرماً خطيراً.. وكان ذكر اسمه كافياً لإثارة الرعب في القلوب..

لقد كان يقطع الطريق على القوافل.. ويسلب المسافرين ما يملكون..

وذات يوم وقعت نظراته على فتاة جميلة.. فصمم في نفسه أمراً..

وفي نفس تلك الليلة.. كان يتسلق جدار ذلك البيت الذي تسكن فيه الفتاة.. وهو ينوي الإعتداء عليها واغتصابها..

وفي هذه الأثناء.. تناهى إلى مسامعه صوت يتلو هذه الآية الكريمة:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

فأخذ يفكر في الآية بضع ثوان.. وأخذ يردد مع نفسه «يا رب، بلى قد آن»[2].

ثم هبط من الجدار، وتولى بوجهه شطر المسجد فاعتكف فيه إلى أن مات.

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٢) سفينة البحار ـ المجلد الثاني ـ ص٣٦٩.

إن تدبر هذا الرجل في آية واحدة حوله من مجرم متمرس بالجريمة، إلى معتكف في محراب العبادة فكيف إذا تدبر الإنسان في كل القرآن. ؟.

٢ ـ التدبر في القرآن هو الطريق لفهم (قيم القرآن) و(أفكاره) و(مبادئه) كما أنزلها الله سبحانه.

إن هنالك خيارات صعبة وعديدة تطرح أمام الفرد، وأمام الأمة. . كل يوم. . ولاختيار الطريق السليم بين هذه الخيارات. . لا بد من الرجوع إلى القرآن والتدبر في آياته. . .

ومن هنا. . يقول الله سبحانه:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[1].

ومن هنا أيضاً أطلق القرآن على نفسه اسم (الفرقان).

ذلك لأنه يفصل ويفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال. .

ولكن: لمن؟!

الجواب: لمن يفهم آياته، ويتدبر فيها.

٣ ـ هنالك مشاكل كثيرة يصطدم بها الإنسان في حياته. . سواء المشاكل الفردية التي لا تتعدى إطار الفرد ذاته. . أو المشاكل الإجتماعية التي تصيب الجميع.

والقراءة الواعية للقرآن الكريم. . والتدبر في آياته. . يقومان بدور مزدوج في هذا المجال:

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩.

فهما يقومان ـ من جانب ـ بتطهير ما علق في نفس الإنسان من سلبيات . .

ومن هنا يقول الله سبحانه:

﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾[1].

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

ويقومان ـ من جانب آخر ـ بوضع البرامج السليمة . . للخروج بحل ناجع لهذه المشاكل.

٤ ـ وأخيراً . .

فإن التدبر في القرآن هو الطريق للعمل بما جاء فيه . . وذلك لأن العمل بالقرآن يتوقف على فهمه . . وفهم القرآن لا يمكن إلا بالتدبر في آياته . .

ومن هنا . . فإن الذين لا يتدبرون في القرآن ربّما يفوتهم تطبيق الكثير من مبادىء الدين في حياتهم العملية . . وهم لا يشعرون.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٥٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

منهج التدبر في القرآن

قبل الحديث عن «منهج التدبر في القرآن». . لا بد أن نعترف: إن استعراضنا لهذا المنهج ـ هنا ـ هو استعراض ناقص. . ويعود ذلك إلى عاملين:

أحدهما: صعوبة الإحاطة بالمنهج بشكله المتكامل.

فالقرآن: بحر عميق، لا يدرك غوره ولا تفنىٰ عجائبه ـ كما يقول الإمام علي عليه السلام ومن هنا: فإن الإحاطة به أمر صعب، إن لم يكن أمراً مستحيلاً.

وثانيهما: أن بعض هذه المناهج قد تكون عسيرة الهضم على البعض. . ذلك لأن فهمها يرتبط باستيعاب علوم معينة. . ومن هنا تركنا التعرض إلى تلك المناهج في هذا البحث. .

وبعد معرفة هذه الحقيقة. . ينتصب السؤال التالي:

ما هو منهج التدبر في القرآن؟

والجواب:

إن المنهج يعتمد على طرح مختلف التساؤلات حول «الظواهر القرآنية». . فكل آية من القرآن الكريم مجال خصب لطرح تساؤلات

عديدة.. وعلى الفرد الذي يحاول التدبر في القرآن أن يثير في عقله هذه التساؤلات.. ومن ثم: يحاول الإجابة عليها..

وهذه التساؤلات تتناول ما يلي:

١ ـ معنى الكلمة.

٢ ـ تخير الكلمة.

٣ ـ موقع الكلمة.

٤ ـ الشكل الخارجي.

٥ ـ التسلسل المعنوي، والتناسب في الانتقال من غرض إلى غرض.

٦ ـ التصنيف.

وسوف نسلط الضوء على هذه الأمور مع ذكر بعض النماذج الإيضاحية كتصورات أولية تفتقر إلى مزيدٍ من البحث والتمحيص.

أولاً
معنى الكلمة

يتكون القرآن الكريم من كلمات.. تماماً: كما يتكون البناء من لبنات.. ولذلك فمن الطبيعي: أن تكون الخطوة الأولى لفهم القرآن الكريم هي: التدبر في الكلمات القرآنية.

ومع الأسف..

فإن بعضاً ممن يقرأون القرآن لا يقومون بهذه المهمة.. ولذلك فهم:

١ ـ إما أن لا يفهموا معاني الكلمات.

٢ ـ أو يفهموها بشكل مغلوط.

٣ ـ أو بشكل باهت.. لا يعكس المدلول الدقيق للكلمة.

وعن هذه الظاهرة الثالثة.. ننقل فقرات من كتاب «بحوث في القرآن الحكيم»:

«بالرغم من أن اللغة العربية أشمل وأدق وأجمل اللغات في أنها تعطي لكل حقيقة لفظاً قريباً يتناسب معها تماماً وبالرغم من أن العرب

اختاروا لكل تطور ينشأ في شيء: لفظاً يخصه، ويوحي إلى تلك الحقيقة متلبسة بذلك التطور.

«بالرغم من هذا وذلك فإن الكلمات العربية اكتنفها الغموض مما أفقد إيحاء اللفظ وظلاله. فلم نعد ـ نحن العرب ـ نملك رهافة الحس [لنعرف الفرق] الذي كان بين لفظتي «قرب ـ اقترب» أو «فكر ـ افتكر» حتى لم نعد نعرف الفرق بين كلمتي «سار» و«سارب» و«دلك» و«أولج» وما أشبه.

ويعود ذلك إلى:

«أولاً: كثرة استعمال الألفاظ في غير معانيها الأدبية. فحينما يستعمل العربي كلمة «قرب» في المجال المحدد لـ«اقترب» أو حتى كلما «سار» في موضع كلمة «سارب» تختلط ظلال الكلمتين مع بعضها وتضيع الإيحاءات الخاصة.

«ثانياً: تعلقت أذهاننا بمعاني جامدة ومحددة كألفاظ عربية، وفقدنا الشعور بمحور شعاع الكلمة. فنحن حينما نستعمل كلمة «جن» يتبادر إلى أذهاننا المخلوق الغريب دون أن نفكر ولا لحظة حول ارتباط كلمة «ج ن» مع هذا المخلوق، ونستعمل كلمة «جنين» دون أن نعرف أن هناك علاقة تتناسب بين معنى الولد في بطنه أمه (جنين) ومعنى المخلوق الغريب (جن) وهي: أن كليهما مستور عن أعين الناس.

«وكذلك نطلق لفظة «الخمر» للدولة على السائل المسكر، ونطلق لفظة «الخمار» للدلالة على الساتر لوجه المرأة، ونلاحظ أن علاقة اللفظين ببعضهما إنما هي من ناحية الستر، فهذا يستر الوجه وتلك تستر العقل.

«وهكذا تتداخل إيحاءات اللفظ العربي ببعضه، ونفقد بذلك فهم أهم سمة من سمات اللغة العربية التي لو فهمناها يسهل علينا فهم القرآن كثيراً.

«من هنا يتوجب علينا الخروج من الفهم التقليدي للألفاظ العربية نحو أفق أسمى، يستشم المعنى الإيحائي العام منها».

«وهذا الخروج ضروري لفهم القرآن الحكيم، إذ أنه في قمة البلاغة التي تتلخص في رعاية التناسب الشامل بين الموضوع واللفظ، وبين الواقع والتعبير، فيكون كشف المنحنيات التفسيرية والإيحاءات اللفظية ذا أهمية خاصة في القرآن أكثر من أي كتاب آخر، لأنها معنية فيه بشكل لا يوصف.

«يبقى السؤال عن كيفية الخروج؟

«والجواب: على الفرد:

«١ ـ أن يتجرد أولاً عن موحيات المناخ الفكري الذي يصور له معنى جامداً للفظ».

«٢ ـ ثم الرجوع إلى المادة الأساسية التي تجمع كل التصريفات للكلمة، والتفكير في المعنى المناسب لربط هذه المجموعات باللفظ.. فمثلاً: نجمع معاني يعرشون، عرشاً، معروشات، ونعود إلى تصريفات اللفظ الأخرى: عريش، وعريش وما أشبه لنستنبطها جميعاً من البناء الفوقي، لأنه يجمع معاني سرير الملك والبناء، والمرفوع، وسيباط الكرم والخيمة من الخشب.. هذه المعاني التي ذكرتها العرب لهذه الألفاظ».

«٣ ـ قياس موارد استعمال اللفظ ببعضها، ليعرف المعنى المشترك

الذي يمكن أن يتصور جامعاً بين هذه الموارد، ومن الطبيعي أن يعتبر في الاستعمال أن يكون على لسان أهل اللغة المعتنين بالبلاغة.

«. . . وإذا كان قياس موارد الإستعمال ببعضها أفضل السبل لمعرفة المعنى الحقيقي للفظ ما، فإن أفضل قياس من هذا النوع هو قياس موارد استعمال الكلمة في القرآن ذاته، إذ أنه ـ ولا ريب ذروة البلاغة العربية التي عجز عن تحديها أبلغ فصحاء العرب.

«من هنا . . يجدر بالذي يريد التدبر في القرآن ذاته، أن يبحث عن المعنى المحدد للكلمة في آيات القرآن ذاته. ليجد ـ بقياس بعض المواضع المستعملة فيهما الكلمة ببعضها ـ ليجد بذلك المعنى الدقيق ـ الذي يقصده القرآن»(١) فتأمل.

وفيما يلي . .

نستعرض بعض الأمثلة حول «التدبر في الكلمة القرآنية».

ـــ ١ ـــ

يقول القرآن الكريم:

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾(٢).

لكي نفهم معنى كلمة «حنيف» التي احتوت عليها الآية الكريمة . . نعود إلى اللغة . . لنجد المواضع التي استخدمت فيها هذه الكلمة، ثم لنستنبط من هذا المجموع . . المعنى العام . .

فنجد في اللغة: «حنف: مال ـ وحنف رجله: جعلها حنفاء ـ وحنف اعوجت رجله إلى داخل فهي حنفاء ـ وحوانف ـ الحنفاء: القوس ـ» وهكذا . .

---

(١) بحوث في القرآن الحكيم، ص٣٥ ـ ٣٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٧.

ونستنتج من كل ذلك أن معنى «حنف» هو «مال».

ونعود إلى التفسير لنجده يؤكد المعنى ذاته[1].

وعلى هذا.. فيكون معنى الآية: «إن إبراهيم كان مائلاً عن كل المبادىء الزائفة.. مسلماً لله تعالى وحده».

ذلك أن للإيمان دعامتين:

رفض كل القيم، والأصنام، والمبادىء الزائفة..

والتسليم المطلق لله سبحانه ـ وحده لا شريك له.

فالإيمان يتلخص في كلمة رفض تشمل كل الآلهة الأصنام: «لا إله».

واستثناء واحد ينبثق من ضمير هذا الرفض المطلق: «إلا الله».

وبهذا.. تنهار كل الحلول الوسطىٰ، وكل المحاولات التوفيقية.. بين الله، وبين الأصنام ـ مهما كان اسم هذه الأصنام أو شكلها ـ.

وبهذا أيضاً نعرف خطأ أولئك الذين يحاولون الجمع بين الله.. وسائر الآلهة.

ـ ٢ ـ

يقول القرآن الكريم:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾[2].

(١) راجع تفسير «الصافي» المجلد الأول، ص٢٧٠.
(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ٥٩ ـ ٦٠.

ـ قد يبدو للنظرة العابرة أن كلمة «الملأ» في هذه الآية تعني «الجماهير». . وعلى هذا الأساس فإن الذي كفروا بـ«نوح» وغيره من الأنبياء. . كانوا: عامة الناس. .[1].

وهنا قد يثار السؤال التالي:

ـ: لماذا كفرت الجماهير برسالات الأنبياء؟ ألم تكن رسالات الأنبياء تدعو الناس إلى فطرتهم، وضمائرهم؟!

والحقيقة: إننا لو فتشنا حول مدلول كلمة «الملأ» لوجدنا أنها تعني: «أشراف القوم الذين يملأون العيون والصدور هيبة» ـ كما تؤكده معاجم اللغة وكتب التفسير ـ[2].

ومن هنا. . نستنتج: أن الذين كفروا برسالات الأنبياء لم يكونوا «الجماهير». . وإنما كانوا «الأشراف» و«الوجهاء».

كما نستنتج من ذلك أن رفضهم لرسالات الأنبياء لم يكن من أجل عدم اقتناعهم بها. . وإنما من أجل الحفاظ على مصالحهم الشخصية.

---

(١) استخدمت كلمة (الملأ) حوالي (٣٠) مرة في القرآن الكريم.. خلال استعراض قصص الأنبياء، وطبيعة مواجهتهم مع المشركين.. وغير ذلك..

(٢) راجع: «الصافي» ـ المجلد الأول ـ ص٥٨٨ والميزان ج٨، ص١٧٤.

ومن الجدير أن نشير هنا إلى ما قاله الرازي في تفسيره «والملأ: الكبراء والسادات الذين جعلوا أنفسهم أضداد الأنبياء. والدليل عليه أن يقوله «من قومه» يقض أن ذلك الملأ بعض قومه، وذلك البعض لا بد أن يكونوا موصوفين بصفة استحقوا لأجلها هذا الوصف، ذلك بأن يكونوا هم الذين يملأون صدور المجالس وتمتلأ القلوب في هيبتهم، وتمتلأ الأبصار من رؤيتهم، وتتوجه العيون في المحافل إليهم، وهذه الصفات لا تحصل إلا في الرؤساء، وذلك يدل على أن المراد من الملأ الرؤساء والأكابر» راجع: التفسير الكبير ـ ج١٤، ص١٥٠.

ثانياً
تغيّر الكلمة

من نقاط الالتقاء بين «النظام القرآني» و«النظام الكوني»: وضع كل شيء في محله الطبيعي المناسب له.. بحيث يسبب أي تلاعب ـ ولو كان بسيطاً ـ خللاً في النظام وفساداً.

ففي النظام الكوني نجد: أن كل ذرة من ذرات الوجود.. وجدت لحكمة.. ووضعت في مكانها الخاص بها لحكمة.. بحيث لو حدث أي تغيير في ذلك.. لاختل جانب من جوانب الحياة..

وفي النظام القرآني نجد أن كل كلمة في القرآن.. وضعت في محلها الطبيعي.. بحيث لا يمكن أن تسد أية كلمة أخرى مكانها.. ولا أن تعطي نفس الأبعاد والظلال التي كانت تعطيها تلك الكلمة..

وهذا ما يدفعنا إلى البحث عن سر استخدام القرآن الكريم لهذه الكلمة لا غيرها.. وبهذا الشكل لا غيره..

وفيما يلي.. بعض النماذج الإيضاحية..

— ١ —

يقول القرآن الكريم:

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾[١].

إن معنى الآية الكريمة واضح، وهو (على ما يعطيه السياق: شغلكم التكاثر في متاع الدنيا وزينتها، والتسابق في تكثير العدة والعدة عما يهمكم وهو ذكر الله، حتى لقيتم الموت، فعمتكم الغفلة مدى حياتكم)[٢].

ولكن السؤال هو:

لماذا يستعمل القرآن الكريم كلمة «زرتم»؟ لماذا لم يقل: حتى سكنتم المقابر، أو ملأتم المقابر أو حللتم المقابر؟!

والجواب: ربما ليلفت الأنظار إلى أن المقام في القبر مقام مؤقت، وأن الدخول إلى القبر ـ دخول زيارة لا دخول سكن.

خلافاً للأفكار المادية الضيقة التي تعتبر الموت هو النهاية، والقبر هو آخر المطاف.

— ٢ —

يقول القرآن الكريم ـ وهو يتحدث عن قصة زكريا عليه السلام بعد أن بشرته الملائكة بيحيى عليه السلام:

---

(١) سورة التكاثر، ١ ـ ٢.

(٢) الميزان، ج٢٠، ص«٣٥١».

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠﴾[1].

وهنا.. نجد القرآن يستخدم كلمة «يفعل» «كذلك الله يفعل ما يشاء».

ويقول القرآن الكريم ـ وهو يتحدث عن قصة مريم عليها السلام بعد أن بشرتها الملائكة بعيسى عليه السلام ـ:

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٧﴾[2].

وهنا.. نجد القرآن يستخدم كلمة «يخلق»: «كذلك الله يخلق ما يشاء». فما هو الفرق بين الموضوعين؟!

والجواب:

في قصة زكريا عليه السلام كانت عوامل الولادة الطبيعية (من وجود الزوج والزوجة وغيرهما).. لكن كانت هناك موانع في الطريق.. والله سبحانه رفع هذه الموانع.. ولذلك كان التعبير بـ«الفعل».

تماماً: كما لو أن العلم توصل إلى علاج لرفع العقم، وإعادة الشيخ إلى صباه قوة وقدرة.. فهذا لا يعتبر خلقاً للجنين، وإنما «فعلاً» رفع العقبة عن الطريق..

أما في قصة مريم عليها السلام.. فلم تكن عوامل الولادة الطبيعية متوفرة.. وإنما كان تكويناً إعجازياً يرتبط بالغيب.. ومن هنا كان التعبير عنه بـ«الخلق»..

---

(١) سورة آل عمران، ٤٠.

(٢) سورة آل عمران، ٤٧.

يقول القرآن الكريم:

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾[١].

عند النظرة السطحية العابرة قد يبدو: أن الشكل الطبيعي للآية الكريمة كان يجب أن يكون: «وارزقوهم منها».. وليس «وارزقوهم فيها».. أليس كذلك؟!

ولكننا نستطيع أن نفهم من استبدال كلمة «منها» بـ«فيها»: ضرورة استثمار الولي لمال السفيه ـ وعدم تجميدها على حالتها الأولى[٢].

ذلك.. لأنك قد تقول: «أكلت من الطعام».. وهذا يعني أن الطعام هو الذي أكل.. وأن النقص ورد عليه، لا على غيره..

أما عندما تقول: «أكلت في الصحن».. فهذا بالطبع، لا يدل على أنك أكلت الصحن.. وإنما يعني أنك أكلت ما كان في الصحن..

وإذا كان القرآن يستخدم كلمة «منها» قائلاً: «وارزقوهم منها» لكان معناه: الأكل من نفس مال السفيه..

ولكن استخدام القرآن لكلمة (فيها) يدل على التنمية المالية.. فالمال ـ هنا ـ يظل محفوظاً ـ كما يظل الظرف محفوظاً في قولك «أكلت

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥.

(٢) ليس المقصود بـ«الضرورة» هنا الوجوب الشرعي ـ بل الأولوية أو الإستحباب.

في الصحن» ـ ولكن ما تولد من هذا المال هو الذي ينفق منه على السفيه . .

وهكذا . .

نستنتج من استبدال كلمة بسيطة مكان أخرى . . هذه القاعدة الاقتصادية المهمة . .

ثالثاً
موقع الكلمة

من نقاط الإلتقاء بين «النظام الكوني» و«النظام القرآني»: «الهدفية» التي تشمل جميع أنحاء كل واحد من النظامين.

ففي النظام الكوني نجد: أن كل المخلوقات التي تسبح في هذا الكون الكبير ـ ابتداءاً بالذرة وانتهاءاً إلى المجرة ـ كل هذه المخلوقات «مهدوفة».. ولا نجد كائناً واحداً وهو زائد على الحياة، أو طفيلي عليها..

وفي النظام القرآني نجد: أن كل جملة، وكل كلمة، وكل حرف.. جاء من أجل هدف معين.. ولا نجد في القرآن الكريم حتى حرفاً واحداً يمكن الاستغناء عنه.

وحتى لو بدا للنظرة العابرة وجود شيء زائد ـ سواء في النظام الكوني أو في النظام القرآني ـ فإن البحث الدقيق يكشف عن ضرورة معينة تتطلب وجود ذلك الشيء.

من هنا..

كان على من يحاول التدبر في القرآن الكريم أن يحاول اكتشاف

«موقع الكلمة» أي الهدف التي جاءت من أجله هذه الكلمة، والمغزى الذي تشير إليه.

وسوف نستعرض فيما يلي بعض الآيات القرآنية. كنماذج لينطلق منها القارىء الكريم إلى سائر الآيات..

ـــ ١ ـــ

يقول القرآن الكريم ـ وهو يتحدث عن قصة زكريا عليه السلام بعد أن بشرته الملائكة بيحيى عليه السلام ـ:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾[1].

ـ: ما هو موقع كلمة «كذلك» في هذه الآية الكريمة.. ولماذا لم تكن الآية: «قال: الله يفعل ما يشاء» أو «قال: إن الله يفعل ما يشاء؟!

والجواب:

إن وجود «كذلك» في هذه الآية يضيف إليها بعداً جديداً.. هو: الدلالة على الدأب والاستمرارية..

فعندما تعجب زكريا عليه السلام من أن يهب الله له غلاماً وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر.. كان الرد أن هذه الولادة ليست بدعاً من الأمور.. وإنما هي أمر مألوف ومكرر بالنسبة إلى مشيئة الله وفعله الذي يتم في أوقات كثيرة على هذا النحو، ولذلك: فلا داعي للتعجب من أمر هذه الولادة..

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٠.

وهكذا.. دلت كلمة «كذلك» في هذه الآية الكريمة على سنة قديمة لله سبحانه في هذا الكون.. لا تدع مجالاً للاستغراب من ظواهرها الجديدة.

— ٢ —

يقول القرآن الكريم:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم...﴾[١].

في هذه الآية: نجد القرآن الكريم يضيف إلى اسم المسيح نسبه «عيسى بن مريم» عليه السلام.

بينما في الآية السابقة يذكر القرآن اسم موسى عليه السلام بشكل مجرد فيقول: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾[٢].

وقد تكرر ذلك ـ في آيات القرآن كثيراً[٣].

وهكذا.

والجواب:ـ

لقد تركز الضغط القرآني على كلمة «ابن مريم»: تأكيداً على الجانب البشري في المسيح عليه السلام، ونفياً مشدداً لما ادعته النصارى من وجود جانب إلهي فيه..

(١) سورة الصف، الآية: ٦.
(٢) سورة الصف، الآية: ٥.
(٣) ورد اسم المسيح في القرآن الكريم مقروناً بكنيته «ابن مريم» حوالي (٢٠) مرة.

وهكذا.. يجمع القرآن الكريم بين استعراض الأفكار والمفاهيم الإلهية، وبين النفي الضمني للخرافات، والأباطيل.

ـــ ٣ ـــ

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾(١).

هذه الآية الكريمة نزلت عندما اندحر الروم في أرض الشامات (وهي أقرب أرض إلى الجزيرة العربية). وانتصر الفرس عليهم، وهزموهم هزيمة ساحقة.

ولكن:

ما هو مغزىٰ ورود كلمة ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ في هذه الآية؟! مع أن موقع المعركة كان معروفاً لدى الجميع؟!

وحتى لو افترضنا أن موقع المعركة كان مجهولاً ـ فهل القرآن كتاب جغرافي حتى يتناول مثل هذه القضية؟ أم أن هنالك أمراً آخر؟!

والجواب:

قد يكون قوله سبحانه ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ من أجل توضيح حجم الهزيمة التي حلت بـ«الروم» ذلك لأن القضية لم تكن قضية جيشين يلتقيان في الصحراء ويمنىٰ أحدهما بالفشل.. فالقضية أكبر من ذلك.. إنها قضية

---

(١) سورة الروم، الآيات: ١ ـ ٣.

جيش غاز ـ يغزو عدوه في عقر داره، وينتصر عليه ومن ثم: يقيده بالسلاسل.. ويمتهن شره وكرامته[١].

إذن فحجم الهزيمة كبير. . والمصاب فادح. . ولكن رغم ذلك: تشاء إرادة الله أن تعكس الأمر وتعيد للروم حريتهم واستقلالهم.

وهكذا. .

دل قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ على تلك الهزيمة العظيمة.. التي تدخل القدر الإلهي ليحولها إلى نصر عظيم!

---

(١) جاء في كتاب «الإسلام يتحدى»: «وأغا (كسرى ابرويز) على بلاد الروم، زحفت جحافله عابرة نهر الفرات إلى الشام. ولم يتمكن «فوكاس» [ملك الروم] من مقاومة جيوش ـ الفرس التي استولت على مدينتي (انطاكية والقدس) فاتسعت حدود الأمبراطورية الفارسية إلى وادي النيل... وتقلصت الأمبراطورية الرومانية في عصامتها، وسدت جميع الطرق في حصار اقتصادي قاس، وعم قحط، وفشت الأمراض الوبائية، ولم يتبق من الإمبراطورية غير جذور شجرها العملاق. وكان الشعب في العاصمة خائفاً يترقب ضرب الفرس للعاصمة، ودخولهم فيها، وترتب على ذلك أن أغلقت جميع الأسواق، وكسدت التجارة وتحولت معاهد العلم والثقافة إلى مقابر موحشة مهجورة، وبدأ عباد النار يستبدون بالرعايا الروم للقضاء على المسيحية، فبدأوا يسخرون علانية من الشعائر الدينية المقدسة، ودمروا الكنائس، وأراقوا دماء ما يقرب من (١٠٠,٠٠٠): مائة ألف إنسان من المسيحيين المسالمين وأقاموا بيوت عبادة النار في كل مكان، وأرغموا الناس على عبادة الشمس والنار».. راجع «الإسلام يتحدى» ص١٨٣ ـ ١٨٤ الطبعة السابعة.

رابعاً
الشكل الخارجي

إذا ألقيت نظرة عابرة على جسدك. . تجد: أن كل عضو، وكل جهاز في هذا الجسد له شكل معين. فاليد، والرجل، والأصابع، والكبد، والأمعاء، و. . لها شكل خاص، يختلف عن شكل الأعضاء، والأجهزة الأخرى.

وهذه الشكلية المتنوعة لم تأت عبثاً. . وإنما وفق حكمة إلهية معينة. . ولتلبي حاجات الإنسان ومتطلباته. . على أفضل وجه. .

وكما جسد الإنسان. . كذلك الكون كله. .

هذه الحقيقة التي نلمسها في كتاب الله التكويني (الكون). . نستطيع أن نلمسها ـ أيضاً في كتاب الله التشريعي (القرآن). .

فالشكل الخارجي للآيات القرآنية. . لم يأت عبثاً. . وإنما وضع لحكمة معينة. . وللدلالة على فكرة خاصة. . من هنا: كان علينا ـ حين نتدبر في القرآن الكريم ـ أن نكتشف «الفلسفة الشكلية الخارجية» للآيات القرآنية. .

والتدبر هذا ينبغي أن يشمل المجالات التالية:

أ ـ التقديم والتأخير.

ب ـ الأفراد والتثنية والجمع.

جـ ـ المعلوم والمجهول.

د ـ وسائر الأشكال الأخرى..

وإليكم بعض النماذج..

ـ ١ ـ

يقول القرآن الكريم:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[1].

بينما يقول في آية أخرى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾[2].

(فلماذا في الآية الأولى قدم رزق المخاطبين على رزق أولادهم؟.

وفي الآية الثانية: قدم رزق الأولاد؟

هل جاءت المسألة عفوية، أو نوعاً من التفنن التعبيري؟ أم أن وراءها شيئاً آخر، وقد ترمز إلىٰ حقيقة علمية أو واقعية؟

فباختلاف العبارتين يختلف معنى كل آية؟

ـ: المعنى قد يكون في الجملة واحداً، ولكن في التفصيل ونوع المخاطب به يختلف.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥١

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣١.

لماذا؟ لأنك لو نظرت إلى عجز كل آية مع صدرها لوجدت أن العجز مناسب لذلك الصدر تماماً.

لأنه في الآية الأولى يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾.

فهذه العبارة «﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ توحي بأن الفقر موجود بالفعل.

وما دام الفقر موجوداً بالفعل فاهتمام الإنسان يكون برزق نفسه قبل أن يهتم برزق ولده، فهو يخاف أن يبقى جائعاً لو أراد أن يطعم أولاده. وهنا يطمئنه الله تعالى على نفسه ـ أولاً ـ ورزق أولاده ثانياً فيقول:

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ﴾ ـ يا أصحاب الإملاق ـ ﴿وَإِيَّاهُمْ﴾.

بينما في الآية الثانية يقول الله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ أي خوفاً من فقر يقع مستقبلاً، فكان الفقر غير موجود، ولكن الأب يخاف إن جاءه أولاد أن يأتي الفقر معهم فيقول له الله تعالى: لا.. أنا سأتكفل لهم برزقهم ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾.

إذن.. فالمعنى ليس واحداً في الآيتين، وإن كان يبدو في ظاهره واحداً.

لأن في قضية قتل الأولاد خوفاً من الفقر يكون المخاطب في كل آية مختلفاً عن الآخر.

فمرة يكون فقيراً بالفعل ـ وهنا يشغل برزقه قبل أن يشغل باله برزق ولده ـ فقتل الأولاد يكون نتيجة لوجود الفقر ـ وهنا تحمل العبارة ضماناً لرزقه أولاً، ثم رزق ولده ثانياً.

ومرة يكون غنياً، ولكنه يخاف أن يأتي الفقر إذا جاء الولد، فيكون

باله مشغولاً برزق ولده، فيقتله تحسباً من الفقر المتوقع بمجيء الولد، وهنا تعطيه الآية بشارة برزق الولد مع مجيئه ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾[1].

— ٢ —

يقول القرآن الكريم:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾[2].

هذه الآية الكريمة نزلت في شأن الإمام علي عليه السلام حينما تصدق بخاتمه وهو راكع ـ كما دلت عليه روايات الفريقين ـ.

وهذه الآية تثبت الولاية لكل من:

ـ الله سبحانه وتعالى.

ـ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.

ـ الإمام علي عليه السلام.

ولكن:

لماذا عبّرت الآية بكلمة «وليكم» ـ بصيغة الأفراد ـ؟ ولماذا لم تأت الآية هكذا: (إنما أولياؤكم الله ورسوله والذين أمنوا)؟!

والجواب:

أن التعبير بهذه الطريقة يشير إلى مفهوم هام هو: أن الولاية هي لله سبحانه فالله تعالى هو الولي الحقيقي الذي لا ولي سواه..

---

(١) القرآن كتاب حياة، ص١٤٩ ـ ١٥١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

أما ولاية النبي ﷺ والإمام عليه السلام. . فهي مستمدة من ولاية الله سبحانه. .

وهكذا. . تكون ولاية الله سبحانه. . ولاية بالأصالة. . وولاية النبي ﷺ والإمام عليه السلام ولاية بالتبع. .

ومن ذلك نستنتج: أن النبي والإمام ممثلان لله سبحانه في الأرض. . ولذلك فلا يحق لهما أن يقوما بسن الأحكام، وتشريع القوانين وفقاً لرغباتهما الشخصية وإنما يجب أن يكون ذلك بقراراً يهبط من السماء[1].

ـ ٣ ـ

يقول القرآن الكريم:

﴿يَهْدِي بِهِ﴾ (القرآن) ﴿اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2].

ـ: في هذه الآية نجد أن القرآن الكريم يأتي بصيغة الجمع في كلمتي ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ و﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾ بينما يأتي بصيغة الأفراد في قوله ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.. فلماذا؟

والجواب:

إن الصراط المستقيم هو صراط واحد. . ذلك لأن الحق واحد. .

---

(١) في هذا المجال يقول القرآن الكريم:
﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ (سورة الحاقة: ٤٤ ـ٤٧).

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٦.

من هنا: فإن الطريق إلى الحق هو واحد ـ أيضاً.. ولذلك يقول القرآن الكريم في آية أخرى:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[1].

وعلى العكس من ذلك «الظلمات» والطرق المعوجة.. فهي كثيرة ومتعددة..

أما بالنسبة إلى ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾:

فإن الحياة حقل ألغام، والمشاكل كثيرة: نفسية، وجسدية، واجتماعية، واقتصادية.. و.. والسلام هو التخلص من مجموعة هذه المشاكل، كما أن الصحة هي التخلص من مجموعة الأمراض..

ولأن التخلص من كل واحد من هذه المشاكل يحتاج إلى طريقة وأسلوب لذلك جاء التعبير القرآني بـ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ وليس «سبيل السلام».

ـــ ٤ ـــ

يقول القرآن الكريم:

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2].

وهنا نجد أن القرآن الكريم يبني فعل ﴿يُوقَ﴾ للمجهول.. فلماذا؟

والجواب:

أن «الشح» ملتصق بالنفس الإنسانية..

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٩.

فالإنسان ـ بطبيعته ـ يحب أن يستأثر بالمال ويكره أن يعطي للآخرين منه شيئاً . .

وهذا الإلتصاق الطبيعي يمكن أن نستفيده من إضافة «الشح» لـ«النفس» في الآية الكريمة . .

من هنا . . فإن من العسير على الإنسان أن يقاوم شحه بذاته . . لأنه يصعب عليه أن يقاوم طبيعته . . لذلك فهو يحتاج إلى إمداد غيبي ، ووقاية خارجية . . كما تعبر الآية بقوله ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾.

وبالطبع . . فإن هذه الوقاية الإلهية . . لا تهبط من السماء بدون مقدمات على قلب الإنسان . . وإنما يوفرها الإيمان الحقيقي بالله .

— ٥ —

يقول القرآن الكريم ـ بعد أن يتحدث عن الصبر على المصيبة ـ :

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾(١).

ولكن القرآن يضيف حرف «اللام» للتوكيد حينما يتكلم عن الصبر على أذى الآخرين فيقول :

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾(٢).

والسؤال : لماذا أضيفت حرف «اللام» في الآية الثانية؟

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٧.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٣.

الجواب ـ على ما قيل ـ:

إن الصبر على أذى الغريم الذي يستطيع الإنسان أن يرد عليه بأذى مثله يحتاج من الإنسان إلى عزم أكبر. . فالصبر هنا ليس كالصبر على مصيبة لا حيلة للإنسان فيها.

ومن هنا لم تجىء لام التوكيد في الآية الأولى، وجاءت في الآية الثانية[1].

---

(١) هذا الاستنباط مبني على إعادة «ذلك» في الآية الأولى إلى الصبر على المصيبة ـ كما هو مقتضى أحد التفسيرين ـ وليس إلى كل ما سبق.

خامساً
الارتباط والتسلسل

من الشروط التي يجب توفرها في الكلام ليكون بليغاً، وأنيقاً: الارتباط و(التسلسل)..

فالكاتب الذي يدع أفكاره يموج بعضها في بعض.. ويحشر المواضيع المختلفة بعضها في البعض الآخر حشراً..

والخطيب الذي يقفز من موضوع إلى موضوع.. كما يقفز الطائر من غصن إلى غصن.

والمتحدث الذي تتزاحم على دماغه الأفكار.. فيتحدث حولها جميعاً في وقت واحد.

كل هؤلاء.. ليسوا من البلاغة في شيء..

ولأن القرآن الكريم هو قمة البلاغة والفصاحة.. لذلك كان لا بد ـ على ما يراه بعض العلماء ـ من وجود روابط معينة بين آياته.. بل وخيط خفي يربط بين آيات السورة الواحدة ـ كما يربط حبات المسبحة بعضها ببعض: خيط خفي.. فتأمل.

والعلاقة بين الآيات قد تكون:

- علاقة المسبب بالسبب.

- أو علاقة التكامل.

- أو علاقة التعليل.

- أو علاقة التشابه.

- أو علاقة التفريع.

- إلى غير ذلك من أنواع العلاقة.

والسؤال الآن هو:

لماذا محاولة اكتشاف الروابط بين الآيات القرآنية؟ هل هناك ضرورة تفرض ذلك؟ أم أنه يمكننا أن نفهم كل آية بشكل مستقل، ومنفصل عن الآيات الأخرى؟

والجواب:

إن لاكتشاف الروابط بين الآيات القررنية فائدتين:

أحدهما: فهم المعنى الحقيقي للآية..

إن فهم المعنى الحقيقي لكثير من الآيات يتوقف على اكتشاف (الارتباط بين الآيات).. ومن هنا نجد: أن الذين حاولوا فهم القرآن بشكل تجزيئي أخطأوا في فهم الكثير من الآيات[1].

وثانيتهما: اكتشاف مفاهيم هامة.. من خلال ذلك.

---

(١) راجع - للمزيد من التفاصيل - الفصل الثاني من هذا الكتاب: «الفهم الشمولي للقرآن».

أما مجالات اكتشاف العلاقة فهي:

أولاً: العلاقة بين أجزاء الآية الواحدة.. وهذا ما نسميه بـ«فهم الارتباط».

ثانياً: العلاقة بين الآيات ـ وهذا ما نسميه بـ«فهم التسلسل».

وفيما يلي.. بعض الصور الإيضاحية..

ـ ١ ـ

يقول القرآن الكريم:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾(١).

هذه الآية الكريمة تبين أن الجنة هي من نصيب أفراد ملامحهم كالتالي:

ـ إنهم هاجروا.

٢ ـ ولكن هذه الهجرة لم تأت عبثاً.. أو من أجل الراحة، أو السياحة.. بل لأنهم عملوا، وجاهدوا حتى اضطرتهم القوى المعادية للخروج:

﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٥.

٣ ـ وكانت هذه الهجرة عقيب تلقيهم الأذىٰ والاضطهاد.

﴿وَأُوذُواْ﴾.

٤ ـ وهذه المصاعب كلها لم تكن من أجل طموحات شخصية.. وإنما من أجل الله، وفي سبيله: ﴿فِي سَبِيلِي﴾.

٥ ـ وبعد أن سدت الأبواب كلها في وجههم هاجروا إلى المنفى.. ولكنهم لم يستسلموا في المنفى للهدوء والراحة، بل واصلوا مسيرة الجهاد والثورة: ﴿وَقَٰتَلُواْ﴾.

٦ ـ ثم.. لم يكن الهدف من القتال الحصول على مكاسب دنيوية أو شخصية.. فهم حاربوا بروحية المصمم على الموت.. حتى استشهدوا في هذا الطريق: ﴿وَقُتِلُواْ﴾.

والسؤال الآن: ما هي النتيجة؟

والجواب يفصله لنا القرآن حين يقول:

﴿...لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ ﴿وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

وكل ذلك: ﴿ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾.. أي جزاءاً لم يكن يعطي لهم إلا بذلك العمل..

إلا أن عطاء الله ليس عطاءاً عادياً.. أو محدوداً لأنه عطاء من الله ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾.

وربما لاحظ القارىء الكريم أن العلاقة بين أجزاء هذه الآية الكريمة هي علاقة «تكاملية».

ـــ ٢ ـــ

يقول القرآن الكريم:

﴿فَنَادَتْهُ﴾ (زكريا) ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾[1].

ربما يبين الإرتباط بين أجزاء هذه الآية على الشكل التالي:

لقد بشرت الملائكة نبي الله زكريا عليه السلام ـ بابنه يحيى عليه السلام وذكرت له ثلاث مواصفات:

١ ـ أن يكون المبادر إلى تصديق عيسى المسيح عليه السلام.

٢ ـ ولكن ذلك لا يعني: أنه سيكون فرداً عادياً مثل سائر المؤمنين بالمسيح عليه السلام.. كلا! إن له دوره الهام، وشخصيته المتميزة: «وسيداً».

٣ ـ الوجهاء والسادة عادة يستغلون مراكزهم لإشباع غرائزهم.. وإرواء شهواتهم..

ولكن يحيى عليه السلام ليس فقط يتجنب ذلك.. وإنما أيضاً: يحصر نفسه عن اللهو البريء.. والشهوات المحللة: «وحصوراً»[2].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٩.

(٢) قال في الصافي: «مصدقاً بكلمة من الله يعني عيسى.. وسيداً: يسود قومه.. ويفوقهم.. وحصوراً: مبالغاً في حصر النفس عن الشهوات والملاهي، روي أنه مر في صباه بصبيان فدعوه إلى اللعب فقال: ما للعب خلقت، وعن الصادق عليه السلام: هو الذي لا يأتي النساء».

(الصافي ـ المجلد الأول ـ ص٢٦٠) وربما يقال أن تفسير الحصور بعدم الزواج هو من باب المصداق.

٤ ـ وبعدئذ: يبلغ قمة الكمال الإنساني.. فيصبح «نبياً من الصالحين».

.. وهل هنالك أعظم من هذه البشارة؟!

ـــ ٣ ـــ

يقول القرآن الكريم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾[1].

في هاتين الآيتين الكريمتين مبحثان:

١ ـ علاقة «ذرية بعضها من بعض» بما سبق.

٢ ـ علاقة ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بما سبق.

أما بالنسبة للمبحث الأول:

فيبدو أن قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾ بمنزلة التعليل للاصطفاء العمومي الذي شمل «آل إبراهيم» و«آل عمران».. فهي ذرية متماثلة.. وبعضها يشبه البعض في صفات الفضيلة والكمال.. ومن هنا كان اختيار هاتين الاسرتين «اختياراً مجموعياً»... بينما كان اختيار «آدم» و«نوح» اختياراً فردياً حيث فقدت ذرياتهما تلك المواصفات.

أما بالنسبة إلى المبحث الثاني:

فإن قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بمنزلة التحليل لأصل

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٣٣ ـ ٣٤.

«الإصطفاء». فالاصطفاء الإلهي ليس اصطفاءاً كيفياً.. بل هو اصطفاء دقيق ـ يكفي في دقته: إن الله «السميع» «العليم» هو الذي يقوم به..

ومن هنا نستنتج:

أن اختيار الله لرسوله، وصفوته من خلقه.. إنما يعود إلى مؤهلات وكفاءات توفرت فيهم.. وليس اختياراً فوضوياً، أو عشوائياً[1].

ـ ٤ ـ

يقول القرآن الكريم:

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾[2].

ـ: ما هي العلاقة بين قوله: ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ وقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾؟

والجواب:

إنها علاقة سببية ـ بمعنى: أن أتباع الهوى هو السبب وراء الكفر بيوم القيامة..

إن أغلب الذين لا يؤمنون بالآخرة لا ينطلقون في موقفهم هذا من «شبهات عقلية».. بل من «شهوات نفسية»..

---

(١) قال في الصافي: («والله سميع» بأقوال الناس «عليم» بأعمالهم، فيصطفي من كان مستقيم القول والعمل»).

(الصافي ـ المجلد الأول، ص٢٥٧).

(٢) سورة طه، الآيتان: ١٥ ـ ١٦.

إنهم يجدون أن الإيمان بالآخرة يعني الحجر على أهوائهم الطائشة. . ولذلك يريحون أنفسهم برفض الآخرة من الآساس.

وربما كان في إتيان لفظة «اتبع» بصيغة الماضي. . مع أن المعطوف عليه وهو ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ قد أتى بصيغة المضارع.. ربما كان في ذلك إشارة إلى تقدم مرحلة «أتباع الهوى» على «إنكار الآخرة».

ـــ ٥ ـــ

يقول القرآن الكريم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[١].

هنالك ثلاثة حواجز تقف أمام إنزال العقوبة بالمتمردين. . وهي:

١ ـ الضعف. . فعندما يكون الفرد ضعيفاً. . وعندما تكون الدولة ضعيفة. فإنهما لن يستطيعا ـ بالطبع ـ عقاب المتمردين.

٢ ـ الشفقة المفرطة. . فقد يكون الفرد قوياً إلا أن شفقته تكون حاجزاً أمام عقاب من يستحق العقاب. .

مثل الآباء الذين تغمرهم العاطفة أكثر من اللازم. . فيدعون أبناءهم يفعلون ما يشاؤون. . من دون أن يقوموا بتأديبهم.

٣ ـ الجهل. . وهو قد يكون: جهلاً بوقوع الجريمة. . أو جهلاً بالذين ارتكبوا الجريمة. .

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٤ ـ ٥.

وطبعاً في هذه الحالات لن يستطيع الفرد ـ أو الدولة أن يقوما بأي إجراء مضاد.

أما الله سبحانه وتعالى فلا تقف أمامه هذه الحواجز ـ كما تشرحه لنا هاتان الآيتان ـ فهو:

١ ـ العزيز.. أي القوي الغالب الذي لا يعجزه شيء.

٢ ـ ذو انتقام.. فهو ينتقم من المتمردين والظالمين.. وليس رحمة مطلقة، كما يتصوره البعض أنه «أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة» ولكنه ـ أيضاً ـ: «أشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة» ـ كما جاء في دعاء الافتتاح ـ.

٣ ـ وهو مطلع على كل شيء.. ولا يمكن أن يفلت شيء من علمه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾.

إذن فليحذر الكفار.. وليستعدوا لذلك اليوم الرهيب.. حيث ينتظر الذين كفروا بآيات الله: عذاب شديد.

ـ ٦ ـ

يقول القرآن الكريم:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ٢٦ ـ ٢٨.

في النظرة العابرة قد يبدو وجود فجوة بين الآيتين الأوليين اللتين تتحدثان عن سلطة الله. . وبين الآية الأخيرة التي تنهي المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء وأنصاراً. ولكن الواقع: أن الإرتباط بين هذه الآيات قوي جداً. . ولتوضيح هذا الإرتباط نذكر ما يلي:

هنالك بعض المؤمنين ـ من ضعاف الإيمان ـ يمدون الجسور بينهم وبين الجهات المضادة. . ويقيمون معها علاقات متينة. . وذلك يعود إلى أن هؤلاء يتصورون أن التحالف مع هذه الجهات سوف يمنحهم بعض المكاسب الدينية التي يلهثون وراءها.

ولمواجهة هذا الطراز. . يؤكد القرآن الكريم: أن الله سبحانه هو المتصرف في الكون وهو المتصرف في الحياة. .

إن كل شيء يرتبط بإرادة الله:

فالملك، والعزة، والرزق، والامتيازات الدنيوية الأخرى. . كلها بيد الله تعالى. . وليست بيد أي واحد من المخلوقين. .

إذن. . فما بال هؤلاء. . يبحثون عن هذه الأمور عند غير الله؟!

سادساً
التصنيف

والتصنيف يعني: تقسيم ما ورد في الآيات القرآنية.. وفقاً للأبعاد الزمنية، أو المواقف الإجتماعية، أو الصفات النفسية.. أو غير ذلك.

والمثالان التاليان كفيلان بتوضيح جانب من ذلك:

— ١ —

يقول القرآن الكريم:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾[1].

في البداية.. يقرر القرآن مبدأ «التوحيد» ـ القاعدة الأساسية التي يقوم على أساسها الإسلام كله.

ثم يبين القرآن.. أن هنالك عدوين للتوحيد:

أ ـ الأهواء والشهوات النفسية والأصنام التي تتخذ آلهة مع الله...

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

وفي ذلك يقول: ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

ب ـ الأصنام الإجتماعية.. والطواغيت.. التي تتخذ شركاء مع الله.. وفي ذلك يقول: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

وهكذا.. يجب أن لا يشرك الإنسان مع الله «شيئاً» ولا «شخصاً» حتى يكون موحداً حقيقياً.

ـ ٢ ـ

يقول القرآن الكريم:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾[1].

في هذه الآية يستعرض القرآن الكريم دليلين يعتبران من أهم الأدلة على وجود الله:

أ ـ دليل «الوجود».

إن وجود ساعة يدوية صغيرة ـ يدل على وجود خبراء، ومعامل، وتخطيط.. فكيف بالأرض والسماوات العظيمة؟

ب ـ دليل «الحركة».

إن تحرك عقارب تلك الساعة اليدوية، ودورانها بشكل منتظم يكشف عن وجود «محرك» وذلك لأنه من غير المعقول أن تحدث الحركة من تلقاء نفسها..

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.

وإذا كان ذلك أمراً طبيعياً في تحرك ساعة يدوية.. فكيف بـ«اختلاف الليل والنهار».

وهكذا ينهض كل من (الوجود) و(الحركة) دليلاً على وجود الله تعالى.

هذه كانت بعض عناصر (منهج التدبر القرآني).. وظلت هناك عناصر أخرى ـ مثل (الحكمة) و(التصوير) و(المفارقات) وغير ذلك ـ تركناها في هذا الكتاب وسنتحدث عنها في مجال آخر بإذن الله.

شروط التدبر في القرآن

لكي يكون التدبر في القرآن: مثمراً ومفيداً.

ولكي يكون: متكاملاً، وسليماً..

لا بد أن تتوفر مجموعة من الشروط في من يتدبر في آيات القرآن الكريم.. والشروط هي كالتالي:

١ ـ الملاحظة العلمية الدقيقة..

إن قسطاً كبيراً من التقدم العلمي الحديث يعود إلى «روح البحث والملاحظة» التي توفرت في هذا العصر..

فربّما كان الرجل القديم يمر على ظواهر طبيعية كثيرة دون أن يفكر فيها، ليكتشف القوانين الكامنة وراءها.. بل كان يمر عليها مرور الكرام..

بينما امتلك الإنسان ـ في بدايات العصور الحديثة روح البحث العلمي والملاحظة الدقيقة.. فبدأ يحقق في كل شيء في هذا الكون.. وتوصل من خلال ذلك إلى اكتشافات هائلة[1].

---

(١) لمدة طويلة من الزمن كان الأقدمون يرون الثمار تتساقط على الأرض.. وكذلك جميع الأجسام التي ترمى في الفضاء.. ولكنهم كانوا يعتبرون ذلك أمراً بديهياً لا يحتاج إلى

و«التدبر في القرآن» لا بد أن تتوفر فيه «الملاحظة الدقيقة» حتى يكون مفيداً، ومثمراً.. وذلك بأن يطرح الإنسان أسئلة مختلفة على نفسه حول مختلف الظواهر القرآنية: لماذا جاءت الكلمة هنا بشكل، وجاءت في مكان ثان بشكل آخر(٢)؟

لماذا تقدمت هذه الكلمة على تلك(٣)؟ ما هي الحكمة في إنزال العقاب أو الثواب ـ بأسلوب معين(٤)؟. وهكذا... وهلم جرا..

إن الانتباه إلى أمثال هذه الملاحظات يضع الإنسان على بداية الطريق لفهم قرآني متين.

ولكن ذلك لا يكفي.. إذ يجب أن يعقب «الملاحظة العلمية» شرط آخر هو:

٢ ـ التروي والأناة..

فبعد أن تقودنا الملاحظة العلمية إلى طرح مجموعة من التساؤلات

سؤال أو بحث. ولكن اسحاق نيوتن شاهد تفاحة تسقط من شجرة فاستلفتته هذه الظاهرة وأخذ يفكر مع نفسه: لماذا هبطت هذه التفاحة إلى الأرض؟ ولم تقف في مكانها، أو تصعد إلى السماء؟!

وكانت هذه الملاحظة بداية بحث دقيق انتهى إلى اكتشاف «نيوتن» لقانون «الجاذبية».

(٢) مثلاً يستخدم القرآن كلمة نزل ـ بالنسبة إلى القرآن فيقول: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ ويستخدم كلمة أنزل بالنسبة إلى التوراة والإنجيل فيقول: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ (سورة آل عمران: ٣).

(٣) مضى في الفصل السابق بعض الأمثلة على ذلك.

(٤) مثلاً: لماذا عاقب الله بني اسرائيل بالتيه في الأرض أربعين سنة؟ (سورة المائدة: ٢٦) ولماذا تكوى جباه وجنوب وظهور الذين يكنزون الذهب والفضة؟ (سورة التوبة: ٣٥) ولماذا جاء بأس الله بياتاً أو هم قائلون؟ (سورة الأعراف: ٤) وهكذا..

حول الآيات القرآنية.. علينا أن نبدأ تفكيراً معمقاً للوصول إلى الإجابة..

إن الفكر الإنساني يشبه إلى حد ما أشعة الشمس.. التي توجد في كل مكان، ولكنها لا تستطيع أن تحرق ورقة واحدة. ولكن: عندما تركز هذه الأشعة من خلال زجاجة مقعرة فإنها تستطيع أن تقوم بعملية الإحراق.

وهكذا الفكر عندما يتركز على نقطة معينة..

وليس من المهم أن تكون «كمية» أفكار الإنسان كثيرة.. المهم: أن تكون «كيفيتها» ممتازة وجيدة..

وهنا نذكر ملاحظة هامة هي:

في بعض الأحيان لا يصل الإنسان إلى أجوبة للتساؤلات المطروحة حول الظواهر القرآنية.. وفي هذه الحالة لا يجوز أن يصاب باليأس، بل عليه أن يواصل التفكير وكثيراً ما يعثر على الإجابة: اليوم ـ أو غداً.

٣ ـ عدم التسرع في تقبل الأفكار..

إن «للفكرة» في بدايتها بريقاً خاصاً لا يقاوم..

ومن هنا: نجد الكثيرين يبادرون إلى تقبل الأفكار بمجرد أن تلوح لهم من بعيد.. من دون أن يحققوا في مدى صحتها. أو سقمها..

ولذلك فإنهم كثيراً ما يجدون أنفسهم، وقد سقطوا في الضلال والإنحراف.. ولكن: بعد خراب البصرة ـ تماماً: كما تسقط سيارة مسرعة في الهوى العميقة، ثم لا تستطيع منها خلاصاً..

وهنا.. نخص بالذكر: ضرورة الحذر ـ الأكثر من التسرع في تقبل نوعين من الأفكار ـ خلال التدبر في القرآن الكريم ـ:

أ ـ الأفكار الجاهزة.. ونعني بها تلك الأفكار المصبوبة في قوالب لطيفة، وظريفة..

إن على الإنسان أن يهتم بمضمون الفكرة ومحتواها.. وليس بشكلها الخارجي.. وفي سبيل ذلك لا بد من التفكير الدقيق، والمعمق.

ب ـ الأفكار الشخصية..

إن الإنسان «يحابي» ذاته، ويتحيز لها.. ولذلك فإنه يتسرع في قبول ما أبدعه عقله وتفكيره.. دون أن يفكر جدياً في الأمر.. ودون أن يرى جوانب القضية المختلفة..

من هنا.. كان على الإنسان أن «يتهم» ما خطر على قلبه.. بمعنى أن لا يتقبله بسرعة.. بل يفكر فيه بدقة.. فإن كان حقاً قبله، وإنه كان باطلاً طرحه بعيداً.

٤ ـ التتلمذ على يد القرآن..

فعلى الإنسان أن يكون التلميذ المتواضع أمام القرآن.. عليه: أن يسيّر نفسه وفق ما يريده القرآن.. لا أن يسير القرآن وفق ما يريده هو.. عليه أن يحكم القرآن في أفكاره ورؤاه.. وليس العكس.

ومن دون ذلك.. سيكون مصير الإنسان الضلال والإنحراف[(١)].

---

(١) سبق الحديث ـ حول هذا الموضوع في فصل «وماذا نصنع بهذه الشبهات»؟

٥ ـ الرجوع إلى المصادر.. وهي: اللغة ـ والتفاسير ـ وروايات الأئمة الطاهرين عليهم الصلاة والسّلام..

٦ ـ الثقة بالنفس.. فعلى الإنسان ـ خلال تدبره في القرآن الكريم ـ أن لا يستصغر ذاته، ولا يحتقر أفكاره.. وأن لا يسمح لنفسه بالذوبان في أفكار الآخرين وآراءهم..

إن آراء المفسرين السابقين قد تكون ضوءاً على الطريق.. ولكنها لا يجوز أن تقفل أبواب التفكير أمام الفرد.. وتصيب دماغه بالتحجر والجمود..

وبعد الثقة بالنفس يأتي دور:

٧ ـ الإبداع..

فعلى الإنسان أن يربي عقليته على «الإبداع».. ويحاول أن يستنبط أفكاراً جديدة ورؤى مبتكرة.. وذلك ضمن حدود الدين.. وليس خارجاً عنها، لأن ذلك يعني «البدعة» المنهي عنها في الشرع..

ولنعلم: أن التطور الثقافي، والحضاري، والصناعي.. إنما توفر بفضل أصحاب العقول المبدعة.. فلنحاول أن نكون منهم؟!

وأخيراً: نؤكد ـ من جديد ـ على أن استنباط الأحكام الشرعية ـ ونحوها ـ من القرآن الكريم يتوقف على «خبروية» خاصّة، كما في العلوم الأخرىٰ، فيجب الرجوع في ذلك إلى أهل الخبرة ـ وهم المجتهدون الجامعون للشرائط ـ وفي غير هذه الحالة يمكن أن يستنبط الإنسان مفاهيم خاطئة، فيضل.. ويضل..

الفصل الثاني

الفهم الشمولي للقرآن

الفهم التجزيئي للقرآن

النظرة النصفية إلى الشيء ـ أي شيء كان ـ لا تعكس حقيقة ذلك الشيء ـ ككل ـ. وذلك لأن ـ «النصف» سيظل نصفاً، ومن هنا.. فهو ليس مخولاً: أن يحكم على الكل.

بل: إن النظرة النصفية قد تجني أحياناً على الكل.. وتحول الأمر إلى ضده.. فاللوحة الزيتية الجميلة التي رسمتها يد فنان ماهر.. قد تتحول إلى منظر بشع عندما نغطي نصفها بالمنديل.

والطبيب الذي لم يستوعب إلا نصف الطب.. قد يقع في أخطاء قاتلة.. تلقي بالذين يراجعونه.. بين أنياب الموت. ولذلك قيل (أحياناً: يكون الجهل المطلق خيراً من الفهم الناقص)!

وعندما نجزىء كلمة (لا إله إلا الله) ونقتصر على المقطع الأول.. فإن شعار الإيمان هذا يتحول إلى كلمة كفر!

وهكذا يكون نصف الشيء.. ضد ذات الشيء. في كثير من الأحيان..

ولقد أصاب «القرآن الكريم» ما أصحاب غيره.. من «الفهم النصفي» و«النظرات التجزيئية».. فتحول إلى أشلاء مبعثرة.. ومقاطع

متفرقة.. لا يرتبط أحدها بالآخر.. بل ويتناقض بعضها مع البعض الآخر ـ أحياناً ـ!

وماذا يحدث.. عندما نأخذ الجسم الحي.. ونحوله تحت ضربات المبضع.. إلى أجزاء متفرطة؟! إلا يعني ذلك.. تعطيله عن العمل؟!

هذا هو ـ بالضبط ـ ما حدث لـ«القرآن الكريم» حينما فرقناه شيعاً.. وفصلنا بين آياته!

ورغم أن الأئمة الطاهرين ـ عليهم أفضل الصلاة والسلام ـ أكدوا على ضرورة الفهم الشمولي للقرآن.. فقالوا:

«إن القرآن يفسر بعضه بعضاً».

وقالوا كذلك: «يشهد بعضه على بعض وينطق بعضه ببعض».

رغم ذلك.. فإن البعض أخذوا يفهمون الآيات بشكل مجزأ.. بعيداً عن الآيات الأخرى.. بل ـ في بعض الأحيان ـ أخذوا يجزئون الآية الواحدة.. لكي يستنبطوا منها مفاهيم ما أنزل الله بها من سلطان.

وقد تجلى «الفهم التجزيئي» للقرآن.. في المظاهر التالية:

(١)

فصل الجملة القرآنية عن السياق

للسياق: أثر كبير في الدلالة على مقصود المتكلم. . ونقصد بـ«السياق» الجو العام الذي يحيط بالكلمة. وما يكتنفها من قرائن وعلامات. .

إن الكلمة الواحدة والجملة الواحدة قد تحمل مدلولين متناقضين ـ تماماً ـ دون أن تختلف الكلمة في بنائها الداخلي. . وإنما الذي تغير هو «السياق» والقرائن المحيطة. .

فقد يقول الأب لأبنه (افعل الأمر الفلاني) وهو يقصد المعنى الظاهري لهذه الكلمة. . وقد يستخدم نفس الكلمة ويقصد بها التهديد. . الذي نستطيع اكتشافه من خلال القرائن. . وهنا: ينقلب معنى (افعل) إلى معنى مناقض تماماً هو (لا تفعل)!

وهذا هو ـ بالضبط ـ ما ينطبق على القرآن الكريم. . فقد يستخدم القرآن صيغة الأمر ويقصد بها مدلولها الظاهر. . عندما يقول: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾[١].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٨

وقد يقصد بها الإباحة عندما يقول: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾[1] عقيب الحظر في قوله: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾[2].

وقد يقصد التهديد عندما يقول: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾[3].

وقد يقصد التعجيز والتحدي عندما يقول: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[4] أو عندما يقول على لسان نبي الله هود عليه السلام مخاطباً قومه الكافرين: ﴿...فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾[5].

وهكذا.. وهلم جرا..

لقد استخدمت هذه الآيات جميعاً في صيغة الأمر: (أقم ـ فاصطادوا ـ فاعبدوا ـ فأتوا ـ فكيدوني).. فما الذي جعلها تعطي مدلولات مختلفة ـ بل ومتناقضة، أيضاً؟

إنه السياق القرآني، والقرائن الخارجية..

ونحن نجد أن المسلمين الأولين ربّما كان يستطيعون أن يحددوا مدلول كلمة معينة، أو آية معينة في القرآن من خلال سياقها العام..

ففي الحديث: أن أحد الصحابة قرأ على المنبر قوله تعالى ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾[6].

ثم أردف: كل هذا عرفنا فما الأب؟ ثم حرك عصا كانت في يده وقال: هذا لعمر الله هو التكلف، فما عليك أن لا تدري ما الأب؟

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.
(٢) راجع الكتب الأوصولية في مبحث (الأمر عقيب الخطر).
(٣) سورة الزمر، الآية: ١٥.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٣.
(٥) سورة هود، الآية: ٥٥.
(٦) سورة عبس، الآيات: ٢٧ ـ ٣١.

وأضاف موجهاً خطابه إلى الجماهير: اتبعوا ما بين لكم هداه من الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه![1].

وقد نقل أن علياً عليه السلام جاء بعد ذلك وقال:

إن معنى اللفظ موجود في الآية ذاتها، لأن الله يقول: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ٣٢﴾ فالفاكهة لكم، والأب لانعامكم[2].

وهكذا كشف الإمام علي عليه السلام للناس معنى الأب ـ من خلال السياق القرآني.

وفي حديث آخر:

أن عمر مر يوماً بشاب من فتيان الأنصار وهو ظمآن، فاستقاه، فخلط له الفتى الماء بعسل وقدمه إليه ـ فلم يشربه وقال: إن الله تعالى يقول: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾.

فقال له الفتى: إنها ليست لك ولا لأحد من أهل القبلة. أترى ما قبلها ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[3] فقال عمر: كل الناس أفقه من عمر[4]!.

لقد تصور عمر أن هذه الآية تنهي المؤمنين عن تناول الطيبات.. وتدعوهم لتأجيلها إلى الآخرة.. وتؤكد أن الذين يعجلون بالطيبات في هذه الحياة ليس له منها نصيب في الآخرة..

وكان هذا التصور: نابعاً من تجزيئه للآية الكريمة.

---

(١) الغدير، ج٦، ص٩٩.

(٢) بحوث في القرآن الحكيم، ص٤٠.

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٢٠.

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ص٦١، طبعة «دار إحياء التراث العربي».

ولكن الفتى الأنصاري استطاع أن يفهم أن المراد (أنه يقال للكافرين حين عرضهم على النار لقد أنفذتم الطيبات التي [كنتم] تلتذون بها في حياتكم الدنيا [والمراد بالطيبات: المعاصي والذنوب ولذلك عبر القرآن بـ«طيباتكم»] فلم يبق لكم شيء تلتذون بهم في الآخرة)[1].

ولم يكن الأنصاري ليستطيع أن يدرك هذا المعنى.. إلا من خلال ملاحظته لسياق هذه الآية.

هذا من جانب:

ومن جانب آخر.. استطاع بعض المسلمين أن يكتشفوا ترابط بعض الآيات.. من خلال ملاحظة السياق القرآني.

لقد سمع أحد العرب رجلاً يتلو آية هكذا:

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾.

فقال له الأعرابي: أخطأت.

قال: وكيف؟

قال: إن المغفرة والرحمة لا تناسبان قطع يد السارق.

فتذكر الرجل الآية وقال: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

فقال الأعرابي: نعم، بعزته أخذها، وبحكمته قطعها[3].

من كل ذلك: نستطيع أن نكتشف: أن «السياق القرآني» هو عامل مهمّ في فهم القرآن الكريم عندما يكون مؤشراً في صناعة الظهور اللفظي

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج١٨، ص٢٠٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٨.

(٣) القرآن كتاب حياة، ص٦٧ ـ ٦٨.

للكلمة أو الجملة، وأن المسلمين، الأولين استطاعوا أن يستفيدوا من هذا العامل في فهم، أو تفهيم الآية القرآنية.

وجاءت أجيال أخذت تفصل بين الجملة القرآنية وبين السياق.. لتستنتج من ذلك ـ عن علم أو جهل ـ مفاهيم تتنافى مع أبسط مبادىء الدين!

هذه الأجيال أخذت تفسر القرآن على طريقة من يستدل على عدم وجوب الصلاة بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾!

وقد ترتب على ذلك مضاعفات في مجالات مختلفة.. نذكر منها ما يلي:

١ ـ مجال العمل والتحرك.

٢ ـ مجال العقيدة والإيمان.

٣ ـ مجال فهم (الكلمة) القرآنية..

ولكن: كيف؟! دعنا نعرف..

أولاً:

في المجال العَمَلي

يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[١].

هذه المقطوعة من الآية أصبحت شعاراً للمتقاعسين الذين يريدون التهرب من مسؤوليات العمل، والتضحية.

ولكن: دعنا نلقي نظرة على سياق هذه الآية لكي نفهم ما هو المقصود؟!

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

يقول القرآن الكريم:

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾[1].

فقد جاءت هذه الآية في سياق آيات تحث المؤمنين على الجهاد في سبيل الله.. ذلك لأن الجهاد كما يحتاج للرجال يحتاج للمال.. ورغم أن كل مسلم مجاهد كان يجهز نفسه بعدة القتال، ومركب القتال، وزاد القتال.. إلا أن كثيراً من فقراء المسلمين الراغبين في الجهاد لم يكونوا يجدون ما يزودون به أنفسهم، ولا ما يتجهزون به من عدة الحرب، ومركب الحرب، وكانوا يجيئون إلى النبي ﷺ يطلبون منه أن يحملون إلى ميدان المعركة البعيد، الذي لا يبلغ على الأقدام، فإذا لم يجد ما يحملهم عليه ﴿تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ كما حكى عنهم القرآن الكريم.

ومن أجل هذا كثرت التوجيهات القرآنية إلى الإنفاق في سبيل الله. الإنفاق لتجهيز الغزاة. وصاحبت الدعوة إلى الجهاد دعوة إلى الإنفاق في معظم المواقع.

وعقيب هذه الدعوة يؤكد القرآن على أن عدم الإنفاق في سبيل الله ـ يعني «إلقاء النفس في التهلكة» ذلك أن البخل يسبب: تضعضع الجبهة الداخلية للمؤمنين، وبالتالي: انتصار الأعداء عليهم وإبادتهم مادياً ومعنوياً.

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٩٣ ـ ١٩٥.

ثم يطالب القرآن الأمة المؤمنة بالمزيد من البذل والعطاء حين يقول: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

إذن.. فالسياق ـ هنا ـ يؤكد أن المراد من التهلكة هي (التهلكة التي تنبع من عدم الانفاق) فتأمل.

ثانياً:
في المجال العقائدي:

يقول الله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[1].

من خلال هذه المقطوعة من الآية.. وآيات أخرى غيرها.. يحاول «التجزيئيون».. أن يفهموا أن (لله) تعالى وجهاً، وعيناً، ويداً، وساقاً.. إلى غير ذلك من الأعضاء والجوارح..[2].

ولكن: هل هو صحيح ما يفهمون؟! قبل أن نجيب على هذا السؤال

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

(٢) ويقول شاعرهم في ذلك:

لله وجه لا يحد بصورة ... ولربنا عينان ناظرتان!
وله يدان ـ كما يقول الهنا ... ويمينه جلت عن الإيمان...
والله يضحك لا كضحك عبيده ... والكيف ممتنع على الرحمان
ولله ينزل كل آخر ليلة ... لسماءه الدنيا بلا كتمان
فيقول هل من سائل فأجيبه ... فانا القريب أجيب من ناداني

(راجع «التمهيد ج٣» ص٩٠)

بل لقد تطرف بعضهم حتى حكى الكعبي عنه: أنه كان يجوز الرؤية في دار الدنيا، وأن يزوروا الله ويزورهم: وحكي عن داود الجواربي أنه قال: «هو (أي الله) أجوف من أعلاه إلى صدره، مصمت (أي غير مجوف) ما سوى ذلك، وأن له وفرة (الشعر المتدلي) كما أنهم رووا «أن الله اشتكى عينيه فعادته الملائكة»! وأنه «بكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه» و«أن العرش ليئط من تحته (أي يصوت ويهتز) أطيط الرحل الجديد» (تعالى الله سبحانه عن ذلك علواً كبيراً) (راجع التمهيد ـ ج١، ص٦٤ ـ ٦٥).

لا بد أن نوضح حقيقة هامة هي: أن لليد استعمالات مختلفة.. بعضها حقيقي.. وبعضها غير حقيقي.. والسياق الظهوري هو الذي يستطيع أن يبين المعنى المقصود.

مثلاً؛ إذا سمعت شخصاً يسأل زميله قائلاً: ما فعلت الشرطة بفلان؟ فأجاب: غلوا يديه وراء ظهره.. وأدخلوه السجن.. فما الذي تفهم من كلمة (اليد) هنا؟ لا شك أنك تفهم المعنى الحقيقي لليد.. أي تلك القطعة المكونة من لحم وعظم والمتصلة بالذراع.

أما لو سأل أحدهما من الآخر: عن جود فرد معين.. فأجابه: بأن يده مغلقة.. أو مغلولة إلى عنقه.. فهل تفهم من ذلك أن هنالك مرضاً في يديه لا يدعه يفتحها.. أو أن هنالك حبلاً يربط يديه إلى عنقه؟

أو عندما يقول القرآن: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾[1] فهل تجمد على ظاهر اللفظ، بعيداً عن الذوق العربي الرقيق.. وتجعل المعنى: ولا تشد يديك إلى رقبتك كالكسير، ولا تمدهما إلى طرفيك أفقياً ـ كلاعب رياضة؟! أم أنك تفهم أن «غل اليد إلى العنق» و«بسط اليد» تعبيران غير حقيقيّين يقصد منهما البخل والاسراف[2] وإذا اتضحت هذه الحقيقة نقول: إن سياق هذه الآية الكريمة يكشف لنا أن «اليد» هنا لم تستعمل بمعناها الحقيقي.. بل هي مجرد تعبير غير حقيقي..

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٩.

(٢) قال الزمخشري في الكشاف: «... حتى أنه يستعمل (أي مثل هذه التعبيرات غير الحقيقية) في ملك لا يعطي عطاءً قط ولا يمنعه إلا بإشادته من غير استعمال يد وبسطها وقبضها، ولو أعطى الأقطع (أي مقوطع اليد) إلى المنكب عطاءً جزيلاً لقالوا: ما أبسط يده بالنوال، لأن بسط اليد وقبضها عبارتان وقعتا متعاقبتين للبخل والجود» راجع الكشاف ـ المجلد الأول ـ ص٦٢٧ طبعة دار المعرفة ـ لبنان.

يقصد به التعبير عن مدى جود الله وكرمه.. في قبال أولئك اليهود الذين اتهموا الله بالبخل.. والذين جاءت هذه الآية الكريمة للرد عليهم.

والآن. . تعالوا نلقي نظرة «شمولية» على هذه الآية الكريمة:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾[1].

فماذا نفهم؟ هل نفهم المعنى الحقيقي لكلمة «اليد»؟

أم أننا نفهم المعنىٰ غير الحقيقي. . الذي يعني: الجود والعطاء؟!

. . الحكم متروك للقراء الكرام. .

ثالثاً:

في مجال فهم «الكملة القرآنية»:

يقول الله تعالى:

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾[2].

ربّما يرجّح كون «النجم» في هذه الآية الكريمة بمعنىٰ ما نجم أي طلع من النبات على غير ساق، وهو خلاف الشجر.

لأنّ هذا المعنى هو الذي ينسجم مع السياق القرآني. . فعندما نفسر «النجم» هنا بأنه ما لا ساق له من النباتات، يكون الارتباط واضحاً بينه وبين «الشجر». . باعتبار أن «النجم» هو النبات الضئيل و«الشجر هو النبات الكبير الحجم»، بعكس ما لو فسرنا النجم بـ(الكوكب) فتأمل.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

(٢) سورة الرحمن، الآيتان: ٥ ـ ٦.

إلى هنا . . نكون قد انتهينا من البحث الأول من بحوث «الفهم التجزيئي للقرآن» وكان يدور حول «فصل الجملة القرآنية عن السياق».

وتبقى ـ هنا ـ ملاحظتان.

الأولى: أن «السياق القرآني» ـ وإن كان عاملاً هاماً في فهمنا لمعاني القرآن.. إلا أنه يجب أن يسير جنباً إلى جنب مع العوامل الأخرى المساعدة على فهم الآيات الكريمة.. من «التفاسير» و«الروايات» و«موارد نزول الآيات» وما أشبه.

الثانية: في حالة تعارض الروايات الصحيحة مع «السياق القرآني ـ المتصور» تقدم الروايات بالطبع، وذلك لأن السياق لا يشكّل أكثر من «ظهور» للجملة، ومن الواضح أن الظهور يمكن التصرف فيه بالقرائن المنفصلة التي تكشف عن كون الإرادة الجدية غير مطابقة للإرادة الاستعمالية، وتفصيل الكلام في ذلك موكول إلى «علم الأصول».

(٢)

التجزئة الموضوعية

المشكلة الثانية التي يعاني منها بعض أبناء الأمة: هي «التجزئة الموضوعية» في فهم القرآن الكريم.

فهذه القطاعات تحاول أن تفهم كل آية.. آية.. من القرآن.. بشكل مستقل.. بعيداً عن فهم الآيات الأخرى.. وكأن كل آية عالم مستقل.. وقائم بذاته..

وقد ترتب على ذلك أمران:

١ ـ الفهم الخاطىء لبعض الآيات القرآنية.. فالقرآن «كائن حي» يرتبط بعضه مع بعض، ويتفاعل بعضه مع بعض.. ومن هنا لا يستطيع الفرد أن يفهم القرآن ـ بشكل سليم ـ إلا بعد أن يجمع بعضه مع بعض، ويلاحظ التفاعل، والارتباط فيما بين أجزائه المتفرقة.

ومن هنا جاء في الأحاديث:

ـ «إن القرآن يفسر بعضه بعضاً».

وجاء: «يشهد بعضه ببعض، وينطق بعضه ببعض».

لقد وجدت ـ على امتداد التاريخ الإسلامي ـ مذاهب كثيرة منحرفة مثل: «الصفاتية» و«الحشوية» و«المشبهة» و«الكرامية» و«الجبرية»[1] وغيرها.. وهذه المذاهب كانت تستند إلى بعد الآيات القرآنية في دعم أفكارها الخاطئة.. وكان الخطأ الذي ارتكبته هذه المذاهب ـ أو على الأصح: جزء الخطأ ـ هي «النظرة التجزيئية» إلى آيات القرآن. كانوا يجدون آية تتحدث في موضوع معين، وكان ظاهرها يعطي معنى معيناً.. فكانوا يتمسكون بذلك المعنى.. ضاربين بسائر الآيات الواردة في هذا الموضوع عرض الجدار!

هذا.. في الجانب العقائدي..

أما في الجانب العملي.. فقد أخطأ البعض في فهم بعض الآيات القرآنية.. التي تصوروها تدعو إلى الكسل، وإلى الجلوس في زوايا البيوت.. ذلك لأنهم نظروا إلى هذه الآيات نظرة «أحادية الجانب» ولم يجمعوها مع سائر الآيات القرآنية التي تدعو إلى العمل، والجهاد، والتحرك[2].

إذن..

فالنظرة التجزيئية إلى آيات القرآن الكريم تعني في كثير من الأحيان: فهم هذه الآيات بشكل خاطىء.

٢ ـ الفهم الناقص لـ«الموضوعات القرآنية»..

فالقرآن الكريم لم يجمع بشكل موضوعي.. أي لم يوضع كل

---

(١) للمزيد من التفاصيل راجع (التمهيد) ج٣، ص٥٦ ـ ٧٢.
(٢) بالإضافة إلى أنهم أخطأوا في فهم نفس تلك الآيات.

موضوع منه في فصل مستقل. . بل إن الآيات المتعلقة بموضوع واحد تتقاسمها عشرات السور. . ولذلك أصبح ضرورياً على كل من يريد أن يخرج بـ«رؤية قرآنية متكاملة» حول موضوع ما أن يمارس «النظرة الشمولية» للآيات المرتبطة بذلك الموضوع.

أما (التجزئة الموضوعية) فهي لا تعطينا إلا رؤية ناقصة. . بالإضافة إلى أننا نخسر بسبب ذلك الكثير من المعطيات التي يمنحنا إياها (الفهم الشمولي) حينئذ. . كما سنوضح ذلك فيما بعد.

والسؤال الآن هو:

ـ: كيف نقوم بـ«الفهم الموضوعي» للقرآن الكريم؟!

والجواب: أن العملية يجب أن تسير في أربعة مراحل:

١ ـ جمع الآيات القرآنية المرتبطة بالموضوع المقصود. . من مختلف السور القرآنية.

أما كيف يتم ذلك فعن أحد طريقين:

أحدهما: الكتاب الذي ألفه (جول لابوم) والذي نسق فيه الآيات حسب مواضيعها تحت عنوان «تفصيل آيات القرآن الحكيم»[(١)] مع ملاحظة ملحقة أيضاً.

ثانيهما: المعجم الذي وضعه (محمد فؤاد عبد الباقي) والذي تناول

---

(١) هذا الكتاب منقسم إلى (١٨) باباً.. وهي؛ التاريخ. محمد ﷺ. التبليغ. بنو إسرائيل. التوراة. النصارى. ما بعد الطبيعة. التوحيد. القرآن. الدين. العقائد. العبادات. الشريعة. النظام الإجتماعي. العلوم والفنون. التجارة. علم تهذيب الأخلاق. النجاح. . وتندرج تحت كل باب من هذه الأبواب فصول متعددة.

فيهم (الألفاظ) القرآنية على أسلوب المعاجم اللغوية تحت عنوان «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم».

وأسلوب الرجوع إلى هذا المعجم.. هو تجريد (الموضوع) المراد بحثه عن الزوائد الصرفية.. ثم البحث عنه في طيات هذا الكتاب.. فمثلاً: تبحث عن الزكاة في مادة «ز.ك.و» وعن الصلاة في مادة «ص.ل.و» وعن الصوم في مادة «ص.و.م» وهكذا وهلم جراً..

٢ ـ فرز الآيات.. وتصنيفها.. ووضع كل واحدة منها مع الآيات المماثلة لها.

٣ ـ ترتيب هذه المجموعات.. على حسب ما يقتضيه (الاطلاق والتقييد) و(العموم والخصوص) و(التقدم والتأخر) وغير ذلك..

٤ ـ وأخيراً.. استنباط «الرؤية المتكاملة ـ والنهائية» من خلال ذلك.

ولا ننسى أن نؤكد هنا ـ مرة أخرى ـ ضرورة الرجوع إلى التفاسير.. وإلى روايات المعصومين عليهم أفضل الصلاة والسلام.

وهنا: ينتصب سؤال.. ليقول:

ـ: ما هي صورة «الجمع» بين الآيات القرآنية؟!

والجواب: هنالك صور عديدة للجمع نذكر منها:

١ ـ «الجمع التفسيري».

٢ ـ «الجمع الترتيبي».

٣ ـ «الجمع الاستنباطي»..

٤ ـ «الجمع الموضوعي».

ولكن: كيف؟ دعنا نعرف..

أولاً:

الجمع التفسيري:

ويعني ذلك.. كشف المدلول الحقيقي للآية القرآنية من خلال آية أخرى تتعرض إلى الموضوع ذاته..

وهنا نستعرض بعض النماذج:

أ ـ يقول القرآن الكريم:

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾[١].

«ـ نحن نعرف منذ البداية أن لكل آية مفهوماً ومصداقاً.

«فمفهوم الصراط مثلاً واضح نعرفه من المعنى اللغوي للكلمة في لسان العرب.

«فالصراط بمعنى الطريق المعبد للسير.

«والمستقيم بمعنى المعتدل، وأقرب الطرق إلى المقصد.

«فمفهوم الآية ـ إذن ـ واضح لا غبار عليه.

«ولكن مصداق الآية غير واضح.

«فلا ندري ما هو الصراط المستقيم الذي يجب أن نسير عليه.

«ولا ندري من هم الذين أنعم الله عليهم، حتى نهتدي بطريقهم.

---

(١) سورة الحمد، الآيتان: ٦ ـ ٧.

«فغير واضح من الآية واللغة ولسان العرب: ما هو الصراط المستقيم؟!

«فماذا علينا أن نفعل؟!

«علينا أن نعرف ذلك من خلال الربط بين هذه الآية، والآيات الآخرى، ونكتشف مصداق الآية.

«فلنقرأ في (يس) آية ٦٠ قوله تعالى:

﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

«فنعرف أن الصراط المستقيم هو عبادة الله تعالى، والتزام منهجه في الحياة العملية والإجتماعية»..

«ونقرأ في آية أخرى قوله تعالى:

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾[1].

«فنعرف: أن المراد من ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ هم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون»[2].

ـ والآن.. لنتساءل من هم «الضالون»؟! من هم هؤلاء الذين ندعوا الله تعالى كل يوم عشر مرات ـ على الأقل ـ لكي يبعدنا عنهم؟!

ـ: من خلال مراجعة الآيات الأخرى.. نجد أن القرآن الكريم يحدد «الضلال» فيما يلي:

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٨.

(٢) القرآن كتاب حياة: ص٦١ ـ ٦٢.

١ ـ الكفر ـ بكافة أشكاله وألوانه ـ وفي ذلك يقول القرآن:

ـ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[(١)].

ـ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[(٢)].

ـ: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[(٣)].

٢ ـ التعدي على حقوق الآخرين. . وفي ذلك يقول القرآن:

ـ: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[(٤)].

٣ ـ الإنحراف ـ بكافة ألوانه وأشكاله. . وفي ذلك يقول القرآن:

ـ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[(٥)].

ـ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[(٦)].

وهكذا. . استطعنا أن نكتشف ـ من خلال الآيات الآخرى ـ أن المراد بـ«الضالين» هم كل المنحرفين فكرياً، والمنحرفين سلوكياً، والذين يتعدون على حقوق الآخرين. .

. . وهذا. . ما يطلق عليه «تفسير القرآن بالقرآن».

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٦.
(٢) سورة النساء، الآية: ١١٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٨.
(٤) سورة لقمان، الآية: ١١.
(٥) سورة ص، الآية: ٢٦.
(٦) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

ثانياً:

الجمع الترتيبي:

وذلك يعني: فرز مجموعة من الآيات.. وترتيبها ترتيباً منطقياً..

ولهذا النوع من «الجمع» معطيات وفوائد.. منها:

١ ـ حل التناقض المتوهم بين الآيات القرآنية..

ذلك أننا حين ننظر إلى الآيات بشكل غير منظّم فقد نتصور اختلافاً بين مفاهيم هٰذه الآيات.. ولكننا بعد تنسيقها وتنظيمها لا نجد أي اختلاف.. بل نجد الأمر من قبيل (الخصوص والعموم) أو (التقييد والإطلاق) أو ما أشبه ذلك.. ما نرى مثيلاً له حتى في كلماتنا اليومية.

٢ ـ فهم «مرحلية» هبوط الأحكام الآلهية..

ذلك: أن الأمر أو النهي عندما يتعلق بقاعدة أساسية من قواعد التصور الإيماني، أي بمسألة اعتقادية، فإن الإسلام يقضي فيها قضاءاً حاسماً منذ اللحظة الأولى.

ولكن: عندما يتعلق الأمر أو النهي بعادة وتقليد، أو بوضع اجتماعي معقد، فإن الإسلام يتريث فيه، ويأخذ المسألة باليسر والرفق والتدرج، ويهيء الظروف الواقعية التي تيسر التنفيذ والطاعة.

والآن.. إليكم المثال التالي (حسب ما يستفاد من بعض التفاسير):

في مسألة تحريم الخمر.. لم يكن الأمر أمر توحيد أو شرك. وإنما كان أمر عادة وألف.. والعادة تحتاج إلى علاج.. ولذلك تدرج القرآن من مرحلة إلى مرحلة.. حتى وصل إلى التحريم النهائي.

وقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام:

«ما بعث الله نبياً قط، إلا وفي علم الله تعالى أنه إذا أكمل له دينه كان فيه تحريم الخمر، ولم يزل الخمر حراماً، وإنما ينقلون من خصلة ثم خصلة».

«ولو حمل ذلك عليهم جملة لقطع بهم دون الدين».

وعنه:

«ليس أحد أرفق من الله تعالى، فمن رفقه تبارك وتعالى أنه ينقلهم من خصلة إلى خصلة، ولو حمل عليهم جملة (أي: مرة واحدة) لهلكوا»[١].

والآن.. لننظر كيف تدرج القرآن الكريم في تحريمه للخمر:

١ ـ في البداية... بدأ القرآن بتحريك الوجدان الديني، والمنطق العقلي في نفوس المسلمين وذلك ببيان أن الإثم في الخمر أكبر من النفع فقال:

﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[٢].

وفي هذا إيحاء بأن تركها هو الأولى.

٢ ـ ثم جاءت الخطوة الثانية بآية سورة النساء:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾[٣].

(١) الصافي ـ في تفسير القرآن: المجلد الأول ـ ص١٨٧ (الطبعة الخامسة).
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.
(٣) سورة النساء، الآية: ٤٣.

والصلاة في خمسة أوقات ـ أو ثلاثة ـ متقارب لا يكفي ما بينها للسكر والإفاقة! وفي هذا تضييق لفرص المزاولة العملية لعادة الشرب، ولكسر لعادة الإدمان التي تتعلق بمواعيد التعاطي، إذ المعروف أن المدمن يشعر بالحاجة إلى ما أدمن عليه من مسكر أو مخدر في الموعد الذي اعتاد تناوله، فإذا تجاوز هذا الوقت، وتكرر هذا التجاوز فترة حدة العادة، وأمكان التغلب عليها.

٣ ـ وبعدما تمت هاتان الخطوتان جاء النهي الحازم الأخير بتحريم الخمر في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾[1].

وعندئذ.. قال المسلمون: أجل! لقد انتهينا يا رسول الله!

ثم أخذوا يهريقون الخمور في الأزقة حتى جرت فيها!

ثالثاً:

الجمع الاستنباطي:

والجمع الإستنباطي يعني: الجمع بين آيتين من القرآن الكريم أو أكثر لاستنباط حكم تشريعي معين، أو فكرة معينة..

والتراث الذي خلفه لنا الأئمة الطاهرون عليهم الصلاة والسلام غني بهذا النوع من «الجمع» ولذلك فنقتصر في هذا الفصل على نماذج منه..

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٩٠ ـ ٩١.

أ ـ «. . عن الدؤلي قال:

رفع إلى عمر أمرأة ولدت لستة أشهر، فأراد عمر أن يرجمها[1].

فجاءت أختها إلى علي بن أبي طالب فقالت:

إن عمر رجم أختي، فأنشدك الله إن كنت تعلم أن له عذراً لما (أي: إلا) أخبرتني به.

فقال علي: إن لها عذراً.

فكبرت تكبيرة سمعها عمر ومن عنده. .

ثم انطلقت إلى عمر فقالت: إن علياً زعم أن لأختي عذراً.

فأرسل عمر إلى علي: ما عذرها؟!

قال: إن الله يقول:

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾[2].

وقال: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾[3].

وقال: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾[4] وكان الحمل هنا ستة أشهر[5].

---

(١) باعتبار أنها ولدت قبل إكمال تسعة أشعر من زواجها، مما أثار ريبة عمر في ارتكابها للفحشاء قبل زواجها.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.

(٤) سورة لقمان، الآية: ١٤.

(٥) فإذا كانت مدة الرضاع أو الفصال ـ لا فرق ـ حولين (أي أربعة وعشرين شهراً) وكانت مدة الحمل والفصال ـ معاً ثلاثين شهراً.. فالنتيجة هي: أنه يمكن أن تكون فترة الحمل ستة أشهر فقط.

قال الراوي: ثم إنها ولدت أخر لستة أشهر»[1].

وهكذا..

استطاع الإمام علي عليه السلام أن يبيّن للناس من خلال هذه الآيات التي قد لا يبدو عند النظرة العابرة وجود أي ترابط فيما بينها.. استطاع أن يبين لهم منها حكماً عظيماً من أحكام الإسلام، وأن ينقذ امرأة بريئة من حكم الرجم.

ب ـ «إن سارقاً اعترف على نفسه بالسرقة فأحضروه إلى مجلس (المعتصم) الملك العباسي، كي يجري عليه الحد، ولكن المعتصم لم يعرف حده، فأحضر فقهاء بغداد وفيهم (ابن أبي داود) والإمام العظيم (محمد بن علي الجواد عليه السلام.. فسألهم: من أين تقطع يد السارق؟

فقال (ابن أبي داود) من مفصل الكف واستدل بآية التيمم: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ﴾[2].

ولكن العلماء الآخرين أطبقوا على قطع اليد من المرفق مستدلين بآية الوضوء: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾[3].

كل ذلك والإمام الجواد عليه السلام ساكت لا يتكلم بشيء. حتى التفت إليه المعتصم قائلاً: ما تقول؟!

غير أن الإمام عليه السلام لم يك يريد الرد على هؤلاء.

فقال: قالوا وسمعت!

---

(١) راجع «الغدير» ج٦، ص٩٣ (الطبعة الثالثة).

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٦.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٩.

فتطلع المعتصم إلى رأي جديد يضمره الإمام عليه السلام، فألح عليه قائلاً: لا رأي لي عند هؤلاء.. بالله عليك إلا ما حكمت.

فقال الإمام عليه السلام: «إن النبي أمر أن توضع المواضع السبعة (التي منها الكفان) في السجود على الأرض. ويقول الله الحكيم: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾[1] فلا تقطع الكف التي هي من المساجد، (بل تقطع الأصابع الأربع فحسب»[2].

وهكذا..

استطاع الإمام الجواد عليه السلام أن يكشف حدود قطع يد السارق بالجمع بين آيتين كريمتين هما قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾.

جـ ـ عن علي بن يقطين: قال: سئل المهدي (الملك العباسي) أبا الحسن عليه السلام (أي: الإمام الكاظم) عن الخمر فقال: هل هي محرمة في كتاب الله؟ فإن الناس يعرفون النهي ولا يعرفون التحريم.

فقال له أبو الحسن عليه السلام: بل هي محرمة.

قال: في أي موضع هي محرمة ـ بكتاب الله يا أبا الحسن؟!

قال: قول الله تبارك وتعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[3].

فأما قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ فيعني الزنا المعلن، ونصب الرايات التي (كانت) ترفعها الفواجر في الجاهلية.

---

(١) سورة الجن، الآية: ١٨.

(٢) راجع: «العقوبات في الإسلام، ص٢٥ ـ ٢٦».

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٣.

وأما قوله ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ يعني: ما نكح من الآباء، فإن الناس كانوا قبل أن يبعث النبي ﷺ إذا كان للرجل زوجة، ومات عنها، تزوجها ابنه من بعده إذا لم تكن أمه، فحرم الله ذلك.

وأما ﴿ٱلْإِثْمَ﴾ فإنها الخمر بعينها، وقد قال الله في موضع آخر: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[١].

فأما الإثم في كتاب الله فهي الخمر. والميسر فهي النرد، وإثمهما كبير..

فقال المهدي: هذه والله فتوى هاشمية!»[٢].

رابعاً:

الجمع الموضوعي:

و«الجمع الموضوعي» يعني: فرز الآيات القرآنية التي تتحدث حول موضوع معين، وتصنيفها إلى مجموعات، وترتيب هذه المجموعات حسب تسلسلها المنطقي.. ومن ثم: استخراج الحكم القرآني النهائي حول ذلك الموضوع..

ويختلف «الجمع الموضوعي» عن «الجمع الإستنباطي» في نقاط كثيرة.. منها:

١ ـ «الجمع الإستنباطي» يتم عادة ضمن آيتين أو ثلاث.. فهو جمع محدود.. بينما «الجمع الموضوعي» يتم ـ عادة ـ ضمن مجموعة كبيرة من الآيات.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(٢) راجع «البرهان في تفسير القرآن المجلد الثاني، ص١٤ (الطبعة الثالثة) وكذلك أيضاً «الصافي في تفسير القرآن» المجلد الأول ـ ص١٨٨ (الطبعة الخامسة).

٢ ـ «الجمع الإستنباطي» تكون نتيجته ـ غالباً ـ حكماً شرعياً ـ بالمعنى المتداول لهذه الكلمة ـ. . بينما تتسع آفاق «الجمع الموضوعي» لتشمل كثيراً من القضايا: السياسية. والإجتماعية. والثقافية. . وغيرها. .

٣ ـ «الجمع الإستنباطي» يقتصر على فئة محدودة من «الراسخين في العلم» ـ باعتبار صعوبة استخراجه ـ بينما تفتح أبواب «الجمع الموضوعي» أو «الفهم الموضوعي» ـ لا فرق ـ لمجموعة أكبر.

والحقيقة أن «الجمع الموضوعي» أو «الفهم الموضوعي» لآيات القرآن الكريم. . يعتبر من أهم أنواع «الجمع القرآني». . وذلك لسببين:

الأول: «الميزات» التي يتمتع بها هذا النوع من الجمع.. والتي أسلفنا بعضها قبل قليل.

الثاني: «المعطيات» و«النتائج» التي يفرزها هذا النوع من الجمع.. والتي من أهمها: الخروج بـ«رؤية قرآنية متكاملة» حول موضوع معين.

والآن. . لنستعرض نموذجاً واحداً من «الجمع الموضوعي» لآيات القرآن. . مع مراعاة الإختصار. . لتكون نافذة متواضعة. . تفتح أمام عيون القراء الكرام. . الآفاق الواسعة لـ«الفهم الموضوعي لآيات القرآن الكريم».

الشفاعة.. ماذا تعني:

عندما نلقي نظرة موضوعية على الآيات التي تتحدث حول الشفاعة. . نجدها تنقسم إلى أربع مجموعات:

المجموعة الأولى: لا.. للشفاعة:

ويندرج ضمن هذه المجموعة كل الآيات التي تنفي الشفاعة. . والتي تنقسم إلى أربعة أقسام:

١ ـ الآيات التي تنفي الشفاعة بشكل مطلق. . وينحصر هذا القسم في الآية الكريمة التالية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾[1].

٢ ـ الآيات التي تنفي «الشفاعة» التي كان يتصورها اليهود. . والتي سوف نتحدث عنها ـ فيما بعد ـ. . يقول القرآن الكريم:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾[2].

ويقول: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾[3].

٣ ـ الآيات التي تؤكد أن «لا شفاعة للكفار» في يوم القيامة. . مثل:

ـ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٧ ـ ٤٨.

(٣) سورة البقرة، الآيتان: ١٢٢ ـ ١٢٣.

جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ (١).

ـ ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ (٢) ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ (٣).

ـ ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ (٤).

٤ ـ الآيات التي تنفي أن تملك الأصنام المعبودة: الشفاعة.. مثل:

ـ ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٥).

ـ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ (٦).

ـ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ (٧).

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٣.
(٢) سورة الشعراء، الآيات: ٩١ ـ ٩٣.
(٣) سورة الشعراء، الآيات: ٩٦ ـ ١٠١.
(٤) سورة المدثر، الآيات: ٤٦ ـ ٤٨.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٩٤.
(٦) سورة يونس، الآية: ١٨.
(٧) سورة الروم، الآية: ١٣.

- ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾[1].

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾[2].

المجموعة الثانية: الشفيع.. هو الله:

المجموعة الثانية: هي مجموعة الآيات التي تصرح بأن الشفاعة مختصة بالله تعالى.. وليس هنالك شفيع غيره..

وفي هذا المجال يقول القرآن:

- ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾[3].

- ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴿٧٠﴾﴾[4].

- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾[5].

- ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[6].

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٣.

(٢) سورة يس، الآية: ٢٣.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥١.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٧٠.

(٥) سورة السجدة، الآية: ٤.

(٦) سورة الزمر، الآية: ٤٤.

المجموعة الثالثة: هنالك شفعاء.. ولكن بعد إذن الله:

ونقرأ في هذه المجموعة: الآيات التالية:

ـ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[1].

ـ ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾[2].

المجموعة الرابعة: شروط خاصة:

في هذه المجموعة نقرأ الآيات التالية:

ـ ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾[3].

ـ ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[4].

ـ ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾[5].

ـ ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾[6].

ـ ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[7].

والآن..

لنلقِ نظرة تحليلية ـ ولكن موجزة ـ حول هذه المجموعات ـ القرآنية.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٢) سورة يونس، الآية: ٣.

(٣) سورة مريم، الآيتان: ٨٦ ـ ٨٧.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

(٥) سورة النجم، الآية: ٢٦٠.

(٦) سورة طه، الآية: ١٠٩.

(٧) سورة غافر، الآية: ١٨.

١ ـ المجموعة الأولى ـ من الآيات الواردة حول الشفاعة لا تتناقض مع بقية المجموعات. . ذلك لأن سائر المجموعات تثبت أقساماً معينة من الشفاعة. . وهذه المجموعة تنفي أقساماً أخرى لا ترتبط بالأولى لا من قريب ولا من بعيد فهذه المجموعة تنفي:

أ ـ الشفاعة الإعتباطية. . التي لا تتقيد بقيد أو شرط ـ كما هو مورد القسم الأول من المجموعة الأولى(١).

ب ـ الشفاعة التي كان يحلم بها اليهود. . الذين كانوا يقولون: إننا أولاد الأنبياء. . ومهما كانت ذنوبنا ثقيلة. . فإن آباءنا سوف يشفعون لنا.

هذا النوع من الشفاعة مرفوض في رؤية القرآن وذلك لأن مجرد الانتساب إلى عائلة «الرسالة» لا تكفي تبريراً للإنحراف عن خط الله تعالىٰ. . ومن ثم: انتظار الرحمة والغفران الإلهيين من دون أن جهد أو تعب.

جـ ـ كما أن الكفار الذين قطعوا كل علاقاتهم مع الله. . واتخذوا من دونه أوثاناً وشركاء. . هؤلاء: لا يمكن أن تقبل شفاعة أحد في حقهم ـ يوم القيامة.

د ـ ومن الطبيعي: أن «الأصنام» المعبودة من دون الله. . لا يمكن

---

(١) والذي يؤيد ذلك أمران.

أ ـ أن ذلك هو مقتضى الجمع بين الآيات المختلفة الواردة في الشفاعة.

ب ـ قوله تعالى في تلك الآية: ﴿وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ (البقرة: ٢٥٤).. فكما أن المنفي في جملة (ولا خلة) هو الخلة الباطلة.. ـ بدليل قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ (الزخرف: ٦٧) ـ فكذلك المنفي في قوله ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ هو الشفاعة الباطلة.

أن تقوم بمهمة الشفاعة.. خلافاً لكل التصورات الجاهلية التي كانت تقدس الأصنام لـ «تقربهم إلى الله زلفى» ولتقوم بمهمة الشفاعة لهم عند الله ـ.

٢ ـ وإذا تجاوزنا عن هذه الأقسام الأربعة من «الشفاعات المرفوضة».. نصل إلى «الشفاعة المقبولة»..

هذه الشفاعة ـ كما تؤكد ذلك «المجموعة الثانية» ـ هي مختصة بالله.. ويعني ذلك: أن من سوى الله لا يستطيع أن يشفع للعصاة باستقلاله..

إذن..

فالشفاعة الاستقلالية هي مختصة بالله..

بينما «الشفاعة التبعية» يمكن أن تكون نصيب الآخرين(١).

٣ ـ إذن..

فإن هنالك شفعاء آخرين.. من دون الله.. إلا أنهم لا يستطيعون أن يشفعوا إلا من بعد إذنه.. وهو ما تؤكده «المجموعة الثالثة» من آيات الشفاعة.

---

(١) كما أن «علم الغيب» مختص بالله.. لكن بمعنى أن أحداً لا يستطيع ـ باستقلاله ـ أن يخرق حجب الغيب.. ولكنه يستطيع ـ بالتبع وعطاء الله ـ أن يطلع على ذلك..
يقول القرآن الكريم: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (النحل: ٦٥).
ويقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [فيطلعهم على الغيب] (آل عمران: ١٧٩) وليس بين الآيتين أي تناقض.. فالأولى تنفي أن يطلع أحد على الغيب باستقلاله ـ سوى الله ـ بينما الآية الثانية ـ تؤكد أن من الممكن أن يمنح الله لبعض رسله «علم الغيب».. فيكون علمهم بالغيب علماً تبعياً لا استقلالياً.

٤ ـ ولكن متى يأذن الله؟!

إن المجموعة الرابعة هي التي تجيبنا على هذا السؤال. . فهي تحدد شروطاً خاصة في «المشفوع له». . ومن دون توفر هذه الشروط. . فإن الله سبحانه، لا يؤذن بالشفاعة.

وهذه الشروط هي: أن يكون المشفوع له «مرضياً لله» و«متخذاً عند الرحمن عهداً». . وبعبارة أخرى: أن يكون «الخط العام» في حياته خطاً إلهياً سليماً. . وعندئذ: تتكفل الشفاعة سائر انحرافاته الجزئية[1].

إلى هنا نختم حديثنا حول «الجمع الموضوعي» لآيات القرآن الكريم. . رغم وجود نماذج أخرى كثيرة في إطار هذا الموضوع.

وعلى القراء الكرام: أن يحاولوا القيام بـ«الجمع الموضوعي» لآيات القرآن في المواضيع التي تشغل تفكيرهم ـ لكي يخرجوا برؤية قرآنية شاملة حول تلك المواضيع.

---

(١) هنا لا بد من أن نشير إلى نقطتين:
الأولى: أننا اعتمدنا ـ في هذا البحث (بحث الشفاعة) بشكل رئيسي على الدراسة المفصلة التي كتبها الأستاذ الشيخ جعفر سبحاني تحت عنوان: «شفاعت درقلمرو: عقل، قرآن، وحديث» باللغة الفارسية).
الثانية: أننا اختصرنا هذا البحث إلى أبعد الحدود. وذلك لكي لا يخرج عن موضوع الكتاب.. ومن أراد التفصيل فعليه بالكتاب المذكور.

الفصل الثالث

الفهم الحيوي للقرآن

الذين يفهمون القرآن..
كتاب موت

ـ: كيف تفهم أجيالنا المعاصرة: القرآن الكريم؟!

قبل أن نجيب على هذا السؤال.. لا بد أن نطرح سؤالاً آخر هو:

ـ: كيف فهم الطلائع المسلمون الذين عاشوا في عصور الرسالة الأولى: هذا الكتاب المجيد؟!

الجواب:

لقد فهموا القرآن «كتاباً للحياة» و«برنامجاً للتحرك» و«خريطة للسلوك».

كان الواحد منهم يقرأ القرآن وكأنه هو المخاطب بآياته.. وكان يستنبط ـ من آيات القرآن «بصائر واضحة» يستعين بها في مسيرة الحياة الطويلة.

وعندما كانت تعترض الواحد منهم مشكلة.. أو يجد نفسه على مفترق طريق لا يدري أين تؤدي به.. كان يلتجىء إلى القرآن.. يقلب صفحاته، ويتأمل في آياته.. حتى يعثر على حل لمشكلته، ويجد الضوء الذي يشكف من أمامه الظلمات..

وجاءت ـ من بعدهم ـ أجيال.. أساءت الفهم.. وضلت الطريق.

هذه الأجيال.. تصورت القرآن «كتاب موت».. بدل أن يكون «كتاب حياة».. فالقرآن لا يعني بالنسبة إلى حياة هؤلاء شيئاً. إنه مجموعة من القضايا الميتافيزيقية.. والقصص التاريخية.. والطقوس العبادية.. وأي ربط لهذه الأمور بالحياة؟!

إذن.. فمن الطبيعي ـ بعدئذ ـ أن يبحثوا عن «قيم الحياة» و«مناهج الحياة» و«تعاليم الحياة» في أي مكان.. غير القرآن ـ بالطبع ـ!

وقد نتج هذا الفصل.. الفصل بين القرآن وبين الحياة المعاشة.. من عدة عوامل.. منها:

١ ـ الهوى والشهوات..

ذلك لأن الفهم «الحيوي» و«الواقعي» للقرآن.. يعني:

أ ـ تحديد شهوات الإنسان، وأهواءه ـ كما سيتضح ذلك فيما بعد ـ.

ب ـ التنازل عن كثير من الارتباطات، والعلاقات الإجتماعية.. بل، ومقاومة الكثير من «مراكز القوى» التي ترتبط مصالح الإنسان المادية بالخضوع لها.. والتعاون معها..

ولكن أهواء الإنسان لا ترضى بذلك.. إذن.. لنفهم «القرآن» ككتاب ميت.. وعندئذ: ننطلق في حياتنا كما نشتهي ونريد..

٢ ـ الفهم الخاطىء للدين..

ذلك لأن الدين الذي:

أ ـ يأمر أتباعه بالعزلة.. والإنزواء عن المجتمع..

ب ـ ويهتم بالآخرة.. ولا يعير الدنيا أي اهتمام.

جـ ـ ويرفض التدخل في السياسة ـ حتى لو كانت نزيهة في أهدافها ووسائلها ـ «لأنها خبث وكذب ونفاق»!

هذا الدين لا يرتبط بالحياة ـ بالطبع ـ. . وقرآن هذا الدين وهو كذلك. . إنه كتاب يدعو الإنسان إلى الزهد في الدنيا. . وصرف كل جهوده في الآخرة. . فما هي قيمة الدنيا؟! إنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة! بل هي أساساً سميت «دنيا» لأنها دنيئة، وهابطة! إذن ما لنا ولها؟ دع الدنيا للآخرين. . دعها للكافرين. . يتمتعوا بها. . ويتقلدوا زمامها. . أما أنت فاعبد الله حتى يأتيك اليقين. . لتكون دنياك خربة، ومتهاوية. . ليس ذلك مهماً: المهم أن تكون آخرتك معمورة!

إن هذا المنطق هو بالضبط منطق «عبد الله بن عمر» حينما مات معاوية، وقام على الأمر بالسيف يزيد. . لقد رفض عبد الله بن عمر أن يتخذ أي موقف رافض. . واكتفى بالقول: «أما أنا فعلي بقراءة القرآن، ولزوم المحراب»!

عبد الله بن عمر كان يقرأ في القرآن قضية موسى عليه السلام وفرعون. . وكيف ثار موسى عليه السلام في وجه فرعون الطاغية ـ حتى قضى عليه. . ولكنه كان يقرأ ذلك كـ«قصة». . وليس كـ«عبرة» وكـ«تجسيد حي». . ولذلك لم يبذل أي جهد في مقاومة فرعون زمانه: «يزيد بن معاوية) ـ بل اكتفى بقراءة القرآن، ولزوم المحراب! وهكذا يجني «الفهم الخاطىء للدين» على الفهم الحيوي ـ أو الواقعي: للقرآن»!

٣ ـ اعتبار القرآن «كتاباً متعالياً عن الإدراك البشري». .

فالذين يعتبرون القرآن: مجموعة من الألغاز، والأحاجي، والرموز الغامضة. . هؤلاء بالطبع لا يستطيعون أن يفهموا القرآن. . وحتى لو

فهموه فإنهم لن يسمحوا لعقولهم أن تقوم بـ«الفهم الواقعي ـ والحيوي» للقرآن. . بل إن ذلك ـ في نظر بعضهم ـ هو الإنحراف الصريح. .[1].

والسؤال الآن هو:

ـ: ما هي النتائج التي ترتبت على هذا الفصل. . الفصل بين القرآن وبين الواقع القائم؟!

والجواب:

١ ـ أصبح القرآن ـ بذلك ـ كتاباً ميتاً. . لا يستطيع الدفع والتحريك. . بعد أن كان ـ وعلى امتداد فترة طويلة من الزمن ـ المحرك الأساسي للأمة المسلمة على طريق النمو والتقدم.

لقد وعت الأمة بفضل القرآن. . وتحركت بفضل القرآن. . وتصاعدت بفضل القرآن. . واندفعت تنشر النور في أقطار الأرض، وتحطم عروش الطغاة في كل مكان بفضل القرآن. . وأنجزت كل شيء بفضل القرآن. .

هذا ما كان في السابق. . وحين كانت الأمة تنظر إلى القرآن كتاباً للحياة. . ومنهجاً للتحرك. . وخريطة للمسير. .

أما اليوم. . وحين انفصل القرآن من الحياة. . ولم يبق منه إلا رسوم ـ كما يقول الإمام علي عليه السلام ـ فقد انتهت فاعليته. . وأصبحت لا يحرك فرداً. . ولا يبني كياناً. . ولا يرهب عدواً.

٢ ـ انفصل القرآن ـ بذلك ـ عن أجيالنا الصاعدة. .

ذلك لأن هذه الأجيال تبحث عن:

---

(١) لقد تناولنا مسألة «التفسير بالرأي» في الفصل الأول من هذا الكتاب.

القضايا المتحركة.. التي ترتبط بواقعها القائم أما القضايا الجامدة، والقصص الميتة.. فهي لا تستثيرها، ولا تستقطب اهتمامها.

ولأن هذه الأجيال فهمت القرآن كتاباً.. عتيقاً.. ميتاً.. لا يرتبط بالواقع القائم.. لذلك ـ ألقت بالقرآن وراء ظهرها.. وانطلقت تبحث عن أيديولوجية أخرى تعالج مشاكلها الحاضرة!

ولو كان هؤلاء قد فهموا القرآن فهماً «حيوياً» و«واقعياً» لما كانوا قد انفصلوا عنه.. ونحن واثقون: بأن هؤلاء سوف يعودون يوماً ما إلى القرآن، وإلى الأيديولوجية الإسلامية.. بعد أن يفهموهما بشكلها الواقعي الحي..

٣ ـ ظلت بالفصل بين القرآن وبين «الفهم الواقعي» له ـ المفاهيم الخاطئة مكرسة في نفسية الأمة.. بينما كان بإمكان «الفهم الحيوي» و«الواقعي» للقرآن الكريم أن يعالج الكثير من هذه المفاهيم.. وسنضرب فيما بعد بعض الأمثلة على ذلك..

هذه.. كانت ـ بإيجاز ـ النتائج الخطيرة التي ترتبت على «الفهم الميت» لآيات القرآن الكريم..

وينتصب هنا سؤال.. ليقول:

ما هي مظاهر «الفهم غير الواقعي» للقرآن؟!

والجواب: إن هنالك ثلاثة مظاهر:

١ ـ الفهم التجريدي.

٢ ـ الفهم التاريخي.

٣ ـ عدم إعطاء الكلمة مدلولها الحقيقي.

دعنا . . نلقي قليلاً من الضوء، على ذلك . .

أولاً:

الفهم التجريدي:

يرتكز «الفهم التجريدي» للقرآن الكريم على عنصرين:

الأول: ربط «المفاهيم القرآنية» بعالم الغيب.

الثاني: فصل هذه «المفاهيم» عن الواقع القائم.

إذن . . فللقضية جانبان:

جانب إيجابي ـ يتمثل في «العنصر الأول».

وجانب سلبي ـ يتمثل في «العنصر الثاني».

ونحن وإن كنا نرتضي الجانب الإيجابي من القضية لأنه صحيح ومؤكد . . إلا أننا نرفض الجانب السلبي . . لأنه يعتبر «تجزيئاً للدين» . .

وفيما يلي . . بعض الأمثلة السريعة على «الفهم التجريدي» للقرآن:

ـــ ١ ـــ

يقول القرآن الكريم:

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾[1].

ـ: كيف يفهم «التجريديون» هذه الآية ـ والتي تكررت بصيغ مختلفة في أماكن مختلفة من القرآن الكريم؟!

الجواب:

«إن لله سبحانه ميزة من أهم ميزاته . . هذه الميزة تجعل الله متفرداً عن

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٣.

كافة الكائنات.. وهي: أنه واحد، أحد، فرد، صمد.. «لا شبيه له يعادله، ولا شريك له يشاكله».

ويستطرد «التجريديون» قائلين:

«إن النظام الكوني هو خير دليل على وحدانية الله.. ذلك لأنه لو كان هنالك إلهان.. لتنازع أحدهما مع الآخر.. ولاختل نظام الكون.. وتهاوت الحياة».

إذن فالقضية لا ترتبط بـ«الواقع البشري» من قريب، ولا من بعيد.. بل إنها مجرد قضية اعتقادية ترتبط بعالم الغيب والميتافيزيقيا.

ولكن الحقيقة: أن كلمة «لا إله إلا الله» هي منهج كامل للحياة.. بكل ما للحياة من ظلال وأبعاد.. فهي تعني:

١ ـ أن العبادة مختصة بالله.. وكما يقول القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾[١].

٢ ـ إن الحاكمية مختصة بالله.. وفي هذا المجال يقول القرآن:

ـ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾[٢].

ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٢ ـ ١٦٣.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٢١.

وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ
أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ
إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ
وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا
لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ
وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا
قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[1].

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ
مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ
سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾[2].

٣ ـ إن الطاعة مختصة بالله.. وفي هذا المجال يقول القرآن:

ـ ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[3].

ـ ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾[4]؟.

ـ ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾.

---

(١) سورة النساء، الآيات: ٦٠ ـ ٦٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣١ (وفي هذا الصدد يقول الإمام الصادق عليه السلام: أما والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم ولو دعوهم إلى عبادة أنفسهم لما أجابوهم، ولكن أحلوا لهم حراماً، وحرموا عليهم حلالاً فعبدوهم من حيث لا يشعرون» راجع «الصافي» المجلد الأول ص٦٩٦ ـ الطبعة الخامسة).

(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

(٤) سورة يس، الآية: ٦٠.

. . وهكذا نجد: أن الذين يخضعون لمن دون الله . . أو يرجعون في حياتهم إلى حكم غير حكم الله ـ سواء في المجال التشريعي كالأحبار أو في المجال التنفيذي كالطواغيت ـ أو يسيرون وراء أهواءهم وشهواتهم . . كل هؤلاء ليسوا بموحدين حقيقيين لله . .

وبهذا الفهم المتحرك . . يصبح شعار «لا إله إلا الله» شعاراً واقعياً . . بل أهم شعار مرتبط بالواقع ـ على الإطلاق . . ومن ثم يكتسب: حيوية، وفاعلية، وحرارة! .

ـ ٢ ـ

يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾[1] .

ـ: ما هو مفهوم هذه الآية الكريمة ـ ومثيلاتها ـ في نظر «التجريديين»؟

ـ: «إن هذه الآية تتناول مسألة (العدل الإلهي)، ويعتبر العدل هذا من أهم صفات الله تعالى وهو يعني: أن الجزاء الإلهي للبشر يوم القيامة سيجري بشكل دقيق وعادل . . حيث تنصب الموازين الإلهية الدقيقة التي تزن كل شيء سواء كان كبيراً، أو صغيراً ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

ويضيف هؤلاء:

«إن عدالة الله نابعة من غناه المطلق وعلمه التام . . فهو ليس محتاجاً، وليس جاهلاً . . ولذلك فهو لا يظلم الناس»:

---

(١) سورة غافر، الآية: ٣١.

.. والحقيقة: أن «العدالة الإلهية ليست خاصة بـ«الماورائيات» بل هي تشمل كذلك مختلف جوانب «الحياة الكونية» و«الحياة البشرية»، ذلك لأن العدالة تنقسم إلى:

١ ـ العدالة الكونية.. حيث نجد الكون بكل ما فيه بدءاً من الذرة وانتهاءاً إلى المجرة ومروراً بكل الكائنات ـ نجده قائماً على أسس حكيمة وعادلة.

٢ ـ العدالة التشريعية.. فلم يأت تشريع من تشريعات السماء من أجل العبث، أو التضييق على الناس..

إن كل «الأحكام الإلهية» نابعة من علم دقيق.. وحكمة تامة.. وعدل تام..

٣ ـ العدالة الاجتماعية.. فالله سبحانه يفسح المجال للجميع لكي يعملوا.. ويمد الجميع كذلك.. وإذا ما تقدمت فئة معينة بسبب العمل، فإنه لن يتدخل لصالح فئة أخرى ـ لا تعمل! حتى لو كانت تلك الفئة تعتنق مبادئه، وتطبق أحكامه ـ أو بالأحرى: بعض أحكامه ـ[1].

فليستيقظ الكسالى الغارقون في الأحلام.. النائمون على حرير الأمل الرقيق.. وليعلموا: أن الله لن يصبح «بديلاً» عنهم.. ولن يطهر الأرض من أدناس الجاهلية إلا بعد أن يعمل المؤمنون.. ويتحركوا..

٤ ـ العدالة الجزائية.. حيث يلاقي ـ على أسس من هذه العدالة ـ

---

(١) يقول القرآن في هذا المجال: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء: ٢٠).

المحسن جزاء إحسانه، والمسيء جزاء إساءته. . دون أن يظلموا مثقال ذرة: وكما يقول القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[1].

ولكن هذه «العدالة» ليس خاصة بالآخرة. . بل إنها تشمل الدنيا ـ كذلك: فمن أحسن يجد الحسنى في الدنيا ـ ومن بعدها: الآخرة. . ومن أساء يجد السوءىٰ في الدنيا ثم يرد إلى عذاب النار وبئس المصير.

وهكذا نجد: أن «الفهم الواقعي» للقرآن الكريم: يجعله ينبض بالحياة وكأن آياته قد هبطت للتوى واللحظة.

بينما «الفهم التجريدي» يحول «المفاهيم القرآنية الحية» إلى مفاهيم ميتة، وباهتة. أو على الأقل: يحصرها ضمن إطارات محددة.

ثانياً: الفهم التاريخي:

«الفهم التاريخي» للقرآن الكريم يعني أحد أمرين:

الأول: تلقي قصص القرآن الكريم كمجرد قصص تاريخية.. الهدف منها ذاتها.. من دون النفوذ إلى العبر الكامنة وراءها..

هذا القسم يفهم التاريخ كأحداث مضت، ويفهم قصص القرآن كقصص أفراد غابرين. . ويكتفي بهذا القدر من فهم التاريخ ـ دون أن يمارس مع ذلك فهماً آخر هو «الفهم العبروي».

الثاني: تلقي «القصص القرآنية» كقصص مرتبطة بـ «ذوات خاصة» و«أفراد معينين».. من دون اعتبار هذه القصص «رمزاً» و«نموذجاً حياً يتكرر في كل زمان ومكان».

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٠.

فالقرآن: ذكر قصة الحاكم ـ الطاغية (فرعون).

والوزير ـ المداهن (هامان).

والعالم الذي كان في القمة.. ثم هوى إلى الحضيض (بلعم بن باعوراء).

والشجرة الطيبة (أهل البيت).

والشجرة الخبيثة (بني أمية).. و..

كل ذلك مفهوم لدى هذا القسم.. إنه يعرف التاريخ الذي مضى تماماً.. ولكنه يجهل ـ أو يتجاهل ـ التطبيقات الحية «الواقعية» لهذه «الرموز».

إنه لا يريد أن يعرف: (فرعون) و(هامان) و(بلعم) الذين يعيشون في عصره.. لأن ذلك يعني: ضرب كثير من قيمه، وعلاقاته الاجتماعية، ومصالحه.. ولذلك فهو يعوض عن جهله بحاضره، بمعرفته بتاريخه الذي مضى، وراح...

والدين ـ يرفض كلا النوعين من «الفهم».

١ ـ فالقرآن يؤكد أن ما ورد فيه من قصص هي «للعبرة» فيقول:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ إلى أن يقول: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾[1].

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾﴾[2].

(١) سورة الحشر، الآية: ٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ (أي الرسل) عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ﴾ (أي: أخذ فرعون) ﴿نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾[2].

وماذا يعني الإعتبار؟!

«إنه لغوياً يعني العبور من شيء إلى شيء آخر.. ولهذا سمي الدمع بـ«العبرة» ـ لأنه ينتقل من العين إلى الخد.. وسمي الجسر «معبراً» لأنه به تحصل المجاوزة، وسميت الألفاظ «عبارات» لأنها تنقل المعاني من قلب المتكلم إلى عقل المستمع. ويقال: السعيد من اعتبر بغيره لأنه ينتقل بعقله من حال ذلك الغير إلى حال نفسه»[3].

وفي هذه الآيات تعني «العبرة»، العبور من القصة.. إلى مغزاها.. وتجاوز سطور التاريخ.. لاستشفاف ما وراء هذه السطور..

٢ ـ وتؤكد الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام: أن لقصص القرآن نماذج حية في كل زمان ومكان..

أ ـ فعن الفضيل بن يسار قال: سئلت أبا عبد الله عليه السلام (الإمام الصادق) عن هذه الرواية: «ما في القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن»..؟

قال: ظهره تنزيله. وبطنه تأويله.

منه ما مضى، ومنه ما لم يجيء بعد، يجري كما تجري الشمس والقمر»..

وفي خبر آخر: «يكون على الأموات كما يكون على الأحياء».

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١١١.

(٢) سورة النازعات، الآيتان: ٢٥ ـ ٢٦.

(٣) التفسير الكبير، ج٢٩، ص٢٨٢ (الطبعة الثانية ـ بتصرف).

والإمام عليه السلام يعني بالظهر المصداق للآية قبل ألف وأربعمائة سنة.

أما البطن: فهو المصداق الباطني للآية... أي المصاديق المتكررة في كل زمان ومكان والتي ينطبق عليها مفهوم الآية.

ولذلك جاء في الحديث: «إن لكل ظهر بطناً».

والسؤال الآن:

لماذا شبهت الرواية القرآن الكريم بالشمس والقمر؟

والجواب:

إن الشمس والقمر يشرقان كل يوم على شيء جديد.. وكذلك القرآن: إنه ينطبق كل يوم على مصداق جديد فالقرآن ليس خاصاً لجيل دون آخر أو لزمان دون زمان.. أو لمكان دون مكان..

بل هو لكل زمان.. ولكل مكان.

وكما أن الشمس والقمر.. يبددان الظلمات، ويضيئان من حولنا الأشياء.. كذلك القرآن إنه يضيء لنا طرق الحياة.. ويكشف ما خفي علينا من الأمور.

ب ـ عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال لحمران: «ظهر القرآن الذي نزل فيهم، وبطنه: الذين عملوا بمثل أعمالهم، يجري فيهم ما نزل في أولئك».

جـ ـ عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام: «ولو كانت إذا نزلت آية على رجل ثم مات ذلك الرجل ماتت الآية لمات الكتاب. ولكنه حي يجري فيمن بقي، كما جرى فيمن مضى».

د ـ عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «.. ولو أن الآية إذا نزلت في قوم ثم

مات أولئك ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء، ولكن القرآن يجري أوله على آخره ما دامت السماوات والأرض».

هـ ـ عن أبي عبد الله عليه السلام: «إن القرآن حي لم يمت، وإنه يجري كما يجري الليل والنهار وكما تجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا، كما يجري على أولنا»(١).

إذن..

فمن الخطأ «التسمر» في فهم القرآن على أفراد معينين.. أو على حقب معينة..

من الخطأ أن ندفن آيات القرآن في قبو الماضي السحيق..

بل: يجب تطبيق القرآن تطبيقاً حياً على الواقع الذي نعيش.. وعلى الأفراد الذين نتعامل معهم ضمن هذا الواقع.. من الحاكم، والتاجر، والقوى الإجتماعية.. وسائر فئات الشعب.

وفيما يلي نستعرض بعض النماذج عن «الفهم الواقعي» مقابل «الفهم التاريخي» للقرآن الكريم..

ـــ ١ ـــ

يقول القرآن الكريم:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟

(١) اقتبسنا هذه الروايات من مقدمة كتاب «البرهان ـ في تفسير القرآن» ص٥، (طبعة دار الكتب العلمية ـ إيران).

مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا
عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا
إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا
وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي
الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾[1].

كيف يفسر أصحاب «الفهم التاريخي» هذه المجموعة من الآيات؟!

«إن هذه المجموعة من الآيات تكشف عن: عناد اليهود.. وخبث طينتهم.. وتمردهم على قرارات قيادتهم الرشيدة.

«لقد دعاهم موسى عليه السلام إلى قتال «العمالقة».. واستخدم في سبيل ذلك كل عوامل الترغيب والترهيب.. إلا أنهم أبوا.. وسخروا من موسى عليه السلام ومن ربه ـ كذلك!

ويستطردون قائلين:

«قاتل الله اليهود.. كم جرعوا نبيهم من الغصص، وكم أذاقوه من الآلام»؟!

هذا ـ إذاً ـ هو كل ما في الأمر. وينتهي ـ بعدئذ ـ كل شيء!

هذه المجموعة من الآيات ـ وعشرات مثلها ـ لا تهدف إلا النيل من مجموعة بشرية معينة ـ هم اليهود ـ وتسجيل اللعنة عليهم على امتداد التاريخ؟!

ولكن.. لنتساءل:

---

(١) سورة المائدة، الآيات: ٢٠ ـ ٢٦.

هل الأمر ـ فعلاً ـ هو كذلك؟!

إن مشكلة هؤلاء، هي أنهم نظروا إلى هذه «القصة القرآنية» كقصة مضت وانتهت.. ولم يحاولوا أن يعرفوا الواقع القائم.. ولم يسعوا من أجل تطبيق ما حدث في الماضي السحيق على الواقع القائم..

بينما نجد الروايات الشريفة تؤكد على أن الأمة الإسلامية سوف تسير على خطى اليهود[1].. «حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتم معهم» كما جاء في الحديث الشريف.. وهذا يدفعنا إلى البحث عن «المصاديق الجديدة» للقصص التي نقلها القرآن عن اليهود..

والآن.. لنلقي نظرة «واقعية» على هذه الآيات:

١ ـ لقد أراد بنو إسرائيل الوصول إلى الأهداف الضخمة المرسومة لهم.. دون أن يبذلوا أي جهد أو تعب. عندما قالوا: «وإنا لن ندخلها، حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون»!

لقد أرادوا أن ينزل «النصر» عليهم من السماء على طبق من ذهب.. وهم جالسون في أماكنهم.. دون أن يتحملوا مسؤولية.. أو يعملوا شيئاً.

لقد أرادوا «المدينة المقدسة» لقمة سهلة باردة!

ولكن سنن الله في الكون تأبى ذلك..[2] ومن هنا: فإنهم ليس فقط لم يصلوا إلى الهدف.. بل ـ وأيضاً ـ تلقوا عقاباً إلهياً صارماً نتيجة الكسل والتقاعس.

---

(١) عن النبي ﷺ: والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم، حذو النعل بالنعل، والقذة بالقذة، حتى لا تخطأون طريقهم، ولا تخطاكم سنة بني إسرائيل».

(٢) جاء في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام: «أبى الله أن يجري الأشياء إلا بالأسباب» (بحار الأنوار ـ ج٢، ص٩٠ ط مؤسسة الوفاء).

أليس هذا الواقع ذاته يتكرر ـ الآن ـ عند مجموعة من المسلمين؟!.

أليس هؤلاء يقبعون في زوايا البيوت، وينتظرون الوصول إلى أهدافهم المنشودة من دون سعي أو عمل؟!

والنتيجة؟!

النتيجة هي بالطبع: ـ خيبة الأمل.. والسقوط ـ أيضاً.. تماماً كما حدث لبني إسرائيل!

٢ ـ لقد استبدل «بنو إسرائيل»: (التواكل) بـ(التوكل)..

فعندما طلب «الرجلان اللذان أنعم الله عليهما من بني إسرائيل»: أن يقتحموا أسوار المدينة ويتوكلوا على الله.. أن يجمعوا: بين السعي، والإعتماد القلبي على الله، بين الغيب والشهود.. عندما طلبا منهم ذلك قالوا: «اذهب أنت (يا موسى) وربك فقاتلا، إنا هاهنا قاعدون»!

عندئذ وبدل أن «يتوكلوا» على الله.. «تواكلوا».. بمعنى: أنهم نفضوا أيديهم من المسؤولية.. وألقوها على الله سبحانه..

والآن.. لننتقل بقلوبنا من الماضي السحيق.. إلى الواقع القائم.. ولنتساءل: كم يتكرر هذا المشهد في واقعنا كل يوم؟!

أليس الكثيرون منا يستبدلون بـ(التوكل): التواكل؟!

بل: أليس الكثيرون يعتبرون (التوكل) هو (التواكل)؟![1].

---

(١) يعتبر القرآن الكريم، التوكل رديفاً للعمل، وليس بديلاً عنه. فيقول: ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾.. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟﴾ ـ كما جاء في الآية السابقة. ويقول: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

.. وهكذا سارت أمتنا على خطى «بني إسرائيل» حذو النعل بالنعل، والقِذة والقذة ـ كما تنبأ بذلك من قبل الرسول الأعظم ﷺ[1].

يقول القرآن الكريم:

— ٢ —

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[2].

جاء في التفسير أن بعض المسلمين أثقلوا على رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية الكريمة..

وفي الحديث: «.. وكان الرجل إذا أراد أن يكلمه تصدق بدرهم ثم كلمة (الرسول) بما يريد.. فكف الناس عن رسول الله ﷺ وبخلوا أن يتصدقوا قبل كلامه. فتصدق علي عليه السلام بدينار كان له فباعه بعشرة دراهم في عشر كلمات سألهن رسول الله ﷺ، ولم يفعل ذلك أحد من المسلمين غيره، وبخل أهل الميسرة أو يفعلوا ذلك..»[3]. ثم نسخ هذا الحكم بالآية التي تليها.

والسؤال الآن هو: ما هي العبرة «الحية» و«الواقعية» التي نستفيدها

---

(١) لقد طبق «المقداد» هذه الآية تطبيقاً واقعياً ـ وذلك حين شاور الرسول ﷺ المسلمين في الخروج إلى بدر فقال المقداد: يا رسول الله: امض لما أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: إذهب أنت وربك إنا هاهنا قاعدون» ولكن: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد ـ يعني الحبشة ـ لجالدنا معك من دونك حتى تبلغه. فقال له رسول الله خيراً، ودعا له بخير».
راجع تاريخ الطبري ـ غزوة بدر ـ ج٢، ص١٤٠ (الطبعة الثانية).

(٢) سورة المجادلة، الآية: ١٢.

(٣) البرهان، ج٤، ص٣٠٩.

من هذه الآية الكريمة (بالإضافة إلى كونها «فضيلة» تفرد بها الإمام علي عليه السلام)؟!

والجواب:

إن هذه القصة ـ التي تضمنتها الآية الكريمة ـ تكشف لنا عن نوعين من «الإيمان»:

أحدهما: إيمان التضحية.

وثانيهما: إيمان المصالح.

في «إيمان التضحية» يكون الفرد المؤمن «جندياً تحت الطلب».. أي أنه يستعد لتنفيذ كل القرارات، والتضحية بكل ما يملك من مال، وأهل، ونفس.. في سبيل الله، والقيم، والمبادىء..

أما صاحب «الإيمان المصلحي» فهو يسير في ركاب «الدين» ما دام هذا الدين لا يضر بمصالحه ولا يكلفه شيئاً.. أما عندما يكلفه الدين: مصالحه الشخصية.. فهو يترك الدين، ويضرب به عرض الحائط[1].

وقد تجلى ـ من خلال هذه القصة ـ «إيمان التضحية» في شخص الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

كما تجلى «إيمان المصالح» في أولئك الأغنياء الذين التفوا حول

---

(١) عن هذا الطراز من «المؤمنين» يقول القرآن: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ (الحج: ١١) ويقول: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ (العنكبوت: ١٠).

الرسول ﷺ وكانوا يكثرون من مناجاته والتحدث إليه. . فما إن وصل الأمر إلى الإنفاق والبذل حتى انقطعوا عن الرسول، وتركوه وحيداً في داره![1].

— ٣ —

يقول القرآن الكريم:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾[2].

في البداية. . ينبغي أن نلقي نظرة على «شأن نزول» هذه الآية الكريم. .

ففي تفسير القمي:

«لقي رسول الله ﷺ (الجد بن قيس) فقال له: يا أبا وهب ألا تنفر معنا في هذه الغزوة؟ (غزوة تبوك). .

فقال: يا رسول الله، والله إن قومي ليعلمون أنه ليس فيهم أحد أشد عجباً بالنساء، وإني أخاف إن خرجت معك أن لا أصبر إذا رأيت بنات الأصفر (أي بنات الروم).

فلا تفتني وائذن لي أن أقيم.

وقال لجماعة من قومه: لا تخرجوا في الحر. .

---

(١) قال في «الميزان»: (.. ففي قوله «وتاب الله عليكم» (عقيب آية التصدق) دلالة على كون ذلك منهم ذنباً ومعصية، غير أنه تعالى غفر لهم) راجع «الميزان: ج١٩، ص١٩٠ (ط٢).
(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٩.

فأنزل الله على رسوله في ذلك هذه الآية»[١].

إن هذا المشهد التاريخي يمثل لنا «التبرير» بأجلىٰ صوره وأشكاله!

إنه ليس مجرد تبرير عادي (كالتبرير بالحر والبرد وما أشبه) بل إنه تبرير «ديني» بمعنى أنه يتخذ من «الدين» ستاراً لتبرير الهروب من المسؤولية «ومنهم من يقول ائذن لي (ولا تفتني)»!

وهو ـ أيضاً ـ لم يرد بصيغة عادية.. بل صاحبته مختلف عوامل التأكيد (من القسم و«ان» و«اللام» التأكيديتين ـ وغير ذلك ـ) كما نلاحظ في الحديث الشريف ـ.

ولكن هذا (المنطق التبريري) ليس خاصاً على رجل تاريخي اسمه «الجد بن قيس» وكنيته «أبو وهب».

وليس خاصاً بحقبة معينة، اندثرت في طيات الماضي العتيق.

إنه نموذج يتكرر في كل زمان.. ومكان.. ولكن بأنماط وصور مختلفة.

فالذين يعتذرون عن تحمل مسؤولياتهم، ويقضون أعمارهم في زوايا البيوت.. بحجة أنهم يخافون على أنفسهم من «الإنزلاق» أو «الكبرياء» أو «الضلال» أو ما أشبه.

والذين يرفضون الإنتماء إلى جبهة الحق.. بحجة أن هذا الإنتماء قد يعرضهم لمطاردة السلطات والقبض عليهم.. وربما «أنهيارهم» و«انحرافهم»..

كل هؤلاء.. وأخرون غيرهم.. يمكن اعتبارهم نماذج جديدة تكرر موقفاً مشابهاً لموقف (الجد بن قيس).

---

(١) تفسير الصافي ـ المجلد الأولى ص٧٠٥.

وهم ـ مثله تماماً ـ يرددون «تبريرات» كثيراً ما تلبس بـ«غطاء ديني» ولكن ليسمعوا قول الله تعالى:

﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾(١).

هذه كانت بعض النماذج السريعة حول «الفهم الواقعي» للقصص القرآنية.. وهنالك نماذج أخرى كثيرة (مثلاً: قصة آدم عليه السلام. قصة موسى عليه السلام. وفرعون. قصة يوسف عليه السلام. قصة مؤمن آل فرعون. قصة صاحب الجنتين. قصة أصحاب الكهف..) وبإمكان القراء الكرام أن يقوموا بـ«الفهم الواقعي» لها.. مستعينين في ذلك بروايات الأئمة الطاهرين عليهم الصلاة والسّلام.. وبالتفكير المنطقي السليم.

ثالثاً:

عدم فهم الأبعاد الحقيقية:

ونستعرض فيما يلي نموذجين لـ«عدم فهم الأبعاد الحقيقية» للآيات القرآنية.

ـ ١ ـ

يقول القرآن الكريم:

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ

---

(١) لقد طبقت فاطمة الزهراء عليها السلام هذه الآية الكريمة على عصرها الذي كانت تعيش وذلك في الخطبة التي ألقتها على جميع المهاجرين والأنصار، بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله. قالت: «فوسمتم غير ابلكم وأوردتم غير مشربكم، هذا: والعهد قريب، والكلم رحيب والجرح لما يندمل، والرسول لما يقبر. ابتداراً زعمتم خوف الفتنة «ألا في الفتنة سقطوا، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين».

يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ
إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا
قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾»(١).

ما الذي تدل عليه هذه الآيات الكريمة؟!

١ ـ إن هنالك حاكماً.. طغى وتجبر، وتعدى كل الحدود.

هذا الحاكم كان يعيش مع فئة معينة في القمة.. بينما كانت طبقات الشعب ـ من بني إسرائيل ـ تعيش في الحضيض.

وليس ذلك فقط.. بل إن هذا الحاكم صادر ـ كذلك ـ حرية هذا الشعب، وجعله يرزح تحت سياط التعذيب.

٢ ـ وفي مثل هذا الواقعْ الخانق.. أرسل الله ـ من قبله ـ رسولاً هو موسى عليه السلام فماذا كانت مهمة هذا الرسول؟!

ـ القرآن الكريم يؤكد: أن «العمل السياسي» من أجل تحرير الجماهيرالمستضعفة.. كان في طليعة المهمات التي ألقيت على عاتق هذا الرسول.

ومن هنا فإن الخطاب الأول من قبل موسى عليه السلام لفرعون كان دعوة صريحة إلىٰ إطلاق حريات الشعب الإسرائيلي ورفع أغلال الكبت والإرهاب عنهم:

«فأرسل معنا بني إسرائيل، ولا تعذبهم»!

وهل «العمل السياسي» غير هذا؟.

---

(١) سورة طه، الآيات: ٤٠ ـ ٤٨.

فما بال البعض يقولون: بأن الدين لا شأن له بالسياسة؟! ـ بصورتها النزيهة بالطبع ـ.

ما بالهم يرددون: بأن على رجل الدين أن ينتقل بين البيت والمسجد.. وإذا تجاوز هذا النطاق فإنما ينبغي أن يكون ذلك لعيادة مريض، أو تشييع جنازة!! وليس أكثر من ذلك!

ما بالهم يقولون: إن مهمة رجل الدين تنحصر في صلاة الجماعة، وبيان بعض مسائل الطهارة والنجاسة ونحو ذلك.. أما السياسة فهي كفر، وشر، ونفاق.. وأن على رجل الدين أن لا يلوث نفسه بأعتابها الدنسة.

ألم يكن موسى عليه السلام رجل دين؟ أن تكن أول كلمة قالها «دعوة تحرير سياسية»؟!

ـــ ٢ ـــ

يقول القرآن الكريم:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾[1].

قال في «الميزان»:

«والقبلة في الأصل: بناء نوع من المصدر كجلسة أي الحالة التي يحصل بها التقابل بين الشيء وغيره فهو مصدر بمعنى الفاعل أي اجعلوا بيوتكم متقابلة يقابل بعضها بعضاً وفي وجهة واحدة»[2].

(١) سورة يونس، الآية: ٨٧.
(٢) الميزان، ج١٠، ص١١٤ (الطبعة الثالثة).

وعلى هذا.. فإننا نستفيد من هذه الآية الكريمة درساً عظيماً في أسلوب العمل.. وهو:

أن على «الفئة الرسالية» أن تزيد من «التلاحم الداخلي» فيما بين أعضاءها.. حتى لا تتسرب إليها سلبيات المجتمع الجاهلي الكبير.. وحتى تستطيع أن تبني نفسها بشكل قوي، ورصين.. تماماً كما تنغلق البذرة على ذاتها في التربة.. وتمتص كل الأملاح والعناصر الضرورية للحياة.. وبعدئذ تخرج من التربة: عالية الرأس.. جميلة القوام.. وهذا هو ما مارسته الحركات الناجحة على امتداد التاريخ البشري.

وهذا هو أيضاً ما مارسه بنو إسرائيل ـ بأمر من موسى عليه السلام ـ في خلال مراحل نموهم الأولى[1] كما يبدو لنا من خلال هذه الآية الكريمة ـ.

(١) لقد تعرض القرآن قبل بضع آيات إلى أن بنى إسرائيل كانوا في تلك الحالة فئة قليلة في طور التكوين ـ حين قال: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ (يونس: ٨٣)

التدبر في القرآن

سورة الحمد

مكية - مدنية

آياتها(٧)

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾
مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ
﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ
أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

فضل السورة

١ ـ عن النبي ﷺ أنه قال لجابر بن عبد الله الأنصاري:

«يا جابر ألا أعلمك أفضل سورة أنزلها الله في كتابه؟

فقال له جابر: ـ «بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله علمنيها.

فعلمه «الحمد» أم الكتاب[1].

٢ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل قال لي يا محمد ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾[2].

فافرد الإمتنان عليَّ بفاتحة الكتاب وجعلها بازاء القرآن العظيم. وإن فاتحة الكتاب أشرف ما في كنوز العرش، وإن الله عزَّ وجل خصَّ محمداً وشرفه بها ولم يشرك معه فيها أحداً من أنبيائه ما خلا سليمان فإنه أعطاه منها ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ألا تراه يحكي عن بلقيس حين قالت: ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾[3]. إلا فمن قرأها معتقداً لموالاة محمد وآله الطيبين، منقاداً لأمرها مؤمناً بظاهرها وباطنها أعطاه الله عزَّ وجلَّ بكل حرف منها حسنة كل

---

(١) بحار الأنوار ج٨٩، ص٢٣٧، طبعة مؤسسة الوفاء.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٨٧.

(٣) سورة النمل، الآيتان: ٢٩ ـ ٣٠.

واحدة منها أفضل له من الدنيا بما فيها من أصناف أموالها وخيراتها، ومن استمع إلى قارىء يقرؤها كان له قد ثلث ما للقارىء، فليستكثر أحدكم من هذا الخير المعرّض لكم فإنه غنيمة، لا يذهبن أوانه فتبقىٰ في قلوبكم الحسرة[1].

٣ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عزَّ وجل: قسمت فاتحة الكتاب بيني وبين عبدي، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل. إذا قال العبد: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال الله عزَّ وجل: بدأ عبدي باسمي، وحق عليّ أن أتمم له أموره، وأبارك له في أحواله.

فإذا قال ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ قال الله جلَّ جلاله: حمدني عبدي، وعلم أن النعم التي له من عندي، وأنا البلايا التي دفعت عنه فبتطولي، أشهدكم أني أضيف له إلى نعم الدنيا نعم الآخرة، وأدفع عنه بلايا الآخرة كما دفعت عنه بلايا الدنيا.

فإذا قال ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ قال الله عزَّ وجل شهد لي بأني الرحمن الرحيم، أشهدكم لأوفرن من رحمتي حظه، ولأجزلن من عطائي نصيبه.

فإذا قال ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ قال الله جل جلاله: أشهدكم كما اعترف عبدي أني مالك يوم الدين لأسهلن يوم الحساب حسابه، ولأتقبلنَّ حسناته، ولأتجاوزن عن سيئاته.

---

(١) البحار، ج٨٩، ص٢٢٧ ـ ٢٢٨.

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ قال الله عزَّ وجل: صدق عبدي، إياي يعبد، أشهدكم لأثيبنه على عبادته ثواباً يغبطه كل من خالفه في عبادته لي.

فإذا قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ قال الله عزَّ وجل: بي استعان، وإليَّ إلتجأ، أشهدكم لأعيننه عل أمره، ولأغيثنه في شدائده، ولآخذنَّ بيده يوم نوائبه.

فإذا قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ - إلى آخر السورة - قال الله عزَّ وجلَّ: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل، فقد استجبت لعبدي، وأعطيته ما أمّل، وامنته عما منه وجل[1].

---

(١) البحار، ج٨٩، ص٢٢٦ ـ ٢٢٧.

الآية

١ ـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾

المفردات:

﴿بِسْمِ﴾: أي نتبدأ بهذا الإسم المبارك.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: ذو الرحمة الشاملة.

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: ذو الرحمة الدائمة.

المدخل:

هذه الآية الكريمة هي شعار القرآن، حيث تبتدأ سور القرآن كلها بهذه الآية ـ باستثناء سورة التوبة، حيث إنها بدأت بإعلان الحرب على الكفار فلا يناسب ذلك افتتاحها بالرحمة.

وحيث إن القرآن الكريم يحتوي على «١١٤» سورة، وحيث إن البسملة تكررت في سورة النمل مرتين، مرة في مفتتحها، ومرة في قوله تعالىٰ حكاية عن بلقيس ملكة سبأ حين ألقي إليها كتاب كريم ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠﴾.

لذا فالبسملة تكررت في القرآن الكريم (١١٤) مرّة بعدد سوره تماماً.

ولعل هذه التطابق يرمز إلى أن النظام التشريعي ـ الذي احتوى عليه القرآن الكريم ـ يبدأ من (الله) وتلفه الرحمة من أوله إلى آخره (كما أن النظام التكويني ـ الذي يستوعب الكون كله ـ كذلك).

كما أن هذه الآية الكريمة هي شعار المسلم في كل عمل يقوم به حيث ورد في الحديث الشريف «كل أمرٍ ذي بال لم يذكر فيه بسم الله فهو أبتر»[1].

وفي حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام: «سرقوا أكرم آية في كتاب الله ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾ وينبغي الإتيان به عند كل أمر عظيم أو صغير ليبارك فيه»[2].

لماذا البدء بالبسملة؟

من الضروري أن يكون هنالك تطابق تام بيه (الواقع الشعوري) و(الحقيقة الخارجية). لكي تكون مسيرة الفرد سليمة في الحياة.

أما إذا حدث الإنفصام بين الواقع الشعوري والحقيقة الخارجية فإن ذلك يؤدي إلى اختلال المسيرة وارتباك الأمور.

ويتضح ذلك إذا لاحظنا الحقيقتين التاليتين:

الحقيقة الأولى: أن المحرّك للإنسان هو الشيء بـ(وجوده العلمي) لا بـ(وجوده العيني)..

فلكل شيء وجودان حقيقيان: (عيني) يتمثل في الوجود الخارجي

---

(١) البحار ج٨٩، ص٢٤٢.
(٢) الميزان ج١، ص٢٣، ط٣.

للشيء ـ كوجود الشمس الخارجية في كبد السماء ـ و(علمي) يتمثل في الوجود الذهبي للشيء ـ كوجود الشمس في لوحة ذهنك حينما تتصورها، وإن كنت في ظلام الليل البهيم..

هذا مضافاً إلى وجودين آخرين اعتباريين هما (الوجود اللفظي والوجود الكتبي).

والذي يحرك الإنسان، هو الوجود العلمي للشيء لا الوجود العيني.

فإذا تصور الإنسان وجود خطر داهم يهدد حياته، كحيوان مفترس يحاول أن يلتهمه فإنه سوف يفر بنفسه، وإن لم يكن هذا التصور يملك أي رصيد من الواقع.

وبالعكس: إذا كان هنالك خطر حقيقي يهدد حياته لكنه لم يشعر بذلك الخطر فإنه سوف يظل في مكانه، دون أن يفكر في النجاة بنفسه.

فالمحرك للإنسان ـ بل لكل كائن واعٍ ـ هو الشيء بوجوده العلمي لا بوجوده العيني ـ حسبما تبيّن ببرهان الدوران والترديد الذي مرَّ آنفاً ـ.

الحقيقة الثانية: إن للحقائق الخارجية آثاراً وضعية، لا تناط بالعلم بها، بل تترتب عليها قهراً.

فالنظام التكويني نظام صارم، لا يتحمل أية معارضة، فكل خروج على هذا النظام يستتبع عواقب وخيمة دون فرق بين أن يكون الخارج عن النظام عالماً بعواقب خروجه، أو جاهلاً بذلك.

إن الجهل بالقانون أو بالآثار المترتبة قد يشفع لصاحبه في ارتفاع المؤاخذة القانونية، لكنه لن يكون شفيعاً له في ارتفاع الآثار التكوينية.

فمن تحدى قانون الجاذبية وحاول أن يطير إلى السماء من سطح عمارة شاهقة فسوف تطرحه الجاذبية أرضاً وتتركه جثة مُهشّمة دون حراك، وإن تصور أنه يستطيع أن يقلد الطيور في طيرانها، وهكذا في سائر الأمثلة...

وعلى ضوء هاتين الحقيقتين نستطيع أن نعرف أن أي إنفصام بين الواقع الشعوري والحقيقة الخارجية سوف يجر الفرد إلى الجري العملي وفق تصوراته الذهنية المناقضة للواقع وعندئذٍ يطاله عقاب التمرد على النظام الكوني دون هوادة..

عود إلى الآية:

وانطلاقاً مما تقدم نقول:

إن (الله) سبحانه وتعالى ـ في الواقع الخارجي ـ مبدأ لكل شيء... ومصدر لكل شيء... فهو الأول والآخر والظاهر والباطن... فكل (الذوات) تستمد كينونتها من كينونته، وكل (الصفات) تستمد وجودها من وجوده...

لأن كل (الذوات) وكل (الصفات) أمور ممكنة الوجود ـ أن لا تستمد الوجود من ذاتها ـ فأنت لم تكن ثم كنت، وعلمك لم يكن ثم كان ولا يستطيع أحد أن يدعي أن وجوده مستمدّ من ذاته إذ أن (فاقد الشيء لا يعطيه)، فلا بدّ أن ينتهي وجودك الإمكاني إلى وجود واجب بالذات ـ وهو الله سبحانه وتعالى ـ ولا بد أن ينتهي علمك الإمكاني إلى علم واجب بالذات ـ وهو علمُ الله سبحانه وتعالى ـ.

وحسب التعبير الفلسفي: فإن كل ما بالغير لا بد أن ينتهي إلى ما

بالذات.. فدسومة كل شيء من الدهن أما دسومة الدهن فمن ذاته.. ونورية كل شيء من الضوء أما نورية الضوء فمن ذاته..

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قبل كل شيء في الواقع الخارجي فيجب أن يكون قبل كل شيء في الواقع الشعوري لكي تتطابق الواقعيتان.. ولا يحدث أي انفصام بينهما.. فقبل كل شيء لا بد أن نرى الله سبحانه.. ونستشعر بوجوده وقدرته وهيمنته..

ولذا ورد في الحديث الشريف: «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وبعده ومعه)..

والالتفات إلى هذه الحقيقة ذو آثار جَمّة في فكر الإمام وسلوكه.. إذ سوف يتجه الإنسان بكله إلى ربه.. ويتوكل عليه.. ويستمد كل شيء منه.. ولا يعود يتخذ أرباباً من دون الله سبحانه بتوهم أنها تنفعه أو تضره.. إذ كل شيء في هذا الوجود مرهون بمشيئته سبحانه وتعالى.

أزمة الأمور طراً بيده والكل مستمدة من مدده

وقد روي: أنه لما أمر الملك بحبس يوسف عليه السلام بالسجن ألهمه الله تعالى تأويل الرؤيا فكان يعبر لأهل السجن فلما سأله الفتيان الرؤيا وعبّر لهما وقال للذي ظن أنه ناجٍ منهما اذكرني عند ربك، ولم يفزع في تلك الحال إلى الله فأوحى الله إليه:

من أراك الرؤيا التي رأيتها؟

قال يوسف: أنت يا رب.

قال: فمن حببك إلى أبيك؟

قال: أنت يا رب.

قال فمن وجّه إليك السيارة التي رأيتها؟

قال: أنت يا رب.

قال: فمن علمك الدعاء الذي دعوت به حتى جعلت لك من الجب فرجاً؟

قال: أنت يا رب.

قال: فمن أنطق لسان الصبي بعذرك؟

قال: أنت يا رب.

قال: فمن ألهمك تأويل الرؤيا؟

قال: أنت يا رب.

فقال سبحانه له: فكيف استعنت بغيري ولم تستعن بي وأمّلت عبدً من عبيدي ليذكرك إلى مخلوق من خلقي وفي قبضتي ولم تفزع إليّ؟ ألبث في السجن بضع سنين [عقوبة على تركه الأولىٰ][1].

وعن الصادق عليه السلام: أنها كانت سبع سنين[2].

وقد روي أيضاً أن جبرائيل عليه السلام أتىٰ يوسف عليه السلام، فضرب برجله حتى كشط له عن الأرض السابعة.

فقال له: يا يوسف انظر ماذا ترى؟

---

(١) بحار الأنوار، ج١٢، ص٢٤٦ وراجع أيضاً البحار ج٦٨، ص١١٣.

(٢) الأنبياء: حياتهم ـ قصصهم، للحسيني ص١٩٣.

فقال: أرى حجراً صغيراً.

ففلق الحجر فقال: ماذا ترى؟

قال: دودة صغيرة.

قال: فمن رازقها؟

قال: الله.

قال: فإن ربك يقول: لم أنس هذه الدودة في ذلك الحجر في قعر الأرض السابعة، أظننت أني أنساك حتى تقول للفتى: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾؟ لتلبثن في السجن بمقالتك هذه بضع سنين.

فبكى يوسف عند ذلك.. فتأذى به أهل السجن فصالحهم على أن يبكي يوماً ويسكت يوماً، فكان اليوم الذي يسكت فيه أسوء حالاً[1].

طَبعاً: هذا لا يعني عدم التوسل بالأسباب الطبيعية ـ بل يعني أن يعرف الإنسان أن وراء كل الأسباب (سبب الأسباب) وهو الله سبحانه وتعالى..

وعلى كل: فتكرار (البسملة) أمام كل سورة.. وقبل كل عمل.. ألفات إلى هذه الحقيقة.. فـ(بسم الله) يعني أننا نبدأ عملنا بهذا الإسم المبارك.. وتكرار ذلك قبل كل شيء يركز في الذهن هذه الحقيقة.. حقيقة بدء كل شيء بالله.. في الواقع الخارجي.. فينبغي الالتفات إلى هذه المبدئية في الواقع الشعوري.. وإعلان هذا الالتفات في التلفظ بكلمة (بسم الله) أمام كل عمل في الحياة..

---

(١) النور المبين ـ للجزائري ص٢١٣ ـ ٢١٤.

معنى الرحمة الإلهية:

«الرحمة» انفعال خاص يعرض على القلب عند مشاهدة النقص أو الحاجة، فيندفع الإنسان إلى رفع ذلك. .

فعندما يشاهد الإنسان يتيماً يرتجف من البرد، أو فقيراً أضناه الجوع، أو مظلوماً يتلوىٰ تحت سياط الظالمين تعرضه حالة الرقة، فيندفع لتغيير هذا الواقع. . وهذه هي الرحمة.

ولكن الله سبحانه ليس محلاً للحوادث ـ كما ثبت في علم الكلام ـ فإذا أطلقت هذه الكلمة على الله سبحانه أريد بها العطاء والإفاضة لرفع الحاجة. .

ومن هنا قيل: «خذ الغايات واترك المبادىء».

فالرحمة لها «مبدء» وهو الوصف الإنفعالي الخاص الذي يعرض على القلب و«منتهىٰ» وهي العطاء والإفاضة، فإذا أطلق هذا الوصف على الله سبحانه أريد بها «غايته» لا «مدؤه».

وهكذا بالنسبة إلى الصفات الأخرىٰ التي هي من هذا القبيل.

وقد ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام: «وأما الغضب فهو منا إذا غضبنا تغيرت طبايعنا، وترتعد أحياناً مفاصلنا، وحالت ألواننا، ثم نجيء من بعد ذلك بالعقوبات، فسمي غضباً، فهذا كلام الناس المعروف، والغضب شيئانْ أحدهما في القلب، وأما المعنىٰ الذي هو في القلب فهو منفي عن الله جلَّ جلاله، وكذلك رضاه وسخطه ورحمته على هذه الصفة»[1].

---

(١) نور الثقلين، ج١، ص٢٤.

وفي نهج البلاغة أن أمير المؤمنين قال: ـ«رحيم لا يوصف بالرقة»[1] وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إن الرحمة وما يحدث لنا: منها شفقة، ومنها جود، وإن رحمة الله ثوابه لخلقه، وللرحمة من العباد شيئان: أحدهما يحدث في القلب: الرأفة والرقة لما يرى بالمرحوم من الضرّ والحاجة وضروب البلاء، والآخر ما يحدث منا بعد الرأفة واللطف على المرحوم والمعرفة منا بما نزل به، وقد يقول القائل: انظر إلى رحمة فلان وإنما يريد الفعل الذي حدث عن الرقة التي في قلب فلان، وإنما يضاف إلى الله عزَّ وجل من فعل ما حدث عنا من هذه الأشياء، وأما المعنى الذي في القلب فهو منفي عن الله كما وصف عن نفسه، فهو رحيم لا رحمة رقة»[2].

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ③﴾:

يذهب بعض المفسرين إلى أن (الرحمٰن) هو ذو الرحمة الشاملة، فتعم المؤمنين والكافرين، والمحسنين والمسيئين، وكل موجود في هذه الحياة الدنيا. بينما (الرحيم) هو: ذو الرحمة الدائمة. وذلك ما يختص بالمؤمنين وحدهم.

ومن هنا قسموا الرحمة إلى «رحمة رحمانية» تعم الجميع و«رحمة رحيمية» تختص بالمؤمنين فقط.

ويستدلون على ذلك: ـ

أولاً: إن كلمة (رحمٰن) على وزن (فعلان) وهذه الصيغة تدل على الكثرة والمبالغة[3].

(١) المصدر ص١٣.

(٢) نور الثقلين ـ ج١، ص١٤.

(٣) وذلك نحو (غضبان) الذي يقال لمن امتلأ غضباً

بينما كلمة (رحيم) على وزن (فعيل) وهي صفة مشبهة فتدل على الثبات والدوام[1].

ثانياً: ما رويَّ عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «الرحمن بجميع خلقه، الرحيم بالمؤمنين خاصّة»[2].

وروي عنه أيضاً أنه قال: ـ

«الرحمن اسم خاص لصفة عامة، والرحيم اسم عام لصفة خاصة»[3].

وقد فسر ذلك بأن ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ اسم مختص بالله سبحانه فلا يطلق على غيره، لكنه يعبر عن صفة عامة وهي الرحمة الشاملة التي وسعت كل شيء.

و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ اسم عام لأنه يطلق على غير الله تعالى أيضاً، لكنه يعبر عن صفة خاصة وهي الرحمة الثابتة الخاصة بالمؤمنين فقط.

وعن النبي صلى الله عليه وآله أن عيسى بن مريم عليه السلام قال: «الرحمن رحمٰن الدنيا، والرحيم رحيم الآخرة»[4].

ولعلّنا نجد في بعض الآيات تلميحاً إلى هذه الحقيقة.

فقد قال سبحانه: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾[5].

---

(١) مثل «كريم» ونحوه.

(٢) بحار الأنوار ج٨٩، ص٢٢٩. وروي نظيره في نور الثقلين ج١، ص١٢. والبرهان ج١، ص٤٥ ط مؤسسة الوفاء.

(٣) مواهب الرحمان ج١، ص٢٢، الطبعة الثالثة وراجع مجمع البيان ج١، ص٢١ ونور الثقلين ج١، ص١٤.

(٤) التبيان، ج١، ص٢٩، ط دار إحياء التراث العربي.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٤٣.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾[3].

الرحمة الخاصة والرحمة العامة:

وسواء تم هذا الفرق أو لم يتم من الناحيتين: اللغوية والاصطلاحية فالذي يهمنا أن الرحمة الإلهية علىٰ نوعين:ـ

النوع الأول: رحمة عامة، تشمل كل الموجودات بلا استثناء من الجماد والنبات والحيوان والإنسان، والمؤمن والكافر والمنافق والصالح والطالح.

فلولا هذه الرحمة لم يفض الوجود على هذه الماهيات (الحقائق) ولم تنتقل من ظلمات (العدم) إلى نور (الوجود) ولم يتعهدها الله سبحانه بالإمداد المستمر والعناية الدائمة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة حيث قال ـ ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾[4].

وقال أيضاً: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ﴾[5].

وقال: ﴿فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾[6].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٧.
(٢) سورة مريم، الآية: ٧٥.
(٣) سورة طه، الآية: ٥.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.
(٥) سورة غافر، الآية: ٧.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٤٧.

وقــــال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾[1].

ونجد في الأحاديث الشريفة عينات تكشف عن جوانب من هذه الرحمة. . .

فقد روي عن الإمام العسكري عليه السلام «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن إبراهيم عليه السلام لما رفع في الملكوت وذلك قول ربي ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ قوّى الله بصره لما رفعه دون السماء حتى أبصر الأرض ومن عليها ظاهرين متسترين، فرأىٰ رجلاً وامرأة على فاحشة فدعا الله عليهما بالهلاك فهلكا!

ثم رأىٰ آخرين فدعا عليهم بالهلاك، فهلكا!

ثم رأىٰ آخرين فدعا عليهما بالهلاك، فهلكا!

ثم رأىٰ آخرين فَهَمَّ بالدعاء عليهما بالهلاك فأوحىٰ الله إليه: يا إبراهيم اكفف دعوتك عن عبادي وامائي، فإني أنا الغفور الرحيم الجبار العليم، لا تضرني دنوب عبادي كما لا تنفعني طاعتهم، ولست أسوسهم بشفاء الغيظ كسياستك فاكفف دعوتك عن عبادي، فإنما أنت عبد نذير، لا شريك في المملكة ولا مهين عليَّ ولا على عبادي، وعبادي معي بين خلال ثلاث:

أما تابوا إليَّ فتبت عليهم وغفرت ذنوبهم وسترت عيوبهم.

وإما كففت عنهم عذابي لعلمي بأنه سيخرج من أصلابهم ذريات

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٢٧.

مؤمنون، فأرفق بالآباء الكافرين واتأنّىٰ بالأمهات الكافرات وارفع عنهم عذابي ليخرج أولئك المؤمنون من أصلابهم، فإذا تزايلوا حق بهم عذابي وحاق بهم بلائي.

وإن لم يكن هذا ولا هذا فإن الذي أعددته لهم من عذابي أعظم مما تريدهم به»[1].

ونقل أيضاً ـ ما مضمونه ـ أن ضيفاً جاء إلى إبراهيم عليه السلام فلما مدّت المائدة لم يقل الرجل (بسم الله).

فسأله إبراهيم عليه السلام: عن ذلك؟

فقال الرجل: إنني لا أُؤمن أصلاً بوجود الله!

فلم يرضَ إبراهيم عليه السلام أن يؤاكل الرجل، فقام الرجل وخرج.

فأوحىٰ الله إليه: يا إبراهيم، إنني لم أقطع رزقي ورحمتي عن هذا الرجل منذ أن خلقته، ولم يمنعني كفره عن ذلك أفلم تستطع أن تضيفه يوماً واحداً؟

فقام إبراهيم عليه السلام، وذهب خلف الرجل، ليرجعه. فسأله الرجل عن السبب؟

فذكر له إبراهيم عليه السلام ما أوحىٰ به الله سبحانه إليه.

وكانت لحظات.. عاد فيها الرجل إلى وجدانه.. ليسلم علىٰ يدي إبراهيم عليه السلام لله رب العالمين..

ومن هنا نقرأ في الدعاء:

---

(١) بحار الأنوار ـ ج١٢، ص٦٠، وراجع أيضاً النور المبين ص١٣١ ط٨.

«يا من يعطي من سأله،

يا منيعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه تحنناً منه ورحمة»[1].

وأما النوع الثاني: فهي الرحمة الخاصة، وهي ـ كما سبق ـ تختص بالمؤمنين فقط.

مقومات الرحمة الخاصة:

لكي تتحقق ظاهرة ما لا بد من وجود مقومين:

١ ـ تمامية فاعلية الفاعل.

إذ الفاعل (معطي الوجود، أو معطي الحركة) لو لم يكن تام الفاعلية فلا يستطيع أن يحقق المطلوب.

فالمشلول مثلاً لا يستطيع أن يصنع سريراً أو ينحت تمثالاً ـ مثالاً ـ.

٢ ـ تمامية قابلية القابل.

فربما يكون الفاعل تام الفاعلية.. إلا أن القابل غير مؤهل لتلقي الفيض من (الفاعل)..

فالرياضي القدير ربما لا يستطيع أن يفهم الرجل البدوي الجاهل معادلات الجبر والمقابلة.. لا لقلة بضاعته العلمية، وإنما لضعف استعداد البدوي.

ومن هنا قال الشاعر:

والنجم تَسْتَصْغر الأبْصارُ رؤيته　　　والذَّنْبُ للعينِ لا للنجمِ في الصِغَرِ

---

(١) مفاتيح الجنان ـ الدعاء الثامن من الأدعية العامة لشهر رجب.

والله سبحانه تام الفاعلية، إذ لا عجز ولا بخر ولا شحّ في ساحة لطفه ورحمته . .

ولهذا فإن قدر الرحمة المفاضة يرتهن بقابلية القابل . . فلكما زدنا من القابلية في ذواتنا زادت الرحمة الإلهية المفاضة علينا .

وقد قال سبحانه : ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾[1].

وفي آية أخرىٰ : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

وفي آية ثالثة : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾[3].

وقال سبحانه : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾[4].

ومن هنا نجد : أن رحمة الله لمحمد ﷺ ولآله عليهم أفضل الصلاة والسلام أكثر ممن عداهما .

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ . .

قال عليه السلام : «المختص بالرحمة نبي الله ووصيه صلوات الله عليهما وآلهما ، إن الله خلق مأة رحمة تسعة وتسعون رحمة عنده مذخورة لمحمد وعلي وعترتهما عليهم السلام ورحمة واحدة مبسوطة على سائر الموجودين»[5] .

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.

(٣) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٧٥.

(٥) سفينة البحار ج١، ص٥١٧ مادة (رحم).

وقد ذكرت في الأحاديث الشريفة «أمور توجب الرحمة الإلهية الخاصة» نذكر منها:

١ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «بذكر الله تستنزل الرحمة»[١].

٢ ـ وعنه عليه السلام: «ببذل الرحمة تستنزل الرحمة»[٢].

٣ ـ وعنه عليه السلام: أبلغ ما تستدر به الرحمة أن تضمر لجميع الناس الرحمة»[٣].

٤ ـ وعن النبي صلى الله عليه وآله: «تعرضوا لرحمة الله بما أمركم به من طاعته»[٤]. إلى غيرها من الأحاديث الكريمة.

لماذا هاتان الصفتان؟

لله سبحانه صفات كثيرة.. وقد ذكر في دعاء الجوشن الكبير[٥] ألف اسم وصفة من أسماء وصفات الله سبحانهُ وتعالى.. فلماذا تمّ في هذا الشعار القرآني (البسملة) إختيار هاتين الصفتين بالذات؟

ثُمَّ إن (الرحمة) من (صفات الفعل)[٦].

---

(١) الغُرَرْ.
(٢) الغُرر.
(٣) الغرر.
(٤) تنبيه الخواطر ص٣٦٠.
(٥) راجع مفاتيح الجنان ـ للمحدث القمي رحمه الله
(٦) صفات الفعل هي تلك الصفات التي تنتزع من مقام الفعل ولذا يصح إثباتها للذات تارة، وسلبها عن الذات تارة أخرى، كالخالقية والرازقية ونحوهما، حيث نستطيع أن نقول مثلاً: كان الله ولم يكن معه شيء ثم (خلق) الأشياء، أما صفات الذات فهي تنتزع من مقام الذات ولا يصح سلبها من الذات مطلقاً كالعلم والقدرة ونحوهما.

ولا شك أن (صفات الذات) أشرف من صفات الفعل.

فلماذا تم انتخاب صفة من صفات الفعل دون صفة من صفات الذات ـ كالعلم مثلاً ـ؟

ويمكن الإجابة على هذا السؤال:ـ

أولاً: إن الرحمة الإلهية ذات صلة مباشرة بحياة الإنسان ـ بل بوجود الكون كله ـ فلولا الرحمة لم يكن الإنسان موجوداً... ولا كانت كمالاته الوجودية متحققة، فلم يكن هنالك علم ولا قدرة ولا نحوهما.

وارتهان الإنسان بكل وجوده بالرحمة الإلهية لا يقتصر علىٰ «الحدوث» فقط.. بل يشمل «الحدوث» و«البقاء» معاً.. فكل فكرة تختلج في ذهنك، وكل نفس تتنفسه، وكل نبضة قلب و.. تتوقف على إمداد مباشر من الله سبحانه، ولو انقطع الفيض الإلهي لحظة لتوقف كل شيء، بل انتهىٰ كل شيء...

وبعبارة أُخرىٰ: ليست العلاقة بين الله سبحانه وبين مخلوقاته كالعلاقة بين البناء والبنّاء، حيث إن البيت الذي يشيّده البنّاء يتوقف عليه في الإيجاد فقط.. أما في البقاء فلا.. وقد يموت البنّاء ويتحول في رمسه إلىٰ رفات بينما يظل البيت الذي شيّده قائماً على أركانه.. فالبنّاء «علة محدثة» فقط ـ وليس «علة مبقية» أبداً (هذا مع الغض عن تطرق احتمال كونه «معدّاً» فحسب).

بل العلاقة بينه ـ سبحانه ـ وبين مخلوقاته كالعلاقة بين المولد الكهربائي وبين الضوء، حيث أنه بمجرد أن تنقطع علاقة المصباح بالمولد ينتهي الضوء.

أو كالعلاقة بين الإنسان و«صورة الذهنية» حيث إنك عندما تصرف النظر عن الصورة التي خلقتها في ذهنك فإنها تنعدم فوراً، ولا يبقىٰ منها عين ولا أثر.. فبقاؤها في ذهنك يتوقف علىٰ توجهك بشكل مستمر نحوها[1].

ونجد في القرآن الكريم إشارات إلى هذه الحقيقة.

يقول الله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾[2].

ويقول تعالىٰ: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾[3].

ويقول جل وعلا: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾[4].

وقد بُرهن على هذه الحقيقة في (علم الكلام) والفلسفة الإسلامية.

ثانياً: لولا الرحمة الإلهية لم تكن السماء تمن علىٰ الأمة ببعث الرسل ولولاها لم يكن هذا القرآن..

﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾[5].

فكما أن الرحمة الإلهية ذات صلة مباشرة بكتاب الله التكويني ـ أي الكون بما فيه من إنسان وحيوان ونبات وغيرها ـ كذلك هي ذات صلة مباشرة بكتاب الله التدويني ـ أي القرآن الكريم ـ.

---

(١) سقنا هذين المثالين لمجرد تقريب الذهن.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٤.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٣٣.
(٤) سورة هود، الآية: ٥٦.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

فلم يكن أنزال القرآن الكريم وتشريع القوانين منبعثاً عن حاجة الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ فهو الغني المطلق، لا تنفعه عبادة من عبده، ولا تضره معصية من عصاه، وإنما هي الرحمة الإلهية وراء ذلك كله.

فكان من الحريّ أن تبدأ كل سورة في هذا الكتاب بصفة «الرحمة».

ثالثاً: إتّسم الحكام ـ غالباً ـ على مرِّ التاريخ بالقسوة والظلم والجبروت والطغيان.. فـ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾[1].

ليس فقط في دائرة «المجتمع الكبير» ـ أي الدولة ـ بل حتىٰ في إطار «المجتمع الصغير» ـ أي العائلة ونحوها ـ فكل شخص ملك أزمة الأمور في إطار ـ ولو صغير ـ يتعدىٰ ويظلم ولا يراعي موازين العدل والإنصاف ـ غالباً ـ.

والتركيز على صفة «الرحمة» في هذا الشعار القرآني الفات إلى أن الله سبحانه ـ رغم كون كل شيء بيده ـ ليس كسائر الملوك والحكام، بل هو منبع اللطف والرحمة، ومعدن الكرم والجود.

وفي ذلك أيضاً ردّ على تلك التصورات البشرية الخاطئة التي تناولت طبيعة العلاقة بين الربّ والمربوبين.

فالله سبحانه من منظار الإسلام: «لا يطارد عباده مطاردة الخصوم والأعداء كآلهة الأولمب في نزواتها وثوراتها كما تصورها أساطير الإغريق، ولا يدبر لهم المكائد الإنتقامية كما تزعم الأساطير المزورة في «العهد القديم» كالذي جاء في أسطورة برج بابل في الأصحاح الحادي عشر من سفر التكوين: [حيث يقول]:

---

(١) سورة العلق، الآية: ٧.

«وكانت الأرض كلها لغة واحدة وكلاماً واحداً، وكان أنهم لما رحلوا من المشرق وجدوا بقعة في أرض شعار فأقاموا هناك وقال بعضهم لبعض: تعالوا نصنع لبناً وننضجه طَبْخاً، فكان لهم اللبن بدل الحجارة، والخمر كان لهم بدل الطين، وقالوا تعالوا نبنِ لنا مدينة وبرجاً رأسه إلىٰ السماء ونقم لنا اسماً كي لا نتبدد علىٰ وجه الأرض كلها. فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونها.

وقال الرب:

هوذا هم شعب واحد لجميعهم لغة واحدة وهذا ما أخذوا يفعلونه والآن لا يكفون عما هموا به حتىٰ يصنعوه، هلم نهبط ونبلبل هناك لغتهم حتىٰ لا يفهم بعضهم لغة بعض! فبددهم الرب من هناك على وجه الأرض كلها وكفوا عن بناء المدينة، ولذلك سميت «بابل» لأن الرب هناك بلبل لغة الأرض كلها، ومن هناك شتتهم الرب علىٰ كل وجهها»![1].

هل البسملة آية قرآنية؟
وهل تقرأ في الصلاة؟

اختلفت الآراء في ذلك[2].

فذهب مالك والأوزاعي إلى أنها ليست من القرآن، ومنعا من قراءتها في الفرائض مطلقاً، نعم أجازا قراءتها في النافلة»[3].

---

(١) في ظلال القرآن ص٢٤ ط١١.

(٢) ما ذكرناه في هذا البحث مقتبس من كتاب «مسائل فقهية»، للعلامة السيد عبد الحسين شرف الدين (قدس سره).

(٣) راجع «بداية المجتهد) لابن رشد ج١، ص٩٦ ـ والتفسير الكبير للفخر الرازي ـ ج١، ص١٠٠.

أما أبو حنيفة والثوري وأتباعهم فقرؤها في افتتاح (الحمد) ولكن أوجبوا إخفاتها.

والشافعي قرأها في الجهريات جهراً وفي الإخفاتيات إخفاتاً، وعدها آية من «الفاتحة» وهذا هو قول أحمد بن حنبل أيضاً، واختلف المنقول عن الشافعي في أنها آية من كل سورة أم أنها ليست بآية في غير «الفاتحة»[1].

أما الشيعة الإمامية فقد اتفقوا ـ تبعاً لأئمة الهدىٰ عليهم السلام ـ على أنها آية تامة في جميع سور القرآن الكريم (عدا سورة براءة).

والنصوص في ذلك من أئمة أهل البيت عليهم السلام متواترة، إما عن طريق العامة فهنالك روايات كثيرة تدل على ذلك:

١ ـ عن ابن جريح عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ قال: فاتحة الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ وقرأ السورة ـ.

قال ابن جريح: فقلت لأبي: لقد أخبرك سعيد عن ابن عباس أنه قال: بسم الله الرحمن الرحيم آية؟ قال: نعم[2].

٢ ـ ما صحَّ عن ابن عباس أيضاً قال: إن النبي صلى الله عليه وآله كان إذا جاءه جبرائيل فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، علم أنها سورة[3].

---

(١) راجع التفسير الكبير ـ في تفسير البسملة.

(٢) راجع تفسير سورة الفاتحة من كتاب التفسير من المستدرك للحاكم ومن تلخيصه للذهبي ص٢٥٧ ج٢، وقد صرح الحاكم والذهبي بصحة إسناد الحديث.

(٣) أخرجه الحاكم في كتاب الصلاة من مستدركه ص٢٣١، ج١.

٣ ـ ما صح عن ابن عباس أيضاً قال: كان النبيُّ ﷺ لا يعلم ختم السورة حتىٰ تنزل بسم الله الرحمن الرحيم[١].

٤ ـ ما صح عنه أيضاً قال: كان المسلمون لا يعلمون انقضاء السورة حتىٰ تنزل (بسم الله الرحمن الرحيم) فإذا نزلت (بسم الله الرحمن الرحيم) علموا أن السورة قد انقضت[٢].

٥ ـ ما صح عن أم سلمة قالت: كان النبيُّ ﷺ يقرأ (بسم الله الرحمٰن الرحيم) الحمد لله رب العالمين إلى آخرها ـ يقطعها حرفاً حرفاً[٣].

وعن أم سلمة من طريق آخر قالت: إن رسول الله ﷺ قرأ في الصلاة (بسم الله الرحمن الرحيم) وعدّها آية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ آيتين ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثلاث آيات.. الحديث[٤].

٦ ـ ما صح عن نعيم المجمر قال: كنت وراء أبي هريرة فقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) ثم قرأ بأم الكتاب حتىٰ بلغ ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: آمين، فقال الناس: آمين. فلما سلم قال: والذي نفسي بيده إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ[٥].

---

(١) مستدرك الحاكم ـ كتاب الصلاة ـ ج١، ص٢٣١ والذهبي في التلخيص، وقد صرّحا بصحة الحديث.
(٢) مستدرك الحاكم ج١، ص٢٣٢. قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، وصححه الذهبي أيضاً في التلخيص.
(٣) مستدرك الحاكم ج١، ص٢٣٢ والذهبي في تلخيصه، وقد صرّحا بصحة الحديث.
(٤) المصدر.
(٥) مستدرك الحاكم ج١، ص٢٣٢ والذهبي في تخليصه وقد صرحا بصحة الحديث.

وعن أبي هريرة أيضاً قال: كان رسول الله ﷺ يجهر في الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم[1].

٧ ـ ما صح عن أنس بن مالك قال: صلىٰ معاوية بالمدينة فجهر فيها بالقراءة فقرأ فيها بسم الله الرحمن الرحيم لام القرآن ولم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم للسورة التي بعدها حتىٰ قضىٰ تلك القراءة.

فلما سلم ناداه من سمع ذلك من المهاجرين والأنصار من كل مكان:

يا معاوية أسرقت الصلاة أم نسيت؟

فلما صلىٰ بعد ذلك قرأ بسم الله الرحمن الرحيم للسورة التي بعد أم القرآن أخرج هذا الحديث الحاكم في المستدرك وصححه على شرط مسلم[2].

وأخرجه غير واحد من أصحاب المسانيد كالشافعي في مسنده[3].

وعلق علىٰ ذلك بقوله: «إن معاوية كان سلطاناً عظيم القوة شديد الشوكة فلولا أن الجهر بالبسملة كان كالأمر المقرر عند كل الصحابة من المهاجرين والأنصار لما قدروا على إظهار الإنكار عليه بسبب ترك التسمية»[4].

---

(١) المصدر، وأخرجه البيهقي في السنن الكبيرة كما ذكره الرازي في تفسيره ج١، ص١٠٥.
(٢) وأورده الذهبي في تلخيص المستدرك وصححه على شرط مسلم.
(٣) راجع مسند الشافعي ص١٢.
(٤) كما نقله الرازي في التفسير الكبير ج١، ص١٠٥.

٨ ـ ما صح أيضاً عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يجهر في الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم[١].

٩ ـ ما صح عن محمد بن السري العسقلاني قال:

صليت خلف المعتمر بن سليمان ما لا أحصي صلاة الصبح والمغرب فكان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم قبل فاتحة الكتاب وبعدها للسورة. وسمعت المعتمر يقول: ما آلوا أن اقتدي بصلاة أبي، وقال أبي: ما آلوا أن اقتدي بصلاة أنس بن مالك.

وقال أنس: ما آلوا أن أقتدي بصلاة رسول الله ﷺ[٢].

وعن قتادة قال: سئل أنس بن مالك كيف كانت قراءة رسول الله ﷺ؟

قال: كانت مداً ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) يمد الرحمن ويمد الرحيم[٣].

وعن حميد الطويل عن أنس بن مالك قال: صليت خلف النبي وخلف أبي بكر وخلف عمر وخلف عثمان وخلف علي فكلهم كانوا يجهرون بقراءة بسم الله الرحمن الرحيم[٤].

١٠ ـ وقد ذكر الرازي أن البيهقي روى الجهر بالبسملة في سننه عن عمر بن الخطاب وابن عباس وابن عمر وابن الزبير ثم قال الرازي:

وأما إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يجهر بالبسملة فقد ثبت

---

(١) أخرجه الحاكم وأورده الذهبي في باب الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم وقالا رواة هذا الحديث عن آخرهم ثقاة.

(٢) مستدرك الحاكم ـ وتلخيص الذهبي ـ وقد نصا أن رواته عن آخرهم ثقاة.

(٣) مستدرك الحاكم.

(٤) المصدر.

بالتواتر ومن اقتدىٰ في دينه بعلي بن أبي طالب فقد اهتدى، والدليل عليه قول رسول الله ﷺ «اللهم أدر الحق مع علي حيث دار»[1].

وهنالك حجة أخرىٰ علىٰ أن البسملة آية في كل سورة وهي: ـ أن الصحابة كافة ومن بعدهم إلىٰ يومنا هذا أجمعوا إجماعاً عملياً علىٰ كتابة البسملة في بداية كل سورة ـ عدا سورة براءة ـ كما كتبوا سائر الآيات بلا ميزة مع أنهم مطبقون على أن لا يكتبوا شيئاً من غير القرآن إلا بميزة تميزه عنه حرصاً منهم على أن لا يختلط فيه شيء من غيره، وقلَّ أن تجتمع الأمة على أمر كاجتماعها علىٰ ذلك، وهذا دليل على أن البسملة آية مستقلة في بداية كل سورة.

دليل آخر:

من المشهور المأثور عن رسول الله ﷺ قوله: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع[2] أو أبتر أو أجذم»[3].

فهل يمكن أن يكون القرآن وهو أفضل ما أوحاه الله إلى أنبياءه أقطع؟ وهل يمكن أن تكون الصلاة ـ وهي خير العمل ـ بتراء جذماء؟

أما المخالفون فقد احتجوا بحجج لا تصمد أمام النقد العلمي، وقد فندها شرف الدين (قدس سره) في كتابه[4].

---

(١) التفسير الكبير ج١، ص١٠٥.

(٢) الجامع الصغير للسيوطي ـ حرف الكاف ـ ج٢، ص٩١. كنز العمال ـ ج١، ص١٩٣ ـ حديث رقم ٢٤٩٧.

(٣) التفسير الكبير ـ للرازي ج١، في تفسير البسملة.

(٤) مسائل فقهية، ص٣٢ ـ ٣٩.

تتمة:

ذكر السيوطي في «الدر المنثور» روايات تدل على أن البسملة أية من القرآن نذكر منها:

١ ـ أخرج بن الضريس عن ابن عباس قال: «بسم الله الرحمن الرحيم» آية.

٢ ـ أخرج أبو عبيد وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس قال: أغفل الناس آية من كتاب الله لم تنزل على أحد سوى النبي ﷺ إلا أن يكون سليمان بن داود عليه السلام: بسم الله الرحمن الرحيم.

٣ ـ أخرج الواحدي عن ابن عمر قال: نزلت بسم الله الرحمن الرحيم في كل سورة.

٤ ـ أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر أنه كان يقرأ في الصلاة (بسم الله الرحمن الرحيم) فإذا ختم السورة قرأها ويقول: «ما كنت في المصحف إلا لتقرأ».

٥ ـ أخرج الثعلبي عن علي بن زيد بن جدعان: أن العبادلة كانوا يستفتحون القراءة ببسم الله الرحمن الرحيم يجهرون بها: عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير.

٦ ـ أخرج الثعلبي عن أبي هريرة قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد إذ دخل رجل يصلي فافتتح الصلاة وتعوذ ثم قال ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ فسمع النبي ﷺ فقال له: يا رجل قطعت على نفسك الصلاة أما علمت أن بسم الله الرحمن الرحيم من الحمد فمن تركها فقد ترك آية ومن ترك آية فقد أفسد عليه صلاته.

وهنالك روايات أخرى ذكرها السيوطي نتركها خوف الإطالة فمن أحب فليراجع الكتاب المذكور[1].

روايات في البسملة

عن الإمام الصادق عليه السلام: «لا تدع ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وإن كان بعده شعر»[2].

وفي الحديث أنه دخل عبد الله بن يحيىٰ على أمير المؤمنين عليه السلام وبين يديه كرسي فأمره بالجلوس عليه فجلس عليه فمال به حتىٰ سقط على رأسه فأوضح عن عظم رأسه وسال الدم فأمر أمير المؤمنين عليه السلام بماء فغسل عنه ذلك الدم.

ثم قال: ادن مني.

فوضع يده على موضحته، وقد كان يجد من ألمها ما لا صبر له معه، ومسح يده عليها. . . فما هو أن فَعَل ذلك حتى اندمل، فصار كأنه لم يصبه شيء قطّ.

ثم قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: يا عبد الله الحمد لله الذي جعل تمحيص ذنوب شيعتنا في الدنيا بمحنهم، لتسلم لهم طاعاتهم، ويستحقوا عليها ثوابها.

فقال عبد الله بن يحيىٰ: وانا لا نجازىٰ بذنوبنا إلا في الدنيا؟

قال عليه السلام: نعم، أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»؟ إن الله يطهر شيعتنا من ذنوبهم في الدنيا بما يبتليهم

---

(١) راجع الدر المنثور ج١، ص٧ ـ ٨ ط دار المعرفة بيروت.

(٢) نور الثقلين، ج١، ص٦.

به من المحن، وبما يغفره لهم فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾[1] حتى إذا أوردوا القيامة توفرت عليهم طاعاتهم وعباداتهم، وإن أعداء آل محمد يجازيهم عن طاعة تكون منهم في الدنيا ـ وإن كان لا وزن لها لأنه لا إخلاص معها ـ إذا وافوا القيامة حملت عليهم ذنوبهم، وبغضهم لمحمد وآله، وخيار أصحابه فقذفوا في النار.

ولقد سمعت محمداً رسول الله ﷺ يقول: إنه كان فيما مضىٰ قبلكم رجلان أحدهما مطيع لله مؤمن، والآخر كافر به مجاهر بعداوة أوليائه وموالاة أعدائه. وكل واحد منهما ملك عظيم في قطر من الأرض، فمرض الكافر واشتهى سمكة في غير أوانها لأن ذلك الصنف من السمك كان في ذلك الوقت في اللجج بحيث لا يقدر عليه، فآيسته الأطباء من نفسه.

وقالوا له: استخلف على ملكك من يقوم به، فلست بأخلد من أصحاب القبور، فإن شفاءك في هذه السمك التي اشتهيتها ولا سبيل إليها.

فبعث الله ملكاً وأمره أن يزعج تلك السمكة إلى حيث يسهل أخذها فأخذت له تلك السمكة فأكلها وبرىء من مرضه وبقىٰ في ملكه سنين بعدها.

ثم إن ذلك الملك المؤمن مرض في وقت كان جنس ذلك السمك بعينه لا يفارق الشطوط التي يسهل أخذه منها، مثل علة الكافر، فاشتهىٰ

---

(١) سورة الشورة، الآية: ٣٠.

تلك السمكة ووصفها له الأطباء وقالوا: طب نفساً فهذا أوانه، تؤخذ لك فتأكل منها وتبرأ.

فبعث الله سبحانه وتعالىٰ ذلك الملك وأمره أن يزعج جنس تلك السمكة عن الشطوط إلى اللجج لئلا يقدر عليها، فلم يوجد حتى مات المؤمن من شهوته وبُعد دوائه.

فعجب من ذلك ملائكة السماء، وأهل ذلك البلد في الأرض حتى كادوا يفتنون، لأن الله سبحانه سَهَّلَ على الكافر ما لا سبيل إليه، وعَسَّرَ على المؤمن ما كان السبيل إليه سهلاً، فأوحى الله تعالى إلىٰ ملائكة السماء وإلى نبي ذلك الزمان في الأرض.

إني أنا الله الكريم المتفضل القادر، لا يضرني ما أعطي، ولا ينقصني ما أمنع، ولا أظلم أحداً مثقال ذرة، فأما الكافر فإنما سهلت له أخذ السمكة في غير أوانها ليكون جزاءاً على حسنة كان عملها، إذ كان حقاً عليّ الاّ أُبطل لأحدٍ حسنته، حتى يرد القيامة ولا حسنة في صحيفته ويدخل النار بكفره، ومنعت العابد تلك السمكة بعينها لخطيئة كانت منه فأردت تصحيفها عنه بمنع تلك الشهوة وإعدام ذلك الدواء، وليأتيني ولا ذنب عليه فيدخل الجنة.

فقال عبد الله بن يحيىٰ: يا أمير المؤمنين قد افدتني وعلمتني، فإن أردتُ أن تعرفني ذنبي الذي امتحنتُ به في هذا المجلس حتى لا أعود إلى مثله.

قال عليه السلام: تركك حين جلست أن تقول «بسم الله الرحمن الرحيم» فعجل ذلك لسهوك عما نُدِبْتَ إليه تمحيصاً بما أصابك، أما علمت أن

رسول الله ﷺ حدثني عن الله عزَّ وجل كل أمر ذي بال لم يذكر فيه «بسم الله» فهو أبتر؟

فقلت: بلىٰ بأبي أنت وأمي لا أتركها بعدها.

قال عليه السلام: إذاً تحظىٰ بذلك وتسعد.

ثم قال عبد الله بن يحيىٰ: يا أمير المؤمنين وما تفسير (بسم الله الرحمن الرحيم)؟

قال عليه السلام: إن العبد إذا أراد أن يقرأ أو يعمل عملاً فيقول: بسم الله الرحمن الرحيم» فإنه يبارك له فيه[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: ولربما ترك بعض شيعتنا في افتتاح أمره بسم الله الرحمن الرحيم فيمتحنه الله عزَّ وجل بمكروه لينبهه على شكر الله تبارك وتعالى والثناء عليه ويمحو عنه وصمة تقصيره عند تركه قول بسم الله الرحمن الرحيم[2].

---

(١) البحار ج٨٩ ص٢٤١ ـ ٢٤٢.

(٢) نور الثقلين ج١، ص٨. وراجع أيضاً البحار ج٨٩، ص٢٤٠ ـ ٢٤١ والبرهان ج١، ص٤٥.

الآية

٢ ــ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾:

المفردات:

﴿ٱلْحَمْدُ﴾: الشكر، أو الثناء باللسان على الجميل الإختياري.

﴿رَبِّ﴾: مالك الشي الذي يرعاه ويهتم بتربيته وإصلاح شئونه.

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جمع عالم، والعالم مجموعة من الموجودات المختلفة تشترك في صفة من الصفات سواء كانت الصفة حقيقية أو انتزاعية أو اعتبارية، كعالم الإنسان وعالم الحيوان وعالم النبات.

الحمد: إلفات إلى الجانب المضيء من الحياة:

للحياة جانبان: جانب مظلم وجانب مضيء.

الجانب المظلم يتمثل في الفقر والمرض والكوارث التي تحل بالفرد أو بالمجتمع، وتدخل عليه الحزن والكآبة.

والجانب المضيء يتمثل في الغنىٰ والصحة والإنتصارات التي يحققها الفرد في الحياة ونحو ذلك.

وهٰذان الجانبان متشابكان في الحياة. . فلا يمكن أن يخلو منهما فرد أو مجتمع أبداً. .

فالدنيا ـ كما يقول الشاعر ـ:

حـلاوتـهـا مـمـزوجـة بـمـرارة وراحـتـهـا مـقـرونـة بـعـنـاء

وهنالك أفراد يركزون النظر على الجانب المظلم من الحياة. . فهم لا يرون البعد الإيجابي في الحياة، وإنما يركزون النظر على الجوانب السلبية، وذلك ما يستتبع مضاعفات خطيرة علىٰ:

أولاً: نفس الإنسان.. فلا يستمتع مثل هذا الفرد بما في الحياة من نعم، ولا بما منحه الله تعالىٰ من طيبات.. بل يظل دائم الكآبة والحزن.

يقول الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميْت إنـمـا الـمـيـت ميـت الأحـيـاء
إنما الـمـيت من يعيش كئيباً كـاسـفـاً بـالـه قـلـيـل الـرجـاء

ثانياً: وحيث إن النفس مؤثرة في البدن ـ كما ثبت ذلك في علم النفس وفي علم الطب حيث إن الحالات النفسية للإنسان تنعكس على الأداء الفسيولوجي للأعضاء ـ لذا فإن هذا الفرد يصاب بأمراض جسدية لا يجد عنها خلاصاً..

ثالثاً: وتنعكس هذه الحالة على سلوك الإنساني الخارجي.. فيكون شخصاً سيء الأخلاق، عنيف النزعة، لا يألف ولا يؤلف..

أما الذي يركز النظر على الجانب الإيجابي من الحياة فإنه على العكس سيكون مرتاح النفس، صحيح الجسم، حسن العشرة، متحملاً لما في الحياة من متاعب وآلام. .

ينقل أن كسرى سخط على بوذرجمهر ـ وكان وزيراً له ـ فحبسه في بيت مظلم وأمر أن يصفّد بالحديد فبقىٰ أياماً على تلك الحال.

فأرسل كسرىٰ إليه من يسأله عن حاله؟

فجاء الرسول فوجده منشرح الصدر مطمئن النفس.

فقال له: أنت في هذه الحالة من الضيق ونراك ناعم البال!

فقال بوذرجمهر: اصطنعت معجوناً مركباً من أخلاط معينة واستعملتها، وهذا المعجون هو الذي أبقاني علىٰ ما ترون!

قال الرسول: صف لنا هذه الأخلاط لعلنا ننتفع بها عند البلوىٰ.

فقال: نعم.

أما الخلط الأول: فالثقة بالله عزَّ وجلَّ.

وأما الثاني: فكل مقدر كائن.

وأما الثالث: فالصبر خير ما استعمله الممتحن.

وأما الرابع: فإذا لم أصبر فماذا أصنع، ولا أعين علىٰ نفسي بالجزع.

وأما الخامس: فقد يكون أشد مما أنا فيه.

وأما السادس: فمن ساعة إلى ساعة فرج.

فبلغ ما قاله كسرىٰ، فأطلقه وأعزه[1].

هذا مع أن كسرىٰ خيّر بوذرجمهر بأن ينتخب في خلال مدة سجنه: طعاماً واحداً، وملبساً واحداً، ومكاناً واحداً، لا يتعدها إلىٰ غيرها.

فاختار من الطعام: الحليب.

---

(١) سفينة البحار، ج٢، ص٧ مادة صبر.

ومن الملبس: الفرو.

ومن المكان: السرداب.

سأله كسرىٰ عن علة هذا الاختيار؟

فقال بوذرجمهر: أما الحليب فإنه طعام وشراب. وأما الفرو: فلأنه لباس الصيف والشتاء، إن لُبس هذا الجانب كان لباس الصيف، وإن لبس من الجانب الآخر كان لباس الشتاء.

وأما السرداب: فلأنه حار في الشتاء، وبارد في الصيف.

وفي الحديث: أن موسىٰ عليه السلام قال (لله تعالى): أراني أحب خلقك إليك وأكثرهم لك عبادة.

فأمره الله تعالىٰ أن ينتهي إلى قرية على ساحل بحر وأخبره أنه يجده في مكان قد سماه له.

فوصل عليه السلام إلى ذلك المكان، فوجد رجلاً مجذوماً مقعداً أبرص يسبّح لله تعالى.

فقال موسى عليه السلام: يا جبرائيل أين الرجل الذي سألت ربي أن يُرِيني إياه.

فقال جبرئيل: هو يا كليم الله هذا.

فقال موسى عليه السلام: يا جبرائيل إني كنت أحب أ أراه صواماً قواماً!

فقال جبرئيل: هذا أحب إلىٰ الله تعالىٰ وأعبد له من الصوام القوام، وقد أُمِرت [أي أمرني الله تعالىٰ] بإذهاب عينيه، فاسمع ما يقول.

فأشار جبرئيل إلى عينيه فسالتا علىٰ خديه.

فقال الرجل: [مخاطباً الله تعالى] متعتني بهما حيث شئت، وسلبتني إياهما حيث شئت، وأبقيت لي فيك طول الأمل يا بارّ يا وصول.

فقال له موسى عليه السلام: يا عبد الله إني رجل مجاب الدعوة، فإن أحببت أن أدعو لك الله تعالىٰ يرد عليك ما ذهب من جوارحك، ويبريك من العلة فَعَلْتُ.

فقال الرجل رحمة الله عليه: لا أُريد شيئاً من ذلك، إختياره لي أحب إلي من اختياري لنفسي.

فقال له موسى عليه السلام: سمعتك تقول: (يا بارّ يا وصول). ما هذا البر والصلة الواصلان إليك من ربك؟

فقال: ما أحد في هذا البلد يعرفه غيري ـ أو يعبده غيري ـ فراح موسىٰ عليه السلام متعجباً وقال: هذا أعبد أهل الدنيا[١] وعلى كل حال..

فإن تكرار المسلم لكلمة (الحمد لله) كل يوم عشر مرات على الأقل ـ في صلواته الخمسة المفروضة ـ الفات إلى الجانب المضيء من الحياة.. ولهذا الإلفات من الآثار النفسية والجسدية والإجتماعية ما لا يخفىٰ ـ وقد اتضح بعضها من خلال هذا البحث ـ.

هذا مضافاً إلى أن تذكر النعم الإلهية التي تغمرنا في كل لحظة «يدفع الإنسان علىٰ طريق العبودية، لأن الإنسان مفطور علىٰ أن يبحث عن صاحب النعمة.. ومفطور علىٰ أن يشكر المنعم على إنعامه. «من هنا فإن علماء الكلام (علماء العقائد) يتطرقون في بحوثهم الأولية لهذا العلم إلىٰ «وجوب شكر المنعم» باعتباره أمراً فطرياً وعقلياً دافعاً إلىٰ معرفة الله سبحانه»[٢].

وهنالك نقطة جديرة بالإلتفات وهي: أن (الجانب المظلم من

---

(١) سفينة البحار ج١، ص٥٢٤ ـ ٥٢٥.

(٢) الأمثل، ج١، ص٣٢.

الحياة) ـ متمثلاً في المرض والفقر والزلازل ونحوها ـ وإن بدا «مظلماً» في النظرة العابرة إلا أنه «مضيء» في واقعة، عند النظرة المتأملة، وهذا ما سوف نتطرق إليه في البحوث القادمة إن شاء الله تعالىٰ.

تفسير آخر لـــ«الحمد»

وثمة تفسير آخر للحمد، وإن لم يكن مبايناً للتفسير الأول[1] وهو أن الحمد يعني «الثناء باللسان على الجميل الأختياري». وهذا التفسير ليس مبايناً للتفسير الأول، بل هو أعم منه، إذ يشمل التفسير الأول ويشمل غيره أيضاً.

وحسب التعبير المنطقي: (الحمد) أعم مطلقاً من (الشكر) ـ بحسب المورد، وإن كان أخص منه بحسب الآلة إذ قد يؤدي الشكر بالقول تارة وبالعمل تارة أخرىٰ، بينما الحمد يؤدىٰ بالقول عادة ـ.

ولتوضيح هذا التفسير نقول: الصفات على نوعين:

١ ـ صفات متعدية.. ونعني بها ـ هنا ـ تلك الصفات التي توصف

(١) التفسير الأول هو أن الحمد مرادف للشكر كما ورد في رواية مروية عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «الحمد لله» الشكر لله (بحار الأنوار ج٨٩، ص٢٢٩، والبرهان ج١، ص٤٦.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال في حديث: «.. وأما قوله «الحمد لله رب العالمين» فذلك ثناء منا على ربنا تبارك وتعالىٰ بما أنعم علينا (البحار ج٨٩، ص٢٥٩) وعن تفسير الإمام العسكري عليه السلام نحوه (المصدر ص٢٤٦). وقد أشار إلى هذا المعنىٰ الطوسي رحمه الله في التبيان حيث قال: «ومعنى الحمد لله الشكر لله خالصاً دون سائر ما يعبد بما أنعم علىٰ عباده من ضروب النعم الدينية والدنيوية. وقال بعضهم: الحمد لله ثناء عليه بأسمائه وصفاته وقوله الشكر لله ثناء على نعمه وأياديه، والأول أصح في اللغة، لأن الحمد والشكر يوضع كل واحد منهم موضع صاحبه، ويقال أيضاً «الحمد لله شكراً» فنصب شكراً على المصدر، ولو لم يكن في معناه لما نصبه» (التبيان ـ ج١، ص٣١ ط دار إحياء التراث العربي ـ بيروت).

بها الذات، بلحظ خير يفاض منها على الآخرين، كإطعام الفقير وتعليم الجاهل، والعفو عن المسيء.. ونحو ذلك.

٢ ـ صفات لازمة.. ونعني بها ـ هنا ـ تلك الصفات التي تكون في أفق الذات أو تنتزع منها بدون لحاظ الإعتبار السابق.. كالعلم، والقدرة، والحياة، ونحو ذلك.

وعندما نقول (الحمد لله) فإننا نثني بذلك على كل صفة جميلة في الله سبحانه.. نثني علىٰ علمه كما نثني علىٰ جوده، وعلىٰ قدرته كما نثني علىٰ عفوه.. وهكذا..

ونجد في الأدعية إشارات إلى هذه الحقيقة:

مثلاً نقرأ في دعاء الإفتتاح:

«الحمد لله الذي ليس له منازع يعادله، ولا شبيه يشاكله، ولا ظهير يعاضده».

ونقرأ فيه أيضاً:

«الحمد لله على حلمه بعد علمه، والحمد لله على عفوه بعد قدرته، والحمد لله على طولِ أناته في غضبه وهو قادر علىٰ ما يريد»[١].

«اختصاص الحمد بالله»

وقد ذكر بعض المفسرين أن الألف واللام في (الحمد لله) للجنس ـ أي أن طبيعة الحمد مختصة بالله سبحانه ـ كما ذكر بعض آخر أنها للاستغراق ـ أي أن كل حمد فهو مختص بالله تعالى ـ.

والمآل علىٰ كلا التفسيرين ـ هنا ـ واحد.

---

(١) مفاتيح الجنان ـ للمحدث القمي (قدس سره) ـ دعاء الإفتتاح.

ويؤيد معنى «الإختصاص» ـ ولو في الجملة ـ الحديث المروي عن النبي ﷺ وقد جاء فيه:

«فإذا قال العبد: «الحمد لله رب العالمين» قال الله جل جلاله: حمدني عبدي، وعلم أن النعم التي له من عندي، وأنا البلايا التي دفعت عنه فبتطولي..»[1].

والسبب في ذلك: إن جميع الكمالات الوجودية تنتهي إلى الله تعالىٰ ـ بلا فرق في ذلك بين «الفواضل»، أي الصفات المتعدية، أو «الفضائل»، أي الصفات اللازمة ـ.

فإن كل ما سوىٰ الله سبحانه ممكن ـ بالإمكان الماهوي، والإمكان الوجودي ـ ولا بد للمكن أن ينتهي إلى «الواجب» القائم بذاته والغني بذاته، فبالضرورة ينتهي كل شيء إلى الله سبحانه فالشمس حينما تشرق، والأمطار حينما تهطل، والنبتة حينما تنمو.. و.. و.. فكل ذلك معلول لعلله التكوينية الخاصة، وبتقدم العلم في كل يوم تتوسع «دائرة العلية» في نظر الإنسان، فالإنسان يكتشف كل يوم عللاً خفية وراء الظواهر الطبيعية التي يعايشها، وعللاً وراء تلك العلل، ولكن مهما تصاعدت سلسلة العلل، فإنها لا بد أن تنتهي إلى سبب أول منه صدر كل شيء، وذلك السبب لا بد أن يكون غنياً بالذات، وقائماً بالذات، غير مفتقرٍ إلى غيره، لاستحالة أن تتسلسل العلل إلىٰ غير النهاية في منظار العقل.

هذا في الدائرة الجبرية..

وأما في الدائرة الإختيارية: فجهود المصلحين، وإنجازات العباقرة، وعطايا الخيرين و.. و.. لم يكن لها أن تتم إلا بفضل المواهب التي

---

(١) بحار الأنوار، ج٨٩، ص٢٢٦.

أودعها الله تعالىٰ فيهم. . فكل حمد وثناء في هذا الكون ينتهي إلى الله تعالىٰ، وبالحقيقة هو حمد وثناء لله سبحانه.

قال الله سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[2].

وقد ذكر العلامة الطباطبائي: ـ إن مفاد الآية الأولىٰ: أن كل ما هو شيء فهو مخلوق لله سبحانه. ومفاد الآية الثانية: أن كل شيء مخلوق فهو حسن ـ من جهة أنه مخلوق له منسوب إليه ـ فالحسن يدور مدار الخلق، وبالعكس. فلا خلق إلا وهو حسن جميل بإحسانه.

ولا حسن إلا وهو مخلوق له منسوب إليه[3].

ومن هنا كان الحمد مختصاً بذاته المقدسة.

قال الله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[5].

وقال جل وعلا: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾[6].

ومن المقرر في (علم البلاغة): أن تقديم ما من حقه التأخير يفيد الحصر، فتقديم الجار والمجرور في الآيات الكريمة دليل علىٰ انحصار الحمد في ذاته المقدسة.

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٢.
(٢) سورة السجدة، الآية: ٧.
(٣) تفسير الميزان، ج١، ص١٩، ط٥.
(٤) سورة التغابن، الآية: ١.
(٥) سورة الروم، الآية: ١٨.
(٦) سورة القصص، الآية: ٧٠.

وقد روي عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: فقد أبي بغلته فقال: لئن ردّها الله عليَّ لأحمدنه بمحامد يرضاها.

فما لبث أن أتى بها بسرجها ولجامها.

فركبها فلما استوىٰ عليها رفع رأسه إلى السماء فقال: (الحمد لله) لم يزد عليها!

فقيل له في ذلك فقال: وهل تركت شيئاً أو أبقيت شيئاً؟

جعلت الحمد كله لله عزَّ وجلّ[1].

وفي رواية أخرىٰ أنه عليه السلام قال: ما تركت ولا بقيت شيئاً، جعلت جميع أنواع المحامد لله عزَّ وجل، فما من حمد إلا وهو داخل فيما قلت[2].

العناية المستمرة

والله سبحانه لم يخلق الخلق ثم يتركهم هملاً، لأنه أرقىٰ من أن يفكر في موجودات تافهة كخلقه! كما كان يتصور بعض الفلاسفة.

ولا إنه خلق الكون، لتحكمه القوانين الطبيعية التي سنها، دون أن يستطيع التدخل في سير الأمور من بعد، كما كان يتصور اليهود حيث قالوا:

﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[3].

ولا أنه خلق البشر، وتركهم كالبهائم، دون أن يسن لهم أي قانون أو

---

(١) الدر المنثور، ج١، ص١٢٠، ط دار المعرفة.

(٢) البرهان، ج١، ص٤٦.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٣.

نظام، لأنه وهو في عرش كبريائه فوق أنهم يهتم بالإنسان الظلوم الجهول ـ كما ذهب إلى ذلك بعض الفلاسفة الجدد ـ.

بل هو سبحانه ـ ذو عناية مستمرة بالمخلوقات ورعاية دائمة بالموجودات. . لأن نفس الرحمة التي اقتضت خلق المخلوقات هي بنفسها تقتضي العناية والرعاية المستمرة بهذه المخلوقات. .

أجل، إنه «رب العالمين». . فلا تقتصر رعايته على الإنسان وحده بل تعمّ كل العوالم، عالم الجماد وعالم النبات وعالم الحيوان وغيرها من العوالم.

وقد روي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير كلمة (رب العالمين) أنه قال:

«رب العالمين هم الجماعات من كل مخلوق من الجمادات والحيوانات فأما الحيوانات فهو يقلبها في قدرته ويغنوها من رزقه ويحيطها بكنفه، ويدير كلاً منها بمصلحته وأما الجمادات فهو يمسكها بقدرته، يمسك المتصل منها أن يتهافت، ويمسك المتهافت منها أن يتلاصق، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ويمسك الأرض أن تنخسف إلا بأمره، إنه بعباده لرؤوف رحيم.

قال: و«رب العالمين» مالكهم وخالقهم وسائق أرزاقهم إليهم من حيث هم يعلمون ومن حيث لا يعلمون[1].

وهذه التربية نوعان:

١ ـ تربية تكوينية. . وذلك بالرعاية الشاملة لكل ما في الكون في الدائرة القسْرية.

---

(١) بحار الانوار، ج٨٩، ص٢٤٦. وراجع أيضاً نور الثقلين ج١، ص١٧ والبرهان، ج١، ص٤٩.

يقول الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[1].

ويقول سبحانه: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾[2]. ويقول جلّ وعلاً: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾[3].

ويقول جل جلاله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾[4].

ويقول عز من قائل: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾[5].

لاحظ هذه الصورة الحية الناصعة التي يرسمها القرآن الكريم للإحاطة الإلهية، وقارنها بتلك الصورة الباهتة المهتزة التي رسمها بعض الفلاسفة حيث قال بعضهم: إنه ـ تعالى ـ لا يعلم بوجود ذاته، وقال بعض آخر: إنه ـ سبحانه ـ لا يعلم بوجود مخلوقاته!

يقول السبزواري:

قد قيل لا علم له بذاته! وقيل لا يعلم معلولاته![6].

وقد نقل: إن سليمان عليه السلام كان جالساً على شاطىء بحر، فبصر بنملة تحمل حبة قمح تذهب بها نحو البحر، فجعل سليمان عليه السلام ينظر إليها حتى

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٣.

(٢) سورة هود، الآية: ٥٦.

(٣) سورة الأعلى، الآية: ٢.

(٤) سورة هود، الآية: ٦.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.

(٦) منظومة السبزواري؛ ص١٥٩ الطبعة الحجرية وقد نقل العلامة المجلي أن بعضهم أنكر كون الله تعالى عالماً بالجزئيات. بحار الأنوار، ج٥٧، ص١٩٨.

بلغت الماء، فإذا بضفدعة قد أخرجت رأسها من الماء ففتحت فاها، فدخلت النملة، وغاصت الضفدعة في البحر ساعة طويلة، وسليمان عليه السلام يتفكر في ذلك متعجباً.

ثم إن الضفدعة خرجت من الماء وفتحت فمها، فخرجت النملة ولم يكن معها الحبة.

فدعاها سليمان عليه السلام وسألها عن شأنها وأين كانت؟

فقالت النملة: يا نبي الله إن في قعر البحر الذي تراه صخرة مجوفة وفي جوفها دودة عمياء، وقد خلقها الله تعالى هنالك فلا تقدر أن تخرج منها لطلب معاشها، وقد وكلني الله برزقها، فأنا أحمل رزقها، وسخر الله تعالىٰ هذه الضفدعة لتحملني فلا يضرني الماء وأنا في فمها، وتضع فمها على ثقب الصخرة وأدخلها، ثم إذا أوصلت رزقها إليها وخرجت من ثقب الصخرة إلىٰ فمها أخرجتني من البحر.

فقال سليمان عليه السلام: وهل سمعت للنملة من تسبيحه؟

قالت الضفدعة: نعم، إنها تقول: «يا من لا ينساني في جوف هذه اللجة برزقك، لا تنسى عبادك المؤمنين برحمتك»[١].

٢ ـ تربية تشريعية: ـ وذلك بسن القوانين وبعث الأنبياء لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وإرشادهم إلى ما يصلح دنياهم وآخرتهم.

وقد شملت هذه التربية كل شيء في حياة الإنسان، حتى ارش الخدش، كما ورد في الأحاديث الكريمة[٢].

---

(١) النور المبين، ص٤٢٠ بتصرّف.
(٢) راجع البحار ج٢، ص١٧٠.

وسعادة الإنسان تكمن في خضوعه، باختياره ـ للتربية التشريعية كخضوعه ـ قسراً ـ للتربية التكوينية. وسوف نفصل الحديث في ذلك في البحوث القادمة بإذن الله تعالىٰ.

لا للربوبيات البديلة

حينما ابتعد الإنسان عن هدى السماء غرق خلال مسيرته الطويلة في متاهات فكرية قاتلة وابتلي بألوان متعددة من الإنحرافات العقائدية.. خاصة فيما يرتبط بقضية «التوحيد»..

فالثنوية اعتقدوا بوجود «إلهين» يدبران شئون هذا العالم أحدهما «إله النور» خالق كل خير في هذا الكون، والثاني «إلٰه الظلمة» وهو خالق كل شر في هذا العالم!

فالعالم في زعمهم مركب من أصلين قديمين، أحدهما نور والآخر ظلمة، وهما أزليان، ولم يزالا قويين حساسين سميعين بصيرين وهما متضادان في النفس والصورة والفعل والتدبير.

فجوهر النور: حس فاضل كريم نقي طيب الريح حسن المنظر!

وجوهر الظلمة: قبيح ناقص لئيم كدر خبيث منتن الريح قبيح المنظر!

ونفس النور: خيرة كريمة حكيمة ناعمة عالمة.

ونفس الظلمة: شريرة لئيمة سفيهة ضارة جاهلة.

وفعل النور: الخير والصلاح والنفع والسرور والترتيب والنظام والإتفاق.

وفعل الظلمة: الشر والفساد والضر والغم والتشويش والتبتير والاختلاف.. الخ..[1].

واليونانيون كانوا يعبدون اثنتي عشرة الهة وضعوها علىٰ قمة «أولمب»، وكل واحدة منها تمثّل جانباً من صفات البشر![2].

والكلدانيون اعتقدوا بإله للماء وإله للقمر وإله للشمس وإله للزهرة، وأطلقوا علىٰ كل واحد منها اسماً معيناً، واتخذوا فوق ذلك «مردوخ» إلهاً أكبر لهم.

والروم تعددت آلهتهم أيضاً، وراج سوق الشرك عندهم، فقد قسموا الآلهة إلى مجموعتين: آلهة الأسرة وآلهة الحكومة، ولم يكونوا يكنون ولاءاً لآلهة الحكومة (لتناقضهم مع حكومتهم).

وقد ورد في التاريخ: أنهم اتخذوا لهم ثلاثين ألف إله لكل مظهر من مظاهر الكون المشهودة إله، مثل إله الزراعة، وإله المطبخ، وإله مستودع الطعام، وإله البيت، وإله النار، وإله الفاكهة، وإله الحصاد وإله الغابة، وإله الحرق، وإله بوابة روما وإله بيت النار[3].

وكانت للعرب أصنام كثيرة يعبدونها من دون الله، وكانوا قد نصبوا أصنافاً متعددة في الكعبة كسرها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين فتح مكة[4].

---

(١) راجع دائرة معارف القرآن العشرين ج٢، ص٧٧٠ ط٣.

(٢) الأمثل، ج١، ص٣٦ نقلاً عن «اعلام قرآن ص٢٠٢».

(٣) المصدر ـ عن تاريخ «آلبرماله» ج١، الفصل الرابع.

(٤) راجع سفينة البحار، ج٢، ص٣٠ مادة (صعد).

وحين يكرر المسلم كل يوم «الحمد لله رب العالمين» فإنه يستذكر هذه الحقيقة. . حقيقة اختصاص الربوبية بالله سبحانه، وعدم مشاركة غيره له فيها.

تنبيه:

وهنا نقطة هامة ينبغي الالتفات إليها: وهي أن اختصاص الربوبية بالله سبحانه لا ينافي أن يمنح الله سبحانه تدبير بعض الأمور إلى غيره. .

ولتوضيح هذه النقطة نقول: إن تدبير الآخرين لبعض الشئون الكونية يمكن أن يفرض علىٰ نحوين:

النحو الأول: «التدبير العَرْضي» بأن تكون هناك آلهة تدير بعض الشئون بشكل مستقل، وبعيداً عن هيمنة الله سبحانه وتعالىٰ.

النحو الثاني: «التدبير الطَولي» بأن يمنح الله سبحانه تدبير بعض الشئون إلى ملك من ملائكته أو ولي من أوليائه، بحيث تكون قدرته مستندة إلى القدرة الإلهية، وتصرفه تابعاً للإرادة الربانية..

وهذا النحو الثاني لا مانع منه عقلاً. . فهو ممكن بـ«الإمكان الذاتي» و«الإمكان الوقوعي»(١). . وقد دل القرآن الكريم على «وقوعه» في الخارج. .

---

(١) الإمكان الذاتي عبارة عن تساوي نسبة الشيء إلى الوجود والعدم بحيث لا يقتضي بذاته أحدهما وهو في قبال (الامتناع الذاتي) الذي هو عبارة عن: كون الشيء بحيث يقتضي بذاته العدم اقتضاءاً حتمياً ويحكم العقل بمجرد تصوره أنه ممتنع الوجود كاجتماع النقيضين أو ارتفاعهما. والإمكان الوقوعي عبارة عن كون الشيء بحيث لا يستلزم وجوده ولا عدمه محذوراً عقلياً. وهو في قبال الإمتناع الوقوعي الذي هو عبارة عن كون الشيء بحيث يلزم من وقوعه الباطل والمحال وإن لم يكن بمحال ذاتاً.

يقول الله سبحانه:

﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾[1].

فهنالك ملائكة تدبر جوانب من شؤون هذا الكون بإذن الله سبحانه وتعالى.

وبهذا نستطيع أن نحل التناقض الموهوم بين بعض الأيات القرآنية فالله سبحانه عندما يقول: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾[2]. فإن ذلك لا يناقض قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾[3].. لأن الرسل عندما تتوفىٰ الأنفس فإنها تتوفاها تبعاً للإذن والقدرة التي منحها الله سبحانه لها.. ولذا يصح نسبة العمل إلى الله تعالىٰ، كما يصح نسبته إلى الملائكة.. والفارق بين النسبتين أن النسبة الأولىٰ «ذاتية» بينما النسبة الثانية «تبعية» فهو كما تقول أنت مرّة «أبصرت الظاهرة الفلانية» وتقول مرّة أخرى «أبصرتْ عيني الظاهرة الفلانية».. دون أن يكون هنالك تناقض بين النسبتين إطلاقاً.. وكذا عندما تقول «فتح الملك المدينة الفلانية» ونقول في الوقت ذاته «فتحت الجيوش المدينة الفلانية»..

وبهذا التقرير يمكن أن نثبت الشفاعة لغير الله سبحانه. . ولكن بإذن الله سبحانه. . فلا تنافي بين قوله سبحانه:

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾[5].

---

(١) سورة النازعات، الآية: ٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦١.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٤٤.

(٥) سورة يونس، الآية: ٣.

أو قوله جل وعلا: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[1].

إذ شفاعة الآخرين ـ كالأنبياء والأولياء عليهم السلام بإذن الله وبرضاه فلا يعني ذلك خروج أمر الشفاعة من بين يديه سبحانه.

وقد روي أن أبا حنيفة أكل طعاماً مع الإمام الصادق عليه السلام فلما رفع عليه السلام يده من أكله قال: «الحمد لله رب العالمين، اللهم إن هذا منك ومن رسولك» فقال أبو حنيفة: «يا أبا عبد الله أجعلت مع الله شريكاً؟ فقال له: ويلك إن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾[2].

ويقول في موضع آخر: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾[3].

فقال أبو حنيفة: والله لكأني ما قرأتهما قط من كتاب الله ولا سمعتهما إلا في هذا الوقت!

فقال أبو عبد الله عليه السلام: بلىٰ قد قرأتهما وسمعتهما، ولكن الله تعالىٰ أنزل فيك وفي أشباهك ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[4] وقال ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[5]»[6].

الآثار التربوية للإعتقاد بالربوبية الإلهية

ولا يخفى ما للإعتقاد بالربوبية الإلهية من الآثار التربوية في حياة

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٤.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٥٩.
(٤) سورة محمد، الآية: ٢٤.
(٥) سورة المطففين، الآية: ١٤.
(٦) بحار الأنوار، ج٤٧، ص٢٤٠.

الإنسان.. فالذي يعتقد أن الله سبحانه هو «رب العالمين» وأنه «لا رب سواه» سوف يتّجه إلى الله سبحانه في كل شيء.. ولا يركن لأية جهة أخرىٰ باعتقاد أنها تجلب له النفع أو تدفع عنه الضر، وحتىٰ عندما يتوسل بالأسباب الطبيعية للوصول إلى مقاصده فإنه يعلم أن سببية هذه الأسباب منوطة بإذن الله، ولو لم يأذن لها في التأثير فلن تؤثر الأثر المترقب منها إطلاقاً.

وقد روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال:

لما أُجْلِسَ إبراهيم عليه السلام في المنجنيق وأرادوا أن يرموا به في النار آتاه جبرئيل عليه السلام فقال: السلام عليك يا إبراهيم ورحمة الله وبركاته ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا.

فلما طرحوه [في النار] ودعا الله فقال: يا الله يا واحد يا أحد يا صمد يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

فحسرت النار عنه، وأنه لمحتبي ومعه جبرئيل وهما يتحدثان في رضوة خضراء[1].

وروي عن الحسين بن علوان قال: كنا في مجلس يطلب فيه العلم وقد نفدت نفقتي في بعض الأسفار فقال لي بعض أصحابنا: من تؤمّل لما قد نزل بك؟

---

(١) البحار ج١٢، ص٢٤ ولعله يمكن توجيه هذا الحديث بأن الله سبحانه جعل أسباباً للوصول إلى الغايات، بعضها طبيعي، وبعضها غيبي، وأمرنا بأن نسلك هذه الأسباب للوصول إلى تلك الغايات فجعل الدواء سبباً للشفاء وأمر بالتداوي. فقد قال النبي صلى الله عليه وآله: «تداووا فإن الله عزّ وجل لم ينزل داءاً إلا وأنزل له شفاءاً (البحار ج٥٩، ص٦٦) وجعل التوسل بالأنبياء عليهم السلام سبباً للقرب إليه تعالىٰ وأمر بذلك حيث قال سبحانه: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾

ويظهر من هذه الرواية أن التوسل بجبرئيل عليه السلام لم يكن الطريق الأمثل لخلاص إبراهيم عليه السلام من النار، وإنما كان الأفضل له عليه السلام الالتجاء المباشر إلى الواحد الأحد، فتأمل.

فقالت: فلاناً!

فقال: إذاً والله لا تُسعف بحاجتك، ولا يبلغك أملك، ولا تنجح طلبتك!

قلت: وما علمك رحمك الله؟

قال: إن أبا عبد الله[الصادق عليه السلام] حدثني أنه قرأ في بعض الكتب أن الله تبارك وتعالىٰ يقول:

وعزتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي لأقطعن أمل كل مؤمل من الناس أمل غيري باليأس، ولأكسونه ثوب المذلة عند الناس، ولأنجينه من قربي، ولأبعدنه من وصلي.

أيؤمل غيري في الشدائد، والشدائد بيدي؟

ويرجو غيري ويقرع بالفكر باب غيري وبيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة، وبابي مفتوح لمن دعاني؟

فمن ذا الذي أملني لنوائبه فقطعته دونها؟ ومن ذا الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاه مني؟

جعلت آمالي عبادي عندي محفوظة، فلم يرضوا بحفظي، وملأت سمواتي ممن لا يمل من تسبيحي وأمرتهم أن لا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي فلم يثقوا بقولي!

ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبي أنه لا يملك كشفها أحد غيري ـ ألا من بعد إذنه؟ فما لي أراه لاهياً عني؟ أعطيته بجودي ما لم يسألني ثم انتزعته عنه فلم يسألني، ردّه وسأل غيري.

أفيراني أبدأ بالعطايا قبل المسألة ثم أُسْأل فلا أجيب سائلي؟ أبخيل أنا فيبخلني عبدي؟ أوليس الجود والكرم لي؟ أوليس العفو والرحمة بيدي؟ أوليس أنا محل الآمال فمن يقطعها دوني؟ أفلا يخشى المؤملون أن يؤملوا غيري؟ فلو إن أهل سمواتي وأهل أرضي أملوا جميعاً ثم أعطيت كل واحد منهم مثل ما أمّل الجميع ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرة، وكيف ينقص ملك أنا قيّمه، فيا بؤساً للقانطين من رحمتي، ويا بؤساً لمن عصاني ولم يراقبني(١).

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٨، ص١٣٠ ـ ١٣١.

الآية

٣ ـــ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

المفردات:

الرحمن: ذو الرحمة الشاملة.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: ذو الرحمة الدائمة.

كيف نوفق بين الرحمة الإلهية ووجود الشرور؟

مضىٰ بعض الحديث حول الرحمة الإلهية في الآية الأولىٰ من هذه السورة المباركة.

ولكن السؤال هو: كيف ينسجم وجود الشرور كالزلازل والأمراض ونحوها مع الرحمة الإلهية؟

والجواب على ذلك ـ علىٰ ما يستفاد من كلمات بعض الفلاسفة ـ: إن الأمور بلحاظ الخير والشر على خمسة أنواع:

١ ـ ما هو شرّ محض.

٢ ـ ما شره غالب على خيره.

٣ ـ ما تساوىٰ شره وخيره.

٤ ـ ما هو خير محض.

٥ ـ ما خيره غالب على شره.

والقسم الأول؛ لا يصدر من الحكيم، لمنافاته للحكمة، فالتاجر الحكيم لا يقدم على تجارة يعلم أنه سوف يخسر فيها ١٠٠٪[1].

وكذا القسم الثاني؛ فالعاقل لا يقدم علىٰ تجارة يربح فيها (٤٠٠) ديناراً ويخسر فيها (٦٠٠) ديناراً مثلاً.

وأما القسم الثالث؛ فهو لا يصدر أيضاً من الحكيم، وذلك لأن العاقل لا يندفع نحو عمل إلا بمحرك يدفعه نحوه، ويطلق علىٰ هذا المحرك «العلة الغائية»، والعلة الغائية هي علة فاعلية العلة الفاعلية بماهيتها ـ أي صورتها الذهنية ـ وإن كانت معلولة لها بإنّيتها ـ أي بوجودها الخارجي ـ علىٰ ما قرر في محله[2].

ومع تساوي نسبة الخير والشر في العمل لا يوجد هنالك محرّك يدفع الفاعل نحو العمل، فإذا علم التاجر أنه سوف يربح في هذه التجارة ألف دينار ولكنه يخسر فيها ألف دينار أيضاً، فلن يكون له حافز يدفعه للقيام بهذه التجارة.

وبعبارة أخرىٰ: القسمان الأولان من مصاديق (ترجيح المرجوح على الراجح) القسم الثالث من مصاديق (الترجيح بلا مرجح)، وكلاهما قبيح، بل محال علىٰ الحكيم ـ على ما ثبت في محله ـ.

والقسم الرابع: لا شك في أمكان صدوره من الحكيم، وتحققه في الخارج.

---

(١) الأمثلة المذكورة إنما سيقت لمجرد تقريب الذهن، ولا تقصد بحرفيتها.

(٢) راجع كتب «علم الكلام» بحث العلة الغائية.

وأما القسم الخامس: فهو أيضاً كذلك، وذلك لأن ترك (الخير الكثير) لأجل (الشر القليل): (شر كثير) ولا يمكن صدور (الشر الكثير) عن الحكيم.

وبعبارة أخرىٰ:

إذا كان (فعل الشيء) من قبيل (ما خيره غالب علىٰ شره) فيكون (ترك ذلك الشيء) من قبيل (ما شره غالب علىٰ خيره) فيستحيل صدور هذا (الترك) على الحكيم، لما سبق من أن القسم الثاني لا يصدر عن الحكيم.

مثلاً: إذا اضطر الأب إلى تطعيم ولده بإبرة مؤلمة ضد مرض وبائي منتشر.. ففي تزريق الطفل الإبرة (شر قليل) يتمثل في الألم الذي يصاب به الطفل، والعوارض المرضية التي قد تستمر مع الطفل لعدة أيام، ولكن ترك التزريق يعرض الطفل للإصافة بذلك المرض الخطير وهو (شر كثير) ولا يمكن صدوره من الحكيم الملتفت إلىٰ أبعاد الأمور.

وعلىٰ هذا الأساس يمكننا أن نقول:

إن الشرور التي نلمحها في عالم الطبيعة هي من قبيل القسم الخامس إذ فيها من الخير الشيء الكثير، فلا ينبغي صرف النظر عن ذلك الخير الكثير لأجل الشر القليل الكامن فيها..

ويكفي في ذلك: أن هذه الآفات ـ كالأمراض والزلازل والفياضانات ونحوها توجه الإنسان إلى الله تعالىٰ، وتلفته إلى ضعفه وعجزه، وتجعل روحه أكثر شفافية وإشراقاً، وما أعظمها من فوائد؟!

وينبغي أن نشير هنا إلى أن «عدم العلم بالفائدة» غير «العلم بعدم الفائدة».. والإنسان يمكنه أن يقول: إنني لا أعلم.

وأما الموقف الثاني فهو يفتقر إلى الإحاطة التامة بالمعادلات الحاكمة على هذا الكون الرحيب؛ واكتناه جميع أبعاد الحاضر والمستقبل. . وأنّى للإنسان أن يدعي ذلك!؟

ونظرة إلىٰ كتاب «الإنسان ذلك المجهول» للدكتور الكسيس كاريل كفيلة بالكشف عن جوانب من هذه الحقيقة.

عينات خارجية

١ ـ روي أن الذباب وقع على المنصور مرة فذبه عنه، ثم وقع عليه فذبه عنه، ثم وقع عليه فذبه عنه!

فالتفت إلى الإمام الصادق عليه السلام قائلاً:

يا أبا عبد الله لأي شيء خلق الله الذباب؟

فقال عليه السلام ليذل به الجبارين[١].

٢ ـ عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: دُعي النبي صلى الله عليه وآله إلى طعام، فلما دخل منزل الرجل نظر إلى دجاجة فوق حائط قد باضت، فتقع البيضة على وتد في حائط فثبتت عليه، ولم تسقط ولم تنكس!.

فتعجب النبي صلى الله عليه وآله منها.

فقال له الرجل: أعجبت من هذه البيضة؟ فوالذي بعثك بالحق ما رزئت شيئاً قط.

فنهض رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يأكل من طعامه شيئاً وقال: من لم يرزء فما لله فيه من حاجة[٢]!.

---

(١) راجع بحار الأنوار، ج٤٧، ص١٦٦.

(٢) البحار، ج٦٤، ص٢١٤.

٣ ـ حكىٰ القزويني: إن رجلاً رأى خنفساءاً فقال معترضاً: ما يريد الله من خلق هذه؟ أَحسن شكلها، أو طيب ريحها؟

فابتلاه الله تعالىٰ بقرحة عجز عنها الأطباء حتى ترك علاجها.

فسمع يوماً صوت طبيب من الطريقين وهو ينادي في الدرب.

فقال: هاتوه حتىٰ ينظر في أمري.

فلما أحضروه ورأىٰ القرحة طلب أن يأتوا إليه بالخنفساء، فأحرقها وذو رمادها علىٰ قرحته.

فبرء الرجل. فقال: إن الله تعالى أراد أن يعرفني أن أَخَسَّ المخلوقات أعز الأدوية(١).

فلسفة الشرور في النصوص الشرعية

١ ـ عن الإمام الصادق عليه السلام: إن العبد إذا كثرت ذنوبه ولم يجد ما يكفرها به ابتلاه الله عزَّ وجلَّ بالحزن في الدنيا ليكفرها، فإن فعل ذلك به وإلا استقم بدنه ليكفرها به، فإن فعل ذلك به وإلا شدد عليه عند موته ليكفرها به.. الحديث..(٢).

٢ ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله: لولا ثلاث في ابن آدم ما طأطأ رأسه شيء [أي ما تواضع ولا خضع وكان يتكبر ويتجبر]: المرض، والفقر والموت، وكلهم فيه وإنه معهم لوثّاب(٣).

---

(١) سفينة البحار، ج١، ص٤٣١، بتصرف.
(٢) بحار الأنوار، ج٥، ص٣١٥.
(٣) المصدر، ص٣١٦.

٣ ـ وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال ـ في حديث ـ: «ثم خلقهم [أي الخلق] في داره وأراهم طرفاً من اللذات ليستدلوا به على ما ورائهم من اللذات الخالصة التي لا يشوبها ألم، إلا وهي الجنة، وأراهم طرفاً من الآلام ليستدلوا به على ما ورائهم من الآلام الخالصة التي لا يشوبها لذة، ألا وهي النار، فمن أجل ذلك ترون نعيم الدنيا مخلوطاً بمحنها، وسرورها ممزوجاً بكدرها وغمومها(١).

٤ ـ عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: المؤمن لا يمضي عليه أربعون ليلة إلا عرض له أمر يحزنه يذكّر به(٢).

٥ ـ وعنه عليه السلام إنه قال: إذا أراد الله عزَّ وجلَّ بعبد خيراً فأذنب ذنباً تبعه بنقمة ويذكره الإستغفار(٣).

---

(١) بحار الأنوار، ج٥، ص٣١٦.
(٢) بحار الأنوار، ج٦٤، ص٢١١.
(٣) المصدر ص٢٢٩.

الآية

٤ ـــ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾

المفردات:

﴿مَٰلِكِ﴾: ذو الملكية والهيمنة والسيطرة.

﴿ٱلدِّينِ﴾: الجزاء، و﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ هو يوم القيامة حيث يجازىٰ كل إنسان بما عمل، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ.

التفسير:

بعد أن تعرض القرآن الكريم في مفتتح هذه السورة إلى مسألة «المبدأ» أشار في هذه الآية إلى مسألة «المنتهىٰ». . ومسألة «المبدأ» و«المنتهىٰ» أهم قضية «عقائدية» في الوجود كله، كما أنها أهم قضية «عملية» في حياة الإنسان.

من أين جئنا؟ وإلى أين نسير؟ وما هو المصير؟ ألغاز محيرة واجهت الإنسان منذ اليوم الأول، وسوف تظل تلح على ذهنه حتى اليوم الأخير. ومهما بحثت فلن تجد الإجابة الصحيحة التي يطمئن إليها العقل ويرتاح إليها الضمير إلا في رسالات السماء.

كما أن لهاتين القضيتين ارتباطاً عميقاً بالسلوك الإنساني، فمن لا

يعتقد بالله ولا بالويم الآخر لن يجد رادعاً حاسماً يمنعه من ارتكاب الجرائم، والتعدي على حقوق الآخرين. . إن هذه الحياة هي الفرصة الأخيرة، وبعد ذلك سيتحول الإنسان إلى أشلاء مبعثرة تأكلها الأرض، وسوف ينتهي كل شيء. . أجل سوف ينتهي كل شيء. . فلماذا لا ينتهز هذه الفرصة في سبيل إشباع نزواته ولو جاء ذلك على حساب الآخرين؟

يقول الشاعر:

سأطلب الموت حثيث الورود ... وينمحي اسمي من سجل الوجود

هات اسقنيها[1] يا منىٰ خاطري ... فغاية الأيام طول الهجود!

أما من يعتقد بالله واليوم الآخر فإن إيمانه هذا سوف يخلق وازعاً في نفسه يمنعه من ارتكاب الموبقات والتعدي علىٰ الآخري.

ومن هنا كان التأكيد الكبير ـ في هذه السورة وفي سائر السور القرآنية على مسألة (المبدأ) و (المعاد). .

محاكم ست:

هنالك ست محاكم يمر عبرها الإنسان ليتلقىٰ «الجزاء» على عمله، وهذه المحاكم هي كالتالي:

١ ـ محكمة الضمير..

حيث إن الإنسان وجداناً باطنياً، يؤنبه على ارتكاب الجريمة، ويبارك له عمل الخير.

ففإذا أسدىٰ الإنسان معروفاً لمحتاج، أو أغاث ملهوفاً أو نَفَّسَ عن مكروب فإنه سوف يشعر بالإرتياح بغمره، وبالسعادة تملأ نفسه.

---

(١) يقصد الشراب.

أما إذا كذب في الحديث، أو خان الأمانة، أو أهمل القيام بوظائفه الدينية فإن ضميره سيظلُّ يؤنّبه ويوبخه على ما ارتكبه.

قال سبحانه: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾[1].

ويكفي نموذجاً لذلك قصة الشاب الضابط الذي دمّر «هيروشيما/ ناغازاكي» بالقنبلة الذرية في الحرب العالمية الثانية.

«فقد فاز «كلودايترلي» بعد تدميره لمدينتي هيروشيما وناغازاكي بنيل أعظم وسام حربي في أمريكا، لكن كلودايترلي الذي انتخب من بين آلاف الطيارين يوماً ما لمهارته في قيادة الطائرة ولأعصابه الفولاذية والذي عهد إليه بإلقاء أول قنبلة ذرية قد أصيب الآن بالجنون.

إن الطيار الذي دمر عام ١٩٤٥م مدينتين كان يردد هذه الجملة منذ مدة: أنا قاتل الـ(١٥٠) ألف من الناس ولا أغفر لنفسي خطيئتي الكبيرة هذه.. إنه كان يجد نفسه المسئول الأول عن قتل أهالي مدينة (هيروشيما). إن معالجة الأطباء كانت عقيمة، وأخيراً اضطر إلى أن يعيش في مستشفى الأمراض العقلية[2].

٢ ـ محكمة الجسد:

حيث إن الطهر والنظافة والإيمان تمنح الإنسان السلامة في جسده، أما الفسوق والفجور والإنحراف فإنها تسبب تحطيم جسد الإنسان وانهياره.

ويكفينا نموذجاً لذلك: الأمراض التي خلقتها الإنحرافات الجنسية

---

(١) سورة القيامة، الآية: ٢.

(٢) الطفل بين الوراثة والتربية ج١، ص٢٩٧ ـ ط٢ نقلاً عن الصحف.

في بلاد الغرب، ومنها مرض فقدان المناعة المكتسبة «الإيدز» الذي قضىٰ على حياة الملايين، ولا يزال الطب عاجزاً عن علاجه حتى الآن.

٣ ـ محكمة القضاء:

حيث يمثل المجرم أمام المحكمة لينال جزاءه ولو بعد حين.

٤ ـ محكمة المجتمع:

حيث يقدر المجتمع الفرد الطيب، ويصب جام نقمته على الفرد الشرير.

قال الله سبحانه: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾[2]

٥ ـ محكمة التاريخ:

حيث يخلد التاريخ حياة الطيبين بأحرف من نور، بينما يلقي بالشريرين في زوايا الإهمال، أو يصب عليهم اللعنة وسوء العذاب.

يقول الشاعر (محمد مجذوب) حين وقف على قبر معاوية في الشام:

أين القصور أبا يزيد ولهوها ... والصافنات وزهوها والسؤدد
أين الدهاء نحرت عزته على ... أعتاب دنياً سحرها لا ينفد
هذا ضريحك لو بصرت ببؤسه ... لأسال مدمعك المصير الأسود
كتل من الترب المهين بخربةٍ ... سكر الذباب بها فراح يعربد
خفيت معالمها على سكانها ... فكأنها في مجهل لا يقصد
ومشىٰ بها ركب البلىٰ فجدارها ... عانٍ يكاد من الضراعة يسجد

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

(٢) سورة مريم، الآية: ٩٦.

أأبا يزيد وتلك حكمة خالق ماذا أقول وباب سمعك موصد
قم وأرمق النجف الأغر بنظرة يرتد طرفك وهو باكٍ أرمد
تلك العظام أعز ربك شأنها فتكاد لولا خوف ربك تعبد
أبداً تباركها الوفود يحثها من كل صوب شوقها المتوقد
نازعتها الدنيا ففزت بوردها ثم انطوىٰ كالحلم ذاك المورد

ومن الغريب: أن طغاة الأمويين والعباسيين حكموا البلاد الإسلامية مئات السنين، ولكن لم يبق لأي واحد منهم قبر يزار، بل لم يعرف للكثير منهم قبر.. بينما نجد أن آل البيت عليهم السلام تحولت مقابرهم إلى مزارات يتوافد عليها الملايين من كل حدب وصوب، حتىٰ تلك الطفلة الصغيرة «رقية» التي قضت نحبها وهي غريبة في خربة من خربات الشام بُني عَلَى مدفنها ضريح كبير، ويزورها عشرات الألوف في كل عام، بينما «يزيد» ـ ذلك الطاغية المتجبر ـ لا يعرف له قبر في عاصمة ملكه العريض!

أجل.. ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[1].

٦ ـ محكمة القيامة:

وهذه المحكمة هي أهم المحاكم.. إذ قد يطوّع المجرم ضميره بطول الإجرام أو يفلت من محاكم الدنيا، أو لا ينال جزاءه الكامل، أو يقوم بتزوير التاريخ، أما في الآخرة: فـ﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾[2].

ومن هنا يقول الله سبحانه: ـ

﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ٤١﴾[3].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦١.
(٣) سورة النجم، الآيات: ٣٩ ـ ٤١.

ومن هنا اطلقت كلمة «يوم الدين» علىٰ يوم القيامة. . لأن الجزاء بشكله الكامل سوف يكون في ذلك اليوم.

القانون وحده لا يكفي.

وهنا ينبغي أن نؤكد أن القانون وما يستتبعه من ملاحقة قضائية وسجن وعقوبة و. . ـ بدون الإيمان بالله واليوم الآخر ـ لا يكفي. . وسيظل حبراً على ورق، ولن ينزل إلى ميدان التنفيذ إلا بمقدار ما يرافقه من قوة وبمجرد أن تنفصل عنه القوة فإنه سوف ينهار فوراً ويسحق تحت الأقدام.

وكثيراً ما لا تستطيع القوة ذاتها أن تضمن تنفيذ القانون.

والتقرير التالي يكشف لنا وجوانب من هذه الحقيقة:

«أرادت الولايات المتحدة الأمريكية في عام (١٩٣٠م) أن تخلّص شعبها من مضار الخمر، فرتبت عقوبات صارمة على كل من يشتريها أو يصنعها أو يستوردها، وقد مهدت لهذا القانون بحملة دعائية واسعة عن طريق السينماءات والمسارح والراديوات والتلفزيونات والكتب والجرائد والمجلات وغيرها من النشرات اليومية. . وكانت هذه الدعايات مزودة بالتقارير العلمية والطبية التي تشير إلى مدىٰ ما للخمور من تأثير على صحة الإنسان وعقله وضميره، وقد صرفت على هذه الدعايات ٦٥ مليون دولار.

«وبسبب بعض المعاكسات التي تلقاها قانون تحريم الخمور، ولأنّ البعض لم يمتنع عن تعاطي أو المتاجرة بالخمور بعد صدور هذا القرار فقد قتل مائتا شخص، وحبس نصف مليون إنسان، كما صودرت أربعمائة مليون جنيه استرليني، وكان مجموع ما غرم به البعض الآخر يربو على مليون ونصف مليون جنيه.

«غير أن ذلك لم يبن له نفع»[١]!.

هذه هي النتيجة الطبيعية لإفتقاد عنصر الإيمان بالله واليوم الآخر.

فاستعمال العنف وتحكيم السيف وزرع البوليس على مفاصل الطرق لا تجدي نفعاً ما لم يوجد «رقيب داخلي» يقبع في ضمير الإنسان ويوجهه نحو الخير والفضيلة.

وهذا الرقيب هو عبارة عن «الإيمان» ذلك أن الفرد المؤمن الذي يدرك أن الله سبحانه وتعالى يراقبه في كل وقت وكل زمان ويعتقد أنه هو المهيمن على كل شيء وأنه ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾[٢] ويعتقد بأنه سيأتي هناك يوم يجازىٰ فيه على كل شيء.. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[٣]. هنا الفرد لا يتعدى حدود الله، ولا يتجاوز على حقوق الآخرين.

وأيضاً.. الإيمان بالمبدأ والمعاد يربط القلب بالقدرة التي تحكم هذا الكون ـ بدنياه وآخرته ـ وبهذا الإرتباط وبمعرفة مدىٰ عظمة الله سبحانه تصغر أمام المؤمن كل مغريات الحياة ويحس بالقدرة على الإرتفاع فوقها.. ولذلك فهو لا يجعل إيمانه ثمناً لأي شيء ـ مهما كان مغرياً وفاتناً ـ ولا يقبل أي مساومة تهدف أن يتنازل عن مبادئه.

وهذا ما يؤكده الإمام علي عليه السلام حين يقول وهو يصف المؤمنين:

«عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم».

---

(١) التشريع الرباني والقانون الوضعي ـ بتصرف.

(٢) سورة غافر، الآية: ١٩.

(٣) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ ـ ٨.

ويعكس المؤمنون هذا الإحساس العظيم في شعارهم الخالد الذي يرددونه دائماً:

(الله أكبر).

فكل شيء ينهار أمام عظمة الله ويغدو شيئاً صغيراً أمامه.

ويمكن أن نلمس هذه الحقيقة في الأمة الإسلامية التي بناها الرسول الأعظم ﷺ.. فلم تكن الآيات القرآنية تهبط حتى تفتح طريقها للتنفيذ.. فآية تحريم الخمر ـ مثلاً ـ لم تنزل إلا وقد جرت سكك المدينة خموراً مهراقة.

ولكن الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر قد لا يتردد في ارتكاب أكبر جريمة من أجل مغنم مادي بسيط لأنه لا يعتقد أن وراءه حياة أخرىٰ يحاسب فيها على كل ما عمل، وهو يتصور أن اللذات إنما تتحقق في هذه الدنيا أما بعد ذلك فلن يوجد إلا الموت والفناء.. ومن أجل ذلك فهو يحاول أن يستمتع بأكبر قدر من اللذة في هذه الحياة حتى لو جاء ذلك على حساب الآخرين.

نماذج عملية

وإذا أردنا أن نستقصي النماذج العملية لتأثير الإيمان بـ«يوم الدين» فسوف يطول الحديث.. لكننا نكتفي بالإشارة إلى بعض النماذج..

١ ـ روي أن النبي ﷺ أتى إلى المسجد في شدة مرضه وقال فيما قال: «إن ربي عزَّ وجلَّ حكم وأقسم أن لا يجوزه ظلم ظالم فناشدتكم الله أي رجل منكم كانت له قبل محمد مظلمة إلا قام فليقتص، والقصاص في دار الدنيا أحب إليَّ من القصاص في دار الآخرة على رؤوس الملائكة والأنبياء.

فقام إليه رجل من أقصىٰ القوم يقال له سوادة بن قيس فقال له: فداك أبي وأمي يا رسول الله إنك لما أقبلت من الطائف استقبلتك وأنت على ناقتك العضبا، وبيدك القضيب الممشوق فرفعت القضيب وأنت تريد الراحلة فأصاب بطني، فلا أدري عمداً أو خطأ.

فقال ﷺ: معاذ الله أن أكوت تعمدت.

ثم قال: يا بلال قم إلى منزل فاطمة فأْتيني بالقضيب الممشوق.

فخرج بلال وهو ينادي في سكك المدينة: معاشر الناس من ذا الذي يعطي القصاص من نفسه قبل يوم القيامة؟

(إلى أن قال):

ثم ناولت (فاطمة عليها السلام) بلالاً القضيب فخرج حتى ناوله رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: أين الشيخ؟

فقال الشيخ: ها أنا ذا يا رسول الله بأبي أنت وأمي. قال ﷺ: تعالى فاقتص حتى ترضىٰ.

قال الشيخ: فاكشف لي عن بطنك.

فكشف ﷺ عن بطنه.

فقال الشيخ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أتأذن لي أن أضع فمي علىٰ بطنك؟ فأذن ﷺ.

فقال: أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول الله من النار يوم القيامة.

فقال رسول الله: يا سوادة بن قيس أتعفو أم تقتص؟

قال: بل أعفو يا رسول الله.

فقال رسول الله: اللهم اعفُ عن سوادة بن قيس كما عفىٰ عن نبيك محمد[1].

٢ ـ وفي رواية يرويها الشيخ المفيدﷺ عن إبراهيم بن علي عن أبيه قال: حججت مع علي بن الحسينعليه السلام فالتاثت الناقة عليه في مسيرها (أي أبطأت) فأشار إليها بالقضيب ثم قال:

(آه لولا القصاص) وردّ يده عنها[2].

٣ ـ نقل أن يوسفعليه السلام لبث في منزل الملك وزليخا سبع سنين وهو مطرق إلى الأرض لا يرفع طرفه إليها مخافة من ربه..

فقالت له يوماً: ما أحسن عينيك؟

قال: هما أول ساقط على خدي في قبري.

قالت: ما أطيب ريحك؟

قال: لو شممت رائحتي بعد ثلاث من موتي لهربت مني.

قالت: لم لا تقترب؟

قال: أرجو بذلك القرب من ربي.

قالت: فرشي الحرير فقم واقضِ حاجتي.

قال: أخشىٰ أن يذهب من الجنة نصيبي.

قالت: أسلمك إلى المعذبين.

قال: يكفيني ربي[3].

---

(١) روضة الواعظين ص٨٤ ـ ط الأعلمي بيروت.

(٢) الصياغة الجديدة ص٢٤٠ ـ ط٣.

(٣) النور المبين ص٢٠٣ ـ بتصرف.

٤ ـ نقل الفاضل النراقي في معراج السعادة أنه كان في البصرة إمرأة يقال لها (شعوانة) لا يخلو منها مجلس من مجالس الفسق والفجور.

وفي يوم من الأيام مرت مع جمع من إمائها في زقاق من أزقة البصرة فوصلت إلى بيت يعلو منه الصراخ والضجيج. فقالت: سبحان الله ما أعجب هذا الصراخ والغوغاء.

وأرسلت واحدة من امائها لتعرف حقيقة الحال، فذهبت تلك الأمة ولم ترجع.

فأرسلت الثانية بعدها فذهبت ولم ترجع أيضاً.

فأرسلت الثالثة وأوصتها أن تعود بسرعة فلما ذهبت وعادت قالت: سيدتي ليس هذا مجلساً للبكاء على ميت، بل هو مأتم للعاصين ذوي الصحائف السود.

فلما ذهبت رأت واعظاً يعظ مجموعة من الناس التفوا حوله يخوفهم من عذاب الله وهم مشغولون بالبكاء والأنين، وحين دخلت شعوانة كان الواعظ مشغولاً بتفسير قوله تعالى [في صفة جهنم]: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾

فلما سمعت شعوانة هذه الآيات أثرت فيها، وقالت: يا شيخ أنا واحدة من ذوي الوجوه السود ـ أي المذنبين ـ إذا تبت هل يتوب الله عليَّ؟.

فقال الواعظ: نعم، إذا تبت يتوب الله عليك، حتى إذا كانت ذنوبك مثل ذنوب شعوانة.

فقالت: يا شيخ أنا شعوانة، لا أعود إلى ذنب بعد اليوم.

فقال الواعظ: الله أرحم الراحمين، إذا تبت تاب الله عليك فتابت

شعوانة وأعتقت عبيدها واماءها، واشتغلت بالعبادة وقضاء ما فات منها[1].

٥ ـ نقل السيد الوالد ـ حفظه الله ـ: إنه جاء إلى والدي ـ رحمه الله ـ رجل وأراد أن يسلمه مبلغاً من الحقوق ـ وأظن المبلغ سبعة عشر ألف دينار وكان هذا المبلغ يعادل ما يقارب من أربعين شهراً من الرواتب التي كانت يدفعها للطلبة والفقراء آنذاك ـ فلم يقبل الوالد رحمه الله ذلك لإشكال رآه في أخذ المبلغ، وكلما أصرّ صاحب المال على أن يقبله الوالد رحمه الله أبىٰ وامتنع.

ولما ذهب الرجل قلت للوالد: إن هذه حقوق شرعية وإنك إذا تسلمتها تعطيها للطلاب والفقراء والمؤسسات والمشاريع الخيرية فما هو المانع من أخذها؟

فنظر رحمه الله إليّ وقال: يجب علينا نحن أن نفكر في آخرتنا لا أن يغرّنا المال الذي نراه كثيراً[2].

٦ ـ حكي: أن رجلاً اختلىٰ بامرأة لا تحل له، فلما قعد منها مقعد الرجل من زوجته وهم بالفاحشة تذكر الآخرة، فقام وهو يقول: إن من باع جنة عرضها السماوات والأرض لفترٍ في فترٍ لقليل علم بالمساحة.

ثم انصرف.

أنواع من الملكية

بقي أن نشير إلىٰ أن الملكية تتنوع إلى نوعين:

١ ـ الملكية الإعتبارية.. مثل: ملكيتك لدارك التي تسكن فيها، وأموالك المودعة في البنك باسمك وعقاراتك المتناثرة هنا وهناك.

---

(١) الذنوب الكبيرة ـ ج٢، ص٤٢٧ ـ ط الدار الإسلامية ـ بيروت.

(٢) الصياغة الجديدة: ص٢٤٥.

فلا توجد هنالك أية علقة حقيقية بينك وبين ما تملكه. . إذ ليس ما تملكه قائماً بك، وليس وجوده تبعاً لوجودك، بل هو مستقل في وجوده عنك، قائم بغيرك. . وإنما «الإعتبار» هو الذي منحك هذا العنوان ـ عنوان «الملكية» ـ وهو بذاته يستطيع أن يسلبك هذا العنوان.

فحدوث العنوان الإعتباري منوط بالإعتبار. . وبقاؤه منوط ببقاء ذلك الإعتبار. . ومتى ما سبب المعتبر اعتباره زال العنوان الإعتباري.

وقد يختلف الإعتبار بحسب اختلاف المعتبرين. . فقد يجعل قانون ما عنوان «الملكية» لتركة الميّت مرتبطاً بأقربائه، بينما يجعل قانون آخر ذلك مرتبطاً بالدولة الحاكمة.

٢ـ الملكية الحقيقية.. وتتحقق هذه الملكية حينما تكون هناك علقة تكوينية خاصّة بين الشيء وصاحبه.. بعيداً عن اعتبار المعتبر وجعل الجاعل.. بحيث يكون وجوده قائماً بوجود صاحبه وبقاؤه منوطاً ببقاء صاحبه، فهذه الملكية حاصلة سواء كان هنالك معتبر أولاً..

والملكية الحقيقية على قسمين:

أ ـ الملكية الحقيقية الغيرية. . ويتحقق ذلك حينما تكون الملكية حاصلة بسبب إعطاء الغير. .

ويمكن أن نمثل لذلك بملكيتنا لقوانا ولصورنا الذهنية. . فأنت تملك سمعك وبصرك والصور التي ترتسم على لوحة ذهنك. . ولا تزول هذه الملكية بقرار اعتباري يصدره شخص ما. . ولكن من أعطاك هذه الملكية؟

إن هذه الملكية ليست «واجبة الوجود» فهي إذن «ممكنة الوجود». . وكل «ممكن» بحاجة إلى «علة» ولا بد أن تنتهي العلل إلى «واجب الوجود» وهو الله سبحانه وتعالىٰ.

يقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾[1].

ب ـ الملكية الحقيقية الذاتية.. ويتحقق ذلك حينما تكون الملكية مستمدة من الذات.. كملكية الله سبحانه لنا ولهذا الكون فإنها ملكية حقيقية ذاتية.. نابعة من إفاضته الوجود على الكون وقيوميته المستمرة على كل شئونه.

وهذه الملكية وإن كانت ثابتة لله سبحانه في هذه الدنيا.. إلا أن ظهورها التام سيكون في «يوم الدين» إذ:

أولاً: تلغىٰ في ذلك اليوم جميع الملكيات الإعتبارية فلا حاكم ولا محكوم ولا سيد ولا مَسود ولا مالك ولا مملوك..

ثانياً: وتلغىٰ أيضاً مجموعة من الملكيات الحقيقية الممنوحة للإنسان في هذه الدنيا.. فيفقد الإنسان سيطرته على يديه ورجله ولسانه.. ولا يستطيع أن يتحكم فيها كما كان يتحكم فيها في هذه الدنيا.

يقول القرآن الكريم:

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[2].

ويقول: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾[3].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٧٨.

(٢) سورة هود، الآية: ١٠٥.

(٣) سورة يس، الآية: ٦٥.

ويقول: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[1].

ثالثاً: في هذه الدنيا قد يملك أصحاب النفوذ: التدخل في سير المحاكم القضائية، لتخليص المجرم، وإنقاذه من قبضة العدالة..

أما في ذلك اليوم فلا يملك أحد الشفاعة لأحد.. إلا من بعد أن يأخذ الله سبحانه ويرضىٰ.

يقول القرآن الكريم:

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[2].

ويقول: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾[3].

ويقول: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[4].

ويقول: ﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾[5].

وعلى أساس ذلك كله يأتي النداء في هذا اليوم الرهيب: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؟ فيكون الجواب: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[6].

وهكذا تتجلىٰ المالكية الإلهية بشكلها التام في ذلك اليوم.. فهو سبحانه.. ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ ولا مالك سواه في ذلك اليوم.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٢١.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.
(٣) سورة يونس، الآية: ٣.
(٤) سورة طه، الآية: ١٠٩.
(٥) سورة النجم، الآية: ٢٦.
(٦) سورة غافر، الآية: ١٦.

الآية

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾

المفردات:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: نخص العبادة بك، فلا نعبد سواك.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: نخص الإستعانة بك، فلا نستعين بغيرك.

التوحيد العملي
فرع التوحيد النظريّ

بعد أن توجه المؤمن في الآيات السابقة بعقله وقلبه إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، واستحضر في ذهنه حقيقتين:

والحقيقة الأولىٰ: الربوبية الإلهية الشاملة، التي لا تختص بهذه الدنيا بل تشمل الآخرة أيضاً.

الحقيقة الثانية: الرحمة الإلهية الواسعة والدائمة..

بعد ذلك كله: يتوجه المؤمن إلى الناحية العملية في حياته فيحصر عبادته بالله سبحانه، دون أن يعبد سواه، ويخص استعانته بالله تعالى، فلا يستعين بغيره، قائلاً: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ ذلك أن

«التوحيد العملي» ـ متمثلاً في حصر العبادة والاستعانة بالله سبحانه ـ يأتي بعد الإيمان بـ «الربوبية الإلهية» و«العطاء الإلهي».. فما دام لم يؤمن الإنسان بأن أزمة الأمور كلها بيد الله سبحانه في هذه الدنيا (فهو ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾) وفي الآخرة (فهو ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾) وأن الله سبحانه منبع اللطف والجود والرحمة (فهو ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾) فسوف يعمد بالطبع إلى اتخاذ أرباب من دون الله يعبدهم، ويستمد منهم العون والمدد.

أما عندما يعرف الإنسان بأن كل شيء بيد الله وأنه معدن الرحمة والعطاء، فسوف يتجه إلى عبادته وحده والاستعانة به وحده.

ومن هنا تناولت السورة في الآيات السابقة «التوحيد النظري» وعقبت ذلك ـ في هذه الآية الكريمة ـ بـ «التوحيد العملي».

ولا بأس الإشارة إلى أن «في الآية الكريمة التفات من الغيبة إلى الخطاب، لأنه بعد إقرار العبد بالألوهية والإعتراف بالربوبية وأنه مالك يوم الجزاء صار لائقاً بالمخاطبة الحضورية معه تعالىٰ فارتقىٰ العبد من الغيبة إلى الحضور لإرتقاء مقام قلبه عن الغفلة إلى التوجه والحضور[1]».

التوحيد.. والحرية

وينبغي هنا أن نشير إلى أن توحيد الله سبحانه ـ في جانبيه النظري والعملي ـ ذو صلة وثيقة بتحقيق «الحرية الإنسانية».

فالإنسان في هذه الحياة يتعرض لضغوط كثيرة تستهدف إخضاعه واستعباده، وهذه الضغوط تصدر عادة من جبهتين:

---

(١) مواهب الرحمن ج١، ص٣٣.

١ ـ الجبهة الداخلية. . متمثلة في الأهواء والشهوات والمطامع.

٢ ـ الجبهة الخارجية. . متمثلة في السلطات الحاكمة، والقوىٰ المتنفذة في المجتمع. .

وإذا انخرط الفرد في صراط التوحيد فإنه سوف يتحرر من سلطة كل الآلهة الأخرىٰ، ولن تستطيع أية قوة أن تستعبده مهما امتلكت من قوة. .

وثمة أمر آخر ينبغي أن نشير إليه وهو أن «التوحيد» ـ في جانبيه النظري والعملي ـ طريق إلىٰ تكامل نفس الإنسان. .

فالله سبحانه هو الغني المطلق. . ولن تنفعه عبادة من عبده، كما لا تضره معصية من عصاه. . فالذي ينتفع من عبودية الله هو نفس الإنسان. . لا في حياته الأبدية في الآخرة فحسب، بل في هذه الدنيا أيضاً. .

ومن هنا ورد في الحديث القدسي:

«يا بني آدم إني لم أخلقكم لأربح عليكم، ولكن لتربحوا علي!».

قصص في العبودية

١ ـ أرسل عثمان بن عفان مع عبد له كيساً من الدراهم إلى أبي ذر رَحِمَهُ الله وقال له: إن قبل هذا فأنت حرّ.

فأتىٰ الغلام بالكيس إلى أبي ذر وألح عليه في قبوله فلم يقبل.

فقال له: إقبله فإن فيه عتقي.

فقال أبو ذر: نعم، ولكن فيه رقي![1].

---

(١) سفينة البحار، ج١، ص٤٨٤ ـ مادة (نذر).

٢ ـ ذكر العلامة الحلي رحمه الله في منهاج الكرامة:

أن الإمام الكاظم عليه السلام اجتاز مرّة على دار «بشر الحافي» في بغداد وكانت أصوات الملاهي والغناء تخرج من تلك الدار، وفي هذه الأثناء خرجت جارية من الدار وبيدها قمامة فرمت بها في الدرب. فقال الإمام الكاظم عليه السلام لها: يا جارية صاحب هذه الدار حرٌ أم عبد؟

فقالت الجارية: بل حرّ

فقال عليه السلام: صدقت لو كان عبداً خاف من مولاه.

فلما دخلت قال لها بشر ـ وهو على مائدة الخمر ما أبطأكِ؟

فقالت: حدثني رجل بكذا وكذا.

فخرج حافياً حتى لقي الإمام الكاظم عليه السلام فاعتذر منه، وبكىٰ لديه استحياءاً من عمله، وتاب على يديه[١].

وقيل: إنه لم يزل حافياً حتى مات[٢].

٣ ـ نقل أن ملكاً التقىٰ بعابد، فقال له الملك: سل حاجتك.

فقال العابد: إني لا أطلب حاجة من عند عبيدي!

فقال الملك: وكيف ذلك؟

فأجاب العابد: لأن لي عبدين اثنين، وأنت عبد لهما.

فقال الملك: ومن هما؟

---

(١) روضات الجنات ج٢، ص١٣٠. ط مكتبة اسماعيليات.

(٢) المصدر ص١٣١.

قال العابد: الحرص والأمل[1]!.

لماذا حصرت الإستعانة بالله؟

في هذا الكون الرحيب الذي نعيش فيه يوجد هنالك قانون يعم جميع الموجودات من أصغر ذرة إلى أكبر مجرّة ـ وهذا القانون هو قانون «العلل والمعلولات».

فنحن نلاحظ أن الظواهر الموجودة في عالم الطبيعة يستند وجود بعضها إلى وجود البعض الآخر.

فالظاهرة المستند إليها تسمى «علة» (وفي منظور القرآن تسمىٰ «سبباً» حيث يقول الله سبحانه: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٥﴾[2]. والظاهرة المستندة تسمىٰ «معلولاً» و«مسبباً».

فالموقد «علّة» و«الدفء» الذي يشيع في أرجاء الغرفة بسبب الموقد «معلول».. و«الجِدّ» في الدراسة «سبب» و«النجاح» في الامتحان «مسبب».. وهكذا وهلم جرىٰ..

ومع حكومة نظام العلية في عالم الطبيعة فكل من يريد شيئاً فإنه يعمد إلى تحصيل «علته» وبذلك يحصل على مقصوده بالضرورة فلماذا نحصر الإستعانة بالله سبحانه؟ وما هو أصلاً دور الإستعانة بالله تعالىٰ ـ ناهيك عن حصر الإستعانة به سبحانه ـ.

والجواب:

أولاً: هنالك ثلاثة مفاهيم:

١ ـ (العلية) ـ وتعني استناد وجود ظاهرة إلى وجود ظاهرة أخرىٰ ـ.

---

(١) راجع كتاب «كشف المحجوب».

(٢) سورة الكهف، الآية: ٨٥.

٢ ـ (العلاقة اللزومية) ـ وتتحقق حينما يتزامن وجود ظاهرتين بشكل قهري، بحيث لا يمكن انفكاك وجود إحداهما عن الأخرى. . كما في الأمرين المتضايفين. . كالأبوة والبنوة والفوقية والتحتية ونحوهما. . فلا يمكن وجود الأبوة بدون وجود البنوة، ولا وجود الفوقية بدون وجود التحتية. . وهكذا.

٣ ـ (الصحابة الإتفاقية) ـ وتتحقق حينما يتزامن وجود ظاهرتين على نحو الإتفاق، مع «إمكان» أن ينفك وجود إحداهما عن وجود الأخر وإن لم «يحصل» الإنفكاك أبداً. . كما لو اتفق مجيء شخصين إلى بيتك مرة واحدة أو مرات كثيرة أو دائماً. . دون أن يكون مجيء أحدهما علة لمجيء الآخر، ودون أن يكون مجيئهما معاً معلولاً لعلة ثالثة. .

والشيء الذي نستطيع أن نجزم به عند ملاحظة الأسباب والمسببات (تقارن ظاهرتين) من الظواهر الطبيعية لكن (التقارن) أعم من (العلية) إذ يحتمل كونه على نحو (الصحابة الإتفاقية).

والمثال التالي يقرب لنا الفكرة:

لو فرضنا بأن هناك «زراً» مقطوع الإتصال بـ«المصباح الكهربائي» المعلق في سقف غرفتك. وهنالك «زرّ» آخر متصل بالمصباح. . إلا أنك لا ترى إلا الزر الأول. . وهنالك شخص وراء الجدار يراقب حركاتك. . فكلما ضغطت على الزر الأول أشعل هو المصباح الكهربائي بضغطه على الزر الحقيقي. . فعندما تكرر العمل عدة مرات يحصل لك اليقين بأن «ضغطك» على الزر «علة» و«اشتعال» المصباح الكهربائي «معلول» لتلك العلة. . ولكن الحقيقة أن هناك علة أخرىٰ. . ولا توجد

بين الزر الأول وبين اشتعال المصباح سوى «الصحابة الإتفاقية». . إلا أنه غابت عنك هذه الحقيقة لعدم أحاطتك بالواقع.

وعلى هذا الأساس يمكن أن نقول:

إننا نشعل الموقد. . ونتلمس سريان الدفء في الغرفة. . فنتصور أن الظاهرة الأولىٰ «علة» لوجود الظاهرة الثانية. . بينما لا توجد بينهما سوى «الصحابة الإتفاقية». .

وقد يؤيد ذلك برواية مروية عن الإمام الصادقعليه السلام قال:

قال موسىٰ بن عمرانعليه السلام: يا رب من أين الداء؟

قال: مني.

قال: فالشفاء؟

قال: مني.

قال: فما يصنع عبادك بالمعالج؟

قال: يطيب بأنفسهم ـ وفي رواية أخرى: «يطيب بذلك أنفسهم»[1].

وبناءاً على ذلك: فإن أصل وجود «العلية» و«المعلولية» بين الظواهر الطبيعية المعروفة مورد مناقشة. . وإن كانت الظواهر الطبيعية كلها معلولة للمشيئة الإلهية، إذ لا يعقل وجودها بلا علة، ولا كونها علة لذاتها. .

هذا ولكن قد يقال: بأن هذا الجواب مصادم للوجدان، ومخالف

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٩، ص٦٢.

لظواهر النصوص كقوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾[١] وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾[٢].

وقول الإمام الصادق عليه السلام: «أبىٰ الله أن يجري الأشياء إلا بأسباب، فجعل لكل شيء سببا»[٣] وكالروايات التي ذكرت فيها سببيّة بعض الأمور لبعض كقوله عليه السلام: «سبب الفقر الإسراف»[٤] وقوله عليه السلام: «سبب الشحناء كثرة المراء»[٥].

وقوله عليه السلام: «سبب الفجور الخلوة»[٦]. وقوله عليه السلام: «سبب التدمير سوء التدبير»[٧]. وغيرها من الروايات.. وهي كثيرة.. فتأمل.

ثانياً: سلمنا بوجود العلية في الظواهر الطبيعية. لكي ينبغي أن نتساءل: هل العلية صفة «ذاتية» كامنة في أعماق العلة، أم أنها صفة «مكتسبة»؟

إذا كانت العلية صفة ذاتية للعلة فيستحيل إذاً انفكاكها عن ذات العلة، لأن «الذاتي لا يختلف ولا يتخلف» فزوجية الأربعة ذاتية لها ولذلك فهي لا تنفصل عنهما، لكن هل علية العلل الطبيعية التي نشاهدها ذاتية؟!

الحقيقة التي نستوحيها من النصوص الشرعية أن العلية صفة «مكتسبة» لا «ذاتية» فالله سبحانه هو الذي منح العلل هذه الصفة، ولذا فيكون بالإمكان سلب هذه الصفة عنها ـ مع انحفاظ الموضوع، وأما

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٨٤ ـ ٨٥.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٨٩.
(٣) بحار الأنوار، ج٢، ص٩٠.
(٤) غرر الحكم.
(٥) المصدر
(٦) غرر الحكم.
(٧) المصدر.

سلب الصفة بإعدام موضوعها على نحو السالبة بانتفاء الموضوع فهو أمر بديهي وليس محلاً للنقاش.

فالله سبحانه هو الذي جعل النار تعطي الحرارة.. ولكن النار فقدت هذه الخاصية عندما جاء الأمر الإلهي:

﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا﴾[1].

ليس ذلك فقط.. بل أصبحت هذه النار تعطي البرودة حتى اصطكت أسنان إبراهيم عليه السلام من البرد.. فجاء التعقيب الإلهي ﴿وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[2].

وظاهر الخطاب في الآية انحفاظ الموضوع ـ فالسالبة هنا بانتفاء المحمول:

والله سبحانه هو الذي منح الماء خاصية «الإرواء» لكن الإرادة الإلهية عندما تتعلق بسلب الماء هذه الخاصية فلن يقف أمامها شيء..

وقد روي أن رجلاً من الجيش الأموي خاطب الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء بقوله:

«يا حسين انظر إلى هذا الماء يجري كبطون الحياة فوالله لن تذوق منه قطرة حتى ترد الحميم»!.

فدعا عليه الإمام عليه السلام بأن لا يرتوي من الماء أبداً.

فكان الرجل يعطش ويشرب الماء ولا يرتوي. وينادي (العطش العطش) حتىٰ هلك.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٩.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٦٩.

يقول العلامة المجلسي رحمه الله:

«أعلم أن الذي يستفاد من الآيات المتظافرة والأخبار المتواترة هو: أن تأثيره سبحانه في الممكنات لا يتوقف على المواد والإستعدادات، وإنما أَمْرُهُ إذا أراد شيئاً أن يقول له «كن» فيكون.

وهو سبحانه جعل للأشياء منافع وتأثيرات وخواص أودعها فيها، وتأثيراتها مشروطة بأن الله تعالى وعدم تعلق إرادته القاهرة بخلافة، كما أنه أجرىٰ عادته بخلق الإنسان من اجتماع الذكر والأنثىٰ وتولد النطفة منهما وقرارها في رحم الأنثىٰ وتدرجها علقة ومضغة وهكذا فإذا أراد غير ذلك فهو قادر على أن يخلق من غير أب كعيسىٰ عليه السلام، ومن غير أم أيضاً كآدم وحواء عليهما السلام، وكخفاش عيسى وطير إبراهيم وغير ذلك من المعجزات المتواترة عن الأنبياء في إحياء الموتىٰ.

وجعل الإحراق في النار فلما أراد غير ذلك قال للنار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم.

وجعل الثقيل يرسل في الماء وينحدر من الهواء، فأظهر قدرته بمشي كثير على الماء ورفعهم إلى السماء.

وجعل في طبع الماء الإنحدار فأجرىٰ حكمه عليه بأن تقف أمثال الجبال منه في الهواء حتى تعبر بنو اسرائيل من البحر. ومع عدم القول بذلك لا يمكن تصديق شيء من المعجزات اليقينية المتواترة عن الأنبياء والأوصياء عليهم السلام.. إلى آخر كلامه رحمه الله[1].

ثم إننا لو سلّمنا ـ جدلاً ـ بأن صفة العلية «ذاتية» للعلل الطبيعية فإننا نقول:

---

(١) راجع بحار الأنوار، ج٥٧، ص١٨٧ ـ ١٩٨.

وجود المعلول أو «المسبب» يتوقف على «سد جميع أبواب العدم» المشرعة عليه. . فما لم تسدّ جميع هذه الأبواب لن يوجد المعلول، بينما يكفي انفتاح باب واحد من أبواب العدم في عدم وجود المعلول.

فإذا كانت هنالك مئة ثغرة في البلد يمكن أن يَنْفَذْ منها العدو للإحتلال، وكان المقصود «الحفاظ على استقلال البلد» فإذا تحقيق هذا الهدف «الحفاظ على الإستقلال» يتوقف على سدّ كل الثغرات المئة ـ التي يُهدّد من ناحيتها وجود الاستقلال ـ ولو فرض أننا سددنا ٩٩ ثغرة وبقيت ثغرة واحدة فإن ذلك لا يضمن بقاء الإستقلال أمام عدو طامع يريد الهيمنة على مقدرات البلد، إذ إنه سوف ينفذ من هذه الثغرة. . الأخيرة.

وهنالك عوامل كثيرة متداخلة تشترك في صناعة الأهداف التي نتوخاها ونحاول الوصول إليها، وربما ترتقي هذه العوامل لتبلغ رقماً رهيباً لن يستطيع العقل الإحاطة به(١).

وهذه العوامل وإن كان بعضها يقع ضمن دائرة اختيارنا، إلا أن الكثير منها لا تقع ضمن هذه الدائرة. . بل هي منوطة بالعون الإلهي والمدد الإلهي. . ولا أقل من ضرورة وجود «الحياة» و«القدرة» في من يتوخى هدفاً ما حتى يمكنه الوصول إليه. . وليست الحياة ولا القدرة بيده، بل هي مرهونة بالمشيئة الإلهية.

وعلى ضوء هاتين النقطتين نستطيع أن نعرف ضرورة الإستعانة بالله

---

(١) يقول الحاج السبزواري في منظومته:

وليس في الوجود الإتفاقي إذ كل ما يحدث فهو راقي
لعلل بها وجوده وجب يقول الإتفاق جاهل السبب

(شرح المنظومة ـ ص١٢٢ الطبعة الحجرية).

سبحانه ـ بل حصر الإستعانة به تعالى ـ في محاولة الوصول إلى أي هدف من أهدافنا . . إذ

أزمـــة الأمــــور طـــراً بـــيـــده		والـــكـــل مـــســـتـــمـــدة مـــن مـــدده

وعلىٰ ضوء ما سبق: نستطيع أن ندرك ضلالة مبدأ «التفويض».

وقد روي: أنه بعث عبد الملك بن مروان إلى عامل المدينة أن وجه إليّ محمد بن علي بن الحسين عليه السلام [الإمام الباقر عليه السلام] ولا تمجه ولا تروعه واقضِ له حوائجه. وقد كان ورد علىٰ عبد الملك رجل من القدرية [المفوضة] فحصر جميع من كان بالشام فأعياهم جميعاً.

فقال: ما لهذا إلا محمد بن علي.

فكتب إلى صاحب المدينة أن يحمل محمد بن علي عليه السلام إليه فأتاه صاحب المدينة بكتابه.

فقال له أبو جعفر[الباقر عليه السلام] إني شيخ كبير لا أقوىٰ على الخروج، وهذا جعفر ابني يقوم مقامي.

فوجهه إليه.

فلما قدم علىٰ الأموي إذ رآه لصغره وكره أن يجمع بينه وبين القدري مخافة أن يغلبه!

وتسامع الناس بالشام بقدوم جعفر لمخاصمة القدرية فلما كان الغد اجتمع الناس بحضرتهما فقال الأموي لأبي عبد الله[الصادق عليه السلام]: إنه قد أعيانا أمر هذا القدري، وإنما كتبت إليك لأجمع بينك وبينه، فإنه لم يدع عندنا أحد إلاَّ خصمه.

فقال: إن الله يكفيناه.

فلما اجتمعوا.

قال القدري لأبي عبد الله عليه السلام: سل عما شئت.

فقال له: اقرأ سورة الحمد.

فقرأها وقال الأموي ـ أنا معه ـ: ما في سورة الحمد علينا، إنا لله وإنا إليه راجعون!

فجعل القدري يقرأ سورة الحمد حتىٰ بلغ قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

فقال له جعفر[الصادق عليه السلام]: قف، من تستعين؟ وما حاجتك إلى المعوّنة؟ إن الأمر إليك! فبهت الذي كفر[1].

حصر الإستعانة بالله لا ينافي التوسل بالأسباب الطبيعية

ومن الواضح: أن حصر الإستعانة بالله لا ينافي التوسل بالأسباب الطبيعية.. إذ أن الله أبىٰ أن يجري الأشياء إلا بأسبابها[2]، وقد قال سبحانه في ذي القرنين ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٥﴾[3].

فاللازم على المؤمن أن يستخدم الأسباب الطبيعية في الوصول إلى أهدافه.. لكن مع اعتقاده بأن الله سبحانه هو الذي منح الأسباب

(١) البرهان ج١، ص٥٢ وراجع بعض الحديث في نور الثقلين ج١، ص٢٠.
(٢) بحار الانوار، ج٢، ص٩٠.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٨٥.

سَبَبِيَّتَها، وأنه تعالىٰ يستطيع سلب هذه السببية متىٰ أراد، أو تعطيل مفعولها متى شاء، بعدم سد أبواب العدم الأخرى على المقصود.

وفي الروايات الكريمة الماع إلى هذه الحقيقة:

١ ـ فعن الوليد بن صبيح قال: كنت عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام وعنده حفنة من رطب فجاء سائل فأعطاه ثم جاء سائل آخر فأعطاه، ثم جاء آخر فأعطاه، ثم جاء آخر فقال: وَسَعَّ الله عليك.

ثم قال: إن رجلاً لو كان له مال يبلغ ثلاثين أو أربعين ألفاً ثم شاء أن لا يبقىٰ منه شيء إلا قسمه في حق فعل فيبقىٰ لا مال له، فيكون من الثلاثة الذين يرد دعاؤهم عليهم.

قلت: جعلت فداك من هم؟

قال: رجل رزقه الله مالاً فأنفقه في وجوهه ثم قال: يا رب ارزقني.

ورجل دعا علىٰ امرأته فيقال له: ألم أجعل أمرها بيدك؟

ورجل جلس في بيته وترك الطلب ثم قال: يا رب ارزقني. فيقول عزَّ وجلَّ: ألم أجعل لك السبيل إلى الطلب للرزق[1]

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: أصناف لا يستجاب لهم.

منهم من أدان رجلاً ديناً إلىٰ أجل فلم يكتب عليه كتاباً ولم يشهد عليه شهوداً...

ورجل تؤذيه امرأته بكل ما تقدر عليه وهو في ذلك يدعو الله عليها

---

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٣٥٤.

ويقول: اللهم أرحني منها، فهذا يقول الله له: عبدي أو ما قلدتك أمرها؟ فإن شئت خليتها وإن شئت أمسكتها.

ورجل رزقه الله تبارك وتعالىٰ مالاً ثم أنفقه في البر والتقوىٰ فلم يبق له شيء وهو في ذلك يدعو الله أن يرزقه، فهنا يقول الرب تبارك وتعالىٰ: أولم أرزقك وأغنيتك أفلا اقتصدت ولم تسرف إني لا أحب المسرفين.

ورجل قاعد في بيته وهو يدعو الله أن يرزقه، ولا يخرج ولا يطلب من فضل الله كما أمره الله، هذا يقول الله له: عبدي إني لم أحظر عليك الدنيا، ولم أرمك في جوارحك، وأرضي واسعة، فلا تخرج وتطلب الرزق، فإن حرمتك عذرتك وإن رزقتك فهو الذي تريد[(١)]

٣ ـ عن الإمام الصادق عليه السلام قال: إن نبياً من الأنبياء مرض فقال: لا أتداوىٰ حتى يكون الذي أمرضني هو الذي يشفيني!

فأوحى الله تعالىٰ إليه: لا أشفيك حتى تتداوىٰ فإن الشفاء مني[(٢)].

٤ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: تداووا فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء[(٣)].

٥ ـ سئل الإمام الصادق عليه السلام: عن الرجل يداويه اليهودي والنصراني؟

قال: لا بأس، إنما الشفاء بيد الله[(٤)].

٦ ـ روي أنه قيل: يا رسول الله أرأيت رقىٰ نسترقيها ودواء نتداوىٰ به هل يرد من قضاء الله شيئاً؟

---

(١) المصدر ص٣٥٥.
(٢) بحار الأنوار، ج٥٩، ص٦٦.
(٣) المصدر ص٦٨.
(٤) المصدر، ص٧٣.

فقال: هي من أقدار الله تعالى[1].

حصر الإستعانة بالله لا ينافي التوسل بالأسباب الغيبية

لقد استدل الوهابيون ـ وأمثالهم ـ بهذه الآية ونحوها على أن التوسل بغير الله سبحانه والإستعانة به شرك وكفر وضلال وانحراف. . وقد اتضح الجواب الإجمالي من خلال ما ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وما ذكرناه في الفصل السابق، ولكن لكي تتضح الصورة بشكل أشمل نتحدث في هذا الموضوع ضمن قصاصات[2].

المقام الأول
في طلب الشفاعة من الأنبياء والأولياء

وقد منعه الوهابيون، واعتبروه كفراً وشركاً، وقالوا أنه نظير عمل المشركين الذين اتخذوا أصنامهم واسطة للتقرب من الله قائلين: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفىٰ»[3].

ونقول في الجواب:

١ ـ إن الشفاعة عبارة عن طلب الشفيع ـ كالنبي ﷺ ـ من المشفوع إليه ـ وهو الله تعالىٰ ـ أمراً للمشفوع له ـ وهو المذنب مثلاً ـ.

فشفاعة النبي ﷺ عبارة عن طلبه من الله تعالى غفران ذنب المذنب وقضاء حاجة المحتاج ونحو ذلك.

---

(١) المصدر، ص٧٧.

(٢) اعتمدنا في هذا الفصل على كتاب «كشف الإرتياب» للسيد الأمين ﵀.

(٣) راجع كلماتهم في ذلك في رسالة «أربع قواعد» و«كشف الشبهات» و«زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور» وغيرها.

فالشفاعة نوع من الدعاء.

وقد حكىٰ النيسابوري عن مقاتل أنه قال: الشفاعة إلى الله إنما هي الدعوة لمسلم.

فطلب الشفاعة من الغير كطلب الدعاء منه، بل هو نوع من أنواعه وقد ثبت جواز طلب الدعاء من أي مؤمن كان، واعترف بذلك الوهابيون وأقرّ به ابن تيمية، بل ذلك من الأمور البديهية في الإسلام.

وعلى أساس ذلك: فيجوز طلب الشفاعة من كل مؤمن، فضلاً عن الأنبياء والأولياء عليهم السلام.

وقد يتساءل: إن (الشفيع) لا بد أن يكون له قدر وجاه عند المشفوع إليه أي الله سبحانه ـ.

والجواب: إن الله تعالىٰ جعل لكل مؤمن حرمة يرجىٰ بها قبول شفاعته، واستجابة دعائه.

وقد ثبتت شفاعة الملائكة بنص القرآن الكريم حيث يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩﴾[1].

بل روي أن الحجر الأسود شافع مشفع.

---

(١) سورة غافر، الآيات: ٧ ـ ٩.

ففي الجامع الصغير للسيوطي: الشيرازي في الألقاب وأبو نعيم في مسلسلاته.

وقال: صحيح ثابت عن عليّ: اشهدوا هذا الحجر خيراً فإنه يوم القيامة شافع مشفع له لسان وشفتان يشهد لمن استلمه[١].

فإشهاد الحجر الخير ليشفع في معنىٰ طلب الشفاعة منه، مع أنه جماد، ولو كان ذلك شركاً لما أمر به، ولو أمر به ـ مع كونه كذلك ـ لم يتغير بالأمر عن واقعه، لأن الحكم لا يغير الموضوع كما هو مقرر في محله.

فظهر أن الشفاعة من قبيل الدعاء، وطلب الدعاء من الأحياء جائز بالإتفاق، وأما من الأموات فسيأتي الكلام فيه إن شاء الله تعالىٰ.

٢ ـ دلت مجموعة من الأخبار علىٰ جواز طلب الشفاعة من النبي ﷺ وغيره لأمور الدنيا والآخرة.

ففي صحيح مسلم عن عائشة عن النبي[ﷺ] أنه قال: «ما من ميت يموت يصلي عليه أمة من الناس يبلغون مائة كلهم يشفعون له إلا شفعوا فيه».

فإذا أوصىٰ رجل أن يقوم مئة من اخوانه على جنازته ويشفعوا له يكون مشركاً وضالاً؟

وعن (الترمذي) عن أنس قال: سألت النبي [ﷺ] أن يشفع لي يوم القيامة.

فقال: أنا فاعل.

---

(١) شرح الجامع الصغير، ص٢٢٥.

قلت: فأين أطلبك؟

قال: أولاً على الصراط.

قلت: فإن لم ألقك؟

قال: عند الميزان.

قلت: فإن لم ألقك؟

قال: عند الحوض فإني لا أخطيء هذه المواضع.

وقد طلب سواد بن قارب من النبي [ﷺ] أن يشفع له بقوله:

فكن شفيعاً يوم لا ذو شفاعة   بمغنٍ فتيلاً عن سواد بن قارب

ولم ينكر عليه النبي[ﷺ] قوله.

وفي السيرة الحلبية أن تبعاً الحميري آمن بالنبي [ﷺ] قبل مولده وكتب كتاباً فوصل النبي[ﷺ] بعد مبعثه وقد جاء في الكتاب (وإن لم أدركك فأشفع لي يوم القيامة ولا تنسني).

فقال النبي[ﷺ]: «مرحباً بتبع الأخ الصالح» ـ ثلاث مرات ـ[1].

ولو كان ذلك شركاً لأنكره النبي ﷺ ولم يرحب بصاحبه ولا سماه بـ«الأخ الصالح».

وذكر ابن تيمية أنه ورد في الحديث: أن اعرابيّاً قال للنبي [ﷺ] جهدت الأنفس وجاع العيال وهلك المال فادع الله لنا فإنا نستشفع بالله عليك وبك علىٰ الله، فسبح رسول الله[ﷺ] حتىٰ عرف ذلك في وجوه صحابه وقال؛ ويحك أن الله لا يستشفع به أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك. قال ابن تيمية: فأقره على قوله «إنا نستشفع بك على الله» وأنكر

---

(١) السيرة الحلبية ج٢، ص٨٨.

عليه نستشفع بالله عليك لأن الشافع يسأل عن المشفوع إليه والعبد يسأل ربه ويستشفع إليه، والرب تعالىٰ لا يسأل العبد ولا يستشفع به[1].

فإقرار النبي ﷺ له على قوله: «إنا نستشفع بك علىٰ الله» دليل جواز طلب الشفاعة من النبي ﷺ في دار الدنيا.

ولو كان طلب الشفاعة من غير الله شركاً لم يفرق فيه بين الحي والميت. . فقوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ وقوله: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ إن دلَّ على المنع من الطلب من غير الله لحرم الطلب من الحي والميت، وإن لم يدل على المنع فلا فرق في الجواز بين الحي والميت، فالتفريق بين الحي والميت بهذا اللحاظ لا مبرر له.

مع أنه وردت روايات في طلب الشفاعة منه ﷺ بعد موته:

فقد ورد أن ابن حنيف عَلَّمَ رجلاً أن يقول في دعائه في حكومة عثمان: «يا محمد إني أتوجه بك إلىٰ ربك أن تقضي حاجتي» ففعل ذلك فقضيت حاجته ـ وسوف نذكر نص الرواية في المقام الثالث إن شاء الله تعالىٰ ـ.

وفي (خلاصة الكلام) صَحَّ أنه لما توفىٰ النبي[ﷺ] أقبل أبو بكر فكشف عن وجهه ثم أكبَّ عليه فقبله وقال: بأبي أنت وأمي، طبت حيّاً وميتاً، أذكرنا يا محمد عند ربك ولنكن من بالك.

وفيه أيضاً عن شرح المواهب للزرقاني: أن الداعي إذا قال: اللهم إن استشفع إليك بنبيك، يا نبي الرحمة اشفع لي عند ربك، استجيب له.

---

(١) رسالة زيارة القبور ص١٥٥.

المقام الثاني

في الاستغاثة بغير الله والإستعانة به وطلب الحوائج منه

وقد صرح الوهابيون ـ وأمثالهم ـ بأنهم موجبة للشرك والكفر[1].

والجواب:

أولاً: إن الشرك بالله يتحقق عندما يعتبر غير الله نداً لله وقادراً على التصرف في الأمور الكونية خارج دائرة الأذن الإلهي.. وكل مسلم يعتقد أن من عدا الله لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياةً، ولا نشوراً.. فالمسلمون الذين يستعينون بغير الله إنما يستعينون بهم باعتبار أن الله سبحانه أقدرهم عليها وأذن لهم فيها.. كطلبنا من الطبيب أن يعالج المريض، أو من البناء أن يبني الدار ولذلك لو سألت من يستعين بغير الله: هل تعتقد أن هؤلاء يقدرون على ما تطلبه منهم بأنفسهم وبدون إذن الله سبحانه وبدون إعطاءه تعالى القدرة لهم؟ لأجابك بالنفي القاطع.

ثانياً: إننا نجد في القرآن الكريم: اسناد كثير من الأفعال الكونية إلى غير الله سبحانه.

قال الله تعالى: ﴿فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾[2] فاسند الرزق إلى غير الله مع أن الله هو الرزاق.

وقال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾[3]. مع إن الإغناء بيد الله وحده.

---

(١) راجع الهداية السنية ص٤٠ ـ ورسالة الواسطة ورسالة زيارة القبور ص١٥٧ ورسالة كشف الشبهات ص٦٢ ـ ٦٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٧٤.

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾[1].

وقال سبحانه حكاية عن عيسىٰ عليه السلام: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

فنسب الخلق والإبراء والإحياء إلى عيسىٰ عليه السلام مع أنه كلها بيد الله..

وقال سبحانه في صفة الملائكة

﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥﴾[2].

وقال تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾[3] فأسند تدبير الأمر وقبض الروح إلى الملائكة.

فكيف لم يكن ذلك كله شركاً وكان طلب الشفاء أو الرزق أو نحوهما من النبي صلى الله عليه وآله أو الولي عليه السلام شركاً؟

ثالثاً: هنالك روايات كثيرة تدل على جواز الإستعانة بغير الله ففي (خلاصة الكلام): روىٰ ابن السني عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله[صلى الله عليه وآله]: إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاه فليناد (يا عباد الله احبسوا) فإن لله عباداً يجيبونه.

وفي حديث آخر رواه الطبراني أنه [صلى الله عليه وآله] قال: إذا أَضَلَّ أحدكم شيئاً أو أراد عوناً وهو بأرض ليس فيها أنيس فليقل يا عباد الله أعينوني ـ وفي رواية أغيثوني ـ فإن لله عباداً لا ترونهم.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٥٩.

(٢) سورة النازعات، الآية: ٥.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٦١.

وقد ذكر ذلك فقهاء العامة في «آداب السفر».

وفي (خلاصة الكلام) أنه صح أن أصحاب النبي [ﷺ] لما قاتلوا مسيلمة الكذاب كان شعارهم «وامحمداه وامحمداه».

وفي الشفا للقاضي عياض أن عبد الله بن عمر خذلت رجله مرّة فقيل له أذكر أحب الناس إليك فقال (وامحمداه) فانطلقت رجله.

المقام الثالث

في التوسل إلى الله تعالى بالأنبياء والأولياء

وقد اعتبره الوهابيون ـ وأمثالهم ـ شركاً وضلالاً[1].

والجواب: ـ

أ ـ التوسل ثابت بنص القرآن الكريم حيث يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾[2].

والآية بإطلاقها شاملة لكل توسل إليه تعالى بما هو كريم لديه.

ب ـ والتوسل ثابت أيضاً بالروايات المتظافرة.

فعن القسطلاني في شرح صحيح البخاري: أن بني اسرائيل كانوا إذا قحطوا استسقوا بأهل بيت نبيّهم.

وفي صحيح البخاري: أن عمر استسقىٰ بالعباس فقال: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فَاسْقِنا فَيُسْقَوْن.

---

(١) راجع كتاب «التوحيد» لمحمد بن عبد الوهاب و«تطهير الإعتقاد» للصنعاني و«زيارة القبور» لابن تيمية ص١٦٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

وفي سنن ابن ماجه عن النبي [ﷺ] في دعاء الخارج للصلاة (اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا).

وروىٰ جماعة منهم الحاكم ـ وصحّح اسناده ـ عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: لما اقترف آدم الخطيئة قال: «يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي).. إلى آخر الحديث وفيه أن الله غفر له بذلك.

وفي (خلاصة الكلام): أنه قد روىٰ هذا الحديث البيهقي بإسناد صحيح.

وفيها أيضاً: قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾: إن الكلمات هي توسله بالنبي [ﷺ].

وروىٰ الطبراني في الكبير عن عثمان بن حنيف أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له وكان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته فلقىٰ ابن حنيف فشكا إليه ذلك فقال له ابن حنيف: ائت الميضاة فتوضأ ثم ائت المسجد فصلِ ركعتين ثم قل:

«اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك أن تقضي حاجتي» وتذكر حاجتك، فانطلق الرجل فصنع ما قال، ثم أتىٰ باب عثمان فجاءه البواب حتىٰ أخذ بيده فأدخل على عثمان فأجلسه معه على الطنفسة.

فقال: ما حاجتك؟ فذكر حاجته وقضاها له.

ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كانت الساعة وقال: ما كانت له من حاجة فاذكرها.

ثم خرج الرجل من عنده فلقىٰ ابن حنيف فقال: جزاك الله خيراً ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليّ حتىٰ كلمته فيَّ.

فقال بن حنيف: والله ما كلمك ولكن شهدت رسول الله[ﷺ].

وروىٰ الطبراني في الكبير والأوسط عن أنس بن مالك قال: لما ماتت فاطمة بنت أسد دخل عليها رسول الله[ﷺ] فجلس عند رأسها. فقال: رحمك الله يا أُمّي بعد أمّي، وذكر ثناءه عليها وتكفينها ببرده، ثم دعا رسول الله[ﷺ] أسامة بن زيد وأبي أيوب الأنصاري وعمر بن الخطاب وغلاماً أسود يحفرون فحفروا قبرها فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله[ﷺ] بيده وأخرج ترابه بيده فلما فرغ دخل رسول الله[ﷺ] فاضطجع فيه ثم قال: (الله الذي يحي ويميت وهو حيٌّ لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي).

وقد صحح الطبراني هذا الحديث، وكذا ابن حيان والحاكم.

والحديث في هذا الباب طويل نكتفي منه بهذا القدر[1].

تتمة

في حياة النبي ﷺ بعد موته. وحياة جميع الأنبياء عليهم السلام.

وقد وردت بذلك نصوص كثيرة.

منها ما رواه أبو داود بسند صحيح ـ كما قال السبكي ـ عن النبي [ﷺ] أنه قال: ما من أحد يسلم عليَّ إلا ردَّ الله روحي حتىٰ أرد عليه السلام.

ومنها: ما رواه ابن عدي في كامله عن ثابت عن أنس عنه[ﷺ] الأنبياءُ أحياءٌ في قبورهم.

---

(١) ومن أراد التفصيل فليراجع «كشف الإرتياب» ص٢٣٨ إلى ص٣٢٨. وأيضاً كتاب «التوسل بالنبي وجهلة الوهابيين» لأبي حامد بن مرزوق.

ورواه أبو يعلي برجال ثقات، ورواه البيهقي وصحّحه إلى غيرها من الروايات وهي كثيرة[1].

ويكفي في ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

ولا شك أن الأنبياء أفضل من الشهداء.

(١) راجع كشف الارتياب ص١٠٩ ـ ١١٤.

الآيتان

٦ ـ ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾.

٧ ـ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

المفردات:

﴿ٱهۡدِنَا﴾: أرشدنا.

﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾: الطريق.

﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾: المستوى الذي لا اعوجاج له.

كيف يطلب المهتدي: الهداية؟

بعد أن أعلن المؤمن انخراطه في سلك «الموحدين» ـ توحيداً في «العبادة» متمثلاً في قوله ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ وتوحيداً في «الأفعال» متمثلاً في قوله ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ ـ بعد ذلك يتجه إلى الله سبحانه ليطلب منه أن يهديه «الصراط المستقيم»، فإذا كان المؤمن يستمد العون الإلهي في كل شئون حياته بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ فإن أجدر شيء يتوجه إلى الله فيه هو أن يعينه على السير في ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

والسؤال هو: كيف يطلب المؤمن في هذه المرحلة الهداية مع أنه مهديّ بالفعل؟ أليس ذلك تحصيلاً للحاصل؟

ويمكن أن يجاب عن ذلك بإجابتين:

الإجابة الأولى:

إن الهداية صفة قابلة للزوال، لذا فإن المؤمن يطلب من الله سبحانه أن يديم له هذه الصفة، ويثبته بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

ولتوضيح ذلك نقول: الصفات تتنوع إلى نوعين:

النوع الأول: الصفات التي يستحيل انفكاكها عن موصوفها.. فما دام «الموصوف» ثابتاً فـ«الوصف» ثابت أيضاً.. نعم يمكن زوال الوصف بزوال موصوفه.. ولكن ذلك لا ينافي استحالة الإنفكاك، إذ إنما تفرض الإستحالة في ظرف بقاء الموصوف.

ولا يكون ذلك إلا في «الأوصاف الذاتية»..

وخصيصة الذاتي: عدم افتقاره إلى علة وراء علة وجود الذات.. فعلة وجود الذات كافية في وجود الوصف الذاتي، بل لا يعقل وجود علة تفيض الوجود على الذاتي بعد وجود علة الذات.. لكون ذلك تحصيلاً للحاصل.

إذ بوجود «الذات» ـ بالذات ـ يوجد «الذاتي» ـ بالتبع ـ فلا معنىٰ لإفاضة الوجود عليه مرة أخرىٰ.

ويمكن أن يمثل لذلك بـ«زوجية الأربعة» فهي وصف ذاتي للأربعة

يستحيل انفكاكها عنها ما دامت الأربعة موجودة، كما أنها لا تفتقر إلى علة وراء علة وجود الأربعة.

وهكذا الأمر في «إمكان الممكن» ونحو ذلك من الصفات الذاتية.

النوع الثاني: الصفات التي لا يستحيل انفكاكها عن موصوفها.. فيمكن زوالها وإن كان الموصوف باقياً..

ولطروّ هذه الصفات علل وراء علل وجود الذات، فهي تحتاج إلى علية مستقلة لكي توجد ـ وإن اتحد شخص العلة المفيضة ـ كما لا بد من استمرار العلة لكي تستمر. . فإن العلة الموجودة ليست كافية في بقاء المعلول ما لم تكن هنالك علة مبقية أيضاً ـ سواء اتحدت مع العلة الموجدة أو اختلفت ـ ومتىٰ قطعت العلة فيضها عن المعلول فإنه سوف ينعدم فوراً ـ كما تنعدم صورنا الذهنية بمجرد سلب التوجه عنها ـ.

ويمكن أن نمثل لذلك بـ «علم» الإنسان و«قدرته» ونحو ذلك من صفاته العَرَضية.

وصفة «الهداية» من النوع الثاني لوجود خواصّه فيها. . ولذا فإن من الممكن جدّاً أن يكون الإنسان «مهديّاً» في حقبة من حياته، ثم تسلب من هذه الصفة ليخرج عن «الصراط المستقيم» إلى طرق الضلال والإنحراف. .

ومن هنا: كان المؤمن يتوجه إلى الله سبحانه باستمرار ـ في كل يوم عشر مرات على الأقل في صلواته الخمس المفروضة ـ ليقول:

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾.

أي ثبتنا على الصراط المستقيم.

وهذا المعنىٰ هو المروي عن الإمام العسكري عليه السلام، حيث قال في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾: أدم لنا توفيقك الذي به أطعناك في ما مضىٰ من أيامنا، حتى نُطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال في الآية: يقول ارشدنا إلى الصراط المستقيم أرشدنا للزوم الطريق المؤدي إلى محبتاك، والمبلغ دينك، والمانع من أن نتبع أهواءنا فنعطب، أو تأخذ بآرائنا فنهلك[2].

وقد أشارت الأحاديث الكريمة إلى أن الإيمان يمكن أن يُسلب من المؤمن.

فعن أبي الحسن الأول [الإمام كاظم] عليه السلام: أنه سُإِلَ عن قول الله ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾؟

قال: المستقر الإيمان الثابت والمستودع المعار[3].

وعن أبي عبد الله [الإمام الصادق] عليه السلام قال: إن العبد يصبح مؤمناً ويمسي كافراً، ويصبح كافراً ويمسي مؤمناً، وقوم يعارون الإيمان ثم يسلبونه، ويسمون المعارين، ثم قال عليه السلام فلان منهم[4].

كما أشارت الروايات إلى بعض العوامل التي تسبب ثبات الإيمان نذكر منها الرواية التالية:

---

(١) نور الثقلين ج١، ص٢٢، ط٢ وراجع البرهان ج١، ص٥٠.
(٢) المصدر.
(٣) البحار ج٦٦، ص٢٢٣.
(٤) المصدر ص٢٢٦.

عن أبي عبد الله[الصادق]عليه السلام قال: إن الله جبل[1] النبيين على نبوتهم فلا يرتدون أبداً، وجبل الأوصياء علىٰ وصاياهم فلا يرتدون أبداً، وجبل بعض المؤمنين على الإيمان فلا يرتدون أبداً، ومنهم من يعير الإيمان عارية فإذا هو دعا وألح في الدعاء مات على الإيمان[2].

ولعل ذلك من أسباب توجه المؤمن إلى الله سبحانه كل يوم، ليدعوه قائلاً: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾.

نماذج:

ونجد في التاريخ الكبير من النماذج التي سلبت منها نعمة الهداية فضلوا على الصراط المستقيم نذكر منها:

١ ـ الزبير بن العوام[3].

٢ ـ الشلمغاني[4].

٣ ـ أبو الخطاب[5].

٤ ـ المغيرة بن سعد[6].

٥ ـ علي بن أبي حمزة البطائني.

٦ ـ زياد بن مروان القندي.

---

(١) أي خلقهم.
(٢) البحار ج٦٦، ص٢٢٠ ـ ٢٢١.
(٣) راجع سفينة البحار ج١، ص٥٤٣ ـ ٥٤٥ وبحار الأنوار ج٦٦، ص٢٢٢ ـ ٢٢٣.
(٤) سفينة البحار، ج١، ص٧١٣ ـ ٧١٤.
(٥) راجع سفينة البحار ج١، ص٤٠١ وبحار الأنوار ج٦٦، ص٢١٩ ـ ٢٢٠.
(٦) راجع أحواله في سفينة البحار ج١، ص٤٠١ مادة خطب.

٧ ـ عثمان بن عيسى الرواسي[١].

٨ ـ عابد برصيصا[٢].

إلى غير ذلك من النماذج وهي كثيرة ـ أعاذنا الله من سوء العاقبة، وجعل عواقب أمورنا خيراً، بمحمد وآله الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين ـ.

تنبيه:

ولا يخفىٰ أن الأنبياء والأئمة عليهم السلام معصومون، ولا يمكن أن تسلب منهم نعمة «الهداية» ـ وإن لم يسلبهم ذلك اختيارهم علىٰ ما فصل في محله ـ.

فطلبهم من الله الهداية ربما يكون بمعنى: طلب ثبات تلك الدرجة من الهداية التي وهبهم الله إياها.

وتوضيح ذلك:

إن الحقائق على نوعين:

١ ـ حقائق تشكيكية.

٢ ـ وحقائق متواطية.

فالحقائق التشكيكية حقائق ذات مراتب مختلفة من حيث الشدة والضعف، بينما الحقائق المتواطية حقائق ذات مرتبة واحدة.

---

(١) راجع أحوال الثلاثة في بحار الأنوار ج٤٨، ص٢٥٠ ـ ٢٧٥.

(٢) راجع «مجمع البيان» ج٩ ـ ١٠ ـ ص٣٩٧ ط دار المعرفة ـ بيروت.

فمثلاً: «الماء» عبارة عن السائل المركب من ذرة أوكسيجين وذرتي هيدروجين.. وهذه الحقيقة ذات مصاديق متعددة.. إلا أن جميع هذه المصاديق في عرض واحد بلحاظ تلك الطبيعة الكلية.. فماء البحر وماء النهر وماء المطر و.. كلها في رتبة واحدة بلحاظ «المائية».. فكلها مكونة من ذرة أوكسجين وذرتي هيدروجين.. وإذا كان ثمة اختلاف بينها فإنما هو اختلاف بأمور أخر كالحرارة والبرودة والعذوبة والملوحة وما أشبه.. ولا يوجد اختلاف بينها بلحاظ «الحقيقة المائية»..

بينما «النور» حقيقة ذات مراتب مختلفة.. فالنور المتراقص في أطراف عود الكبريت وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة نور.. ونور الشمس أيضاً نور.. وتجمع هذين المصداقين طبيعة النور، وتفرق بينهما أيضاً طبيعة النور.. فـ«نورية» هذا الفرد أكثر من «نورية» الفرد الآخر.. فما به الإجتماع عين ما به الافتراق.

و«الهداية» تقع ضمن دائرة «الحقائق التشكيكية» فلها مراتب مختلفة، ربما لا تدخل تحت العد والإحصاء.

قال الله سبحانه:

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(٢).

وعندما يطلب الأنبياء عليهم السلام الثبات على الهداية فإنهم يطلبون بقاء تلك

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٥.

المنزلة الرفيعة التي منَّ الله بها عليهم، لكي لا تزول تلك المرتبة بسبب ترك الأولىٰ أو ما أشبه ذلك.

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

كان رسول الله صلى الله عليه وآله في بيت أم سلمة في ليلتها، ففقدته من الفراش.. فقامت تطلبه في جوانب البيت، حتىٰ انتهت إليه وهو في جانب من البيت قائم رافع يديه يبكي وهو يقول:

«اللهم لا تنزع مني صالح ما أعطيتني أبداً، اللهم لا تشمت بي عدوّاً ولا حاسداً أبداً، اللهم ولا تردني في سوء استنقذتني منه أبداً، اللهم ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً».

قال: فانصرفت أم سلمة تبكي، حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله لبكائها فقال لها: ما يبكيك يا أم سلمة؟

فقالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ولم لا أبكي، وأنت بالمكان الذي أنت به من الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، تسأله أن لا يشمت بك عدوّاً أبداً، وأن لا يردك في سوء استنقذك منه أبداً، وأن لا ينزع منك صالحاً أعطاك أبداً، وأن لا يكلك إلى نفسك طرفة عين أبداً؟

فقال: يا أم سلمة وما يؤمنني؟ وإنما وكل الله يونس بن متىٰ إلىٰ نفسه طرفة عين وكان ما كان[1].

---

(١) البحار ج١٦، ص٢١٧ ـ ٢١٨.

الإجابة الثانية:

إن «الصراط المستقيم» مفهوم عام[1] يشمل ما لا يعد ولا يحصىٰ من المصاديق الخارجية. .

فلكل شيء ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ـ وله أيضاً سبل منحرفة كثيرة تتناثر علىٰ جانبيه.

فكل عقيدة تؤمن بها.

وكل فكرة تنبض في ذهنك.

وكل عمل تقوم به.

وكل موقف تتخذه. . و. . و. . كلها يمكن أن تقع ضمن الصراط المستقيم، كما يمكن أن تقع ضمن «السبل المنحرفة». .

إن أمام الإنسان ـ في كل لحظة من لحظات حياته ـ خيارات متعددة. . والإنسان يجب أن ينتخب إحدىٰ هذه الخيارات. . وهنالك أسئلة كثيرة تنتصب أمامه في كل لحظة. . تتناول كل جزئية من جزئيات حياته. . وفي كل لحظة يمكن أن يختار السير في الصراط المستقيم، أو يختار السير في السبل المنحرفة. . ومن هنا: فإن يسأل من الله سبحانه أن يهديه الصراط المستقيم في كل فكرة وعقيدة، وعمل، وموقف. .

وحيث أنه لم يقيد «الصراط المستقيم» في الآية الكريمة بقيد خاص، فإنه يفيد الشمول لكل شيء، فإن «حذف المتعلق يفيد العموم ـ كما ذكره علماء البلاغة ـ.

---

(١) «مطلق» حسب التعبير المتداول في «علم الأصول».

وقد ورد في الحديث الشريف عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال:

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ استرشاد لدينه، واعتصام بحبله، واستزادة في المعرفة لربه عزَّ وجل ولعظمته وكبريائه[1].

وعن الإمام العسكري عليه السلام: ـ في حديث ـ: فأما الطريق المستقيم في الدنيا فهو ما قصر عن الغلو وارتفع عن التقصير واستقام فلم يعدل إلى شيء من الباطل»[2].

الصراط المستقيم بين المنهج والنموذج

والقرآن الكريم في الوقت الذي يحدد في الآيات الآخر طبيعة الصراط المستقيم فيقول:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١﴾[3].

ويقول: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4].

ويقول ـ على لسان النبي صلى الله عليه وآله ـ:

﴿وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[5].

في الوقت ذاته.. يربط هذا «الصراط المستقيم» بـ«عينات خارجية»

---

(١) نور الثقلين ج١، ص٢٠ وراجع أيضاً البرهان ج١، ص٥٠.

(٢) المصدر ص٢٢.

(٣) سورة يس، الآيتان: ٦٠ ـ ٦١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٥) سورة الزخرف، الآية: ٦١.

تجسّد السير في هذا الصراط، وتكون نموذجاً يحتذىٰ به في المسير. .
فيصف الصراط المستقيم بأنه:

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾.

ويقول في آية أخرى:

﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١﴾[1].

وقد روي عن المفضل بن عمر قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الصراط.

فقال: «هو الطريق إلى معرفة الله عزَّ وجل».

وأضاف: «وهما صراطان؛ صراط في الدنيا وصراط في الآخرة.

فأما الصراط في الدنيا فهو الإمام المفترض الطاعة، من عرفه في الدينا واقتدىٰ بهداه مرّ على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة، ومن لم يعرفه في الدنيا زلت قدمه عن الصراط في الآخرة فتردىٰ في نار جهنم»[2].

وقد روي في وصف صراط الآخرة عن الإمام الصادق عليه السلام أنه (أَدَقُّ من الشعر وأَحَدُّ من السيف، فمنهم من يمر عليه مثل البرق، ومنهم من يمر عليه مثل عدو الفرس، ومنهم من يمرّ عليه ماشياً، ومنهم من يمر عليه

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦١.
(٢) نور الثقلين ج١، ص٢١ وراجع البرهان ج١، ص٥٠.

حبواً[1]، ومنهم من يمر عليه متعلقاً فتأخذ النار منه شيئاً وتترك منه شيئاً»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ:

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ يعني: محمداً وذريته صلوات الله عليهم[3].

ذلك أن هنالك حقيقتين:

١ ـ المنهج.

٢ ـ النموذج.

فالمنهج يتمثل في الإطار النظري للدين.

أما النموذج فيتمثل في التطبيق الخارجي للدين.

والمنهج لا يستطيع بمفرده أن يحرك الأجيال.. كما لا يمكن أن يحدّد ـ بوضوح كامل ـ معالم الطريق.

ومن هنا جاء الربط القرآني بين «المنهج» و«النموذج» في هاتين الآيتين الكريمتين.

من هم الذين أنعم الله عليهم؟

لا يوجد هنالك شخص إلا وهو مغمور بالنعم الإلهية.. ولا أقل من نعمة «الوجود»، فكل البشر من «الذين أنعم الله عليهم».. إلا أن النعم

---

(١) حبا حبواً: مشىٰ على يديه وبطنه.

(٢) المصدر وراجع أيضاً البرهان ج١، ص٤٧.

(٣) المصدر ص٢٣.

لها درجات.. فهنالك نعمة «الهداية الربانية».. وهنالك نعم «الجاه والثروة والصحة و.. و..».. وهذه النعم وإن كانت نعماً عندما ينظر إليها في حد ذاتها إلا أنها لا تعتبر شيئاً عندما تقاس بنعمة الهداية الإلهية.. لسمو مقامها، ودوام آثارها، بعكس النعم الأخرىٰ.. إذ أنها وإن كانت نعماً عندما ننظر إليها نظرة «ذاتية» إلاّ أنها لا تعتبر كذلك عندما ننظر إليها بنظرة «قياسية».. وذلك تنزيلاً لفاقد الوصف ـ أي الكمال ـ منزلة فاقد الأصل ـ أي الذات ـ.

من هنا كان المراد بقوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ النعمة الخاصة التي اختص الله بها أنبياءه وأولياءه، لا النعمة العامة التي يشترك فيها الجميع..

وقد ورد في الحديث الشريف عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾: «صراط الأنبياء وهم الذين أنعم الله عليهم»[(١)].

وعن الإمام العسكري عليه السلام أنه قال في الآية: «ليس هؤلاء المنعم عليهم بالمال وصحة البدن، وإن كان كل هذه نعمة من الله ظاهرة، ألا ترون أن هؤلاء قد يكونوا كفاراً أو فساقاً، فما ندبتم إلى أن ندعوا بأن ترشدوا إلى صراط الذين أنعم عليهم بالإيمان بالله وتصديق رسوله وبالولاية لمحمد وآله الطيبين[(٢)].

الفرق بين ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾

والنسبة المنطقية بين «المغضوب عليهم» و«الضالين» هي «العموم

---

(١) نور الثقلين ـ ج١، ص٢٠.
(٢) نور الثقلين ج١، ص٢٣.

المطلق» فكل مغضوب عليه فهو ضال ـ وليس كل ضال مغضوباً عليه . .[1].

وذلك . . لأن الإنحراف على نوعين:

١ ـ الإنحراف التقصيري..

ويتحقق ذلك في موردين:

أ ـ حينما يعرف الإنسان الحق ـ ويعرض عنه لوجود «عوامل» معينة تضغط عليه لكي يسلك طريق الضلال ـ عن سابق عمد وتصميم ـ كحب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام، والحرث، وحب الرئاسة، وأشبه ذلك.

ويطلق على هذا النوع من الإنحراف «الإنحراف الواعي».

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[2].

ب ـ حينما يجهل الإنسان الحق، ولكنه يكون مقصراً في المقدمات الموصلة إلى الحق، كمن رفض الإستماع إلى كلمة الحق، فظل سادراً في ضلاله الموروث.

في هذه الحالة يمتنع على مثل هذا الشخص الوصول إلى الهدىٰ، ولكن هذا الإمتناع «امتناع بالاختيار» و«الإمتناع بالإختيار لا ينافي الإختيار» كما أن «الوجوب بالإختيار لا ينافي الإختيار» فيحل عليه الغضب الإلهي ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾[3].

---

(١) راجع «تقريب القرآن إلى الأذهان» المجلد الأول ـ ص٣٥.

(٢) سورة النمل، الآية: ١٤.

(٣) سورة طه، الآية: ٨١.

٢ ـ الإنحراف القصوري..

ويتحقق ذلك حينما يكون ضلال الفرد منبعثاً من وجود حواجز تمنعه من الوصول إلى «الحق».. دون أن يكون له أي تقصير في ذلك.. ففي هذه الحالة يكون الفرد «ضالاً» ولكن بدون أن يكون «مغضوباً عليه» لعدم فعله ما يوجب الغضب الإلهي. فتأمل.

وفي الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ توكيد في السؤال والرغبة، وذكر لما تقدم من نعمه على أوليائه، ورغبة في مثل تلك النعم ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ استعاذة من أن يكون من المعاندين الكافرين المستخفين به وبأمره ونهيه.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ اعتصام من أن يكون من الذين ضلوا عن سبيله من غير معرفة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً[١].

الخوارج مصداق بارز للضلال

وقد كان كثير من الخوارج من الذين انطبق عليهم قول الله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾[٢].

وقد تلا رجل الآية بحضرة علي عليه السلام فقال علي عليه السلام: أهل الحروراء منهم[٣].

---

(١) نور الثقلين ج١، ص٢٤ وراجع البرهان ج١، ص٥٠.
(٢) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣ ـ ١٠٤.
(٣) شرح نهج البلاغة ج٢، ص٢٧٨.

وفي حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لا تقتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه»[١].

وفي حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لا تقتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه»[٢].

قال ابن أبي الجديد: «مراده أن الخوارج ضلوا بشبهة دخلت عليهم.. وأما معاوية فلم يكن يطلب الحق، وإنما كان ذا باطل لا يحامي عن اعتقاد قد بناه على شبهة، وأحواله كانت تدل علىٰ ذلك.. وإذا كان كذلك لم يجز أن ينصر المسلمون سلطانه وتحارب الخوارج عليه وإن كان أهل ضلال»[٣].

ولما خرج علىٰ معاوية بالكوفة: بعد الخوارج قال معاوية للإمام الحسن عليه السلام أخرج إليهم وقاتلهم.

فقال عليه السلام: يأبىٰ الله لي بذلك.

قال: فلم، أليس هم أعدؤك وأعدائي؟

فقال عليه السلام: نعم يا معاوية ولكن ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فوجده!

فأسكت معاوية[٤].

ونذكر في ما يلي نماذج من أعمالهم:

---

(١) المصدر ج٥، ص٧٨.
(٢) المصدر ج٥، ص٧٨.
(٣) المصدر.
(٤) سفينة البحار ج١، ص٣٨٤.

١ ـ فقد لقيهم عبد الله بن خباب وهو على حمار وفي عنقه مصحف ومعه امرأته وهي حامل.

فقالوا له: إن هذا القرآن الذي في عنقك ليأمرنا بقتلك.

ثم سألوه: ما تقول في علي بعد التحكيم والحكومة؟

فقال: إن علياً أعلم بالله وأشد توقياً على دينه وأنفذ بصيرة.

فقالوا: إنك لست تتبع الهدىٰ، وإنما تتبع الرجال على أسمائهم.

ثم قربوه إلى شاطىء النهر فأضجعوه وذبحوه[١].

٢ ـ ووثب رجل منهم على رطبة سقطت من نخلة، فوضعها في فيه فصاحوا به، فلفظها تورعاً![٢].

٣ ـ وعرض لرجل منهم خنزير فضربه فقتله، وقالوا: هذا فساد في الأرض، وأنكروا قتل الخنزير[٣].

٤ ـ وساوموا رجلاً نصرانياً بنخلةٍ له فقال: هي لكم.

فقالوا: ما كنا لنأخذه إلا بثمن!

فقال: واعجباه! أتقتلون مثل عبد الله بن خباب، ولا تقبلون نخلة إلا بثمن![٤].

---

(١) راجع شرح نهج البلاغة ج٢، ص٢٨١ ـ ٢٨٢ وراجع سفينة البحار ج١، ص٢٨٣.
(٢) المصدر وسفينة البحار ج١، ص٣٨٣.
(٣) المصدر وسفينة البحار ج١، ص٣٨٣.
(٤) المصدر.

٥ ـ وأصابوا في طريقهم إلى النهروان مسلماً ونصرانياً، فقتلوا المسلم واستوصوا بالنصراني وقالوا احفظوا ذمة نبيكم![١].

٦ ـ وروىٰ أبو عبيدة قال: طعن واحد من الخوارج يوم النهروان فمشى في الرمح وهو شاهر سيفه إلى أن وصل إلى طاعنه فقتله وهو يقرأ:

«وعجلت إليك رب لترضىٰ»[٢].

٧ ـ ولما حاجّهم أمير المؤمنين عليه السلام تقدم إليه عبد الله بن وهب وذو الثدية حرقوص وقالوا: ما نريد بقتالنا إيّاك إلا وجه الله والدار الآخرة!.

فقال علي عليه السلام: قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ـ إلىٰ آخر الآية الكريمة[٣].

٨ ـ وروي أنه خرج أمير المؤمنين عليه السلام ذات ليلة من مسجد الكوفة متوجهاً إلى داره وقد مضىٰ ربع من الليل ومعه كميل بن زياد رحمه الله ـ وكان من خيار شيعته ومحبيه ـ فوصلَ في الطريق إلى باب رجل يتلو القرآن في ذلك الوقت ويقرأ قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾.

بصوت شجي حزين.

فاستحسن كميل ذلك في باطنه وأعجبه حال الرجل من غير أن يقول شيئاً.

فالتفت صلوات الله عليه إليه وقال: يا كميل لا يعجبك طنطنة الرجل، إنه من أهل النار! سأنبئك فيما بعد.

---

(١) سفينة البحار ج١، ص٣٨٣.

(٢) سفينة البحار ج١، ص٣٨٣.

(٣) سفينة البحار ج١، ص٣٨٤.

بتحير كميل لمكاشفته، له على ما في باطنه، ولإخباره على الرجل بدخول النار مع كونه في تلك الحالة الحسنة.

ومضت مدة متطاولة إلى أن آل حال الخوارج إلى ما آل، ووقعت حرب صفين، ولما انتهت التفت أمير المؤمنين عليه السلام إلى كميل وهو واقف بين يديه ووضع سيفه على رأس من تلك الرؤوس فقال: يا كميل أمّن هو قانت آناء الليل (أي هو ذلك الشخص الذي كان يقرأ القرآن في تلك الليلة فأعجبك حاله) فقبّل كميل قدميه واستغفر الله[1].

عدم تغير الآثار الوضعية للضلال بالعلم والجهل

ولا يخفىٰ أن «المؤاخذة القانونية» ترتفع عن «الضال» غير المقصّر.. فهو لا يستحق العقاب لضلاله.. ولكن «الآثار الوضعية» للضلال سوف تترتب عليه قهراً..

فمن شرب الخمر سوف يصاب بالسكر، وإن تصور أنها ماء قراح.

ومن ابتلع السمّ القاتل سوف يهلك، وإن تصور أنه دواء ناجع.

ومن سار في طريق الضلال سوف يبتلىٰ بالآثار الوضعية للضلال، ويُحرم من بركات الهدىٰ، وإن كان معذوراً في انحرافه.

ومن هنا.. يستعيذ المؤمن بالله من الضلال بكلا قسيمه..

الضلال المتعمد.. والضلال غير المتعمد.

---

(١) المصدر ج٢، ص٤٩٦ ـ ٤٩٧.

وحيث «إن التخلص من الضلالة اللاواعية لا يكون إلا بعد التخلص من الإنحراف الواعي ـ إذ أن نور الله لا يدخل قلباً متكبراً معانداً مصمماً على الإنحراف ـ لذلك نجد القرآن يأمرنا بالتخلص من غضب الله أولاً، ثم يأمرنا بالتخلص من الضلالة»[1]. فتأمّل.

(١) من هدى القرآن ـ ج١، ص٨٥.

التدبر في القرآن

الجزء الثاني

سماحة الفقيه
آية الله السيد محمد رضا الحسيني الشيرازي

دار العلوم
للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾(١).

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٢).

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٩.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين. إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذا هو الجزء الثاني من «**التدبر في القرآن**» وهو يمثل محاضرات مبسّطة تعبر عن تصورات أولية في تفسير القرآن الكريم، مشفوعة بإضافات وتنقيحات.

وقد ابتدأت فيه من «سورة البقرة».. واسأل الله تعالى التوفيق والتسديد.. إنّه خير موفق ومعين.

محمد رضا بن السيد محمد الحسيني الشيرازي

الكويت ٩/ ٣/ ١٤١٥هـ

سورة البقرة

مدنية

آياتها (٢٨٧)

فضل السورة

١ ـ عن الإمام الصادق عليه السلام: **«من قرأ البقرة وآل عمران جاءتا يوم القيامة تظلانه على رأسه مثل الغمامتين ـ أو العبائتين»**[١].

٢ ـ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الله أوحى إليه: **«أعطيت لك ولأمتك كنزاً من كنوز عرشي: فاتحة الكتاب، وخاتمة سورة البقرة»**[٢].

---

(١) تفسير البرهان ج١، ص٥٢.

(٢) بحار الأنوار ج٨٩، ص٢٦٣.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ
۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ
يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن
قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ١ ـ ٥.

المفردات

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾: أي نبتدأ بهذا الإسم المبارك.

﴿الرَّحْمَٰنِ﴾: ذو الرحمة الشاملة.

﴿الرَّحِيمُ﴾: ذو الرحمة الدائمة.

﴿الم ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾: من جنس هذه الأحرف يتكون القرآن العظيم (وهنالك احتمالات أُخر في تفسير هذه الجملة).

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: لا شك فيه.

﴿هُدًى﴾: إرشاد، ودلالة على الطريق المستقيم.

﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: للذين يتجنبون السقوط في المهالك، ويتحذرون الوقوع في المهاوي.

﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يصدقون ويذعنون.

﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾: يأتون بها على الوجه المأمور به بشكل متواصل.

﴿الْمُفْلِحُونَ﴾: الناجون مما يخافون، الفائزون بما يؤملون.

البدء بالبسملة.. لماذا؟

مضى نمط من الكلام حول هذا الموضوع في بداية سورة «الحمد» ونتحدث هنا حول الموضوع من زاوية أخرى.

إن التركيز على البدء بالبسملة في مفتتح كل سورة منهج رباني أدب الله سبحانه وتعالى به عباده لكي يبدأوا أمورهم كلها باسم الله سبحانه.

ومن شأن هذا «الحضور اللفظي» لله سبحانه أمام كل أمر أن ينتهي إلى «الحضور الذهبي» و«الحضور العملي» له تعالى في حياة الإنسان.

ولكن نلقي الضوء على هذه الحقيقة نقول: أن لكل شيء وجودات أربعة:

١ ـ الوجود الخارجي..

وهو وجود الشيء في متن الأعيان بحيث تترتب عليه آثاره الخارجية المترقبة منه.

٢ ـ الوجود الذهني..

وهو وجود الشيء في صفحات الأذهان بحيث لا تترتب عليه آثاره الخارجية المترقبة منه..

فالنار بوجودها الخارجي تعطي الدفء والضوء والحرارة، بينما لا تترتب عليها هذه الآثار بوجودها الذهني..

٣ ـ الوجود اللفظي..

وهو عبارة عن الرموز اللفظية التي تم تواضع العرف عليها للاشارة إلى حقيقة من الحقائق الخارجية أو الذهنية.

٤ ـ الوجود الكتبي..

وهو عبارة عن الرموز الكتبية التي وضعت للاشارة إلى حقيقة من تلك الحقائق. .

وهذه الوجودات مترابطة فحالات بعضها تؤثر في حالات البعض الآخر ووجود بعضها من شأنه أن يستتبع وجود البعض الآخر ـ ولو في الجملة ـ.

والشق الأول ـ ترابط الحالات ـ تطرق إليه علماء المنطق في بحوثهم المنطقية. . والذي يهمنا هنا هو بيان الشق الثاني ـ ترابط الوجودات ـ.

فالوجود اللفظي لحقيقة من الحقائق يترابط عادة من الحضور الذهني لتلك الحقيقة. . والحضور الذهني لها كثيراً ما ينتهي إلى «الحضور العملي» لتلك الحقيقة في حياة الإنسان.

وهذا ما يؤكد علماء الأخلاق حين يقولون: إن التلقين مؤثر في توجيه السلوك الإنساني. . فالذي يقول لنفسه كل صباح: «إنني شجاع». . قد يصبح شجاعاً بالفعل في حياته العملية. .

وعلى أساس ذلك نقول:

إن الحضور الإلهي اللفظي أمام كل عمل يقوم به الإنسان. . من طبيعته أن يؤدي إلى الحضور الإلهي المستمر في ذهن الإنسان. . والحضور الذهني لله تعالىٰ ـ للحقيقة الإلهية ـ في الذهن كثيراً ما ينتهي إلى الحضور العملي لله تعالى في سلوك الإنسان. . فلا يخطو خطوة إلا

ويرى الله قبلها.. ويحاول أن يكيف سلوكه الخارجي وفق ما يريده الله سبحانه..

ومن هنا يقول القرآن الكريم:

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾(١).

ومن هنا أيضاً.. نجد التركيز الكبير على الذكر اللفظي لله سبحانه في مختلف حالات الإنسان..

فهناك ذكر معين؛ عند اليقظة من المنام..

واخر؛ عند الوضوء..

وثالث: عند الصلاة..

ورابع: عند البدء بالطعام..

وخامس: عند الإنتهاء من الطعام.

والسادس: عند الخروج من الدار.

وسابع: عند ركوب الدابة.

وثامن: عند إرادة النوم..

وهكذا.. وهلم جرا(٢).

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إن سمعت الأذان وأنت

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٩.

(٢) راجع مفاتيح الجنان ـ للمحدث القمي رحمه الله و«الدعاء والزيارة» للإمام الشيرازي.

على الخلاء فقل مثل ما يقول المؤذن، ولا تدع ذكر الله عز وجل في تلك الحال، لأن ذكر الله حسن على كل حال.

ثم قال عليه السلام لما ناجى الله عز وجل موسى بن عمران عليه السلام قال موسى: يا رب أبعيد أنت مني فأناديك، أم قريب فأناجيك؟

فأوحى الله عزَّ وجلَّ إليه: يا موسى أنا جليس من ذكرني.

فقال موسى عليه السلام: يا رب إنني أكون في حال أجلك أن أذكرك فيها.

قال: يا موسى اذكرني على كل حال[1].

الإعجاز القرآني

«الحروف المقطعة» التي نجدها في هذه السورة وفي كثير من السور القرآنية الأخرى.. ظاهرة أثارت الكثير من الأسئلة والاستفهامات.

وفي تعيين المقصود بهذه الحروف يوجد هنالك اتجاهان:

الإتجاه الأول: يرى أن هذه الحروف من المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم فهي مجهولة المفاد لنا اطلاقاً، وقد نص الله سبحانه على وجود المتشابهات في القرآن الكريم بقوله:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾[2] (إلى أن يقول): ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾[3].

الإتجاه الثاني: يرى أن هذه الحروف من «المحكمات»[4].

---

(١) البحار ج٧٧، ص١٧٥ ـ ١٧٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣.

(٤) الملحوظ في «المحكمات» هنا: الوضع الفعلي.. ولو كان بالغير.. فكل ما اتضحت لنا دلالته فهو محكم ولو كان ذلك بسبب التبيين الخارجي.. ومنه يُعْلم المقصود بـ«المتشابهات» في هذا البحث فإنه ما لم تتضح لنا دلالته مطلقاً فتأمل.

فمدلولاتها معلومة والمقصود بها متضح.

وفي هذا الإتجاه هنالك عدة تفسيرات:

ألف ـ إن هذه الحروف إشارة إلى أسماء الله سبحانه وصفاته، وقد ورد في الأدعية مناجاة الله بها فقد جاء (يا ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ ويا ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾).

كما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «﴿الٓمٓ﴾ هو حرف من حروف اسم الله الأعظم المقطع في القرآن الذي يؤلفه النبي صلى الله عليه وآله أو الإمام فإذا دعا به أجيب»[١].

ب ـ إنها إشارة إلى بعض الحوادث والآجال المستقبلية، وذلك طبق حساب الجمل الذي كان متداولاً في العصور القديمة.

جـ ـ إنها إشارة إلى أهمية الحروف الهجائية، ومزيد العناية الربانية بها، لأنها محور الشرائع السماوية والكتب الإلهية، بل بها تقوم الحياة الإجتماعية للبشر، ولأجل ذلك جعل الله سبحانه «البيان» ـ المتمثل في النطق بها ـ موازياً لخلق الإنسان فقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾[٢].

وقد استغنى بذكر ما ذكر منها عن ذكر البواقي كما يستغني بذكر (أ ـ ب ـ جـ ـ د) عن ذكر الباقي وبذكر (لام عمرو باللوى) عن ذكر باقي القصيدة.

د ـ إنها تبيين لوجه من وجوه اعجاز القرآن الكريم.

---

(١) الصافي، ج١، ص٩٠ ط الأعلمي.

(٢) سورة الرحمن، الآيتان: ٣ ـ ٤.

ونلقي هنا بعض الضوء على هذا الاحتمال الأخير.

فمن الواضح أن كل شيء يستند في قوامه إلى علتين:

أولاهما: العلة المادية.

والثانية: العلة الصورية.

مضافاً إلى علتين أخريين يتوقف عليهما وجود المعلوم وهما «العلة الفاعلية» و«الغائية» إلا أن هاتين العلتين غير داخلتين في قوام المعلول.

أما العلة المادية؛ فهي المادة «الخام» التي يتكون منها الشيء..

وأما العلة الصورية؛ فهي الصورة التي تفاض على تلك المادة فتكون شيئاً من الأشياء بحياله..

فالسرير: مثلاً ـ له علة مادية هي «الخشب» أو «الحديد» أو نحوهما ـ وله علة صورية هي هذا الشكل الخاص الذي يمتاز به السرير عن الباب أو المنضدة ونحو ذلك..

والقرآن الكريم في هذه الآية الكريمة يبين أن المواد التي تكون منها هذا القرآن في متناول أيديكم أيها البشر فهو مكون من (ألف ـ لام ـ ميم) و(كاف ـ ها ـ يا ـ عين ـ صاد) ونحوها من الحروب الهجائية فعجزكم عن الاتيان بمثل هذا القرآن، بل بسورة واحدة من مثل سوره، دليل على المصدر الغيبي لهذا الكتاب..

ومن الجدير بالذكر أن كلمة «ذلك» يشار بها إلى «البعيد».. بينما كلمة «هذا» يشار بها إلى القريب.. ـ على ما هو المتبادر من اطلاق هاتين الكلمتين ـ والبعد تارة يكون مادياً وذلك عندما تكون هنالك فاصلة مكانية أو زمانية كبيرة تفصل بين شيئين.. وأخرى يكون معنوياً وذلك

عندما يكون الشيء عالي المقام رفيع المنزلة.. والقرآن الكريم وإن كان قريباً إلى الأذهان من ناحية وضوح دلائله وجلاء براهينه، ولذا استخدمت كلمة «هذا» مشاراً بها إلى القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[1] إلا أنه بعيد عنها من ناحية عجز البشر عن الإتيان بمثله.. ولذا استخدمت في مقام بيان هذا الإعجاز كلمة «ذلك» في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ فهو بعيد في إعجازه.. رغم أن الحروف التي يتألف بها في متناول جميع البشر حتى الأطفال والصبيان منهم.

مؤيدات:

وهنالك مؤيدات تعضد هذا التفسير:

الأول: أن أغلبية السور التي وردت فيها هذه الحروف المقطعة عقبتها بالإشارة إلى القرآن الكريم..

ونذكر فيما يلي بعض النماذج:

١ ـ ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[2].

٢ ـ ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾[3].

٣ ـ ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[4].

٤ ـ ﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[5].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٧.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ١ ـ ٢.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ١ ـ ٢.

(٤) سورة هود، الآية: ١.

(٥) سورة الرعد، الآية: ١.

٥ ـ ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾(١).

٦ ـ ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾﴾(٢).

٧ ـ ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾(٣).

٨ ـ ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴿١﴾﴾(٤).

٩ ـ ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾(٥).

١٠ ـ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾(٦).

إلى غيرها من الآيات الكريمة.

الثاني: بعض الروايات الواردة في الموضوع.

فعن الإمام العسكري عليه السلام أنه قال:

«كذبت قريش واليهود بالقرآن وقالوا: «سحر مبين تقوله» فقال الله: ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ أي يا محمد هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك هو بالحروف المقطعة التي منها «ألف ـ لام ـ ميم» وهي بلغتكم وحروف هجائكم، فأتوا بمثله إن كنتم صادقين، واستعينوا على ذلك بساير شهدائكم

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١.
(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ١ ـ ٢.
(٣) سورة النمل، الآية: ١.
(٤) سورة ص، الآية: ١.
(٥) سورة غافر، الآيتان: ١ ـ ٢.
(٦) سورة ق، الآية: ١.

ثم بين أنهم لا يقدرون عليه بقوله[1] ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[2].

الثالث: لم يحدثنا التاريخ أن العرب اتخذوا من هذه الحروف المقطعة وسيلة للطعن في القرآن الكريم، والسخرية به مع أنهم كانوا يحاولون النفوذ من أية ثغرة مزعومة للنيل من القرآن.. وهذا دليل على أنهم كانوا يفهمون مغزى هذه الحروف ولو اجمالاً. فتأمل.

القرآن يتحدى:

١ ـ كان رسول الله ﷺ لا يكف عن انتقاد الهة المشركين، ويقرأ عليهم القرآن فيقولون: هذا! شعر محمد، ويقول بعضهم: بل هو كهانة، ويقول بعضهم بل هو خطب.

وكان الوليد بن المغيرة شيخاً كبيراً، وكان من حكام العرب يتحاكمون إليه في الأمور وينشدونه الأشعار، فما اختاره من الشعر كان مختاراً لهم.. وكان من المستهزئين برسول الله ﷺ، وكان عم أبي جهل.

فقالوا له: يا أبا عبد شمس ما هذا الذي يقول محمد أسحر أم كهانة أم خطب؟

فقال: دعوني أسمع كلامه.

فدنا من رسول الله ﷺ وهو جالس في الحجر.

فقال: يا محمد أنشدني من شعرك!

---

(١) نور الثقلين ج١، ص٢٧ ـ ٢٨ وراجع البرهان ج١، ص٥٤.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩١.

فقال النبي ﷺ: ما هو بشعر، ولكنه كلام الله الذي به بعث أنبياءه ورسله.

فقال الوليد: اتل عليَّ منه.

فقرأ رسول الله ﷺ: سورة حم السجدة [فصلت] فلما بلغ إلى قوله ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾[1].

فاقشعر جلده وقامت كل شعرة في رأسه ولحيته، ثم قام ومضى إلى بيته ولم يرجع إلى قريش.

فقالت قريش: يا أبا الحكم صبا[2] أبو عبد شمس إلى دين محمد أما تراه لم يرجع إلينا، وقد قبل قوله ومضى إلى منزله؟

فاغتمت قريش من ذلك غماً شديداً، وغدا عليه أبو جهل فقال: يا عم نكست برؤوسنا وفضحتنا.

قال: وما ذاك يا إبن أخ؟

قال: صبوت إلى دين محمد

فقال الوليد: ما صبوت وإني على دين قومي وابائي، ولكن سمعت كلاماً صعباً تقشعر منه الجلود.

فقال أبو جهل: أشعر هو؟

فقال الوليد: ما هو بشعر.

قال: فخطب هي؟

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١٣.

(٢) أي مال.

فقال: لا ، إن الخطب كلام متصل، وهذا كلام منثور، ولا يشبه بعضه بعضاً، له طلاوة.

قال: فكهانة هي؟

فقال: لا.

قال: فما هو؟

فقال: دعني أفكر فيه

فلما كان من الغد قالوا: يا أبا عبد شمس ما تقول؟

فقال الوليد: قولوا هو سحر، فإنه أخذ بقلوب الناس!

فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾[١].

وفي حديث آخر: أن الوليد لما سمع ما تلاه عليه النبي ﷺ قال: «والله إن له لحلاوة، وان عليه لطلاوة[٢]، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق[٣]، وما يقول هذا بشر»[٤].

---

(١) سورة المدثر، الآيات: ١١ ـ ٣٠.

(٢) الطلاوة الرونق والحسن.

(٣) أغدق الشجر أي صارت له غدوق وشعب أو أزهر

(٤) البحار ج١٧، ص٢١١ ـ ٢١٢ (بتصرف) ـ نقلاً عن اعلام الورىٰ (٢٧ ـ ٢٨).

٢ ـ عن هشام بن الحكم قال:

اجتمع ابن أبي العوجاء، وأبو شاكر الديصاني الزنديق، وعبد الملك البصري، وابن المقفع عند بيت الله الحرام، يستهزؤون بالحاج، ويطعنون بالقرآن.

فقال ابن أبي العوجاء: تعالوا ننقض ـ كل واحد منا ـ ربع القرآن، وميعادنا من قابل في هذا الموضع نجتمع فيه وقد نقضنا القرآن كله، فإن في نقض القرآن ابطال نبوة محمد، وفي ابطال نبوته إبطال للإسلام وإثبات ما نحن فيه!

فاتفقوا على ذلك، وافترقوا.

فلما كان من قابل اجتمعوا عند بيت الله الحرام.

فقال ابن أبي العوجاء: أما أنا فمفكر منذ افترقنا في هذه الآية: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾[1] فما أقدر أن أضم إليها في فصاحتها وجميع معانيها شيئاً، فشغلتني هذه الآية عن التفكير فيما سواها.

وقال عبد الملك: وأنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾[2] ولم أقدر على الإتيان بمثلها.

وقال أبو شاكر: وأنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[3] لم أقدر على الإتيان بمثلها.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٠.

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٣.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

وقال ابن المقفع: يا قوم إن هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر، وأنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] لم أبلغ غاية المعرفة بها، ولم أقدر على الإتيان بمثلها.

فبينما هم في ذلك مر بهم جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾[2].

فنظر القوم بعضهم إلى بعض وقالوا: لئن كان للإسلام حقيقة لما انتهى أمر وصية محمد إلا إلى جعفر، والله ما رأيناه قط إلا هبناه واقشعرت جلودنا لهيبته.

ثم تفرقوا مقرين بالعجز[3].

٣ ـ عندما أسلم «حمزة» عم النبي صلى الله عليه وآله ـ ورأت قريش أن المد الإسلامي في نمو مطرد قام عتبة بن ربيعة يوماً في نادي قريش، والرسول صلى الله عليه وآله جالس في المسجد وحده، وقال: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أموراً، لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا؟».

فقالوا: «بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه».

فقام عتبة وجاء إلى الرسول صلى الله عليه وآله وجلس عنده وقال: «يا ابن أخي إنك منا حيث علمت من السلطة [الشرف] في العشيرة، والمكان في

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

(٣) هامش البحار، ج١٧، ص٢١٣ ـ ٢١٤ (نقلاً عن الإحتجاج: ٢٠٥).

النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به الهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أُموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها».

فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد، اسمع».

فاقترح الوليد عليه أموراً ـ منها أن يكف عن رسالته فتتخذه العرب ملكاً وغير ذلك ـ.

فلما فرغ عتبة من كلامه قال رسول الله ﷺ: أقد فرغت يا أبا الوليد؟».

قال: نعم.

فقال الرسول ﷺ: فاسمع مني.

قال: أفعل.

فقال الرسول ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾[1].

ثم مضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه، و«عتبة» منصت لها، ملقياً يديه خلف ظهره، معتمداً عليها، مذهولاً، إلى أن انتهى رسول الله ﷺ إلى آية السجدة فيها[2] فسجد.

ثم قال ﷺ: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك.

---

(١) سورة فصلت، الآيات: ١ ـ ٥.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٧.

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به.

فقالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه.

قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم»[1].

٤ ـ قدم الطفيل بن عمر الدوسي مكة ورسول الله ﷺ بها وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً، فمشى إليه رجال من قريش.

وقالوا له: يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر، يفرق بين الرجل وأبيه، وبينه وأخيه وزوجته. وأنا نخشى عليك وقومك ما دخل علينا، فلا تكلمنه، ولا تسمعن منه شيئاً.

يقول الطفيل: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفا، فرقا من أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمع!

---

(١) عن السيرة النبوية لابن هشام ج١، ص٢٩٣ ـ ٢٩٤.

قال: فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة فقمت قريباً منه، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: «واثكل أمي، والله إني لرجل لبيب شاعر، ما يخفى عليَّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل؟ فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته.

فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته، فاتبعته، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت: يا محمد إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أُذني بكرسف، لئلا أسمع قول ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك، فسمعته قولاً حسناً، فاعرض عليَّ أمرك.

فعرض عليَّ رسول الله ﷺ الاسلام وتلا عليَّ القرآن فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه.

فأسلمت وشهدت شهادة الحق[١].

٥ ـ لما سمع «لبيد بن ربيعة» الشاعر الشهير ببلاغة منطقة وفصاحة لسانه ورصانة شعره أن محمداً صلى الله عليه وآله يتحدى الناس بالقرآن قال بعض الأبيات رداً على ما سمع، وعلقها على باب الكعبة، وكان التعليق على باب الكعبة امتيازاً لم تدركه الأفئدة قليلة من كبار شعراء العرب وحين رأى أحد المسلمين ذلك كتب بعض آيات القرآن الكريم وعلقها إلى جوار أبيات لبيد، ومر لبيد بباب الكعبة في اليوم التالي فأذهلته الآيات القرآنية وصرخ من فوره قائلاً: «والله ما هذا بقول بشر، وأنا من المسلمين».

---

(١) عن السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص٣٨٢ ـ ٣٨٣.

وكان من نتيجة تأثر هذا الشاعر الكبير ببلاغة القرآن أنه هجر الشعر، وقد قال له عمر يوماً: أنشدني شيئاً من شعرك، فقال: ما كنت لأقول شعراً بعد إذ علمني الله سورة البقرة وآل عمران[1].

ملاحظات حول الحروف المقطعة

١ ـ من الممكن أن يكون المقصود بهذه الحروف المقطعة: أكثر من معنى (كما يقتضي ذلك الجمع بين الروايات الكريمة).

ويمكن افتراض ذلك على نحوين:

النحو الأول: أن يكون أحد المعاني هو المقصود، وتكون سائر المعاني من البطون.

النحو الثاني: أن يكون معنيان أو أكثر هو المقصود، بأن يستعمل اللفظ في أكثر من معنى من هذه المعاني..

وهذا النحو وإن أحاله بعض الأصوليين إلاّ أن الحق أنه ليس بمحال عقلاً، وإنما يفتقر إلى القرينة الدالة على ذلك، والمفروض وجودها في المقام، وتمام الكلام في محله.

٢ ـ السور التي وردت فيها «الحروف المقطعة» تسع وعشرون سورة.. وحروف الهيجاء في اللغة العربية تسعة وعشرون حرفاً ـ بناء على عد الهمزة حرفاً مستقلاً.

٣ ـ فواتح السور جاءت مختلفة الأعداد.

فبعضها جاء على حرف واحد مثل «ص».

---

(١) راجع «الإسلام يتحدىٰ» ص١٠٩ ـ ط٥.

وبعضها على حرفين مثل «طه».

وبعضها على ثلاثة أحرف مثل «ألم».

وبعضها على أربعة أحرف مثل «المص».

وبعضها على خمسة أحرف مثل «كهيعص».

ولعل السر فيه أن بناء كلمات العرب على الحرف والحرفين والثلاثة والأربعة والخمسة فجاءت الأحرف المقطعة مطابقة لما بنيت عليه الكلمات العربية.

٤ ـ الحروف المقطعة أسماء، وهي تقرأ مقطعة بذكر اسمائها لا مسمياتها فيقال: (ألف. لام. ميم) ولا يقال (الم)..

كما أنها مبنية على السكون، فلا تعرب، كما يبنى العدد على الوقف فتقول (واحد. إثنان. ثلاثة)..

٥ ـ الحروف المقطعة تكون ـ بعد توحيد المكررات منها وتركيبها ـ الجملة التالية:

«صراط علي حق نمسكه».

أو:

«علي صراط حق نمسكه» فتدبر.

لا ريب فيه

وإذا كان القرآن الكريم بهذه المثابة فهو إذاً ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾..

و«الريب» لا يعني «الشك» فقط بل هو «الشك مصحوباً بنوع من الظن السيء».

تقول: «ارتبت في أمر فلان».

ولا تقول: «ارتبت في أن السماء تمطر أو لا» أو «في تناهي الأبعاد وعدمه» بل تقول: «شككت في ذلك».

وفي الحديث الشريف: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك».

والجاهليون كان يشكون في هذا الكتاب، شكا مصحوباً بالظنون السيئة، حول ماهية هذا الكتاب، والمصدر الذي جاء منه..

ولذا ينفي القرآن ـ في قبال ذلك ـ شكهم المصحوب بذلك الظن السيء بـ«لا» النافية للجنس والتي تدل على نفي جميع أفراد الطبيعة.. فلا يوجد هنالك أي نوع من أنواع الريب في هذا الكتاب الكريم.

وقيل: إن «الريب» هو أدنى مراتب الشك، فلا يوجد هنالك أدنى شك في هذا الكتاب العظيم.

وقيل: الريب هو الشك مطلقاً.. فهما لفظان مترادفان.

وحيث حذف متعلق الريب أفاد العموم، فلا ريب فيه من جهة نظمه وأسلوبه، ولا من جهة علومه ومعارفه، ولا من جهة تنبؤاته واخباراته، ولا من جهة تشريعاته وأحكامه، ولا من أية جهة من الجهات الأخرى..

وتقول: كيف ينفي الريب عن القول الكريم بـ«لا» النافية للجنس، وقد ارتاب فيه الكثيرون؟

والجواب:

أولاً: المراد بذلك أنه ليس محلاً للريب وكيف يكون محلاً للريب مع عجزهم عن الإتيان بمثله مع أن المواد التي تكون منها هذا القران في متناول أيديهم؟ وكيف يكون محلاً للريب مع وضوح دلائله، واستحكام

حججه، وعدم تناقضه، لا مع ذاته، ولا مع قوانين الكون، ولا مع هدى العقل وذلك لا ينافي أن يرتاب فيه الجاهلون، كما تقول: «لا ريب في أن النار محرقة» وإن ارتاب في ذلك السوفسطائيون[1].

ثانياً: ريب الجاهلين: كلا ريب.. إذ لا يستند إلى أية مبررات موضوعية تدعم وجوده.. فنزل وجوده منزلة عدمه.. كما في قوله عليه السلام: «يا أشباه الرجال ولا رجال» حيث نزل فقدان الوصف منزلة فقدان الأصل، ونفيت الحقيقية ادعاءاً لبعض النكات البلاغية.

ثالثاً: ويحتمل أن يراد بهذه الجملة الخبرية «لا ريب فيه» المعنى الإنشائي أي أنه يجب على الناس اليقين به وعدم الإرتياب فيه..

إلا أن سياق الآية الكريمة يأبىٰ هذا الإحتمال.

ثم إنه قد يسأل عن تقديم الريب على الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِۛ﴾ بينما عكس الأمر في قوله تعالى في وصف خمر الجنة: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾.

والجواب: إن القاعدة البلاغية تقتضي تقديم الأهم على المهم..

وها هنا الأهم نفي الريب بالكلية عن الكتاب ولو قيل **(لا فيه ريب)** لأوهم أن المقصود هو أن هنالك كتاباً آخر حصل فيه الريب ولم يحصل في هذا الكتاب.. بينما هذه المقارنة غير مقصودة هنا.. بينما المقصود في قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ هو تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا، وبيان أنها لا تغتال العقول كما تغتالها خمرة الدنيا[2].

---

(١) راجع تقريب القرآن إلى الأذهان ج١، ص٣٩.
(٢) راجع التفسير الكبير ج٢، ص٢١ ط دار الفكر بيروت.

ثلاثة مواقف:

هكذا يكون القرآن الكريم حقيقة ثابتة لا ريب فيها . . ولكن ما هي المواقف التي اتخذها الناس تجاه هذا القرآن، وما احتواه من قيم وتشريعات؟

يقسم القرآن الناس إلى ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى: المتقون.. وهؤلاء كانوا يشكلون شريحة اجتماعية لها كيان واقعي على الأرض، وكانت هذه الشريحة تؤمن بالله واليوم الآخر. وتسير في خط الرسالة الإلهية..

والقرآن يمثل بالنسبة لهؤلاء «هدى» ونوراً.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1].

المجموعة الثانية: الكافرون. . ويراد بهم هنا تلك الشريحة الإجتماعية التي ظلت مصرة على مواقفها الخاطئة رغم قناعتها بصوابية الدين الجديد. .

وهؤلاء أغلقوا نوافذ قلوبهم تجاه الحق، فلم يعد بإمكان النور القرآني أن ينفذ إلى قلوبهم، وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

المجموعة الثالثة: المنافقون.. وهم أولئك الذين حملوا شخصيتين اثنتين.. شخصية ظاهرية تمثل الإيمان وشخصية واقعية تمثل الكفر..

هؤلاء: حملوا «اسم» الإيمان ولكنهم حرموا أنفسهم من الاستفادة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦.

من «واقع» الإيمان.. صحيح أنهم استفادوا بعض المكاسب الظاهرية التي وفرها لهم المظهر الإيماني.. لكن هذه الاستفادة مؤقتة، فلا يمر زمن إلا وتنتهي وتذوب..

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾[١].

هذه مجموعات ثلاث.. كانت تتحرك على الأرض وتمثل كيانات حقيقية قائمة في الساحة.. وقد تطرق القرآن الكريم إلى كل واحدة منها.. كما سوف يأتي في الآيات القادمة إن شاء الله.

والجدير بالذكر: أن هذه المواقف الثلاثة تتخذ أمام كل رسالة جديدة ـ عادةً.

فالبعض يؤمنون.

والبعض يكفرون.

والبعض يتذبذبون بين هؤلاء وهؤلاء.

التقسيم القرآني

تقسيم عقائدي

ومن الجدير بالذكر: أن التقسيم القرآني للناس والذي تضمنته هذه الآيات الكريمة تقسيم مبتنٍ على أسس عقائدية.

فالقرآن لا يقسم الناس حسب التصنيف اللوني.

ولا حسب المقاييس الجغرافية.

ولا حسب الإنتماءات العرقية.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧.

ولا حسب الدرجات الاقتصادية.

فكل هذه الأمور قشرية زائلة.. وإنما يقسمهم على أُسس عقائدية (مؤمن. كافر. منافق)..

فمن صحت عقيدته واستقام عمله وسلمت فطرته لا يمكن أن يساوى بمن زاغت عقيدته، وانحرف عمله، وسقمت فطرته.. وتفصيل ذلك سيأتي في البحوث القادمة بإذن الله.

المجموعة الأولى: المتقون

وأول مجموعة تتناولها الآيات هم: المتقون..

وصفات المتقين هي كالتالي:

١ ـ الإيمان بالغيب.

٢ ـ إقامة الصلاة.

٣ ـ الإنفاق مما رزقهم الله.

٤ ـ الإيمان بما أنزل على الرسول ﷺ.

٥ ـ الإيمان بما أنزل على الرسل السابقين.

٦ ـ اليقين بالآخرة.

والقرآن يمثل بالنسبة لهؤلاء هدى ونوراً..

وتسأل.

إن هؤلاء مهديون، فكيف يكون القرآن هدىٰ لهم؟

والجواب:

ألف ـ إن هذه الآيات تناولت شريحة اجتماعية قائمة بالفعل وهي عبارة عن أولئك المؤمنين الذين انضموا إلى الرسالة الجديدة.. وآمنوا

بها. وكيّفوا حياتهم وفقها.. هؤلاء وإن كانوا ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾[1] وبهذا الهدى انضموا إلى الرسالة.. إلا أن «الهداية» حقيقة تشكيكية ذات مراتب.. فيمكن أن يكون الإنسان «مهدياً» لامتلاكه درجة معينة من الهداية ـ لكن ذلك لا ينافي إمكان صعوده في مراتب الهداية كما في كل الحقائق التشكيكية الأخرى[2].

وينبغي هنا أن نشير إلى أن مراتب الهداية غير متناهية.. على نحو «اللامتناهي اللايقفي».. فكلما حاز الإنسان مرتبة من مراتب الهداية أمكن أن يرتقي إلى مرتبة أخرىٰ.. كمراتب الاعداد.. فإنك كلما تصورت عدداً أمكن أن يكون هنالك عدد أكبر منه..

وهكذا الأمر بالنسبة إلى الهداية فكلما تصورت مرتبة من مراتب الهداية فيمكن أن تتصور مرتبة أخرىٰ فوقها.

ومن هنا كان أولياء الله يرددون في كل يوم عشر مرات على الأقل ـ في صلواتهم الخمس المفروضة ـ.

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾[3].

ومن هذا المنطلق نجد أن المتقين الذين كانوا يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة.. إلى آخره، كانوا يقرأون القرآن كل يوم ليزدادوا هدى بالقرآن.

ومن هنا يعلم أن هناك هدايتين خص بها «المتقون»:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٥.

(٢) راجع ما نكرناه في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ (سورة الحمد، الآية: ٦).

(٣) سورة الحمد، الآية: ٦.

١ ـ هداية أولى أصبحوا بها «متقين مؤمنين بالغيب مقيمين للصلاة. إلى آخره». وإلى هذه الهداية أشير بقوله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ﴾.

٢ ـ وهداية ثانية... بها ازدادوا في مراتب التقوىٰ.

وإليها أشير بقوله تعالىٰ:

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

فالمتقون «محفوفون بهدايتين»: هداية أولىٰ بها صاروا متقين، وهداية ثانية أكرمهم الله سبحانه بها بعد التقوىٰ.

وبذلك صحت المقابلة بين المتقين وبين الكفار والمنافقين، فإنه سبحانه يجعلهم في وصفهم بين ضلالين وعمائين، ضلال أول هو الموجب لأوصافهم الخبيثة من الكفر والنفاق، وضلال ثانٍ يتأكد به ضلالهم الأول، ويتصفون به بعد تحقق الكفر والنفاق، كما يقول تعالىٰ في حق الكفار: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٞۖ﴾[1] فنسب الختم إلى نفسه تعالىٰ والغشاوة إلى أنفسهم، وكما يقول في حق المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ﴾[2] فنسب المرض الأول إليهم، والمرض الثاني إلى نفسه وعلى حد ما يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾[4].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦.
(٤) سورة الصف، الآية: ٥.

وبالجملة: «المتقون واقعون بين هدايتين، كما أن الكفار والمنافقين واقعون بين ضلالين»[1].

ب ـ ويحتمل أن يكون استخدام كلمة «المتقين» في الآية الكريمة من باب «الأول» كما في ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾[2] ـ أي عنباً يؤول إلى الخمر ـ أي أن القرآن الكريم يصنع أفراداً من هذا الطراز.

كما نقول «فلان مربي الأطباء» أو «معلم الأطباء» أي صانعهم وموجدهم ـ فالقرآن يصنع «المتقين» الذين يؤمنون بالغيب و.. بما فيه من الآيات والدلائل والتوجيهات.

وعلى هذا يتحد مدلول «الهدايتين» في قوله تعالىٰ: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[3] وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾[4].

جـ ـ ذكر السيد الوالد ـ دام ظله ـ في تفسير الآية: «أي أن هذا القرآن هداية لمن اتقىٰ وخاف من التردي، فإنه هو الذي يهتدي بالقرآن، وإن كان القرآن صالحاً لأن يهدي الكل»[5].

ويؤيد هذا التفسير ما روي عن الإمام العسكري عليه السلام حيث قال: «هدى للمتقين: الذين يتقون الموبقات، ويتقون تسليط السفه على أنهم حتى إذا علموا ما يجب عليهم علمه عملوا بما يوجب لهم رضا ربهم»[6].

---

(١) الميزان ج١، ص٤٤.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٣٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٥.
(٥) تقريب القرآن، ج١، ص٣٩ ـ ٤٠.
(٦) نور الثقلين ج١، ص٢٨.

فكما (أن فاعلية الفاعل شرط في الهداية التكوينية وفي الهداية التشريعية كذلك قابلية القابل شرط أيضاً. فالأرض السبخة لا تثمر وإن هطل عليها المطر آلاف المرات، إذ لا بد أن تكون الأرض مستعدة لاستثمار ماء المطر المحيي. وساحة الوجود الإنساني لا تتقبل بذور الهداية ما لم تنظف من اللجاج والتعصب والعناد ولذا قال سبحانه في كتابه العزيز أنه ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1]).

«صفات المتقين»

والآن... لنلقِ نظرة على السمات التي رسمتها الآيات الكريمة للمتقين:

١ ـــ الإيمان بالغيب

و«الإيمان» لا يعني «العلم» فقط، بل يعني مضافاً إلى ذلك «الإذعان» لما تعلق به العلم.

فهنالك أمور ثلاثة:

١ ـ العلم بالشيء.. ويحصل ذلك عندما يتحقق وضع «المواجهة» مع «الشيء» وتنطبع صورته في ذهن الإنسان، تماماً: كالمرآة.. فإنك لا تشاهد صورتك في المرآة ما لم تتخذ معها وضع المواجهة..

وهذه الصورة هي «المعلومة بالذات» وبها تنكشف الحقيقة الخارجية التي هي «المعلومة بالعرض».

٢ ـ إذعان النفس لما علمت به وتسليمها له عقلياً ونفسياً. إذ قد

---

(١) راجع الأمثل ج١، ص٥٩.

يعلم الإنسان بشيء إلا أنه يجحد به كما قال سبحانه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1].

وهذا «الإذعان» هو «الإيمان» (مع إقترانه بالاقرار باللسان في الجملة).

٣ ـ الجري العملي وفق العلم والإيمان وهذا ثمرة من ثمرات الإيمان.. ولعل إدراج الجري العملي في مفهوم الإيمان في جملة من الأحاديث الكريمة ـ من باب اطلاق الملزوم على لازمه.. أو من باب أن الإيمان حقيقة تشكيكية ذات مراتب مختلفة من حيث الشدة والضعف.

فالإذعان المصحوب بالجري العملي التام مرتبة علياً من الإيمان، وبالجري العملي الناقص مرتبة متوسطة، وبلا جري عملي مرتبة دنيا.. وبين هذه المراتب ما لا يعد من الدرجات بحسب كمال الجري العملي ونقصه.. فتأمل.

هذا بالنسبة إلى معنىٰ الإيمان وأما بالنسبة إلى (وجه التسمية) فقيل فيه وجوه:

١ ـ إنه سمي بذلك لكونه موجباً لا من المؤمن من العقاب في الآخرة قال سبحانه: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾[2].

٢ ـ أو لأمان الناس به في الدنيا.

٣ ـ أو لأنه يؤمن على الله فيجيز أمانه.

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

(٢) سورة الجن، الآية: ١٣.

٤ ـ أو لأن المؤمن يعطي لما آمن به الأمن من الريب والشك الذي هو آفة الإعتقاد.

و«الغيب» عبارة عما غاب عن الحواس الظاهرة. . فـ«عالم الغيب» يمثل النقطة المقابلة لـ«عالم الشهود» وباعتبار أن دائرة «الحقيقة» أوسع من دائرة «عالم الشهود». . لذا يؤمن المتقون بـ«عالم الغيب» كما يؤمنون بـ«عالم الشهود».

وكلمة «الغيب» لفظة مطلقة فلا تنحصر في الإيمان بالله سبحانه فقط. . بل تعمّ كل الحقائق الغيبية المرتبطة بالمبدأ والمعاد ونحوهما.

ولذا ورد في الأحاديث الكريمة تطبيقها على مصاديق أخرى. . لا من باب انحصار مصداق «الغيب» فيها ـ بل من باب شمولية لفظ الغيب لها، وكونها مصاديق لهذا المفهوم الكلي.

ففي الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام: «الذين يؤمنون بالغيب» يصدقون بالبعث والنشور والوعد والوعيد[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ قال: من أقرّ بقيام القائم عليه السلام أنه حق»[2].

وعن النبي صلى الله عليه وآله ـ في حديث يذكر فيه الأئمة الإثني عشر عليهم السلام وفيهم القائم عليه السلام قال: «طوبىٰ للصابرين في غيبته.

طوبى للمقيمين على محبتهم، أولئك من وصفهم الله في كتابه فقال: «الذين يؤمنون بالغيب».

---

(١) نور الثقلين ج١، ص٣١.

(٢) المصدر ـ وراجع البرهان ج١، ص٥٣.

ثم قال: «أُولئك حزب الله الا إن حزب الله هم الغالبون»[١].

وعن الإمام العسكري عليه السلام أنه قال في وصف هؤلاء المؤمنين الذي هذا الكتاب هدىً لهم فقال: «الذين يؤمنون بالغيب» يعني ما غاب عن حواسهم من الأمور التي يلزمهم الإيمان بها كالبعث والحساب والجنة والنار وتوحيد الله وسائر ما لا يعرف بالمشاهدة وإنما يعرف بدلائل قد نصبها الله تعالى دلائل عليها كآدم وحواء وإدريس ونوح وإبراهيم والأنبياء الذين يلزمهم الإيمان بحجج الله تعالى وإن لم يشاهدوهم ويؤمنون بالغيب وهم من الساعة مشفقون»[٢].

وينبغي التنبيه على أن الشيء الواحد قد تجتمع فيه جهتان يندرج بإحداهما في «عالم الشهود» وبالأخرى في «عالم الغيب» كالقرآن الكريم فإنه جزء من عالم الشهود بلحاظ ذاته، وجزء من عالم الغيب بلحاظ مصدره، وكالحجر الأسود فإنه مشهود باعتباره مستلم الحجيج، وغيب باعتبار كونه يمين الله في الأرض يصافح بها عباده إلى غير ذلك[٣].

كيف نؤمن بالغيب؟

والسؤال الآن هو:

كيف يؤمن الإنسان بالغيب؟ كيف يؤمن بما لم يره بعينيه، ولم يلمسه بيده، ولم يستشعره بحواسه الأخرىٰ؟.

وفي الإجابة على هذا السؤال لا بد أن نستعرض النقطتين التاليتين:

---

(١) البرهان، ج١، ص٥٤.
(٢) البرهان ، ج١، ص٥٦ ـ ٥٧.
(٣) راجع «مواهب الرحمن» ج١، ص٦٧.

النقطة الأولى: للإيمان بحقيقة من الحقائق طريقان.

أ ـ طريق التماس المباشر مع تلك الحقيقة. .

فتؤمن بوجود الشيء لأنك أبصرته بعينك، أو لمسته بيدك، أو سمعته باذنك و. . .

ب ـ التماس غير المباشر. . . ولذلك ثلاثة أشكال. .

الشكل الأول: أن تؤمن بوجود الحقيقة لأنك رأيت «آثارها الوجودية».. فمن خلال وجود تلك الآثار تنتقل إلى وجود تلك الحقيقة.. فعندما ترىٰ ساعة يدوية تنتقل إلى وجود المعمل الذي أنتج تلك الساعة، وعندما تشاهد قصراً مشيداً فإنك سوف تؤمن بلا شك بوجود مهندس وبنائين وراء ذلك القصر، وهكذا في سائر الأمور..

وهذا الانتقال أمر فطري وجداني نجده حتى عند الأطفال، فعندما يأتي الطفل إلى الغرفة ويجد كتبه مبعثرة ودفاتره ممزقة فإنه سوف يتساءل فوراً: من فعل هذا؟ ولن يقبل تفسير ذلك بأن الأمر حدث من تلقاء نفسه.

بل ربما يدعىٰ أن هذا الأمر لا يختص بالعقلاء فقط، وإنما يشمل كل الكائنات الواعية، فالحيوان عندما يسمع صوتاً فإنه يتلفت حواليه باحثاً عن مصدر ذلك الصوت، ولا يستطيع أن يقنع نفسه بأن الصوت قد وجد من تلقاء نفسه.

وهذا الشكل من الانتقال الذهني يطلق عليه «الدليل الإنيّ» أي الانتقال من وجود المعلول إلى وجود علته، ومن وجود المسبب إلىٰ وجود السبب.

الشكل الثاني: أن تؤمن بوجود الحقيقة لأنك آمنت بوجود علتها، إذ لا يمكن أن يتخلف المعلول عن علته التامّة.. فوجود العلة كاشف عن وجود المعلول.. فلو رأيت الموقد مشتعلاً في غرفة فإنك سوف تؤمن بوجود الدفء في تلك الغرفة.. لأن وجود النار سبب لوجود الدفء فلا يمكن أن ينفك وجود النار عن وجود الدفء في الغرفة.

ويطلق على هذا النوع من الانتقال «الدليل اللمي» (أي الإنتقال من وجود العلة إلى وجود المعلول).

الشكل الثالث: أن تؤمن بوجود الحقيقة لإيمانك بوجود لازمها أو ملزومها أو ملازمها فإن أحد المتلازمين لا ينفك وجوده عن وجود الآخر ـ قضاءاً لحق الملازمة ـ فالعلم بوجود أحدهما كافٍ في الانتقال إلى وجود الآخر..

ومثال ذلك: الأربعة والزوجية فإن الزوجية لازمة للأربعة، فالإيمان بوجود الأربعة يستتبع الإيمان بوجود الزوجية ـ بشكل قهري ـ إلى غير ذلك من الأمثلة..

وقد يدرج هذا القسم في القسم الأول بتعميم الدليل الإنيّ لكل ما لم يكن فيه انتقال من العلة إلى المعلول فيشمل الإنتقال من (المعلول إلى العلة) ومن (أحد المتلازمين إلى الآخر) ومن (اللازم إلى الملزوم) ومن (الملزوم إلى اللازم).

وبعبارة أُخرىٰ: (الدليل الإنّي هو ما لا يكون الأوسط في القياس المنطقي عله لثبوت الأكبر للأصغر أو انتفاءه في الواقع سواء كان معلولاً أم لا).. فتأمل..

وعلى كل حال.. فالتماس المباشر مع الحقيقة ليس هو الشكل الوحيد للإيمان بالحقيقة.. بل هنالك أيضاً طريق التماس غير المباشر بأشكاله المختلفة..

والإيمان بالغيب يمكن أن يتم عن طريق التماس غير المباشر.. برؤية آثار «ذلك الغيب» والانتقال من وجود تلك الآثار إلى وجود «ذلك الغيب» المختفي عن الحواس.

النقطة الثانية:

إذا كان ينبغي أن يقتصر الإيمان على «دائرة الشهادة» والتماس المباشر ولا يتعداها إلى «دائرة الغيب» والتماس غير المباشر فكيف نفسر الظواهر التالية:

الظاهرة الأولى: هناك كثير من الحقائق آمنّا بها، من خلال رؤية آثارها، ولم نرها..

فنحن نؤمن بوجود «الجاذبية» من خلال رؤيتنا لآثارها، ولم نر الجاذبية مطلقاً.

ونؤمن أيضاً بوجود «الكهرباء» ولم نشاهدها. وهكذا..

الظاهرة الثانية: هنالك كثير من المفاهيم، ليس لها من يحاذيها في الخارج، ولذا فمن المستحيل التماس المباشر معها، إلا إننا نؤمن بوجودها باعتبار وجود «منشأ انتزاعها».

وهذه المفاهيم على ضربين:

الضرب الأول: ما يكون عروضها على معروضاتها في الذهن، واتصاف تلك المعروضات بها في الذهن أيضاً..

وذلك مثل وصف «الكليّة» الذي يعرض مفهوم «الإنسان» و«النبات» و«الماء» ونحوها من المفاهيم التي لا تأبىٰ افتراض الإنطباق على الكثير من مصاديقها الجزئية في الخارج. . .

فليس لـ«الكلية» ما يحاذيها في «عالم العين» الخارج بالمعنى الأخص ـ إذ لا يمكن أن نشير إلى حقيقة معينة ونقول «هذه هي الكلية»، كما لا يمكن وصف شيء موجود في الخارج بأنه «كلي» فلا يصح وصف «زيد» أو «هذه الشجرة النابتة في الحقل» أو «هذا الماء الذي يجري في الجدول» بـ «الكلية» لأن كل شيء في الخارج «جزئي حقيقي» باعتبار «أن الشيء ما لم يتشخص لم يوجد».

فالكلية لا موطن لها إلا في «وعاء الذهن». . إذ لنا أن نشير إلى المفاهيم الكلية المرتسمة على لوحة الذهن ونصفها بأنها «كلية» باعتبار أنها لا تأبىٰ الإنطباق على جزئياتها المتكثرة المفروضة الوجود في الخارج.

وهذا الوصف حقيقة. . إذ أن الكلية خاصية ينتزعها العقل من وجود المفاهيم الكلية في الذهن، كما ينتزع الجزئية من وجود المفاهيم الجزئية الموجودة في الذهن، فهي إذاً موجودة، ولو كان وجودها بوجود منشأ انتزاعها، مع أنه يستحيل التماس المباشر معها في الخارج.

الضرب الثاني: ما يكون عروضها على معروضاتها في الذهن، ولكن اتصاف تلك المعروضات بها يكون في الخارج.

فليس لهذه المفاهيم وجود مستقل في الخارج، إذ ليس لها ما يحاذيها في العين. فوجودها الاستقلالي إنما هو في الذهن، ولكنها ـ مع ذلك ـ موجودة في الخارج، ويصح وصف الموجودات الخارجية بها، وذلك لوجود منشأ انتزاعها في الخارج.

وذلك مثل مفاهيم «العلية» و«المعلولية» و«الوجوب» و«الإمكان» و«الوحدة» و«الكثرة» ونحوها.

فنحن نرى في الخارج «ذات العلة» و«ذات المعلول» ولا نرىٰ «وجوداً» ثالثاً وراءهما نطلق عليه «العلية»... ولكننا آمنا بـ«العلية» بسبب تكرر تعقب إحدى الظاهرتين للأخرىٰ، بحيث أيقنّا بأن هذا التعقب لم يأتِ على نحو «التقارن الإتفاقي» بين الظاهرتين، بل لوجود علاقة خاصة بينهما تتسبب في وجود الظاهرة الثانية كلما وجدت الظاهرة الأولى..

ففي مثال الماء والغليان.. نجن نشاهد «غليان» الماء عندما تصل الحرارة فيه إلى درجة معينة.. فنحن نلمس «الحرارة» ونشاهد «الغليان» ولكننا لم نلمس بحواسنا الظاهرة «علية» الحرارة لـ«الغليان».. ومع ذلك نؤمن بها علىٰ نحو القطع واليقين..

وهكذا الأمر بالنسبة إلى مفاهيم «الوجوب» و«الإمكان» و«الوحدة» و«الكثرة» ونحوها..

الظاهرة الثالثة: إن العلوم المتداولة عبارة عادةً عن قواعد كلية تطبق على جزئياتها.. وهذه القواعد الكلية تعتمد على «استقراء ناقص» لبعض الجزئيات والمصاديق، ومن ثم استخراج قاعدة كلية من خلال ذلك.

فعندما نقول: «الماء يتكون من ذرة أوكسجين وذرّتي هيدروجين» فنحن لم ندرس كل قطرات الماء الموجودة في الكون لنرىٰ أنها تتركب من هذين العنصرين بهذه النسبة المعينة.. بل درسنا بعض فصائل الماء، وعلمنا ـ عبر الطرق المدونة في «علم المنطق» ـ بأن سائر الفصائل مماثلة للفصائل المدروسة، وحيث أن «حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز

واحد» عممنا الحكم لكل فصائل الماء، ووضعنا بذلك تلك القاعدة الكلية. .

وهكذا الأمر في القواعد المدونة في علم الطب. . والهندسة. . والفيزياء. . والكيمياء. . والرياضيات. . وغيرها من العلوم. .

ومن الواضح: أن «القواعد الكلية» لا تقع في نطاق «الإحساس المادي» إذ «الحسّ» لا يتعامل مع الحقائق الكلية، وإنما يتعامل مع «الجزئيات».. ومع ذلك فنحن نؤمن بهذه «القواعد الكلية» التي لولاها لم تقم كثير من العلوم المتداولة..

وهكذا نتوصل إلىٰ أن «الحسّ» ليس هو الطريق الوحيد للإيمان بوجود حقيقة من الحقائق الكونية!

محاورات

١ ـ روي أنه دخل رجل من الخوارج على الإمام الباقر عليه السلام فقال: يا أبا جعفر أي شيء تعبد؟

قال: الله.

قال: رأيته؟

فقال عليه السلام: لم تره العيون بمشاهدة العيان، ورأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يعرف بالقياس، ولا يدرك بالحواس، ولا يشبه بالناس، موصوف بالآيات، معروف بالعاملات، لا يجور في حكمه، ذلك الله لا إله إلا هو.

فخرج الرجل وهو يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته[1].

٢ ـ روي أنه قام إلى أمير المؤمنين عليه السلام رجل يقال له «ذعلب» فقال: يا أمير المؤمنين هل رأيت ربك؟

فقال عليه السلام: ويلك يا ذعلب لم أكن بالذي أعبد ربّاً لم أره.

فقال: فكيف رأيته؟ صفه لنا.

---

(١) البحار ج٤، ص١٦.

فقال عليه السلام: ويلك، لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان. . . إلى آخر كلامه عليه السلام.

فخر ذعلب مغشياً عليه[1].

٣ ـ روي أنه دخل أبو شاكر الديصاني وهو زنديق على الإمام الصادق عليه السلام فقال له: يا جعفر بن محمد دلني على معبودي!

فقال أبو عبد الله عليه السلام: اجلس.

فإذا غلام صغير في كفه بيضة يلعب بها.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: ناولني يا غلام البيضة.

فناوله إياها.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: يا ديصاني هذا حصن مكنون، له جلد غليظ، وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق، وتحت الجلد الرقيق ذهبة مائعة وفضة ذائبة، فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضة الذائبة، ولا الفضة الذائبة، تختلط بالذهبة المائعة، فهي على حالها، لم يخرج منها خارج مصلح فيخبر عن اصلاحها، ولم يدخل فيها داخل مفسد فيخبر عن إفسادها، لا يدرىٰ للذكر خلقت أم للأنثى؟ تنفلق عن مثل ألوان الطواويس، أترىٰ لها مدبراً؟

فأطرق الديصاني ملياً، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسوله، وأنك إمام وحجة من الله على خلقه، وأنا تائب مما كنت فيه[2].

---

(١) البحار ج٤، ص١٧.
(٢) البحار ج٣، ص٣١ ـ ٣٢.

٤ ـ نقل أنه سئلت امرأة عجوز عن الدليل على وجود الصانع؟

فقالت: دولابي هذا [المغزل الذي كانت تغزل به] فإني إن حركته تحرك وإن لم أحركه سكن!

وإلى هذا [النوع من الإيمان الفطري] أشير في الحديث الشريف: «عليك بدين العجائز»(١).

٥ ـ يقال: إن «بهلول» استمع يوماً إلى «أبي حنيفة» وهو يقول لأصحابه إن من مقالة جعفر بن محمد ثلاثة أشياء لا أقبلها منه.

ـ يقول: إن الشيطان يعذب بالنار، وكيف يهذب منها وقد خلق منها؟ والشيء لا يتعذب بما هو من سنخه؟

ـ ويقول: بأن الله لا يرىٰ، مع أن كل موجود لا بد أن يُرىٰ.

ـ ويقول: باستناد أفعال العباد إلى أنفسهم، مع أن النصوص تدل على خلاف ذلك!

فأخذ بهلول مدرة من الأرض وضرب بها وجه أبي حنيفة، فسال الدم منه، وهرب بهلول.

فتبعه القوم، وألقوا القبض عليه، وأتوا به إلى دار هارون الرشيد ومعهم أبو حنيفة.

فالتفت بهلول إلى أبي حنيفة وقال له: ما جاء بك إلى هنا للشكاية مني؟

فقال أبو حنيفة: لما قد أصابني من رميتك؟

---

(١) حق اليقين ج١، ص٧.

فقال بهلول: وأين هذا الألم الذي تدعيه، هل تستطيع أن تُرني إياه؟ ثم كيف تأذيت من المدرة، وهي من تراب، وأنت من تراب؟ ألم تقل بأن الشيء لا يتألم بما هو سنخه؟

ثم كيف نسبت الرمية إليّ، وأُمر كما تقول بيد غيري!

فبهت أبو حنيفة، ولم يجد جواباً، وقام وخرج[1].

---

(١) روضات الجنات ج٢، ص١٤٧ (ط إسماعيليات ـ بتصرف).

تأثير الإيمان بالغيب في سلوك الإنسان

للإيمان بالغيب تأثير عظيم في سلوك الإنسان في الحياة. . ونقتصر هنا على استعراض بعض النماذج التي تؤكد هذه الحقيقة:

١ ـ عن الإمام الصادق عليه السلام في قصة مراودة زليخا ليوسف عليه السلام عن نفسه ـ أنه قال:

أن زليخا قامت إلى صنم في بيتها فألقت عليه ملاءة لها.

فقال لها يوسف: ما تعملين؟

فقالت: القي على هذا الصنم ثوباً لا يرانا فإني استحي منه.

فقال يوسف: أنت تستحين من صنم لا يسمع ولا يبصر، ولا استحيي أنا من ربي؟[1].

٢ ـ عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

بينما ثلاثة نفر فيمن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر فأووا إلى غار فانطبق عليهم.

---

(١) البحار ج١٢، ص٢٢٥ ونظيره في النور المبين، ص١٨٥.

فقال بعضهم لبعض: يا هؤلاء والله ما ينجيكم إلا الصدق فليدع كل رجل منكم بما يعلم الله عزَّ وجلَّ إنه قد صدق فيه.

فقال أحدهم: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجير عمل لي على فرق[1] أرز فزرعته فصار من أمره إلى (أن) اشتريت من ذلك الفرق بقراً.

ثم أتاني فطلب أجره فقلت: اعمد إلى تلك البقر فسقها.

فقال: إنما لي عندك فرق من أرز.

فقلت: اعمد إلى تلك البقرة فسقها فإنها من ذلك. فساقها.

فإن كنت تعلم إني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا فانساحت الصخرة عنهم [قليلاً].

وقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران، فكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لي، فأبطأت عليها ذات ليلة، فاتيتهما وقد رقدا، واهلي وعيالي يتضاغون[2] من الجوع، وكنت لا اسقيهم حتى يشرب أبواي فكرهت أن أوقظهما من رقدتهما، وكرهت أن أرجع فيستيقظا[3] لشربهما فلم أزل أنتظرهما حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا.

فانساحت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء.

وقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كانت لي ابنة عم أحب الناس إلي وإني راودتها عن نفسها، فأبت عليَّ إلا أن آتيها بمائة دينار.

---

(١) الفرق مكيال يسع ستة عشر رطلاً.

(٢) أي يتضورون من الجوع.

(٣) أي يستيقظان على أثر الجوع فلا يجدان اللبن.

فطلبتها حتى قدرت عليها، فجئت بها فدفعتها إليها، فأمكنتني من نفسها فلما قعدت بين رجليها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فقمت عنها وتركت لها المائة فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنّا. ففرج الله عزَّ وجل عنهم فخرجوا[1].

٣ ـ عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

كان عابد من بني اسرائيل، فطرقته امرأة بالليل فقالت له: اضفني.

فقال: امرأة مع رجل لا يستقيم.

قالت: إني أخاف أن تأكلني السبع.

فتأثم، فخرج وادخلها والقنديل بيده

فذهب يصعد به.

فقالت له: ادخلتني من النور إلى الظلمة!

فرد القنديل، فما لبث أن جاءته الشهوة، فلما خشي على نفسه قرب خنصره إلى النار، فلم يزل كلما جاءته الشهوة أدخل اصبعه النار حتى أحرق خمس أصابع، فلما أصبح قال: اخرجي فبئس الضيفة كنت لي[2].

٤ ـ عن علي بن الحسين عليه السلام قال:

إن رجلاً ركب البحر بأهله، فكسرت السفينة بهم، فلم ينج ممن كان في السفينة إلا امرأة الرجل، فإنها نجت على لوح من ألواح السفينة حتى

---

(١) البحار ج٦٧، ص٣٧٩ ـ ٣٨٠ (عن الخصال ج١، ص٨٧).
(٢) البحار ج٦٧، ص٤٠١.

التجأت إلى جزيرة من جزائر البحر، فكان في تلك الجزيرة رجل يقطع الطريق، ولم يدع لله حرمة إلا انتهكها.

فلم يعلم إلا والمرأة قائمة على رأسه!

فرفع رأسه إليها.

فقال: أنسية أم جنية؟

فقالت: أنسية.

فلم يكلمها بكلمة حتى جلس منها مجلس الرجل من أهله!

فلما أن هم بها اضطربت.

فقال لها: ما لك تضطربين؟

فقالت: أخاف من هذا ـ وأومأت بيدها إلى السماء.

قال: فصنعت من هذا شيئاً؟

قالت: لا وعزته.

قال: فأنت تخافين منه هذا الخوف ولم تصنعي شيئاً واستكرهتك استكراهاً فأنا ـ والله ـ أولى بهذا الخوف، وأحق منك.

فقام ولم يحدث شيئاً ورجع إلى أهله، وليس له همة إلا التوبة والمراجعة.

فبينما هو يمشي إذ صادفه راهب يمشي في الطريق، فحميت عليهما الشمس.

فقال الراهب للشاب: أدع الله يظلنا بغمامة، فقد حميت علينا الشمس.

فقال الشاب: ما أعلم أن لي عند ربي حسنة فأتجاسر على أن أسأله شيئاً.

فقال: فأدعو أنا وتؤمن أنت؟

قال: نعم.

فأقبل الراهب يدعو والشاب يؤمن، فما كان بأسرع من أن اظلتهما غمامة.

فمشيا تحتها ملياً من النهار، ثم انفرقت الجادة جادتين، فأخذ الشاب في واحدة وأخذ الراهب في واحدة، فإذا السحاب مع الشاب!

فقال الراهب: أنت خير مني، لك استجيب ولم يستجب لي، فخبرني ما قصتك؟

فأخبره بخبر المرأة.

فقال (الراهب): غفر الله لك ما مضى حيث دخلك الخوف، فانظر كيف تكون فيما يستقبل[1].

٥ ـ عن علي بن أبي حمزة قال:

كان لي صديق من كتاب بني أُمية فقال لي: استأذن على ابن عبد الله (الصادق عليه السلام)، فاستأذنت له، فاذن له.

---

(١) النور المبين ص٥٢٩ ـ ٥٣٠.

فلما دخل سلم وجلس ثم قال: جعلت فداك إني كنت في ديوان هؤلاء القوم، فأصبت من دنياهم مالاً كثيراً واغمضت[1] في مطالبه.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: لولا أن بني أُمية وجدوا من يكتب لهم ويجبي لهم الفيء، ويقاتل عنهم، ويشهد جماعتهم، لما سلبونا حقنا، ولو تركهم الناس وما في أيديهم ما وجدوا شيئاً إلاَّ ما وقع في أيديهم.

فقال الفتى: جعلت فداك، فهل لي مخرج منه؟

قال [الصادق عليه السلام]: إن قلت لك تفعل؟

قال: افعل.

قال[عليه السلام]: فاخرج من جميع ما كسبت في ديوانهم، فمن عرفت منهم رددت عليه ماله، ومن لم تعرف تصدقت به، وأنا أضمن لك على الله الجنة.

فأطرق الفتى طويلاً، ثم قال له: قد فعلت جعلت فداك.

قال ابن أبي حمزة: فرجع الفتى معنا إلى الكوفة. فما ترك شيئاً على وجه الأرض إلا خرج منه، حتى ثيابه التي على بدنه، فقسمت له قسمة، واشترينا له ثياباً، وبعثنا إليه بنفقة.

فما أتى عليه إلا أشهر قلائل حتى مرض، فكنا نعوده، فدخلت عليه يوماً وهو في السوق[2] ففتح عينه ثم قال: (يا علي وفى لي والله صاحبك) ثم مات فتولينا أمره.

---

(١) أي تساهلت في تحصيله، ولم اجتنب فيه الحرام.
(٢) السوق: حالة نزع الروح من الميت.

فخرجت حتى دخلت على أبي عبد الله عليه السلام، فلما نظر إلي قال: يا علي وفينا والله لصاحبك.

فقلت له: صدقت جعلت فداك هكذا والله قال لي عند موته[1].

٦ ـ عن تويله بنت اسلم قالت:

صليت الظهر ـ أو العصر ـ في مسجد بني حارثة فاستقبلنا مسجد ايلياء (أي بيت المقدس) فصلينا سجدتين، ثم جاء من يخبرنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد استقبل البيت الحرام فتحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال، فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلو البيت الحرام، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك فقال: اولئك قوم آمنوا بالغيب[2].

٢ ـــ إقامة الصلاة

والصفة الثانية للمتقين هي أنهم ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

و«إقامة الصلاة» تواصل مستمر مع «عالم الغيب» الذي آمن به المتقون.

وهذا التواصل ضروري، إذا ما أُريد للإيمان أن يظل ثابتاً وللتقوى أن تثمر آثارها في الحياة العملية.

وذلك لأن نوازع الشهوة تعصف بالإنسان باستمراره، وتبعده عن خط التقوى دوماً.. ولكي يتحرر الإنسان من ضغوط الشهوات وتستمر

(١) البحار ج٤٧، ص٣٨٣ (نقلاً عن الكافي ج٥، ص١٠٦).
(٢) الدر المنثور ج١، ص٢٦.

فيه «التقوى» كان لا بد من الارتباط الدائم بالله تعالى، لكي يستمد منه العزيمة والقوة في مواجهة الأهواء والشهوات . .

من هنا جاء في القرآن الكريم :ـ

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾.

وينبغي هنا أن نشير إلى أن إقامة الصلاة لا تعني مجرد الإتيان بصورتها ـ من قيام وركوع وسجود ـ بلا توجه إلى محتواها وروحها . . كيف؟

وقد توعد الله سبحانه الساهي عن حقيقة الصلاة بالويل فقال عزَّ وجلَّ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾[١]. فهو وإن اطلق عليه لفظ «المصلي» إلا أنه منعوت بالسهو عن حقيقتها، والحرمان من بركاتها في حياته العملية، ومن هنا تقول له الصلاة «ضيعك الله كما ضيعتني» ـ كما ورد في الحديث الشريف[٢].

بل المراد بـ«إقامة الصلاة»: آداؤها بشروطها وآدابها كاملة غير منقوصة وحفظها عن وقوع الخلل فيها يقال أقام العود إذا قومه و«قام بالأمر» إذا أحكمه.

أو المراد بذلك: إدامة أداء فرضها، يقال للشيء الراتب «قائم» ولفاعله «مقيم» ويقال: (فلان يقيم أرزاق الجند) إذا كان يستمر على ذلك.

---

(١) سورة الماعون، الآيات: ٤ ـ ٧

(٢) راجع مواهب الرحمن ج١، ص٦٩.

وفي التقريب: «إقامة الصلاة الإتيان بها دائماً على الوجه المأمور بها ولذا تدل على معنى ارفع من معنى «صل»[(١)].

ويحتمل أن يكون المراد بـ«إقامة الصلاة» إقرارها في المجتمع وسوقه نحوها، كما يظهر من نظائر هذه الجملة، فإذا قلنا «فلان أقام الخير ـ أو الشر» فإن ذلك يعني تعميم الخير ـ أو الشر ـ في المجتمع لا مجرد الإتيان به وحده، ولكن هذا المعنى بعيد عن سياق الآيات، فتأمل.

٣ ـــ الانفاق مما رزق الله

والصفة الثالثة للمتقين هي أنهم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

أ ـ وهذه الصفة تعبر عن الارتباط بين «المتقين» و«الناس» كما كانت «إقامة الصلاة» تعبر عن الإرتباط بينهم وبين الله، وهي في الواقع من آثار «الإيمان بالغيب» فمن يؤمن بالغيب سوف يندفع إلى الإنفاق مما عنده إذ أن «من أيقن بالخلف جاد بالعطية».

ب ـ والرزق لا ينحصر في «المال» فقط.. بل يشمل كل المواهب التي منحهم الله سبحانه كما يستفاد من عموم كلمة «ما» الموصولة.. فالمال والجاه، والعلم، والسلطة و.. كلها من مصاديق الرزق.. وانفاق كل واحد منها بحسبه.

ولذا ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ إنه قال «ومما علمناهم يبثون، ومما علمناهم من القرآن يتلون»[(٢)].

---

(١) التقريب ج١، ص٤٠.

(٢) نور الثقلين ج١، ص٢٦ وراجع أيضاً المصدر ص٣٢.

وروي «ومما علمناهم ينبئون»[1].

جـ ـ والحقيقة الجلية في أذهان المتقين هي أن كل هذه المواهب هي مما «رزقهم الله». . فلم يكونوا ليحصلوا عليها بأنفسهم. . بل بسبب العطاء الإلهي.

إن منطق غير المتقين يتمثل في كلام قارون حينما حصل على تلك الكنوز التي كانت مفاتحها لتنوء بالعصبة أولي القوة: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

بينما منطق المتقين يتمثل في كلام يوسف عليه السلام حينما تولى عرش مصر العظيم فقال يناجي ربه:

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[2].

وذلك: لأن كل المواد المودعة في هذا الكون هي من صنع الله سبحانه وتعالى. . وكل هذه الطاقات التي استطاع بها الإنسان الحصول على ما يملك هي من عطاء الله. . والاحتياج إلى هذا العطاء ليس في البدء فقط. . بل في كل لحظة من لحظات الحياة بحيث لو انقطع العطاء الإلهي لحظة واحدة لانتهىٰ كل شيء[3].

د ـ وليس المطلوب أن تنفق «كل» ما رزقك الله. . بل المطلوب أن تنفق «بعضه» ـ كما يستفاد من كلمة «من» التبعيضية في قوله تعالى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ﴾ إذ أصل الكلمة «ومن ما» ثم قلبت النون ميماً وادغمت الميم في

---

(١) البرهان ج١، ص٥٣.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠١.

(٣) راجع تفسير سورة الحمد ـ في قوله تعالى «بسم الله الرحمن الرحيم».

الميم فأصبحت «مما».. وذلك رفق الهي بالمؤمنين، إذ لم يكلفهم أن ينفقوا «كل» ما عندهم وإنما «بعضه».. ولكن الإنسان رغم كل ذلك: ظلوم كفار!

ولا بأس أن نذكر هنا المثلى التالي.

(ينقل أنه كان لانسان عبد، فسافر هو وعبده إلى بلد بعيد، وترك عائلته في بلده وبعد فترة كتب إليه بعض عياله يقول: إن نفقتنا قد انتهت وأننا بأشد الحاجة إلى المال. فأعطى السيد لعبده ألف دينار وقال له: اذهب وسلم المال إلى عائلتي، وهذه عشرون ديناراً لأجل سفرك.

فلما ابتعد العبد قليلاً ناداه السيد وقال له: ان مائتين من الألف أيضاً لك وسلم إلى عائلتي ثمانمئة.

قال العبد: أيها السيد، إني رهين احسانك ومنتك، وقد اعطيتني نفقة السفر، فلا حاجة لي إلى الزائد.

قال: السيد: اسمع ما أقول لك.

فشكره العبد ومضى.

وما أن مشى خطوات حتى ناداه السيد وقال له: لك أربعمائة وسلم ستمائة إلى عائلتي.

فأخذ العبد يكرر كلامه السابق، لكن السيد أصر على مقالته فشكره العبد وذهب غير بعيد وإذا بالسيد يناديه ويقول له:

لك ستمائة وسلم لعائلتي أربعمائة.

فكرر العبد كلامه السابق، وكرر السيد إصراره، فأكثر العبد شكره.

ولم ينتقل العبد خطوات حتى ناداه السيد قائلاً: لك ثمانمائة والبقية لعائلتي.

فذهب العبد ووصل إلى بلد السيد، لكنه لم يسلم المال إلى عائلة السيد، وكلما طالبوه وهم في أشد الحاجة لم يعطهم العبد شيئاً[1].

٤ ـ الإيمان بما أنزل على النبي ﷺ

والصفة الرابعة للمتقين هي أنهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ ـ أي بما أنزل على الرسول ﷺ ـ.

و«ما أنزل على النبي ﷺ» يعم القرآن وكل ما «اوحي» إليه ﷺ من القوانين والتشريعات والأحكام..

والإيمان بكل ذلك.. إنما هو باعتبار أنه «أنزل» عليه ﷺ فليست للنبي ﷺ جنبة «شخصية».. بل هو ممثل السماء على الأرض.. فالإيمان بما جاء به ﷺ هو في الواقع أيما بـ«الغيب» واتباعه ﷺ اتباع لله سبحانه..

واستخدام كلمة «الانزال» هنا هو باعتبار العلو المعنوي للمصدر الذي جاء منه الوحي.. وهو الله سبحانه، لا باعتبار «العلو المادي» إذ لا حيز ولا جهة ولا مكان لله سبحانه، إذ هو خالق الحيز والجهة والمكان فلا ينحصر في حيز أو جهة أو مكان.

والإيمان بما أنزل على النبي ﷺ يشكل مفترق الطريق بين

---

(١) انفقوا لكي تتقدموا ـ ص٣٣ بتصرف.

«المسلمين» و«اتباع الأديان الأخرى» إذ قد يؤمن أولئك بـ«الغيب» إلا أنهم لا يؤمنون بما أنزل على النبي ﷺ.

٥ ـــ الإيمان بما أنزل من قبل

والصفة الخامسة للمتقين هي أنهم يؤمنون بـ«ما أنزل من قبلك» أي النبوات والكتب السابقة.

فنفس العامل الذي يدفعهم للإيمان بما أنزل إلى النبي ﷺ يدفعهم للإيمان بما أنزل من قبل ـ من نبوات وكتب ووحي ونحو ذلك.

إذ المصدر واحد وكل هذه الرسالات «أنزلت» من قبل الله سبحانه. . فلا معنى للتفرقة بين رسل هذا الإله الواحد. .

ما هي ضرورة الإيمان بالرسالات السابقة؟

ولكن ما هي ضرورة الإيمان بالرسالات السابقة؟

في الإجابة على هذا السؤال نذكر النقاط التالية:

١ ـ الرسالات السابقة مهدت الطريق لرشد هذه الأمة.. وإيصالها إلى هذا المستوى الرفيع الذي وصلت إليه..

فلا بد أن ندين لتلك الرسالات بالفضل، ونشكل لها ذلك الجميل.

إن من يصل ـ على اكتاف الابتدائية والثانوية ـ إلى الجامعة لا يصح له أن يلعن الابتدائية بعد الوصول إلى الجامعة.. بل ينبغي أن يدين لها بالفضل، حيث أنها السلم الذي أوصله للجامعة..

وهكذا الأمر في رسالات السماء السابقة فهي كانت درجات في السلم الذي وصل الإنسان من خلاله إلى أعلى مراحل النضج الإنساني.

ومن هنا روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

٢ ـ الرسالات السابقة منابع للهداية.. وومضات نور على الدرب..

وقد نقل القرآن الكريم لنا كثيراً من قصصهم. . كما نجد في الروايات الشريفة الكثير مما يتناول ذلك.

ففي الإيمان بالرسالات السابقة (توسيع الدائرة الأسوة) و(تكثيف لنقاط النور).

وينفع ذلك أيضاً في «استصحاب الشرائع السابقة» على القول به ـ كما قرر في «علم الأصول».

٣ ـ الجذور التاريخية ضرورية لكل دين. . لكي لا يكون كشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. .

ومن هنا نجد: إن المبادىء الجديدة تحاول أن تلصق نفسها ببعض العظماء التاريخيين لكي تقول للناس: أنها ليست طارئة على مسيرة المجتمع الإنساني، بل هي موغلة في أعماق الأرض والزمن!

وبهذا يشعر المنتمي بأنه يسير فوق خط معبد لا فوق طريق جديد لم يسلك من قبل.

ومن هنا نجد أن اليهود كانوا يحاولون أن يلصقوا أنفسهم بإبراهيم الخليل عليه السلام.

والنصارى هم الآخرون كانوا يدعون بأن إبراهيم عليه السلام منهم.

وجاء القرآن الكريم لكي يفند كل هذه المزاعم ويكشف الحقيقة بقوله ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٧.

ويقول في آية أخرى.

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا﴾[1].

٤ ـ والإيمان بكل الرسالات السابقة يعبر عن واقعية الإنسان تجاه الأحداث.. فهو ليس رجلاً معصباً.. بل يقر بكل ما له واقعية، وباعتبار أن الأديان السابقة هبطت من السماء فهو إذاً يؤمن بها ويعتقد بها.

٥ ـ ولا ننسى ما لهذا الإيمان من أثر في نزع الأحقاد وتأليف القلوب واستقطاب الآخرين إلى دائرة الحق..

وقد ذكر السيد الوالد ـ دام ظله ـ ما مضمونه أن شخصاً مسيحياً جاءه وحاوره حول الإسلام فلما اقتنع قال: بقيت هنالك عقبة.

فقال السيد: وما هي؟

قال: إن اسلامي يعني التبرء من السيد المسيح والسيدة مريم عليها السلام وهذا ما لا أرضى به.

فقال السيد: الأمر بالعكس تماماً، فإن إيمانك بالإسلام يجعلك أكثر إيماناً بالسيد المسيح عليه السلام والسيدة مريم عليها السلام إذ أننا نعتقد أن المسيح عليه السلام من الأنبياء أولي العزم وأمه صديقة، وإنهما معصومان عن كل خطأ وذنب.. ثم أتى السيد بالمصحف وأخذ يريه «سورة مريم» قائلاً له: إن قرآننا يحتوي على سورة كاملة باسم «سورة مريم».

فأبدى الرجل استغرابه الشديد.. وأسلم لله رب العالمين.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

٦ ـــ اليقين بالآخرة

والصفة السادسة للمتقين هي أنهم ﴿بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

و«اليقين» هو «الإعتقاد الجازم الذي لا يشوبه أي نوع من أنواع الشك والتردد..

وقيل هو الإعتقاد الجازم المطابق للواقع..

وعلىٰ كل حال..

فهذه الحياة ليست في منظار المتقين المحطة الأخيرة.. في رحلة الحياة الطويلة.. بل إنها محطة في الطريق.. وبعد هذه الحياة «الدنيا» توجد هنالك «آخرة».. و«الموت» مجرد بوابة ينفذ عبرها الإنسان إلى تلك الحياة.. ليقدم علىٰ ما قدّم.. ويرى نتائج أعماله.. إن خيراً فخير.. وإن شراً فشر. وهذه الرؤية تمنح الإنسان الاستقامة في عمله، فلا يخون ولا يظلم ولا يتوانى عن القيام بمسئولياته، لأنه يعرف أن كل عمل بذرة يحصد ثمرتها غداً.. كما أنها تمنحه رحابة الصدر تجاه الصعاب، إذ أنه يعرف أن كل عناء يتحمله في سبيل الله سوف يعوض أضعافاً مضاعفة في تلك الحياة..

ونظرة واحدة إلى حياة «المتقين» وحياة «غير المتقين» كفيلة بالكشف عن هذه الحقيقة.

أولئك على هدى من ربهم

هذه هي صفات المتقين.. وباتصافهم بهذه الصفات كانوا مهديين سائرين على الطريق المستقيم..

إلا أن هذا الهدى لم يأت من قبل أنفسهم، بل جاء من جانب ربهم.

صحيح أن الإنسان يسلك طريق «الهدى» بإرادته واختياره بدون أن يكون هنالك أي قسر مفروض عليه.. إذ القلب منطقة متحررة من تأثير مراكز القوى.. فلا تستطيع أن تفرض على القلب اتجاهاً معيناً.. وإن استطاعت أن تفرض على البدن ما تريد..

وصحيح أن الإرادة اختيارية بذاتها، فاختيارية كل شيء بالإرادة إما اختيارية الإرادة فبذاتها، كما أن إنارة كل شيء بالضوء، أما إنارة الضوء فبذاته ـ بمعنى عدم افتقار هذا الوصف إلى حيثية تعليلية، وراء علة وجود الذات فعلة وجود الذات كافية في وجود الوصف الذاتي، بدون الاحتياج إلى علة أخرى تمنحه وجوده، ومن هنا قيل «الذاتي لا يعلل».

إلا أن حصول هذه الإرادة متوقفة على مقدمات.. ومن هذه المقدمات (التصور) ـ أي انطباع صورة الشيء في الذهن، وإذا لم يكن الله سبحانه يرسل الرسل، وينزل الآيات لم يكن لأحد أن يتعرف على طريق الهدى ليسلكه..

ومن هنا يقول المؤمنون:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[1].

وفي الدعاء:

«يا من دل على ذاته بذاته»[2].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (٤٣).

(٢) دعاء الصباح ـ مفاتيح الجنان للقمي قدس سره.

هذا مضافاً إلى أن نفس وجود الإنسان.. ووجود إرادته.. ووجود صفاته الكمالية التي بها أدرك الهدى.. ووجود قدراته وطاقاته التي بها سلك طريق الهدى و... و.. كلها رهينة بالعطاء الإلهي.

ومن هنا.. كان هدى المتقين آتيا من جانب ربهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾.

نتيجة التقوى

هذه نتيجة من نتائج التقوى.. الهدى.. بما يلازمها من استقامة في النفس والعقل والروح.. وأما النتيجة الأخرى فيشرحها المقطع الأخير من الآية:

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

والفلاح لغةً هو الظفر بالهدف المتوخى بعد الكدّ والتعب، والمتقون وحدهم هم المفلحون.. لأنهم عبروا طريق «ذات الشوكة» حتى نالوا مقصودهم.. وهو السعادة في الدنيا والآخرة..

ويدل على تعميم الفلاح للدنيا والآخرة حذف المتعلق بإنه يفيد العموم ـ كما ذكره علماء البلاغة ـ.

كما يدل عليه قوله تعالى:

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦﴾[1].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

الآيتان

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[1].

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧.

المفردات

﴿سَوَآءٌ﴾: متساو في حقهم الإنذار وعدمه.

﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾: الإنذار هو التحذير من نتائج العمل في زمان يتسع للإحتراز عنه، فإن لم يتسع للإحتراز كان (اشعاراً) ولم يكن (انذاراً).

﴿خَتَمَ﴾: الختم ضرب الخاتم على الشيء، لئلا يتوصل إليه أحد أو يطلع عليه ومنه وضع الخاتم على الكتب والأبواب كي لا تفتح، والختم اليوم يستعمل في المنع من الإطلاع على الشيء أو الدخول إليه، كختم سندات الأملاك والرسائل السرية.

﴿قُلُوبِهِمْ﴾: عقولهم.

﴿غِشَاوَةٌ﴾: الغطاء الذي يشتمل على الشيء ويحيط به.

القراءة

قال في الكشاف ما مؤداه: يحتمل أن تكون الاسماع داخلة في حكم الختم وفي حكم التغشية، إلا أن الأولى دخولها في حكم الختم لقوله تعالى ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً﴾[(١)]. ولوقفهم على سمعهم دون قلوبهم[(٢)].

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

(٢) الكشاف ج١، ص١٦٣ (ط دار المعرفة).

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ فيه وجهان:

١ ـ ان سواء خبر لـ(ان) و﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ في موضع الرفع به على الفاعلية، والتقدير (ان الذين كفروا متساو عليهم انذارك وعدمه).

فـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ اسم لـ(ان) و(متساو) خبرها و(انذارك) فاعل للخبر و(عدمه) عطف على الفاعل، فهو نظير أن تقول (ان الذين كفروا يتساوى عليهم انذارك وعدمه) إلا أن (يتساوى) فعل و(متساو) اسم. وكذا (سواء).

٢ ـ أن تكون جملة ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ في موضع مبتدأ مؤخر وسواء خبر مقدم. ومجموع هذه الجملة المركبة من المبتدأ والخبر خبر لـ(ان) الهمزة في ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ مجردة عن معنى الإستفهام الحقيقي، ويطلق عليها (همزة التسوية) والضابط لها أنها الهمزة الداخلة على جملة يصح حلول المصدر محلها نحو ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ﴾[1]. أي سواء عليهم الاستغفار وعدمه[2].

فقوله تعالى ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ أي سواء عليهم الإنذار وعدمه.

وقال في التبيان (ومعناه أيّ الأمرين كان منك اليهم الانذار أم ترك الانذار فإنهم لا يؤمنون. . وهذا لفظه لفظ الإستفهام ومعناه الخبر وله نظائر في القرآن، كما تقول «ما أُبالي أقمت أم قعدت» وأنت مخبر لا

(١) سورة المنافقون، الآية: ٦
(٢) راجع المغني ـ الباب الأول ـ حرف الألف.

مستفهم لأنه وقع موقع أي، كأنك قلت لا أبالي أي الأمرين كان منك، وكذلك معنى الآية: سواء عليهم أي هذين منك اليهم حسن في موضعه سواء فعلت أم لم تفعل[١].

النزول

قيل: إن الآية الكريمة نزلت في «أبي جهل» وخمسة من قومه من قادة الأحزاب قتلوا في معركة «بدر»

وقيل: إنها نزلت في قوم باعيانهم من أحبار اليهود الذين يقطنون حوالي المدينة.

وقيل: إنها نزلت في رؤساء اليهود والمعاندين الذين وصفهم الله تعالى بأنهم يكتمون الحق وهم يعلمون.

وقيل: إنها نزلت في مشركي العرب الذين جحدوا بعد المعرفة وأنكروا بعد البينة.

والذي يتناسب مع عموم كلمة (الذين) ومع سياق الآيات المباركة أن الآية الكريمة تشمل كل الكفار المعاندين الذين اغلقوا على أنفسهم «منافذ المعرفة» فاستوى في حقهم الانذار وعدمه، ولم يعد بإمكانهم ـ بسبب سوء اختيارهم ـ الوصول إلى طريق الهدى ابداً، وبتقرير آخر القضية من قبيل «القضايا الحقيقية»[٢] التي يكون الموضوع فيها هو العنوان الكلي الجامع لكل ما ينطبق عليه من الأفراد لا من قبيل «القضايا

---

(١) التبيان ج١، ص٦١ (ط دار إحياء التراث العربي).

(٢) على أحد المصطلحين في معنى «القضية الحقيقية» و«القضية الخارجية» (راجع فوائد الأصول للمحقق النائيني (قده) ج١، ص٢٧٦، بحث «مقدمة الواجب».

الخارجية»[1] التي يكون الموضوع فيها الأشخاص الخارجية الجزئية فتأمل.

التفسير

بعد أن استعرض القرآن الكريم موقف المجموعة الأولى من المجموعات الثلاث.. تجاه القرآن الكريم وما يحتوي عليه من مبادىء وقيم يتعرض إلى موقف المجموعة الثانية وهي «الكافرون».

معنى الكفر

والكفر من الناحية اللغوية هو «الستر» ويسمى «الزارع» «كافراً» باعتباره يستر البذور تحت التربة.. قال الله تعالى ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾[2] ويقال (تكفر فلان بالسلاح) أي تغطى به، وكأن الكافر سمي بذلك لأنه يستر الحقيقة ولا يبديها[3] أو لأنه يستر عقله تحت ركاب الجهل أو العناد فلا يسمح لعقله أن يكتشف الحقيقة.

أما من الناحية الشرعية فالكفر عبارة عن إنكار الالوهية أو الرسالة أو المعاد أو ضروري من ضروريات الدين بحيث يعود إنكاره إلى انكار الرسالة أو مطلقاً على اختلاف المبنيين في ذلك[4].

ولكن يبدو أن هذه الآية ليست ناظرة إلى هذا المعنى الشرعي، بما له من السعة والشمول، بل هي ناظرة إلى تلك الشريحة الإجتماعية من

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

(٣) راجع تقريب القرآن ـ ج١، ص٤١

(٤) راجع الفقه ـ ج٤، ص٢٢٢ (ط بيروت).

الكفار التي ظلت مصرة على مواقفها الخاطئة تجاه الإسلام وعلم الله سبحانه بعلمه الأزلي أنها سوف لن تؤمن بهذا الدين.

ثلاثة مواقف:

فالناس الذين بلغتهم الدعوة، ووصل إلى مسامعهم نداء الحق على ثلاثة أنواع:

١ ـ الأفراد ذوو القابلية للفهم والتلقي.. وهؤلاء فتحوا نوافذ قلوبهم لنداء الحق، واحتضنوه وتفاعلوا معه، فهؤلاء كالتربة الخصبة التي ما ان تلقى فيها البذور حتى تحتضنها وتتفاعل معها ولا تمر الأيام إلا وتملأ الآفاق بالوانها الزاهية، واريجها الفواح، وثمارها اليانعة.

٢ ـ الأفراد الذين انعدمت فيهم القابلية ـ بسبب سوء اختيارهم ـ وهؤلاء اغلقوا نوافذ قلوبهم على الحق فلم يعد يستطيع النفاذ إلى أعماقهم ابداً، فهؤلاء كالأرض السبخة التي لا تحتضن بذرة، ولا تنبت ثمراً..

٣ ـ الأفراد المذبذبون بين هؤلاء وأولئك..

والقسم الثاني.. يتساوى في حقهم الانذار وعدمه، والتبليغ وعدمه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ وذلك مثل «أبو جهل» و«أبو لهب» وأمثالهما من الكفار.

وعلى هذا: يكون المراد من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الذين استمروا على كفرهم وضلالهم، رغم وصول كلمة الحق إليهم، لا كل من تلبس بالكفر،

وإلا فالذين آمنوا بالرسول ﷺ كان أكثرهم كفاراً، ثم أصبحوا بعد ذلك مؤمنين.

لماذا العناد؟

ويبدو أن الآية التالية تبين السبب في ذلك، فقد ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ و﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ فهؤلاء سدت عليهم منافذ المعرفة.. إذ أن منافذ المعرفة هي «العقل» و«السمع» و«البصر».

أما عقولهم فقد ختم الله عليهم ـ بكفرهم ـ، وإذا ختم على العقل لم يمكن أن يدخله نور الهدى ابداً.

وأما سمعهم فقد طبع الله عليه ـ بعنادهم.

وأما أبصارهم فقد استدلت دونها غشاوة سميكة.. فلم يعد بإمكانها الرؤية ابداً..

وفي تعبيرات الآية الكريمة تنزيل لفاقد الوصف منزلة فاقد الأصل وقد ينفىٰ الأصل عند انتفاء الوصف بسبب أهمية الوصف أو كونه علة غائية لوجود الأصل ومن الواضح أن في السمع والبصرين أمرين يترتب أحدهما على الآخر:

أولهما:انكشاف المسموع والمبصر لدى السامع والرائي.

وثانيهما: الجري العملي وفق هذا الانكشاف.

والانتفاع بالسمع والبصر إنما يتم بالجري العملي، فإذا انتفى ذلك فكأنه لا سمع ولا بصر.. فينزل «عدم السمع النافع» منزلة «عدم السمع»

لافادة أنه بمنزلته في النتيجة. . كما ينزل «عدم الإبصار النافع» منزلة «عدم الأبصار» لبيان أنه مثله في المآل.

وهنالك احتمال آخر في قوله تعالى ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ وهو أن يكون بمنزلة المعلول للآية الأولى ـ فهؤلاء قد طبع الله على قلوبهم وعلى سمعهم وغشي على أبصارهم جزاءاً وفاقاً على استهتارهم بالانذار، حتى تساوى لديهم الإنذار وعدم الإنذار فتأمل.

نتيجة العناد

أما النتيجة التي تترتب على هذا الموقف العنيد المنبعث عن النفس المظلمة فهو ما يبينه الله تعالى بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فإن الإنحراف عن الإيمان أعظم انحراف في حياة البشر.. والاثر الوضعي الذي يترتب على (الانحراف العظيم) هو (العذاب العظيم) بالطبع. وهذا العذاب العظيم لا يقتصر على نشأة الدنيا فحسب.. بل يشمل نشأة الدنيا.. ونشأة الأخرة.. كما يدل عليه قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾.

قال: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾؟

قال: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ﴾(٢).

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤ ـ ١٢٥ ـ ١٢٦.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٤.

ولعل في تنكير «عذاب» اشارة إلى أن هذا العذاب عذاب مجهول لا يعرف كنهه البشر.. أما بالنسبة إلى عذاب الآخرة فواضح.. لاختلاف معادلات نشأة الآخرة عن نشأة الدنيا.. فلا يستطيع الإنسان وهو محكوم بمعادلات هذه النشأة أن يدرك أبعاد تلك النشأة.. كما لا يستطيع الجنين وهو في بطن أمه أن يستوعب معادلات هذه الحياة.. وأما بالنسبة إلى عذاب الدنيا فلأن الإنسان محاط بإطار «الحاضر» وباطر «الحس».. فلا يستطيع ـ عادةً ـ أن ينفذ إلى أغوار المستقبل.. ولا أن يكتشف «الماورائيات» ـ كالروح مثلاً ـ[1].

ولذا فإنه لا يستطيع أن يحيط بأبعاد الآثار التي يتركها الإنحراف عن خط الإيمان على الروح الإنسانية، ولا المضاعفات الخطيرة التي يخلفها على مستقبل المجتمع البشري.

وما هذه المآسي الكبيرة التي تشهدها البشرية إلا «بعض» آثار الإنحراف عن خط الهدى.. ويوم تزاح حجب الغفلة وتكتشف الحقيقة كاملة فلسوف يدرك الإنسان مدى عمق الفاجعة التي حلت بالبشرية جراء ضلالها عن خط الإيمان بالله.

ما تهدفه الآيتان الكريمتان

لا يخفى أن في هاتين الآيتين تسلية للنبي ﷺ حتى لا تذهب نفسه عليهم حسرات[2].

فقد كان النبي ﷺ حريصاً على أن يؤمن الناس جميعاً[3] وكان يتألم

(١) راجع كتاب «الإنسان ذلك المجهول».
(٢) تقريب القرآن ج١، ص٤١.
(٣) راجع الدر المنظور ج١، ص٢٩ (ط دار المعرفة).

لذلك أشد التألم حتى قال الله سبحانه ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾[1].

ففي هاتين الآيتين دلالة على أن هذه المجموعة لن تجدي معها المحاولات. . لأنها سوف تظل سادرة في غيها وضلالها. . فلا ينبغي له ﷺ أن يهلك نفسه غماً وحسرةً عليهم. .

ولا يختص الأمر بالنبي ﷺ بل يعم كافة العاملين في سبيل الله. . إذ المهم آداء «الوظيفة» وهي التبليغ ـ ضمن شروطه المقررة ـ وليس المهم الحصول على النتيجة ـ وهي شمولية الهداية لكل فرد ـ فإن هذه النتيجة سوف تصطدم بركام من التعصب واللجاجة والعناد في نفوس الكثيرين. . ولن تجدي المحاولات معهم أبداً. .

وعند هذه النقطة تستقر نفس المؤمن العامل. . ولن تعود تفت في عضده قوة الضلال والإنحراف. . إذ المهم أن يكون على الحق. وأن يدعو إلى الحق. . أما النتيجة فإنها ليستا مسئوليته. . وإنما يكلها إلى الله تعالى. .

كما أن في هاتين الآيتين المباركتين تعرية لحقيقة موقف المجموعة الثانية ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ـ إذ أنه لا ينطلق من قاعدة فكرية متينة.. وإنما ينطلق من الهوى والتعصب والعناد..

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٦.

هل العلم الأزلي يلازم الجبر؟

وهنا ينبري سؤال ليقول:

إذا كان الله سبحانه يعلم أن هؤلاء لن يؤمنوا . . وقد أخبر عن ذلك بقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾ فهل يمكن أن يتحقق خلاف ما علمه الله ـ بان يؤمن هؤلاء ـ فهذا يعني انقلاب علم الله جهلاً ـ وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ وإذا لم يمكن أن يقع خلاف ما علمه الله، إذاً يكون هؤلاء «مجبورين» على الكفر أو العصيان..

يقول الشاعر ـ ما ترجمته ـ:

إنني أشرب الخمر.

وكل من كان من أهل المعرفة.

فسوف يرى شربي للخمر سهلاً.

الحق كان يعلم شربي للخمر منذ الأزل.

فإذا لم أشرب الخمر انقلب علم الله جهلا!

وإلى هذه الشبهة يلجأ الكثير من العصاة لتبرير سيرهم في طريق العصيان والضلال.

وقد روى القاضي في كتاب طبقات المعتزلة أن رجلاً قام إلى بعض الصحابة فقال: إن أقواماً يزنون ويسرقون ويشربون الخمر ويقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ويقولون: كان ذلك في علم الله فلم نجد منه بدا![1].

مما يدل على شيوع هذا المنطق المغلوط منذ ذلك الوقت.

كما نقل أن النبي ﷺ قال:

إن موسى قال لأدم: أنت الذي اشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة!

فقال آدم: أنت الذي اصطفاك الله لرسالاته ولكلامه وانزل عليك التوراة فهل تجد الله قدره عليَّ؟!

قال موسى: نعم.

فقال رسول الله ﷺ فحج آدم موسى (أي غلبت حجة آدم على حجة موسى عليه السلام)[2].

ويمكن الجواب على هذه الشبهة بأحد تقريرين:

التقرير الأول:

ان العلم على نحوين:

١ ـ العلم الفعلي.

٢ ـ العلم الإنفعالي.

---

(١) التفسير الكبير ج٢، ص٥٢ (ط دار الفكر).
(٢) التفسير الكبير ج٢، ص٥٣ (ط ـ دار الفكر).

والأول: هو العلم الذي «يولد» المعلوم في الخارج.. فالعلم يقع متبوعاً، والمعلوم يقع تابعاً.

وهذا هو الذي يطلق عليه ـ أيضاً ـ «العلم العنائي».

ويمكن أن نمثل لذلك بعلم شخص بانه «مريض» مع أنه ليس بمريض بالفعل. . فـ«علمه» بـ«المرض» ربما يولد فيه «المرض». . فلم يكن «تحقق المرض» أولاً و«العلم بالمرض» ثانياً، بل كان «العلم بالمرض» أولاً و«تحقق المرض» ثانياً.

وقد جرب في علم الطب: إمكان «ايجاد» المرض في شخص سليم بـ«الإيحاء» إليه بأنه «مريض».

كما تطرق إلى مثل ذلك علماء الإخلاق في بحوثهم حول دور الإيحاء في خلق الفضائل الخلقية.

والثاني: (العلم الإنفعالي): هو العلم الذي يتبع المعلوم.

فالمعلوم يقع متبوعاً والعلم يقع تابعاً، كعلمك بوجود النهار الآن فإن وجود النهار يقع في الرتبة الأولىٰ. . وعلمك بوجود النهار يقع في الرتبة الثانية. . أي أنه كان «النهار» فـ«علمت بالنهار». . لا إنك علمت بـ«النهار» فـ«كان النهار».

والملاحظة الجديرة بالانتباه: أنه قد يكون «المعلوم» في النوع الثاني ماضياً وقد يكون حاضراً وقد يكون مستقبلاً. .

فالأول: كعلمك بـ«طوفان نوح عليه السلام» في الأزمنة السحيقة.

والثاني: كعلمك بجريان الماء في النهر الذي أمامك.

والثالث: كعلمك بـ«طلوع الشمس غداً».

فهذه الأقسام الثلاثة تشترك في أن «المعلوم» يقع في الرتبة الأولى.. و«العلم» يقع في الرتبة الثانية..

فلانه كان الطوفان.. لذا علمت بالطوفان..

ولأنه كان جريان الماء.. لذا علمت بالجريان..

ولأن الشمس ستطلع غداً.. لذلك تعلم بأن الشمس تطلع غداً..

وإذا تقررت هذه الحقيقة نتساءل:

هل أن علمك بطلوع الشمس غداً علة لطلوع الشمس غداً.. أم أن طلوع الشمس معلول لعلله التكوينية الخاصة وعلمك لا دخل له في العلية مطلقاً؟

الشق الثاني هو الصحيح.

وهكذا ـ ولو من بعض الجهات ـ علم الله.. فإن الله تعالى يعلم أن «أبا لهب» سوف لن يؤمن.. وقد أخبر بانه من أهل النار في قوله تعالى:

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾[1].

ولكن «عدم إيمان أبي لهب» معلول لـ«ارادته عدم الإيمان» وليس معلولاً لعلم الله سبحانه..

ولتقريب الصورة أكثر نضرب المثال التالي:

لنفرض أن هنالك طالبين في الصف.. أحدهما: مهمل وكسول لا

---

(١) سورة المسد، الآية: ٣.

ينتبه إلى المدرس ولا يطالع الدروس ويقضي أوقاته في اللعب واللهو.. والآخر: على العكس تماماً مجد ومجتهد ومواظب على المطالعة والمذاكرة والحفظ.. واستمرت هذه الحالة إلى يوم الامتحان.. المدرس ربما يعلم بأن التلميذ الأول سيسقط في الامتحان حتماً، وبأن التلميذ الثاني سينجح في الامتحان قطعاً.. فهل «علم» المدرس هذا علة لسقوط الأول ونجاح الثاني؟ وهل يستطيع التلميذ الأول أن يرفع دعوى ضد الاستاذ بأن علمه هذا هو الذي سبب فشله في الامتحان؟ وهل نستطيع أن نلغي دور إرادة التلميذ الثاني وجده في نجاحه بسبب «علم» الاستاذ المسبق بالنجاح؟

كلا: إذ العلم هنا «تابع» وليس «متبوعاً» وهكذا الأمر بالنسبة إلى «العلم الأزلي».. ولو في الجملة فتأمل.

التقرير الثاني:

إن العلم بالشيء يتنوع ـ بلحاظ آخر ـ إلى أنواع ثلاثة:

١ ـ العلم بالعلة وحدها..

حيث يقتصر العلم في هذا النوع على ذات «العلة» من دون أن يتعداها إلى المعلول.

(والمراد بالعلم بالعلة هنا العلم بها بما هي هي.. لا بما هي علة.. إذ العلم بها بهذا اللحاظ لا ينفك عن العلم بالمعلول ـ ولو اجمالاً ـ لتضايف العلية والمعلولية.. والمتضايفان متكافئان تحققاً وتعقلاً.. فلا ينفك وجود أحدهما عن وجود الآخر، كما لا ينفك تصور أحدهما عن تصور الآخر).

ومثال ذلك:

أن الجاهل ربما يرى البعوضة تقع على بدنه وتمتص من دمه.. ولكنه لا يعرف المضاعفات الخطيرة التي تولدها في البدن... فعلمه هذا «علم بالعلة» فقط دون أن يتعداها إلى «العلم بالمعلول».

٢ ـ العلم بالمعلول وحده..

ويقتصر العلم في هذا النوع على ذات «المعلول» دون أن يتعداه إلى «العلة»..

ومثال ذلك:

رؤية كثير من الناس للظواهر الطبيعية ـ من شروق وغروب وحر وبرد و... ـ دون أن ينتقلوا إلى «السبب» الذي يكمن وراء ذلك كله.

٣ ـ العلم بالعلة والمعلول معاً..

وهذا النوع هو أكمل الأنواع الثلاثة.. إذ أن الرؤية للصورة ـ في هذا النوع ـ ستكون كاملة دون أن يعتريها نقص أو قصور.

والنقطة المحورية في البحث هي: أن العلم الذي يتعلق بمجموع «العلة والمعلول» لا يمكن أن يلغي دور «العلة» في وجود «المعلول».. وإلا لانقلب العلم جهلاً ولم يعد متطابقاً مع الواقعية العينية الخارجية..

فعلمك بأن الكون «سيضيء غداً» بسبب «شروق الشمس» لا يمكن أن يلغي دور «شروق الشمس» في «إضاءة الكون».. والألم يكن علمك بذلك علماً، بل انقلب جهلاً..

وهكذا الأمر في العلم الأزلي..

إذ لا شك أن علم الله سبحانه علم تام. . لا تعتريه شوائب النقص والقصور. .

ولا شك أن «كفر أبي لهب» ـ مثلاً ـ معلول لـ«سوء اختياره». . كما أن مرض المريض معلول لوجود ميكروبات معينة في بدنه مثلاً . .

وكما أن علم الله الأزلي بـ«مرض» المريض لا يلغي دور الميكروبات في إيجاد «المرض» كذلك علم الله الأزلي بـ«كفر أبي لهب» لا يلغي دور «سوء اختياره» في إيجاد هذا «الكفر». .

بل إن علم الله سبحانه بـ«كفر أبي لهب» بسبب «سوء اختياره» يؤكد «اختياره». . إذ لو كان هذا العلم سبباً لسلب الإختيار لانقلب علم الله جهلاً ـ وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . .

القرآن الكريم.. يؤكد

ويؤيد ما ذكرناه ـ من أن علم الله سبحانه بعدم إيمان الكافر لا يكون مانعاً عن الإيمان ـ الآيات الكثيرة الدالة على أن لا مانع لأحد من الإيمان كقوله تعالى ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾(١) ومن الواضح أن المولى لو سجن عبده في غرفة لا يستطيع الخروج منها ثم قال له على وجه الإنكار (ما منعك من الذهاب إلى السوق ـ مثلاً) لعد ذلك منه قبيحاً.

وقوله تعالى لإبليس ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾(٢).

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ (١).

وقوله جلَّ وعلا: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾ (٢).

قال الصاحب بن عباد: كيف يأمره بالإيمان وقد منعه عنه؟ وينهاه عن الكفر وقد حمله عليه؟ وكيف يصرفه عن الإيمان ثم يقول: أنى تصرفون؟ ويخلق فيهم الأفك ثم يقول: ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (٣) وأنشأ فيهم الكفر ثم يقول: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ (٤) وخلق فيهم لبس الحق بالباطل ثم يقول: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ (٥)؟ وصدهم عن السبيل ثم يقول: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (٦)؟ وحال بينهم وبين الإيمان ثم قال: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا﴾ (٧)؟ وذهب بهم عن الرشد ثم قال: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ (٨)؟ واضلهم عن الدين حتى أعرضوا ثم قال: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾ (٩)(١٠).

كما ويؤيده قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (١١) وقوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ

---

(١) سورة الإنشقاق، الآية: ٢٠.
(٢) سورة المدثر، الآية: ٤٩.
(٣) سورة الأنعام، الآية؛ ٩٥.
(٤) سورة آل عمران، الآية؛ ٩٨.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٧١.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ٩٩.
(٧) سورة النساء، الآية: ٣٩.
(٨) سورة التكوير، الآية: ٢٦.
(٩) سورة المدثر، الآية: ٤٩.
(١٠) راجع التفسير الكبير ج٢، ص٤٨ (ط دار الفكر).
(١١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾[١].

فبين سبحانه أن الحجة قد تمت عليهم، وأنه ما بقي لهم عذر إلا وقد أزاله عنهم فلو كان علمه تعالى بكفرهم مانعاً لهم من الإيمان لكان ذلك من أعظم الأعذار وأقوى الوجوه الدافعة للعقاب عليهم[٢].

والحديث في هذا البحث طويل نكتفي منه بهذا القدر، والله المستعان.

---

(١) سورة طه، الآية: ١٣٤.

(٢) راجع التفسير الكبير ـ ج٢، ص٤٨ (ط دار الفكر).

هل الختم على القلوب ينافي الاختيار؟

هنالك قاعدتان:

القاعدة الأولى تقول: (الامتناع بالاختيار لا ينافي الإختيار).

والقاعدة الثانية تقول: (الوجوب بالاختيار لا ينافي الإختيار).

وتجمع القاعدتين عبارة مختصرة هي (ما بالإختيار لا ينافيه).

مفاد القاعدة الأولى:

ومفاد القاعدة الأولى: أنه لو طرأت الاستحالة على شيء (ولنفرضه محبوباً للمولى) بسبب اختيار الشخص الإتيان بالمقدمات التي تؤدي إلى تلك الإستحالة ـ أو بسبب عدم الإتيان بالمقدمات الوجودية التي يتوقف عليها ذلك الشيء ـ فإن هذه الاستحالة لا تعفي الشخص من المؤاخذة القانونية على ذلك الشيء.. إذ لا تلاحظ استحالته فعلاً، وإنما يلاحظ إمكان تملص المكلف من تلك الاستحالة بعدم اختيار المقدمات المؤدية إليها.. ويترتب على ذلك استحقاق العقوبة.. لا على المقدمات المؤدية إلى الاستحالة وإنما على ذات الشيء الذي طرأت عليه الإستحالة، لأن (المقدور بالواسطة مقدور).

مثلاً: لو أمر المولى عبده بالتواجد غدا في بلد ناء لأداء مهمة معينة..

وكان ذلك يتوقف على حجز مقعد في الطائرة في هذا اليوم.. فلم يفعل العبد ذلك.. فمن الواضح أنه «يمتنع» عليه: التواجد في الوقت المحدد في المنطقة المعينة.. إلا أن هذا «الإمتناع» لا يعفي العبد من استحقاق العقوبة.. إذ كان بإمكانه التخلص من هذا الامتناع بشراء التذكرة في اليوم السابق..

مفاد القاعدة الثانية:

ومفاد القاعدة الثانية: أن حتمية وجود الشيء (ولنفرضه مبغوضاً للمولى) إذا كانت مستندة إلى «اختيار» المكلف الإتيان بالمقدمات التي تؤدي إلى تلك الحتمية. . لا تعفي المكلف من استحقاق العقوبة. . على ايجاده ذلك الشيء المبغوض للمولى.

مثلاً: لو القى شخص بنفسه من عمارة شاهقة إلى الأرض.. فإنه سوف يقع تحت هيمنة الجاذبية التي ستجذبه ـ بشدة وعنف ـ نحو الأرض.. وفي هذه الحالة يخرج الأمر من يده.. ويكون من المحتم عليه عادة أن (يصطدم بالأرض) وتتهشم عظامه.

لكن هذه الحتمية ليست حتمية مفروضة من فوق. . وإنما هي حتمية ناشئة من سوء اختيار المكلف. . فلا تعفيه من استحقاق المؤاخذة القانونية. .

تأثير العمل في الرؤية

وعلى ضوء ذلك نقول:

إن للعمل «آثاراً وضعية» لا تختلف ولا تتخلف، ومن أهم هذه الآثار الآثر الذي يتركه العمل على «الرؤية».

فالإنسان يولد ومعه «فطرة» نقية بها يميز الخير عن الشر، والهدى عن الضلال..

وقد روي أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال له: دلني على الخير والشر.

فأشار ﷺ إلى قلبه وقال: ما قال لك هذا أنه خير فاعمله، وما قال لك هذا إنه شر فاجتنبه.

إلا أن هذه الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها.. ستتعرض إلى عملية مسخ وتحوير إذا ما استمر الإنسان على الذنب والضلال..

فكما أن رئة الإنسان خلقت لاستنشاق الهواء النقي.. ولذا فإنها تصاب بالأذى حينما تستنشق الهواء الملوث لأول مرة (كدخان السيجارة مثلاً).. إلا أن الإنسان إذا استمر فترة طويلة على استنشاق الهواء الملوث فإن الرئة سوف تتكيف مع هذا الهواء الفاسد.. ويصبح جزءاً من حياة الإنسان.. وإذا ما انقطع عنه فسوف يشعر بالألم والاضطراب..

فكذلك الفطرة.. أنها ترفض بشدة الضلال.. إلا أن الإنسان لو سحق فطرته فترة طويلة فسوف تموت فطرته.. وتصبح رؤيته للأمور مقلوبة.. ولا يعود للحق إلى قلبه من سبيل..

وهكذا يتم «الختم» على القلوب والاسماع.. وتسدل على الأعين غشاوة غليظة فلا يعود القلب يعي.. ولا الأُذن تسمع.. ولا العي تبصر..

إلا أن ذلك لا يعفي هؤلاء من المسئولية القانونية.. إذ أن هذه النتيجة كانت بسبب كفرهم وعنادهم وإصرارهم على الضلال

والانحراف.. فسوء اختيارهم ـ في البدء ـ هو الذي أدى بهم إلى هذه النهاية القاتلة..

ونجد في آيات القرآن الكريم إشارات واضحة إلى هذه العلاقة بين «الضلال الواعي» في البداية.. و«الختم على القلوب والاسماع» في النهاية..

يقول الله تعالى:

﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[1].

ويقول: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[2].

ويقول: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[3].

ويقول: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾[4].

ويقول: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[5].

ويقول: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾[6].

وعلى هذا.. فـ«الختم على القلوب» يعبر عن معادلة طبيعية أودعها الله سبحانه في الكون..

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٥.
(٢) سورة الصف، الآية: ٥.
(٣) سورة المؤمن، الآية: ٣٥.
(٤) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.
(٥) سورة المطففين، الآية: ١٤.
(٦) سورة التوبة، الآية: ٧٧.

وهنالك احتمال آخر وهو أن يعبر ذلك عن معادلة غيبية بأن يتم ذلك بتدخل غيبي من السماء في حالة الإصرار على الكفر والضلال. . فالقضية تبدأ من الإختيار الحر للإنسان ولكنها تنتهي بالتدخل الغيبي لله سبحانه.

ولا يمكننا أن ننفي التأثيرات الغيبية للأمور لمجرد أنها لا تقع تحت نطاق «حواسنا». . إذ أن دائرة «الحقيقة» أوسع بكثير من دائرة «الشهود». .

فعدم الإحساس بالشيء لا يدل على عدم وجوده ـ كما سبق البحث في ذلك في فصل «كيف نؤمن بالغيب»؟

وعلى هذا فالله سبحانه يزيد المهتدي هدى بالامداد الغيبي ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1] ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[2].

ويزيد المنافقين مرضا:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[3].

ويختم علىٰ قلوب الكافرين وسمعهم.

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾.

إلا أن ذلك ـ أيضاً ـ كسابقة لا يعفيهم من استحقاق المؤاخذة. . لأن ذلك كان بسوء اختيارهم وعنادهم وإصرارهم على الضلال والإنحراف. . و«ما بالاختيار لا ينافي الإختيار».

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢.

(٢) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠.

وفي توجيه عدم المنافات بين الختم على القلوب والاختيار الحر للإنسان هنالك أقوال أخرى:

١ ـ إنه يكفي في حسن الإضافة أدنى ملابسة، والشيطان هو الذي ختم على قلوبهم في الحقيقة، أو الكافر نفسه، لكن باعتبار أن الله تعالى هو الذي أقدر الشيطان أو الكافر على ذلك أسند إليه الختم، ومن المتعارف أن يسند الفعل إلى السبب لا المباشر، فنقول: (فتح الملك المدينة الفلانية) مع أن الذي فتحها هو (الجيش) وعليه جرى قوله سبحانه وتعالى ﴿يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾[1].. وفي علم البلاغة ـ في موضوع المجاز في الاسناد ـ بحث طويل متعلق المقام فليراج[2].

٢ ـ إنهم لما اعرضوا عن التدبر ولم يصغوا إلى الذكر وكان ذلك عند إيراد الله سبحانه وتعالى الدلائل والآيات أضيف ما فعلوا إلى الله تعالى، لأن حدوثه إنما اتفق عند إيراده تعالى الدلائل عليهم كقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾[3] أي ازدادوا عندها كفراً إلى كفرهم.

٣ ـ إنهم بلغوا في الكفر إلى حيث لم يبق طريق إلى حصول الإيمان لهم إلا بالقسر والإلجاء، إلا أن الله تعالى ما أكرههم على ذلك، لئلا يبطل التكليف، فعبر عن ترك القسر والالتجاء بـ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، كما نقول «افسد الأب ابنه» إذا تركه وشأنه..

ولا يخفى الفرق بين ما ذكر في المثال وما نحن فيه، إذ لا حق للاب

(١) سورة غافر، الآية: ٣٦.

(٢) راجع المطول والمختصر وجواهر البلاغة وغيرها من الكتب البلاغية.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٥.

أن يترك ابنه وشأنه، لأنه مكلف باصلاح امره، وهذا بخلاف ما نحن فيه، إذ الدنيا محل اختيار، ولا يتم الاختبار إلا بترك الإنسان وشأنه ليختار ـ بدون أي قسر ـ طريقه ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1].

٤ ـ الختم في الآية الكريم بمعنى الشهادة أي شهد عليها بأنها لا تقبل الحق، تقول (أراك تختم على كل ما يقول فلان) أي تشهد به وتصدقه، وذلك مسوق علىٰ نحو الاستعارة.

٥ ـ معنى الختم في الآية أن الله تعالى طبع فيها أثراً للذنوب، كالسمة والعلامة، لتعرفها الملائكة، فيتبرءوا منهم، ولا يستغفروا لهم مع استغفارهم للمؤمنين، كما أن الله تعالى يكتب في قلب المؤمن الإيمان ويعلم عليه علامة تعلم الملائكة بها أنه مؤمن فيدعون له ويستغفرون له. وتؤيد المنحى العام لهذا التفسير رواية طويلة مروية عن الإمام العسكري عليه السلام[2].

منافذ المعرفة

يمكن أن يستفاد من قوله تعالى ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ إن للإيمان بالله تعالى ـ عادة ـ طرقاً ثلاثة:

١ ـ الإيمان عن طريق «العقل»

وذلك بأن يستخدم الإنسان عقله.. وينتقل من وجود المسبب إلى وجود السبب، ومن وجود الممكن إلى وجود الواجب.. ويطلق على ذلك «الدليل الآنّي» ـ أي الانتقال من وجود المعلول إلى وجود العلة.

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٣.

(٢) راجع: البرهان ـ ج١، ص٥٨ ـ ٢٩ (ط الوفاء).

ولا يتوقف هذا الطريق على استخدام «السمع» و«البصر» إذ لو فرضنا شخصاً فاقداً لكل الحواس منقطع الاتصال بالعالم الخارجي تماماً. . فإن بإمكانه أن يصل إلى الله تعالى عن طريق التدبر والتفكير. . إذ أن وجوده ليس مستمداً من ذاته. . فيكون ممكنا. . وحيث أن ما بالغير لا بد أن ينتهي إلى ما بالذات فلا بد له أن ينتهي إلى الواجب وهو الله تعالى.

هذا مضافاً إلى ما ذكروه من إمكان الاستدلال بالوجود على الوجوب. . وهو ما يسمى بـ«برهان الصديقين» فلا حاجة إلى لحاظ المسبب لاثبات وجود السبب مطلقاً. .

ولعله إلى ذلك أشير في دعاء عرفة، حيث ورد فيه:

«كيف يستدل عليه بما هو في وجوده مفتقر إليك. أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك. . ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك»[١] فتأمل.

٢ ـ الإيمان عن طريق «السمع»..

وذلك بالاستماع إلى «الحجة الظاهرة» وهم الأنبياء والرسل والأئمة ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ والوصول عبر ذلك إلى الله سبحانه. .

٣ ـ الإيمان عن طريق «البصر»

وذلك بمشاهدة مخلوقات الله سبحانه. . وما اودعه الله فيها من دقيق الصنع ولطيف التأليف. . والانتقال منها إلى الله سبحانه.

---

(١) راجع: «مفاتيح الجنان» و«الدعاء والزيارة» في «دعاء عرفة».

وقد توصل الكثير من العلماء إلى الله تعالى.. عن طريق مشاهدة «الآيات الافاقية» و«الآيات الانفسية» كما قال سبحانه ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1]...

هذه هي المنافذ الطبيعية للمعرفة.. ولكن هذه المجموعة سدت كل منافذ المعرفة فلم يعد بإمكانها الوصول إلى الله سبحانه.

أما عقولهم فقد ختم الله عليهم بكفرهم..

وأما سمعهم فقد طبع الله عليه.

وأما أبصارهم فقد أسدت عليها غشاوة سميكة فلم يعد بإمكانها الرؤية أبداً..

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾.. فكيف يستطيع هؤلاء الوصول إلى طريق الهدى والإيمان؟!

ملاحظة

نلاحظ في الآية الكريمة وحدة «السمع» وجمع «الأبصار» فما هو السبب في ذلك؟

والجواب على ذلك من وجوه:

١ ـ إن السمع مصدر في أصله، والمصادر لا تجمع لأنها تدل على القليل والكثير فلا حاجة إلى جمعها، فلوحظ الأصل في ذلك، ولعدم وجود هذه المناسبة جمع «الاذن» في قوله تعالى ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

٢ ـ إن السمع اسم جنس، ويستوي في اسم الجنس المفرد والجمع، كما في قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾[(١)] أي أطفالا.

٣ ـ إن الإدراكات القلبية والمشاهدات العينية تزيد بكثير على المسموعات، والفيزياء الحديثة تقول: إن الأمواج الصوتية المسموعة معدودة لا تتجاوز عشرات الآلاف، بينما أمواج النور والألوان المرئية تزيد على الملايين[(٢)].

وهذا الوجه (الثالث) يمكن أن يكون جواباً للسؤال عن سبب تقديم «السمع» على «الأبصار» في أكثر من (١٧) موضعاً من القرآن الكريم، منها هذه الآية الكريمة.. هذا مضافاً إلى ما ذكره علماء الفسيولوجيا والتشريح من أن جهاز السمع أرقى وأعقد وأدق وأرهف من جهاز الأبصار. ويمتاز عليه بإدراك المجردات.. وادراك التداخل[(٣)].

ورايات المقام

١ ـ عن أبي عمرو الزبيري، عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له: أخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله عزَّ وجل: قال الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه: فمنها كفر الجحود والجحود على وجهين، والكفر بترك ما أمر الله، وكفر البرائة، وكفر النعم، فأما كفر الجحود فهو الجحود بالربوبية وهو قول من يقول لا رب ولا جنة ولا نار وهو قول صنفين من الزنادقة يقال لهم الدهرية وهم الذين يقولون «وما يهلكنا إلا

---

(١) سورة الحج، الآية: ٥.

(٢) الأمثل ج١، ص٧٣.

(٣) القرآن محاولة لفهم عصري ص٢٤٧ (ط٥).

الدهر» وهو دين وضعوه لأنفسهم بالاستحسان منهم على غير تثبت منهم ولا تحقيق بشيء مما يقولون قال الله عزَّ وجلّ ﴿يَظُنُّونَ﴾ ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ إن ذلك كما يقولون وقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ يعني بتوحيد الله فهذا أحد وجوه الكفر.

وأما الوجه الآخر من الجحود على معرفة؛ وهو أن يجحد الجاحد وهو يعلم أنه حق قد استقر عنده وقد قال الله عز وجل: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1]. وقال الله عز وجل: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2] فهذا تفسير وجهي الجحود.

والوجه الثالث من الكفر؛ كفر النعم وذلك قوله تعالى يحكى قول سليمان ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾[3] وقال ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾[4] وقال ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ۝١٥٢﴾[5].

والوجه الرابع من الكفر؛ ترك ما أمر الله عزَّ وجلَّ به، وهو قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝٨٤ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٩.
(٣) سورة النمل، الآية: ٤٠.
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٧.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.

وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ فكفرهم بترك ما أمر الله عزَّ وجل به ونسبهم إلى الإيمان ولم يقبله منهم ولم ينفعهم عنده فقال: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

والوجه الخامس من الكفر؛ كفر البراءة وذلك قول الله عز وجل يحكي قول إبراهيم عليه السلام: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[2] يعني تبرأنا منكم وقال يذكر إبليس وتبرءه من أوليائه من الانس يوم القيامة ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ﴾[3] وقال ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾[4] يعني يبرء بعضكم من البعض[5].

٢ ـ عن إبراهيم بن أبي محمود، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزَّ وجل: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ﴾ قال الختم هو الطبع على قلوب الكفار عقوبة على كفرهم، كما قال الله عزَّ وجل ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[6].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٥.
(٢) سورة الممتحنة، الآية: ٤.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٢٥.
(٥) البرهان ج١، ص٥٧، ص٥٨، (ط. مؤسسة الوفاء).
(٦) البرهان ج١، ص٥٨.

٣ ـ في كتاب الإحتجاج للطبرسي رحمه الله باسناده إلى أبي محمد العسكري عليه السلام أنه قال في قوله تعالى ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ أي وسمها بسمة يعرفها من يشاء من ملائكته إذا نظروا إليها بأنهم لا يؤمنون ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ كذلك سماة ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ وذلك أنهم لما أعرضوا عن النظر فيما كلفوه، وقصروا فيما أريد منهم جهلوا ما لزمهم من الإيمان فصاروا كمن على عينيه غطاء لا يبصر ما أمامه، فإن الله عزَّ وجلَّ يتعالى عن العبث والفساد، وعن مطالبة العباد بما منعهم بالقهر منه، فلا يأمرهم بمغالبته، ولا بالمصير إلى ما قد صدهم بالقسر عنه ثم قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني في الآخرة العذاب المعد للكافرين وفي الدنيا أيضاً لمن يريد أن يستصلحه بما ينزل به من عذاب الاستصلاح، لينبهه لطاعته أو من عذاب الاصطلام ليصيره إلى عدله وحكمته[١].

(١) نور الثقلين ج١، ص٣٢.

الآيات

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾[1].

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[2].

﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٩.

(٣) سورة البقرة: الآية: ١١.

المفردات

﴿ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرِ﴾: يوم القيامة، وإنما سمي اخراً لأنه يوم لا يوم بعده ـ إذ ليس بعده ليلة وإنما تتعدد الأيام بتعدد الليالي فإذا لم تكن ثمة ليلة فلا تعدد في اليوم ـ أو لأنه متأخر عن أيام الدنيا.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾: يفعلون معه فعل المخادع الذي يظهر ما لا يريده، ويريد ما لا يظهره، أو يخادعون بزعمهم ويظنون أنهم قادرون على خداعه، وأصل الكلمة بمعنى اخفاء الشيء مع إيهام غيره ومنه (مخدع البيت) للمكان الذي يحرز فيه الشيء.

﴿مَّرَضٌ﴾ المرض العلة في البدن، وتطلق الكلمة على اعتلال الروح وخروجها عن حد الاعتدال أيضاً.

﴿أَلِيمٌۢ﴾: مؤلم موجع.

﴿يُكَذِّبُونَ﴾: الكذب هو الأخبار عن الشيء بما لا يطابق الواقع، وقد يطلق على العمل الذي لا يطابق ظاهره الواقع أيضاً.

الإعراب

«الباء» في قوله تعالى ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ يطلق عليها الباء الزائدة

وتأتي في خبر «ما» ـ ونظائرها ـ لتأكيد النفي، فـ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ يفيد تأكيد نفي الإيمان عنهم، بما لا يفيده قولنا «ما هم مؤمنين».

و«ما» في قوله تعالى ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ مصدرية، تؤول مع ما بعدها بالمصادر، فيكون معنى الآية الكريمة (ولهم عذاب أليم بسبب كذبهم في ادعائهم الإيمان بالله واليوم الآخر).

النزول

قيل: إن الآية الكريمة نزلت في منافقي أهل الكتاب، ومنهم عبد الله ابن أبي، ومعتب بن قشير، وجدا بن قيس، وكانوا إذا لقوا المؤمنين يظهرون الإيمان والتصديق، ويقولون: إنا لنجد في كتابنا نعته وصفته (أي النبي ﷺ)، وإذا خلا بعضهم ببعض قالوا: أنا معكم، إنما نحن مستهزئون!

وقيل: إنها نزلت في مجموعة من أحبار اليهود ومنافقي الأوس والخزرج.

وعن علي بن إبراهيم: أنها نزلت في قوم منافقين، اظهروا لرسول الله ﷺ الإسلام، فكانوا إذا رأوا الكفار قالوا إنا معكم وإذا لقوا المؤمنين قالوا نحن مؤمنون، وكانوا يقولون للكفار ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ فرد الله عليهم ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1].

والتعميم هو الأنسب بسياق الآيات المباركات.

---

(١) البرهان ج١، ص٥٩ (ط الوفاء).

مدخل

بعد أن استعرض القرآن الكريم موقف المجموعة الأولى (وهم المتقون) والمجموعة الثانية (وهم الكافرون) يستعرض موقف المجموعة الثالثة وهم (المنافقون).

والمنافقون من الناحية الاصطلاحية عبارة عن الذين أظهروا الإسلام وابطنوا الكفر.

فالمنافقون هم في الواقع ذوو شخصية مزدوجة، ظاهرهم كسائر المسلمين، يتشهدون الشهادتين بألسنتهم، ويؤدون الفرائض الدينية بجوارحهم، إلا أن قلوبهم تحتوي على الكفر والإنكار للمبادىء التي يقوم على أساسها هذا الدين.

ألوان من المنافق

وهذا الكفر ـ الذي ينطوي عليه قلب المنافق ـ قد يكون في صورة إنكار، وقد يكون في صورة شك، وقد يكون في صورة (عرفان غير مصحوب بالاذعان). . وقد سبق أن المعرفة تختلف عن الإذعان في تفسير قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ ففي جميع هذه الصور إذا أظهر الإنسان الإيمان يعتبر «منافقاً».. وتجري عليه أحكام المنافقين.

وهذا ما يمكن أن نستفيد من قوله تعالى ﴿وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ إذ أن الإيمان نور في القلب.. ولا يخلو القلب من أن يضم بين طياته هذا النور أو لا.. ولا توجد هنالك حالة ثالثة.. إذ ليس هنالك وراء النقيضين شيء.. فالقلب الذي لا يحتوي على نور الإيمان مع تظاهر صاحبه بالايمان يعتبر

منافقاً.. سواء كان «انتفاء الإيمان» بسبب الإنكار أو بسبب الشك، أو بسبب العرفان غير المصحوب بالإذعان.. في جميع هذه الصور الثلاث يتحقق قوله تعالى ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.. وينطبق على أصحابه عنوان «المنافقين».

وقد ضم المنافقون بالاضافة إلى رذيلة (الكفر) رذيلة (الجبن) ورذيلة (الكذب). . إذ لم تكن لديهم الشجاعة الكافية لإظهار عقائدهم. . كما اتسموا بصفة (الكذب) حينما ظهروا للناس في صورة زائفة تختلف عن صورتهم الحقيقية. . وحين قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾. فالنفاق في الواقع مجمع لمجموعة من الرذائل والسيئات الكبيرة.

اهتمام القرآن بظاهرة النفاق

وقد كان «المنافقون» يشكلون شريحة واسعة من المجتمع. . وكانوا يخططون ـ من الداخل ـ لضرب الإسلام كما كان الكفار يخططون ـ من الخارج ـ لضرب هذا الدين. . وقد اهتم القرآن الكريم بتسليط الأضواء عليهم اهتماماً كبيراً. وذلك لما يمثلونه من الخطر الداهم على الأمة حتى قال الله سبحانه فيهم ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾(1).

ويمكننا أن نتلمس مدى اهتمام القرآن الكريم بظاهرة «النفاق» من خلال معرفة عدد الآيات التي نزلت في المنافقين. وهذه الآيات ـ على ما ذكره بعض الباحثين ـ هي كالتالي:

سورة البقرة: من ٨ إلى ٢٠، ٧٦ ـ ٧٧، من ٢٠٤ إلى ٢٠٦.

---

(١) سورة المنافقون، الآية: ٤.

سورة آل عمران: ٧٢ ـ ٩٠ ـ ٩١، من ٨٦ إلى ٨٩، ١١٨ ـ ١١٩ ـ ١٤٤ ـ ١٥٤، من ١٥٦ إلى ١٥٨، ١٦٧ ـ ١٦٨، من ١٧٥ إلى ١٧٩.

سورة النساء: ٣٨ ـ ٣٩، من ٦٠ إلى ٦٨، من ٧٢ ـ ٧٦، من ٧٨ إلى ٨٢، من ٨٨ إلى ٩١، من ١٠٥ إلى ١١٥، من ١٣٧ إلى ١٤٧.

سورة المائدة: ٤١، من ٥١ إلى ٥٣، من ٥٧ إلى ٦٢.

سورة الأنفال: ٣٧ ـ ٤٩ ـ ٦٠.

سورة التوبة: من ٤١ إلى ١١٠، من ١٢٣ إلى ١٢٧.

سورة الحج: من ١١ إلى ١٣.

سورة النور: من ٢٣ إلى ٢٥، من ٤٧ إلى ٥٠، ٦٣ ـ ٦٤، من ١١ إلى ٢١.

سورة العنكبوت: ١٠ ـ ١١.

سورة الأحزاب: من ١٢ إلى ٢٠، ٢٤ ـ ٤٨ ـ ٥٧ ـ ٥٨، من ٦٠ إلى ٦٢، ٧٣.

سورة محمد: من ١٥ إلى ٣٠.

سورة الفتح: ٦ ـ ١١ ـ ١٢ ـ ١٥ ـ ١٦.

سورة الحديد: ١٣ إلى ١٥.

سورة المجادلة: ٨ ـ ١٠ ـ ١٤ ـ ١٦ ـ ١٧.

سورة الحشر: من ١١ إلى ٢٠.

سورة المنافقون: من ١ إلى ١١.

سورة المدثر: ٣١.

سورة الماعون: من ٤ إلى ٧.

سورة التحريم: ٩.

وكما يمكننا أن نتلمس ـ في هذه الآيات ـ مدى اهتمام القرآن الكريم بظاهرة «النفاق».

حيث أن الله تعالى ابتدأ بذكر المتقين في أربع آيات ثم ثنى بذكر الكفار في آيتين ثم ثلث بذكر المنافقين في ثلاث عشرة آية.

قال الرازي: «إن كثرة الإقتصاص بخبرهم تدل على أن الاهتمام بدفع شرهم أشد من الاهتمام بدفع شر الكفار، وذلك يدل على أنهم أعظم جرماً من الكفار»[١].

وقال الزمخشري: «وكانوا (أي المنافقين) أخبث الكفرة وأبغضهم وأمقتهم عنده لأنهم خلطوا بالكفر تمويهاً وتدليساً، وبالشرك استهزاءاً وخداعاً، ولذلك أنزل الله فيهم ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[٢] ووصف حال الذين كفروا في آيتين وحال الذين نافقوا في ثلاث عشرة آية، نعى عليهم فيها خبثهم ومكرهم، وفضحهم وسفههم، واستجهلهم واستهزأ بهم وتهكم بفعلهم، وسجل بطغيانهم وعمههم، ودعاهم صماً بكماً عمياً، وضرب لهم الأمثال الشنيعة»[٣].

---

(١) التفسير الكبير ج٢، ص٦٧ (ط دار الفكر).

(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٥.

(٣) الكشاف ج١، ص١٦٥ (ط دار المعرفة).

التفسير

الآية الأولى من هذه الآيات تتعرض إلى ازدواجية الشخصية عند المنافقين فتقول: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾..

المؤمنون «يؤمنون» بالله وباليوم الآخر، ولكن المنافقين «يقولون»: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾..

إنها ألفاظ تجري على اللسان.. ولكن دون أن تكون منبعثة عن إيمان قلبي حقيقي..

ولم يكن هؤلاء المنافقون يكتفون بادعاء الإيمان بالله وباليوم الآخر.. وإنما كانوا يؤكدون ايمانهم أيضاً.. كما يقتضيه تكرار الباء في قوله تعالى ﴿وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.. وهذه هي طبيعة المنافق، حيث أن إحساسه بكذب ادعاءاته يدفعه إلى المزيد من التظاهر والمزيد من التأكيد..

ولكن الله تعالى يجبههم بالحقيقة المرة.. بحقيقة واقعهم الخاوي من الإيمان فيقول.. ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

كذب المنافقين في ادعاءاتهم:

وقد تقول: إن المنافقين كانوا مؤمنين بالله وباليوم الآخر منتهى الأمر إنهم كانوا ينكرون نبوة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، فلم كذبهم الله سبحانه في ادعائهم الإيمان بالله وباليوم الآخر؟

والجواب على ذلك من وجهين:

الوجه الأول: ان هؤلاء المنافقين كانوا يدعون «تطابق» ايمانهم مع

إيمان المسلمين.. أي أنهم يعتقدون بنفس الاله الذي يعتقد به المسلمون، وبنفس اليوم الآخر الذي يؤمن به المسلمون.

في الوقت الذي كانوا يؤمنون بـ«اله اخر». . إله له شركاء. . أو إله اتخذ عزيراً ابنا. . أو إله اتخذ المسيح ابنا. . أو إله اهمل البشرية فلم يبعث إليهم محمداً ﷺ نبياً. . وهذا الإله ليس هو «الإله» الذي يعتقد به المسلمون. . بل هو ليس «إلهاً» أبداً. . وليس خالقاً مطلقاً. . بل هو مخلوق ادمغتهم المنحرفة. . فهو مخلوق المخلوق. . فكيف يكون إلهاً؟ وكيف يكون خالقاً؟

ومثل هذا الكلام يجري في ادعائهم الإيمان باليوم الآخر. . إذ الكثير منهم لا يكونوا يؤمنون بالمعاد. . والذين كانوا يعتقدون بهم فهم كانوا يعتقدون بمعاد آخر. . معاد ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[1] ومعاد ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾[2]..الى آخره.

وهذا «المعاد» ليس هو المعاد الذي يعتقد به المسلمون. .

وهذا الوجه في واقعه ينحل إلى وجهين:

الوجه الأول:

١ ـ ان سلب الإيمان عنهم باعتبار كذبهم في دعوى التطابق بين إيمانهم وإيمان المسلمين. .

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١١١.

٢ ـ إن سلب الإيمان عنهم باعتبار دعواهم الإيمان بـ«الله» بينما الذي كانوا يؤمنون به ليس هو «الله». . وإنما هو صورة ذهنية اختلقوها دون أن تتطابق مع الحقيقة الخراجية أبداً[١]. . ومن المقرر في محله أن واقعية الشيء بكونه هو هو بالحمل الشايع الصناعي، لا بكونه هو هو بالحمل الأولي الذاتي، ونظير هذا الكلام يجري في دعواهم الإيمان باليوم الآخر أيضاً.

الوجه الثاني:

إن الايمان الحقيقي هو الإيمان الذي تترتب عليه آثاره. . وذلك لأن الإيمان الحقيقي هو الإيمان الذي تتوفر فيه الخصائص التالية:

الخصيصة الأولى: انكشاف الواقع انكشافاً تاماً، لا تشوبه شائبة ريب أو شك.

الخصيصة الثانية: الإذعان لهذه الحقيقة المنكشفة.

الخصيصة الثالثة:الجري العملي وفق ذلك الإنكشاف.

وإذا لم يكن جري عملي وفق الإنكشاف. . فيمكن لنا أن ننفي الانكشاف بالمرة. . إذ أثر الإنكشاف الجري العملي. . فإذا لم يكن جري فكأنه لا انكشاف. . فمن رأى الأسد وعلم بوجوده ثم لم يهرب منه. . فكأنه لم يعلم بوجود الأسد. . إذ أنه والجاهل بذلك سواء من ناحية الموقف العملي.

---

(١) نظير المقام ما روي عن الإمام الرضا عليه السلام في جواب الرجل المسيحي: من أنا نؤمن بعيسى الذي بشر بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ولا نؤمن بعيسى الذي لم يبشر به.

ومن علم أن هذا سم قاتل ثم شربه فكأنه لم يعلم بأنه سم قاتل. . وهكذا وهلم جرا.

وهؤلاء المنافقون لو كانوا مؤمنين حقاً بالله وباليوم الآخر لما كفروا برسالة النبي ﷺ مع وضوح البراهين الدالة على نبوته. . ولما أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها. . ولما سعوا وراء اهوائهم وشهواتهم الفانية. .

فالقرآن الكريم يريد أن يقول لنا؛ أن هؤلاء ليسوا بمؤمنين ـ حقيقة ـ بالله ولا باليوم الآخر. . وإلا لجروا وفق هذا الايمان والاعتقاد.

ويبقىٰ هنا سؤال أشار إليه في الكشاف بقوله: فإن قلت: فلم جاء الإيمان مطلقاً في الثاني وهو مقيد في الأول؟ وأجاب عنه بقوله: «يحتمل أن يراد التقييد ويترك لدلالة المذكور عليه، وإن يراد بالاطلاق أنهم ليسوا من الإيمان في شيء قط، لا من الإيمان بالله وباليوم الآخر ولا من الإيمان بغيرهما»[1].

والوجه الثاني؛ وإن كان أشمل في النفي كما تقول عمن ادعى أنه عالم بالمنطق (أنه لا يعلم شيئاً أبداً) إلا أن الأوفق بالسياق هو الأول. . ويمكن ادعاء استلزام الوجه الثاني للأول. . لأن الإيمان بالله وباليوم الآخر أصل. . والإيمان بسائر الأمور متفرع عليهما. . فإذا نفي الإيمان بالله وباليوم الآخر فقد نفي ما عداهما بالطبع. . فتأمل.

---

(١) الكشاف ج١، ص١٧٠.

ما يستهدفه المنافقون:

ولكن: ما هي بواعث هذه الإزدواجية؟ وما هي المنطلقات التي ينطلق منها المنافقون في موقعهم هذا؟

إن الآية التالية تكشف عن أن محاولة (خداع) المؤمنين هي الباعث وراء المنافق، إن المنافقين يحاولون أن يخدعوا المؤمنين لكي يحققوا أغراضهم وينالوا بعض المكاسب والامتيازات الظاهرية.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

وحيث أن المؤمنين يمثلون الخط الصحيح الذي أراده الله تعالى في الحياة لذا تكون محاولة خداعهم في حكم محاولة خداع الله سبحانه.

ومن هنا كانت الآية ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

وفي ذلك تسلية للمؤمنين لئلا يثقل تحمل الأمر عليهم، كما أن في ذلك تشريفاً لهم أيضاً، كما ذكروا نظيره في قوله تعالى ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾(١).

حيث أن سهم الله تعالى يتعلق بالرسول ﷺ، ولكن مع ذلك أدخل الله نفسه تشريفاً للرسول ﷺ ولذي القربى وتكريماً لهم(٢).

قال في الظلال: «وفي هذا النص وأمثاله نقف أمام حقيقة كبيرة وأمام تفضل من الله كريم. . تلك الحقيقة هي التي يؤكدها القرآن دائماً

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤١.

(٢) قال السيد الوالد دام ظله: (قد ادخل نفسه تشريفاً لأصحاب الخمس كما أنه تعالى ذكر أنه هو الذي يأخذ الصدقات تحريضاً للمعطين) (الفقه ج٣٢، ص٣٨١ (ط دار العلوم ـ بيروت).

ويقررها، وهي حقيقة الصلة بين الله والمؤمنين. إنه يجعل صفهم صفه، وأمرهم أمره، وشأنهم شأنه، يضمهم سبحانه إليه، ويأخذهم في كنفه.. ويجعل عدوهم عدوه، وما يوجه إليهم من مكر موجهاً إليه ـ سبحانه ـ وهذا هو التفضل العلوي الكبير.. التفضل الذي يرفع مقام المؤمنين وحقيقتهم إلى هذا المستوى السامق، والذي يوحي بأن حقيقة الإيمان في هذا الوجود هي أكبر وأكرم الحقائق، والذي يسكب في قلب المؤمن طمؤنينة لا حد لها، وهو يرى الله جل شأنه يجعل قضيته هي قضيته، ومعركته هي معركته، وعدوه هو عدوه، ويأخذه في صفه، ويرفعه إلى جواره الكريم.. فماذا يكون العبيد وكيدهم وخداعهم واذاهم الصغير؟

«وهو في ذات الوقت تهديد رعيب للذين حاولون خداع المؤمنين والمكر بهم، وايصال الأذى إليهم. تهديد لهم بأن معركتهم ليست مع المؤمنين وحدهم، وإنما هي مع الله القوي الجبار القهار. وإنهم إنما يحاربون الله حين يحاربون أولياءه، وإنما يتصدون لنقمة الله حين يحاولون هذه المحاولة اللئيمة.

«وهذه الحقيقة من جانبيها جديرة بأن يتدبرها المؤمنون ليطمئنوا ويثبتوا ويمضوا في طريقهم لا يبالون كيد الكائدين، ولا خداع الخادعين، ولا أذى الشريرين، ويتدبرها أعداء المؤمنين فيفزعوا ويرتاعوا ويعرفوا من الذي يحاربونه ويتصدون لنقمته حين يتصدون للمؤمنين(١).

وهنالك احتمالات اخر تتضح من ما يأتي إن شاء الله تعالى.

---

(١) في ظلال القرآن ج١، ص٤٣.

معنى «المخادعة»:

وحيث أن (الخداع) من جانب واحد.. وهو جانب المنافقين.. حيث أنهم هم الذين يحاولون خداع المؤمنين.. فقد كان المفروض أن تكون العبارة ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.. وإنما عدل عن ذلك إلى «يخادعون» للدلالة على تكرار صدور هذا العمل منهم[1] أو لما ذكره صاحب الكشاف بقوله: «عنى به فعلت، إلا أنه أخرج في زنة فاعلت لأن الزنة في أصلها للمغالبة والمباراة[2]، والفعل متى غولب فيه فاعله جاء أبلغ وأحكم منه إذا زاوله وحده من غير مغالب ولا مبار، لزيادة قوة الداعي إليه، ويعضده قراءة من قرأ ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[3].

وقيل: إن المفاعلة قد تقع من جانب واحد، كقولهم: (عافاه الله) و(عاقبت اللص) و(طابقت النعل)، فكذلك (يخادعون) إنما هو من جانب واحد فتأمل.

وهنالك رأي ثالث يبقي الكلمة على أصلها، فيرى أن المخادعة من الطرفين، وذلك بتقريب: أن صورة صنعهم مع الله ـ حيث يتظاهرون بالإيمان وهم كافرون ـ صورة صنع المخادعين، وصورة صنع الله معهم ـ

---

(١) مواهب الرحمن ـ ج١، ص٨٩ (ط٢) وقد ذكر المؤلف قدس سره أن كون الأصل في صيغ المفاعلة صدور الفعل من الطرفين غير صحيح بل صيغة المفاعلة تدل على أنه الفعل إلى الغير واقعاً، أو اعتقاداً، وأما أن الغير يفعل مثل ذلك بالنسبة إلى الفاعل الأول فهو غير مأخوذ فيها، فقد يكون وقد لا يكون ـ ثم قال: وإنما ذكرت المخادعة لبيان أن هذا العمل يتكرر عنهم (المصدر).

(٢) المعارضة وأن يعمل مثل فعل صاحبه ليغلبه، وحينئذ يقوى الداعي إلى الفعل ويجيء أبلغ واحكم.

(٣) الكشاف ج١، ص١٧٣، (ط دار المعرفة).

حيث أمر باجراء أحكام المسلمين عليهم وهم عنده في عداد شرار الكفرة وأهل الدرك الأسفل من النار ـ صورة صنع الخادع، وكذلك صورة صنع المؤمنين معهم، حيث امتثلوا أمر الله فيهم فأجروا أحكام المؤمنين عليهم . .

ورأي رابع: يرى أن ذلك ترجمة عن معتقدهم وظنهم أن الله ممن يصح خداعه، وذلك لأن من كان ادعاؤه بالله نفاقاً لم يكن عارفاً بالله ولا بصفاته، ولا أن لذاته تعلقاً بكل معلوم، ولا أنه غني عن فعل القبائح، فلم يبعد من مثله تجويز أن يكون الله في زعمه مخدوعاً ومصاباً بالمكروه من وجه خفي، وتجويز أن يدلس على عباده ويخدعهم ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً ـ. وقد يقرر هذا الوجه بنحو آخر وهو أن المنافقين كانوا يعتقدون ـ لعمى بصيرتهم ـ أن النبي ﷺ خداع توسل بالدين والنبوة وجمع حوله السذج من الناس ليكون له حكم وسلطان، ومن هنا راح المنافقون يتوسلون بالخدعة لمقابلة خدعة النبي ﷺ حاشاه ثم حاشاه ـ فالتعبير القرآني المذكور يوضح إذا لجوء المنافقين إلى الخدعة، ويبين كذلك نظرة هؤلاء الخاطئة إلى النبي الأعظم ﷺ، ولكن الآية الكريمة ترد على هؤلاء وتقول: أن الخداع من جانب المنافقين فقط ـ كما هو ظاهر كلمة «يخدعون» في المقطع التالي من الآية الكريمة[1].

من هو المخدوع:

ولكن: من هو المخدوع في البين؟

يجيب القرآن الكريم على ذلك بقوله:

---

(١) الأمثل ـ ج١، ص٨٢.

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾.

لماذا؟

لأنهم هم الذين يتضررون بهذا العمل في الوقت الذي أرادوا فيه النفع لأنفسهم.. ولا يتضرر الله ولا المؤمنون بذلك..

وقد روي عن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال.. في حديث:

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ ما يضرون بتلك الخدعة إلا أنفسهم، فإن الله غني عنهم وعن نصرتهم[١].

إن مثلهم كمثل مريض يتظاهر بشرب الدواء محاولاً خداع الطبيب بذلك.. ولكنه لا يشرب الدواء في الحقيقة.. فمن هو المتضرر في الواقع؟ الطبيب أم نفس المريض؟

أو كظمآن يتظاهر بشرب الماء ولا يشربه..

أو كجائع ينظاهر بأكل الطعام ولا يتناوله..

وهكذا..

إن الإيمان الحقيقي: ضمان للسعادة في الدنيا وللسعادة في الآخرة.. لكن هذه السعادة إنما تترتب على «واقع» الإيمان.. لا على «لفظ الإيمان» كما أن الارتواء يترتب على «واقع» الماء.. لا على «لفظ الماء» فإذا رفع الشخص «شعارات» الإيمان ليخدع بذلك الآخرين.. ولم يحمل بين جوانحه «واقع» الإيمان.. فإنه هو المخدوع.. وسوف يخسر سعادته في الدنيا والآخرة..

---

(١) البرهان ج١، ص٦٠.

وهنالك وجه ثان ذكره بعض المفسرين في ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ وهو: إن الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن، وأما من عرف البواطن فمن دخل معه في الخداع فإنما يخدع نفسه، ومن هنا قيل (من خدع من لا يخدع فإنما خدع نفسه).

ولكن لا يشعرون:

ولكن هل يشعر هؤلاء المنافقون بأنهم هم المخدوعون. . ؟

يجيب القرآن الكريم على ذلك بقوله:

﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

لقد سلبهم الله القدرة على التمييز ـ نتيجة تماديهم في الضلال والانحراف ـ فلم يعودوا يشعرون بالهاوية التي ينحدرون نحوها. .

وإنما قال القرآن الكريم ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ ولم يقل ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أو ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ لأن هنالك أُموراً غامضة نحتاج إلى اكتشافها إلى امعان النظر والتأمل العميق. . ويطلق على هذه القضايا (القضايا النظرية). . كبعض القواعد الفلسفية المعقدة. .

ولكن هنالك قضايا واضحة لا نحتاج في اكتشافها إلا إلى بصيرة نقية ووجدان متفتح. . ويطلق عليها (القضايا البديهية). .

المنافق يفقد على أثر تماديه في الإنحراف. . لا فقط تعقله. . وإنما حتى شعوره. . فحتى القضايا البديهية التي لا تحتاج إلى التأمل العميق ولا يعود المنافق يفهمها. .

قال الرازي ـ تبعاً للزمخشري:

(الشعور علم الشيء إذا حصل بالحس، ومشاعر الإنسان حواسه،

والمعنى أن لحوق ضرر ذلك بهم كالمحسوس، لكنهم لتماديهم في الغفلة كالذي لا يحس)[1] فتأمل.

وقيل: إن أصل (الشعور) هو الإحساس بالشيء من جهة تدق، ومنه اشتق (الشعر) حيث أن الشاعر يفطن لما يدق من المعاني والأوزان، لا يتفطن لها غيره..

ثم لا يخفى أن الآثار الوضعية للضلال.. لا ترتبط بالعلم والجهل.. فإنها تترتب قهراً.. سواء شعر الضال بها أم لم يشعر..

كما أن المؤاخذة القانونية لا ترتفع بعدم الإحساس هذا لأن الامتناع بالاختيار لا ينافي الإختيار كما سبق ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ﴾[2].

السبب الرئيسي للنفاق:

ولكن: ما هو السبب الرئيسي للنفاق؟

يجيب القرآن الكريم على ذلك بقوله تعالى:

﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾.

فكما أن اختلال عمل الجسد وعدم قيام البدن بوظائفه الطبيعية ينبعث من المرض البدني.. كذلك ازدواجية شخصية المنافقين وانحرافهم السلوكي ينبعث من مرض كامن في قلوبهم.. ونفسية ملتوية يحملها هؤلاء المنافقون أنهم أفراد معقدون.. وهذه العقد النفسية وراء سلوكهم الملتوي هذا..

---

(١) التفسير الكبير ج٢، ص٧٠ وراجع الكشاف ج١، ص١٧٥ ومواهب الرحمن ج١، ص٩١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٧.

ازدياد المرض:

وهذا المرض في ازدياد مستمر.

﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾..

فكما أن طبيعة الأمراض المادية.. الزيادة المستمرة إذا تركت وشأنها ولم تعالج.. وفق معادلات القانون التكويني الذي قرره الله سبحانه في الكون.. كذلك طبيعة الأمراض الروحية.. إنها سوف تتعمق عندما تترك وشأنها.. وفق المعادلات التكوينية التي وضعها الله لشؤون (الروح).. فنسبة زيادة المرض إلى الله سبحانه إنما هو اعتبار أنه هو الذي جعل هذا القانون التكويني..

وهنالك احتمال آخر: يتعلق بمسألة (الكمون والبروز) في النفس الإنسانية.

فالإنسان قد يحمل في داخله «أمراضاً معينة» تكونت لديه على أثر عوامل شتى.. وهذه الأمراض ستبقى مضغوطة في داخله حتى يوجد «المثير» لها فتشتد عندئذ ويستفحل أمرها... وربما يكون «المثير» بذاته عاملاً حسناً.. لكن النفس المريضة تتفاعل تفاعلاً سلبياً مع ذلك العامل، فتستفحل عندئذ أمراضها الروحية أكثر فأكثر..

إن الرجل السليم يهنأ بالطعام السليم.. لكن هذا الطعام ذاته ربما يكون وبالاً على المريض..

والسكريات مادة مفيدة للبدن السوي.. إلا أنها شيء خطير للمصاب بمرض «السكري»..

وهؤلاء المنافقون كانت نفوسهم مريضة من أساسها.. لكن مجيء الرسالة ونزول الوحي كان «مثيراً» لهذه الأمراض الكامنة.. وعاملاً في

استفحال أمرها وبروزها على السطح.. في الوقت الذي كان رحمة وشفاءاً للنفوس السليمة..

ومن هنا يقول الله سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾[1].

ويقول سبحانه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾[2].

ويقول سبحانه ـ حكاية عن النبي نوح عليه السلام: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾[3].

ويقول جلّ وعلا: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾[4].

ويقول تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾[5].

ويقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾[6].

وعلى هذا الاحتمال تكون نسبة زيادة المرض إلى الله سبحانه باعتبار حصولها عند انزاله تعالى الآيات، وبعثه الرسول صلى الله عليه وآله وما تمخض عن ذلك من تفاعلات.. فالسبب القريب لزيادة المرض سوء اختيارهم والسبب البعيد؛ ارسال الرسول صلى الله عليه وآله وانزال الآيات.. والكل ينتهي إلى الله تعالى في سلسلة الأسباب..

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٥.

(٣) سورة نوح، الآية: ٦.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٤٩.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

(٦) سورة فاطر، الآية: ٤٢.

وهنالك وجه ثالث ذكره البعض وهو أن المراد من ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ أن الله وكلهم إلى أنفسهم ومنع عنهم لطفه الخاص، وخذلهم، فزادهم بذلك مرضاً إلى مرضهم.

ووجه رابع وهو: أن يحمل المرض على المرض الجسمي، وذلك أن الإنسان إذا ابتلى بالحسد والنفاق ومشاهدة ما يكره ودام ذلك به فربما سبب ذلك مرض القلب واختلال عمله الطبيعي، وقد زاد الله سبحانه المنافقين مرضاً بما زاد المسلمين من القوة وما أمدهم به من النصرة.

قيل: وحمل اللفظ على هذا الوجه حمل له على حقيقته، فيكون أولى من سائر الوجوه.

لكن هذا الوجه خلاف الظاهر، إذ الظاهر تجانس المرضين وتوافقهما في النوع.. فالأولى حمل المرض الثاني على ما لا يغاير معنى المرض الأول.. فتأمل.

وهنالك وجه خامس ذكره بعض المفسرين وهو أن يكون ذلك على سبيل الدعاء عليهم، فهو كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾[1] إلا أن هذا الاحتمال خلاف الظاهر.. فتأمل.

نتيجة النفاق:

أما نتيجة النفاق فيكشفها القرآن الكريم بقوله:

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾.

وهذا العذاب الأليم كما يشمل الآخرة يشمل الدنيا أيضاً.. فلأنهم

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٧.

يكذبون في دعواهم الإيمان بالله وباليوم الآخر لذا يعيشون في خوف دائم. . الخوف في الفضيحة وانكشاف أمرهم أمام الناس.

إن الشخص لو كذب كذبة واحدة يعيش ألماً مستمراً خوف انكشاف أمره وافتضاحه أمام المجتمع. . فكيف بمن بنى حياته كلها على الكذب والدجل والنفاق؟[1].

هذا مضافاً إلى ما ذكرناه سابقاً من أن السعادة في هذه الحياة تترتب على «واقع» الإيمان، وحيث لم يحمل هؤلاء واقع الإيمان في قلوبهم خسروا السعادة في هذه الدنيا ـ قبل الآخرة ـ.

وقفات: دوافع حركة النفاق

ما هي منطلقات المنافقين في نفاقهم؟ ولماذا انضموا إلى صفوف الدعوة الجديدة، التي لا يؤمنون بها؟ ولماذا حاولوا خداع المؤمنين؟

في الجواب على هذه الأسئلة نقول: إن هذه المنطلقات تتمثل في (الخوف) و(الطمع) و(الأحقاد الدفينة). . و(الظروف الطارئة). . وتفصيل ذلك يتضح ضمن النقاط التالية:

١ ـ الحفاظ على المكاسب الشخصية

هنالك فئة من الناس ترتبط مصالحهم بوضع اجتماعي معين، وعندما يأتي دين جديد ويعمل على تغيير ذلك الوضع الإجتماعي تتعرض مصالح تلك الفئة للخطر. . فتعلن الحرب على الدين الجديد وتحاول سحقه بكل الوسائل والسبل. . وعندما تفشل في مساعيها هذه ويثبت الدين الجديد

---

(١) راجع من هدى القرآن، ج١.

أقدامه في الأرض ويصبح قوة يحسب لها ألف حساب.. تغير هذه الفئة ألوانها وتتظاهر بالانضواء تحت لواء الدين الجديد.. للحفاظ على القدر الممكن من مصالحها المهددة.. في الوقت الذي تتآمر ـ بشكل سري ـ على الدين الجديد وتتربص الدوائر لتوجيه الضربة إليه.

ولنقرأ معاً النموذج التالي:

يُنقل أن النبي ﷺ أردف أُسامة على حماره يعود سعد بن عبادة قبل معركة بدر، فمر على مجلس فيه عبد الله بن أبي قبل إسلامه واخلاط من المسلمين والمشركين واليهود، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر ابن أبي انفه بردائه وقال: لا تغبروا علينا! فسلم رسول الله ﷺ ونزل ودعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم القرآن فقال عبد الله مقالة آذى بها رسول الله ﷺ فلما دخل ﷺ على سعد بن عبادة قال: يا سعد ألم تسمع إلى ما قال أبو الحباب (يريد بن أبي).

فقال: يا رسول الله اعف عنه واصفح فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة(١) أن يعصبوه بالعصابة(٢) فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاكه شرق(٣) بذلك(٤).

ويذكر بعض المؤرخين، أن عبد الله بن أبي ظل مشركاً حتى كتب الله النصر للمسلمين في غزوة بدر فقال «هذا أمر قد توجه» أي ظهر أمره

---

(١) هذه البحيرة: أي هذه المدينة.

(٢) العصابة: العمامة والتعصب كناية عن التسويد، وقيل: كانوا إذا ارادوا أن يملكوا رجلاً توجوه، فإن لم يجدوا تاجاً عصبوه بعصابة مرصعة بجواهر.

(٣) شرق بذلك: لم يقدر على اساغته بل اعترض في حلقه كالماء المعترض في حلق الشارب.

(٤) راجع المتن والهامش من «الكشاف» ج١، ص١٧٦ ـ ١٧٧.

وعلا.. فأظهر الدخول في الإسلام مجاراة لأهل المدينة.. وللحفاظ على ما تبقى من زعامته المعرضة للخطر.

٢ ـــ الإستفادة من الامتيازات التي يوفرها الإيمان

وذلك مثل الغنائم الحربية والعطاء من بيت المال، ونحو ذلك.

وهنالك أفراد كانوا قد علموا من اليهود وامثالهم أنه سوف يبعث هنالك نبي في آخر الزمان.. يصل المؤمنون به إلى مناصب رفيعة، فبادروا إلى الإيمان على أمل الوصول إلى هذا الهدف.

لاحظ الرواية التالية المروية عن سعد بن عبد الله القمي الذي ابتلي بأشد النواصب منازعة، وأطولهم مخاصمة، واكثرهم جدلاً، واشنعهم سؤالاً، واثبتهم على الباطل قدماً» ـ على حد تعبيره ـ.

وقد سأل الرجل الناصبي ذات يوم عن رجلين منافقين من الصحابة: أنهما أسلما في مكة طوعاً أو كرهاً؟ يقول سعد: فاحتلت لدفع هذه المسألة عني، خوفاً من الالزام، وحذراً من أن اقررت لها بطواعيتهما للإسلام احتج بأن بدء النفاق ونشوه في القلب لا يكون إلا عند هبوب روائح القهر والغلبة وإظهار البأس الشديد في حمل المرء على من ليس ينقاد له قلبه، نحو قول الله عزَّ وجل: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾.

وإن قلت: اسلما كرها كان يقصدني بالطعن إذ لم يكن ثم سيوف منتضادة كانت تريهم البأس.

يقول سعد: «فصدرت عنه مزوراً قد انتفخت احشائي من الغضب، وتقطع كبدي من الكرب.

ويسوق سعد الحديث.. إلى أن ينتهي إلى طرح هذا السؤال عن الإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه فأجابه عليه السلام: «لم لم تقل له: بل اسلما طمعا، لأنهما كانا يجالسان اليهود ويستخبرانهم عما كانوا يجدون في التوراة وسائر الكتب المتقدمة الناطقة بالملاحم من حال إلى حال من قصة محمد صلى الله عليه وآله ومن عواقب أمره، فكانت اليهود تذكر أن محمداً صلى الله عليه وآله يسلط على العرب كما كان بخت نصر سلط على بني اسرائيل، ولا بدّ له من الظفر بالعرب كما ظفر بخت نصر ببني اسرائيل، غير أنه كاذب في دعواه.

فأتيا محمداً ساعداه على شهادة أن لا إله إلا الله، وبايعاه طمعاً في أن ينال كل منهما من جهته ولاية بلد إذا استقامت أموره، واستتبت احواله، فلما أيسا من ذلك تلثما وصعدا العقبة مع أمثالهما من المنافقين، على أن يقتلوه، فدفع الله كيدهم، وردهم بغيظهم لم ينالوا خيراً، كما أتى طلحة والزبير علياً عليه السلام فبايعاه وطمع كل واحد منهما أن ينال من جهته ولاية بلد، فلما أيسا نكثا بيعته وخرجا عليه، فصرع الله كل واحد منهما مصرع اشباههما من الناكثين»[1].

ومن هذا الحديث ـ وغيره ـ يظهران ظاهرة «النفاق» لم تقتصر على «المرحلة المدنية» بل سبقتها في «المرحلة المكية» أيضاً، نعم اتسعت دائرة «النفاق» في المرحلة المدنية تبعاً لقوة الإسلام وبروز المتغيرات الجديدة في الساحة.

---

(١) راجع بحار الأنوار، ج٥٢.

فما ذكره بعض المفسرين[1] من أن ظاهرة النفاق اقتصرت على «المرحلة المدنية» غير صحيح.

وكأن هؤلاء تصوروا أن «قوة الدعوة» هي السبب الوحيد لبروز ظاهرة «النفاق» فانتفاء هذا السبب في «المرحلة المكية» يستلزم انتفاء ظاهرة «النفاق» غافلين عن أن هنالك أسباباً اخرىٰ وراء الظاهرة، وقد توفرت تلك الأسباب في «المرحلة المكية».

قال في «الميزان» «ما القدرة والقوة المخالفة المهيبة ورجاء الخير بالفعل والاستدرار المعجل علة منحصرة للنفاق حتى يحكم بانتفاء النفاق لانتفائها، فكثيراً ما نجد في المجتمعات رجالاً يتبعون كل داع ويتجمعون إلى كل ناعق ولا يعبؤون بمخالفة القوى المخالفة القاهرة الطاحنة ويعيشون على خطر مصرين على ذلك رجاء أن يوفقوا يوماً لاجراء مرامهم ويتحكموا على الناس باستقلالهم بإدارة رحى المجتمع والعلو في الأرض، وقد كان النبي ﷺ يذكر في دعوته لقومه أن لو آمنوا به واتبعوه كانوا ملوك الأرض.

«فمن الجائز عقلاً أن يكون بعض من آمن به يتبعه في ظاهر دينه طمعاً في البلوغ بذلك إلى أُمنيته وهي التقدم والرئاسة والاستعلاء».

وأيضاً من الممكن أن يكون بعض المسلمين يرتاب في دينه فيرتد ويكتم ارتداده كما مرت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ الآية.. وكما يظهر من لحن مثل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ﴾[2].

---

(١) راجع في ظلال القرآن ج١، ص٣١ (ط دار الشروق).
(٢) راجع الميزان ج١٩، ص٢٨٧ ـ ٢٩٠ وأيضاً ج٢٠، ص٩٠ ـ ٩١.

٣ ـــ الأحقاد الدفينة:

لقد كان الكثير من الكفار يحملون احقاداً دفينة على هذا الدين. . ولما لم يستطيعوا أن يصلوا إلى أغراضهم في القضاء على الإسلام بالحرب العسكرية. . تظاهروا بالانضواء تحت لواء هذا الدين للقضاء عليه من الداخل. . عبر إثارة الفتن والقلاقل بين المسلمين واغراء بعضهم ببعض، والتجسس على المؤمنين، ونقل المعلومات إلى الأعداء، وغير ذلك. . لقد غيروا المنهج والاسلوب. . ولكن الهدف بقي واحداً في الحالتين. . وهو القضاء على هذا الدين.

ويكفي نموذجاً لذلك قصة مسجد ضرار التي قال الله تعالى عنها: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ... ﴿١٠٧﴾﴾[1].

ويذكر التاريخ عن المطرف بن المغيرة بن شعبة قال: «دخلت مع أبي على معاوية، فكان أبي يأتيه فيتحدث معه ثم ينصرف إليَّ ويذكر معاوية وعقله ويعجب بما يرى منه، إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء ورأيته مغتماً، فانتظرته ساعة، وظننت أنه لأمر حدث فينا، فقلت: ما لي أراك مغتماً منذ الليلة؟

فقال: يا بني جئت من عند اكفر الناس واخبثهم! قلت: وما ذاك؟ قال: قلت له وقد خلوت به: إنك قد بلغت سنا يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً وبسطت خيراً، فقد كبرت، ولو نظرت إلى اخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإن ذلك مما يبقىٰ لك ذكره وثوابه.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٧.

فقال: هيهات هيهات، أي ذكر ارجو بقاءه؟ ملك اخوتيم فعدل وفعل ما فعل فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره إلا أن يقول قائل: أبو بكر ثم ملك اخو عدي فاجتهد وشمر عشر سنين فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره إلا أن يقول قائل: عمر وان ابن أبي كبشة [يعني رسول الله ﷺ] ليصالح به كل يوم خمس مرات: أشهد أن محمداً رسول الله، فأي عمل يبقى، وأي ذكر يدوم بعد هذا لا أبا لك، لا والله إلا دفنا دفنا![1].

٤ ــ الظروف الطارئة:

من الواضح أن إيمان الناس ليس بمستوى واحد، . . إذ الإيمان حقيقة تشكيكية ذات مراتب . . فبعض المؤمنين يصل إلى مراتب رفيعة من الإيمان . . وبعضهم يظل في الدرجات الأولىٰ منه . . .

أما الراسخون في الإيمان فلا تؤثر فيهم الظروف الطارئة، من خوف وفقر وجوع وحرب و . . بل هم كالمسمار المثبت في الأرض، كلما ازدادت الطرقات على رأسه ازداد رسوخاً وثباتاً . . . يقول القرآن الكريم:

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾[2].

ويقول عمار بن ياسر: «والله لو هزمونا إلى سعفان هجر لعلمنا أننا على الحق وأنهم على الباطل».

---

(١) رواه الزبير بن بكار في «الموفقيات» عن المطرف والزبير هذا هو قاضي مكة، وهو مشهور في المحدثين، ومن رواة الصحيح، وهو غير متهم على معاوية، لعدالته وفضله على ما قالوا (راجع النصائح الكافية ص١١٧ ـ ١١٨ ـ ط٤، وأيضاً شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢، ص٣٥٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

ولكن هناك من المؤمنين ﴿مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾[1] فعندما تطرأ الظروف الاستثنائية يبدأ هؤلاء في التشكيك في دينهم وعقيدتهم.. وقد ينتهي بهم الأمر إلى «الردة» ـ إذا تظاهروا بالكفر علنا ـ أو إلى «النفاق» ـ إذا أسروا كفرهم في صدورهم ـ..

يقول القرآن الكريم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ (١٠) هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا (١٢)﴾[2].

.. هذه بعض العوامل التي يمكن أن تفرز ظاهرة «النفاق» في المجتمع.. وهنالك عوامل اخرى قد تظهر بالتدبر.. فتأمل.

---

(١) سورة الحج، الآية: ١١.

(٢) سورة الأحزاب، الآيات: ٩ ـ ١٢.

لماذا قبل النبي ﷺ المنافقين؟

وإذا كان المنافقون يشكلون هذا الخطر الداهم على الأمة فلماذا قبلهم الإسلام بين صفوفه؟ ألم يكن الأجدر بالنبي ﷺ أن يطردهم من صفوف المسلمين لكي يجنب الأُمة ويلاتهم؟

لعله يمكن أن يجاب عن ذلك بالأمور التالية:

الإجابة الأولى:

١ ـ حينما يواجه الإنسان شرين: أحدهما أصغر والآخر أكبر فإن مقتضى الحكمة أن يدفع الشر الأكبر بالشر الأصغر.. وذلك لأن (طبيعي الشر) سيصيبه على كل تقدير.. فمقتضى الحكمة أن يقتصر على القدر الذي لا بد منه، ويدفع القدر الأكثر بانتخاب الشر الأصغر والابتعاد عن الشر الأكبر.

وبعبارة أخرى: أن تحمل الشر الأكبر دفعاً للشر الأصغر ترجيح للمرجوح على الراجح، وهو خلاف ما تقتضيه الحكمة.

مثلاً: إذا أُصيب شخص بداء خطير وأوصاه الأطباء باجراء عملية جراحية صعبة، وحذروه من أنه إذا لم يجر هذه العملية فإنه سوف يكون مهدداً بالموت.. فإن من الطبيعي أن يختار اجراء العملية ويتحمل ألمها، دفعاً للألم الأكبر.

وهذا ما يسميه العلماء بقانون «الأهم والمهم».

وربما يسمى بقاعدة «دفع الأفسد بالفاسد» أيضاً.

والإسلام عندما بدأ مسيرته الخالدة كان محاطاً باعداء كثيرين.. كل واحد منهم كان كافياً لاقتلاع الإسلام من جذوره.

فهنالك الامبراطورية الفارسية.. وهنالك الامبراطورية الرومية.. وهنالك اليهود في أطراف المدينة.. وهنالك النصارى المتربصون في الداخل وهنالك مشركو العرب..

فكان لا بد من محاولة تسييج هذا الدين بكل القدرات والطاقات حتى وأن أظهرت الإسلام وابطنت الكفر.

ومن المعلوم: أن انتقال المنافقين من مرحلة الحرب المعلنة إلى مرحلة الحرب الخفية خطوة في طريق تخفيف الضغط عن المسلمين.

بالإضافة إلى أن كثيراً من هؤلاء كانت تهمّهم مصالحهم الشخصية... فلم يكن يهمهم الإطار الذي يتحركون ضمنه.. بل كان يهمّهم الوصول إلى المكاسب والمغانم التي يطمعون فيها.. فكان قبولهم ضمن الإطار الإسلامي سبباً في اخماد معارضتهم ضد الإسلام، وعن مثل هؤلاء يقول القرآن الكريم:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾[1].

الإجابة الثانية:

٢ ـ العلم تارة يكون «طريقياً» وأخرى يكون «موضوعياً».

أما العلم الطريقي فهو «حجة» من أي طريق حصل.. إذ الحكم فيه

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٥٨.

معلق على «الواقع» فإذا تم «انكشاف» هذا «الواقع» بأي نحو كان. . تنجز الحكم. . ووجب الجري العملي على طبقه.

مثلاً: لو قال المولى الذي يمتلك «حق الطاعة» على العبد:

«الدم نجس» فهذا الحكم يتألف من موضوع هو «الدم» ومحمول هو «نجس». . ولم يؤخذ القطع في موضوع الحكم. . بأي نحو من أنحاء الأخذ. . بل «كون الشيء دماً» تمام الموضوع لترتب المحمول عليه. . فإذا قطعنا بأن «هذا الشيء دم» ترتب الحكم قهراً، ووجب على المكلف الإجتناب عنه. . بلا انتظار لأي شيء آخر.

ويقال عندئذ: إن الصغرى وجدانية (حيث أن كون هذا دماً ثابت بالوجدان).

والكبرى برهانية (حيث أن نجاسة الدم ثابتة بالبرهان. .).

فالنتيجة (وهي أن هذا الشيء نجس) قطعية. . إذ قطعية المقدمتين المأخوذتين في القياس المنطقي توجب قطعية النتيجة حتماً.

ولكن العلم قد لا يؤخذ مجرد كاشف عن الموضوع وصرف طريق إليه. . بل يؤخذ في موضوع الحكم. . بحيث يكون القطع جزء الموضوع أو تمامه. . وحينئذ لا يترتب الحكم إلا حين القطع بالموضوع. . على النحو الذي أخذ فيه. .

والشيء الذي قد يظهر من سيرة النبي ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام أن علمهم بموضوعات الأحكام المتعلقة بواقع الأفراد لم يؤخذ على نحو الطريقية البحتة، بل أخذ (حصول العلم بذلك الواقع من الطرق المتعارفة) جزءاً من الموضوع، بحيث أن المعصوم عليه السلام لم يكن مكلفاً

بترتيب تلك الأحكام فيما لو حصل له العلم بواقع الأفراد من الطرق غير المتعارفة (كالوحي ونحوه)..

وبعبارة أُخرى: انهم عليهم السلام كانوا مكلفين بالتعامل مع الأفراد على حسب ظواهرهم، لا حسب النوايا الكامنة في طوايا قلوبهم..

ولعل من حكم ذلك: أن يكونوا عليهم السلام اسوة للأجيال المتعاقبة، إذ لو كانوا يعملون طبق علمهم إذاً لسقطوا عن كونهم اسوة وقدوة ومن هنا يقول القرآن الكريم:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[1].

ونظير ذلك يمكن أن يقال في تناول بعض المعصومين عليهم السلام الطعام المسموم مع علمهم بواقع ذلك الطعام.. فتأمل..

الإجابة الثالثة:

٣ ـ إن فلسفة هذه الحياة مبنية على عنصر «الاختبار».. فبالاختبار تظهر حقائق الأفراد، ويصل كل كامل إلى كماله المنشود الذي خلق لأجله يقول الله سبحانه.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ﴾[2].

ومن جملة عناصر هذا الاختبار: وجود المجموعات المنافقة في إطار الأمة.

إذ لو فرزت جبهة الكفر عن جبهة الإيمان فرزا كاملاً.. ولم يعد في

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.
(٢) سورة تبارك، الآية: ٢.

جبهة الإيمان إلا «من محض الإيمان محضاً» وفي جبهة الكفر إلا «من محض الكفر محضاً». . لم تكمل عناصر الإمتحان الإلهي. .

ولكن: عندما يكون ضمن المجموعة المؤمنة أفراد منافقون يتقمصون ثياب الإيمان. . ويبطنون الكفر والشك والارتياب.

أفراد ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾(١).

أفراد ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٢).

أفراد ﴿يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ﴾(٣).

افراد ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ﴾(٤).

افراد ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾(٥).

افرادهم ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ﴾(٦).

افراد ﴿اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٨.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٧.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٧٩.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٨١.
(٥) سورة التوبة، الآية: ٨٧.
(٦) سورة التوبة، الآية: ٩٧.

لِمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾(١).

افراد ﴿يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ﴾(٢).

افراد ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ﴾(٣).

أفراد يقولون ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾(٤).

افــراد ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾(٥).

أفـراد يـقـولـون لأخـوانـهـم ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٦) ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ﴾(٧).

إلى آخر مواصفات المنافقين.

عندما يكون ضمن المجموعة المؤمنة هكذا أفراد.. عندئذ تتكامل عناصر الإمتحان الإلهي، ويمحص الله ما في القلوب.. ويبتلي ما في الصدور.. ويتبين من هو الصادق ومن هو الكاذب؟!

وما تلك الرؤيا التي رآها النبي ﷺ.. حين شاهد القردة تنزو على

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٧.
(٢) سورة المنافقون، الآية: ٧.
(٣) سورة المنافقون، الآية: ٨.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ١٢.
(٥) سورة الأحزاب، الآية: ١٣.
(٦) سورة الأحزاب، الآية: ١٨.
(٧) سورة الأحزاب، الآية: ١٩.

منبره. إلا مظهراً من مظاهر الإختبار الإلهي.. نجحت فيه القلة من الصفوة.. وسقط فيه الأكثرون..

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾[1].

الإجابة الرابعة:

٤ ـ إن «سمعة» أي دين من الأمور المهمة في نجاح ذلك الدين..

إن أغلب الناس لا يحكمون على الفكرة من خلال الرصيد الذي تمتلكه من الحق.. وإنما من خلال «الصورة الخارجية» التي يحملها ذلك الدين.. ومن هنا نجد في الفقه الإسلامي: أن الإسلام يجيز للحاكم الشرعي تعطيل إجراء بعض الحدود، إذا كان في إجرائها تشويه لسمعة الدين..

كما ورد في الحديث عن النبي ﷺ «لولا أن يقال: إن محمداً استعان بقوم فلما ظفر قتلهم لضربت أعناق كثير»..

ولو كانت سياسة الإسلام هي التصفية والطرد إذا: لفقد هذا الدين الكثير.. ولما رأيت الناس ﴿يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾[2].

ولتعرف جيداً أبعاد القضية تصور نظاماً يقوم في منطقة ما على أنقاض نظام آخر.. فأخذ بطرد «الأغلبية» بحجة أن هذا منافق.. وذاك انتهازي.. و.. و.. ألا تنهار في أنظار الملأ العام سمعة ذلك النظام؟!

هذه بعض العوامل التي يمكن أن تكون وراء قبول النبي ﷺ للمنافقين في صفوف المسلمين.. فتأمل.. ولعل هناك عوامل أُخرى وراء ذلك.. والله العالم بحقائق الأمور.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٠.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢.

استعراض لأسماء بعض المنافقين

ذكر بعض المؤرخين: أنه بلغ عدد المنافقين في المدينة (٣٠٠) رجلاً و(٧٠) امرأة..

ونحن نستعرض فيما يلي أسماء بعض المنافقين من الأوس والخزرج ومن أحبار اليهود ومن قبائل أُخر تتميماً للفائدة.

أولاً: من الأوس والخزرج:

١ ـ عبد الله بن أبي بن سلول ـ وفيه نزلت سورة «المنافقون».

٢ ـ الحارث بن سويد ـ وفيه نزل قوله تعالى ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ...﴾[1].

٣ ـ تبتل بن الحارث ـ وفيه نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ... ﴿٦١﴾﴾[2].

٤ ـ ثعلبة بن حاطب ـ وفيه نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾[3].

٥ ـ خزام بن خالد.. وهو الذي أخرج مسجد «ضرار» من داره ونزل فيه وفي أصحابه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾[4].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨٦.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦١.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٧٥.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٠٧.

٦ ـ اوس بن قيظي . . وقد نزل فيه قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾[1].

٧ ـ بشير بن ابيرق . . وقد نزل فيه قوله تعالى ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ... ﴿١٠٧﴾﴾[2].

٨ ـ الجدّ بن قيس وقد نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾[3].

ثانياً: من احبار اليهود

٩ ـ سعد بن حنيف.

١٠ ـ زيد بن الصلت.

١١ ـ نعمان بن أوفى بن عمرو.

١٢ ـ عثمان بن أوفى.

١٣ ـ رافع بن مريملة.

١٤ ـ رفاعة بن زيد بن التابوت.

١٥ ـ سلسلة بن برهام.

١٦ ـ كنانة بن صويريا.

ثالثاً: منافقون آخرون

١٧ ـ أبو عفك (وينتمي إلى بني عمرو).

١٨ ـ عصماء بنت مروان (وتنتمي إلى بني أمية).

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٧.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٤٩.

١٩ ـ الرحال بن عنفوة (وينتمي إلى بني حنيفة).

٢٠ ـ الأخنس بن شريق (وينتمي إلى ثقيف).

كذا ذكره بعضهم.. فتأمل..

ولهؤلاء قضايا كثيرة في الكيد للإسلام.. والتآمر على المسلمين سوف يأتي بعضهم في البحوث القادمة بإذن الله تعالى.

روايات في المقام

١ ـ عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام: سئل ما النجاة غدا؟

فقال: إنما النجاة في أن لا تخادعوا الله فيخدعكم، فإنه من يخادع الله يخدعه، ويخلع الله منه الإيمان، ونفسه يخدع لو يشعر.

فقيل له: كيف يخادع الله؟

فقال: يعمل بما أمر الله عزَّ وجل به ثم يريد به غيره، فاتقوا الله والريا فإنه شرك بالله عزَّ وجل.

إن المرائي يدعى يوم القيامة بأربعة أيماء: يا كافر يا فاجر يا غادر يا خاسر حبط عملك وبطل اجرك ولا خلاق لك فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له[1].

٢ ـ عن الإمام الصادق عليه السلام: واعلم أنك لا تقدر على إخفاء شيء من باطنك عليه (تعالى) وتصيره مخدوعاً بنفسك. قال الله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩﴾[2].

(١) البرهان ج١، ص٦٠ وقريب منه في نور الثقلين ج١، ص٣٥ (الطبعة الثانية).

(٢) نور الثقلين ج١، ص٣٥.

الآيتان

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾[1]

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾[2]

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢.

المفردات

﴿لَا تُفۡسِدُواْ﴾: الافساد اخراج الشيء عن حد الاعتدال، وتغييره عن سلامة الحال، أو اخراج الشيء عن كونه منتفعاً به.

﴿مُصۡلِحُونَ﴾: الإصلاح ضد الإفساد.

﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾: الشعور الإحساس بالشيء من جهة تدق، أو هو العلم بالشيء إذا حصل عن طريق الحس، أو كان المعلوم بمنزلة ما حصل عن هذا الطريق(١).

الإعراب

«إنما» مركبة من «إن» و«ما».

و«ان» حرف يفيد تأكيد مدلول الجملة التي تليه، وهو ينصب الاسم ويرفع الخبر..

و«ما» كافة له عن العمل، وهذه الكلمة بمجموعها تفيد الحصر ـ كما هو المتبادر منها(٢).

و«إلا» حرف يدل على التنبيه ـ قيل: وأصله (لا) دخلت عليه همزة الاستفهام الإنكارية، فاخرجته من معنى النفي إلى معنى التقرير

---

(١) مضى الكلام في ذلك في الآية العاشرة من هذه السورة فراجع.
(٢) راجع «فوائد الاصول» للمحقق النائيني» (قدس سرّه) ـ نهاية المقصد الثالث.

والتحقيق، فإن انكار النفي تحقيق للاثبات كقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾[1] وكقوله تعالى ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾[2].

وذهب البعض إلىٰ أنها كلمة احدة غير مركبة.

و«هم» فيه وجهان.

١ ـ أن يكون ضمير فصل بين اسم ان «هم» وخبرها «المفسدون» وفائدة ضمير الفصل: التوكيد.

٢ ـ أن يكون مبتدأ خبره «المفسدون» ومجموع الجملة المركبة من المبتدأ والخبر خبر لـ«أن».

التفسير

هاتان الآيتان الكريمتان تشيران إلى صفات ثلاث يتسم بها المنافقون عادة:

الصفة الأولى: الافساد في الأرض:

ويتضح ذلك من خلال النقاط التالية:

النقطة الأولى: إن طبيعة رسالات السماء هي طبيعة «الإصلاح».. فهي تستهدف إصلاح الفكر.. واصلاح القلب.. واصلاح الروح.. واصلاح العمل.. واصلاح الحياة.. والمنافقون حيث يقفون ضد رسالات السماء بفكرهم وموقفهم وعملهم ويؤلبون الناس عليها، فهم إذاً يقفون ضد عملية «الإصلاح».. وهذا يعني من الناحية العملية أنهم يقفون موقف «الإفساد» تجاه العملية الإصلاحية..

---

(١) سورة النساء، الآية:٩٧.

(٢) سورة القيامة، الآية: ٤٠.

مثلاً: إذا فرضنا أن شخصاً حاول الإصلاح بين زوجين.. فوقف أحد ضده وهدم المحاولات الإصلاحية التي يقوم بها.. فإنه يصح لنا أن نقول: أنه «مفسد».. باعتبار أنه أفسد «المحاولة الإصلاحية» التي قام بها الشخص المصلح واحبطها.

النقطة الثانية: إن ذلك باعتبار «مآل» اعمالهم والنتائج التي تتمخض عنها هذه الأعمال، فإن هؤلاء كانوا يقومون بالتجسس على المسلمين، وينقلون أسرارهم إلى الأعداء، ويدلونهم عن مكامن ضعفهم، ويحرضون عليهم، ويغرونهم بهم.. ومن الواضح أن مآل ذلك كله هو نشوب الفتن، واشتعال الحروب، وسفك الدماء، وهلاك الحرث والنسل، وتحطيم الاقتصاد، وفساد الأخلاق إلى آخر المفاسد الإجتماعية التي تتركها الفتن الإجتماعية والحروب الطاحنة.. وبهذا الاعتبار كانوا «مفسدين في الأرض» وقيل لهم «لا تفسدوا في الأرض».. فإن الشيء كما ينسب إلى «المباشر» ينسب إلى «السبب».. وكما ينسب إلى العلل القريبة ينسب إلى العلل البعيدة.. فتأمل.

النقطة الثالثة: إن طبيعة النفس البشرية غير المهذبة هي طبيعة «الافساد».. فإن نفس الإنسان تميل إلى الظلم والتعدي وسلب حقوق الآخرين وهذه الطبيعة لا تعالج إلا بالإيمان بالله واليوم الآخر.. فإنه يخلق وازعا داخلياً يمنع الإنسان عن الظلم والجور والتعدي على حقوق الآخرين..

ومن هنا يقول الشاعر:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عفة فلعلة لا يظلم

أما «القانون» و«السوط» و«العصا» و«السجون»، ... و... فهي لا تكفي في الردع ـ كما سبق البحث في ذلك.

والمنافق حيث لا يؤمن ـ حقيقة ـ بالله ولا باليوم الآخر لا يملك هذا «الوازع». . فماذا لا يفسد؟ عندما يجد المنافق أمامه مالاً يمكنه استلابه فلماذا لا يسلبه؟ وعندما يزاحمه شخص على طموحاته الشخصية فلماذا لا يقوم بتصفيته؟ و. . . و. . . وهكذا يتحول المنافق إلى «آلة» للافساد الإجتماعي. . في كل مكان. . يقول الله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾[١].

وافساد المنافقين ليس افساداً خفياً. . بل هو افساد جلي. . بحيث يراه الناس ويشعرون بوجوده. . إذ الإنسان قد يبتلىٰ بالافساد لغفلة عارضة. . أو زلة طارئة. . ثم يثوب إلى رشده. . وفي هذه الحالة قد يخفى ما عمله على الاخرين.

اما المنافق فإنه حيث تلازمه الطبيعة الإفسادية دائماً. . لذا يكون افساده إفساداً مستمراً. . لأن علة الإفساد عنده علة مستمرة. . وهكذا يتبين للناس أنه شخص مفسد. . ويرفعون صوتهم مطالبين إياه بالوقوف عن حركة الإفساد. . ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

تموجات الإفساد:

وحيث أن الإفساد له «تموجات» اجتماعية. . والإفساد يولد الإفساد. . لذا لا تمضي فترة إلا ويستشري الفساد في المجتمع. . وتمتلأ الأرض بالظلم والجور والتعدي والفساد. .

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

ولعل هذا هو المعنى بقوله تعالى ﴿فِي ٱلْأَرْضِ...﴾.

فكأن الفساد لم يختص ببقعة جغرافية، أو ببلد معين، وإنما شمل «الأرض» كلها . .

وإلا لأمكن أن يكتفي في الآية بقوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾. فتأمل.

معنى آخر لـ«الإفساد»:

ثم إن هنا رأياً آخر يرى أن «الإفساد في الأرض» عبارة عن (مخالفة الشرع) وارتكاب المعاصي مطلقاً، ويندرج ضمن ذلك الأخلاق المذمومة . . فإن الأفعال على ثلاثة أنواع:

١ ـ الأفعال الموافقة للشرع.

٢ ـ الأفعال الموافقة للموازين الإجتماعية، وإن كانت مخالفة للشرع.

٣ ـ الأفعال الموافقة لمعتقدات الشخص، وإن كانت مخالفة للشرع أو المجتمع.

فكل ما خرج عن النوع الأول يعتبر إفساداً في الأرض[١].

فإن سألت: المأخوذ في الآية «الإفساد» لا «الفساد». . ومخالفة الشرع لا تستلزم «الافساد» دائما وإن استلزمت «الفساد».

كان الجواب: إن كل مخالفة للشرع تسبب افساداً . . أما في

---

(١) مواهب الرحمن ج١، ص٩٣.

المجتمع.. وأما في البدن.. وأما في الروح.. فالمخالفة وإن فرض أنه لا يترتب عليها افساد في الخارج.. إلا أنها تسبب تلوث الروح، وتدرن النفس.. وكفى بذلك افساداً..

وعلى هذا يكون المراد بقولهم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ إننا على طريق الاستقامة والصلاح.

وقد حكي عن بعض المفسرين أنه قال في الآية الكريمة:

أنهم إذا ركبوا معصية الله قيل لهم: لا تفعلوا هذا قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي إنما نحن على الهدى[1] فتأمل.

الصفة الثانية: التبجحات الفارغة

وحيث أن المنافق يتصف بالخواء النفسي، والفراغ الداخلي، ولا يستند إلى «القوة المطلقة» التي تهيمن على الكون كله، وتمد الإنسان بالقوة والطمأنينة، لذا يكون دأبه التبجح والإدعاء.. إنه يريد أن يملأ فراغه النفسي، ويظهر أمام الآخرين بمظهر القوي، الذي يحب الخير، ويضمر الرحمة للجميع، ويسعى في عملية الإصلاح الإجتماعي!

ومن هنا لا يكتفي المنافقون أمام نصائح الناصحين الذين يقولون لهم «لا تفسدوا في الأرض».. لا يكتفون بنفي صفة الإفساد عن أنفسهم.. بل يتعدون ذلك ليقولوا بكل صلافة ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾..

وها نحن نرى القوى الكبرى الظالمة على مر التاريخ (والتي يمثل سلوكها نوعاً من أنواع النفاق) تتبجح ـ باستمرار ـ بأنها هي المصلحة،

---

(١) التبيان، ج١، ص٧٦ (ط دار احياء التراث العربي).

وأنها هي المدافعة عن المستضعفين، وإنها هي الضامنة لحريات الشعوب و. . و. . في الوقت الذي تلعب من وراء الستار لاذلال الشعوب، وسلب خيراتها ومصادرة حرياتها، وافساد البلاد والعباد. .

وقد يقول فريق من هؤلاء المنافقين ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ وهم يعتقدون ذلك حقيقة في قرارة أنفسهم.. لأنهم يعتبرون: (أن الدعوة إفساد، وأنهم بوقوفهم ضدها يصلحون في الأرض)[1].

أو أنهم بموقفهم النفاقي يعملون على التقريب بين جبهة الكفر وجبهة الإيمان والصلاح فيما بينهما، كما حكى الله تعالى عنهم ذلك بقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾[2] وبذلك يضمنون مصالحهم الشخصية، ويستفيدون من جميع الأطراف في سبيل تأمين هذه المصالح.

ثم لا يخفىٰ أن كلمة «إنما» في المقام لقصر الذات على الحكم. . لا لقصر الحكم على الذات. . فإن القصر قد يأتي لحصر الذات في صفة معينة كما تقول «إنما زيد تاجر» في جواب من قال «إن زيداً عالم» وقد يأتي لحصر الصفة في ذات معينة كما في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي أن صفة الولاية منحصرة في هؤلاء.. والمقام من قبيل الأول أي حصر الذات في صفة معينة.. فإن المنافقين في صدد نفي صفة الإفساد عن أنفسهم وحصر ذواتهم في إطار «الإصلاح».. لا في صدد حصر صفة «الإصلاح» في «أنفسهم».

---

(١) تقريب القرآن ج١، ص٤٤.
(٢) سورة النساء، الآية: ٦٢.

ومن هنا كان التعبير:

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾.

أي إن ذواتنا وتحركاتنا وأعمالنا محصورة في نطاق الإصلاح . .

ولم يكن التعبير.

«إنما المصلحون نحن».

إذ لم يكن هؤلاء في صدد إثبات انحصار صفة الإصلاح بهم بحيث لا تتعداهم إلى غيرهم فتدبر . .

الصفة الثالثة: اختلاط المقاييس

إن المعرفة الموضوعية للأمور التي تقع ضمن نطاق «الإحساس» إنما تتم فيما لو كانت «الحواس» سليمة . . ففي هذه الحالة يشاهد الإنسان الأمور كما هي عليه . . ويتطابق «المعلوم بالعرض» مع «المعلوم بالذات» ويتوافق الوجود الذهني مع الوجود العيني . .

أما عندما تمرض الحواس . . فربما يتخيل الإنسان البعيد قريباً . . والقريب بعيداً . . والكبير صغيراً . . والصغير كبيراً . . والحار بارداً . . والبارد حارّ . . و . . و . . و . .

وهكذا الأمر في الأمور التي لا تقع ضمن نطاق «الإحساس» . . فإن التقييم الموضوعي لهذه الأمور يتوقف على سلامة الفكر، واستقامة الروح.

والمنافقون . . حيث كان «في قلوبهم مرض».

وحيث «زادهم الله مرضاً».. وحيث أصبحت قلوبهم منكوسة وعقولهم مدخولة.. لذا انقلبت عندهم المقاييس واختلطت عليهم الأمور.. فلم يعودوا يميزون الخير من الشر، ولا الإصلاح من الفساد.. فهم يعملون الشر ويظنون أنه هو الخير، ويفسدونن في الأرض، وهم يظنون أنهم مصلحون، ويقفون ضد الدعوة الإصلاحية وهم يرون أنهم يحسنون صنعاً ومن هنا يقول الله تعالى عنهم.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ إنهم يعيشون ضلالاً مزدوجاً:

ضلالاً سلوكياً.. يتمثل في إفسادهم في الأرض.. واهلاكهم للحرث والنسل.. وتفريقهم بين المؤمنين..

وضلالاً فكرياً.. يتمثل في انقلاب المقاييس عندهم.. ورؤية الصالح طالحاً.. والطالح صالحاً.. والخير شراً.. والشر خيراً..

وهذا الضلال المزدوج اسوء أنواع الضلال.. إذ لو كان الإنسان يعيش الضلال وهو «يشعر» أنه يعيش فيه.. فلعل ضميره يستيقظ يوماً ما.. ليردعه عن الاستمرار في ضلاله.. وينهي بذلك مأساة التناقض بين الفكر والسلوك..

أما عندما يكون الضلال مزدوجاً.. ويستوعب السلوك والفكر معاً.. ففي هذه الحالة يكون الاهتداء إلى طريق الله.. بعيد المنال.. إذ الفكر المنكوس سيقوم باضفاء «الشرعية» على كل الأعمال الخاطئة التي يقوم بها الشخص المنافق.. ويقوم بتبرير كل التصرفات الضالة التي تصدر منه.. فمن أين يأتي الهدى، ومن أين يشرق النور؟

وقد ذكرنا فيما مضى[1] بعض النماذج عن الضلال المزدوج. . وعن الدعاوى الكاذبة التي يتشبث بها الضالون لتبرير انحرافهم عن خط الله. . وعن طريق الهدى والرشاد. .

ونشير هنا إلى بعض النماذج الآخرى. .

١ ـ يذكر أن أحد القادة الأمريكيين وجه إليه سؤال حول سبب إلقاء القنبلة الذرية على مدينتي (هيروشيما) و(ناجازاكي) اليابانيتين، مما أدى إلى مقتل مئتي ألف إنسان أو إصابتهم بالعاهات؟

فقال: نحن فعلنا ذلك من أجل السلام! ولو لم نفعل ذلك لطالت الحرب أكثر ولذهب ضحيتها عدد أكبر من القتلى![2].

٢ ـ عن عمرو بن قيس المشرقي قال:

دخلت على الحسين صلوات الله عليه وأنا وابن عم لي، وهو في قصر (بني مقاتل) فسلمنا عليه فقال له ابن عمي: يا أبا عبد الله هذا الذي أرى خضاب أو شعرك؟

فقال: خضاب، والشيب إلينا بني هاشم يعجل.

ثم أقبل علينا فقال: جئتما لنصرتي؟

فقلت: إني رجل كبير في السن، كثير الدين، كثير العيال، وفي يدي بضائع للناس، ولا أدري ما يكون، وأكره أن أضيع أمانتي!

---

(١) في تفسير الآية الآخيرة من سورة الحمد.
(٢) راجع الأمثل ج١، ص٨٢ ـ ٨٣.

وقال له ابن عمي مثل ذلك.

فقال لنا: فانطلقا، فلا تسمعا لي واعية، ولا تريا لي سواداً، فإنه من سمع واعيتنا أو رأى سوادنا فلم يجبنا ولم يغثنا كان حقاً على الله عزَّ وجل أن يكبه على منخريه في النار[1].

٣ ـ نقل أن عابداً كان في بني إسرائيل وكان من أعبد أهل زمانه وكان في زمانه ثلاثة أخوة لهم أخت وكانت بكراً ليس لهم أخت غيرها. فخرج البعث على ثلاثتهم فلم يدروا عند من يخلفون أختهم ولا من يأمنون عليها ولا عند من يضعونها. فاجمع رأيهم على أن يخلفوها عند عابد بني إسرائيل. وكان ثقة في أنفسهم. فأتوه فسألوه أن يخلفوها عنده فتكون في كنفه وجواره إلى أن يرجعوا من غزاتهم فأبى ذلك وتعوذ بالله عزَّ وجلَّ منهم ومن اختهم، فلم يزالوا به حتى أطاعهم فقال: أنزلوها في بيت حذاء صومعتي، فأنزلوها في ذلك البيت ثم انطلقوا، وتركوها، تمكث في جوار ذلك العابد زماناً ينزل إليها بالطعام من صومعته فيضعه عند باب الصومعة ثم يغلق بابه ويصعد إلى صومعته ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ما وضع لها من الطعام. فتلطف له الشيطان فلم يزل يرغبه في الخير ويعظم غليه خروج الجارية من بيتها نهاراً ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها فلو مشيت بطعامها حتى تضعه على باب بيتها كان أعظم لأجرك! فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها ووضعه على باب بيتها ولم يكلمها، فلبث على هذه الحالة زماناً. ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير والأجر وحضه عليه، وقال: لو كنت تمشي إليها بطعامها حتى تضعه في بيتها كان أعظم لأجرك! فلم يزل به حتى مشى إليها بالطعام ثم وضعه في بيتها

(١) بحار الانوار ج٤٥، ص٨٤ (ط الوفاء).

فلبث على ذلك زماناً ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير وحضه عليه، فقال: لو كنت تكلمها وتحدثها فتأنس بحديثك فإنها قد استوحشت وحشة شديدة! فلم يزل به حتى حدثها زماناً يطلع إليها من فوق صومعته، ثم أتاه إبليس بعد ذلك فقال: لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدثها وتقعد هي على باب بيتها فتحدثك كان آنس له! فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدثها وتحدثه وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها، فلبثا زماناً يتحدثان. ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير والثواب فيما يصنع بها وقال: لو خرجت من باب صومعتك ثم جلست قريباً من باب بيتها فحدثتها كان آنس لها، فلم يزل به حتى فعل فلبثا زماناً ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير وفيما له عند الله سبحانه وتعالى من حسن الثواب فيما يصنع بها، وقال له: لو دنوت منها وجلست عند باب بيتها فحدثتها ولم تخرج من بيتها ففعل فكان يزل من صومعته فيقف على باب بيتها فيحدثها. فلبثا على ذلك حيناً. ثم جاءه إبليس، فقال: لو دخلت البيت معها فحدثتها ولم تتركها تبرز وجهها لأحد كان أحسن بك فلم يزل به حتى دخل البيت فجعل يحدثها نهارها كله فإذا مضى النهار صعد إلى صومعته، ثم أتاه إبليس بعد ذلك فلم يزل يزينها له حتى ضرب العابد على فخذها وقبلها. فلم يزل به إبليس يحسنها في عينه ويسول له حتى وقع عليها فأحبلها فولدت له غلاماً فجاء إبليس فقال: أرأيت إن جاء أخوة الجارية وقد ولدت منك كيف تصنع لا آمن أن تفتضح أو يفضحوك فأعمد إلى ابنها فاذبحه وادفنه فإنها ستكتم ذلك عليك مخافة اخوتها أن يطلعوا على ما صنعت بها. ففعل، فقال له: أتراها تكتم اخوتها ما صنعت بها وقتلت ابنها، فخذها واذبحها وادفنها مع ابنها: فلم

يزل به حتى ذبحها والقاها في الحفرة مع ابنها وأطبق عليهما صخرة عظيمة وسوى عليهما وصعد إلى صومعته يتعبد فيها فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث حتى أقبل اخوتها من الغزو، فجاءوا فسألوه عنها فنعاها لهم وترحم عليها وبكاها، وقال: كانت خير إمرأة وهذا قبرها فانظروا إليها، فأتى إخوتها القبر فبكوا اختهم وترحموا عليها فأقاموا على قبرها أياماً ثم انصرفوا إلى أهاليهم. فلما جن عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم جاءهم الشيطان في النوم على صورة رجل مسافر فبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم فأخبره بقول العابد وموتها وترحمه عليها وكيف أراهم موضع قبرها فكذبه الشيطان، وقال: لم يصدقكم أمر أختكم إنه قد أحبل أختكم وولدت منه غلاماً فذبحه وذبحها معه فزعاً منكم وألقاهما في حفيرة احتفرها خلف باب البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله فانطلقوا فادخلوا البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله فإنكم ستجدونهما كما أخبرتكم هناك جميعاً. وأتى الأوسط في منامه فقال له مثل ذلك، ثم أتى أصغرهم فقال له مثل ذلك فلما استيقظ القوم أصبحوا متعجبين مما رأى كل واحد منهم، فأقبل بعضهم على بعض يقول كل واحد منهم: لقد رأيت الليلة عجباً، فأخبر بعضهم بعضاً بما رأى فقال كبيرهم: هذا حلم ليس بشيء فامضوا بنا ودعوا هذا عنكم، قال أصغرهم: والله لا أمضي حتى آتي إلى هذا المكان فأنظر فيه، فانطلقوا جميعاً حتى أتوا البيت الذي كانت فيه اختهم ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذي وصف لهم في منامهم فوجدوا اختهم وابنها مذبوحين في الحفيرة كما قيل لهم. فسألوا عنها العابد فصدق قول ابليس فيما صنع بهما فاستعدوا عليه ملكهم فأنزل من صومعته وقدم ليصلب فلما أوثقوه على الخشبة أتاه الشيطان، فقال له

قد علمت أني صاحبك الذي فتنتك بالمرأة حتىٰ أحبلتها وذبحتها وابنها فإن أنت اطعتني اليوم وكفرت بالله الذي خلقك وصورك خلصت مما أنت فيه فكفر العابد فلما كفر بالله تعالى خلى الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه وفيه نزلت هذه الآية: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾[1].

٤ ـ قبل نشوب الحرب بين الخوارج والإمام أمير المؤمنين عليه السلام أراد الإمام عليه السلام أن يتم الحجة عليهم.

فتقدم عليه السلام وقال: أيها الناس أنا علي بن أبي طالب، فتكلموا بما نقمتم عليَّ.

قالوا: نقمنا عليك أولاً:

إنا قاتلنا بين يديك بالبصرة، فلما أظفرك الله بهم أبحتنا ما في عسكرهم ومنعتنا النساء والذرية، فكيف حل لنا ما في العسكر ولم يحل لنا النساء؟

فقال عليه السلام: يا هؤلاء، إن أهل البصرة قاتلونا بالقتال، فلما ظفرتم بهم قسمتم سلب من قاتلكم، ومنعتكم من النساء والذرية، فإن النساء لم يقاتلن، ولدوا على الفطرة، ولم ينكثوا ولا ذنب لهم، ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منّ على المشركين، فلا تعجبوا إن مننت على المسلمين فلم أبب نساءهم ولا ذريتهم.

قالوا: نقمنا عليك يوم صفين كونك محوت اسمك من امرة المؤمنين فاذن لم تكن أميرنا، ولست أميراً لنا!!

---

(١) تلبيس ابليس ص٢٦ ـ ٢٩ (ط ادارة الطباعة المنيرية).

قال عليه السلام يا هؤلاء: إنما اقتديت برسول الله صلى الله عليه وآله حين صالح سهيل بن عمرو وقد تقدمت عنهم في ذلك الوقت.

قالوا: نقمنا عليك أنك قلت للحكمين: انظروا كتاب الله، فإن كانت أفضل من معاوية فأثبتاني في الخلافة. فإذا كنت شاكاً في نفسك فنحن فيك أشد وأعظم شكاً!

قال عليه السلام: إنما أردت بذلك النصفة ـ الإنصاف ـ فإني لو قال: احكماً لي دون معاوية لم يرض ولم يقبل، ولو قال النبي صلى الله عليه وآله لنصارى نجران لما قدموا عليه: تعالوا نبتهل فاجعل لعنة الله عليكم، لم يرضوا، ولكن أنصفهم من نفسه كما أمره الله فقال: «فنجعل لعنة الله على الكاذبين» فأنصفهم من نفسه، فكذلك فعلت أنا.

قالوا: فأنا نقمنا عليك أنك حكمت حكماً في حق هو لك.

فقال عليه السلام: إن رسول الله صلى الله عليه وآله حكم سعد بن معاذ في بني قريظة ولو شاء لم يفعل، وأنا اقتديت به، فهل بقي عندكم شيء؟ فسكتوا وصاح جماعة منهم من كل جانب: التوبة التوبة يا أمير المؤمنين.

فأعطاه أمير المؤمنين راية أمان مع أبي أيوب الأنصاري، فناداهم أبو أيوب من جاء إلى هذه الراية أو خرج من الجماعة فهو آمن.

فرجع منهم ثمانية آلاف، فأمر عليه السلام المستأمنين بالاعتزال وبقي أربعة آلاف منهم مستعدين للقتال، فخطبهم الإمام ووعظهم فلم يرتدعوا، وصاح مناديهم فيهم: دعوا مخاطبة علي وأصحابه، وبادروا إلى الجنة. وصاحوا: الرواح إلى الجنة!!

وتقدم حرقوص ذو الثدية وعبد الله بن وهب وقالا: ما نريد بقتالنا إياك إلا وجه الله والدار الآخرة.

فقال عليه السلام:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[1]؟؟

٥ ـ عن الإمام العسكري عليه السلام عن آبائه عن الصادق عليه السلام أنه قال: قوله عزَّ وجل ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾[2] يقول: أرشدنا الصراط المستقيم، أرشدنا للزوم الطريق المؤدي إلى محبتك، والمبلغ إلى جنتك من أن نتبع أهواءنا فنعطب، أو نأخذ بارائنا فنهلك، فإن من اتبع هواه واعجب برأيه كان كرجل سمعت غثاء الناس تعظمه وتصفه فاحببت لقاءه من حيث لا يعرفني لانظر مقداره ومحله فرأيته في موضع قد أحدق به خلق من غثاء العامة فوقفت منتبذاً عنهم مغشياً بلثام أنظر إليه وإليهم، فما زال يراوغهم حتى خالف طريقهم وفارقهم، ولم يقر، فتفرقت العوام عنه لحوائجهم وتبعته اقتفي أثره فلم يلبث أن مر بخباز فتغفله، فأخذ من دكانه رغيفين مسارقة، فتعجبت منه، ثم قلت في نفسي: لعله معاملة، ثم مر من بعده بصاحب رمان فمازال به حتىٰ تغفله فأخذ من عنده رمانتين مسارقة، فتعجبت منه ثم قلت في نفسي: لعله معاملة.

ثم أقول: وما حاجته إذاً إلى المسارقة؟! ثم لم أزل أتبعه حتى مر بمريض فوضع الرغيفين والرمانتين بين يديه ومضى وتبعته حتى استقر في بقعة من صحراء فقلت له: يا عبد الله لقد سمعت بك وأحببت لقاءك، فلقيتك لكني رأيت منك ما شغل قلبي، وإني سائلك عنه ليزول به شغل قلبي.

---

(١) علي من المهد إلى اللحد، ص٥٠٤ ـ ٥٠٧ (ط٤).

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٦.

قال: ما هو؟ قلت: رأيتك مررت بخباز وسرقت منه رغيفين، ثم بصاحب الرمان فسرقت منه رمانتين فقال لي: قبل كل شيء: حدثني من أنت؟ قلت: رجل من ولد آدم من أمة محمد ﷺ قال: حدثني ممن أنت؟ قلت: رجل من أهل بيت رسول الله ﷺ قال؛ أين بلدك؟ قلت: المدينة قال: لعلك جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب؟ قلت: بلى قال لي: فما ينفعك شرف أصلك مع جهلك بما شرفت به، وتركك علم جدك وأبيك، لأن لا تنكر ما يجب أن يحمد ويمدح فاعله!

قلت: وما هو؟ قال: القرآن كتاب الله: قلت: وما الذي جهلت؟ قال: قول الله عزَّ وجلَّ ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾(١) وأني لما سرقت الرغيفين كانت سيئتين، ولما سرقت الرمانتين كانت سيئتين فهذه أربع سيئات، فلما تصدقت بكل واحد منها كانت أربعين حسنة فانتقص من أربعين حسنة أربع سيئات بقي لي ست وثلاثون قلت: ثكلتك أُمك أنت الجاهل بكتاب الله، أما سمعت الله عزَّ وجل يقول ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾(٢).

إنك لما سرقت الرغيفين كانت سيئتين، ولما سرقت الرمانتين كانت سيئتين ولما دفعتهما إلى غير صاحبهما، بغير أمر صاحبهما، كنت إنما أضفت أربع سيئات إلى أربع سيئات، ولم تضف أربعين حسنة إلى أربع سيئات، فجعل يلاحيني فانصرفت وتركته(٣).

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

(٣) بحار الانوار، ج٤٧، ص٢٣٨ (ط الوفاء).

الآية

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾[1].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣.

المفردات

﴿ٱلسُّفَهَآءَ﴾: السفه خفّة العقل، وقلة التمييز بين الخير والشر والنفع والضرر.

الإعراب

«ما» في قوله تعالى ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ مصدرية، تؤول مع صلتها بالمصدر أي «آمنوا كإيمان الناس» بمعنى آمنوا إيماناً مشابهاً لإيمانهم.

و«الهمزة» في قوله تعالى ﴿أَنُؤْمِنُ﴾ للاستفهام الإنكاري.

و«إلاّ»: حرف يدل على التنبيه[1].

التفسير

للمنافقين سلوك معين، يتميز عن سلوك عامة المؤمنين، وهذا التميز ربما كان يلفت انتباه المؤمنين، فكانوا يتوجهون إلى المنافقين قائلين:

﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾.. ودعوا النفاق جانباً.. وذوبوا في هذا البحر الخضم.. ولتكن صبغتكم صبغة الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾.

ولكن هذا «السلوك المتميز» للمنافقين كان ينبعث من «نظرة

(١) مضى البحث فيه في الآية (١٣) من هذه السورة.

متميزة». . إنهم يعتبرون المؤمنين الحقيقيين «سفهاء». . ويعتبرون عمل المؤمنين الحقيقيين «عملاً سفهياً». . بينما يتصورون أنفسهم «راشدين» وعملهم «عملاً رشدياً».

لذا ترى المنافقين يقولون مستنكرين في مواجهة منطق المؤمنين ـ عندما يأمنون عواقب التصريح:

﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾!

ولكن لماذا؟

رؤية متميزة

في الجواب نقول: لعل هذه النظرة المتعالية إلى المؤمنين الحقيقيين تنبع من نوعية نظرة المنافقين إلى الكون والحياة ككل. .

وأساساً. . وقبل كل شيء لا بد أن نقول:

إن «النظرة التجزيئية» للأمور ربما تجعل تقييم الإنسان للأمور يختلف بشكل جذري عما لو كانت نظرته «نظرة شمولية». .

وهذا لا يختص بشان معين، بل يعم كل الشؤون سواء ما يتعلق منها بالدنيا، أو ما يتعلق منها بالآخرة.

فربما تكون الأتعاب التي يبذلها الطالب في استيعاب الدروس وحفظ المواد عملاً سفهياً لو كانت النظرة نظرة تجزيئية. . فلماذا يترك الطالب اللهو واللعب ويجهد نفسه في الدراسة إذا كانت النظرة متمركزة على اللحظة الحاضرة؟

أما عندما تتوسع آفاق نظرة الإنسان ليستشرف الغد. وليرى أن هذا

الجهد سوف يؤمن له حياة هانئة في المستقبل. . فإن هذا الجهد سوف يبدو عملاً حكيماً لا بد منه. . ويكون اللهو واللعب هو السفاهة بعينها.

وهذا بالضبط ما يصدق في ما يتعلق بـ«دائرة الغيب».

فإذا رفض الإنسان الإيمان بـ «المبدأ» و«المعاد» وتصور أن الإنسان كائن عشوائي نبت من الأرض عن طريق الصدفة. . وسيعود إلى الأرض ليضل فيها. . ويتلاشى تحت أطباقها. . وأنه ليس هنالك حساب ولا كتاب. . ولا جنة ولا نار. . فسوف تتغير نظرته إلى كل شيء. .

عندئذ: سوف يكون من السفاهة: التقيد بالحدود الدينية. والحيلولة دون الإنطلاقة المسعورة للشهوات. . إذ ما دامت الدنيا هي المحطة الأخيرة في مسيرة الإنسان. . فلماذا لا ينتهز هذه الفرصة ليعب من الشهوات الماجنة. . وليكرس مصالحه الشخصية في الحياة. . ولو جاء ذلك على حساب الآخرين. . وعلى حساب صدقه ونزاهته واستقامته في الحياة؟

عندئذ: سوف يكون «الإنفاق»: تبذيراً. .

و«الجهاد» تهلكة. .

و«الشجاعة» تهوراً. .

و«الجبن» حكمة. .

عندئذ: تتحول جميع الفضائل الإنسانية إلى نوع من أنواع السفاهة. . وضعف العقل. . وقلة الفهم.

ومن خلال هذا المنظار: سيكون المؤمنون سفهاء. . وستكون كل أعمالهم «أعمالاً سفهية». .

ولكن هذا هو ما تمليه النظرة القريبة المدى..

أما عندما تكون النظرة بعيدة المدى..

عندما يخرق الإنسان ـ ببصيرته ـ حجب المادة لينفذ إلى أعماق هذا الوجود..

عندما يبصر الإنسان ـ بعين القلب ـ ربه، ويراه قبل كل شيء، ومع كل شيء، وبعد كل شيء..

عندما يمعن النظر فيرى أن هذه الدنيا ليست هي المحطة الأخيرة.. وإنما هي محطة في الطريق.. وإن هذه الدنيا هي فرصة للتكامل.. والإعداد لعالم اسمى وارفع.. وان الدنيا مزرعة الآخرة.. وأنها سوق ربح فيها قوم وخسر فيها آخرون..

عندئذ: تنجلي الحقيقة، ويتبين أن «السفهاء» ليسوا إلا أولئك المحدودي النظر.. الذين خسروا الحياة الأبدية من أجل ارواء شهوات عابرة..

بل وخسروا حياتهم الدنيا أيضاً حين فقدوا الملاذ الحصين الذي يلجأ إليه المؤمنون وهو الله تعالى..

عندئذ: تنكشف حقيقة المنافقين «الحكماء»!

ويتبين: ﴿إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾.

ولكن أنى لمن في قلبه مرض.. وفي آذانه وقر.. وعلى عينيه غشاوة.. أن يتبين الحقيقة.. ومن هنا يعقب القرآن الكريم على ذلك بقوله:

﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾..

قال السبزواري (قدس سره):

وفي قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ تنبيه على أنهم متوغلون في الجهالة، وتأكيد على نفي الإدراك عنهم بجميع أنواعه: من (نفي الشعور) و(نفي العلم) و(نفي الفقه)[1] فتأمل.

هذا.. وقال في (الكشاف):

فإن قلت: فلم فصلت هذه الآية بـ«يعلمون» والتي قبلها بـ«لا يشعرون»؟

قلت: لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل يحتاج إلى نظر واستدلال، حتى يكتسب الناظر المعرفة، وأما النفاق وما فيه من البغي المؤدي إلى الفتنة والفساد في الأرض فامر دنيوي مبني على العادات معلوم عند الناس، خصوصاً عند العرب في جاهليتهم وما كان قائماً بينهم من التغاور والتناحر والتجاذب، والتحازب فهو كالمحسوس المشاهد[2] فتأمل.

ثم لا يخفى أن عدم العلم لا يكون عذراً لهؤلاء.. إذ أنهم وصلوا إلى هذه النهاية الأليمة بسوء اختيارهم.. فلا عذر لهم أمام الله.. بل لله عليهم الحجة البالغة[3].

كيف ينظرون إلى المؤمنين؟

١ ـ في تفسير علي بن إبراهيم ـ في حديث طويل حول حرب بدر ـ (وكانت فئة من قريش اسلموا بمكة فاحتبسهم آباؤهم، فخرجوا مع قريش

(١) مواهب الرحمن، ج١، ص٩٥.
(٢) الكشاف ج١، ص١٨٣.
(٣) راجع ما نكرناه، في تفسير قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم).

إلى «بدر» وهم على الشك والارتياب والنفاق، منهم قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكهة، والحارث بن ربيعة، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن المنبه، فلما نظروا إلى قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: مساكين هؤلاء، غرهم دينهم، فيقتلون الساعة، فأنزل الله عزَّ وجل على رسول الله ﷺ:

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1][2].

٢ ـ نقل؛ أن عبيد الله بن زياد كان قد بعث عمر بن سعد قائداً لاربعة آلاف جندي إلى (دستبي) ـ وهي تقارب التسعين قرية بين همدان وقزوين ـ وكانت «الديلم» قد خرجوا إليها وغلبوا عليها، وكتب ابن زياد له عهده على (الري).

فعسكر بالناس في (حمام اعين).

فلما كان من أمر الحسين عليه السلام ما كان دعا (ابن زياد): (عمر بن سعد) وقال له: سر إلى الحسين، فإذا فرغنا بيننا وبينه سرت إلى عملك.

فاستعفاه.

فقال ابن زياد: نعم، على أن ترد عهدنا!

فلما قال له ذلك قال ابن سعد: امهلني اليوم حتى انظر!

فامهله.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٩.
(٢) نور الثقلين، ج٢، ص١٣٢ (ط افست علمية قم).

فاستشهار ابن سعد نصحاءه فكلهم نهاه.

وأتاه حمزة بن المغيرة بن شعبة وهو ابن أخته فقال: أنشدك الله يا خالي أن لا تسير إلى الحسين عليه السلام فتأثم وتقطع رحمك، فوالله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض ـ لو كان ذلك لك ـ خير من أن تلقى الله بدم الحسين عليه السلام.

فقال: افعل.

وبات ابن سعد ليلته مفكراً في أمره، فسمع وهو يقول وينشد:

فوالله ما أدري واني لحائر افكر في أمري على خطرين
ءأترك ملك الري والري منيتي أم أرجع مأثوما بقتل حسين؟
حسين ابن عمي والحوادث جمة لعمري ولي في (الري) قرة عيني
الا إنما الدنيا بخير معجل فما عاقل باع الوجود بدين!
وان اله العرش يغفر زلتي ولو كنت فيها اظلم الثقلين
يقولون إن الله خالق جنة ونار وتعذيب وغل يدين!
فان صدقوا فيما يقولون إنني أتوب إلى الرحمن من سنتين!
وان كذبوا فزنا بدنيا عظيمة وملك عقيم دائم الحجلين[1]

جاء في قضية مطولة نقلها الشيخ المفيد (قدس سره):

إن أحد الصحابة ـ وكان ممن يظهر الإيمان ويبطن الكفر ـ قال في شعر له:

ذرينا نصطبح يا أم بكر فإن الموت نقب عن هشام

---

(١) راجع معالي السبطين ـ ج١، ص٣٠١ ـ ٣٠٢ (ط مؤسسة النعمان) وراجع أيضاً معالم الزلفى ـ ص٣٢٦ (الطبعة الحجرية ـ كانون انتشارات عابدي).

ونـقـب عـن أبـيـك وكـان قـرمـا مـن الأبـطـال شـراب الـمـدام..
أيوعدنا ابن كبشة[١] ان سنحيا وكـيـف حـيـاة اشـلاء وهـام؟
أيـعـجـز أن يـكـف الـمـوت عـنـي ويـحـيـيـنـي إذا بـلـيـت عـظـامـي!
خلا ان الـحـكـيـم[٢] رأى حميرا فـألـجـمـهـا فـتـاهـت فـي الـلـجـام!
ولـم يـكـفـيـه جـمـع الـمـال حتى بـلانـا بـالـصـلاة وبـالـصـيـام!
فـهـل مـن بـلـغ الـرحـمـن عـنـي بـأنـي تـارك فـرض الـصـيـام
فـقـل لـلـه يـمـنـعـنـي شـرابـي وقـل لـلـه يـمـنـعـنـي طـعـامـي![٣].

تذنيب

اللام في قوله تعالى: ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ فيها وجهان:

إحداهما: أن تكون للعهد ـ أي كما آمن رسول الله ﷺ، ومن معه.

وقد كان المنافقون شكلوا جبهة في مقابل الجبهة الإيمانية، وكانوا يخططون بشكل مستمر للقضاء عليها فكان لها حضور دائم في أذهانهم، وبهذا الإعتبار صح العهد، إذ أنه يحتاج إلى الحضور الذهني أو ما يشابهه.

أو هم ناس معهودون كعبد الله بن سلام واشياعه، فإنهم كانوا من أبناء جنسهم، وكانوا اصحابهم، وقد غاظهم إيمانهم، فهم حاضرون في أذهانهم، وبهذا الإعتبار صح العهد أيضاً مضافاً إلى الإعتبار السابق.

ثانيهما: أن تكون للجنس:

---

(١) يقصد رسول الله ﷺ.
(٢) يقصد النبي الأكرم ﷺ حاشاه ثم حاشاه
(٣) معالم الزلفى، ص٣٢٧.

١ ـ أما بتقرير: أن أكثر الأوس والخزرج كانوا مسلمين. وهؤلاء المنافقون كانوا أقلية بينهم، ولفظ العموم قد يطلق على الأكثر.

٢ ـ أو بتقرير: أن المؤمنين هم (الناس) في الحقيقة، لأن ميزة الإنسان على غيره من الحيوانات بالرشد العقلي، والقدرة على التمييز بين الحق والباطل وقد أُوتي المؤمنون ذلك بينما فقده المنافقون، فهم إذاً قاصرون عن مرتبة الإنسانية فلا يستحقون ادراجهم في إطار «الناس» فتأمل[١].

روايات في المقام

١ ـ عن الإمام الكاظم عليه السلام ـ في حديث ـ في قوله تعالى ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾..

(قالوا في الجواب لمن يفضون إليه لا هؤلاء المؤمنين لأنهم لا يجسرون على مكاشفتهم بهذا الجواب، ولكنهم يذكرون لمن يفضون إليه من اهليهم الذين يثقون بهم، يقولون لهم: أنؤمن كما آمن السفهاء يعنون سلمان وأصحابه)[٢].

٢ ـ وفي الحديث نفسه في تفسير كلمة «السفهاء» قال عليه السلام:

(قال عزَّ وجل ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ الإخفاء العقول والآراء الذين لم ينظروا في أمر محمد صلى الله عليه وآله حق النظر..)[٣].

---

(١) راجع الكشاف ج١، ص١٨٢ وهامشه ـ والتفسير الكبير ـ ج٢، ص٧٤ ـ ٧٥.
(٢) البرهان، ج١، ص٦٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٣.

الآيتان

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾[1].

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[2].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥.

المفردات

﴿لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: التقوا بهم واجتمعوا معهم.

﴿خَلَوْا۟﴾: اختلوا بهم وانفردوا معهم والأصل في هذه الكلمة أن توصل بالباء بأن يقال: وإذا خلوا بشياطينهم لكنها حيث ضمنت معنى «انصرفوا» عديت بـ«إلى» فالمعنى: وإذا انصرفوا (حال كونهم خالين) إلى شياطينهم.. وفائدة التضمين أداء الكلمة الواحدة معنى كلمتين(١).

وقيل: ان (إلى) بمعنى (الباء).

شياطينهم: رؤسائهم، أو أشباههم من المنافقين الذين يماثلون الشياطين في تمردهم وعتوهم وبعدهم عن الخير والصلاح، والشيطان مشتق من (شطن) إذا بعد، لبعده عن الخير، أو من (شيط) إذا بطل،

---

(١) ونظيره قوله تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ أي لا تضموها إليها آكلين.
وقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ أي الإفضاء اليهن بالرفث بهن.
وقوله تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي لا يصغون إلى الملأ الأعلى.
وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ أي يميزه عنه وقال الفرزدق:

كيف تراني قالباً مجني قد قتل الله زياداً عني

أي صرفه عني بالقتل ـ وفي التضمين بحث طويل مذكور في القاعدة الثالثة من الباب الثامن من مغني اللبيب (راجع مغني اللبيب ـ ج٢، ص١٩٣ ـ (دار الكتاب المصري ـ دار الكتاب اللبناني).

لكونه بعيداً عن الحق فعلى الأول يكون وزنه (فيعال) وعلى الثاني (فعلان).

﴿مُسْتَهْزِءُونَ﴾: ساخرون، مستخفّون.

﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾: يزيدهم.

﴿طُغْيَٰنِهِمْ﴾: الطغيان مجاوزة الحد في العتو والتمرد.

﴿يَعْمَهُونَ﴾: العمة: عمى القلب والتخبط على غير هدى. أو هو التحير والتردد.

الإعراب

معكم: منصوب على الظرفية متعلق بمحذوف هو خبر لـ«أن»، وتقديره أنا كائنون معكم أو انا استقررنا معكم.

قال ابن مالك:

واخبروا بظرف أو بحرف جر   ناوين معنى (كائن) أو (استقر)

يعمهون: جملة مركبة من الفعل والفاعل، في موضع نصب، حال من الضمير المنصوب في قوله تعالى «ويمدهم».

النزول

عن ابن عباس قال: كان رجال من اليهود إذا لقوا أصحاب النبي ﷺ أو بعضهم قالوا: إنا على دينكم.. وإذا خلوا إلى شياطينهم وهم اخوانهم.

قالوا: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي على مثل ما أنتم عليه ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ ساخرون بأصحاب محمد ﷺ[1].

وعنه أيضاً أنه قال في الآية: وهم منافقو أهل الكتاب[2].

التفسير

في هاتين الآيتين الكريمتين إشارة إلى أُمور ثلاثة تتعلق بالمنافقين:

١ ـ للمنافقين أكثر من وجه وأكثر من لسان.

المؤمن ذو وجه واحد وذو لسان واحد.. فهو يبطن الإيمان، ويظهر الإيمان وليس له وجهان، ولا لسانان..

أما المافق.. فله أكثر من وجه.. وأكثر من لسان.. يلاقي المؤمنين بوجه.. ويلاقي الكفار بوجه آخر.. يتحدث مع المؤمنين بلغة الإيمان.. ويتحدث مع الكفار والمنافقين بلغة الكفر.. يظهر الخير للمؤمنين.. ويتآمر في الخفاء لالحاق الأذى بهم.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إذا التقى هؤلاء المنافقون بهم واجتمعوا معهم أخذوا يكذبون وينافقون و«قالوا: آمنا» أي أننا تركنا معسكر الكفر وانتقلنا إلى معسكر الإيمان.. أو إننا آمنا بقلوبنا إيماناً خالصاً لا يشوبه شك ولا ريب، وصدقنا بما نزل على النبي ﷺ كما صدقتم أنتم ولكن: عندما يختلفون بشياطينهم ويأمنون انكشاف أمرهم يظهرون كوامن قلوبهم.. ويطمئنون أولئك الشياطين بأنهم معهم.. وعلى خطاهم ودينهم..

---

(١) الدر المنثور، ج١، ص٣١ (ط دار المعرفة).
(٢) المصدر.

أجل «قالوا: إنا معكم». .

أي إننا ثابتون على خطكم، ولم نتحول منه إلى خط الإيمان. . كما تقتضيه (الجملة الاسمية) فإنها تفيد الثبات والاستمرار. . (وقد ذكروا نظير ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾[1] حيث ذكروا أن عدو له عليه السلام إلى الجملة الاسمية في الجواب يفيد الثبات والاستمرار. .).

ولعل التأكيد بأن في هذه الجملة (حيث أن كلمة «إنّا» مركبة من «ان»المؤكدة وضمير الجمع (نا)، ثم حذفت النون الثانية، من أجل التخفيف، فصار «انا»).

نابع من أن المنافقين يخسرون ـ عادة ـ ثقة الطرفين، أما المؤمنون فلأنهم يشاهدون آثار النفاق فيهم، وأما الشياطين فلأنهم كثيراً ما يشككون في حقيقة موقف المنافقين. . فإن الإنسان اللامبدئي يشك فيه الجميع حتى امثاله. . إذا ما دام هذا الإنسان ينافق مع الآخرين. فربما ينافق مع زملائه أيضاً. . ولذا ورد في الحديث الشريف «من نم لك نم عليك».

فإن الطبيعة الإنسانية طبيعة واحدة. . والانسان إذا خان في مورد. . فمن السهل عليه أن يخون في مورد آخر. . بينما الإنسان الامين الصادق سوف يكسب ثقة الجميع حتى اعداءه. .

لأن طبيعته الامينة سوف تملي عليه أن يلتزم الإمانة حتى مع اعداءه. .

وحيث أن المنافقين يشعرون بذلك. . ويدركون شك شياطينهم

---

(١) سورة هود، الآية: ٦٩.

بهم.. لذا يضطرون إلى التأكيد لهم بأنهم ثابتون على خطهم ومنهجهم في الحياة.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ﴾.

٢ ـ وجود عناصر ماكرة تحركهم من وراء الستار

وقد كان وراء المنافقين عناصر ماكرة.. تحركهم من وراء الستار.. وتخطط لضرب الإسلام والمسلمين بواسطتهم.

وربما أطلق على هؤلاء كلمة «الشياطين» لأن مجموعة من الصفات تمثلت فيهم، هي من أبرز صفات الشياطين:

١ ـ فالشيطان يتصف بصفة «التخطيط الشرير».. لتحقيق أهدافه.. وهؤلاء كانوا يخططون دائماً لضرب الإسلام والمسلمين..

٢ ـ والشيطان يتصف بصفة «التحريك الشرير» عبر القاءاته المستمرة في صدور الناس.

قال الله سبحانه وتعالى:

﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾[1].

وقال سبحانه:

﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾[2].

---

(١) سورة الناس، الآيات: ٤ ـ ٦.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٨.

وهؤلاء الشياطين كان دأبهم تحريك المنافقين بشكل مستمر لتحقيق أهدافهم اللامشروعة.

٣ ـ الشيطان: لا يظهر.. وإنما يختفي وراء الكواليس.. وينفذ مؤامراته الشريرة في الظلام.

يقول سبحانه وتعالى:

«إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا يرونهم»

وقد اتصف هؤلاء الشياطين بذلك أيضاً..

من هم «الشياطين»؟

أما تحديد هوية هؤلاء «الشياطين» ففي ذلك أقوال:

القول الأول: إن المراد بهم «رؤساء المنافقين» فالصغار من المنافقين كانوا «أدوات» بيد الكبار منهم فكانوا يختلطون بالمؤمنين ويتظاهرون بأنهم منهم.. ويحاولون من خلال ذلك تنفيذ مخططات «الأسياد».. أما «البكار» فكانوا يرون أنفسهم فوق ذلك.. فكانوا يقبعون وراء الكواليس.. ويحركون هذه الأدوات في سبيل مطامعهم الشيطانية..

وحيث أن هؤلاء الكبار كانوا يخافون على «صغارهم» من الحق.. ويشكون في بقاء ولاءاتهم.. لذا كانوا يحاولون استكشاف حقيقة مواقفهم وكان الصغار يؤكدون لهم دائماً بأنهم معهم.. ولم ينضووا ـ بجد ـ تحت راية الإيمان ابداً.

القول الثاني: إن المراد بهم «الكفار».. الذين كانوا قد عقدوا حلفاً مع المنافقين من مواجهة الزحف الإسلامي المتنامي يوماً بعد آخر..

وكان كل الطرفين يشعر بحاجته إلى الآخر. . فالمشركون كانوا بحاجة إلى «طابور خامس» داخل الجسد الإسلامي، ليتجسس على المسلمين، وينقل إليهم اخبارهم، ويدلهم على الثغرات الموجودة فيهم، ويثير في المسلمين الخوف والرعب، وينشر فيهم الإشاعات الكاذبة. .

والمنافقون كانوا بحاجة إلى مدد خارجي يسندهم ويمدهم بالقوة المادية والمعنوية أمام «نور الله» الذي كانوا يحاولون إطفاءه.

وكان هذان الفريقان يلتقيان ـ سراً ـ بين حين وآخر ليتدارسو الأمور ويرسموا الخطط الهدامة في مواجهة الإسلام، على ضوء المتغيرات الجديدة.

القول الثالث: أنهم كهانهم ـ وقد روى ذلك عن الإمام الباقر عليه السلام[1].

القول الرابع: ان المراد بذلك اشباههم من المنافقين.

القول الخامس: أنهم اليهود الذين أمروهم بالتكذيب.

وكان اليهود يخوضون صراعاً مريراً ضد الإسلام، بسبب أنهم فقدوا الكثير من امتيازاتهم اللامشروعة عند مجيء الإسلام.

ومن هنا فقد كانوا يتآمرون باستمرار للقضاء على هذه الرسالة الجديدة، وقد وجدوا في (المنافقين) خير وسيلة لذلك.

٣ ـ المنافقون يستهزءون بالمؤمنين

وحيث أن «رؤية» المنافقين للكون والحياة والإنسان رؤية تجزيئية، تتأطر بإطار المادة المحدودة، ولا تنفذ إلى أعماق هذا الوجود. . لتدرك

---

(١) راجع مجمع البيان ج١، ص١١٠ (منشورات دار مكتبة الحياة).

الحقيقة الكاملة. . كما أوضحنا ذلك في الآية السابقة. . لذا فقد كان المنافقون «يستهزءون» بالمؤمنين. . ويسخرون من مواقفهم وأعمالهم في الحياة. . لأنهم لا يستطيعون فهم حقيقة هذه المواقف، ولا ادراك واقع هذه الأعمال. . ورب عمل حكيم يبدو مثيراً للسخرية إذا جرد عن ملابساته. . وتركزت النظرة عليه بشكل منفرد. . .

ولا يخفى ما في قولهم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ من الحصر.. أي أن قولنا وعملنا هذا مع المؤمنين محصور في إطار «الاستهزاء» لا يتعداه إلى غيره.. وقد مضى نظيره في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ فراجع.

ويحتمل أن يكون قوله تعالى ـ حكاية عن المنافقين ـ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ تأكيداً لقولهم «إنا معكم» أي إن إيماننا ليس إيماناً جاداً، فإن الإنسان قد يقول بالعمل وهو مؤمن به جادّ فيه، وقد يقوم به وهو غير مؤمن به، ولا جاد فيه، بل هو يظهر الموافقة، ويبطن المخالفة، للوصول إلى بعض المصالح والأغراض.

قال في التبيان:

«الاستهزاء»: طلب الهزء بايهام أمر ليس له حقيقة في من يظن فيه الغفلة، والهزء: ضد الجد»[1].

عقوبتان

أما عقوبة هذا الإستهزاء وهذه السخرية. . فهي التي تتضمنها الآية التالية: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[2].

(١) التبيان ج١، ص٧٩ (دار إحياء التراث العربي).
(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٧.

فهؤلاء كانوا يسخرون من المؤمنين.. في محاولة لتحطيم كرامتهم والحط من قيمتهم.. وسوف يعاملهم الله سبحانه معاملة المستهزء.. كعقوبة تتجانس مع عملهم: فيحطم كرامتهم ويحط من قيمتهم.. وشتان ما بين استهزاء عبد ضعيف حقير.. واستهزاء جبار السماوات والأرض.

فـ«استهزاء» الله سبحانه ليس على حقيقته، فإن الاستهزاء من فعل الجاهلين، قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[1] بل يعني أنه يعاملهم معاملة المستهزىء.. فالمراد به «غاية الفعل» لا «مبدؤه» وقد مر توضيح ذلك فيما مضى[2].

وهذا الاستهزاء لا يختص بالآخرة فقط.. بل يشمل الدنيا أيضاً.. فالمنافق عادة يعيش ذليلاً مهاناً حقيراً.. لا يثق به أحد، ولا يطمئن إليه أحد.. حتى أقرب المقربين إليه.. فيعيش حياة بائسة تعيسة لا فكاك له منها أبداً..

وعلى هذا.. فقوله تعالى ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ لا يعبر عن عقوبة أخروية فقط.. وإنما يعبر أيضاً عن سنة من السنن الإلهية أودعها الله سبحانه في الحياة.. ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾[3].

وقيل: إن المراد بالاستهزاء أنه تعالى يجري عليهم حكم المسلمين في الظاهر كارثهم من المسلمين ودفنهم في مقابرهم، وتزويجهم منهم إذا خطبوا نحو ذلك، في حين أعد لهم اليم العذاب في الآخرة بما أبطنوا من

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٧.

(٢) راجع تفسير قوله تعالى «بسم الله الرحمن الرحيم» في سورة «الحمد».

(٣) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

النفاق، يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝١٤٥﴾[1].

فهو تعالى كالمستهزىء بهم حيث اجرى عليهم أحكام المؤمنين في الدنيا وميزهم عنهم في الآخرة.

وقيل: إنه مسوق على ضرب من المجاز، والمراد بالاستهزاء جزاء الاستهزاء، واطلق عليه الاستهزاء لما بين الفعل وجزائه من الملابسة والسببية.. أو من باب التجانس اللفظ فهو نظير قوله تعالى ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[3].

وقوله تعالى سبحانه ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾[5].

وقيل: إن ضرر استهزائهم بالمؤمنين لما رجع إليهم، ولا يضر عملهم بالمؤمنين، صار كأن الله تعالى استهزأ بهم.. فهو كما لو أخذ شخص يوجه السهام نحو (زيد) فعملت عملا أعاد كل سهم إليه، وأخذ يصيبه في بدنه، فكأنك قد استهزأت به.

وقيل: إن المراد أنه تعالى يستدرجهم ويهلكهم من حيث لا

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٥.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٥٤.

يعلمون. . وقد روي عن ابن عباس أنه قال في معنى (الاستدراج) أنهم كلما أحدثوا خطيئة جدد الله لهم نعمة، وإنما سمي ذلك استهزاءاً لأن ذلك في الظاهر نعمة، وفي الباطن نقمة، وفي ذلك استدراج لهم إلى الهلاك الذي استحقوه بما سلف من كفرهم.

قال في الكشاف:

«فإن قلت: فهلا قيل «الله مستهزىء بهم» ليكون طبقاً لقوله ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾؟

قلت: لأن يستهزىء يفيد حدوث الاستهزاء وتجدده وقتاً بعد وقت، وهكذا كانت نكايات الله فيهم وبلاياه النازلة بهم ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾[1].

وما كانوا يخلون في أكثر أوقاتهم من تهتك استار وتكشف أسرار، ونزول في شأنهم، واستشعار حذر من أن ينزل فيهم ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾[2].

هذه هي النتيجة الأولى.

أما النتيجة الأخرى. . فهي ما تكشفه الآية الكريمة بقولها:

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. .

و«العمه» هو العمىٰ. . فهذا الموقف سيؤدي بالمنافقين على مرور الأيام إلى العمى الكلي. . فلا يعودون يبصرون طريقهم في الحياة. .

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٦.

(٢) الكشاف ج١، ص١٨٨.

ويظلون يتخبطون في ظلمات مهولة بعضها فوق بعض لا فكاك منها ابدا . .

وهذه أيضاً سنة من سنن الله تعالى في الكون . . فإن المرض النفسي ينمو بطبيعته إن لم يعالج ولم تجتث جذوره . . طبقاً للمعادلات التي أودعها الله سبحانه في الكون . . فهذا النفاق الدائم والسخرية المستمرة سوف يعمقان مرض المنافقين الذي في قلوبهم حتى ينتهي الأمر إلى نهايته الأليمة . . حيث العمى الكلي، والضلال الشامل :

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(١) .

ويدل على هذا المعنى إضافة (الطغيان) إليهم : (ويمدهم في طغيانهم) . . فالطغيان تحقق منهم أولاً ، والامداد تحقق من الله سبحانه ثانياً .

قال في الكشاف:

فإن قلت : أي نكتة في إضافته إليهم؟

قلت : فيها(٢) إن الطغيان والتمادي في الضلالة مما اقترفته أنفسهم واجترحته أيديهم وإن الله بريء منه ، ردا لاعتقاد الكفرة القائلين : ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾(٣) ونفياً لوهم من عسى يتوهم عند اسناد المد إلى ذاته لو لم يضف الطغيان إليهم أن الطغيان فعله، فلما اسند المد إليه على الطريق الذي ذكر أضاف الطغيان إليهم ليميط الشبه ويقلعها ويدفع في

---

(١) راجع ـ لمزيد من التفصيل ـ تفسير قوله تعالى «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم».
(٢) أي في إضافة الطغيان اليهم ـ ولولا ذلك لخلت هذه الإضافة عن الفائدة وللزم أن يقتصر على قوله تعالى (ويمدهم في الطغيان)
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.

صدر من يلحد في صفاته، ومصداق ذلك أنه حين اسند المد إلى الشياطين اطلق الغي ولم يقيده بالإضافة في قوله ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ﴾[1][2].

وقيل: إن المراد بالمد المنع من الألطاف التي يمنحها الله تعالى للمؤمنين، فإنهم لما أصروا على كفرهم منع الله تعالى الطافة وخذلهم فتزايد الرين والدنس في قلوبهم، ففي كلمة (المد) مجاز لغوي، إذ أُريد به منع اللطف، مع إن معناه اللغوي غير ذلك، وعلى هذا فلا تجوز في الاسناد فتدبر.

وقيل: إن المراد بالمد في الطغيان ترك القسر وعدم الإلجاء إلى الإيمان.

كما يقال (افسد الأمير الرعية) إذا تركهم وشأنهم.

وكما يقال (إن الشرطة تمد المهربين) إذا غضت الطرف عنهم. وإنما يمدهم الله سبحانه بمقتضى كون الدنيا دار اختبار وامتحان، وذلك مما يتنافى مع القسر والالجاء.

وقيل: إن المراد من (الامداد) معناه الحقيقي، أي الزيادة الحقيقية، والحاق الشيء بما يقويه ويكثره، وهو فعل الشيطان كما قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ وإنما نسب إلى الله تعالى،

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٢.

(٢) الكشاف ج١، ص١٩٠.

لأنه هو الذي أقدر الشيطان على الأغواء ومكنه من ذلك وخلى بينه وبين عباده.

وقيل: إن المراد بـ(المد) هو المد في عمرهم، وامهالهم، فهو مأخوذ من (المد) دون (المدد)، قال الله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾[1] فتأمل.

وقد مضى بعض ما يتعلق بالمقام في قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) فراجع..

سلاح «الاستهزاء»

احدى افتك الاسلحة التي يشهرها المنافقون والكافرون والضالون في وجوه المؤمنين هو سلاح السخرية والاستهزاء.

وقد استخدمت جبهة الباطل هذا السلاح تجاه جبهة الحق على طول التاريخ..

فالنبي نوح عليه السلام عندما بدأ يصنع الفلك بأمر من الله تعالى أخذ قومه يسخرون منه.. ويقولون له: يا نوح كنت نبياً فاصبحت نجارا!

يقول الله تعالى:

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

(٢) سورة هود، الآيتان: ٣٨ ـ ٣٩.

والنبي الأعظم ﷺ تعرض للسخرية من قبل الكفار والمنافقين.

يقول الله سبحانه ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾[1].

ويقول سبحانه ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾[2].

ولم تقتصر القضية على رسول دون آخر.. بل شمل الاستهزاء جميع الرسل عليهم السلام.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾[3].

بل إن كل الأنبياء تعرضوا للسخرية والاستهزاء.

قال الله تعالى ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٧﴾﴾[4].

وكما لم يسلم الأنبياء عليهم السلام لم يسلم المؤمنون من السخرية والاستهزاء.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾[5].

واليوم نجد الباطل يستخدم السخرية بالاسلام والمقدسات والقيم الدينية كسلاح للتأثير على ذوي النفوس الضعيفة.. إذ أن أهل الباطل لا

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٦.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٥.

(٣) سورة يس، الآية: ٣٠.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٧.

(٥) سورة المطففين، الآيات: ٢٩ ـ ٣٢.

يرتكزون على قاعدة منطقية رصينة في هجومهم على الدين فيضطرون إلى استخدام السخرية والاستهزاء.

يقول الشهيد الشيرازي (قده).. في موضوع استهزاء الاعداء بالشعائر الحسينية:

وأما ترك الشعائر الحسينية لضحك الأعداء منها فهذا يكشف عن انهزامية بالغة في نفوس هؤلاء الحزبيين، فهل ضحك الأعداء يبرر التخلف عن ديننا وشعائرنا؟ ولقد كان الجاهلون والمنافقون الذع سخرية وأكثر ضحكاً من الإسلام، غير أن النبي العظيم لم يعر سخريتهم من الاهتمام ما كان يعيرها لطنين الذباب فمضى في سبيله لا يلويه شيء حتى انتصر، والقى القرآن ضوءا على واقعهم المتفسخ بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾. ولقد سخر اليهود بالاذان وسخر المشركون بالسجود[1]، فلم تثن من عزم المسلمين شيئاً، بل ضربوا على ذلك النهج المستقيم، غير مبالين بعثرات غيرهم، حتى ادخروا لنا التشيع عبر الزوابع الهوج.

وحيث أن أعداء التشيع ما ملكوا منذ اليوم الأول سلاحاً من العقل والدين لمحاربة التشيع، لم يجدوا بداً من التوسل بالاستهزاء ـ الذي هو سلاح المبطلين ـ لمطاردة التشيع، غير أن الحق ـ الذي مثله التشيع أكمل تمثيل ـ أقوى من أن يهزمه الاستهزاء، وكان الشيعة أصلب من أن ينال

---

(١) كما وسخر الملاحدة بمناسك الحج.. وقال ابن أبي العوجاء للإمام الصادقعليه السلام ـ ساخراً (إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر، وتهرولون هرولة البعير إذا نفر؟ من فكر في هذا وقدر علم أن هذا فعل أسسه غير حكيم ولا ذي نظر (راجع سفينة البحار ـ ج١، ص٢١١، وج٢، ص٢٨٣).

منهم الحديد والنار، فكيف بالاستهزاء، وكان ائمتهم يشجعونهم على هذا الصمود، وقد دعى لهم الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «.. اللهم إن أعداءنا عابوا علينا خروجهم إلينا فلم ينههم ذلك عن الشخوص إلينا خلافاً منهم على من خالفنا». وقد دعى النبي صلى الله عليه وآله على من يستهزىء بالشيعة على إقامة شعائرهم في حديثه لأمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: «.. وإن حثالة من الناس يعيرون زوار قبوركم كما تعير الزانية بزناها، أولئك شرار امتي لا أنالهم الله شفاعتي يوم القيامة».

ولكن، ما ضر الذين يقيمون شعائر دينهم أن يسخر منهم الجاهلون ما داموا يعلمون: أنهم على حق وان أعداءهم على باطل ولقد شكوا عند الإمام الصادق عليه السلام استهزاء الأعداء بهم فقال ـ مهدءاً روعهم ـ: «والله لحظهم اخطاؤا، وعن ثواب الله راغوا، وعن جوار محمد تباعدوا».

وقال له ذريح المحاربي: إني إذا ذكرت فضل زيارة أبي عبد الله عليه السلام، هزأ بي ولدي وأقاربي، فقال عليه السلام «يا ذريح دع الناس يذهبون حيث شاؤا، وكن معنا».

وما قيمة الاستهزاء، حتى يميل الإنسان عن خطه الصائب من أجله؟ وما قيمة المستهزئين أنفسهم حتى يعير لهم الإنسان اهتماماً؟ ولو كانت لهم قيمة لعلموا ما ينفعهم وينفع الناس، ولكن حيث لا قيمة ولا هدف تواضعوا بأنفسهم فرضوا أن يكون مستهزئين، فحسبهم هذا الإعتراف العملي بفشلهم وبطلان اتجاههم.

بالإضافة إلى أن موقفنا من الشعائر الحسينية يتركز على قاعدة فكرية وطيدة، ليس لنا الإنحراف عنها، وأن تظاهرت قوى العالم ضدها،

صحيح أن علينا أن نكف ضحك الأعداء عنا، ولكن بماذا يجب أن نكف ضحكهم عنا، هل بالتخلي عن واقعنا أو باستعراض فضائحهم حتى ينكمشوا على مغازيهم ولا يتطاولوا على مقدساتنا؟ وهل لنا أن نأخذ بما يشاؤه الأعداء أو بما يمليه علينا واقعنا؟ ثم هل الأعداء أقوى تنكيراً أم إبطال الاسلام؟ وإذا كانت الأجوبة على هذه الأسئلة تؤكد على الأقسام الأخيرة من شقي الترديد في الأسئلة فلماذا يضطرب موقفنا بمجرد ضحك الأعداء؟ وإذا كانت ثقتنا بالأعداء أكثر من ثقتنا بأئمتنا، فعلينا أن ننبذ الإسلام كله، ونعتنق مبادىء الأعداء؟! وإن كنا نؤمن أكثر من أعدائنا فلماذا نتبع أفعال أعدائنا؟ ولماذا لا نتمسك بتعاليم ائمتنا؟

وبعد هذا وذاك، علينا أن نعلم: أن الأعداء يتربصون بنا، فيشجعون التوافه ويضحكون على العظائم، حتى نترك العظائم ونعيش التوافه، والأعداء عندما يضحكوم من شيء فإنما يضحكون بعقولهم لا بعواطفهم، فلا يضحكون ابداً على نقاط الضعف لأنهم لا يخافون منها. وإنما يضحكون دائماً على نقاط القوة لأنهم يهابونها، فيحاولون القضاء عليها، فعلينا ـ متى أردنا السيادة ـ أن نستلهم واقعنا بنظرة مستقلة تعي مكاسبها وخسائرها، ولا نلتفت مطلقاً إلى ما يفعله الأعداء[١].

روايات في المقام

١ ـ عن الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ إنه قال إنهم كهانهم.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي على دينكم.

---

(١) للشعائر الحسينية ص١٩ ـ ٢٢.

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أي نستهزىء بأصحاب محمد ﷺ ونسخر بهم في قولهم (آمنا)[1].

٢ ـ عن الإمام الرضا عليه السلام: «إن الله لا يسخر ولا يستهزىء ولا يمكر ولا يخادع ولكنه تعالى يجازيهم جزاء السخرية، وجزاء الاستهزاء وجزاء المكر والخديعة، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً»[2].

---

(١) نور الثقلين ج١، ص٣٥.
(٢) المصدر.

الآية

﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾[1].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦.

المفردات

﴿ٱشۡتَرَوُاْ﴾: الاشتراء هو الاستبدال، وقيل هو الاستبدال مع رجاء الانتفاع، وفي الآية الكريمة استعارة؛ فكما أن الاشتراء فيه اعطاء شيء وأخذ آخر، كذلك كان استبدال أولئك المنافقين الضلالة بالهدىٰ.

﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾: الإنحراف، والخروج عن القصد.

﴿رَبِحَت﴾: الربح الزيادة على رأس المال.

الإعراب

(اولاء) اسم إشارة، مبني على الكسر في محل رفع، وهو مبتدأ.

و(الكاف) حرف خطاب. ولعل فائدته: تنبيه المخاطب.

و(الذين) خبر.

التفسير

بعد أن بين الله سبحانه في الآيات السالفة صفات المنافقين... يخلص في هذه الآية الكريمة إلى التقييم الكلي لمسيرتهم في الحياة...

فيقول سبحانه:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي المنافقون..

وإنما استخدم القرآن الكريم كلمة ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ التي يشار بها إلى البعيد ـ عادةً ـ للدلالة علىٰ بُعدهم عن الحق والإيمان.

فأولئك: ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾.

استبدلوا الضلالة بالهدىٰ... فأعطوا الهدىٰ... وأخذوا مكانها الضلالة... وما اتعس معاملة يعطي فيها الإنسان الهدىٰ... ويأخذ مكانها الضلالة.

لقد كان الهدىٰ بقربهم... فهم كانوا قرب الرسالة... وكانوا يرون النبي ﷺ، ويشاهدون المعاجز والآيات... لكنهم لم ينتفعوا بذلك.

لعلّه لم «يملك» غالبية المنافقين الهدىٰ يوماً ما... ولكن كانوا (يملكون أن يملكوا)... و(الملك) و(ملك الملك)بمعنى واحد...

توضيح ذلك: إن الإنسان بالنسبة إلى «الملكية» على ثلاثة أنواع:

١ ـ فتارة: يملك الإنسان الشيء بالفعل...

٢ ـ وتارة يملكه بالقوة... بحيث يكون في استطاعته أن يملكه بالفعل.

٣ ـ وتارة لا يملكه ولا يملك أن يملكه.. كالذين يعيشون في القفار النائية... ولا طريق لهم إلى الهدىٰ أبداً...

وحيث أن المنافقين كان باستطاعتهم أن يملكوا الهدىٰ... فكأنهم قد ملكوه بالفعل.

إلاَّ أن هؤلاء لم يستفيدوا من النور الذي كان بقربهم... وظلوا يعيشون في الظلام.

فهم كمن كانت بقربه دار مهيأة للسكن. . . فتركها وتوغل في مجاهيل الصحراء. . .

أو كانت لديه عين ماء عذابة. . . فهجرها، واتجه إلى المستنقعات الأسنة. ويحتمل أن يكون في الآية إشارة إلى «الهداية الفطرية» الكامنة في أعماق كل إنسان. . .

فكل مولود يولد علىٰ «الفطرة».

كما ورد في الحديث الشريف[1]. . . فهو يحمل في داخله قلباً نقيّاً ووجداناً طاهراً. . . يوجهه نحو الخير والإيمان. . .

إلا أن بعض الناس يسحق فطرته، ويدوس علىٰ وجدانه. . حتىٰ يلف قلبه الظلام ولا يبقىٰ فيه ولو بصيص من النور.

والمنافقون. . . باعوا هذه الهداية الفطرية التي أودعها الله سبحانه في أعماقهم. . . ليشتروا بدلها «الضلالة». . . حيث قتلوا كل اشعاعات النور في وجدانهم، ومسخوا فطرتهم، فلم تعد ترى طريق الهدىٰ أبداً.

وقيل: المراد أنهم أعطوا أنفسهم، وأخذوا مكان ذلك الضلالة، بينما كان الذي ينبغي أن يبيعوا أنفسهم في قبال الهداية، كما قال الشاعر:

أنفاس عمرك أثمان الجنان فلا — تشري بها لهباً في الحشر تشتعل

وقيل: أنهم استبدلوا بالإيمان الذي كانوا عليه قبل البعثة كفراً، فهم كانوا يبشرون بالنبي ﷺ ويؤمنون به، فلما بعث كفروا به، فكأنهم استبدلوا الكفر بالإيمان.

---

(١) عن النبي ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه وينصرانه) (سفينة البحار ـ ج٢، ص٣٧٣).

وقيل: أن الآية خاصة بالمنافقين الذين كفروا بعد إيمانهم.

ولكن: ما هي النتيجة:

عندما يقدم الإنسان على عمل... فإنه يستهدف من وراء ذلك مغنماً معيناً...

وهذا الهدف هو أول ما ينقدح في ذهن الإنسان ويحركه نحو تهيئة مقدماته الوجودية... وإن كان آخر ما يتحقق في الخارج...

ومن هنا قيل: «إن العلة الغائيّة علة فاعلية العلة الفاعلية»...

والمنافقون حين اختاروا «الخط الثالث»: (خط النفاق). فإنما كانوا يهدفون القضاء على الإسلام، وتأمين السعادة لأنفسهم. تلك السعادة... التي كانوا يجدون في الزحف الإسلامي خطراً عليها...

وقد خسروا هدفهم المنشود... فالإسلام قد تقدم رغمن آنافهم... كما أصبحت حياتهم مليئة بالقلق والاضطراب والمشاكل بمقتضىٰ قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾[1].

وبالإضافة إلى ذلك فقد خسر أولئك المنافقون نعمة «الهداية» التي هي أعظم نعمة في هذا الوجود.

وهكذا خسر المنافقون دنياهم... وخسروا آخرتهم أيضاً... ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ لأن أهدافهم الشيطانية قد منيت بالفشل الذريع...

﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ فخسروا نعمة الهداية أيضاً...

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤.

وتباً لها من صفقة. . . يخسر فيها الإنسان دنياه وآخرته. . في حين كان بإمكانهم أن يربحوا الدنيا والآخرة معاً!

أقوال أخر

وقيل: إن المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ أنهم ما كانوا مصيبين في هذه التجارة والاشتراء.

وقيل في معنى الآية: إن الذي يطلبه التجار في تجارتهم شيئاً: سلامة رأس المال والربح. وهؤلاء المنافقون قد أضاعوا الأمرين معاً، لأن رأس مالهم كان هو الهدىٰ فلم يبق لهم مع الضلالة، وحين لم يبق في أيديهم إلا الضلالة لم يوصفوا باصابة الربح وان ظفروا بما ظفروا به من الأغراض الدنيوية، لأن الضال خاسرها لك، وما كانوا مهتدين لطرق التجارة كما يكون التجار البصراء بالأمور العالمون بموارد الربح والخسارة.

وعلى هذا فعدم ربحهم في تجارتهم المستفاد من قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ متفرع على استبدالهم الضلالة بالهدىٰ المستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ فإن خسارة رأس المال في التجارة يترتب عليها انتفاء الربح، وهؤلاء لما خسروا الهدىٰ ـ حين استبدلوا الضلالة بها ـ لم يربحوا في تجارتهم شيئاً...

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ فليس معناه عدم اهتدائهم في الدين حتى يكون تكراراً لما سبق، بل لما وصفوا بالخسارة في هذه التجارة أشير في الآية الكريمة إلى عدم اهتدائهم لطرق التجارة كما يهتدي إليها التجار البصراء بالأمور التي يربح فيها ويخسر، فهؤلاء ما كانوا مهتدين

للمنهج الصحيح في التجارة، وما كانوا عارفين بالاسلوب الأمثل في التعامل مع الأمور... وكيف يكون مهتدياً من يضيع الحياة الأبدية لنزوات عابرة؟ بل يضيع حياته الدنيا أيضاً، بالقلق والاضطرابات والمشاكل الدائمة، كما يقتضيه قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[1].

وهذا القول يأباه ظهور الآية، واختبر الأمر بنظائره فتأمل...

رواية في المقام

عن العالم عليه السلام إنه قال:

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ﴾ باعوا دين الله، واعتاضوا منه الكفر بالله ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ﴾ أي ما ربحوا في تجارتهم في الآخرة، لأنهم اشتروا النار وأصناف عذابهم بالجنة التي كانت معده لهم لو آمنوا، وما كانوا مهتدين إلى الحق والصواب[2]

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٢) البرهان، ج١، ص٦٤.

الآيات

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾[1].

﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾[2].

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾[3].

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾[4].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٠

المفردات

﴿مَثَلُهُمْ﴾: حالهم وشأنهم. والمقصود في هذا المثل تشبيه الحال بالحال لا الذات بالذات فلا يلزم فيه رعاية التطابق بين الأفراد والتثنية والجمع ونحو ذلك، فلا يقال: لِمَ لمْ يقل مثلهم كمثل الذين استوقدوا ناراً وقيل أن لفظ (الذي) قد يوضع موضع الجمع كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾[1]. وقيل أراد بـ(الذي) الجنس، إذ لا يراد به الإشارة إلى شخص بعينه.

﴿اسْتَوْقَدَ﴾: أوقد وأشعل، أو طلب الوقود كالحطب ونحوه.

﴿أَضَاءَتْ﴾: الإضاءة كما قيل: كثرة الإنارة، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾[2].

ولعل السبب في ذكر ﴿النُّورُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾.

مع أن السياق يقتضي أن يقول: (بضوئهم) هو أن في الضوء دلالة على الزيادة، فلو قيل (بضوئهم) لا وهم الذهاب بالمرتبة العليا من النور، مع بقاء أصل النور، بينما المراد هو ازالة النور عنهم رأساً، واذهابه عنهم بالمرة، ألا ترىٰ كيف ذكر عقيبه ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ وكيف جمع

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٣.

(٢) سورة يونس، الآية: ٥.

الظلمات؟ وكيف نكرها؟ وكيف اتبعها؟ ما يدل على أنها ظلمة خالصة وهو قوله تعالى: ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ كذا قيل فتدبر.

﴿وَتَرَكَهُمْ﴾: صيّرهم.

﴿صُمٌّ﴾: جمع (أصم) وهو الذي لا يسمع.

﴿بُكْمٌ﴾: جمع (أبكم) وهو الذي ولد أخرس لا يستطيع النطق.

وقيل **الأبكم**: الذي لا ينطق ولا يفهم، فإذا فهم فهو الأخرس.

﴿عُمْيٌ﴾: جمع (أعمىٰ) وهو الذي فقد حاسة الأبصار، وقد يطلق ذلك على (أعمىٰ البصيرة) أيضاً.

﴿أَوْ﴾: بمعنى الواو ـ وهنالك احتمالات أُخر في هذه الكلمة.

﴿كَصَيِّبٍ﴾: الصيّب المطر أو المطر الغزير.

﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ جهة العلو.

﴿وَرَعْدٌ﴾: الرعد: صوت السحاب.

﴿بَرْقٌ﴾: البرق الضوء اللامع في السحاب.

﴿ٱلصَّوَٰعِقِ﴾: الصاعقة النار النازلة من السحاب.

﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾: الحذر طلب السلامة مما يخاف منه.

﴿مُحِيطٌ﴾: الإحاطة حصار الشيء من كل جهة بحيث لا يستطيع الإفلات.

﴿يَكَادُ﴾: يقارب.

﴿يَخْطَفُ﴾: الخطف أخذ الشيء بسرعة.

﴿قَامُوا۟﴾: وقفوا في أماكنهم ولم يتحركوا.

الإعراب

﴿كَمَثَلِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر للمبتدأ ﴿مَثَلُهُمْ﴾ وتقديره (كائن) ونحوه.

﴿مَا﴾ اسم موصول، منصوب على أنه مفعول به لإضاءت.

﴿حَوْلَهُۥ﴾ صلة ما، منصوب على الظرفية المكانية.

﴿فِى ظُلُمَـٰتٍ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف هو مفعول ثان لـ(ترك) وتقديره (ضائعين) أو (تائهين) أو نحو ذلك.

﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ حال من الضمير المنصوب في (تركهم) أي تركهم حال كونهم غير مبصرين. ويجوز أن تكون هذه الجملة مفعولاً ثانياً لـ(ترك) فيتعلق الجار حينئذٍ بفعل (ترك) ولا يكون مفعولاً ثانياً.

﴿صُمٌّۢ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هم).

﴿بُكْمٌ﴾ خبر ثان.

﴿عُمْىٌ﴾ خبر ثالث.

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ متعلق بمحذوف نعت أول لـ«صيب» تقديره كائن أو شبهه.

﴿فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ﴾ ظلمات مبتدأ مؤخر و«فيه» جار ومجرور متعلق بخبر مقدم محذوف تقديره «كائنة» أو نحوه والجملة في محل جر نعت ثان لـ«صيب».

﴿مِنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ «من» هنا للسببية، وهو في موضع المفعول لأجله.

﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ مفعول لأجله، أو مفعول مطلق أي يحذرون حذر الموت أي مثل ذلك الحذر.

﴿يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ هذه الجملة في محل نصب، خبر يكاد.

﴿كُلَّمَآ﴾ ظرف زمان متعلق بـ ﴿مَّشَوْاْ﴾.

النزول

قيل: إن قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ نزل في اليهود وانتظارهم خروج النبي ﷺ، واستفتاحهم به على مشركي العرب، فلما خرج كفروا به.

وذلك أن بني قريظة وبني النظير وبني قنقاع قدموا من الشام إلى «يثرب» (المدينة المنورة) ليكونوا أعواناً للنبي الجديد. وكان يأتيهم رجل من بني اسرائيل يقال له «عبد الله بن هيبان» قبل أن يوحىٰ إلى النبي ﷺ، كل سنة، فيحضّهم على طاعة الله عزّ وجلّ وإقامة التوراة والإيمان بمحمد ﷺ ويقول لهم: إذا خرج فلا تتفرقوا عنه وانصروه، وإن كنت أطمع أن أدركه. فكانوا يقبلون منه. فلما بعث النبي ﷺ ـ وكان ابن هيبان قد توفي حينئذٍ ـ كفروا بالنبي ﷺ، فضرب الله لهم هذا المثل.

وقيل في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

إن رجلين منافقين من أهل المدينة هرباً من رسول الله ﷺ فأصابهما مطر فيه رعد وصواعق وبرق، وكانا يجعلان أصابعهما في آذانهم مخافة الموت، وإذا لمع البرق مشياً في ضوئه، وإذا لم يلمع وقفا في مكانهما

ولم يبصرا شيئاً، فجعلا يقولان: يا ليتنا قد أصبحنا فنأتي محمداً فنضع أيدينا في يديه.

فأصبحا فأتياه فأسلما وحسن اسلامهما، فضرب الله تعالىٰ شأن هذين الرجلين مثلاً لمنافقي المدينة ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ فهؤلاء المنافقون إذا حضروا عند النبي ﷺ جعلوا أصابعهم في آذانهم خوفاً من أن ينزل فيهم شيئاً يفضحهم، كما كان ذانك الرجلان يجعلان أصابعهما في آذانهما، وكلما أصابوا غنيمة أو فتحاً وكثرت أموالهم وتيسرت أمورهم مشوا فيه وقالوا: دين محمد صحيح، وإذا هلكت أموالهم وأصابهم البلاء قالوا: هذا من أجل دين محمد فارتدوا كما كان يفعل ذانك الرجلان حين يظلم البرق عليها.

قيل في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾ إنه نزل في اليهود، لما نصر المسلمون في غزوة «بدر» قالوا: هذا الذي بشر به موسىٰ. فلما نكب المسلمون في غزوة «أُحد» وقفوا وشكّوا.

التفسير

في هذه الآيات الأربع يضرب الله سبحانه مثلين للمنافقين، تقريباً لواقع حالهم إلى الأذهان.

المثال الأول: العمى بعد المعرفة

المثال الأول؛ يتعلق بعمىٰ المنافقين عن الحق بعد معرفتهم له..

وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿مَثَلُهُمْ﴾ مثل هؤلاء المنافقين ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى﴾ اكتنفته ظلمات الليل البهيم فلم يعد يميز الخير من الشر، ولا النافع من الضار، ولا الخطوة

التي فيها نجاته من الخطوة التي فيها هلاكه، فـ ﴿ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ أي أوقدها ليتعرف على الطريق، ويجد على ضوء النار التي أوقدها: هدىٰ.

وصيغة (الاستفعال) هنا مجردة عن معنىٰ الطلب فهي بمعنىٰ صيغة (الأفعال) فـ ﴿ٱسْتَوْقَدَ﴾ بمعنى (أوقد) كما أن كلمة (استجاب) بمعنىٰ (أجاب).

وقيل: ان ﴿ٱسْتَوْقَدَ﴾ بمعنىٰ (طلب الوقود) كالحطب ونحوه.

فلما ﴿أَضَآءَتْ﴾ النار ﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾ وغمر الضوء الشديد أطرافه وتبينت له معالم الطريق...

هبت ريح ـ أو نحوها ـ وأطفأت النار الموقدة ولم تبق لها أي أثر... فاختفت من أمام ناظريه: المعالم، وغرق في بحر من الظلمات.

وهكذا المنافقون... انهم تعرفوا على «الحق» ـ المتمثل في رسالة الإسلام ـ بنور عقولهم... وكان بإمكان هذا النور أن يستمر ليخلصهم من ظلمات الحياة... إلا أنهم استسلموا لضغوط الهوى... وضغوط المجتمع... وضغوط الطواغيت... وسحقوا ضمائرهم... فكان أثر ذلك... أن ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾[1] فلم يعودوا يستفيدون من نور «الحجة الباطنة» (العقل) إذ:

إنارة العقل مكسوف بطوع هوىٰ   وعقل عاصي الهوىٰ يزداد تنويراً

وعندما يذهب النور... يستولي ـ على الأفق ـ الظلام... ولا يعود الإنسان يبصر ـ عندها ـ شيئاً.

---

(١) في مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ وما بعده احتمالان: أن يرجع إلى المنافقين، وأن يرجع إلى الذي استوقد ناراً ـ راجع ذلك في الكشاف ج١، ص ١٩٩ـ ٢٠٠.

ومن هنا يقول القرآن الكريم: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ﴾ أي صيرهم فيها، فهم ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ ما حولهم ولا يهتدون إلى سواء السبيل.

وعندما يستمر الظلام... ولا يتخلص منه الإنسان.. يتجذر... ويتحول إلى صفة لازمة...

إن «الضلال العرضي» ـ المتمثل في فقدان النور ـ يتحول إلى «ضلال ذاتي» ـ متمثل في الطبع على الاسماع والألسنة والأبصار ـ فهم «صم» لا يسمعون الحق.

﴿بُكْمٌ﴾ لا ينطقون به... ولا يستطيعون أن يستفهموا عنه.

﴿عُمْيٌ﴾ لا يبصرونه.

وفي قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾تنزيل لفقدان الوصف منزلة فقدان الأصل، وقد سبق بيانه في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾[1].

ويحتمل أن يكون مجازاً حيث استعير عمىٰ الأبصار لعمى البصائر. وهكذا في قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ﴾ فتأمل.

وعندئذٍ ينتهي كل أمل... إذ لا سمع لهم ليسمعوا الحق... ولا بصر لهم ليبصروا... ولا لسان لهم ليتكلموا أو يستفهموا...

فمن أين يهتدي هؤلاء إلى الطريق؟..

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ عن ضلالهم... وإنما سيظلون فيه حتى النهاية.

و«الفاء» في قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ للإشارة إلى أنهم حين

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧.

صموا وبكموا وعموا لم يرج فيهم الخير فإنه ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾[1][2].

أقوال أخر:

٢ ـ قيل: إن المراد تمثيل حال المنافق بمن اشعل ناراً ليستضيء بها ويدفء فلما أضاءت النار من حوله واستضاء بها واستدفأ ورأى ما حوله فاتقىٰ مما يحذر وأمن مما يخاف... وإذا بريح تهب، فتطفىء النار، ويظل في الظلمات... وإنما كان هذا مثلاً للمنافقين لأن المنافق يعبّد بإيمانه الظاهري لنفسه سبيل الحياة.

فيشترك مع المؤمنين في مواريثهم ومناكهم وغنائمهم ونحو ذلك... ويأمن على أمواله وأولاده ونفسه، فإذا حان حين الموت وقبض الله تعالى روحه ـ وهو الحين الذي فيه تمام الاستفادة من الإيمان ـ ذهب الله بنوره وأبطل عمله وتركه كسائر الكفار في نار وعذاب، وخوف واضطراب، حين يقبض الله تعالى أرواح المؤمنين إلى نور أوسع ورحمة أكبر[3].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾[5].

ثم لا يخفىٰ أن في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٤٥.

(٢) تقريب القرآن ج١، ص٤٧.

(٣) راجع تقريب القرآن ج١، ص٤٦ ـ ٤٧. والميزان ج١، ص٥٦ (ط٥) ومجمع البيان ج١، ص١١٨ (منشورات دار مكتبة الحياة).

(٤) سورة النساء، الآية: ١٤٥.

(٥) سورة الحديد، الآية: ١٣.

﴿بِنُورِهِمۡ﴾ دلالة على أن انتفاع هؤلاء بهذه النار كان يسيراً.. إذ أن المنافع الدنيوية الآنيّة بالإضافة إلى العذاب الدائم ليست إلا قليلاً.. فَشُبّه هؤلاء بمستوقد النار الذي انتفع بضوئها قليلاً ثم سلب ذلك، فدامت حسرته وحيرته للظلمة التي جاءته في أعقاب ذلك النور[1].

٣ ـ وقيل أن أناساً دخلوا في الإسلام عند وصول النبي ﷺ إلى المدينة ثم أنهم نافقوا، فبإيمانهم أولاً اكتسبوا نوراً ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك النور ووقعوا في بحر الظلمات.

٤ ـ وقيل: إنهم لما وصفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى في الآية السابقة عقب ذلك بهذا التمثيل، ليمثل هداهم الذي باعوه بالنار التي تضيء ما حول المستوقد، والضلالة التي اشتروها وطبع بها على قلوبهم بذهاب الله بنورهم وتركهم إياهم في الظلمات.

٥ ـ وقيل أن الآية الكريمة نزلت في اليهود وانتظارهم لبعثة الرسول ﷺ واستفتاحهم به على مشركي العرب فلما خرج كفروا به وقد سبق تفصيله في بحث (النزول).

٦ ـ وقيل أن تشبيه المنافقين بالمستوقد ناراً باعتبار أنهم غب الإضاءة خبطوا في الظلمة وتورطوا في الحيرة.

المثال الثاني: الخسارة... بدل الربح

أما المثال الثاني... فهو يتعلق بخسارة المنافقين... بدل الربح...

---

(١) راجع التفسير الكبير ج٢، ص٨١.

وأساساً نقول: أن كل شيء نافع خلقه الله سبحانه... يمكن أن يتحول إلى عنصر هدم... إذا أساء الإنسان العمل...

فالكهرباء وسيلة نافعة في مجالات كثيرة من مجالات الحياة... كإعطاء الدفء في الشتاء القارس... واعطاء البرد في الحر اللاّهب... وتحريك المعامل الضخمة التي تخدم حياة الإنسان... ولكن هذه الوسيلة بذاتها يمكن أن تتحول إلى آلة لقتل الحياة والإحياء فيما إذا اسيء التعامل معها...

والذرة يمكن أن تكون عامل بناء... في الوقت الذي يمكن أن تصبح فيه معول هدم...

وهكذا...

ولنعد إلى الآية الكريمة...

فهي تتناول ظاهرة «المطر» وظواهر طبيعية أخرىٰ...

إن المطر عامل بناء للحياة... فهو يسقي الحقول وينبت الزروع... ويحيي الأراضي الميتة... ويروي الظامئين... و... و...

ولكن هذا المطر الذي هو وسيلة خير ورحمة في النظام الكوني... يمكن أن يتحول إلى أداة هدم للحياة... إذا أسيء التصرف معه.

وهكذا الأمر في الظواهر الطبيعية الأخرى المصاحبة للمطر.

وإلا... تحول المطر بذاته إلى سيل مدمر يهدم الحياة... وكاد البرق يخطف أبصارنا... والرعد يصم آذاننا... والصواعق تصيبنا بالموت...

وهكذا حال المنافقين تجاه «الحجة الظاهرة» (الرسالة الجديدة)... إنهم لم يستفيدوا من هذه الرسالة... بل تضرروا بها ـ بسبب سوء اختيارهم ـ ابلغ الضرر.

يقول القرآن الكريم في هذا الأمر:

(أو) مثل آخر يصور حال المنافقين تجاه «الحجة الظاهرة» (الرسول) بعد أن كان المثال الأول يصور حال المنافقين تجاه «الحجة الباطنة» (العقل).

(كصيب) مطر يهطل (من السماء) من جهة العلو...

(فيه) في هذا المطر لوازم طبيعية تكتنف به وتحيطه... من:

(ظلمات) متكاثفة: ظلمة السحاب الذي يحول بين النور والأرض فيظلم الجو، وظلمة المطر، وظلمة تراكم السحب بعضها فوق بعض (و) فيه (رعد) قاصف (و) فيه (برق) خاطف.

ولكن ما هو موقف المنافقين تجاه ذلك؟

إنه موقف يثير السخرية... فهم يحاولون درء الخطر عن أنفسهم بوضع أصابعهم في آذانهم... بدل أن يلجأوا إلى حصن حصين...

فهم ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ﴾ لا «أناملهم» ولا «بعض أناملهم» ولا يخفىٰ ما في هذا التعبير من الدلالة علىٰ أنهم يحاولون اقحام أصابعهم بقوة في آذانهم من شدة الرعب[1].

---

(١) وتسمىٰ هذه العلاقة في «علم البلاغة» بـ«علاقة الكل والجزء».
راجع (المطول، والمختصر، وجواهر البلاغة وغيرها من الكتب البلاغية).

﴿فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ﴾ خشية ﴿ٱلصَّوَٰعِقِ﴾...

لماذا يفعلون ذلك؟ ﴿حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾... فإن الصوت الشديد ربما ينتهي بالإنسان إلىٰ الموت.

صحيح أن ذلك يخفف بعض الصدمة عنهم... لأنهم ـ عندئذٍ ـ لا يسمعون بعضاً من صوت الصواعق... لكن ذلك لا يكفي لدرء الخطر عنهم... إذ أنه محيط بهم قطعاً... فإن الأصوات سوف تتناهىٰ إلى سمعهم وتخلق فيهم الذعر والخوف... بالإضافة إلى أن الصاعقة قد تصيبهم وهم في العراء لم يلجأوا إلى ركن وثيق... فتهلكهم وتحولهم إلى حطام محترق.

﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ إحاطة قدرة وعلم...

قال الله سبحانه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ۝٢٠﴾(٢).

فلا يتوهم هؤلاء أنهم يستطيعون اخفاء نواياهم عن الله سبحانه أو أنهم يستطيعون الفرار من يد القدرة الإلهية...

إذا كان الخطر متوجهاً إلى الفرد من جهة واحدة يمكنه أن يفر من الجهة الأخرىٰ... ولكن إذا كان الخطر محيطاً بالفرد من كل جهة فأين يفر؟!.

﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ﴾ يستلبها من شدته...

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

(٢) سورة البروج، الآية: ٢٠.

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾ البرق ورأوا طريقهم على ضوئه.

﴿مَّشَوۡاْ فِيهِ﴾ أي في نطاق هدىٰ ضوئه.

﴿وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ﴾ولم يبرق.

﴿قَامُواْ﴾ في أماكنهم ـ أي وقفوا ولم يتحركوا ـ.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لـ زاد في قصف الرعد أو ضوء البرق.

﴿لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ﴾ بصاعقة قوية تصمهم.

«و» بـ﴿أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ ببرق قوي يعميهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾فلا يمكن الفرار من بأسه بجعل الأصابع في الآذان، أو وضع الأيدي على العيون، أو ما أشبه ذلك.

وجوه أخر:

٢ ـ وقيل: أن الفرق بين المثالين: أن المثال الأول كان مثالاً للمنافق نفسه، وهذا المثال مثال الحق الذي يغمر المنافق، لكنه لا ينتفع به، وتوضيح المثال بتطبيقه على المورد:

إن «الصيب» هو الحق النازل على رسول الله ﷺ.

و«البرق» هو تقدم المسلمين، وما يسبب لهم إنارة الطريق.

و«الرعد» و«الصواعق» ايعادات الرسل، والأهوال المكتنفة بالدعوة.

والمنافقون كمن ابتلي بهذا الصيب في الصحراء، فالحق كالمطر فيه الحياة، لكن فيه ظلمات غلبة الكفار وذهاب الأنفس والأموال

والثمرات، وفيه برق ينير طريق الحياة السعيدة، وفيه رعد وصاعقة: متمثلة في ايعادات الرسول ﷺ وفضحة للمنافقين.

وهؤلاء المنافقون تكاد سرعة تقدم المسلمين تعميهم، كلما أضاء لهم بأن غلبوا في الحرب وحصلوا على الغنائم اتبعوا الرسول ﷺ، وإذا أظلم عليهم بأن غلب عليهم الكفار وقفوا في مكانهم لا يعملون ولا يتقدمون ـ كما قال الله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾[1].

وهم يخافون الفضيحة إن نزلت آية في شأن المنافقين، فيجعلون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوها، أو يتغافلون عنها، كي لا يرىٰ أثر الإنهزام في وجوههم، فإن الإنسان المجرم إذا سمع ما يمس اجرامه ظهرت الصفرة وآثار الإنهزام على وجهه، لكن الله قادر على اماتتهم، كما هو قادر على فضحهم، والذهاب بسمعهم وبصرهم، فليسوا هم في راحة من نفاقهم ـ كما زعموا ـ بل هم في أشد ابتلاء ومحنة[2].

٣ ـ وقيل: إنه تمثيل لحال المنافقين بالذي أخذه صيب السماء ومعه ظلمة تسلب عنه الأبصار والتمييز، فالصيب يضطره إلى الفرار والتخلص، والظلمة تمنعه ذلك، والمهولات من الرعد والصاعقة محيطة به، فلا يجد مناصاً من أن يستقيد بالبرق وضوئه، وهو غير دائم ولا باق متصل، كلما أضاء له مشىٰ، وإذا أظلم عليه قام.

وهذه حال المنافق، فهو لا يحب الإيمان، ولا يجد بداً من إظهاره،

---

(١) سورة الحج، الآية: ١١.
(٢) تقريب القرآن ج١، ص٤٧ ـ ٥٠.

ولعدم المواطأة بين قلبه ولسانه لا يستضيء له طريقهُ تمام الإستضاءة، فلا يزال يخبط خبطاً بعد خبط، ويعثر عثرة بعد عثرة، فيمشي قليلاً، ويقف قليلاً. ويفضحه الله بذلك، ولو شاء الله لذهب بسمعه وبصره، فيفتضح من أول يوم[1].

٤ ـ وقيل: إنه شبه المطر المنزل من السماء بالقرآن.

وما فيه من الظلمات: بما في القرآن من الابتلاء.

وما فيه من الرعد: بما في القرآن من الزجر.

وما فيه من البرق: بما فيه من البيان.

وما فيه من الصواعق: بما في القرآن من الوعيد آجلاً، والدعاء إلى الجهاد عاجلاً.

٥ ـ وقيل: إنه مثل للاسلام، لأن فيه الحياة، كما أن في المطر الحياة.

وشبه ما فيه من الظلمات بما في اسلامهم من ابطان الكفر.

ومافيه من الرعد بما في الإسلام من فرض الجهاد وخوف القتل، وبما يخافونه من وعيد الآخرة ـ لفرض أنهم شاكون في دينهم ـ.

وما فيه من البرق بما في إظهار الإسلام من حقن دمائهم ومناكحتهم وموارثتهم.

وما فيه من الصواعق: بما في الإسلام من الزواجر بالعقاب في العاجل والآجل.

---

(١) الميزان ج١، ص٥٦.

٦ ـ وقيل: إنه شبه دين الإسلام بـ(الصيب) لأن القلوب تحيا به كما تحيا الأرض بالمطر.

وشبه ما يتعلق به من شبهات الكفار بالظلمات.

وما فيه من الوعد والوعيد بالبرق والرعد.

وما يصيب الكفرة من الفتن ومن المسلمين: بالصواعق.

وهم في اضطراب فاحش وخوف وقلق كما قال سبحانه ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾[1].

فقد فتح الله تعالىٰ عليهم أبواب الحكمة فاعترضوا ذلك بالشبه والأوهام ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾[2] فحصل بعد ذلك العلم الإلهي ظلمات وحيرة...

٧ ـ وقيل؛ أنه مثل يصور حال المنافقين ويرسم ما في نفوسهم من اضطراب وحيرة وقلق ومخافة... وهو مشهد عجيب، حافل بالحركة، مشوب بالاضطراب، فيه تيه وضلال، وفيه هول ورعب، وفيه فزع وحيرة، وفيه أضواء واصداء...

صيب من السماء هاطل غزير ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾... ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾.. ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾... أي وقفوا حائرين لا يدرون أين يذهبون... وهم فزعون ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾.

والحركة التي تغمر المشهد كله: من الصيب الهاطل، إلى الظلمات والرعد والبرق، إلى الحائرين المفزعين فيه، إلى الخطوات المروعة الوجلة، التي تقف عندما يخيم الظلام... إن هذه الحركة في المشهد

---

(١) سورة المافقون، الآية: ٤.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ١٧.

لترسم ـ عن طريق التأثير الإيحائي ـ حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التي يعيش فيها أولئك المنافقون. . . بين لقائهم للمؤمنين، وعودتهم للشياطين بين ما يقولونه لحظة ثم ينكصون عنه فجأة. بين ما يطلبونه من هدىً ونور وما يفيئون إليه من ضلال وظلام. . . فهو مشهد حسي يرمز لحالة نفسية، ويجسم صورة شعورية. وهو طرف من طريقة القرآن العجيبة في تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس.

ونظيره ما قيل: إن هذا المثل مسوق لبيان شدة حيرة المنافقين، فإن من ابتلي بمثل هذا المطر فقد بلغ النهاية في الحيرة لاجتماع أنواع الظلمات وحصول أنواع المخافات

وقد حصل في المنافقين نهاية الحيرة في شؤون الدين، ونهاية الخوف في شؤون الدنيا، لأنهم يخافون انكشاف ما يضمرونه في كل حين. . . ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾[1].

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾[2].

وعلى هذا يكون المفاد العام لهذا التمثيل والتمثيل المتقدم واحداً ـ بناءاً على الوجه الأخير الذي ذكرناه آنفاً ـ.

قال في الكشاف:

«فإن قلت أي التمثيلين أبلغ»؟.

قلت: الثاني، لأنه دلّ على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته، ولذلك أخّر، وهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٤.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٤.

فإن قلت: لم عطف أحد التمثيلين على الآخر بحرف الشك.

قلت: (أو) في أصلها لتساوي شيئين فصاعداً في الشك، ثم اتسع فيها فاستعيرت للتساوي في غير شك، وذلك قولك «جالس الحسن أو ابن سيرين» تريد أنّهما سيان في استصواب أن يجالسا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[1].

أي الآثم والكفور متساويان في وجوب عصيانهما، فكذلك قوله ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ معناه أن كيفية قصة المنافقين مشبهة لكيفيتي هاتين القصتين، وان القصتين سواء في استقلال كل واحدة منهما بوجه التمثيل، فبايّتهما مثلتها فأنت مصيب وان مثلتها بهما جميعاً فكذلك»[2].

فوائد

١ ـ في قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ مزية على قولنا (أذهب الله نورهم) وذلك أن معنى (اذهبه) ازاله وجعله ذاهباً، بينما معنىٰ (ذهب به) استحصبه ومضىٰ به معه. ويقال (ذهب السلطان بماله) أخذه وقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾[3]. والمعنى أخذ الله نورهم وامسكه ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ فهو أبلغ من الأذهاب[4].

٢ ـ في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ دلالة على أن هذا المطر عام مطبق آخذ بآفاق السماء، ولو اقتصر على قوله ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾

(١) سورة الإنسان، الآية: ٢٤.
(٢) الكشاف ج١، ص٢١٣ ـ ٢١٤.
(٣) سورة يوسف، الآية: ١٥.
(٤) الكشاف ـ ج١، ص٢٠٠.

لاحتمل أن يكون ذلك الصيب نازلاً من بعض جوانب السماء دون بعض[1].

٣ ـ قال في الكشاف:

فإن قلت: كيف قيل مع الإضاءة ﴿كُلَّمَآ﴾ ومع الاظلام ﴿إِذَا﴾؟

قلت: لأنهم حراص على وجود ما همهم به معقود، من إمكان المشي وتأتيّه، فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها، وليس كذلك التوقف والتحبّس[2].

الأمثال في القرآن الكريم

لقد أكثر الله سبحانه من ضرب الأمثال في القرآن الكريم، قال الله سبحانه: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[3].

وهنالك عوامل وراء ذلك نذكر منها ـ على سبيل الاحتمال ـ.

١ ـ هنالك الكثير من الحقائق تقع ضمن دائرة «الغيب» ولا سبيل للحواس إلى إدراكها إدراكاً مادياً حسيّاً... وحيث أن غالبية البشر تأنس بالمحسوسات أكثر من انسها بالمعقولات... لذا يكون «المثل» عاملاً مهماً في توضيح المقصود، وتقريب المراد إلى الأذهان.

٢ ـ الأمثال باعتبارها تخاطب عواطف الإنسان يكون لها من التأثير

(١) التفسير الكبير ج٢، ص٨٧.
(٢) الكشاف ج١، ص٢٢٠.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٥.

في التحريك نحو المطلوب... ما لا يكون في الفكرة المجردة عن المثل.

٣ ـ في افحام الخصم المعاند... وتبكيته... وكسر سورته... ورد عاديته... للمثل دور كبير قد لا يوجد في غيره.

لاحظ الرواية التالية:

عن الإمام الصادق عليه السلام:

إن نصارى نجران لما وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وكان سيدهم الأهتم والعاقب والسيد وحضرت صلاتهم، فأقبلوا يضربون بالناقوس وصلّوا.

فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله: يا رسول الله هذا في مسجدك؟

فقال: دعوهم.

فلما فرغوا دنوا من رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا له: إلى ما تدعونا؟

فقال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله واني رسول الله وأن عيسى عبد مخلوق يأكل ويشرب ويحدث.

قالوا: فمن أبوه؟

فنزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: قل لهم: ما تقولون في آدم أكان عبداً مخلوقاً يأكل ويشرب ويحدث وينكح؟

فسألهم النبي صلى الله عليه وآله فقالوا: نعم.

قال: فمن أبوه؟

فبهتوا.

فـأنـزل الله ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾(١)(٢).

لو أننا قلنا في مقابل مسيحي يسألنا: من والد عيسىٰ عليه السلام؟ ليتخذ من ذلك ذريعة إلى كونه إلهاً. لو قلنا: إن ذلك أمر يسير على القدرة الإلهية... ربما لم يقتنع... وربما سلك طريق اللجاج والعناد... ولكن عندما نقوله له: هل تعترف بأن آدم عليه السلام ولد من غير أب ولا أم؟ فإنه سوف يجيب بـ: نعم... فنعود لنسأله: وكيف يكون الذي ولد من غير أب إلهاً، ولا يكون الذي ولد من غير أب ولا أم إلهاً؟ عندها سوف يقتنع ـ إن كان طالباً للحقيقة ـ وتنكسر شوكته ـ إن كان معانداً ـ.

أركان المثال:

١ ـ الأصل... وهو «الممثل به» كآدم عليه السلام في المثال المذكور.

٢ ـ الفرع... وهو «الممثل»... كعيسى عليه السلام في المثال.

٣ ـ الجامع... وهو العنصر المشترك الذي يجمع بين الأصل والفرع.. كالولادة علىٰ غير النحو المعتاد في المثال.

٤ ـ الحكم... وهو إيقاع التشبيه بين الأصل والفرع... واستنتاج النتيجة المترتبة على ذلك...

وفي المثل مباحث مفصلة ربما نتعرض لها في المباحث القادمة إن شاء الله تعالىٰ.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

(٢) البرهان ج١، ص٢٨٥ ـ ٢٨٦.

تذييل

ذكروا؛ أن الأرض وكل ما عليها مشحونة بكهربائية سالبة، والجو مشحون بكهربائية موجبة، وحيث أن السحب تتكون من بخار الماء فما يتكون منها في الجو الأعلىٰ يكتسب كهربائية موجبة مثل كهربائية الجو، وما يتكون منها قريباً من الأرض يكتسب كهربائية سالبة، فإن اتفاق مرور سحابة من السحب العلوية ذات السحابة الموجبة فوق سحابة ذات كهربائية سالبة حصل بينهما تجاذب ـ لأن الجسمين المتكهربين بكهربائيتين مختلفتين يتجاذبان.

ولا يزالان كذلك حتى تقرب احداهما من الأخرىٰ قرباً لا يمكن معه أن تبقىٰ كهربائيتاهما مستقلتين، فتتحدان ومتىٰ اتحدت كهربائيتان ببعضهما نتج من ذلك ثلاث ظواهر طبيعية:

حرارة، وصوت، وضوء.

أما الحرارة؛ فهي شرارة كهربائية تتولد من اتحاد الكهربائيتين وتخترق الجو بسرعة هائلة فتنزل إلى الأرض، فتحرق الأشجار وتحرق السفن وتهدم السقوف وتذيب الحديد وتقتل من تصيبه من الناس وهي ما يسمونه (الصاعقة).

وتكون تلك الشرارة كبيرة أو صغيرة على حسب حجم السحابتين.

وأما الصوت؛ ينشأ من اتحاد تلك الكهربائيتين فجأة في الجو وسريان صوت الشرارة في الهواء، ويكون شديداً أو ضعيفاً على حسب قربه من الأرض وحجم السحابتين، وهذا ما يسمىٰ بـ(الرعد)، فالرعد هو صوت الشرارة الكهربائية التي تخترق طبقات الجو.

وأما الضوء؛ فهو وميض ينشأ من سريان الشرارة الكهربائية في الجو بسرعة، وهو ما يسمىٰ بـ(البرق).

وقد توصل بعض العلماء إلى إحداث صاعقة بواسطة (بالون) كهربه بكهربائية مخالفة لكهربائية السحب وإطاره وهو ماسك له إلى بعد مناسب من الجو، فحصل بينه وبين السحابة التي كانت ازاءه ما يحصل عادة بين (سحابتين) أو (سحابة وجسم مرتفع) من التجاذب، وانتهىٰ الأمر باتحاد كهربائية البالون بكهربائية السحابة، وحدث من ذلك الإتحاد شرارة كهربائية هي (الصاعقة) فنزلت بجواره، وكادت تصيبه، وسمع له صوت شديد هو الرعد[1].

وقد ذكرت بعض الروايات: أن حدوث البرق والرعد والصواعق معلول لفعل الملائكة.

قال السيد السبزواري (قده):

«والظاهر أن ذلك لم يكن من الاختلاف في الحقيقة... فإن لكل شيء من موجودات هذا العالم أسباباً معدّات ومقتضيات وشروطاً قد أدرك العقل بعضها ولم يدرك الآخر بعد. وأنبياء الله تعالى وأولياؤه حيث أنهم يرون أن جميع الحوادث تستند إليه عزَّ وجل والملائكة المدبرين لأمره ينسبون ذلك إليه تعالى، وهو الحق الذي لا محيص عنه، وأما غيرهم فلا يدركون إلا ما وصل إليه فكرهم، مع أنه يمكن أن تكون في الواقع أسباب أخرى غفلوا عنها.

---

(١) راجع دائرة معارف القرن العشرين ـ ج٤، ص٢٦١ (ط٣) وج٢، ص١٢٦ ـ ١٢٧ وج٥، ص٤٩٧ وج٨، ص٢١٨.

وتشبه ذلك حالة المريض الذي اختلفت أنظار الناس في مرضه.

فالعالم الروحاني يرىٰ أن مرضه نشأ من ناحية دعاء المظلوم الذي ظلمه هذا الشخص مثلاً.

والطبيب يقول: إن مرضه من التهاب بعض اعضاء جسمه مثلاً.

والنفساني يرىٰ أن كدورة نفسه هي السبب.

وأهل المريض يرون أنه كان محموماً فشرب الخل مثلاً.

ولما عاده ولي من أولياء الله تعالى قال: إن ممرضك هو يشفيك كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾[١].

والجميع صادقون في أقوالهم وآرائهم، فإن كل واحد ذكر مقتضياً من مقتضيات المرض وسبباً من أسبابه، لا أنه يذكر العلة التامة»[٢].

روايات في المقام

١ ـ عن إبراهيم بن أبي محمود قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فقال: إن الله تعالىٰ لا يوصف بالترك كما يوصف خلقه. ولكنه متى علم أنهم لا يرجعون عن الكفر والضلالة منعهم المعاونة واللطف وخلىٰ بينهم وبين اختيارهم[٣].

٢ ـ عن موسىٰ بن جعفر عليه السلام: مثل هؤلاء المنافقين كمثل الذي استوقد ناراً أبصر بها ما حوله فلما أبصر ما حوله ذهب الله بنورهم بريح

(١) سورة الشعراء، الآية: ٨٠.

(٢) مواهب الرحمن: ج١، ص١٠٢.

(٣) نور الثقلين ج١، ص٣٦.

أرسلها فأطفأها أو مطر وكذلك مثل هؤلاء المنافقين لما أخذ الله عليهم من البيعة لعلي ابن أبي طالب عليه السلام وأعطوا ظاهرها شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن علياً وليه ووصيه ووارثه وخليفته في أمته وقاضي دينه، ومنجز عداته، والقائم بسياسية عباد الله مقامه، فورث موارث المسلمين بها، ونكح في المسلمين بها، فوالوه من أجلها وأحسنوا عنها الدفاع بسببها واتخذوه أخاً يصونونه مما يصونون عنه أنفسهم، بسماعهم منه لها فلما جاءه الموت وقع في حكم رب العالمين، العالم بالأسرار الذي لا تخفى عليه خافية فأخذهم بعذاب باطن كفرهم فذلك حين ذهب نورهم وصاروا في ظلمات عذاب الله ظلمات أحكام الآخرة لا يرون منها خروجاً ولا يجدون عنها محيصاً ثم قال: ﴿صُمٌّ﴾ يعني يصمّون في الآخرة في عذابهم ﴿بُكْمٌ﴾ يبكمون هناك بين أطباق نيرانها ﴿عُمْيٌ﴾ يعمون هناك وذلك نظير قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾[1].

٣ ـ عن أبي جعفر الثاني عليه السلام أنه قال: في حديث ـ قولك أن الله قدير خبرت أنه لا يعجزه شيء فنفيت بالكلمة العجز وجعلت العجز سواه[2].

٤ ـ عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:

«لم يزل الله عزَّ وجلَّ ربنا والعلم ذاته ولا معلوم، والسمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مبصر، والقدرة ذاته ولا مقدور فلما أحدث

---

(١) البرهان ج١، ص٦٤ ـ ٦٥.

(٢) نور الثقلين ج١، ص٣٨.

الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم، والسمع على المسموع، والبصر على المبصر، والقدرة على المقدور[1].

٥ ـ إن أبي عبد الله عليه السلام قال:

إن إبليس قال لعيسى ابن مريم عليه السلام: أيقدر ربك على أن يدخل الأرض بيضة لا تصغر الأرض ولا تكبر البيضة؟

فقال عيسى عليه السلام: ويلك إن الله تعالى لا يوصف بعجز، ومن أقدر ممن يلطف الأرض ويعظم البيضة[2].

٦ ـ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: هل يقدر ربك أن يدخل الدنيا في بيضة من غير أن تصغر الدنيا أو تكبر البيضة؟

قال: إن الله تبارك وتعالىٰ لا ينسب إلى العجز والذي سألتني لا يكون[3].

---

(١) المصدر.

(٢) نور الثقلين ج١، ص٣٨.

(٣) نور الثقلين ج١، ص٣٩.

الآيات

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[1].

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢.

المفردات

﴿ٱعۡبُدُواْ﴾: العبادة غاية الخضوع.

﴿رَبَّكُمُ﴾: الرب: خالق الشيء المتعهد له بالتربية والإصلاح والإنماء.

﴿خَلَقَكُمۡ﴾: الخلق فعل الشيء وفق ضوابط الحكمة من دون زيادة أو نقصان وقيل هو الاختراع والابداع.

﴿لَعَلَّ﴾: كلمة ترجٍّ وهو لا يكون إلا عند الجهل بالعواقب، وهو محال على الله تعالىٰ، فورودها في المقام وأمثاله مبنيّ كما قيل على أنها ترجٍ للمخاطبين، فمعناها راجع إلى العباد لا إلى الله تعالىٰ، ونظيره قول الله تعالىٰ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾[1].

فكأنه تعالى: قال: اذهبا انتما على رجائكما واملكما، وإن كان الله عالماً بما يؤول إليه الأمر. وفائدة (لعل) أن لا يحل العبد أبداً محل الآمن المدل بعمله، بل يزداد حرصاً على اتقان العمل واستدامته.

وقيل: أن لعل بمعنىٰ التعرض للشيء أي افعلوا ذلك متعرضين للتقوىٰ.

---

(١) سورة طه، الآية: ٤٤.

﴿تَتَّقُونَ﴾: التقوىٰ ملكة نفسانية راسخة تبعث الإنسان على فعل الواجبات وترك المحرمات أو هي صيانة النفس عن المخالفة.

﴿جَعَلَ﴾: صيّر.

﴿فِرَٰشًا﴾: كالفراش في الراحة والاستقرار والافتراش.

﴿بِنَآءً﴾ كالسقف المبني في الحفظ والوقاية من الأخطار.

﴿ٱلسَّمَآءِ﴾: جهة العلو، وكل شيء كان فوقاً لشيء فهو سماء له.

﴿رِزْقًا﴾: الرزق هو ما ينتفع به أو هو الغذاء والقوت.

﴿أَندَادًا﴾: الند ما يشارك الشيء في حقيقته، وقيل: الند هو الضد، وقيل هو المثل المنازع.

الإعراب

يا: حرف نداء قيل: وقد وضع في أصله لنداء البعيد ثم استعمل في نداء من سها وغفل ـ وإن قرب ـ تنزيلاً له منزلة البعيد، فإذا نودي به القريب الملتفت فذلك لتأكيد طلب الإقبال والمبالغة فيه. وأما قول الداعي (يا رب)مع أن الله أقرب إليه ﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[1] فهو استبعاد لنفسه من مظان الزلفىٰ، وما يقربه إلى منازل المقربين.

أي: منادىٰ مبني على الضم، وهو اسم مبهم، يبين باسم جنس يقع بعده.

---

(١) سورة ق، الآية: ١٦.

ها: حرف تنبيه، واقحم بين ما قبله وما بعده ايقاظاً للسامع وتنبيهاً له من الغفلة.

الناس: بدل من أي، أو عطف بيان، أو صفة.

الذي: اسم موصول في محل نصب، صفة لـ(رب).

الذين: اسم موصول في محل نصب على أنه مفعول به، معطوف على الضمير المنصوب في (خلقكم) أي خلقكم وخلق الذين من قبلكم.

من قبلكم: حرف الجر يتعلق بمحذوف هو صلة لـ(الذين) أي «الذين كانوا من قبلكم» أو نحو ذلك.

الذي: اسم موصول في محل نصب نعت ثان لـ(رب)، أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره «هو».

فراشاً: مفعول ثان لـ(جعل) بمعنىٰ صير، أو حال من «الأرض» أي خلق لكم الأرض حال كونها فراشاً.

رزقاً: مفعول به لـ(اخرج) و(من الثمرات) للتبيين. ويجوز كون (رزقاً) مفعولاً لأجله و(من) للتبعيض أي اخرج بعض الثمرات لأجل رزقكم.

وأنتم تعلمون: الجملة حالية... أي والحال أنكم تعلمون أن هٰذه الأنداد ليست بآلهة أو والحال أنكم من أهل العلم والتمييز.

التفسير

بعد أن استعرض القرآن الكريم مواقف المجموعات الثلاث. . . المتقين. الكافرين. والمنافقين. . . وبين النتائج التي تترتب على كل موقف من هذه المواقف. . . بعد ذلك يدعو القرآن الكريم الناس إلى

انتخاب النموذج الأول ـ أي «خط المتقين» ـ الذي يعتمد أولاً وقبل على كل شيء على ركائز الإيمان الثلاث: (الإيمان بالألوهية) و(بالرسالة) و(بالمعاد) والتي تمثل القاعدة الأساسية لكل ما عداها. . . من أحكام وآداب وسنن ونحوها. . فكل ما في هذه السورة من أحكام ونظم وتشريعات. . . بل كل ما في القرآن الكريم. . . بل كل ما في الدين يستند على هذه الركائز الثلاث. وقد تناولت الآيات المباركات هذه الركائز واحدة تلو الأخرىٰ. . .

وعلى هذا الأساس يقول القرآن الكريم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

خطاب إلى «المكلفين» كافة: عربيهم وعجميهم، أبيضهم وأسودهم، غنيهم وفقيرهم، ذكرهم وأُنثاهم، مؤمنهم وكافرهم.

فالقرآن لا يختص بمجموعة معينة، ولا بطائفة خاصة، ولا بقومية أو عرقية أو لونية. . . كما هي الحال في «اليهودية المحرفة» التي تقصر «فضل الله» على طائفة خاصة. . . وكيف تكون هذه الأمور التي لا اختيار للبشر فيها ملاكاً لحصر الفضل الإلهي؟. . ولماذا يحرم سائر البشر من هذا الفضل في الوقت الذي ليس لهم أي تقصير في ذلك؟

أجل. . . فالقرآن للجميع. . . والرسالة الإسلامية للكل كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[1]..

وأما شمول الخطاب حتى للكفار فهو محرر في «علم الأصول» فراجع.

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

كما أن شمول الخطاب للمعدومين في زمن نزول الآية محرر في ذلك العلم فلاحظ.

﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾.

والعبادة هي منتهىٰ الخضوع. . . ومنتهىٰ الخضوع لا يكون إلا لمن كان في منتهىٰ العظمة والتفضل. . . وليس هو إلا «الرب» تعالى.

وحيث أن العبادة خط مستمر. . . لا يختص بمقطع زمني خاص. . وإنما يستوعب العمر كله. . . بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾[1]... لذا يشمل الأمر بالعبادة المؤمنين أيضاً.. فإنهم مطالبون بالعبادة لله سبحانه على امتداد عمود الزمان، بالإضافة إلى أنهم مطالبون بالازدياد منها.

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٩٩.

الطريق إلى اللَّه

ولكن: كيف نعبد رباً لا نعرفه... لا بد من معرفة «الرب» أولاً... ثم عبادته بعد ذلك...

فكيف نتعرف على ربنا؟ وما هو السبيل إلى ذلك؟

هنا يلفتنا القرآن الكريم إلى طريقة فطرية يستطيع كل إنسان أن يلمسها بوجدانه... فلا يتوقف الأمر على استدلالات فلسفية معقدة.. لأن هذه الاستدلالات تبتني على مقدمات غير متاحة لجميع الناس... بالإضافة إلى أنها تنتهي إلى «الوجدان» أيضاً... فكل القواعد الفلسفية ترتكز على قاعدة واحدة وهي «استحالة اجتماع النقيضين وارتفاعهما» ـ على ما ذكروا ـ[1] وهذه القاعدة لا برهان عليها... وإنما هي قاعدة وجدانية... تستند إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها... والتي ترىٰ استحالة جمع السلب والإيجاب في شيء واحد... وارتفاع السلب والإيجاب عن شيء واحد.. وكل برهان يقام على استحالة اجتماع النقيضين يستبطن في ذاته استحالة اجتماع النقيضين. وإلا لأمكن أن يكون البرهان صادقاً في الوقت الذي يكون نقيضه صادقاً أيضاً... فكيف نطمئن إلى ما يسوقنا إليه البرهان، ما لم نكن قد آمنّا من قبل

(١) راجع شرح المنظومة ـ قسم المنطق ـ ص٩ (الطبعة الحجرية).

باستحالة اجتماع النقيضين؟ فتأمل... ثم إنه لو فرضنا أننا أقمنا ألف برهان وبرهان على استحالة اجتماع النقيضين وارتفاعهما أو على أية قضية أخرىٰ... فسوف ننتهي إلى «الوجدان» أيضاً... وإلا لاضطررنا أن نستمر في البرهنة على كل برهان نقيمه إلى ما لا نهاية له... فلا ننتهي إلى «معرفة» أبداً. أو ندور في الاستدلال إلى النقطة التي بدأنا منها... وهذا هو الدور المحال...

ولنعد إلى حكم الفطرة لنسأل:

من الذي أوجدنا؟

هل أوجدنا نحن بأنفسنا أنفسنا؟

كيف يكون ذلك؟ و«فاقد الشيء لا يعطيه».. فالذات الفاقدة للوجود كيف تعطي لنفسها الوجود؟!.

إن كل إنسان يدرك بفطرته أنه لم يوجد نفسه... وإنما أوجده غيره...

مضافاً إلى أننا لو كنا أوجدنا أنفسنا لكنا نتخيّر ما نحن عليه... كنا نختار جنسنا ولوننا وزماننا ومكاننا وسائر خصوصياتنا المكتنفة بنا والحال أنه لا خيار لنا في ذلك كله.

وفلسفيّاً: يؤول ذلك إلى اجتماع النقيضين... الوجود والعدم في شيء واحد.. وارتفاعهما معاً عن ذلك الشيء. إذ لا بد للذات لكي تفيض الوجود على ذاتها... من أن تكون موجودة أولاً... كي تستطيع أن تعطي الوجود لذاتها... بمقتضىٰ أن فاقد الشيء لا يعطيه...

وأن تكون معدومة. . . كي تتلقىٰ فيض الوجود من ذاتها. . . وإلا فالموجود لا يتلقىٰ الوجود مرة ثانية لكون ذلك تحصيلاً للحاصل وهو محال. . .

فالذات لو أفاضت الوجود على نفسها: يجب أن تكون موجودة ومعدومة في آن واحد. . . وهذا هو الجمع بين النقيضين. . .

ولأننا فرضناها موجودة فهي إذاً ليست بمعدومة. . . ولأننا فرضناها معدومة فهي إذاً ليست بموجودة. . . وهذا هو ارتفاع النقيضين. . .

وإذا لم نكن نحن قد خلقنا أنفسنا. .

فهل خلقنا آباؤنا الذين كانوا من قبلنا؟

إن نفس الملاحظات التي ذكرت آنفاً سوف تأتي هنا أيضاً. . . فآباؤنا مثلنا. . . وقد كانوا فاقدين للوجود فكيف أعطوا الوجود لأنفسهم؟.

بالإضافة إلى أن أمر الخلق إذا كان بيدهم لكانوا يختارون جنس أولادهم وشكلهم وكيفيتهم. . . مع أن كل واحد يعلم أن الأمر مفروض على الآباء فرضاً!

يبقىٰ أن تكون «الطبيعة» هي الخالقة. . . والطبيعة فاقدة للعقل والشعور فلا يمكن أن تعطي هذه الدقة والانسجام الرائع الذي نجده في هذا الكون. . .

ومن هنا يقول القرآن الكريم:

﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ وأوجدكم لا من شيء.

«ر» خلق ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ وتقدموكم في امتداد عمود الزمان.

فآباؤكم واجدادكم هم ـ الآخرون ـ مخلوقون لذلك «الرب». ولا يمكن أن يكونوا هم الخالقين.

ولعل في هذه الكلمة ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ مضافاً إلى ما سبق إشارة إلى أن آباءكم مخلوقون مثلكم.. فلا تتخذوهم أرباباً من دون الله... ولا تجعلوا طريقتهم في الحياة مقياساً للرفض والقبول... بل توجهوا بعباداتكم وخضوعكم لله وحده... الذي خلقكم، وخلقهم أيضاً كما خلقكم...

أثر العبادة

ولكن ما هو أثر عبادة الله سبحانه؟

هل الله يحتاج إلى عبادتنا نحن البشر؟ وكيف يحتاج الغني المطلق الذي بيده مقاليد كل شيء؟ والأرض جميعاً قبضته، والسماوات مطويات بيمينه؟

إن عبادة الله سبحانه لا تنفع الله سبحانه... وإنما تنفعنا نحن البشر... فعبادة الله تعالى مدرسة تغرس التقوىٰ في نفس الإنسان... وبالتقوى يرتفع الإنسان إلى ذرىٰ الكمال الإنساني... ويسعد في دنياه وآخرته.

ولمن هنا يقول القرآن الكريم:

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

فبالعبادة لله تعالى يصل الإنسان إلى درجة «التقوى» ويرتفع إلى مستوى «المتقين» الذين منحهم الله سبحانه هدايته. . . وقدّر لهم الفلاح في الدنيا والآخرة. . . كما سبق ذلك في بداية هذه السورة المباركة.

احتمالات أخر

وهناك احتمال آخر في الآية وهو أن تكون جملة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ متعلقة بقوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَكُمْ﴾.

أي اعبدو الله الذي خلقكم وخلق الأجيال المتقدمة من أجل العبادة. . . فبناءاً علىٰ ذلك تتطرق الآية الكريمة إلى هدف الخلقة. . . الذي هو «التقوى».

وإذا كان الإنسان مخلوقاً للتقوى فعليه أن يعبد الله. . . حتى تتحقق تلك الغاية المنشودة. . .

وقيل: إن معنى الآية الكريمة أنه خلقكم للتقوى والعبادة كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[(١)]. وعلى هذا يتحد مدلول «التقوى» والعبادة في الآية الكريمة.

وقيل: إن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لعلكم تتقون ـ بعبادتكم لله تعالىٰ ـ النار، وتجتنبون الوقوع في مهاويها السحيقة، قال الله سبحانه ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾[(٢)].

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣١.

وقيل معناه: لعلكم تتقون الحرمات بينكم، وتكفون عما حرم الله تعالى.

وقيل معناه: لعلكم تحترزون عن المضار، فالعبادة هي فعل المأمور به، وهذا الفعل ليس هو نفس الإحتراز، بل يوجب الإحتراز، وهو التقوىٰ.

نعم أخر

ويواصل القرآن الكريم البرهنة على وجود الخالق... فيستعرض ـ بعد ذكر نعمة الإيجاد التي هي أعظم جميع النعم المادية... باعتبار أن جميع النعم المادية الأخرى متفرعة على نعمة الإيجاد... ولولا هذه النعمة لم يمكن الإستفادة من أية نعمة أخرى ـ يستعرض بعض النعم الأخرىٰ... التي امتنّ الله بها على عباده... والتي تدل بشكل واضح علىٰ وجود «خالق» حكيم عالم قدير... خلق الإنسان... وأحاطه بما يكفل له سعادته ودوام حياته... ونظم شؤون حياته كي يتسق بعضها مع بعض فيقول:

١ ــ المسكن المناسب:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾.

أي مستقراً ملائماً لكم... كما أن الفراش محل لاستقرار الإنسان واستراحته ـ بعد تحرك طويل، وكد مجهد ـ.

فالأرض جعلت مستقراً لنا... وهذه نعمة عظيمة من نعم الله علينا... إن الأرض تسير بسرعة (٣٠) كيلومتراً ونصف الكيلومتر في

الثانية الواحدة[1] في هذا الفضاء العظيم... وهذه السرعة كفيلة بأن تقذف البشر وكل ما على الأرض بعيداً في الفضاء خلال مدة بسيطة... ولكن الله سبحانه امتنّ على البشر فجعل في الأرض قوة «الجاذبية» التي تحفظ الإنسان وسائر ما على الأرض من الانفلات في الفضاء، وتضمن له بقاءه على سطح الأرض.

وبالإضافة إلى ذلك فقد جعلت الأرض ملائمة لحياة الإنسان.

لو كانت الأرض صلبةً جداً ـ كالحديد ـ إذاً لعجز البشر عن بناء البيوت... وزرع النباتات... وشق القنوات... واستحداث الأنهر، وفتح الطرق على سطح الأرض...

ولو كانت حارة جداً... لأذابه الحر.

ولو كانت باردة جداً... لجمده القر.

وهكذا وهلم جرا...

٢ ـــ نعمة الأمن

والنعمة الثانية هي «نعمة الأمن»...

يقول القرآن الكريم:

﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ أي جهة العلو، أو ما تحتوي عليه هذه الجهة. ﴿بِنَآءً﴾ أي كالبناء الواقي والسقف المحفوظ... فكما أن البناء يقي الإنسان من الحر والبرد والمطر وما أشبه... كذلك السماء تقي الإنسان من الشهب والنيازك

---

(١) راجع دائرة معارف القرن العشرين ج١، ص١٨١ (ط٣).

والإشعاعات القاتلة وما أشبه ذلك... ولولاها لانتهت حياة الإنسان على وجه الأرض منذ أمد بعيد.

فكما أن المقصود بقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾:

إنه جعلها لكم كالفراش... فالمقصود بقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ إنه جعلها لكم كالبناء... بمقتضىٰ وحدة السياق في الجملتين.

ويحتمل أن يقال: أن أطلاق لفظ البناء على السماء اطلاق حقيقي إذ لا يشترط في البناء أن يكون من جنس كثيف كـ«الحديد» و«اللين» و«الآجر» و«الإسمنت»... بل كل شيء وقاك فهو بناء، فإن الألفاظ موضوعة للمعاني العامة، لا للمعاني الخاصة، ومن هنا فإننا إذا فرضنا أن العلم تطور في المستقبل فصنع بيوتاً للناس من مادة لطيفة توفرت فيها كل خصائص البناء من الستر والوقاية و... لصدق عليها «البناء» قطعاً فتأمل.

٣ ـــ الماء

والنعمة الثالثة... هي نعمة «المطر»..

يقول القرآن الكريم:

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي جهة العلو، ﴿مَآءً﴾. ولولا الماء لم يستطع الكائن البشري أن يعيش... فحياة الإنسان تتوقف على الماء... قال الله سبحانه. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[1].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

بالإضافة إلى الفوائد الكثيرة التي تترتب على الماء ـ مثل التنظيف والتطهير وما أشبه ذلك.

قال الله سبحانه:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾[1].

٤ ـــ الرزق

أما النعمة الرابعة فهي «نعمة الثمرات».

يقول القرآن الكريم: (فـ) على أثر نزول المطر ﴿فَأَخْرَجَ﴾ الله سبحانه ﴿بِهِۦ﴾ أي بسبب ذلك الماء النازل من السماء أنواعاً ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أو بعضاً منها.

وذلك من أجل أن تكون ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أي قوتاً لكم وطعاماً.

ولعل ظاهر «الباء» في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ السببية فقد أودع الله سبحانه في الأسباب خصوصية بها تؤثر الأسباب في مسبباتها، وتتصاعد سلسلة الأسباب حتى تصل إلى الله سبحانه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[2]... ومن هنا تتكون نسبتان: نسبة المسبب إلى أسبابه القريبة... ونسبته إلى مسبب الأسباب وهو الله سبحانه... ولا منافاة بين هاتين النسبتين لكونهما طوليتين لا عرضيتين ـ وقد مضىٰ بعض الكلام في ذلك في سورة الحمد في تفسير قوله تعالىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فراجع ـ.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٨.
(٢) سورة النجم، الآية: ٤٢.

ومن هنا نجد أن الإخراج في الآية الكريمة ينسب إلى الله تعالى وإلى المطر فتدبر.

لا... للأنداد

وإذا كانت جميع هذه النعم من الله تعالىٰ... وجميع هذه الدلائل تدل علىٰ أنه مصدر كل شيء.

﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾.

و«الند» عبارة: عن ما يشارك الشيء في حقيقته... وقيل أنه هو المثل المنازع وقيل أنه هو «الضد» فإن هذا اللفظ يعطي معنىٰ وجود مركزي قوة متضادين... وقد أطلق على «الأنداد» ـ من الأصنام والأهواء والآلهة البشرية ـ ذلك باعتبار أن كل واحد منها يدعو لشيء يخالف ما يريده الله سبحانه... فتكون «أضداداً» لله تعالىٰ.

فلا تشركوا مع الله غيره... لا في الذات... ولا في العبادة... ولا في الطاعة... ولا في غيرها...

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾...أي والحال أنكم تعلمون أن كل شيء من الله... وأن هذه الأصنام ليست آلهة... وأنها لا تملك ضراً ولا نفعاً لنفسها فكيف تملكه لغيرها؟!.

وقيل: إن المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: إنكم تعقلون وتميزون، ومن كان بهذه الصفة فقد استوفىٰ شرائط التكليف، ولزمته الحجة، وانتفىٰ عذره في التخلف عن النظر، وإصابة الحق.

وعلى هذا استخدم الفعل المتعدي لازماً. . . كما أن اللازم قد يستخدم متعدياً[1].

كقولنا «زيد يعطي ويمنع» أي أنه من أهل العطاء والمنع. . . ولا نريد أنه يعطي شيئاً بعينه أو يمنع شيئاً بعينه. . .

قال في الميزان:

«عدم تقييد قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بقيد خاص، وجعله حالاً من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟﴾ يفيد التأكيد البالغ في النهي، بأن الإنسان وله علم ما كيفما كان لا يجوز له أن يتخذ لله سبحانه أنداداً، والحال أنه سبحانه هو الذي خلقهم والذين من قبلهم، ثم نظم النظام الكوني لرزقهم وبقائهم[2].

وقيل: إن المراد بذلك أهل التوراة والإنجيل، أي أنتم تعلمون ذلك في كتابيكم.

فائدتان

١ ـ قال في التفسير الكبير، في سبب ترتيب الدلائل الخمسة في الآية الكريمة:

«إن أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه، وعلم الإنسان بأحوال نفسه أظهر من علمه بأحوال غيره، وإذا كان الغرض من الاستدلال إفادة العلم فكل ما كان أظهر دلالة كان أقوىٰ إفادة، وكان أولىٰ بالذكر، فلهذا

(١) راجع الروضة البهيّة ج١، ص١٠ (الطبعة الحجرية)
(٢) الميزان ج١، ص٥٧.

السبب قدم ذكر نفس الإنسان، ثم ثناه بآبائه وأمهاته، ثم ثلث بالأرض، لأن الأرض أقرب إلى الإنسان من السماء، وإنما قدم ذكر السماء على نزول الماء من السماء وحركة الثمرات بسببه لأن ذلك كالأمر المتولد من السماء والأرض، والأثر متأخر عن المؤثر، فلهذا السبب أخر الله ذكره عن ذكر الأرض والسماء»[(١)].

٢ ـ وقال فيه أيضاً:

«الثمر المخرج بماء السماء كثير فلم قيل الثمرات دون الثمر أو الثمار»؟.

«الجواب: تنبيهاً علىٰ قلة ثمار الدنيا، واشعاراً بتعظيم أمر الآخرة، والله أعلم»[(٢)].

ونظيره يجري في استخدام كلمة «من» في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بناءاً على كونها للتبعيض.

فهنالك ثمرات كثيرة لا توجد إلا في العالم الآخر.. حيث لا عين رأت، ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر... وأعدت للمتقين...

ما هي التقوى؟

التقوىٰ عبارة عن «ملكة نفسانية راسخة، تبعث الإنسان علىٰ الانضباط ضمن الأطر التي حتمها الدين على المكلفين» وبعبارة أخرىٰ (ملكة تبعث الإنسان على فعل الواجبات وترك المحرمات).

---

(١) التفسير الكبير ج٢، ص١١١.
(٢) المصدر ص١٢٢.

توضيح ذلك...

إن فعل الواجبات، وترك المحرمات يمكن أن يفرض على أنحاء ثلاثة:

النحو الأول: أن يتم ذلك عن طريق «القسْر»... بأن يكون الإنسان مكرهاً أو ملجأً على فعل الواجب، أو ترك المحرم...

كما لو سجن في مكان فلم يستطع شرب الخمر مثلاً.

- يقول الشاعر:

يقول القوم لي لما رأوني عفيفاً منذ عام ما شربت
على يد أي شيخ تبت ياذا؟ فقلت على يد (الإفلاس) تبت!

النحو الثاني: أن يتم ذلك بشكل (قضية اتفاقية) أو بسبب (الاجواء الضاغطة) بدون أن ينبعث ذلك عن ملكة راسخة في نفسه، ولذا إذا تبدلت ظروفه المحيطة به، أو سافر إلى بلد ما لا يخشىٰ فيه الرقيب، تورط في فعل المحرمات، وترك الواجبات.

النحو الثالث: أن تتكون لديه (ملكة التقوىٰ) بأن تتكون في وجدانه حالة نفسية راسخة تبعثه على فعل الواجبات وتردعه عن فعل المحرمات...

وهذا النحو هو الذي يسمىٰ بـ(التقوىٰ).

أما النحوان الأولان فليسا بتقوىٰ في الحقيقة... ولا يطلق على المتصف بهما أنه من (المتقين).

فوزان التقوىٰ وزان سائر الصفات كـ(الشجاعة) و(الجود) و(السخاء) ونحو ذلك... التي لا تطلق على مجرد صدور مقتضياتها عن فاعلها ولو تكرر منه ذلك ما لم تنبعث عن (ملكة نفسانية راسخة) فتأمل

وسيأتي تفصيل الكلام في (الملكات) وفرقها عن (الحالات) في تفسير قوله تعالىٰ:

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[1] إن شاء الله.

هذا وقيل أن التقوىٰ: هي الإستقامة الفعلية في جادة الشرع، بلا اشتراط انبعاثها عن الملكة.

وقد سئل البعض عن التقوىٰ فقال:

هل أخذت طريقاً ذا شوك؟

فقال السائل: نعم.

قال: فما عملت؟

قال السائل: حذرت وتشمرت.

قال: ذلك التقوىٰ.

ونظمه بعض الشعراء فقال:

خل الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقىٰ

واصنع كماشٍ فوق أرض الشوك يحذر ما يرىٰ

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصىٰ[2].

برهانان

في هاتين الآيتين الكريمتين ـ كما أشرنا إلى ذلك فيما مضىٰ ـ برهانان على الألوهية.

١ ـ برهان الوجود.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٤.

(٢) مجمع البيان ج١، ص٧٨.

٢ ـ برهان النظم.

وقد تقدم الكلام حول «برهان الوجود» ونلقي هنا بعض الضوء على برهان «النظم» فنقول:(١).

إن الأبحاث العلمية كشفت عن الإتصال الوثيق بين أجزاء العالم، وتأثير بعضها في بعض، وتكامل بعضها ببعض... وهذا الإنسجام الوثيق الذي جعل العالم كمعمل كبير يشد بعضه بعضاً دليل واضح على تدخل خالق عليم حكيم في ابداعه وخلقه وصنعه على هذا النحو.

وبعبارة واضحة: ان الضبط السائد على الطبيعة دليل جلي على تدخل إرادة واعية حكيمة في خلق الكون.

ويمكن تقريب هذه الحقيقة إلى الذهن بالمثال التالي:

لنفترض أن شخصاً أعمىٰ جالساً وراء آلة طابعة يحاول بالضغط على الأزرار، وعددها مائة بما فيها الحروف الصغيرة والكبيرة، أن يحرر قصيدة لشاعر معروف كقصيدة لبيد التي يقول فيها:

ألا كلُّ شيء ما سوى الله باطل   وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائل

فاحتمال أن الضربة الأولى أصابت صدفة الحرف الأول من هذه القصيدة (أ)، والضربة الثانية أصابت كذلك الحرف الثاني منها (لا)، والضربة الثالثة أصابت صدفة الحرف الثالث منها (كـ)، وهلم جرا... وهو احتمال في مقابل احتمالات كثيرة لا يمكن بيانها بالأرقام الرياضية المقروءة. ومجمل ذلك أنه لو كانت حروف الآلة الطابعة مائة، وعدد

---

(١) اعتمدنا في هذا الفصل على كتاب «الإلهيات» ج١، ص٤١ ـ ٥٤ ط٢. بتصرّف.

حروف البيت الأول من القصيدة (٣٨) فسوف يكون عدد الإحتمالات واحداً أمامه (٧٦) من الأصفار.

ولو أضفنا إلى البيت الأول بيتاً آخر، فإن احتمال تحرير هذين البيتين علىٰ يد صاحبنا الأعمىٰ صدفة، سيصل إلى عدد يقرب من الصفر.

ويستحيل ـ رياضياً وطبقاً لحساب الإحتمالات ـ أن يتقبل العقل هذا الإحتمال الضئيل الذي هو المناسب لتحقق المراد من بين تلك الاحتمالات والفرضيات الهائلة، وكل من يرىٰ البيتين وقد حررا بالآلة الطابعة وبصورة صحيحة يطمئن بأن هناك شخصاً عليماً هو الذي نظم الأحرف ونسق بعضها مع البعض الآخر، ولم يحدث ذلك عن طريق الصدفة العمياء.

هذا بالنسبة إلى قصيدة فكيف بالنسبة إلى الحياة التي روعي ما لا يُحصىٰ من العوامل فيها حتى اتسقت وانسجم بعضها مع البعض الآخر.

ولأجل أن تتبيّن ملامح هذه الحقيقة نسوق الأمثلة التالية:

١ ـ إنَّ حياة كل نبات تعتمد على مقدار صغير من غاز ثاني أوكسيد الكاربون، الذي يتجزأ بواسطة أوراق هذا النبات إلى كاربون وأوكسجين، ثم يحتفظ النبات بالكاربون ليصنع منه ومن غيره من المواد، الفواكه والأثمار والأزهار ويلفظ الأوكسجين الذي نستنشقه في عملية الشهيق والزفير الأساسية في حياة الإنسان.

ولو أنَّ الحيوانات لم تقم بوظيفتها في دفع ثاني أوكسيد الكاربون، أو لم يلفظ النبات الأوكسيجين، لانقلب التوازن في الطبيعة واستنفذت

الحياة الحيوانية، أو النباتية كل الأوكسجين أو كل ثاني أوكسيد الكربون، وذوي النبات ومات الإنسان.

فمن ذا الذي أقام مثل هذه العلاقة بين النبات والحيوان وأوجد هذا النظام التبادلي بين هذين العالمين المتباينين؟ ألا يدل ذلك على وجود فاعل مدبر وراء ظواهر الطبيعة هو الذي أقام مثل هذا التوازن؟

٢ ـ منذ سنوات عديدة زرع نوع من الصبَّار في أوستراليا كسياج وقائي ولكن هذا الزرع مضى في سبيله حتى غطى مساحة واسعة وزاحم أهالي المدن والقرىٰ، وأتلف مزارعهم ولم يجد الأهالي وسيلة لصده عن الإنتشار وصارت أوستراليا في خطر من اكتساحها بجيش من الزرع صامت، يتقدم في سبيله دون عائق!!.

وطاف علماء الحشرات في أرجاء المعمورة إلى أنْ وجدوا أخيراً حشرة لا تعيش إلاّ على ذلك الصبَّار، ولا تتغذى بغيره وهي سريعة الإنتشار وليس لها عدو يعوقها في الأستراليا وما لبثت هذه الحشرة أنْ تغلبت على الصبَّار، ثم تراجعت ولم تبق منه سوى بقية للوقاية تكفي لصد الصبّار عن الإنتشار إلى الأبد[1].

٣ ـ الماء هو المادة الوحيدة المعروفة التي تقل كثافتها عندما تتجمد، ولهذه الخاصة أهميتها الكبيرة بالنسبة للحياة إذ بسببها يطفو الجليد على سطح الماء عندما يشتد البرد، بدلاً من أنْ يغوص إلى قاع المحيطات والبحيرات والأنهار، ويكون تدريجياً كتلة صلبة لا سبيل إلى إخراجها وإذابتها. والجليد الذي يطفو على سطح البحر يكون طبقة عازلة

---

(١) العلم يدعو للإيمان، ص١٥٩.

تحفظ الماء تحتها عند درجة حرارة فوق درجة التجمد، وبذلك تبقى الأسماك وغيرها من الحيوانات المائية حية، فإذا جاء الربيع ذاب الجليد بسرعة وبلا عائق.

فهل يمكن إعزاء كل هذا الضبط والدقة في المقاييس والنسب إلى فعل المادة الصمَّاء العمياء البكماء، والحال أنَّه يكشف عن تدبير وحساب ويحكي عن نظام متقن وعظيم ويدل على أنَّ وراء كل ذلك خالقاً حكيماً هو الذي أوجد هذا التوازن المدهش والضبط الدقيق.

أجل إنَّ ذلك التوازن وهذا الضبط يشهدان على تدخّل الشعور والحكمة والعقل في إدارة هذا العالم وتدبيره وتسييره وهي أمور لا تتوفر في الصدفة بل تتوفر في قوة عليا شاعرة هادفة تدرك مصلحة الكون واحتياجات الحياة إدراكاً كاملاً وشاملاً، فتخضع الكون لمثل هذه الضوابط والعلاقات.

٤ ـ الأرض تبعد عن الشمس مسافة ٩٣ مليون ميلاً، ولأجل ذلك تكون الحرارة التي تصل إليها من الشمس بمقدار يلائم الحياة، ويتناسب مع متطلباتها، فلو زادت المسافة بين الشمس والأرض على المقدار الحالي إلى الضعف مثلاً لنقصت كمية الحرارة التي تتلقاها من الشمس، ولو نقصت هذه المسافة إلى النصف لبلغت الحرارة التي تتلقاها الأرض الضعف، وفي كلتا الصورتين تصير الحياة غير ممكنة.

٥ ـ إنَّ الهواء الذي نستنشقه مزيج من غازات شتىٰ منها النيتروجين ٧٨٪ والأوكسجين ٢١٪، فلو تغير المقدار وصارت نسبة الأوكسجين في الهواء ٥٠٪ لتبدلت جميع المواد القابلة للإشتعال إلى مواد محترقة،

ولبلغ الأمر إلى درجة لو أصابت شرارة غابة، لأحرقت جميع ما فيها دون أنْ تترك غصناً يابساً، ولو تضاءلت نسبة الأوكسجين في الهواء ١٠٪ لفقدنا أكثر العناصر التي تقوم عليها حضارتنا اليوم.

يقول العلامة كريسي موريس:

«إنَّ حجم الكرة الأرضية وبعدها عن الشمس، ودرجة الحرارة في الشمس، وأشعتها الباعثة للحياة، وسمك قشرة الأرض، وكمية الماء، ومقدار ثاني أوكسيد الكاربون، وحجم النيتروجين، وظهور الإنسان وبقاءه على قيد الحياة كل هذه الأمور تدل على خروج النظام من الفوضى (أي إنَّه نظام لا فوضى)، وعلى التصميم والقصد. كما تدل على أنه ـ طبقاً للقوانين الحسابية الصارمة ـ ما كان يمكن حدوث كل ذلك مصادفة في وقت واحد على كوكب واحد مرة في بليون مرة»[1]...

السماء بناءً

لعله يمكن أن يقال:

ان في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ إشارة إلى «الغلاف الهوائي» الذي يحيط بالأرض.

والغلاف الهوائي هو المادة أو الغلالة الشفافة التي تحيط بالأرض وتفصل سطحها على الفراغ الكوني.

ومنذ بدء الخليقة ونحن نعيش في قاع هذا «المحيط» الذي يتركب من مجموعة من الغازات التي لا طعم لها ولا لون ولا رائحة.

---

(١) العلم يدعو للإيمان ـ كريسي موريس.

وتتكون الطبقات السطحية من الغلاف الهوائي من خليط من غازي الأوكسجين والأزوت «أو النيتروجين» بنسبة ٢٠,٩٥ في المائة إلى ٨٧,٠٧ في المائة من حيث الحجم على التوالي، بالإضافة إلى عدة غازات أخرىٰ نسبها ضئيلة جداً تكاد لا تتعدىٰ في مجموعها (١٪) من حيث الحجم ومن هذه الغازات ما هو ثابت النسبة عموماً مثل الأرجون والكربتون والايدروجين والزينون والهيليوم، كما أن منها ما تتغير كمياتها حسب الظروف الجوية مثل الهيليوم وبخار الماء.

والإنسان عادة لا يحسب حساب الأخطار والأهوال التي لا حد لها من حولنا في أرجاء الفراغ الكوني والتي يحمينا منها الغلاف الهوائي.

١ ـ وتأتي أول الأخطار التي لا مفر من حماية أنفسنا منها عند مبارحة سطح الأرض عن طريق نقص الضغط الجوي، ثم عن طريق اختلاف درجة الحرارة بمقادير لا يمكن أن تستقيم معها الحياة بحال.

فالإرتفاع إلى قمة الجو معناه النقص السريع في الضغط الجوي:

فعلىٰ ارتفاع نحو ٢٠ كيلو متراً نكون قد تخلصنا من نحو ٩٨٪ من وزن الغلاف الجوي بأكمله، وعلى علو ٢٠٠ من الكيلو مترات يصل الضغط إلى أجزاء معدودات من عشرة ملايين جزء من قيمته عند السطح. وهكذا يستمر التناقص في الضغط مع ازدياد الإرتفاع عن سطح الأرض حتى نصل إلى ما يقرب من الفراغ التام في النهاية.

ولما كانت درجة غليان السوائل، ومنها الدم، تتوقف على الضغط المحيط بها أو الواقع عليها نجد أنه كلما انخفض الضغط قلت درجة الحرارة التي يبدأ عندها الدم في الغليان.

وعلى ارتفاع نحو ٢٠ كيلو متراً فقط من سطح البحر يغلي الدم في درجة حرارة الجسم العادية، ويؤدي غليان الدم إلى الأغماء السريع. فالموت الذي يتم في مدىً لا يتجاوز من ١٥ إلى ٣٠ ثانية.

٢ ـ وقلما تعلو درجة حرارة الجو على سطح الأرض فوق ٥٠ درجة مئوية كما أنها قلما تنخفض تحت ٧٠ درجة مئوية، ولكن علىٰ كثب منا في طبقات الجو العليا قد تبلغ درجة الحرارة مئات الدرجات المئوية. . . ولمثل هذه الأسباب يعزل رواد الفضاء أجواء الأرض العليا داخل مركبات محكمة الإغلاق يعيشون فيها تحت ضغوط جوية مناسبة ودرجات من الحرارة والرطوبة ملائمة.

٣ ـ ومن أكبر الأهوال خارج نطاق جو الأرض: النيازك والشهب التي تهيم في الفضاء الكوني، وتهوي بلا هوادة إلى جو الأرض العلوي.

ويتساقط إلى جو الأرض في اليوم الواحد آلاف الملايين من الشهب تجري بسرعة (١٠) كيلومترات إلى نحو (٥٠) كيلو متراً في الثانية الواحدة!.

وعندما تقترب من الأرض تقع تحت نطاق جذبها، وتبدأ الدوران في مسارات جديدة من حول الأرض تقطع الغلاف الجوي خلال مسافات طويلة، فتحتك بالهواء مولدة كميات من الحرارة تكفي لتبخير الأتربة التي تتكون منها.

وما الشهب التي نراها تهوي أثناء الليل كالنجوم ثم تختفي الامسارات تلك الغازات الملتهبة على أبعاد تتراوح بين ٨٠ إلى ١٠٠ كيلو متر من سطح الأرض، مما يدل بكل جلاء على أن الهواء المخلخل الذي يعلو تلك الطبقات يكفي لتحطيم الشهب ودرء اخطارها عنا، أما

الفضاء فلا سبيل إلى تلك الحماية فيه. وقد تخترق حبة من رمال الشهب لوحاً من الصلب بسبب سرعتها الخارقة.

٤ ـ من أكبر مصادر الأهوال والأخطار في الفضاء خارج نطاق جو الأرض التعرض للأشعة الكونية التي نجهل كثيراً من خصائصها، ويحمينا الغلاف الجوي من أغلب مكونات هذه الأشعة، ولا يصل سطح الأرض إلا النزر اليسير، إذ يمتص الباقي كله في الجو العلوي[١].

أنواع من الشرك

سبق وأن أشرنا إلى أن اتخاذ «الأنداد» لله سبحانه لا يقتصر على مظهر واحد... وإنما له مظاهر مختلفة... ونستعرض جملة من هذه المظاهر باختصار:

١ ـــ الشرك في الذات:

وذلك بالإعتقاد بتعدد الآلهة الخالقة لهذا العالم والمدبرة لشؤونه.

مثل الثنوية الذين يعتقدون أن للعالم مبدئين قديمين أحدهما مبدأ الخيرات وهو (يزدان) والثاني مبدأ الشرور وهو (اهريمن). وكالنصارىٰ الذين يعتقدون بالاقانيم الثلاثة (الأب، والابن، وروح القدس).

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣﴾[٢].

---

(١) اعتمدنا في هذه المعلومات على كتاب «الغلاف الهوائي» للدكتور محمد جمال الدين العنزي ص٥ ـ ٦، وص١١٥ ـ ١٢١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٣.

٢ ــ الشرك في الصفات...

وذلك بالاعتقاد بزيادة الصفات الحقيقية الذاتية لله سبحانه على ذاته، كما هو منسوب إلى الأشاعرة... مما يستلزم تعدد القدماء.

٣ ــ الشرك في الأفعال:

وذلك بأن يعتقد الإنسان أن هناك عللاً تدبر الكون في عرض الله سبحانه.

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية الكريمة: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

إنه قال:

«هو قول الرجل لولا فلان لهلكت، ولولا فلان لاصبت كذا وكذا، ولولا فلان لضاع عيالي ألا ترىٰ أنه قد جعل لله شريكاً في ملكه يرزقه ويدفع عنه».

قال الراوي:

قلت: فيقول: لولا أن الله منّ عليَّ بفلان لهلكت؟

قال: لا بأس[(١)].

٤ ــ الشرك في المحبة:

بأن يحب الإنسان غير الله سبحانه في عرض الله سبحانه...

أما حب شخص أو شيء لأنه محبوب لله تعالىٰ، أو لأن الله أمر بحبه، كالأنبياء والأولياء فمآله إلى حب الله تعالى[(٢)].

---

(١) بحار الانوار ج٧٢، ص١٠٠.

(٢) قال سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «القلب حرم الله فلا تسكن حرم الله غير الله»[1].

وعن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «حب الدنيا وحب الله لا يجتمعان في قلب أبداً»[2].

٥ ـ الشرك في الطاعة:

بأن يطيع الإنسان غير الله سبحانه.

أما من يمثل الله سبحانه فاطاعته إطاعة لله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[3].

قال الله تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾[5].

وعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦﴾[6] إنه قال:

«شرك طاعة، ليس شرك عبادة، والمعاصي التي يرتكبون فهي شرك طاعة، أطاعوا فيها الشيطان، فأشركوا بالله في الطاعة لغيره»[7].

---

(١) بحار الأنوار ج٧٠ ـ ص٢٥.
(٢) تنبيه الخواطر ص٣٦٢.
(٣) سورة النساء، الآية: ٨٠.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٣١.
(٥) سورة يس، الآية: ٦.
(٦) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.
(٧) سفينة البحار ج١، ص٦٩٧.

٦ ــــ الشرك في العبادة:

بأن يعبد الإنسان صنماً أو وثناً أو ما أشبه ليقربه إلى الله زلفىٰ.

وذلك كالصابئة الذين يعبدون الكواكب باعتبارها مدبرة لهذا العالم[١]، وكالمشركين في زمان الجاهلية الذين كانوا يعبدون اللات والعزىٰ وغيرهما من الأصنام.

قال الله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

٧ ــــ الشرك الأصغر:

بأن يعمل الإنسان العمل ويقصد به غير الله سبحانه قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[٢].

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال في الآية:

«الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله إنما يطلب تزكية الناس، يشتهي أن يسمع به الناس فهذا الذي أشرك بعبادة ربه»[٣].

وعن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر».

قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟

قال: هو الرياء[٤].

---

(١) في حقيقة عقيدة الصابئة خلاف، راجع كتاب «الصابئة في عقيدتهم وشريعتهم» للسيد الوالد دام ظله.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٣) بحار الأنوار، ج٧٢، ص٢٨٢.

(٤) بحار الأنوار، ج٧، ص٣٠٣.

لماذا عبدوا الأصنام؟

عبادة الأصنام ظاهرة قديمة تمتد إلى أعماق التاريخ. . . ولا تزال مستمرة حتى الآن في كثير من البلاد. . .

ومع وضوح البراهين الفطرية الدالة على أن الله تعالىٰ هو خالق كل شيء وهو الذي يستحق العبادة. . . كيف يسمح الإنسان لنفسه أن يسف إلى مستوى أن يتخذ من دون الله أنداداً، يعبدها، ويقدم لها القرابين، ويعتقد فيها النفع والضرر؟

هنالك عدة عوامل قد تكمن وراء نشوء ظاهرة «عبادة الأصنام»:

١ ـ كان في الأمم السالفة أفراد يعتقد الناس بقدسهم وصلاحهم. . . ولما مات هؤلاء اتخذ الناس لهم تماثيل. . . لتكون مذكرة بهم. . وباعثة على استلهام معاني الخير والصلاح منهم. . . وكان الناس يفدون إليها ويعظمونها. . . لا باعتبارها آلهة. . . ولكن باعتبار أنها تمثل نماذج للخير والصلاح. . . وعلىٰ مرور الأيام تحول «التعظيم» إلى «عبادة» وأصبحت هذه الأصنام آلهة تعبد مع الله تعالىٰ.

٢ ـ وكان فيها أيضاً أفراد يأنس إليهم الناس ويودونهم. . . ولما ماتوا اتخذوا لهم تماثيل لتملأ بعض الفراغ الذي خلوه بموتهم. . . وانجر الأمر ـ على امتداد الأيام ـ إلى عبادة هذه التماثيل.

ففي تفسير علي بن إبراهيم في قوله تعالىٰ:

﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[1]

(١) سورة نوح، الآية: ٢٣.

قال: كان قوم مؤمنون قبل نوح عليه السلام فماتوا فحزن عليهم الناس فجاء إبليس فاتخذ لهم صورهم ليأنسوا بها فأنسوا بها، فلما جاءهم الشتاء ادخلوهم البيوت فمضى ذلك القرن وجاء القرن الآخر فجاءهم إبليس فقال لهم:

إن هؤلاء آلهة كانوا آباؤكم يعبدونها فعبدوهم وضل منهم بشر كثير، فدعا عليهم نوح فأهلكهم الله»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال في الآية: كانوا يعبدون الله عزَّ وجلَّ فماتوا فضج قومهم وشق ذلك عليهم، فجاءهم إبليس لعنه الله فقال لهم:

«أتخذ لكم أصناماً على صورهم فتنظرون إليهم وتأنسون بهم وتعبدون الله» فأعد لهم أصناماً على مثالهم فكانوا يعبدون الله عزَّ وجلَّ، وينظرون إلى تلك الأصنام، فلما جاء الشتاء والأمطار أدخلوا الأصنام البيت فلم يزالوا يعبدون الله عزَّ وجلَّ حتى هلك ذلك القرن ونشأ أولادهم، فقالوا:

إن آباءنا كانوا يعبدون هؤلاء، فعبدوهم من دون الله عزَّ وجلَّ، فذلك قول الله تبارك وتعالىٰ. ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾[2].

٣ ـ وكانت بعض الطوائف تعتقد بوجود وسائط مزعومة بين الله تعالى وبين خلقه هي التي تدبر شؤون هذا العالم كالكواكب، فاتخذوا لها تماثيل، لتكون مذكرة بها حال استتارها وعبدوها لتقربهم إلى الله زلفىٰ.

٤ ـ وهناك نزعة تجسيدية في البشر ـ تعبر عن طفولية في الفكر . . .

---

(١) البحار ج٣، ص٢٤٨ (ط الوفاء).
(٢) البحار ج٣، ص٢٥٠ (ط الوفاء).

حيث أنها لا تستطيع أن تهضم ما هو فوق المادة. . . وتظن أن «الوجود» يساوي «الإحساس» فكل موجود فهو محسوس. . . وكل ما ليس بمحسوس فليس بموجود. . . ولذا تريد إلهاً حسيّاً تعبده، متمثلاً في الأصنام.

ولذا نجد أنه عندما عبر بنو إسرائيل البحر ـ ورأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم.

﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[1].

ورغم أن عبادة الأصنام أصبحت عادة مستحكمة يتوارثها الأبناء عن الآباء في كثير من الأمم إلا أنه ظل هناك مجموعة من الناس على عبادة الواحد الأحد، كما كانت تطرأ أحياناً أحداث تعيد البعض إلى فطرته، وتغسل ما علق عليها من الركام.

وقد نقل: أن رجلاً منهم رأىٰ ثعلباً يبول علىٰ رأس الصنم فأنشد:

أرب يبول الثعلبان برأسه؟ لقد ذل من بالت عليه الثعالب[2].

ثم شد على الصنم فكسره. . . ثم جاء إلى رسول الله ﷺ.

فقال النبي ﷺ: ما اسمك؟

فقال: غاوي بن عبد العزىٰ.

فقال ﷺ: بل أنت راشد بن عبد ربه.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٨.
(٢) بحار الأنوار ج١، ص٢٥٣.

روايات في المقام

١ ـ عن علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: في قوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لها وجهان

أحدهما؛ وخلق الذين من قبلكم لعلكم كلكم تتقون أي لتتقوا كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

والوجه الآخر؛ اعبدوا الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون أي اعبدوه لعلكم تتقون النار. ولعلّ من الله واجب لأنه أكرم من أن يعني عبده إلى منفعة ويطمعه في فضله ثم يخيبه ألا ترى كيف قبح من عبده من عباده إذا قال الرجل أخد مني لعلك تنتفع بي ولعلي أنفعك ثم يخدمه يخيبه ولا ينفعه فالله عزَّ وجلّ أكرم في أفعاله وأبعد من القبيح في أعماله من عباده[1].

٢ ـ عن علي بن الحسين عليه السلام قال في قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾. قال جعلها ملائمة لطباعكم موافقة لأجسامكم ولم يجعلها شديدة الحما والحرارة فتحرقكم ولا شديدة البرد فتجمدكم ولا شديدة طيب الريح فتصدع هاماتكم ولا شديدة النتن فتعطبكم[2]. ولا شديدة اللين كالماء فتغرقكم ولا شديدة الصلابة فتمتنع عليكم في دوركم وابنيتكم وقبور موتاكم ولكنه عزّ وجلّ جعل فيها من المتانة ما تنتفعون به وتتماسكون وتتماسك عليها أبدانكم، وبنيانكم وجعل فيها ما به لدوركم وقبوركم وكثير من منافعكم فلذلك جعل الأرض فراشاً لكم ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ سقفاً من فوقكم محفوظاً يدير منها شمسها وقمرها ونجومها لمنافعكم ثم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ

---

(١) البرهان ج١، ص٦٧.

(٢) العطب الهلاكة واعطبه أهلكه والمعاطب المهالك.

ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعني المطر من أعلىٰ ليبلغ قلل جبالكم، وتلالكم، وهضابكم[1] واوهادكم ثم فرقه رذاذاً[2]، ووابلاً وهطلاً[3] لتسقي أرضكم ولم يجعل ذلك المطر نازلاً عليكم قطعة واحدة فيفسد الأرض لكم ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾[4] أي أشباهاً وأمثالاً من الأصنام التي لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر ولا تقدر على شيء وأنتم تعلمون أنها لا تقدر علىٰ شيء من هذه النعم الجليلة انعمها عليكم ربكم تبارك وتعالىٰ[5].

٣ ـ عن الرضا عليه السلام أنه قال: فإن قال، فلم يعبدوه؟ قيل: «لئلا يكونوا ناسين لذكره ولا تاركين لأدبه، ولا لاهين عن أمره ونهيه، إذا كان فيه صلاحهم وقوامهم، فلو تركوا بغير تعبد لطال عليهم الأمد فقست قلوبهم»[6].

٤ ـ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أفضل العبادة ادمان التفكر في الله وفي قدرته[7].

٥ ـ عن أبي الحسن الرضا عليه السلام أنه قال:

«ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم، إنما العبادة التفكر في أمر الله عزَّ وجل[8].

---

(١) الهضبة بالفتح فالسكون الجبل المنبسط على وجه الأرض والجمع هضب وهضاب.

(٢) الرذاذ المطر الضعيف والوابل المطر الشديد والوهدة بالفتح فالسكون المنخفض من الأرض.

(٣) الهطل تتابع المطر وسيلانه.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٢.

(٥) البرهان ج١، ص٦٧.

(٦) نور الثقلين ج١، ص٣٩.

(٧) المصدر ص٤٠.

(٨) نور الثقلين ج١، ص٤٠.

٦ ـ عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال:

«إن أشد العبادة الورع»[١].

٧ ـ عن علي بن الحسين عليه السلام أنه قال:

«لا عبادة إلا بتفقه»[٢].

٨ ـ في توحيد المفضل الذي رواه عن الصادق عليه السلام كلام طويل في «التوحيد» ننقل منه هذه المقاطع:

أ ـــ في خلق الإنسان:

نبدأ يا مفضل بذكر خلق الإنسان فاعتبر به.. فأول ذلك ما يدبر به الجنين في الرحم، وهو محجوب في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة[٣]، حيث لا حيلة عنده في طلب غذاء، ولا دفع أذى. ولا استجلاب منفعة، ولا دفع مضرة، فإنه يجري إليه من دم الحيض ما يغذوه، الماء والنبات، فلا يزال ذلك غذاؤه.

(كيفية ولادة الجنين وغذائه وطلوع أسنانه وبلوغه):

حتى إذا كمل خلقه واستحكم بدنه وقوي أديمه[٤] على مباشرة الهواء وبصره على ملاقاة الضياء هاج الطلق[٥] بأمه فأزعجه أشد ازعاج وأعنفه حتى يولد، فإذا ولد صرف ذلك الدم الذي كان يغذوه من دم أمه إلى ثديها وانقلب الطعم واللون إلى ضرب آخر من الغذاء وهو أشد موافقة

---

(١) المصدر ص٤٠.

(٢) المصدر ص٤١.

(٣) المشيمة: غشاء ولد الإنسان يخرج معه عند الولادة، جمعه مشيم ومشايم.

(٤) الأديم: الجلد المدبوغ.

(٥) الطلق «بسكون الثاني» وجع الولادة.

للمولود من الدم فيوافيه فيه وقت حاجته إليه، فحين يولد قد تلمظ[1] وحرك شفتيه طلباً للرضاع، فهو يجد ثدي أمه كالأداوتين[2] المعلقتين لحاجته فلا يزال يتغذى باللبن، ما دام رطب البدن رقيق الأمعاء لين الأعضاء. حتى إذا تحرك، واحتاج إلى غذاء فيه صلابة ليشتد ويقوى بدنه، طلعت له الطواحن من الأسنان والأضراس[3] ليمضغ[4] بها الطعام، فيلين عليه. ويسهل له اساغته، فلا يزال كذلك حتى يدرك، فإذا أدرك وكان ذكراً طلع الشعر في وجهه، فكان ذلك علامة الذكر، وعز الرجل الذي يخرج به من جدة الصبا وشبه النساء. وإن كانت أنثى يبقى وجهها نقياً من الشعر، لتبقىٰ لها البهجة، والنضارة التي تحرك الرجل لما فيه دوام النسل وبقاؤه.

اعتبر يا مفضل فيما يدبر به الإنسان في هذه الأحوال المختلفة، هل ترى مثله يمكن أن يكون بالإهمال؟ أفرأيت لو لم يجر إليه ذلك الدم وهو في الرحم، ألم يكن سيذوي ويجف كما يجف النبات إذا فقد الماء، ولو لم يزعجه المخاض عند استحكامه ألم يكن سيبقى في الرحم كالمؤودة[5] في الأرض؟ ولو لم يوافقه اللبن مع ولادته ألم يكن سيموت جوعاً أو يغتذي بغذاء لا يلائمه، ولا يصلح عليه بدنه، ولو لم تطلع له الأسنان في وقتها ألم يكن سيمتنع عليه مضغ الطعام واساغته. أو يقيمه على الرضاع فلا يشتد بدنه ولا يصلح لعمل؟ ثم كان يشغل أمه بنفسه عن تربية غيره من الأولاد.

---

(١) تلمظ: إذا أخرج لسانه فمسح به شفتيه.

(٢) الأداوة: بكسر ففتح ـ إناء صغير من جلد يتخذ للماء، جمعه أداوي.

(٣) الطواحن: هي الأضراس، وتطلق الأضراس غالباً على المآخير والأسنان على المقاديم، كما هو الظاهر هنا، وإن لم يفرق اللغويون بينهما.

(٤) مضغ الطعام: لاكه بلسانه.

(٥) وإد البنت: دفنها في التراب حية، كما كان العرب يفعلون ذلك في العهد الجاهلي.

(حال من ينبت في وجهه الشعر وعلة ذلك):

ولو لم يخرج الشعر في وجهه في وقته ألم يكن سيبقى في هيئة الصبيان والنساء، فلا ترى له جلالة ولا وقاراً؟

قال المفضل فقلت له: يا مولاي فقد رأيت من يبقى على حالته ولا ينبت الشعر في وجهه وإن بلغ الكبر، فقال عليه السلام: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٨٢﴾[1] فمن هذا الذي يرصده[2] حتى يوافيه بكل شيء من هذه المآرب إلا الذي أنشأه خلقاً، بعد أن لم يكن، ثم توكل له بمصلحته بعد أن كان، فإن كان الإهمال يأتي بمثل هذا التدبير، فقد يجب أن يكون العمد والتقدير يأتيان بالخطأ والمحال، لأنهما ضد الإهمال وهذا فظيع من القول وجهل من قائله. لأن الإهمال لا يأتي بالصواب والتضاد لا يأتي بالنظام[3] تعالى الله عما يقول الملحدون علواً كبيراً.

ب ـــ زعم الطبيعيين وجوابه:

قال المفضل فقلت: يا مولاي أن قوماً يزعمون أن هذا من فعل الطبيعة، فقال عليه السلام: سلهم عن هذه الطبيعة أهي شيء له علم وقدرة على مثل هذه الأفعال، أم ليست كذلك؟؟ فإن أوجبوا لها العلم والقدرة فما

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٢.

(٢) يرصده: أي يرقبه

(٣) أي إذا لم تكن الأشياء منوطة بأسبابها، ولم ترتبط الأمور بعللها، فكما جاز أن يحصل هذا الترتيب والنظام التام بلا سبب، فجاز أن يصير التبيير في الأمور سبباً لاختلافها، وهذا خلاف ما يحكم به العقلاء لما يرون من سعيهم في تدبير الأمور ونمهم، من يأتي بها على غير تأمل وروية... ويحتمل أن يكون المراد أن الوجدان يحكم بتضاد آثار الأمور المتضادة، وربما أمكن إقامة البرهان عليه أيضاً، فإذا أتى الإهمال بالصواب يجب أن يأتي ضده وهو التبيير بالخطأ، وهذا أفظع وأشنع من تعليقات البحار.

يمنعهم من إثبات الخالق، فإن هذه صنعته!![1]، وإن زعموا أنها تفعل هذه الأفعال بغير علم ولا عمد، وكان في أفعالها ما قد تراه من الصواب والحكمة، علم أن هذا الفعل للخالق الحكيم، فإن الذي سموه طبيعة هو سنته في خلقه، الجارية على ما أجراها عليه[2][3].

جـ ـ هيئة الأرض:

فكر يا مفضل فيما خلق الله عزَّ وجلَّ عليه هذه الجواهر الأربعة[4] ليتّسع ما يحتاج إليه منها . . . فمن ذلك سعة هذه الأرض وامتدادها، فلولا ذلك كيف كانت تتسع لمساكن الناس ومزارعهم ومراعيهم ومنابت اخشابهم وأحطابهم والعقاقير العظيمة والمعادن الجسيم غناؤها. ولعل من ينكر هذه الفلوات[5] الخاوية والقفار الموحشة. فيقول: ما المنفعة فيها؟ فهي مأوى هذه الوحوش ومحالها ومراعيها، ثم فيها بعد تنفس، ومضطرب للناس إذا احتاجوا إلى الاستبدال بأوطانهم، فكم بيداء وكم فدفد[6] حالت قصوراً وجناناً، بانتقال الناس إليها وحلولهم فيها، ولولا

---

(١) لعل المراد أنهم إذا قالوا بذلك فقد أثبتوا الصانع، فلم يسمونه بالطبيعة، وهي ليست بذات علم ولا إرادة ولا قدرة؟.

(٢) أي ظاهر بطلان هذا الزعم، والذي صار سبباً لذهولهم هو أن الله تعالى أجرى عادته بأن يخلق الأشياء بأسبابها، فذهبوا إلى استقلال تلك الأسباب في ذلك. وبعبارة أخرى أن سنة الله وعادته قد جرت لحكم كثيرة، أن تكون الأشياء بحسب بادي النظر مستندة إلى غيره تعالى، ثم ـ يعلم ـ بعد الإعتبار والتفكر ـ أن الكل مستند إلى قدرته أو تأثيره تعالى وإنما هذه الأشياء وسائل وشرائط لذلك ومن هنا تحيروا في الصانع تعالى.

(٣) توحيد المفضل ص١٨ ـ ١٩ (ط الوفاء).

(٤) المراد بالجواهر الأربعة؛ هي التراب، والماء، والهواء، والنار.

(٥) الفلوات جمع فلات وهي الصحراء الواسعة.

(٦) الفدفد: الفلاة والجمع فدافد.

سعة الأرض وفسحتها لكان الناس كمن هو في حصار ضيق لا يجد مندوحة عن وطنه إذا أحزنه أمر يضطره إلى الإنتقال عنه.

ثم فكر في خلق هذه الأرض على ما هي عليه حين خلقت راتبة راكنة، فتكون موطناً مستقراً للأشياء، فيتمكن الناس من السعي عليها في مآربهم، والجلوس عليها لراحتهم، والنوم لهدوئهم، والاتقان لأعمالهم فإنها لو كانت رجراجة منكفئة، لم يكونوا يستطيعون أن يتقنوا البناء والنجارة والصناعة وما أشبه ذلك، بل كانوا لا يتهنون بالعيش والأرض ترتج من تحتهم، واعتبر ذلك بما يصيب الناس حين الزلازل ـ على قلة مكثها ـ حتى يصيروا إلى ترك منازلهم، والهرب عنها... فإن قال قائل: فلمَ صارت هذه الأرض تزلزل؟ قيل له إن الزلزلة وما أشبهها موعظة وترهيب يرهب لها الناس ليرعووا، وينتزعوا عن المعاصي، وكذلك ما ينزل بهم من البلاء في أبدانهم وأموالهم، يجري في التدبير على ما فيه صلاحهم واستقامتهم، ويدخر لهم أن صلحوا من الثواب والعوض في الآخرة ما لا يعدله شيء من أمور الدنيا، وربما عجل ذلك في الدنيا إذا كان ذلك في الدنيا صلاحاً للعامة والخاصة... ثم إن الأرض في طباعها الذي طبعها الله عليه باردة يابسة، وكذلك الحجارة، وإنما الفرق بينها وبين الحجارة فضل يبس في الحجارة، أفرأيت لو أن اليبس أفرط على الأرض قليلاً، حتى تكون حجراً صلداً، أكانت تنبت هذا النبات الذي به حياة الحيوان، وكان يمكن بها حرث أو بناء؟؟ أفلا ترى كيف نقصت من يبس الحجارة وجعلت على ما هي عليه من اللين والرخاوة لتتهيأ للاعتماد[1].

---

(١) المصدر ص٩٠ ـ ٩١.

د ـــ الصحو والمطر

فكر يا مفضل في الصحو والمطر كيف يتعاقبان على هذا العالم لما فيه صلاحه، ولو دام واحد منهما عليه كان في ذلك فساده. . . ألا ترى أن الأمطار إذا توالت عفنت البقول والخضر، واسترخت أبدان الحيوان وحصر الهواء فأحدث ضروباً من الأمراض. وفسدت الطرق والمسالك وأن الصحو إذا دام جفت الأرض، واحترق النبات، وغيض ماء العيون والأودية، فأضر ذلك بالناس، وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضروباً أخرى من الأمراض. . . فإذا تعاقب على العالم هذا التعاقب اعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الآخر، فصلحت الأشياء واستقامت. . . فإن قال قائل: ولِمَ لا يكون في شيء من ذلك مضرة البتة؟ قيل له ليمض ذلك الإنسان ويؤلمه بعض الألم، فيرعوي على المعاصي، فكما أن الإنسان إذا سقم بدنه احتاج إلى الأدوية المرة البشعة ليقوم طباعه، ويصلح ما فسد منه، كذلك إذا طغى واشتد، احتاج إلى ما يمضه ويؤلمه، ليرعوي ويقصر عن مساويه، ويثبته على ما فيه حظه ورشده. . . ولو أن ملكاً من الملوك قسم في أهل مملكته قناطيراً[1] من ذهب وفضة، ألم يكن سيعظم عندهم ويذهب له به الصوت، فأين هذا من مطرة رواء يعم به البلاد ويزيد في الغلات أكثر من قناطير الذهب والفضة في أقاليم الأرض كلها. . . أفلا ترى المطرة الواحدة ما أكبر قدرها، وأعظم النعمة على الناس فيها وهم عنها ساهمون، وربما عاقت عن أحدهم حاجة لا قدر لها، فيتذمر ويسخط إيثاراً للخسيس قدره على العظيم نفعه، جميلاً محموداً لعاقبته وقلة معرفته[2] لعظيم الغناء والمنفعة فيها[3].

---

(١) القناطير جمع قنطار وهو المال الكثير أو وزن اختلف مقدار موزونه مع الأيام.

(٢) في الأصل المطبوع محمود العاقبة وقلة المعرفة.

(٣) المصدر ص٩٤ ـ ٩٥.

هـ ـــ مصالح نزول المطر:

تأمل نزوله على الأرض والتدبير في ذلك، فإنه جعل ينحدر عليها من علو ليغش ما غلظ وارتفع منها فيرويه، ولو كان إنما يأتيها من بعض نواحيها لما علا المواضع المشرفة منها، ويقل ما يزرع في الأرض. . . ألا ترى أن الذي يزرع سيحاً[١] أقل من ذلك، فالأمطار هي التي تطبق الأرض، وربما تزرع هذه البراري الواسعة وسفوح الجبال وذراها فتغل الغلة الكثيرة. وبها يسقط عن الناس في كثير من البلدان مؤنة سياق الماء من موضع إلى موضع، وما يجري في ذلك بينهم من التشاجر والتظالم حتى يستأثر بالماء ذو العز والقوة، ويحرمه الضعفاء، ثم أنه حين قدر أن ينحدر على الأرض إنحداراً جعل ذلك قطراً شبيهاً بالرش، ليغور في قعر الأرض فيرويها، ولو كان يسكبه انسكاباً كان ينزل على وجه الأرض فلا يغور فيها، ثم كان يحطم الزروع القائمة إذا إندفق عليها، فصار ينزل نزولاً رقيقاً، فينبت الحب المزروع. ويحيي الأرض والزرع القائم.

وفي نزوله أيضاً مصالح أخرى، فإنه يلين الأبدان، ويجلو كدر الهواء، فيرتفع الوباء الحادث من ذلك، ويغسل ما يسقط على الشجر والزرع من الدماء المسمى باليرقان إلى أشباه هذا من المنافع، فإن قال قائل: أوليس قد يكون منه في بعض السنين الضرر العظيم الكثير، لشدة ما يقع منه، أو برد[٢] يكون فيه تحطم الغلات، وبخورة يحدثها في الهواء، فيولد كثيراً من الأمراض في الأبدان والآفات في الغلات؟ قيل: بلىٰ قد يكون ذلك الفرط، لما فيه من صلاح الإنسان، وكفه عن ركوب

---

(١) زراعة السيح هي الزراعة التي تحصل عن طريق الأنهر والمياه الجارية.

(٢) البرد ـ بفتحتين: ماء الغمام يتجمد في الهواء البارد ويسقط على الأرض حبوباً.

المعاصي والتمادي فيها. فيكون المنفعة فيما يصلح له من دينه، أرجح مما عسىٰ أن يرزأ في ماله[1]!.

و ـــ النبات:

فكر يا مفضل في هذا النبات وما فيه من ضروب المآرب، فالثمار للغذاء، والاتبان[2] للعلف، والحطب للوقود، والخشب لكل شيء من أنواع التجارة وغيرها، واللحاء[3] والورق والأصول والعروق والصموغ لضروب من المنافع. أرأيت لو كنا نجد الثمار التي نغتذي بها مجموعة على وجه الأرض، ولم تكن تنبت على هذه الأغصان الحاملة لها، كم كان يدخل علينا من الخلل في معاشنا، وإن كان الغذاء موجوداً فإن المنافع بالخشب والحطب والأتبان وسائر ما عددناه كثيرة عظيم قدرها، جليل موقعها، هذا مع ما في النبات من التلذذ بحسن منظره، ونضارته التي لا يعدلها شيء من مناظر العالم وملاهيه.

(الريع في النبات وسببه):

فكر يا مفضل في هذا الريع الذي جعل في الزرع، فصارت الحبة الواحدة تخلف مائة حبة وأكثر وأقل، وكان يجوز للحبة أن تأتي بمثلها فلم صارت تريع هذا الريع إلا ليكون في الغلة[4] متسع، لما يرد في الأرض من البذر، وما يتقوت الزراع إلى إدراك زرعها المستقبل، ألا

---

(١) المصدر ص٩٥ ـ ٩٦.

(٢) لم نجد في معاجم اللغة العربية، لفظ الاتبان على معنى التبن المعروف ولعل اللفظ قد غيره النساخ والصحيح تبن.

(٣) اللحاء: قشر العود أو الشجر.

(٤) الغلة ـ بالفتح ـ: الدخل من كراء دار وفائدة أرض ونحو ذلك والجمع غلات وغلال.

ترى أن الملك لو أراد عمارة بلدة من البلدان كان السبيل في ذلك أن يعطي أهله ما يبذرونه في أرضهم وما يقوتهم إلى إدراك زرعهم.

فانظر كيف تجد هذا المثال قد تقدم في تدبير الحكيم، فصار الزرع يريع هذا الريع ليفي بما يحتاج إليه للقوت والزراعة، وكذلك الشجر والنبت والنخل يريع الريع الكثير، فإنك ترى الأصل الواحد حوله من فراخه أمراً عظيماً، فلِمَ كان كذلك إلا ليكون فيه ما يقطعه الناس، ويستعملونه في مآربهم، وما برد فيغرس في الأرض، ولو كان الأصل منه يبقى منفرداً لا يفرخ ولا يريع لما أمكن أن يقطع منه شيء لعمل ولا لغرس، ثم كان أن أصابته آفة انقطع أصله، فلم يكن منه خلف.

(بعض النباتات وكيف تصان):

تأمل نبات هذه الحبوب من العدس والماش والباقلاء وما أشبه ذلك فإنها تخرج في أوعية مثل الخرائط[١] لتصونها وتحجبها من الآفات إلى أن تشتد وتستحكم، كما قد تكون المشيمة[٢] على الجنين لهذا المعنى بعينه وأما البرُ[٣] وما أشبهه فإنه يخرج مدرجاً في قشور صلاب على رؤوسها أمثال الأسنة من السنبل ليمنع الطير منه ليتوفر على الزراع فإن قال قائل: أوليس قد ينال الطير من البرّ والحبوب قيل له: بلىٰ علىٰ هذا قدر الأمر فيها لأن الطير خلّق من خلق الله تعالى وقد جعل الله تبارك وتعالىٰ له في ما تخرج الأرض حظاً ولكن حصنت الحبوب بهذه الحجب

---

(١) لم نجد للفظ «الخرائط» هنا معنى يتسق ومراد الإمام عليه السلام ولعله يريد الشكل المخروطي، وهو ما يبتدىء من سطح مستدير ويرتفع مستدقاً حتى ينتهي إلى نقطة.

(٢) المشيمة: غشاء ولد الإنسان يخرج معه عند الولادة، جمعه: مشيم ومشايم.

(٣) البر ـ بضم فتشديد ـ هو القمح، الواحدة بُرة.

لئلا يتمكن الطير منها كل التمكن فيعبث بها ويفسد الفساد الفاحش. فإن الطير لو صادف الحب بارزاً ليس عليه شيء يحول دونه لأكب عليه حتى ينسفه أصلاً، فكان يعرض من ذلك أن يبشم[1] الطير فيموت ويخرج الزراع من زرعه صفراً، فجعلت عليه هذه الوقايات لتصونه، فينال الطائر منه شيئاً يسيراً يتقوت به، ويبقى أكثره للإنسان، فإنه أولى به، إذ كان هو الذي كدح فيه وشقي به، وكان الذي يحتاج إليه أكثر مما يحتاج إليه الطير.

(الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات)

تأمل الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات، فإنها لما كانت تحتاج إلى الغذاء الدائم كحاجة الحيوان، ولم يكن لها أفواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء، جعلت أصولها مركوزة في الأرض لتنزع منها الغذاء فتؤديه إلى الأغصان وما عليه من الورق والثمر فصارت الأرض كالأم المربية لها، وصارت أصولها التي هي كالأفواه ملتقمة للأرض لتنزع منها الغذاء، كما ترضع أصناف الحيوان أمهاتها، ألم تر إلى عمد الفساطيط[2] والخيم كيف تمد بالأطناب[3] من كل جانب لتثبت منتصبة فلا تسقط ولا تميل فهكذا تجد النبات كله له عروق منتشرة في الأرض ممتدة إلى كل جانب لتمسكه وتقيمه، ولولا ذلك كيف كان يثبت هذا النخل الطوال والدوح العظام في الريح العاصف؟

فانظر إلى حكمة الخالق كيف سبقت حكمة الصناعة فصارت الحيلة

---

(١) يبشم الطعام: أي يتخم من الطعام.

(٢) الفساطيط جمع فسطاط ـ بالضم أو الكسر ـ بيت من شعر.

(٣) الأطناب جمع طنب ـ بضمتين ـ حبل طويل يشد به سرادق البيت.

التي تستعملها الصناع في ثبات الفساطيط والخيم. . . متقدمة في خلق الشجر، لأن خلق الشجر قبل صنعه الفساطيط ألا ترى عمدها وعيدانها من الشجر، فالصناعة مأخوذة من الخلقة.

(خلق الورق ووصفه)

تأمل يا مفضل خلق الورق فإنك ترى في الورقة شبه العروق مبثوثة فيها أجمع، فمنها غلاظ ممتدة في طولها وعرضها، ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجاً دقيقاً معجماً، لو كان مما يصنع بالأيدي كصنعة البشر لما فرغ من ورق الشجرة واحدة في عام كامل، ولاحتيج إلى آلات وحركة وعلاج وكلام، فصار يأتي منه في أيام قلائل من الربيع ما يملأ الجبال والسهل وبقاع الأرض كلها بلا حركة ولا كلام، إلا بالإرادة النافذة في كل شيء والأمر المطاع. . . واعرف مع ذلك العلة في تلك العروق الدقاق، فإنها جعلت تتخلل الورقة بأسرها، لتسقيها وتوصل الماء إليها، بمنزلة العروق المبثوثة في البدن، لتوصل الغذاء إلى كل جزء منه، وفي الغلاظ منها معنى آخر، فإنها تمسك الورقة بصلابتها ومتانتها، لئلا تنهتك وتتمزق، فترى الورقة شبيها بورقة معمولة بالصنعة من خرق قد جعلت فيها عيدان ممدودة في طولها وعرضها لتتماسك فلا تضطرب. . . فالصناعة تحكي الخلقة وإن كانت لا تدركها على الحقيقة.

(العجم والنوى والعلة في خلقه):

فكر في هذا العجم والنوى والعلة فيه، فإنه جعل في جوف الثمرة ليقوم مقام الغرس إن عاق دون الغرس عائق، كما يحرز الشيء النفيس الذي تعظم الحاجة إليه في مواضع أُخر فإن حدث على الذي في بعض

المواضع منه حادث وجد في موضع آخر، ثم هو بعد يمسك بصلابته رخاوة الثمار ورقتها، ولولا ذلك لتشدخت[1] وتفسخت، واسرع إليها الفساد وبعضه يؤكل ويستخرج دهنه، فيستعمل منه ضروب من المصالح، وقد تبين لك موضع الأرب في العجم والنوى.

فكر الآن في هذا الذي تجده فوق النواة من الرطبة، وفوق العجم من العنبة، فما العلبة فيه؟ ولماذا يخرج في هذه الهيئة؟ وقد كان يمكن أن يكون مكان ذلك ما ليس فيه مأكل كمثل ما يكون في السدر[2] والدلب[3] وما أشبه ذلك. فلم صار يخرج فوقه هذه المطاعم اللذيذة، إلا ليستمتع بها الإنسان؟

(موت الشجر وتجدد حياته وما في ذلك من ضروب التدبير)

فكِّر في ضروب من التدبير في الشجر، فإنك تراه يموت في كل سنة موتة، فتحتبس الحرارة الغريزية في عوده، ويتولد فيه مواد الثمار ثم يحيي وينتشر، فيأتيك بهذه الفواكه نوعاً بعد نوع، كما تعد نوع، كما تقدم إليك أنواع الأطبخة التي تعالج بالأيدي واحداً بعد واحد، فترى الأغصان في الشجر تتلقاك بثمارها حتى كأنها تناولكها عن يد، وترى الرياحين تتلقاها في أفنانها[4] كأنها تجيئك بأنفسها، فلمن هذا التقدير إلا لمقدر حكيم وما العلة فيها إلا تفكيه الإنسان بهذه الثمار والأنوار؟.. والعجب من أناس جعلوا مكان الشكر على النعمة جحود المنعم بها.

---

(١) تشدخت: تكسرت.
(٢) السدر ـ بالكسر ـ شجر النبق جمعه سدور.
(٣) الدلب ـ بالضم ـ شجر، عظيم عريض الورق لا زهر له ولا ثمر والواحدة دلبة.
(٤) الأفنان جمع فنن وهو الغصن المستقيم.

(خلق الرمانة وأثر العمد فيه)

واعتبر بخلق الرمانة وما ترى فيه من أثر العمد والتدبير، فإنك ترى فيها كأمثال التلال، من شحم مركوم في نواحيها، وحب مرصوف صفاً كنحو ما ينضد بالايدي، وترى الحب مقسوماً أقساماً، وكل قسم منها ملفوفاً بلفائف من حجب منسوجة أعجب النسج والطفه وقشره يضم ذلك كله.

فمن التدبير في هذه الصنعة أنه لم يكن يجوز أن يكون حشو الرمانة من الحب وحده، وذلك أن الحب لا يمد بعضه بعضاً، فجعل ذلك الشحم خلال الحب ليمده بالغذاء. ألا ترى أن أصول الحب مركوزة في ذلك الشحم، ثم لف بتلك اللفائف لتضمه وتمسكه فلا يضطرب، وغشي فوق ذلك بالقشرة المستحصفة لتصونه وتحصنه من الآفات، فهذا قليل من كثير من وصف الرمانة، وفيه أكثر من هذا لمن أراد الإطناب[1] والتذرع[2] في الكلام، ولكن فيما ذكرت لك كفاية في الدلالة والإعتبار.

(حمل اليقطين وما فيه من التدبير والحكمة)

فكر يا مفضل في حمل اليقطين الضعيف مثل هذه الثمار الثقيلة من الدباء والقثاء[3] والبطيخ وما في ذلك من التدبير والحكمة، فإنه حين قدر أن يحمل مثل هذه الثمار جعل نباته منبسطاً على الأرض، ولو كان ينتصب قائماً كما ينتصب الزرع والشجر، لما استطاع أن يحمل مثل هذه الثمار الثقيلة، ولتقصف قبل ادراكها وانتهائها إلى غاياتها.. فانظر كيف صار يمتدّ على وجه الأرض ليلقي عليها ثماره فتحملها عنه فترى الأصل

---

(١) يقال: أطنب في الوصف أو القول، أي بالغ.

(٢) التذرع في الكلام هو الإكثار منه والافراط فيه.

(٣) القثاء ـ بالضم ـ نوع من النبات ثمرة يشبه ثمر الخيار الواحدة قثاءة.

من القرع[1] والبطيخ مفترشاً للأرض، وثماره مبثوثة عليها وحواليه كأنه هرة ممتدة، وقد اكتنفتها جراؤها[2] لترضع منها.

(موافاة أصناف النبات في الوقت المشاكل لها)

وانظر كيف صارت الأصناف توافي الوقت المشاكل لها، من حمارة الصيف ووقدة الحر فتلقاها النفوس بانشراح وتشوق اليها، ولو كانت توافي الشتاء لوافقت من الناس كراهة لها واقشعراراً[3] منها مع ما يكون فيها من المضرة للأبدان. ألا ترى أنه ربما أدرك شيءٌ من الخيار في الشتاء، فيمتنع الناس من اكله إلا الشره الذي لا يمتنع من أكل ما يضره ويسقم معدته.

(في النخل وخلقة الجذع والخشب وفوائد ذلك)

فكر يا مفضل في النخل، فإنه لما صار فيه أناث تحتاج إلى التلقيح جعلت فيه ذكورة اللقاح من غير غراس، فصار الذكر من النخل بمنزلة الذكر من الحيوان الذي يلقح الاناث لتحمل وهو لا يحمل. تأمل خلقة الجذع كيف هو؟ فإنك تراه كالمنسوج نسجاً من خيوط ممدودة كالسدي واخرى معه معترضة كاللحمة[4] كنحو ما ينسج بالأيدي، وذلك ليشتد ويصلب ولا يتقصف من حمل القنوات[5] الثقيلة وهز الرياح العواصف إذا صار نخلة وليتهيأ للسقوف والجسور وغير ذلك مما يتخذ منه إذا صار جذعاً.

---

(١) القرع ـ بالفتح ـ نوع من اليقطين ـ الواحدة قرعة.

(٢) الجراء جمع جرو ـ بتثليث الجيم ـ صغير كل شيء حتى الرمان والبطيخ وغلب على الكلب والأسد والمراد هنا بالجراد أولاد الهرة.

(٣) اقشعر: تغير لونه.

(٤) اللحمة ـ بالضم ـ ما سدي به بين سدي الثوب أي ما نسج عرضاً وهو خلاف سواه والجمع لحم.

(٥) القنوات جمع قناة وهي العصا الغليظة، وقد اراد بها الإمام ﷺ هنا سعف النخل الغليظة.

وكذلك ترى الخشب مثل النسج فإنك ترى بعضه مداخلاً بعضه بعضاً طولاً وعرضاً كتداخل أجزاء اللحم، وفيه مع ذلك متانة ليصلح لما يتخذ منه من الآلات فإنه لو كان مستحصفاً[1] كالحجارة لم يمكن أن يستعمل في السقوف وغير ذلك مما يستعمل فيه الخشبة كالابواب والأسرة والتوابيت وما أشبه ذلك. . ومن جسيم المصالح في الخشب أنه يطفو على الماء، فكل الناس يعرف هذا منه، وليس كلهم يعرف جلالة الأمر فيه، فلولا هذه الخلة كيف كانت هذه السفن والأظراف[2] تحمل أمثال الجبال من الحمولة، وانى كان ينال الناس هذا الرفق وخفة المؤنة في حمل التجارات من بلد إلى بلد، وكانت تعظم المؤنة عليهم في حملها حتى يلقى كثير مما يحتاج إليه في بعض البلدان مفقوداً أصلاً أو عسر وجوده.

(العقاقير وخواص كل منها)

فكر في هذه العقاقير وما خص بها كل واحد منها من العمل في بعض الأدواء، فهذا يغور في المفاصل فيستخرج الفضول الغليظ مثل الشيطرج[3] وهذا ينزف المرة السوداء[4] مثل الافتيمون[5] وهذا ينفي

---

(١) أراد بالمستحصف: الشديد المحكم كأنه الحجارة.

(٢) كذا في النسخ.

(٣) جاء في تذكرة الانطاكي: شيطرج هندي هو الخامشة وهو نبت يوجد بالقبور الخراب له ورق عريض ودقيق ينتثر اعلاه إذا برد الجو وزهره أحمر إلى بياض، يخلف بزر اسود أصغر من الخردل ورائحته ثقيلة حادة وطعمه إلى مرارة.

(٤) المرة السوداء: خلط من اخلاط البدن والجمع مرار.

(٥) افتيمون لفظ يوناني معناه دواء الجنون وهو نبات له أصل كالجزر شديد الحمرة وفروع كالخيوط الليفية تحف باوراق دقاق خضر وزهرة إلى حمرة وغبرة وبزر دون الخردل أحمر إلى صفرة يلتف بما يليه.

الرياح مثل السكبينج[1] وهذا يحلل الأورام، واشباه هذا من أفعالها فمن جعل هذه القوى فيها إلا من خلقها للمنفعة؟ ومن فطن الناس لها إلا من جعل هذا فيها؟ ومتى كان يوقف على هذا منها بالعرض والاتفاق كما قال القائلون؟ وهب الإنسان فطن لهذه الأشياء بذهنه ولطيف رويته وتجاربه، فالبهائم كيف فطنت لها حتى صار بعض السباع يتداوى من جراحه أن أصابته ببعض العقاقير فيبرأ، وبعض الطير يحتقن من الحصر يصيبه بماء البحر فيسلم، واشباه هذا كثير، ولعلك تشكك في هذا النبات النابت في الصحاري والبراري حيث لا انس ولا أنيس، فتظن أنه فضل لا حاجة إليه، وليس كذلك، بل هو طعم لهذه الوحوش، وحبه علف للطير، وعوده وافنانه حطب، فيستعمله الناس، وفيه بعد أشياء تعالج بها الأبدان، واخرى تدبغ بها الجلود، واخرى تصبغ الأمتعة، واشباه هذا من المصالح. . الست تعلم أن من أخس النبات وأحقره هذا البردى وما اشبهها، ففيها مع هذا من ضروب المنافع، فقد يتخذ من البردي القراطيس التي يحتاج إليها الملوك والسوقة، والحصر التي يستعملها كل صنف من الناس ويعمل منه الغلف التي يوقي بها الأواني، ويجعل حشواً بين الظروف وفي الأسفاط، لكيلا تعيب وتنكسر، واشباه هذا من المنافع.

فاعتبر بما ترى من ضروب المآرب في صغير الخلق وكبيره وبما له قيمة وما لا قيمة له، واخس من هذا واحقره الزبل، والعذرة التي اجتمعت فيها الخساسة والنجاسة معاً، وموقعها من الزروع والبقول

---

(١) سكبينج أو سكنبيج هو شجرة بفارس، ويورد الأطباء الاقدمون أوصافاً طبية كثيرة من السكنبيج وينكرون أنه يذهب عدة أمراض لا مجال لذكرها هنا.

والخضر اجمع الموقع الذي لا يعدله شيء، حتى أن كل شيء من الخضر لا يصلح ولا يزكو إلا بالزبل والسماد الذي يستقذره الناس، ويكرهون الدنو منه[1].

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

انتهى في اليوم التاسع من شهر ربيع الأول من عام ١٤١٥هـ، اليوم الذي يحتفل فيه بانتقال الإمامة إلى حجة الله، وولي المؤمنين، وبوار الكافرين، ومجلي الظلمة، ومنير الحق، الذي يملأ الله به الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملأت ظلماً وجوراً: المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه وسهل مخرجه، وجعلنا من أعوانه وأنصاره، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

---

(١) المصدر، ص٩٩ ـ ١٠٧.

التدبر في القرآن

الجزء الثالث

تقريراً لدروس الفقيه الورع

سماحة آية الله السيد محمد رضا الحسيني الشيرازي

بقلم: السيد محمد علي الحسيني الشيرازي

دار العلوم
للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع

سورة آل عمران

مدنية

آياتها (٢٠٠)

فضل السورة[1]

روي عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ فقال: «تعلموا سورة البقرة وسورة آل عمران، فإنهما الزهراوان، تظلّان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف».

وعن أُبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة آل عمران أعطي بكل آية منها أماناً على جسر جهنم».

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ السورة التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تغيب الشمس».

(١) الطبرسي، الفضل بن الحسن، تفسير مجمع البيان، ج٢، ص: ٢٣٢.

المدخل

قبل البدء بتفسير آيات هذه السورة المباركة ينبغي تقديم مقدمة لعلها تلقي الأضواء على الأجواء التي كانت تكتنف نزول هذه السورة الشريفة، والمقدمة هي:

التحدي مفترق طرق الحضارات:

هناك نظرية في علم الحضارات ذكرها أكبر مؤرخي القرن الماضي[١] بعد أن درس تاريخ عشرات الحضارات تقول: إنّ التحدّي هو مفترق طرق الحضارات.. فالحضارات ومجتمعاتها تواجه دائماً تحدياً إمّا أن تنتهي به أو ترتفع، ولم تشذ الحضارة الإسلامية عن هذه القاعدة

---

(١) هو المؤرخ الإنكليزي أرنولد جوزف توينبي (Arnold J. Toynbee) من أشهر المؤرخين في القرن العشرين، ولد في ١٤ أبريل ١٨٨٩ وتوفي في ٢٢ أكتوبر ١٩٧٥، فسّر نشوءَ الحضارات الأُولى أو كما يُسمِّيها الحضارات المُنقطعة، من خلال نظريَّته الشهيرة الخاصَّة بـ «التحدِّي والاستجابة»، التي يعترفُ بأنَّه استلهمَها من عِلم النَّفس السلوكيّ وعلى وَجه الخصوص من كارل يونغ (١٨٧٥م-١٩٦١م) الذي يقول فيها: إنَّ الفَرد الذي يتعرَّضُ لصدمةٍ قد يفقدُ توازُنَه لفترةٍ ما، ثمَّ قد يستجيبُ لها بنوعَين من الاستجابة: الأُولى: النكوص إلى الماضي لاستعادته والتمسُّك به تعويضًا عن واقعه المُرّ، فيُصبح انطوائياً. والثانية: تقبُّل هذه الصدمة والاعتراف بها ثمَّ مُحاولة التغلُّب عليها، فيكون في هذه الحالة انبساطياً. فالحالة الأولى تُعتَبرُ استجابةً سلبيَّة، والثانية إيجابيَّة بالنسبة لعلم النفس.

المطردة، فقد واجه المجتمع الإسلامي في بداية نشأته، نحوين خطيرين من أنحاء التحديات أشير إليهما في هذه السورة المباركة، هما:

١ ـ التحدي العسكري:

وهو تحدٍّ خطير جداً؛ إذ كان بإمكانه القضاء على الدين، لولا لطف الله وعنايته ورحمته.. فقد تظاهرت كل القوى العالمية آنذاك - اليهود والنصارى والمشركون والروم والفرس- ضد الدين الجديد الذي كان يمثله ثلّة مؤمنة قليلة في المدينة المنورة.

وقد تمثّل هذا التظاهر بشن الحروب المباشرة وغير المباشرة، من خلال التحريض عليها، والسعي الحثيث في وقوعها أو دعمها مادياً ومعنوياً، فلو أنّ المسلمين كانوا يهزمون في إحدى تلك المعارك ـ وكادوا أن يهزموا ويسحقوا في معركة أُحد، حيث لم يبق على هزيمتهم إلا القليل ـ لانتهى الإسلام إلى الأبد وقضي عليه، لذا خاطب النبي ﷺ الله عزّ وجلّ في إحدى تلك الحروب -وهي غزوة الخندق التي وقعت في السنة الخامسة للهجرة- قائلاً عندما برز الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لعمر بن ود العامري: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله، إلهي إن شئت أن لا تُعبد فلا تعبد»[١].. فلو كانت تقع الهزيمة لم يكن ليبقى موحدٌ على وجه هذه الكرة الأرضية...

وكذلك في معركة حُنين، إذ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾[٢] فلو هزمت هذه القلة لانتهى كل شيء ولم يبق موحِّد ينشر دين الله سبحانه وتعالى..

---

(١) الميانجي، علي بن حسين علي، مواقف الشيعة، ج٣، ص: ١٢٣.
(٢) سورة التوبة: ٢٥.

وفي آيات هذه السورة - آل عمران - هناك إشارة واضحة إلى هذا النحو من التحدي، كالإشارة الموجودة في الآية المباركة التي تتحدث عن معركة بدر وأُحد، إذ يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[1]، ويقول: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾[2].

٢ ـ التحدي الحضاري:

وهو لا يقل خطورة عن النحو الأول إن لم يكن أخطر منه، وهو يشمل التحدي الثقافي والفكري، علماً بأنّ نجاح الأعداء في هذا التحدي يعني: سقوط الأمة حضارياً.. وانتهاءها.. والأمة الساقطةُ حضارياً ساقطة معنوياً وإن لم ينته وجودها المادي..

وقد قام بهذا التحدي أحبار اليهود، وعلماء النصارى والمشركون.. حيث كانوا يحاولون أن يسقطوا المجتمع الإسلامي بإسقاط القاعدة الفكرية التي يبتني عليها، وفي هذه السورة إشارة إلى هذا اللون من التحدي، فيمكن -والله أعلم- أن نلخِّصَ السورة في كلمة واحدة وهي: «المجتمع المسلم في مواجهة التحديات».

نصارى نجران نموذجاً للتحدي الحضاري:

ذكر المؤرخون أنّ وفداً ضخماً ومهماً ضمّ ستين شخصية كبيرة من نجران[3]، بعضها شخصيات اجتماعية وبعضها علمية، قدم إلى المدينة

---

(١) سورة آل عمران: ١٢٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٢١.

(٣) نجران: منطقة جبلية في جنوب الحجاز ولعل هناك أكثر من منطقة يُطلق عليها نجران.

وعليهم جُبب وأردية يرتدون ثياب الحَبِرات، وفي مقدمتهم أسقفاً من أساقفة النصارى يُسمّى أبو حارثة، وقد كان ملوك الروم قد شرّفوه وموّلوه، وبُنيت تحت إشرافه مجموعة من الكنائس.. جاء والتقى النبي الأعظم ﷺ في تحدٍّ حضاري فكري وثقافي، حتى أنّ بعض الصحابة قال: ما رأينا وفداً مثلهم!!

وكان سقوط المسلمين في هذا التحدي يعني نهايتهم..

فدخل الوفد مسجد النبي ﷺ ـ وكما يبدو فإنّ تحريم دخول الكفار المساجد شُرِّع فيما بعد ـ ولما حان وقت الصلاة ضربوا بنواقيسهم أمام المسلمين وصلوا باتجاه المشرق، فقالت الصحابة: يا رسول الله هذا مسجدك!! فقال النبي الأعظم ﷺ: دعوهم، فصلّوا.. وبعد أن انتهوا جاؤوا إلى النبي الأعظم ﷺ وقد عرض عليهم الإسلام، فقالوا: أسلمنا قبلك.. أي لا حاجة بنا إلى هذا العرض، ثم حاجّوا النبي ﷺ في دينه، وعلى إثر هذه القضية ـ كما يقول المؤرخون ـ نزلت أكثر من ثمانين آية من آيات هذه السورة المباركة[1].

---

(١) نزلت الآيات في وفد نجران: العاقب والسيد ومن معهما. قالوا لرسول الله ﷺ: هل رأيت ولداً من غير ذكر؟ فنزل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ...﴾ الآيات، فقرأها عليهم، عن ابن عباس وقتادة والحسن، فلما دعاهم رسول الله إلى المباهلة، استنظروه إلى صبيحة غد من يومهم ذلك. فلما رجعوا إلى رجالهم، قال لهم الأسقف: انظروا محمداً في غد، فإن أتى بولده وأهله، فاحذروا مباهلته، وإن غدا بأصحابه فباهلوه، فإنه على غير شيء، فلما كان الغد جاء النبي ﷺ آخذاً بيده علي بن أبي طالب عليه السلام، والحسن عليه السلام، والحسين عليه السلام بين يديه يمشيان، وفاطمة عليها السلام تمشي خلفه، وخرج النصارى يقدمهم أسقفهم، فلما رأى النبي ﷺ قد أقبل بمن معه سأل عنهم، فقيل له: هذا ابن عمه، وزوج ابنته، وأحب الخلق إليه. وهذان ابنا بنته من علي عليه السلام. وهذه الجارية بنته فاطمة، أعز الناس عليه، وأقربهم إلى قلبه. وتقدم رسول الله ﷺ فجثا على ركبتيه. قال أبو حارثة الأسقف: جثا والله كما جثا الأنبياء للمباهلة فكع - ضعف =

= وجبن- ولم يقدم على المباهلة. فقال السيد: ادن يا أبا حارثة للمباهلة. فقال: لا إني لأرى رجلاً جريئاً على المباهلة، وأنا أخاف أن يكون صادقاً، ولئن كان صادقاً لم يحل والله علينا الحول، وفي الدنيا نصراني يطعم الماء! فقال الأسقف: يا أبا القاسم! إنا لا نباهلك، ولكن نصالحك فصالحنا على ما ينهض به.

وروي أن الأسقف قال لهم: إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تبتهلوا فتهلكوا، ولا على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة. وقال النبي: والذي نفسي بيده لو لاعنوني لمسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم الوادي عليهم ناراً، ولما حال الحول على النصارى حتى يهلكوا كلهم! قالوا: فلما رجع وفد نجران لم يلبث السيد والعاقب إلا يسيراً حتى رجعا إلى النبي، وأهدى العاقب له حلة وعصاً وقدحاً ونعلين، وأسلما.

المصدر: الطبرسي، محمد بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٢، ص:٣١٠.

الآيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ
ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣
مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ
عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ
فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران:١-٦.

المفردات

﴿الٓمٓ﴾: حروف الهجاء التي يتألف منها الكلام البشري وهي في متناول الجميع[1]، وقد أنشئت من جنسها القاعدة التي تبتني عليها جميع التحديات الفكرية والثقافية، وهي دليل على أنّ الإنزال من الله عزّ وجلّ، وليس كما يزعم الكفار أنّ الرسول ﷺ تعلّمه من بعض الأعجميين.

﴿ٱللَّهُ﴾: عَلَم للذات المستجمعة لجميع صفات الكمال.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: متفرد بالوحدانية، متفرد في الألوهية.

﴿ٱلْحَيُّ﴾: صفة مشبهة تدلّ على استمرار الحياة الذاتية التي لا تستمد من مصدر في وجودها، الحياة التي لا أول لها لأنها لم تنشأ من العدم، والتي لا آخر لها لكونها عين الذات.

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾: القائم بتدبير النظام التكويني والتشريعي، وهو اسم لله عزّ وجلّ ومنشأ جميع صفات الفعل.

﴿نَزَّلَ﴾: التنزيل يدلّ على النزول التدريجي، كما أن الإنزال يدل على النزول الدفعي.

---

(١) راجع هذا الكتاب للمؤلف رحمه الله: التدبر في القرآن، ج١، ص: ٢٧٧.

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآن الكريم الذي هو مصدر للدين المنزل مِن قَبل الله تعالى.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾: الباء للمصاحبة، أي مصحوباً بالحق، والحق: الشيء الثابت الذي لا طريق للباطل إليه بأي وجه من الوجوه.

﴿مُصَدِّقًا﴾: القرآن يصدّق جميع الكتب والأنبياء السابقين.

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ما تقدّمه (من الكتب السماوية والأنبياء السابقين).

﴿مِن قَبْلُ﴾: قبل نزول القرآن.

﴿عَزِيزٌ﴾: العزة تعني القدرة، والعزيز هو الذي له إرادة تَغلِب ولا تُغلب، فالله تعالى قادر غالب وإرادته قاهرة.

﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾: منتقم، والانتقام: مجازاة المسيء بإساءته.

﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾: الآيات المحكمة التي لا ريب ولا شك فيها.

﴿شَىْءٌ﴾: نكرة في سياق النفي تدل على الإطلاق، وينضوي تحت إطلاقها جميع الوجودات، والشيء مساوق للوجود، فكل موجود مُحاط بعلم الله تعالى

﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾: التصوير يعني جعل الشيء على صورة وهيئة لم يك عليها.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: من يضع الأشياء في مواضعها.

التفسير

تشير الآيات في السورة المباركة ـ بعد البسملة ـ إلى أهم تحدٍّ من

التحديات الفكرية والثقافية، وهو إثبات مصدر القرآن الكريم، إذ إنّ أهم قضية في القرآن الكريم هي: مصدرهُ، وهنا يطرح السؤال التالي وهو: ما هو مصدر القرآن الكريم، وهل أنه كلام بشري أو وحي إلهي؟[1].

الوحي مصدر القرآن الكريم:

* ﴿الٓمٓ﴾: تُثبِت الأحرف الثلاثة - الحروف المقطّعة- أنّ مصدر القرآن الكريم هو الوحي الإلهي، علماً أنّ معظم السور القرآنية التي احتوت على الحروف المقطعة تكون بعدها إشارة إلى القرآن الكريم، وهو مؤيد على أنه وحي إلهي، وقد نقل الحويزي في تفسيره مؤيداً آخر وهي الرواية المروية عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام:

حدثنا محمد بن القاسم الإسترابادي المعروف بأبي الحسن الجرجاني المفسر رضوان الله تعالى عليه قال: حدثني أبو يعقوب يوسف بن محمد ابن زياد وأبو الحسن علي بن محمد بن سيار عن أبويهما عن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب عليهم السلام أنه قال: كذبت قريش واليهود بالقرآن وقالوا: «سحر مبين تقوّله» فقال الله: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي يا محمد هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك هو بالحروف المقطعة التي منها «ألف، لام، ميم» وهي بلغتكم وحروف هجائكم، فأتوا بمثله إن كنتم صادقين،

---

(١) يرى المؤلف (رحمه الله) أن أهم قضية في التحدي الحضاري في الوقت الراهن والذي يعد استمراراً لما سبق من نهج المعارضين وعلى ذات الخطى، هو توجيه الضربة إلى نبوة النبي محمد صلى الله عليه وآله باعتبارها القاعدة التي يستند عليها الدين، وبالتحديد إلى الأساس الذي تستند عليه وهو مصدرها، أي القرآن الكريم، فالدين كله مستند على النبوة والنبوة مستندة على القرآن الكريم لاعتباره وثيقة النبوة، بل أهم وثيقة فيها؛ والآيات في بداية هذه السورة تشير إلى هذا التحدي.

واستعينوا على ذلك بسائر شهدائكم، ثم بيَّن أنهم لا يقدرون عليه بقوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1].

العلل الأربع في الماديات

وهنا يطرح سؤال وهو: كيف تكون الإجابة على هذا التحدي من خلال هذه الحروف؟

وللجواب على هذا السؤال نقدم مقدمة وهي: إنّ كل شيء مادي - من موجودات عالم الطبيعة- يتكون في قوامه من علتين، ويستند أيضاً إلى علتين أخريين لا تدخلان في قوامه:

العلّة الأولى: التي تدخل في القوام، هي العلة المادية، فالمادة الخام التي يتكون منها الشيء يقال لها العلة المادية، كالمنضدة فإنّ علتها المادية الخشب الذي جُلِبَ من الغابة وكوّنت منه مادة الخام.

العلّة الثانية: هي العلة الصورية، وهي الصورة التي تُضفى على المادة، فالمنضدة تختلف عن الباب، والاختلاف بينهما ليس في المادة فكلتاهما من الخشب، بل في صورتهما المضفاة عليهما.

العلّة الثالثة والرابعة: وهما اللتان لا تدخلان في قوام الشيء وإنما يُستند إليهما في وجوده فهما: **العلة الفاعلية** ومثالها صانع المنضدة، **والعلة الغائية** ومثالها الهدف من صناعتها.

بعد هذه المقدمة نقول: ربما يظهر من الآية والآيات المماثلة أنّ

---

(١) الحويزي، عبد علي بن جمعة العروسي، تفسير نور الثقلين، ج١، ص: ٢٧.

القرآن الذي بين أيديكم، لا يتكون من مادة بعيدة عنكم، بل هي في متناول الجميع حتى الصبيان..

فإنّ ألف لام ميم.. تتكلمون بها في كلامكم العادي، ولكن هذه المادة أفيضت عليها هذه الصورة المعجزة التي أعجزت البشرية في كل أبعادها..

بالطبع التحدي غير مقتصر على بُعْدٍ واحد، وإنما هو تحدٍّ في كل الأبعاد.. فالقرآن الكريم بعلته الصورية.. بهيئته التركيبية تحدى جميع البلغاء في العالم، بل أعاظمهم كالوليد بن المغيرة الذي قيل فيه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾[1].

القرآن يتحدى:

هناك سؤال آخر يُطرح وهو: لماذا خاض أمثال أبي سفيان وجماعته، واليهود والروم والفرس وبقية القوى، الحروب والمعارك وبذلوا أموالهم وخسروا كبارهم من أجل إنهاء القرآن الكريم، ألم يكن الأفضل لهم أن يعقدوا مؤتمراً لشهر أو سنة ليأتوا بسورة كسورة الكوثر أو كسورة التوحيد أو سطرين أو ثلاثة أسطر؟ ألم يكن ذلك أيسر من خوض المعارك والمؤامرات والمطاحنات؟

والجواب: هو عجزهم وضعفهم، فهذا الدين ـ الذي يهدّدهم تهديداً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ـ أخذ يدمر جميع بناهم وتحدّاهم كتابه بأن يأتوا بمثله فلم يقدروا.. تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، لم

---

(١) سورة الزخرف: ٣١.

يتمكنوا.. تحدّاهم أن يأتوا بسورة واحدة، بل بسطرين، فعجزوا عن ذلك، بل وكانوا يسقطون أمامه.

فهذا لُبَيْد الشاعر المعروف[1] جاء النبي ﷺ وسمع منه بعض الآيات فآمن على يديه، وعندما طُلب منه قراءة شيءٍ من الشعر قال ما معناه: لم أكن لأقرأ شيئاً من الشعر بعد سورة البقرة وآل عمران[2].

وذاك الوليد بن المغيرة ـ الذي كان يُحتكم إليه ـ دنا من النبي الأعظم ﷺ وقال له: يا محمد أنشدني من شعرك، فقال - النبي الأعظم ﷺ -: ما هو بشعر، ثم تلا عليه آيات من سورة فصلت، فذهل الوليد وقامت كل شعرة في رأسه ولحيته[3].

---

(١) هو الشاعر الجاهلي لبيد بن ربيعة العامري، قدم مع قومه على النبي ﷺ سنة تسع للهجرة الشريفة فأسلم وحسن إسلامه، ترك قول الشعر منذ إسلامه وحتى وفاته، عمّر طويلاً ومات وهو ابن ١٤٠ سنة وقيل ١٥٧، وكانت وفاته سنة إحدى وأربعين هجرية على أشهر الأقوال.

(٢) عن الشعبي قال: كتب عمر بن الخطاب إلى المغيرة بن شعبة عامله على الكوفة أن ادع من قبلك من الشعراء فاستنشدهم ما قالوا من الشعر في الجاهلية والإسلام ثم اكتب بذلك إليّ، فدعاهم المغيرة فقال للبيد: أنشدني ما قلت من الشعر في الجاهلية والإسلام. قال: أبدلني الله عزّ وجلّ بذلك سورة البقرة وسورة آل عمران...
المصدر: الطبري، محمد بن جرير، المنتخب من كتاب نيل المنيّل، ص: ٤٢-٤٣.

(٣) هو الوليد بن المغيرة، كان شيخاً كبيراً مجرباً من دهاة العرب وكان من المستهزئين برسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يقعد في الحجر ويقرأ القرآن، فاجتمعت قريش إلى الوليد بن المغيرة فقالوا: يا أبا عبد شمس ما هذا الذي يقول محمد؟ شعر أم كهانة أم خطب؟ فقال: دعوني أسمع كلامه، فدنا من رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أنشدني من شعرك، قال: ما هو شعر، ولكنه كلام الله الذي ارتضاه الملائكة وأنبياؤه ورسله، فقال: اتل عليّ منه شيئاً، فقرأ عليه رسول الله ﷺ حم السجدة، فلما بلغ قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ قال: فاقشعر الوليد وقامت كل شعرة في رأسه ولحيته، ومرّ إلى بيته ولم يرجع إلى قريش من ذلك فمشوا إلى أبي جهل فقالوا: يا أبا الحكم إن أبا عبد شمس صبأ إلى دين محمد أما=

وليس ذاك بعجيب لأن الشاعر والأديب يشعران بعمق القرآن وغوره..

ومنذ ذلك العهد حتى اليوم وقد مضى على هذا التحدي أكثر من ١٤٠٠ عام لم تتمكن القوى العالمية التي تبذل الأموال الطائلة لصناعة المؤامرات والتخطيطات الشيطانية والمعارك الطاحنة، من التحدي سابقاً ولاحقاً، وفشلت في تصفية هذا الدين فشلاً ذريعاً؛ حيث لم يتمكنوا أن يأتوا حتى بسورة واحدة.

نقل أحد العلماء أنّ أديباً مسيحياً يعيش في لبنان يقول لأديب مسلم: كيف تدّعون أنّ القرآن معجزة وتحدٍّ؟ أنا آتي بمثله، فقال الأديب المسلم: حسناً صُغ لنا جملة أدبية في معنى معين وأنت أديب مقتدر، فصاغ جملة وعرضها على الأديب المسلم.

فقال له: صُغ لنا جملة ثانية وثالثة وهكذا إلى عدة جمل فصاغها، فقال الأديب المسلم: أرأيت هذه الجمل البليغة التي صُغتها ببلاغتك كلها مجموعة عندنا في جملة واحدة، ثم تلا عليه آية تتضمن نفس

= تراه لم يرجع إلينا؟ فعدا أبو جهل إلى الوليد فقال له: يا عم نكست رؤوسنا وفضحتنا، وأشمت بنا عدونا، وصبوت إلى دين محمد، قال: ما صبوت إلى دينه، ولكني سمعت كلاماً صعباً تقشعر منه الجلود! فقال له أبو جهل: أخطب هي؟ قال: لا، إن الخطب كلام متصل، وهذا كلام منثور ولا يشبه بعضه بعضاً، قال: فشعر هو؟ قال: لا، أما إني قد سمعت أشعار العرب بسيطها ومديدها ورملها ورجزها وما هو بشعر، قالوا: فما هو؟ قال: دعني أفكر فيه، فلما كان من الغد قالوا له: يا أبا عبد شمس ما تقول فيما قلناه؟ قال: قولوا: هو سحر فإنه آخذ بقلوب الناس، فأنزل الله على رسوله في ذلك: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ وإنما سمي وحيداً لأنه قال لقريش: أنا أتوحد بكسوة البيت سنة وعليكم في جماعتكم سنة...، المصدر: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج٩، ص: ٢٤٥.

المعنى، وإذا بالأديب المسيحي يذهل ويدهش ويخر بين يديه مُسقَطاً ما في يده!!.

إعجاز القرآن في تشريعاته:

مثّل القرآن الكريم في تشريعاته تحدّياً لكل البشرية خاصة العلماء وذوي الاختصاص كعلماء القانون وفقهائه ممّن وقفوا أمام هذه التشريعات بعد ١٤٠٠ عام منبهرين، إذ لم يتمكنوا من فهم التشريعات القرآنية كل الفهم.

ففي آية الدَّيْن -أطول آية في القرآن الكريم- يقول القمّي في تفسيره إنها تضمّنت خمسة عشر حكماً، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[1].

ولم يقتصر عدم الفهم والانبهار على علماء القانون، بل حتى علماء

---

(١) سورة البقرة: ٢٨٢.

التاريخ وقفوا منبهرين أمام تنبؤات القرآن الكريم.. وكذلك علماء الطبيعة، وليس ذلك بعجيب فالجاهل قد لا يفهم الإشارات الطبيعية في كتاب الله عزّ وجلّ، ولكنّ عالم الطبيعة، عالم الذرة، عالم النبات، عالم الفلك عندما يقرأون القرآن الكريم يقفون مذهولين لأنهم يفقهون عظمة ما يقرأون.

وعلى كلٍّ فقد تحدّى القرآن في كل شيء: في البلاغة، الفصاحة، التشريع، المعارف الإلهية..أنصع المعارف الإلهية موجودة في القرآن إذا ما قارناها بمعارف التوراة والإنجيل المنحرفتين، وبكتب الفلاسفة والعرفاء، فالفرق بينها وبين القرآن الكريم كبير في التشريع والطبيعة والفلك وبقية الأبعاد.

إذن هذه الأحرف الثلاثة: هي القاعدة التي تبتني عليها جميع التحديات الفكرية والثقافية(١).

---

(١) إن فشل المعارضين لهذا القرآن على مدى أربعة عشر قرناً أثار في نفوسهم الخوف والرهبة، إذ لمسوا سيطرته على العقول والأنفس بشكل لا يُقاوم، فهو كالمصباح الكهربائي بالنسبة للشمعة، والذي في يده المصباح يُرهب الذي في يده الشمعة، لأن قوته تكتسح بلا منازع وهو خلاف مراد الأعداء؛ لذا تجد الحروب ضده قائمة على قدم وساق لإطفائه فيقف الناس عندها في الظلمة لا سبيل لهم إلا الالتفاف حول الشمعة، وهو السر في قيام الحروب ضد الدين والحجاب والمسلمين والشعارات الإسلامية، مع أنهم بنوا بلادهم على أساس الحرية كما يزعمون، إلا أن هذه الحرب لازالت تمدّهم بالخيبة وتمدّ المسلمين بالأمل، خصوصاً لمّا يطّلعوا على الاعترافات الخطيرة لعلمائهم بعظمة القرآن الكريم والإذعان له كقول العالم الفلكي «جيمس جينز» مثلاً الذي سمع العالم المسلم «عناية الله المشرقي» يتلو الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاؤُا﴾ [فاطر: ٢٨]، فصرخ قائلاً: مدهش وغريب إنه الأمر الذي كشفت عنه بعد دراسة استمرت خمسين سنة من أنبأ محمداً به؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك فأنا أشهد أن القرآن كتاب موحى به من عند الله. (نص كلام المؤلف -رحمه الله- مع تعديل وإضافة).

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾

القيّوم: قيوم على نظام التكوين، قائم بتدبيره، لم يترك الكون كما قالت اليهود: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ﴾[1]، بل هو ﴿قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾[2] فهذه هي القيمومة التكوينية، وهو قيّوم بالقيمومة التشريعية أيضاً: ولم يترك البشرية بلا دين وبلا تشريع، فكما أنه تعالى قائم على نظام التكوين كذلك قائم على نظام التشريع.

صفات القيمومة الإلهية:

١- إنها غير قابلة للانفكاك:

ربما تكون هناك حياة بلا قيمومة، كأن يحكم ملك بلداً ولكنه ليس قيماً عليها، فتسترسل الأمور على رسلها في ذاك البلد، فهو حيٌّ ولكنه ليس قائماً..

وربما تكون قيمومة بلا حياة كما في قيمومة العلل الطبيعية ـ على فرض القيمومية لها ـ.. ولكن قيمومة الله تعالى ملازمة للحياة ملازمة غير قابلة للانفكاك.

٢- القيمومية مرجع كل صفات الفعل:

القيوم اسم من الأسماء الحسنى لله تعالى، ومنها تتفرع جميع صفات الفعل، فإنّ لله عزّ وجلّ صفات ذات وصفات فعل، وصفات الفعل تنشأ كلها من صفة القيومية، فالله تعالى رازق في نظام التكوين والرازقية صفة فعل وهي تنشأ من قيمومته تعالى.. وهو تعالى هادٍ في

---

(١) سورة المائدة: ٦٤.

(٢) سورة الرعد: ٣٣.

نظام التشريع وهذه الهداية تنبع من قيومية الله سبحانه وتعالى، وكذلك إنه عزّ وجلّ محيي ومميت .. إذن جميع صفات الفعل تنشأ من هذه الصفة لا كما يدعي أحد فلاسفة الغرب: إنّ الله سبحانه أرفع وأجلّ من أن يشرّع ديناً لهذه البشرية!!

قاعدة اللطف:

سُئل المرجع المشهور السيد البروجردي: بأي دليل تقولون بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان؟ فقرأ بيتاً باللغة الفارسية معناه باللغة العربية:

«إذا رأيت أعمى يمشي وأمامه بئر يُخشى عليه من أن يسقط فيها، ولا يوجد مانع من تحذيره فإذا لم تحذره فهذه جريمة»[1].

ويظهر من كلامه رحمه الله أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يُبتنى على قاعدة عقلية: وهي قاعدة اللطف المذكورة في علم العقائد[2].

مثال توضيحي:

لو شاهد الوالد ابنه جالساً على مائدة يتناول طعاماً مسموماً، فهل أنه يرفض التدخل في شأنه ويترك تنبيهه؟!! هذا خلاف اللطف.. الله تعالى لطيف بعباده، ولا مجال للقول: إنّه عزّ وجلّ أرفع من أن يشرع ديناً للبشرية، فبمقتضى لطفه وكرمه ورحمته يرشد الذين لا يميزون خيرهم من شرهم، فكما هو قائم عليهم في نظام التكوين كذلك هو قائم عليهم في نظام التشريع، وبذلك يظهر زيف العلمانية التي تفصل الدين عن الحياة

---

(١) اكر بيدي كه نابينا وچاه است اكر خاموش بنشيني كناه است

(٢) بمعنى أن الوجوب العقلي ثابت ومنشؤه لطف الله تعالى بعباده.

والسياسة والنظام المدني، لأنّ من لا يعرف مصالحه ومفاسده يحتاج إلى دليل ومرشد وهذا الأمر من البديهيات العقلية.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾﴾.

موقف القرآن الكريم من الديانات السابقة:

بما أنّ سورة آل عمران نزلت في جَوٍ مشحون بالتحديات، لذا ورد فيها هذا التحدي فضلاً عن تثبيتها المؤمنين.. وعليه ينبغي أن نشير إلى إحدى النقاط المهمة في معترك التحدي الحضاري وهي موقف الدين من الأديان السابقة.

بالطبع نالت هذه القضية أهمية خاصة في السابق وإلى عصرنا الراهن، بل إنّ الجهل بحقيقة الموقف في هذه القضية أحد العوامل المهمة التي تُعيق حركة الإسلام في العالم، لأنّ أغلب الأفراد في العالم يجهلون حقيقة هذا الموقف بِمَنْ فيهم المسلمون.. وفي هذه الآية المباركة وفي آيات أخرى يتجلى موقف الإسلام من الأديان السابقة، فما هو إذن الموقف من الأديان السابقة؟

الجواب: الموقف هو التصديق، يقول تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي ما تقدمه من الكتب السماوية.

معنى التصديق:

التصديق يقع في مقابل التكذيب، وهو بمعنى: القبول والإذعان والتأييد، وعليه فإنّ: الإسلام يصدّق جميع الرسالات السماوية السابقة ويصدّق جميع الأنبياء المتقدمين ابتداءً من نبي الله آدم وانتهاءً بنبي الله عيسى عليهم صلوات الله أجمعين..

ولا بأس هنا أن نشير إلى نقطة استغلها بعض المبشرين، حيث ذكروا

في كتبهم ومنشوراتهم: أنّ الإسلام يرضى بالمسيحية ويصدّقها فكيف تقولون إنه نسخ الأديان السابقة؟ ولذا يحق للفرد أن يكون مسيحياً أو يهودياً، لأن الإسلام يقبل المسيحية واليهودية، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾(١).

وهذه شبهة نجيب عليها باختصار ببيان أمرين:

الأول: إن الإسلام يصدّق المسيحية واليهودية، والتوراة والإنجيل اللذين لم تمتد إليهما يد التحريف والتبديل، أي يصدق الإنجيل والتوراة الواقعيين... وأمّا الإنجيل الّذي امتدت إليه يد التحريف فهو لا يمثل الإنجيل الواقعي وكذلك التوراة، والقرآن الكريم يشير في موارد متعددة إلى أنّ التوراة والإنجيل حُرِّفتا(٢).

إذن التوراة والإنجيل الموجودان بين أيدينا لا يصدقهما القرآن؛

---

(١) سورة البقرة: ٢٨٥.

(٢) بعض الآيات التي أشارت للتحريف في التوراة والإنجيل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [سورة البقرة: ١٥٩].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [سورة البقرة: ١٧٤].

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [سورة النساء: ٤٦].

﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [سورة الأنعام: ٩١].

لوضوح وقوع التبديل والتغيير فيهما[1]، إذ إنّ أيادي التحريف امتدت إليهما بعد نبي الله موسى وعيسى عليهما السلام.. وهي لا تمثل الوحي.

ففي التوراة إنّ نبي الله موسى عليه السلام مات ودُفن، وذِكر الأحداث التي جرت بعد موته!! وبالذات الفصل الأخير من سِفر التثنية، إذن فإنه من الواضح أنّ نزول هذا الفصل لم يكن في عهد نبي الله موسى عليه السلام.

وكذا بالنسبة إلى الإنجيل الموجود فعلاً.

فعلامات التبديل والتحريف واضحة فيه، ومن ذلك: أنّ رجلاً يقال له مار بولس أتى بعد رفع المسيح إلى السماء وكتب الإنجيل وشَرَّع فيه بعض الأحكام من قبيل ما ذكر في مقطع من المقاطع يقول فيه: «لا أسمح للمرأة أن تتعلم ولا أن تغتصب السلطة ـ من الرجل ـ ولا تتسلط، وعليها أن تبقى صامتة، لأَنّ آدم كُوِّنَ أَوَّلاً، ثُمَّ حَوَّاءُ، ولَم يكن آدم هو الَّذي انْخدع بل المرأة انخدعت، فوقعت في المعصية»[2]. فهو يصرّح قائلاً: أنا أقول.

وفي مقطع آخر يصرّح: هذا رأيي وليس بكلام المسيح، وفي آخر يقول: أنا أقول لا الرب!! ويقول أيضاً: إنّ المسيح شَرَّع الختان ولكنه

---

(١) هناك رأيان في وقوع التحريف في التوراة والإنجيل، الأول يقول: بوقوع التحريف في التوراة والإنجيل إلا بعض الموارد، من قبيل ثبوت الخبر بنبوة النبي محمد صلى الله عليه وآله، وإلا لم يصحّ الاحتجاج بالتوراة والإنجيل؛ والآخر يقول: إن التحريف وقع في كل التوراة والإنجيل، وهو أمر يمنع من الاحتجاج به، إذ إن الاحتجاج لا يصحّ مع الكتاب المحرّف الذي تسري شبهة التحريف فيه إلى صحيحه، بل يكون مع الكتاب غير المحرف، لذا قال أصحاب هذا الرأي إن علماء اليهود والنصارى قد أبعدوا الكتاب غير المحرف عن أيدي عوام الناس لكي لا يطّلعوا على الحقائق فيتبعوا شريعة محمد صلى الله عليه وآله وقرّبوا المحرف إليهم ليبقوا على دينهم القديم، دين الحاخامات والقساوسة والرهبان.

(٢) الرسالة الأولى إلى تيموثاوس ٢: ١٢ ـ ١٤.

ليس بشيء[1]، وهي مقولة: قال الله وأقول!! ثم يفتي بعدم الختان في قبال المسيح ابن مريم عليه السلام.

وكمؤيد لما سبق جاء في إحدى التقارير أنّ المجمع المفوّض للكنيسة (وهو المعروف بالمجمع المسكوني حيث يجتمع بين فترة وأخرى لتبديل الإنجيل) قال[2]: إنّ الطبعات الجديدة للأناجيل حدثت فيها مجموعة من التغييرات وإحدى هذه التغييرات أنه في الأناجيل القديمة ذكرت عبارة: المسيح ابن الله، ولكن في الطبعة الجديدة للإنجيل بدلت بعبارة: المسيح وَلَدُ الله!!، وهناك فرق بين الابن والولد، الابن يعني الذكر، والولد يعني من وُلِدَ وهو: شمل الذكر والأُنثى، وذلك مراعاة لمشاعر النساء في العالم!!

الثاني: إنّ التصديق بالشيء يعني الإذعان به ضمن شروطه الموضوعية، وتبديل تلك الشروط والانتقال من حالة إلى أخرى لا يعني

---

(١) الختان كان عهد الله على إبراهيم عهداً «أبدياً» جاء في سفر التكوين ١٧: ١٣ «يختتن ختاناً وليد بيتك والمبتاع بفضّتك فيكون عهدي في لحمكم عهداً أبدياً»، ثم جاء بولس وقال في رسالته إلى غلاطية ٥: ٢: «هَا أَنَا بُولُسُ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ خُتِنْتُمْ، لاَ يَنْفَعُكُمُ الْمَسِيحُ شَيْئاً... لاَ نَفْعَ لِلْخِتَانِ وَلاَ لِعَدَمِ الْخِتَانِ، بَلْ لِلإِيمَانِ الْعَامِلِ بِالْمَحَبَّةِ» كذلك في ٦: ١٥ «لَيْسَ الْخِتَانُ بِشَيْءٍ، وَلاَ عَدَمُ الْخِتَانِ بِشَيْءٍ».

(٢) أساس هذا المجمع في الديانة اليهودية، إذ كان رؤساء كهنة اليهود يعقدون مجامع للسيد المسيح (مت ٢٦: ٣) و(مر ١٥: ١)، كما اعتاد الرب يسوع أن يجتمع مع تلاميذه ويفسر لهم أقواله السماوية عندما يعسر عليهم فهمها، وأخذت المسيحية النظام اليهودي. هذا وعقدت أول مجمع سجل في التاريخ الكنسي المسيحي وكان مكانه في أورشليم عام ٥٠ ميلادية برئاسة القديس يعقوب الرسول أسقف أورشليم (أعمال ١٥) ثم أخذت الكنيسة الجامعة في العالم عن الرسل الأطهار هذا المبدأ فكانت تعقد المجامع كلما حدث خلاف في البيعة أو انتشار فكر غريب أو وجد من الأمور ما يستدعي ذلك كتقرير حكم جديد مثلاً أو أي تغيير آخر في الإنجيل.

تكذيب الحالة السابقة، ولا بقاء امتدادِ مقتضى المرحلةِ السابقةِ إلى المرحلة القادمة.. وعلى سبيل المثال الطالب عندما ينتقل من الابتدائية إلى مرحلة أعلى فإنه يقرّ بمرحلة الابتدائية.. وهذا لا يعني أن ندرّس مناهج الابتدائية لطلاب الجامعة، فإنّ الظروف الموضوعية إذا تبدلت مقتضياتها تتبدل هي أيضاً.

إذن التصديق هو قبول جميع الكتب الإلهية المتقدمة ولكن ضمن مراحلها وضمن شروطها الموضوعية..[1]، وهناك بحث متعلق بهذه القضية نشير إليه بعد الانتهاء من هذه الآية المباركة.

وعليه فإنّ معنى قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣﴾ يكون كالتالي: ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾: هو القرآن الكريم، مصدقاً لما بين يديه: يصدق جميع ما تقدمه من كتب وأنبياء، ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾: هذا من باب ذكر الخاص بعد العام، وهذه قاعدة في علم البلاغة، ولعل السرّ في هذا التخصيص ـ بعد التعميم ـ ما تحمله التوراة ويحمله الإنجيل من ثقل كمّي وكيفي في المعادلات العالمية.

---

(١) الخلاصة: إن الشبهة القائلة إن الإسلام يصدق الشرائع السماوية السابقة، ويحق للفرد اختيار أي دين شاء، مردودة بتصديق القرآن الكريم للتوراة والإنجيل غير المحرفين، وقد ثبت أنهما حرفا، لذا لا تصديق لهما من قبل القرآن الكريم، وأما بالنسبة لغير المحرفة فمجيء الإسلام وكتابه القرآن الكريم لا يعني إلغاءها، وذلك لوقوعها كلها في طول واحد لا في عرض واحد، لاعتبار أن منشأ صدورها واحد وهدفها واحد وهي كتب تعاليم وقوانين لدين واحد وهو الإسلام، والالتزام بها يكون بما هو موجود في المرحلة الراهنة وهو القرآن الكريم الحاوي على تعاليم التوراة والإنجيل غير المحرفين وزيادة متناسبة مع عصره الممتد من حين نزوله إلى قيام الساعة.

سؤال آخر:

ربما يتساءل البعض ويقول: لماذا التصديق بالرسالات المتقدمة، ولماذا يؤكد القرآن الكريم على هذا الأمر؟

وفي الإجابة عليه نشير إلى عدة نقاط هي:

أولاً: المراحل الأولى للرشد:

مهّدت الرسالات المتقدمة الطريق لرشد هذه الأمة وإيصالها لمستواها الرفيع، وعليه فلا بدّ أن ندين لها بالفضل ونشكر لها المعروف، فهي كالابتدائية والمتوسطة والثانوية التي تكون سُلَّماً إلى الجامعة، وعندما يصل الفرد إلى الجامعة يكون من الوفاء أن يدين بالفضل لتلك المراحل التي أوصلته إلى هذه المرحلة وهذا من عرفان الجميل.

ثانياً: تعدد القدوات:

تعتبر الرسالات المتقدمة كمنابع للهداية وومضات نور على الدرب، والإيمان بها هو عملية توسيع لدائرة القدوة، فمثلاً رؤية الناس لعالم متقي في بلد ما كالشيخ الأنصاري أو السيد حسين القمّي، فإنّ رؤيته تؤثر تأثيراً بالغاً في أهل ذلك البلد منهجياً وسلوكياً وأخلاقياً، والذين رأوا السيد حسين القمّي (رحمة الله عليه) في العراق كانوا متأثرين به أشد تأثير، وكثير منهم ثبتوا على دينهم لأنهم رأوا ذلك النموذج .. وفي حياة الأنبياء السابقين نقاط اقتداء عظيمة: فالنبي عيسى عليه السلام عندما نجعله ضمن دائرة الاقتداء نستلهم منه زهده وتقواه، والنبي إبراهيم عليه السلام عندما نجعله ضمن

دائرة التصديق يصبح ضمن دائرة القدوة والاقتداء، حيث إنه كان أسوة في التوحيد والصمود وتحطيم الأصنام.

ثالثاً: الواقعية ورفض التعصب:

إن الإيمان بالنبوات المتقدمة يعبّر عن واقعية الإنسان تجاه الأحداث، حيث توجد حالة تعصب لدى بعض أتباع الديانات تجاه الأنبياء الآخرين، فاليهودي يقول: أنا يهودي ولا أقبل نبياً آخر، والمسيحي يقول: أنا مسيحي ولا أقبل نبياً آخر، وقد رفض اليهود النبي ﷺ لأنه لم يكن منهم مع أنهم كانوا ينتظرونه، ممّا يكشف عن حالة الانغلاق والتعصب، بينما المسلم منفتح على جميع الديانات الحقة ويعترف بها جميعاً وهذا يعبّر عن واقعيته في الحياة.

رابعاً: الاستقطاب إلى الإسلام:

للإيمان أثر كبير في تأليف القلوب ونزع الأحقاد واستقطاب الآخرين إلى دائرة الحق، وإلى ذلك يشير أحد العلماء الّذين كانوا يعيشون في البلاد الغربية قائلاً: إنّ أكثر المسيحيين يجهلون إيماننا بالمسيح، بل هناك تمويه في المدارس والجامعات وحتى في البيوت بأن الإسلام والنبي محمد ﷺ عدوان للمسيح!! هكذا يقولون، وهذه نقطة مهمة تقف أمام إذعانهم بالإسلام.. لذا ينبغي لنا أن نوضّح لهم أنّ النبي ﷺ ليس عدواً للمسيح وأن الإسلام ليس عدواً للمسيح، ..

حدث قبل أربعين عاماً ـ حدود عام ١٣٩٠هـ ـ أن سافر ثلاثة من العراقيين ليدرسوا في إحدى جامعات إيطاليا، وتزوجوا خلال فترة دراستهم بثلاث مسيحيات، وبعد إنهائهم الدراسة وأخذهم الشهادة عادوا

إلى العراق بصحبة زوجاتهم، وبعد مدة رغبوا في دخول زوجاتهم الدين الإسلامي، فجاء أحد الأفراد إلى الوالد[١] وقال له: إنّ هؤلاء يرغبون أن يقنعوا زوجاتهم بالإسلام ولكنهنّ لا يقتنعن، أتأذن لنا أن نأتي بهنّ إليك لعل الله يَمُنُّ عليهنّ بنور الإسلام على يديك؟ فقال الوالد: لا بأس، فجاؤوا جميعاً -الأزواج والزوجات وآخرون عند الوالد- ودار بينهم حوارٌ طويل استغرق ما يقارب الثلاث ساعات حول الإسلام والمسيحية ختمه الوالد بذكره حقيقة كانت مؤثرة جداً فيهنّ وهي: إنّ نبينا يُكِنُّ لنبيكم أعظم احترام ويُكن لمريم أكبر احترام، وهكذا احترام لا تجدونه حتى في المسيحية، فالقرآن الكريم يعتبر المسيح نبياً معصوماً عظيماً من أنبياء الله، وأمّه كانت صدّيقة، بينما الكتاب المقدس (الإنجيل) يعتبر المسيح ملعوناً والعياذ بالله، وقد ذكر ذلك في العهد القديم والجديد في أعمال الرسل، حيث ذكر صراحة أن المسيح ملعون لأنه مصلوب[٢]، والفارق واضح بين الاعتبارين! فكان كلاماً مذهلاً بالنسبة لهنّ، ثم أراهم الوالد سورة مريم قائلاً لهم: في أعظم كتاب عندنا سورة كاملة باسم مريم، وأضاف إنّ إيمانكم بالإسلام لا يعني رفضكم للمسيح أو لمريم عليهما السلام.. وهذه الحقيقة هي التي جعلت الفتيات الثلاث يعتنقن الإسلام ويتشهدن الشهادات الثلاث.. إذن فالتصديق له أثر كبير في تأليف القلوب واستقطاب الآخرين إلى دائرة الحق.

---

(١) أي الإمام الراحل آية الله العظمى السيد محمد الحسيني الشيرازي(رحمه الله).

(٢) العهد القديم، سفر التثنية، الإصحاح ٢١ من ٢٢-٢٣. العهد الجديد، أعمال الرسل، رسالة بولس إلى أهل غلاطية، الإصحاح ٣: ١٣، نص العبارة: اَلْمَسِيحُ افْتَدَانَا مِنْ لَعْنَةِ النَّامُوسِ، إِذْ صَارَ لَعْنَةً لأَجْلِنَا، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «مَلْعُونٌ كُلُّ مَنْ عُلِّقَ عَلَى خَشَبَةٍ».

﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾.

﴿مِن قَبْلُ﴾: من قبل نزول القرآن الكريم.

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾: أي إنّ الهدف من إنزال هذه الكتب السماوية هو هداية الإنسان، الذي يحتاج إلى أن يميّز بين الخير والشر، وبين الصالح والطالح، وبين ما ينفعه وما يضرّه ـ وهو أمر يثبته الواقع الخارجي ـ وهذه الرسالات الإلهية جميعها تهدف إلى هذا الهدف وتحققه.

﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾: ذهب بعض المفسرين إلى أنّ الفرقان يشمل جميع الكتب الإلهية التي أنزلها الله سبحانه لهداية عباده، بينما اختار البعض الآخر أنّ الفرقان هو العقل، بقرينة التقابل بين الهداية الخارجية والداخلية، فكما أنّ هناك هداية خارجية تتمثل في الكتب السماوية والأنبياء، هناك هداية داخلية تتمثل في العقل، والفرقان هو العقل الذي يفرّق بين الحق والباطل، يقول الله تعالى في كتابه المجيد: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾[1] يعني بصيرة تجعلكم تميزون بين الحق والباطل.

وهناك تفسير ثالث للفرقان أورده العياشي في تفسيره برواية عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ إلى

(١) سورة الأنفال: ٢٩.

قوله ﴿وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾، قال الإمامعليه السلام: هو كل أمر محكم والكتاب جملة القرآن(١).

ولعله يظهر من هذه الرواية أن الكتاب الذي أشير إليه بقوله عزّ من قائل: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾: إشارة إلى مجموع هذا القرآن، أما الفرقان: فهو الآيات الفارقة التي تميّز وتنير الطريق، حيث إن بعض آيات القرآن الكريم لا توجد فيها حالة الفرقان لخلوها من الوضوح، والفرقان يحتاج إلى الوضوح، وهو أمر طبيعي في القرآن الكريم لكون بعض آيات القرآن متشابهة وبعض آياته محكمة واضحة فارقة بين الحق والباطل.

فالكتاب إذن إشارة إلى المجموع الذي يحتوي على المحكم والمتشابه، والفرقان إشارة إلى الآيات الواضحة التي تفرق بين الحق والباطل فقط، وسنشير إلى هذه النقطة بعد آيات قلائل في بحث كيفية احتواء القرآن الكريم على آيات محكمة وأخرى متشابهة.

جزاء المكذبين في الدنيا والآخرة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ﴾.

إنّ الجزاء على مخالفة القوانين التشريعية على وزان مخالفة القوانين التكوينية، فمن يتحدى القانون التكويني الإلهي كقانون الجاذبية ويلقي بنفسه من شاهق ينطبق عليه القانون التكويني ـ الجاذبية ـ وستجذبه الأرض وتتهشم عظامه.. كذلك الأمر بالنسبة إلى من يتحدى القوانين التشريعية فإنّ مصيره إلى العذاب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: بعد هذا الوضوح التبييني والفرقان، ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ﴾ في الدُّنيا وَالآخِرَةِ،

---

(١) العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، ج١، ص: ١٦٢.

فالكفار بالله على الرغم من أنهم مرفهون في حياتهم الدنيا في أغلب الأحيان إلا أنهم لايعيشون السعادة الدنيوية، فمن رفض الإسلام لا يجد راحة في الدنيا، وتؤيد ذلك التقارير الخبرية والإحصائيات عن معدلات الانتحار وأمراض العصر وأشهرها الاكتئاب، ففي تقرير عالمي جاء: إنّ الّذين ينتحرون في العالم في كل عام هم مليون شخص!! فمن يقدم على الانتحار رجل كان أو امرأة يعلن أنه سئمَ الحياة وضاقت به إلى أبعد الحدود، فلا يرى له أملاً في هذه الدنيا أصلاً، بينما في بلادنا الإسلامية بالرغم من أنّ كثيراً من القوانين الإسلامية لا تطبق إلا أنّ معدلات الانتحار قليلة جداً، وذكر نفس التقرير أيضاً: أنّ معدلات الانتحار العالية توجد في أكثر بلاد العالم رفاهية، وهذا مظهر من مظاهر العذاب الشديد في الدنيا.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

﴿عَزِيزٌ﴾: العزة تعني القدرة والعزيز هو الذي له إرادة تتغلب ولا تُغلِبْ.

﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾: ذو قدرة على مجازاة المسيء لا يتهيأ لأحد ردّها أو منعه منها.

الانتقام الإلهي حكمة وضرورة:

هناك سؤال يطرح نفسه وهو: هل الانتقام شيء سيئ؟

الجواب: إن الانتقام سلبي وإيجابي، فالانتقام بقصد التشفي سيئ، ولكن الانتقام بقصد مجازاة المسيء بإساءته فهو مقتضى الحكمة، بل هو ضرورة، فلو أنّ دولة مقتدرة لا تنتقم من المتجاوزين على أراضيها

وتركت الحبل على غاربه لانتشر الفساد الاجتماعي وغيره فيها، فمن يريد مخالفة قوانين المرور له ذلك! ومن يريد القتل فليقتل! ومن أراد أن يعتدي فليعتدِ!، فمع عدم وجود الانتقام ـ وإن كان بشكل غرامة أو سجن للمعتدي ـ لا يبقى هناك نظام، ولا يمكن لشخص أن ينام ليلة واحدة بارتياح.

ولو أنّ الله تعالى شرّع القوانين إلا أنه لم يجعل وراء التشريع عقوبة، لم يستقر حجر على حجر، بل بعض البشر مع وجود جهنم وتلك التهديدات الإلهية الشديدة لا يعتنون ويفعلون ما يشاؤون، فهل كان يستقر حجر على حجر إن لم تكن عقوبة ولا جهنم ولا جزاء أخروي؟

ولا يخفى أنّ انتقام الله جلّ جلاله لا ينبع من التشفي كانتقامنا نحن البشر ـ أحياناً ـ، وإنما ينبع من حكمته، فإن الانتقام من المسيء هو مقتضى الحكمة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٦﴾.

من هو الحاكم والمشرع؟

شهد التاريخ صراعاً طويلاً مستمراً حول الحاكمية، فهل أنها لله عزّ وجلّ أو للبشر[1]؟

(١) ذكر المؤلف (رحمه الله) في هذا الموضع كلاماً كان متناسباً مع زمن خاص ومورد معين في زمن إلقائه، ولكون البحث في هذا المقطع بحثاً علمياً محضاً، لم نورده في المتن، ومراعاة للأمانة في النقل نورده في هذا الهامش، قال(رحمه الله): «ونحن نشهد اليوم نموذجاً جزئياً لهذا الصراع في العراق، حيث الآن مرحلة تدوين الدستور.. فكيف يجب ان يُدَوَّن هذا الدستور، وما هو المصدر الذي يستند إليه الدستور، هل المصدر قوانين الله تعالى أو القوانين البشرية؟».

فقد حصر القرآن الكريم في آيات متعددة الحاكمية في الله عزّ وجلّ: كقوله تعالى ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[1]، كما تناولت الآيات المباركات في بداية هذه السورة قضية القيومية الإلهية: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ القيومية التي تتفرع منها بعثة الأنبياء وتشريع القوانين وسنّ النظم للبشر.. هاتان الآيتان المباركتان من سورة آل عمران تتناولان قضية مهمة تتعلق بمسألة الحاكمية: وهي: قضية العلم النافذ والشامل.

الجاهل لا يحكم:

إن الحاكمية تحتاج إلى العلم، بل تتقوم به، والجاهل لا يستطيع الحكم، لعدم تمكنه من الحكم على ما هو مجهول لديه؟

يقول العلماء ومنهم الشيخ الأعظم الأنصاري(رحمه الله) في الفرائد[2]: إنّ العقل لا يمكن أن يحكم على مجهول[3].

توضيح المسألة:

عندما يكون الأمر واضحاً لدى العقل يمكنه الحكم عليه، ولكن إذا كان الأمر مجهولاً لديه فإنه لا يستطيع الحكم عليه: كأن نضع في صندوق أو مَحْرَزٍ شيئاً ونخاطب العقل: بماذا تحكم على هذا المجهول؟ فلا محالة يجيب: لا أحكم على هذا المجهول.

---

(١) سورة الأنعام: ٥٧.

(٢) في هذا الموضع من الكلام بدأ المؤلف (رحمه الله) بإثبات جهل الإنسان ليثبت النتيجة التي قدمها بأن الجاهل لا يحكم وأن الإنسان جاهل.

(٣) الأنصاري، مرتضى، فرائد الأصول، ج١، ص: ٤٩٦.

كذا الأمر لو كان (الإنسان) هو الموضوع أمام العقل حيث إنّه كائن مجهول؛ فكيف يحكم عليه؟!

ولذا كتب الدكتور كارل وهو أحد الأطباء المعروفين كتاباً عنوانه: الإنسان ذلك المجهول، أشار فيه إلى طبيعة هذا البدن الخاضع للأبحاث العلمية لعلماء الطبيعة والطب منذ أكثر من عشرة آلاف عام إلى العصر الراهن، حيث لم يكتشفوا كل خفاياه إلى الآن، لذلك نجد أنّهم في كل يوم قد يصلون إلى اكتشاف جديد ومعلومات جديدة.. هذا بالنسبة للبدن، فكيف بالروح التي هي أشد مجهولية للإنسان؟ وكيف بالطبيعة التي يعد وجود الإنسان فيها وجوداً طارئاً عليها؟ وكيف بالكون الفسيح؟.

الإنسان المُحاط بالجهل:

ظهر ممّا سبق أنّ الإنسان كائن مجهول تحيط به طبيعة وكون مجهولان، وبينه وبين هذه الطبيعة المجهولة توجد علاقات مجهولة وينتظره مستقبل مجهول.. فمن تحيط به ثلاثة أنواع من المجاهيل:

١- كون مجهول.

٢- علاقات مجهولة.

٣- مستقبل مجهول.

هل يمكنه أن يحكم؟ وكيف يحكم على شيء مجهول.. بل إنّ الّذي تكون له الحاكمية والقيومية هو الله تعالى وحده لأنه العالم المطلق الّذي لا يخفى عليه شيء.. هذا هو الذي ينبغي أن تكون له الحاكمية، ولعله لذلك ورد في الآية المباركة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ﴾ ، وكما يقول

العلماء: كلمة الشيئية مساوقة للوجود؛ وهذا الكلام تتفرع منه أربع قواعد:

الأولى: كل شيء فهو موجود.

الثانية: كل موجود فهو شيء.

الثالثة: كل ما لا يكون موجوداً فليس بشيء.

الرابعة: كل ما لا يكون شيئاً فليس بموجود.

بالطبع ليس هناك مفهوم أعم من مفهوم الشيء، وهذه من المفاهيم العامة التي تنضوي تحت مظلتها جميع الوجودات.

سعة علم الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾: أينما يكون هذا الشيء سواء فِي الأَرْضِ أوَ فِي السَّمَاء: هذه السماوات التي لم يتوصل العلم إلى أبعادها بعد: كلها بتفاصيلها محاطة بالعلم الإلهي، فالحاكمية والقيومية يجب أن تكون لمثل هذا الإله الذي: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، وفي آية أخرى يقول الله تعالى حكاية عن لقمان ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[1] والخردل حبة متناهية في الصغر، والإنسان عندما يرى هذه الحبة ينبهر بصغرها، وهذه لا تخفى على الله ويأت بها..

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

---

(١) سورة لقمان: ١٦.

صانع الشيء أعرف به:

إنّ هذه الآية تلامس الوجدان البشري لمسة رقيقة، ففي تلك الظلمات الثلاث، حيث لا يمتد إليها علم البشر ولا علم الأبوين ولا تناله قدرتهما.. يمتد علم الله سبحانه إلى تلك الظلمات ـ ذهب أحدهم إلى طبيب متخصص بالعين فقال: إن هذه العين التي نرى بها الأشياء كلها صنعها الله تعالى في ظلمات ثلاث، ظلمة البطن والرحم والمشيمة! وقد أعجب الطبيب بهذه الكلمة إعجاباً شديداً ـ.

إن العلم الإلهي نافذ، وقد أحاط الله عزّ وجلّ إحاطة علمية بهذه الطبيعة وذلك من الواضحات، حيث إن صانع جهاز معين يعرف طبيعة ما صنعه، وعندما يُشترى جهاز معين حتى وإن كان صغيراً يعطى معه كتاباً فيه تعليمات تبيّن طريقة التعامل مع هذا الجهاز، وذلك لأن صانع الجهاز هو الأعرف بجهازه، وهل يمكن أن يأتي أجنبيٌّ ويضع قوانين من نفسه لذلك الجهاز؟

الخالق هو الحاكم لا غيره:

الله سبحانه هو المصور وهو الخالق وهو الذي أعطانا هذه الهيئة في عالم الرَّحم، لذا فهو الأجدر بأن تكون له الحاكمية والقيومية.. خلق وصور فلا يكون معبوداً إلا الله عزّ وجلّ القادر الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، بخلاف البشر الذي لا يتمكن لجهلة أن يضع الأشياء في مواضعها..

كنت يوماً عند أحد الأطباء فأعطاني كتاباً يتناول الداء الخبيث وكيفية تكوّنها والعوامل المؤثرة في استفحالها، فأخذت أطالعه، فقلت للطبيب:

هذه القضية المنقولة في الكتاب - بأن العلماء وصلوا حديثاً إلى أن شرب المشروب الحار والأطعمة الحارة يورث الداء الخبيث - ذكرها ديننا قبل ألف وأربعمائة عام، ففي الكتب الفقهية روايات تنهى عن تناول الطعام الحار أو الحاد، وفي بعض تلك الروايات عُبّر عنه بالنار كقول أبي عبد الله الصادق عليه السلام لابن مارد: «والله يابن مارد ما يطعم الله النار»[1].

فلاحظ من خلال هذه القصة كيف أن الذي صوّر هذا البشر وخلقه يعرف طبيعته ويعرف العوامل المؤثرة على بدنه وعلى روحه، لذا فهو الجدير على أن يُشرِّع ويُقَنِّنُ لهذا البشر لا غيره.

روايات في المقام

١- في الفقيه عن الصادق عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى إذا أراد أن يخلق خلقاً جمع كل صورة بينه وبين آدم ثم خلقه على صورة إحداهن فلا يقولن أحد لولده هذا لا يشبهني ولا يشبه شيئاً من آبائي[2].

٢ ـ في الكافي عن الباقر عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى إذا أراد أن يخلق النطفة ـ التي هي مما أخذ عليها الميثاق من صلب آدم أو ما يبدو له فيه ـ ويجعلها في الرحم، حرّك الرجل للجماع، وأوحى إلى الرحم أن افتحي بابك حتى يلج فيك خلقي وقضائي النافذ وقدري، فتفتح الرحم بابها فتصل النطفة إلى الرحم فتردد فيه أربعين يوماً، ثم تصير فيه علقة أربعين يوماً، ثم تصير مضغة أربعين يوماً، ثم تصير لحماً تجري فيه عروق مشتبكة، ثم يبعث الله ملكين خلاقين يخلقان في الأرحام ما

---

(١) الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام، ج٦، ص: ٢١.
(٢) الفيض الكاشاني، محسن، التفسير الصافي، ج ١، ص ٣١٦ - ٣١٨.

يشاء، يقتحمان في بطن المرأة من فم المرأة، فيصلان إلى الرحم وفيها الروح القديمة المنقولة في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فينفخان فيها روح الحياة والبقاء، ويشقان له السمع والبصر وجميع الجوارح وجميع ما في البطن بإذن الله تعالى، ثم يوحي الله إلى الملكين اكتبا عليه قضائي وقدري ونافذ أمري واشترطا لي البداء فيما تكتبان، فيقولان يا رب ما نكتب؟ قال: فيوحي الله عزّ وجلّ إليهما أن ارفعا رؤوسكما إلى رأس أمه، فيرفعان رؤوسهما فإذا اللوح يقرع جبهة أمه، فينظران فيه فيجدان في اللوح صورته وزينته وأجله وميثاقه شقياً أو سعيداً وجميع شأنه، قال عليه السلام: فيملي أحدهما على صاحبه فيكتبان، جميع ما في اللوح ويشترطان البداء فيما يكتبان، ثم يختمان الكتاب ويجعلانه بين عينيه، ثم يقيمانه قائماً في بطن أمه، قال: فربما عتا فانقلب ولا يكون ذلك إلّا في كل عات أو مارد، وإذا بلغ أوان خروج الولد تاماً أو غير تام، أوحى الله تعالى إلى الرحم أن افتحي بابك حتى يخرج خلقي إلى أرضي وينفذ فيه أمري فقد بلغ أوان خروجه، قال: فتفتح الرحم باب الولد، فيبعث الله عز وجل إليه ملكاً يقال له زاجر فيزجره زجرة فيفزع منها الولد فينقلب فيصير رجلاه فوق رأسه ورأسه في أسفل البطن ليسهل الله على المرأة وعلى الولد الخروج، قال: فإذا احتبس زجره الملك زجرة أخرى فيفزع منها فيسقط الولد إلى الأرض باكياً فزعاً من الزجرة[1].

٣- عن علي بن إبراهيم قال حدثني أبي، عن النضر بن سويد، عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله تبارك وتعالى ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ إلى قوله ﴿وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾

---

(١) المصدر السابق.

قال: الفرقان هو كل أمر محكم، والكتاب هو جملة القرآن الذي يصدقه من كان قبله من الأنبياء[1].

٤- محمد بن يعقوب عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن سنان أو عن غيره عمن ذكره قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن القرآن والفرقان، أهما شيئان أو شيء واحد فقال عليه السلام: القرآن جملة الكتاب، والفرقان المحكم الواجب العمل به[2].

٥- العياشي عن ابن سنان قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن القرآن والفرقان قال: القرآن جملة الكتاب وأخبار ما يكون، والفرقان المحكم الذي يعمل به وكل محكم فهو فرقان[3].

---

(١) البحراني، هاشم بن سلمان، البرهان في تفسير القرآن، م١، ج٣، ص: ٢٦٩، ح٢.

(٢) المصدر السابق، ح٣.

(٣) المصدر السابق، ح٤.

الآية

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ (١).

---

(١) سورة آل عمران: ٧.

المفردات

﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾: القرآن الكريم، وينقسم إلى قسمين محكمات ومتشابهات.

﴿مُّحْكَمَٰتٌ﴾: جمع مُحْكَم، وهُوَ مأخوذ من الإحكام، أي المنع من تسرّب الريب والشك والشبهة إلى آياته.

﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: الأم تعني الأصل والمأوى والمرجع الذي يُرجع إليه في المشكلة.

﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾: يعرض فيها الشك والشبهة.

﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾: القلب: إما يقصد به الفكر، أي التواء في فكره، أو الروح، أي اعوجاج روحه.

﴿زَيْغٌ﴾: التواء وانحراف واعوجاج.

﴿فَيَتَّبِعُونَ﴾: الجري والاتباع العملي.

﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾: إيجاد البلبلة لإضلال الناس.

﴿تَأْوِيلِهِۦ﴾: التأويل: إزاحة الغموض والإبهام وإرجاع الأمر إلى حقيقته.

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾: الثابتون في العلم أي من له قدم ثابتة في العلم والمعرفة.

﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: أصحاب العقول الحصيفة الخالية من الشوائب. . .

الإعراب:

اختلف في إعراب قوله تعالى ﴿يَقُولُونَ﴾ حيث ورد فيها قولان:

١ ـ إنه حال، فعلى هذا فإن الراسخين في العلم يعلمون التأويل.

٢ ـ إنه خبر، ومبتدؤه الراسخون في العلم، فتكون جملة جديدة تدل على عدم علم الراسخين بالتأويل، وأنّ التأويل مختص بالله عزّ وجلّ.

والأقوى هو القول الأول لمجموعة من القرائن سنذكرها في آخر بحث المحكم والمتشابه إن شاء الله تعالى.

التفسير

التمهيد:

من المباحث المهمة في القرآن الكريم موضوع المحكم والمتشابه، فهو يشكل تحدياً خارجياً وداخلياً، كما سوف يتّضح بإذن الله تعالى.

وسوف نتطرّق في موضوع المحكم والمتشابه إلى أربعة بحوث:

الأول: ما هو المحكم، وما هو المتشابه؟

الثاني: لماذا وجدت ظاهرة التشابه في القرآن الكريم؟

الثالث: كيف نتغلب على مشكلة التشابه؟

الرابع: موقف الأطراف المختلفة من هذه الظاهرة.

المبحث الأوّل

ما هو المُحْكَم؟

المحكم مأخوذ من مادة الإحكام، والإحكام يعني المنع، وعليه فالآيات المحكمة هي الآيات الواضحة الدلالة التي تمنع تطرق أوتسرب الريب والشك والشبهة إليها، وبعبارة مختصرة المحكم هو ما لا شك ولا شبهة فيه، كبعض الآيات المتعلقة بالعقائد والأخلاق والآداب والقضايا التاريخية، فإن قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[1] وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾[2] وقوله: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾[3] وما أشبه ذلك كلها آيات محكمات...

وما هو المُتَشابَه؟

المتشابه مأخوذ من مادة التشابه، يتحقق إذا تشابه شيئان في جميع الجهات، كما في التوأمين - المتشابهين من جميع الجهات - فإنه إذا دخل أحدهما الغرفة يشكّ بينه وبين أخيه، هل هو عمرو أو خالد؟

كذلك بعض الآيات القرآنية معانيها تحتمل أكثر من احتمال، وكل تلك الاحتمالات متكافئة بالنسبة إلى الآية، فيشك عندئذ في أنّ أيهما المراد، وهو معنى التشابه.. لذلك يتطرق إليها الشك والغموض والإبهام والترديد والشبهة..

---

(١) سورة الإخلاص: ١.
(٢) سورة الإسراء: ٣٧.
(٣) سورة لقمان: ١٩.

والقرآن الكريم -حسب هذه الآية- يحتوي على القسمين حيث يقول عزّ من قائل: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾ ...

المبحث الثاني

لماذا وجدت ظاهرة التشابه في القرآن الكريم، أليس القرآن الكريم جاء لهداية الأمة، فلماذا وجدت فيه آيات غامضة؟

في الإجابة عن هذا السؤال نذكر أربعة عوامل ـ على نحو الاحتمال ـ وراء ظاهرة التشابه:

١ ـ قصور الألفاظ عن حمل المعاني الشامخة:

إن ألفاظ اللغة العربية التي نزل بها القرآن ـ سواء كان واضعها يعرب ابن قحطان أو غيره ـ إنما وضعت لرفع الحاجات اليوميّة داخل النطاق الماديّ وإطار عالم الطبيعة، ولا يمكن لها بموجب هذه الوظيفة أن تحكي المفاهيم الشامخة لعالم ماوراء الطبيعة، لكونها قاصرة عن ذلك، ومثال قصورها قول الشاعر مخاطباً الله عزّ وجلّ:

وإن قميصاً خيط من نسج تسعةٍ وعشرين حرفاً عن معانيك قاصرُ

والسؤال هنا: هل أنّ ثوباً مكوناً من تسعة وعشرينَ حرفاً يمكن له أن يعكس الحقائق الشامخة والمعاني اللامحدودة والقضايا الغيبيّة؟ وكيف يمكن لهذه الألفاظ ذلك؟ لكي يتضح المطلب نمثّل ببعض الأمثلة:

١/ الطفل ولذة العلم:

إذا كان هناك طفل عمره سبعة أعوام يريد أبوه أن يرسله للتعلّم، يتكلم معه حول فوائد هذا الذهاب فيقول له:

لو ذهبت إلى المدرسة وتعلّمت ستنتفع من علمك في المستقبل، فإن العلم جميل لذيذ.. وفي المستقبل ستفهم معنى العلم ولذته.. وقول الأب لولده هذا الكلام سيوقعه في ورطة: فهو إمّا أن لا يشرح له الحقيقة فيضيع الولد في معنى الكلام، وإمّا أن يشرح له الحقيقة ولكنّها فوق إدراكه، لأنه لا محالة سيخاطب أباه قائلاً: ماذا تعني بقولك لذّة العلم؟

وحيث إنّ الأب يريد بيان معنى لذة العلم لولده، فإنه سيضطر إلى استخدام الألفاظ التي يدركها الطفل، كأن يقول له مثلاً: إنّ لذة العلم تَشبَهُ لذة الحلوى، والحال أن هذا الوصف لا يُعبّر عن الواقع، فإنّ العلماء هم الذين يفهمون لذّة العلم[1]..

٢/ الأعمى وإدراك معنى الألوان:

إن الأكمه - الأعمى منذ ولادته - لا يدرك معنى الألوان، لأنه لم يرها في حياته، فلو شرحوا له معنى الألوان هل ينفعه ذلك؟ كلّا، لأنّ ذلك فوق إدراكه وتعقّله فلا يفهم المعنى، وإذا أريد تقريب المراد له بالوصف فسوف يكون التقريب بأشياء - ألفاظ - لا تعكس تمام الحقيقة لقصورها الذاتي...

٣/ معرفة حقيقة الآخرة:

إن الذين يرون الأموات في عالم الرؤيا يطلبون منهم أن يشرحوا لهم

---

(١) لاحظ أنّ الألفاظ الوصفية التي استخدمها الأب لبيان معنى لذة العلم لولده لم تستطع بيان المعنى الشامخ لها وقصرت عنه قصوراً ذاتياً، إذ إن لذة العلم تدرك حقيقتها في مقام العمل لا الوصف الذي يقرب المعنى للواقع ولا يكشف عن كنه حقيقته.

الآخرة، فيخاطبهم الأموات قائلين: إنكم لا تفهمون ولا يمكن أن نشرح لكم، هذا غيب لكم.

والقرآن الكريم عندما يريد أن يشرح الجنّة والآخرة يقول فيها: ﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾(١) فهذا مَثَلٌ، حتّى وإن كان حقيقة، إلّا أنّ اللّفظ لا يعكس تمام الحقيقة، فالجنّة التي وعد المتّقون لا يمكن أن نفهم معناها حقيقة إلّا إذا ذهبنا إليها إن شاء الله تعالى.

٤/ سؤال الطفل عن يد الله جلّ وعلا:

نقل لي أحد الأخوة، أن ولده البالغ من العمر سبع سنوات سأله مرة: هل إن لله يداً؟ قال فتحيرت بماذا أجيبه، فإن قلت له يد - قد يتصور المعنى الحقيقي لليد - وهو كذب، وإنْ قلت لا يد لـه، قد تنطبع في ذهنه صورة إله معوّق!! فالإله الذي لا يد له معوّق - حسب نظرته الطفولية - في هذا الموقف ماذا يصنع الإنسان؟

قال: فخطر ببالي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٢) فقلت له: الله مثل النور، فاقتنع، ولكن يبقى السؤال التالي هل هذا اللّفظ يعبّر عن تمام الحقيقة؟

فالله نور السّماوات ولكن نوره ليس كالنور الذي نشاهده، بل هذا صرف تقريب، فكما أن النور الذي نشاهده ظاهر بذاته مظهر لغيره، فالله ظاهر بذاته مظهر لغيره...

٥/ رؤية الله تعالى:

إن البصير في مصطلحنا يعني أن للفرد جارحة العين ولكن في الله

---

(١) سورة الرعد: ٣٥.

(٢) سورة النور: ٣٥.

بعني العالم بالمبصرات المحيط بعباده، فإذا كان كذلك، فهل نقول بأنّ: الله بصير؟ إن لم نقل ذلك نكون قد فرّطنا بالحقيقة[1].

يقول أحد المعمّرين: عندما كنت طفلاً، كنت أصوم في جوّ حار جداً فيغلب عليَّ العطش فلا أتمكن من شرب الماء بالعلن حتى لو كنت بمفردي، لأنني قد سمعت من آبائي بأنّ الله يرانا، لذا كنت أذهب إلى مكان ما وأجعل شيئاً على رأسي وأشرب الماء حتّى لا يراني ربّي حسب عقليّتي الطفوليّة!!.

فلاحظ قصور اللفظ عن إيصال المعنى الشامخ لمفهوم أن الله بصير - أي عالم بالمبصرات محيط بعباده - كيف أثّر على سلوك الطفل، والسبب يرجع إلى أنّ لفظ البصير في مصطلحنا من له جارحة العين!!

٦/ لا جبر ولا تفويض:

إذا أردنا أن نعبّر عن فكرة دقيقة مثل لا جبر ولا تفويض في أفعال العباد - وهي من الأفكار الّتي حارت فيها عقول المفكّرين منذ ألوف الأعوام، ولم يتوصلوا فيها إلى حل، فقط أهل البيت عليهم السلام هم الذين حلّوا هذه المعضلة الفكريّة بقولهم: الأمر بين الأمرين - كيف نعبر عنها؟

الله عزّ وجلّ عبّر عنها في كتابه الكريم بقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ

---

(١) أي ما دام كلمة البصير يطلقها الإنسان ويعني بها العين الجارحة، فإطلاقها من دون تخصيص أو قرينة صارفة عن معناها الظاهري، يؤكد ذلك المعنى الظاهر من اللفظ وهو العين الجارحة، الأمر الذي استلزم لدى البعض ثبوت محذور التجسيم على الله جلّ وعلا إذا ما أطلقت الكلمة على الذات المقدسة، لذا التزم بعدم إطلاقها عليها، وهو أمر يستدعي التفريط بحقيقة ثابتة وهي: أن الله تعالى بصير بعباده.

﴿رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾(١) أي رميت ولم ترمِ، أنت رميت، والله رمى، فيأتي المجبّر ويقول: الله هو الذي رمى اعتماداً على هذه الآية، بينما هذه الآية تشرح عمق عقيدة الأمر بين الأمرين، والسؤال هنا: كيف يمكن التعبير عن هذين الأمرين والألفاظ قاصرة؟

فلقصور الألفاظ وعمق معانيها أو غيبيَّتها تتولّد ظاهرة التشابه في بعض الآيات(٢).

٢ ـ اللغة العربية والاعتبارات البلاغيّة:

البشر في اللغة الدارجة يُكثر من استخدام المجاز والكناية والاستعارة وما أشبه ذلك، والقرآن الكريم الذي هو قمّة في الأدب العربي يحتوي على كنايات واستعارات ومجازات، ولكن يأتي من لا ذوق له أو مَن هو مغرض وجامد فيأخذ هذه الفنون الأدبية ويحوّلها إلى منحى باطل(٣)، وستذكر أمثلةً لذلك.

أمثلة من القرآن:

١ـ قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾(٤) وللساق معنيان:

حقيقي: وهو الكشف عن السّاق المادية، ومجازي: وهو أنّ الأمر جديٌّ وشديد.

---

(١) سورة الأنفال: ١٧.

(٢) إذن من خلال الأمثلة الآنفة الذكر اتضح أن قصور الألفاظ عن نقل الحقائق الشامخة اللامحدودة والقضايا الغيبية، مما يسبب ظاهرة التشابه في القرآن الكريم.

(٣) إن مقصود المؤلف من تحويل الاستعارات والمجازات إلى منحى باطل هو: حمل المعنى على ما يستلزم منه الفساد العقائدي وغيره.

(٤) سورة القلم: ٤٢.

ذعندما يقال: وقامت الحرب على ساق، يفهم من له ذوق أدبي أن المقصود ليس هو المعنى المادي ـ كما يفيد قولنا: شَمَّرَ عن ذراعيه وساقيه أنّه أظهر ذراعيه وساقيه ـ بل المقصود أن القضيّة تحوّلت إلى قضيّة جديّة كالحرب، إلّا أنّه يأتي من ليس له ذوق أدبي أمثال ابن تيميّة ويقول: إنّ الله له ساق ويوم القيامة يكشف عن ساقه ويضعها في جهنّم ويقول لها هل امتلأتِ وتقول قط قط، أي كاف[1]!! على الرغم من وضوح الأمر في أنّه اعتبار بلاغي.

وليتضح الأمر نذكر هذا المثال:

شخص ما يسأل: من هو (هامان)؟ فيقال له: عامل بناء! لأنّ فرعون قال له: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾[2] !! هذا المجيب لا ذوق أدبي له أصلاً.

٢ـ قال الله تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾[3]، يقول الزمخشري في الكشّاف: ولو أعطى الأقطع إلى منكبيه عطاءً جزيلاً لقالوا: ما أبسط يده بالنوال[4] مع أنه لا يد له، لأنّ المقصود باليد الكرم، فلو قلت: فلان يده جافّة هل يعني ذلك أنه لا رطوبة عليها؟

٣ـ الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ۝٢٩﴾[5] والسؤال هنا هو: هل أن معنى (اليد

---

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، صحيح البخاري، م ٣، باب وتقول هل من مزيد، رقم ٤٨٤٨.

(٢) سورة غافر: ٣٦.

(٣) سورة المائدة: ٦٤.

(٤) الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، الكشاف، ج١، ص: ٦٥٤.

(٥) سورة الإسراء: ٢٩.

المغلولة) هو اليد المكسورة، و ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ هو كمن يفتح يديه؟ أم أنّ المراد لا تنفق زائداً بحيث تقعد ملوماً محسوراً، ولا تبخل، بل ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ يعني الله كريم، ولكن يأتي أمثال ابن تيميّة ويقول: الله يداه مفتوحتان !!.

٤ـ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[1] فما معنى ناظرة؟

البعض ممن لا ذوق أدبياً له ولا معرفة يقول: إنّهم يرون الله ويظهر لهم كالشمس أو القمر، والحال أنّ المراد: كمن يقول: أنا عيني عليك ونظري عليك، فعندما يأتي فقير إلى باب الدار ويقول: عيني بعد الله عليك ما معناه؟ هل معناه أنّني أنظر إليك أو معناه عطفك ولطفك ورحمتك؟ فـ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ معناها تنتظر رحمة ربّها لعدم وجود أمل آخر، فهذه الاعتبارات البلاغيّة تتدخّل في الكلام، ومن لا ذوق له ولا معرفة له بالأدب يقول: إنّ لله وجه.

٥ـ ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[2]، هل المراد منها أن الله ينسى؟

كلا، ولكن من لا ذوق له ولا معرفة يذهب إلى أنّ الله ينسى بدليل الآية، والحال أنّ معناها أمراً آخر يظهر من ما نذكره في المثال اللاحق.

٦ـ ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾[3] هل هذا اعتداء أو رد اعتداء؟

يوجد في كتب اللّغة والبلاغة كالمطوّل والمختصر وجواهر البلاغة

---

(١) سورة القيامة: ٢٢ - ٢٣.

(٢) سورة التوبة: ٦٧.

(٣) سورة البقرة: ١٩٤.

بابٌ يسمى (المشاكلة)[1] يُذكَر فيه أنّ ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾ بمعنى ردّ الاعتداء، يقول أحد الشعراء:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

أي: إنّنا نردّه، كذلك ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ فهو من باب المشاكلة وليس بمعنى أنَّ الله ينسى.

٧ـ ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾[2]، هذا القول هو أيضاً من باب المشاكلة البلاغية، لا أنّ الله تعالى له نفس!.

إذاً الاعتبارات البلاغيّة قد تكون وراء وجود بعض الآيات المتشابهة.

٣ ـ الاختبار الإلهي في التكوين والتشريع:

إن من مفردات الاختبار الإلهي وجود ظاهرة التشابه في القرآن الكريم، حيث إنّ لله تعالى كتابين:

١- الكتاب التدويني: وهو القرآن الكريم.

٢- الكتاب التكويني: وهو عبارة عن هذا الكون الذي خلقه الله سبحانه وتعالى.. وفي كلا الكتابين توجد نقاط غامضة جُعلت للاختبار والامتحان.. منها مثلاً في النظام التكويني المرض، فإن الإنسان يمرض ولا يفهم لماذا ابتلي بهذا المرض، فعلى سبيل المثال بعض الآباء يولد لهم أولاد معوّقون يتعذّبون معهم إلى أن يموتوا، فتسأل الأم التي يقع

---

(١) المشاكلة تعني المضاهاة والمناسبة والمشابهة، ولكن الفرق بين المشابهة والمشاكلة هو: أنّ المشاكلة تكون في الهيئة والصورة والند، والشبه يكون في الكيفية.

(٢) سورة المائدة: ١١٦.

عليها الجزء الأكبر من العذاب أو الأب لماذا جعل الله هذا الطفل معوّقاً، ولماذا أعطاني الله هكذا طفل؟

نقل لي شخص أنه رأى في إحدى البلاد الأجنبيّة من كَفَرَ بوجود الله تعالى، قال قلت له: كيف تكفر بالله وهذه الشواهد كلّها تدلّ عليه؟ فقال ذلك الشخص: لو كان الله موجوداً لما قامت الحرب العالميّة الثانية!! ويبدو أنّ ذلك الشخص أصابته ويلات الحرب العالميّة الثانية..

فهذه نقاط غامضة في النظام التكويني، وهي تشكّل اختباراً إلهيّاً صعباً للبشر، وهو أمر طبيعي، إذ لا يخفى أنّ الشخص حينما يذهب إلى قاعة الاختبار فإنه لا يختبر فقط بالأسئلة السهلة، وإنما يختبر بالأسئلة المعقّدة أيضاً ليظهر واقعه ومستواه العلمي الحقيقي، وذلك لا يكون الاختبار في الأسئلة السهلة التي يستطيع الجميع الإجابة عليها.. السؤال المهم هنا هو: من يستطيع حل هذا الغموض؟

إن الغموض والتعقيد في التكوين والتشريع لا يحله إلا الفرد المؤمن، وذلك بالعلم والإيمان، أمّا الذي لا يؤمن والشخصيّات القلقة فهم يسقطون في هذا الامتحان بالشك والجهل والترديد، والآية الكريمة فيها كما يبدو إيماءة لطيفة إلى أنه إنّما يمكن للفرد أن يحلّ المشكلات والنقاط الغامضة بالعلم والإيمان، وفي نهاية الآية الكريمة يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾، فالعلم من جانب والإيمان من جانب آخر، العلم والإيمان كما يحلّان المشكلات الغامضة في النظام التكويني كذلك يحلّان النقاط الغامضة في النظام التدويني.

البشر وَصُنعُ الويلات:

لا يخفى أنّ الإشكال الذي ذكره الرجل الكافر بالله غير وارد، لأن الحرب العالميّة الثانية لم يصنعها الله سبحانه وتعالى وإنّما صنعها الإنسان بجهله، وكذلك الطفل المعوّق، حيث يؤكّد العلم بأنّ التعويق في كثير من الأحيان ينشأ من خطأ يرتكبه الوالدان، ولو فرض أنّ العلم لم يتمكّن من حل بعض النقاط الغامضة إلّا أنّ القاعدة الإيمانيّة الّتي يرتكز عليها المؤمن والأرضيّة الصلبة له كفيلة بحل جميع المشكلات، وسنعود إلى هذه النقطة في بحث التأويل والقاعدة الإيمانية ونذكر كيف أنّ الإيمان يحلّ المشكلات والمعضلات الفكريّة.

إذن وجود ظاهرة التشابه تمثّل مفردة من مفردات الاختبار الإلهي.

٤ ـ الارتباط بالقادة الإلهيّين:

إنّ وجود ظاهرة التشابه تعتبر عاملاً من عوامل ربط المجتمع بالقادة الإلهيين.

هل يكفي كتاب الله؟

هنالك مقولة يردّدها بعض أشباه المفكّرين بأنّه يكفينا كتاب الله، ولا نحتاج بعد القرآن إلى شيء آخر، وهي ليست جديدة، بل قديمة في تاريخنا كما قالها ذلك الرجل في حياة النبي الأعظم ﷺ، مخاطباً بها النبي وجهاً لوجه: حسبنا كتاب الله، وروايتها مذكورة في البخاري بنحوين:

الأول: ذُكرت فيه على نحو الإهمال، حيث ذكر تعبير: «فقال

بعضهم»، وكما يبدو أنّه يريد أن يتخفى على ماهيّة هذا القائل، ومن أراد أن يراجع هوية القائل فيراجع كتاب البخاري في باب النبي ووفاته[١].

الثاني: كشف عن هويّة القائل لمقولة: حسبنا كتاب الله، ومن أراد المراجعة فليراجع كتاب البخاري أيضاً في باب قول المريض قوموا عني[٢].

فحاولوا في حياة النبي الأعظم ﷺ وإلى يومنا هذا إلغاء دور القادة الإلهيين، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل، فإن القرآن الذي قالوا: إنه يكفينا، فيه نقاط غامظة وآيات متشابهة، فالمخالفون عندما كانوا يصطدمون بالتشابه في هذه الآيات، فإن تمكنوا أن يلتفوا عليها التفوا -كما هو دينهم- وإن لم يتمكنوا من الالتفاف أحياناً ولم يكن لهم مجال للهرب عندها كانوا يضطرون لأجل الكشف عن تلك الإبهامات والغموض إلى أن يرجعوا إلى القادة الإلهيين وأن يعترفوا بقيادتهم، . .

ومن ذلك يظهر أن قضية الربط بالقادة الإلهيين قضية مهمة جداً، ولكي يتضح الأمر نذكر المثال التالي:

عندما تؤلف الهيئة الإدارية للجامعة كتاباً للتلاميذ فإنها تتعمد في جعل نقاط غامضة في المنهج كيلا يعتمد الطلّاب على أنفسهم ويستغنوا عن الدرس والأستاذ فيخسروا قيادتهم الفكرية والعملية والأخلاقية، فهذه النقاط تدفع المجتمع دائماً للبحث عن هؤلاء وحلّ تلك النقاط عبرهم.

---

(١) البخاري. ج٥، ص: ١٣٨، باب مرض النبي ووفاته.

(٢) المصدر السابق، ج٧، ص: ٩، باب قول المريض قوموا عني.

الحكام وعدم فهم القرآن:

جاء في كتاب الغدير تحت عنوان (نوادر الأثر): مائة قضية تورط فيها الذين جاؤوا إلى الحكم بعد النبي الأعظم ﷺ منها:

١- الرجوع إلى أمير المؤمنين عليه السلام:

أتى وفد من النصارى وطرح مشكلة فكرية على المسلمين وخليفتهم، ولكن لا جواب!، فاضطروا إلى الرجوع إلى الإمام علي عليه السلام[١].

(١) نقل الشيخ الأميني في كتاب الغدير الجزء السابع في الصفحة ١٧٩ عن ما أخرجه الحافظ العاصمي عن سلمان الفارسي (رضي الله عنه) قال: لما قبض النبي ﷺ اجتمعت النصارى إلى قيصر ملك الروم فقالوا له: أيها الملك إنا وجدنا في الإنجيل رسولاً يخرج من بعد عيسى اسمه أحمد، وقد رمقنا خروجه وجاءنا نعته فأشر علينا فإنا قد رضيناك لديننا ودنيانا، قال: فجمع قيصر من نصارى بلاده مائة رجل وأخذ عليهم المواثيق أن لا يغدروا ولا يُخْفُوا عليه من أمورهم شيئاً، وقال: وانطلقوا إلى هذا الوصي الذي من بعد نبيهم فسلوه عما سُئل عنه الأنبياء عليهم السلام وعما أتاهم به من قبل، والدلائل التي عرفت بها الأنبياء، فإن أخبركم فآمنوا به وبوصيه واكتبوا بذلك إليَّ، وإن لم يخبركم فاعلموا أنه رجل مطاع في قومه يأخذ الكلام بمعانيه ويرده على مواليه، وتعرفوا خروج هذا النبي. قال: فسار القوم حتى دخلوا بيت المقدس واجتمعت اليهود إلى رأس جالوت فقالوا له مثل مقالة النصارى بقيصر، فجمع رأس جالوت من اليهود مائة رجل، قال سلمان: فاغتنمت صحبة القوم فسرنا حتى دخلنا المدينة وذلك يوم عروبة - يعني يوم الجمعة وكان يسمى قديماً بيوم عروبة - وأبو بكر قاعد في المسجد يفتي الناس، فدخلت عليه فأخبرته بالذي قدم له النصارى واليهود فأذن لهم بالدخول عليه فدخل عليه رأس جالوت فقال: يا أبا بكر إنا قوم من النصارى واليهود جئناكم لنسألكم عن فضل دينكم فإن كان دينكم أفضل من ديننا قبلناه وإلا فديننا أفضل الأديان؟ قال أبو بكر: سل عما تشاء أجبك إن شاء الله. قال: ما أنا وأنت عند الله؟ قال أبو بكر: أما أنا فقد كنت عند الله مؤمناً وكذلك عند نفسي إلى الساعة ولا أدري ما يكون من بعد. فقال اليهودي: فصِف ليَّ صِفَةَ مكانك في الجنة وصفة مكاني في النار لأرغب في مكانك وأزهد عن مكاني؟ قال: فأقبل أبو بكر ينظر إلى معاذ مرة وإلى ابن مسعود مرة، وأقبل رأس جالوت يقول لأصحابه بلغة أمته: ما كان هذا نبياً. =

٢- الأول لا يعلم معنى الكلالة:

سُئِل الأول عن معنى الكلالة في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾[(١)]؟ فلم يكن يملك جواباً واضطر أن يقول برأيه، فقال: أقول

= قال سلمان: فنظرت إلى القوم وقلت لهم: أيها القوم! ابعثوا إلي رجل لو ثنيت له الوسادة لقضى لأهل التوراة بتوراتهم ولأهل الإنجيل بإنجيلهم ولأهل الزبور بزبورهم ولأهل القرآن بقرآنهم، ويعرف ظاهر الآية من باطنها وباطنها من ظاهرها. قال معاذ: فقمت فدعوت علي بن أبي طالب وأخبرته بالذي قدمت له اليهود والنصارى فأقبل حتى جلس في مسجد رسول اللهﷺ، قال ابن مسعود: وكان علينا ثوب ذل: فلما جاء علي ابن أبي طالب كشفه الله عنا، قال علي: سلني عما تشاء أخبرك إن شاء الله قال اليهودي: ما أنا وأنت عند الله؟ قال: أما أنا فقد كنت عند الله وعند نفسي مؤمناً إلى الساعة فلا أدري ما يكون بعد، وأما أنت فقد كنت عند الله وعند نفسي إلى الساعة كافراً ولا أدري ما يكون بعد.. قال رأس جالوت: فصف لي صفة مكانك في الجنة وصفة مكاني في النار فأرغب في مكانك وأزهد عن مكاني قال عليٌّ: يا يهودي! لم أرَ ثواب الجنة ولا عذاب النار فأعرف ذلك، ولكن كذلك أعدّ الله للمؤمنين الجنّة وللكافرين النار، فإن شككت في شيء من ذلك فقد خالفت النبيﷺ ولست في شيء من الإسلام. قال: صدقت رحمك الله فإن الأنبياء يوقنون على ما جاؤوا به فإن صدقوا آمنوا وإن خولفوا كفروا. قال: فأخبرني أعرفت الله بمحمد أم محمداً بالله؟ فقال عليّ: يا يهودي! ما عرفت الله بمحمد ولكن عرفت محمداً بالله لأن محمداً محدود مخلوق وعبد من عباد الله اصطفاه الله واختاره لخلقه وألهم الله نبيه كما ألهم الملائكة الطاعة وعرَّفهم نفسه بلا كيف ولا شبه. قال صدقت. قال: فأخبرني الربُّ في الدنيا أم في الآخرة؟ فقال عليّ: إنّ «في» وعاء فمتى ما كان بـ«في» كان محدوداً ولكنّه يعلم ما في الدنيا والآخرة وعرشه في هواء الآخرة وهو محيط بالدنيا والآخرة بمنزلة القنديل في وسطه إن خليت يكسر إن أخرجته لم يستقم مكانه هناك فكذلك الدنيا وسط الآخرة. قال: صدقت. قال فأخبرني الربُّ يَحمِلُ أو يُحملُ؟ قال علي بن أبي طالب: يحمل. قال رأس جالوت: فكيف وإنّا نجد في التوراة مكتوباً ويَحمِلُ عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية. قال عليّ: يا يهودي: إن الملائكة تحمل العرش والثرى يحمل الهواء والثرى موضوع على القدرة وذلك قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾. قال اليهودي: صدقت رحمك الله.

(١) سورة النساء: ٧٦.

برأيي في ذلك فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمن الشيطان ومن نفسي!! وقال شيئاً، ثم جاء الثاني وقال: إني لأستحيي من الله تعالى أن أرد على ما قاله أبو بكر[1] فأمضاه!!..

٣- الثاني يضرب ويسجن من يسأله:

سُئِل الثاني عن قوله تعالى: ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾[2] ما معنى هذه الآية؟ فيغضب ويقوم إليه ويشجه بدرة كانت عنده ثم يسجنه ثم يبعده ويقول: لماذا تتكلفون في كتاب الله![3].

٤- انكشاف بعض مقامات الأئمة عليهم السلام:

لو كان كتاب الله واضحاً ما كانت تُكشف الحقيقة، وما كان ينكشف- تمام الانكشاف- بعض مقامات أهل البيت عليهم السلام، فكانت هذه الأحداث لكشف بعض مقامهم وعلو شأنهم وإظهار قربهم من كتاب الله

---

(١) الدارمي، عبد الله بن بهرام، سنن الدارمي، ج٢، باب الكلالة، ص: ٣٦٦.

(٢) سورة الذاريات: ٣.

(٣) روى المتقي الهندي في كنز العمال الجزء الثاني في الصفحة ٥١٠ حديث رقم ٤٦١٧ عن سعيد بن المسيب قال: جاء صبيغ التميمي إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن الذاريات ذرواً؟ فقال: هي الرياح، ولولا أنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته. قال: فأخبرني عن الحاملات وقراً؟ قال: هي السحاب، ولولا أنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته. قال: فأخبرني عن الجاريات يسراً؟ قال: هي السفن، ولولا أنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته، قال: فأخبرني عن المقسمات أمراً؟ قال: هي الملائكة، ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته. ثم أمِرَ به فضُرب مائة وجعل في بيت فلمّا برأ دعاه فضربه مائة أخرى وحمله على قتب وكتب إلى أبى موسى الأشعري: امنع النّاس من مجالسته، فلم يزالوا كذلك حتى أتى أبا موسى فحلف له بالأيمان المغلّظة ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئاً، فكتب في ذلك إلى عمر، فكتب عمر ما إخاله إلا قد صدق فخِل بينه وبين مجالسة الناس.

عزّ وجلّ، فإنهم عليهم السلام عِدل القرآن كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «علي مع القرآن والقرآن مع علي»[1] و: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً»[2].

٥- الحجّاج والفهم الخاطئ للقرآن:

أ- عن شهر بن آشوب قال: قال لي الحجّاج: يا شهر آية في كتاب الله قد أعيتني لم أجد لها تفسيراً[3]، فقلت: أيها الأمير أيةُ آية هي؟ فقال: قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾[4] ما معناها؟

أي هل ينطبق على الواقع الخارجي بأنّ جميع أهل الكتاب سيؤمنون بالنبي الأعظم صلى الله عليه وآله قبل موتهم؟ مع أن الأمر ليس كذلك فإن أكثرهم لا يؤمنون، فما معنى الآية؟- ثم قال: والله إني لآمر باليهودي والنصراني فتضرب عنقه ثم أرمقه[5] بعيني فما أراه يحرك شفتيه حتى يخمد وتسكن حركته[6]، فكيف تفسر هذه الآية؟

فقلت: أصلح الله الأمير ليست على ما تأولت[7] - قال: كيف هو؟ قلت إن عيسى ينزل قبل يوم القيامة إلى الدنيا فلا يبقى أهل ملة يهودي

---

(١) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الجامع الصغير، ج٢، ص: ١٧٧، ح ٥٥٩٤.

(٢) تهذيب المقال في تنقيح كتاب الرجال، ج٣، ص: ١٣١.

(٣) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج٩، ص: ١٩٥، ح٤٥.

(٤) سورة النساء: ١٥٩.

(٥) رمقه، أي أطال النظر إليه. منه رحمه الله.

(٦) ويقصد الحجّاج أنّ هذه الآية تصطدم بالواقع الخارجي حيث لا أراه يشهد ويقرّ بالنبوة. منه رحمه الله.

(٧) أي ليس على المعنى الذي خطر بذهنك. منه رحمه الله.

ولا غيره إلا آمن به قبل موته[١]، وعند ذلك يؤمن جميع أهل الكتاب بخاتم الأنبياء: قال: ويحك[٢] أنى لك هذا ومن أين جئت به؟ فقال: حدثني به محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال الحجّاج: جئت والله بها من عين صافية.

ب- تورط الحجّاج في مشكلة القدر والجبر الإلهي، المشكلة التي حيّرت عقول المفكرين وأغلب المسلمين في العالم من عصر الرسالة حتى يومنا هذا، حيث لم يرجع كثير من المسلمين إلى الثقل الثاني الذي عيّنه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، فاعتقدوا بالجبر لوجود بعض الآيات المتشابهة، وهذا حال كل من يريد أن يتعامل تعاملاً مباشراً مع القرآن الكريم ويستغني عن أهل البيت عليهم السلام، فكانت نتيجة عملهم أنّهم انتهوا إلى أن الله أجبر أبا لهب على الكفر، لأنّه لم يكن مختاراً أصلاً ومع ذلك في يوم القيامة الله يلقيه في نار جهنّم!! وكذلك أبو جهل أجبره الله على الضلال وسيكبّه على وجهه في النار!! وفي زمننا الحاضر ملايين المسلمين يقولون بذلك وسنتطرق إلى مبحث العدل الإلهي ورؤية المسلمين فيه إن شاء الله تعالى وهي رؤية خارج دائرة أهل البيت عليهم السلام.

وقد كتب الحجّاج إلى أربعة أفراد كيف تحلّون مشكلة الجبر؟

فأتاه الجواب من الأول حلّ فيه المشكلة بطريقة ما، وكذا جواب الثاني حيث أتاه بنحو آخر، ومن الثالث بنحو ثالث، ومن الرابع بطريقة

---

(١) فالضمير يرجع إلى عيسى ابن مريم حيث إنّه يصلي خلف المهدي المنتظر عليه السلام. منه رحمه الله.
(٢) وهي كلمة تعجب. منه رحمه الله.

أخرى، وكلهم كانوا قد أخذوا الحل من الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام[1].

فهذه النقاط الغامضة تفرض حاجة المجتمع والأمة للرجوع إلى أهل البيت عليهم السلام (القادة الإلهيين).

المبحث الثالث

كيف نتغلّب على مشكلة التشابه؟

هناك حلّان أشار القرآن الكريم إليهما:

الأوّل: الرجوع إلى القادة الإلهيين.

الثاني: الرجوع إلى الآيات المحكمة.

ولا بد أن نضع هذين الحلّين جنباً إلى جنب:

أما الطريق الأوّل: ففي آية أخرى عندما يخاطب الله تعالى

---

(٣) روى الشيخ الصدوق في كتاب الهداية في الصفحة ١٩ عن الطرائف: أن الحجاج بن يوسف كتب إلى الحسن البصري وإلى عمرو بن عبيد وإلى واصل بن عطاء وإلى عامر الشعبي أن يذكروا ما عندهم وما وصل إليهم في القضاء والقدر، فكتب إليه الحسن البصري: إن أحسن ما سمعت من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: يا ابن آدم أتظن أن الذي نهاك دهاك، وإنما دهاك أسفلك وأعلاك، والله بريء من ذلك. وكتب إليه عمرو بن عبيد: أحسن ما سمعت في القضاء والقدر قول علي بن أبي طالب عليه السلام: لو كان الوزر في الأصل محتوماً كان الموزور في القصاص مظلوماً. وكتب إليه واصل بن عطاء: أحسن ما سمعت في القضاء والقدر قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إنه قال: أيدلك على الطريق ويأخذ عليك المضيق؟؟ وكتب إليه الشعب: أحسن ما سمعت في القضاء والقدر قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إنه قال: كل ما استغفرت الله تعالى منه فهو منك، وكل ما حمدت الله تعالى فهو منه. فلمّا وصلت كتبهم إلى الحجّاج ووقف عليها، قال: لقد أخذوها من عين صافية.

(١) روى الشيخ الصدوق في كتاب الهداية في الصفحة ١٩ عن الطرائف: أن الحجاج بن

النبي الأعظم ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1] فالنبي ﷺ مبيّن وأهل بيته عليهم السلام مبينون.

وأما الطريق الثاني: فيشير إليه قوله عزّ من قائل: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ والأم هي الأصل والمرجع الذي يرجع إليه في المشكلة، فمن أراد أن يحل الآيات المتشابهات ويفهمها، عليه أن يرجع إلى القادة الإلهيين أولاً، وإلى الآيات المحكمة ثانياً، وهذا ممكن ضمن حدود.

مثلاً: استند تيار القومية في البلاد العربية إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[2] وقد تكون الآية مجملة أو متشابهة، ولكن عندما نضعها إلى جنب قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾[3] نصل إلى أنّ القرآن الكريم ليس قومياً، بل يدعوا إلى العولمة ولكن بشكلها الصحيح، فالقرآن والدين عالميان.

مثال آخر: ما المراد من الاستواء في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[4]؟

فإن الاستواء له معنيان:

الأول: كما يستوي الملك على سريره.

الثاني: الهيمنة والسيطرة.

فأي المعنيين هو المراد؟

يجب أن نرجع إلى آية أخرى محكمة وهي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ

---

(١) سورة النحل: ٤٤.

(٢) سورة الزخرف: ٤٤.

(٣) سورة الأنعام: ٩٠.

(٤) سورة طه: ٥.

شَيْءٌ﴾[1] عندما نصل إلى نتيجة عدم التشابه بين الله وبين مخلوقاته، فلا يمكن أن يكون المعنى الأوّل هو المراد، فالآية المتشابهة نضعها إلى جنب آية محكمة فيرتفع عنها التشابه ولو إلى حدٍ ما.

وهنا ينبغي الأخذ بملاحظة هي: أن إرجاع الآيات المتشابهة إلى المحكمة إنّما كان بفضل أهل البيت عليهم السلام.

والخلاصة: بهذين الطريقين يتحوّل القرآن كله إلى محكم، فلا تبقى آية متشابهة فيها إبهام في القرآن الكريم، بعد أن نرجعها إلى الآيات المحكمة وبعد الرجوع إلى القادة الإلهيين عليهم السلام.

المبحث الرابع

على ضوء هذه الآية الكريمة يظهر لنا موقفان:

الأوّل: موقف الذين في قلوبهم زيغ.

الثاني: موقف الراسخين في العلم.

وقبل أن نخوض في بحث كلٍّ واحد من الموقفين لا بد أن نطرح سؤالاً وهو: ما هو الموقف وما هو المنطلق الذي ننطلق منه في التعامل مع القرآن الكريم؟

ويمكن أن نطرح السؤال بشكل أعم وهو: ما هو الموقف الذي ننطلق منه في التعامل مع حقائق الدين بشكل عام؟.

الانطلاق من القرآن أو من الأفكار والشهوات؟

١- قد ينطلق الفرد من القرآن والدين ذاتهما.

٢- قد ينطلق الفرد من أفكاره المتبناة.

(١) سورة الشورى: ١١.

٣- قد ينطلق الفرد من أهوائه وشهواته.

بين يدي القرآن الكريم:

إن الموقف الصحيح هو الانطلاق من الدين والقرآن ذاتهما، إذ يجب على الفرد أن يكون تلميذاً تجاه القرآن: يتتلمذ على يديه، ويرى ماذا يقول الدين، فيعرف ما هو عنوان ديننا، إذ إنّ للعنوان أهميّة فائقة، فعندما تأخذون كتاباً فإنكم تقرؤونه من عنوانه، فإن العنوان يمثّل مرآة تعكس ما في الكتاب بشكل إجمالي أو تعكس أهم ما في الكتاب.

وكذلك إذا كتبتم كتاباً كيف تضعون عنوانه؟ من المؤكد أنكم تحاولون وضع عنوان يكون مرآة لما في الكتاب أو أن يحتوي على أهم موضوع فيه، وهذا بيّن في الواقع الخارجي.

الإسلام عنوان ديننا:

سؤال يطرح وهو: ما هو عنوان الدين؟

الجواب: عنوانه هو الإسلام، وهو يعني التسليم، فموقف المؤمن تجاه ما يقوله الدين والقرآن هو التسليم، فيحاول أن يكون مُسَلِّماً تجاهه، هذا هو الموقف الصحيح.

فمن خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام حول الإمام الحجّة ـ عجّل الله تعالى فرجه ـ قال فيها: «يعطف الهوى على الهدى حيث عطفوا الهدى على الهوى»[١]، وعليه فإن المنطلق هو الهدى، هكذا ينبغي أن يكون المؤمن والمسلم، هذا هو الموقف الأوّل.

---

(١) نهج البلاغة، تحقيق محمد عبده، ج٢، ص: ٢١، خ١٣٨.

الانطلاق من الأفكار المتبناة أو الأهواء والشهوات:

أما الموقف الثاني والثالث فهو أن ينطلق الفرد من أفكاره في التعامل مع القرآن الكريم وحقائق الدين، فلو كانت له نظرية معينة يريد أن يثبتها فإنه لا يبحث عن ماذا يقول القرآن والدين! وإنما يحاول أن يُحمِّل نظريته عليهما، ويجد في الدين نقطة تبرر له هذه الأهواء والشهوات.

السبب: الانحراف الفكري والروحي:

لا يخفى أن السبب في هكذا نوع من التعامل هو الانحراف الفكري والروحي، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ فهؤلاء لهم أغراض معينة ولهم أفكار خفية، فهل يمكن أن يجدوا في الآيات المحكمة الواضحة ما يبرر لهم هذه الأفكار والشهوات؟ كلا: لأن الآيات المحكمة واضحة فيبحثون عن الآيات المتشابهة ويحاولون أن يُحمِّلوا أفكارهم وشهواتهم على الدين عبر الآيات المتشابهة.

فمن يحمل روح الشيوعية لا يحاول أن يرى ماذا يقول القرآن في المنهج الاقتصادي، بل يبحث في القرآن الكريم حتى يجد آية متشابهة تبرر فكرته، وقد استدل الشيوعيون على الشيوعية بقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾[1] مدّعين أن الآية تعني أنّ الأرض مشاعة لجميع البشر!!

والاشتراكيون بحثوا وبحثوا حتى وجدوا آية متشابهة- فيما يتصورون- استدلوا بها على الاشتراكية وتلك الآية هي: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ

---

(١) سورة الرحمن: ١٠.

﴿وَٱلرَّسُولِۖ﴾[1] وادّعوا أنها تدل على المذهب الاشتراكي، وهذا حال كل من في قلبه مرض.

بالطبع إنّ المقصود بالقلب إما الفكر فيكون المراد فيه التواء، أو الروح فيها اعوجاج، حيث يحاول أن يجد آية متشابهة تدعم موقفه ويكتفي بها.

النظرة التجزيئية للقرآن:

من الواضح أن النظرة التجزيئية للقرآن الكريم موقف خاطئ يسبب انقلاب المعنى، فلا بد أن تكون النظرة إلى القرآن الكريم شاملة، وحتى كلمة التوحيد وهي شعار الإيمان: «لا إله إلا الله»، لو نُظر إليها بنظرة تجزيئية تتحول إلى كلمة كفر، فالمتدبر ينظر إلى مجموع القرآن من الآيات المحكمة، ويحاول أن يفسر الآيات المتشابهة بالآيات المحكمة بخلاف من في قلبهم مرض، ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾، وهم على طائفتين:

الأولى: هدفهم: ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾، حيث يريدون الفتنة لإضلال المجتمع وإغوائه بخلق البلبة.

الثانية: هدفهم إظهار الحق لكنهم أخطأوا الطريق: ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ﴾.

ولا بأس أن نتوقف عند موضوع التأويل.

التأويل:

ما هو معنى التأويل؟

---

(١) سورة الأنفال: ١.

إنّ المراد من التأويل هو تفسير الكلمة أو الموقف أو الواقعة المبهمة، وبعبارة أخرى التأويل عملية إزالة الإبهام عن الكلمة المبهمة أو الموقف المشكوك أو الواقعة المريبة وإرجاعها إلى حقيقتها.

أمثلة من القرآن:

١- رجل يركب سفينة ثم يأخذ معولاً ويخرقها أو ينشر أرضيتها بمنشار، مثل هذا الموقف المريب، يمكن تفسيره بتفسيرين:

الأول: ما خطر على ذهن البعض بأن الرجل- وهو الخضر عليه السلام- رجل مفسد يريد أن يغرق الذين هم في السفينة!! وظاهر الحال يوحي بأن هذا الرجل يهدف شراً.

الثاني: إرجاع الأمر الى الحقيقة، فعندما يسأل: لماذا تقوم بهذا العمل؟

فإنّه يُرجع هذا الموقف المبهم الى حقيقته وواقعه فيقول:

ملك جبار يأخذ كل سفينة صالحة غصباً وهذه السفينة هي لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها حتى لا يأخذها الملك الظالم.

هذا التوجيه والتفسير والإرجاع يقال له التأويل، ولذلك قال الخضر لنبي الله موسى عليه السلام: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[1].

٢- ملك ينام ويرى في عالم الرؤيا سبع بقرات سمان تأكلهن سبع بقرات هزيلة، فما معنى هذه الرؤيا؟

الرؤيا عادة تكون لها لغة رمزية لا حقيقية، فإن المنامات عادة لا

---

(١) سورة الكهف: ٧٨.

تظهر بصورة صريحة وإنما تظهر بأسلوب رمزي، هذه الرؤيا رؤيا مشكوكة ومريبة ومبهمة، تطرح هذه الرؤيا على نبي الله يوسف عليه السلام فيأولها بإرجاعها إلى حقيقتها وواقعها.

الخبير هو المخول بالتأويل:

لا يمكن لأي أحد أن يقوم بالتأويل وإزاحة الغموض إلا إذا كانت له قابليّات وكفاءات معيّنة، ففي كلِّ عِلمٍ وكلِّ فنّ تكون الحاجة فيه إلى من يفسر المبهم ويرجع الأمر إلى واقعه.

فمثلاً كتاب القانون لا يمكن للشخص العادي أن يتعامل معه مباشرة، لأنه كتاب متخصص في فرع من فروع العلم يحتاج إلى خبير يفسّر نصوصه المبهمة للجاهل بها ويرجعها إلى واقعها، وكذلك كتاب النحو، وكتاب المنطق.. الخ.

أما القرآن الكريم الذي هو كتاب الله سبحانه وتعالى فهو على قسمين:

١- الآيات المحكمة: ومنها قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[١] فإنّ كلّ شخص يتمكن أن يتعامل معها.

٢- الآيات الغامضة والمتشابهة والمجملة: فلا يحق لكلّ أحد أن يدعي أنه فهم المراد منها، حتى وإن لم تكن الفتنة غرضه من ذلك التفسير كما سيأتي.

والأفراد بالنسبة إلى الآيات المتشابهة على قسمين:

---

(١) سورة البقرة: ٢٠.

١- من يريد الفتنة كأهل الكتاب.

٢- من لا يريد الفتنة لكنّه أخطأ الطريق كبعض الخوارج.

أهل الكتاب وإرادة الفتنة:

١- من يريد الفتنة: كأهل الكتاب الذين خططوا: ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ فجاؤوا النبي الأعظم ﷺ وأرادوا خلق فتنة اجتماعية من كلمة في القرآن الكريم فقالوا: ألا يقول القرآن إن المسيح روح الله ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾[1] فقال النبي الأعظم ﷺ: نعم.

قالوا: يكفينا أن المسيح روح الله فهو ابنه!!

القرآن الكريم يحذرنا من هؤلاء وأمثالهم لأنهم مغرضون يريدون الفتنة والفساد والتلبس على المجتمع، ومن المعلوم أن الآية لا تدل على مدّعاهم، فلو قيل: الكعبة بيت الله، فهل المعنى: أنها البيت الذي يسكنه الله!!

في اللغة العربيّة تكفي في الإضافة أدنى مناسبة، فالمقصود من روح الله أنه عليه السلام روح منسوبة إلى الله تعالى كبيت الله الذي له نوع اختصاص بالله عزّ وجلّ ويعبّر عن هذه الإضافة: بأنها إضافة تشريفية.

التأويل الباطل والتكفير:

٢- أما من لا يريد الفتنة ولا يقصدها، فإنّه لا يحق له أيضاً أن يتعامل بشكل مباشر مع القرآن الكريم لعدم كفاءته ولوجود أرضية التكفير فيه، وإلا تتكرر قضية الخوارج، فإن بعضهم لم يكن مغرضاً، ولذا قال

---

(١) سورة النساء: ١٧١.

الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: فليس من طلب الحق فأخطأه- يعني الخوارج- كمن طلب الباطل فأصابه[1].

نعم كثير من الخوارج وإن لم يكونوا مغرضين إلا أنّهم لم يكونوا مؤهلين ولذلك كفّروا أمير المؤمنين عليه السلام، ولا زال تكفير المسلمين متداولاً.. وقد صارت هناك ظاهرة عامة بحيث يجتمع كل جماعة ويجعلون لأنفسهم أميراً بدون وجود مؤهلات علمية وخبرة ورسوخ في العلم، يطالعون كتاب الله عزّ وجلّ ثم يكفّرون جميع المسلمين.

والخوارج إنما كفّروا أمير المؤمنين عليه السلام اعتماداً على قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[3] وفي منطق الخوارج أن أمير المؤمنين عليه السلام حكَّمَ غير الله عزّ وجلّ في دينه لذا فهو كافر- والعياذ بالله-، ودليلهم: أن الإمام عليه السلام جعل رجلاً حكماً مع أن الله يقول: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فقالوا له: كيف تحكم في دين الله!! وحسب هذه الرؤية القاصرة قادوا حرباً بل حروباً عبر التاريخ، حيث كان لهم امتداد تاريخي بعد حقبة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ويذكر في التاريخ أنّهم كانوا يمرون من طريق فرأوا عبد الله بن خباب وفي عنقه قرآن فأخذوه وأضجعوه وقالوا: إن قرآنك يأمرنا أن نقتلك ثم ذبحوه[4].

مع أن القرآن الكريم يصرح بالتحكيم في قوله عزّ من قائل: ﴿فَٱبْعَثُواْ

---

(١) نهج البلاغة، تحقيق محمد عبده، ج١، ص: ١٠٨، خ١٦.

(٢) سورة الأنعام: ٥٧.

(٣) سورة المائدة: ٤٤.

(٤) ابن شهرآشوب، رشيد الدين أبي عبد الله محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب، ج٢، ص: ٣٦٩.

﴿حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ ..[1]. وفي آية أخرى في محرّمات الإحرام يصرّح بالتحكيم أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[2]، ولكن يأتي من هو جاهل ولا كفاءة علمية له يُصرّح بمعنى التحكيم، مع أنه لا أهلية له كي يتصدى لتأويل القرآن الكريم!!

وكذلك في زماننا جماعة يجلسون ويلاحظون آية من آيات القرآن ويكفّرون المجتمع ويقتلون الأبرياء، فإن لم يمكن إزاحة غموض كتاب في النحو إلا بالرجوع إلى أهل الخبرة فكيف في هذه القضية المهمة التي تترتب عليها دماء ونفوس؟

من هو الخبير بالتأويل؟

يقول الله عزّ وجلّ في القرآن الكريم بالنسبة إلى العارف بالتأويل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فالذي له حق التأويل هو الله عزّ وجلّ أولاً؛ ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ الذين لهم قدم ثابتة في العلم والمعرفة ثانياً.

يقال للنخل «الراسخات» لأنها ثابتة في الأرض ومتجذرة فيها.

التأويل عبر القاعدة العلمية:

تشير الآية إلى أن التأويل يحتاج إلى قاعدتين:

الأولى: القاعدة العلمية الراسخة.

---

(١) سورة النساء: ٣٥.

(٢) سورة المائدة: ٩٥.

ومما يؤسف له أن من الأشياء المتداولة والمعروفة في عصرنا الراهن أنّ بعض الأفراد يحاولون تفسير الدين بالثقافة العامة، فمن له ثقافة دينية عامة وطالع مجموعة من الكتب ويتمكن أن يلقي محاضرة دينية، يأتي ويتصدى ويفتي في قضية اجتماعية مثارة كقضية حقوق المرأة مثلاً فيجلس ويقول: رأيي كذا!!

فهل يمكن لأحد أن يدلي برأيه في قضيّة طبيّة اعتماداً على ثقافة طبيّة عامة؟

وهل يذهب من يريد إجراء عملية قلب ويسلّم نفسه لمن له ثقافة طبيّة عامّة؟

بالطبع إن الجواب بالنفي، لأن الثقافة الطبيّة العامّة لا تكفي، كذلك هو الأمر في الدين فإنّ الثقافة الدينيّة العامّة لا تكفي في الحكم والفتيا.

حوار حول القاعدة العلمية:

رأيت شخصاً من الّذين لهم نظريات في عمق الدين، فدار بيني وبينه حوار مطوّل، قلت له فيه: هل درست علم الفقه؟

ثم سألته: هل درست علم الأصول؟ فإن أقل من درس علم الأصول لو جرى بينك وبينه حوار في أية قضيّة من القضايا الأصولية، ومن أوّل الأصول إلى آخره لا نتمكن من الصمود أمامه حتى في مسألة واحدة؟

وهل قرأت علم الرجال؟ وهل تعرف علم الدارية؟

فيلزمك أن تعلم مجموعة من المقدمات، بل الأمر أصعب من ذلك بكثير، فإن الوصول إلى فهم الدين يحتاج إلى رسوخ في العلم بأن يقصد الطالب الحوزات العلمية المباركة ويبقى فيها عشرات السنين مشغولاً

بالفقه والأصول ويسهر الليالي في ملاحظة روايات أهل البيت عليهم السلام و.. الخ.

فالراسخون في العلم يقضون عمراً حتى يصلوا إلى مرتبة الاجتهاد واستخراج الرؤى والأحكام الشرعية من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، ولكنّ شخصاً لا يعرف الفقه والأصول ولا علم الرجال والدارية ولا الكلام، يأتي ويخبط خبطة عشواء: ثم يأخذ أيةَ آية تنفعه باعتقاده، ويتشبث بالروايات الضعيفة لكونها تؤيد فكرته وهو لا يعرف موازين الضعف والقوة ولا قواعد علم الرجال.

فأية رواية تؤيد فكرته يأخذها، ولكنه في مكان آخر يذكر نفس الرواية ويعبر عنها بأنها ضعيفة، ويترك الآيات والروايات التي تصطدم بشهواته وآرائه وأفكاره.

إذاً فهم القرآن الكريم والتعامل معه يحتاج القاعدة العلمية الراسخة أولاً.

التأويل والقاعدة الإيمانية:

إن الراسخين في العلم الذين: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ هم الذين يحق لهم التأويل. فالذي قاعدته الإيمانية ضعيفة لا يحق له التعامل مع القرآن الكريم...

وعلى سبيل المثال عندما يرى ضعيف الإيمان ظاهرة غامضة أو يواجه مشكلة في حياته، يرتد عن الدين ويكفر، لِمَ ذلك؟

لأن إيمانه ضعيف، وهذا الأمر يُصرّح به القرآن الكريم.

فالراسخ في العلم يحتاج إلى قاعدة إيمانية، بحيث لو واجهه غموض أو إبهام في أمر ما يتمكّن من حلّه بقاعدة الإيمان.

الطريق اللمي لكشف الغموض:

عندما تظهر ظاهرة من الظواهر ويراد تحليلها، إما أن تُحلَّل تحليلاً مباشراً وهو غير ممكن إلا إذا كانت للفرد إحاطة علميّة، وأحياناً لا يتمكن الفرد من أن يحلّل ظاهرةً أو حكماً، لأنه ليس محيطاً بها، فعندها يجب عليه ملاحظة أمور ثلاثة، وهي: الفاعل والحاكم والآمر- كما يقول العلماء- فينتقل انتقالاً لِمِّيّاً من العلّة إلى المعلول.

فلو شاهدنا طفلاً بريئاً لم يرتكب أيّ جرم وقد أخذ شخص بمبضع يقطع رجله! ولم تكن هناك إحاطة علمية بتحلّيل هذه الظاهرة، هنا التحلّيل المباشر يفشل في كشف الحقيقة، ولكن يوجد طريق آخر وهو الطريق اللمي، والسؤال هنا: من الذي يقوم بهذا العمل؟

فقد يكون الطرف جلاداً كأحد البعثيين، ومعه يكون تفسير العمل واضحاً، ولكن عندما يكون الطرف أباً رحيماً شفيقاً حكيماً يُقدم على قطع رجل طفله، يطمئن الإنسان بأنّ هناك سبباً وحكمةً وراء هذا العمل، والحكمة هي حفظ حياة الطفل، لأنه- مثلاً-: أصيب بمرض السكر وإن لم تقطع رجله، يسري السكر إلى بقية أعضائه ويقضي على حياته[١]،

---

(١) يسمى هذا المرض بـ (الغرغرينة): وهو مرض موت الأنسجة وتعفنها وتصيب عادة أَطراف جسم الإنسان إلا أنها قد تصيب أي مكان في الجلد أو الأعضاء الداخلية وتنشأ من عدوى موضعية أو من توقف الدورة الدموية في ذلك الموضع أو تصلب الشرايين عند كبار السن أو مرضى السكري الشديدة التي ينتج عنها ضيق الشرايين في الأطراف السفلى.

فعندما لا يمكن معرفة كنه الحدث يمكن تفسيره بمعرفة الآمر والعامل الفاعل، والحكم على أنه عمل فيه مصلحة وحكمة، كذلك في ظواهر التشريع توجد نقاط إبهام في الدِّين، مثلاً: لماذا قال المولى: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾؟[1].

فقد لا يفهم البعض العلة في ذلك، ولكن عندما نعلم أن هذا القانون شرّعه إلهٌ حكيم عليم ودود رحيم، لا يريد إلا مصلحتنا في الدنيا والآخرة، نسلم بذلك ونؤمن به.

فالراسخون في العلم إن تمكنوا من أن يحلّوا مشكلة التشابه بالإحاطة العلمية فيها، وإن لم يتمكنوا فيحلّونها بقاعدة الإيمان و﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾: وهذه الجملة كأنها تعليل لقوله عزّ وجلّ: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ أي: المحكم من الله والمتشابه من الله أيضاً.

من له الحق في التأويل؟

يبقى أن نبحث في نقطتين:

الأولى: على ضوء الآية المباركة هل هناك من يحيط بعملية التأويل وكشف المراد الجدي من الآيات المتشابهة سوى الله سبحانه وتعالى؟

في الإجابة على هذا السؤال يوجد اتجاهان:

الأوّل: يرى الواو في الآية الكريمة للعطف.

الثاني: يرى أن الواو في الآية الكريمة للاستئناف.

---

(١) سورة النساء: ٣.

وحسب المبنى الأوّل يجب أن تُقرأ الآيةُ المباركةُ على هذا النحو: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ فالذي يعلم التأويل «الله» أولاً، وبتعليم الله ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ ثانياً، وكلمة يقولون تكون واقعة موقع الحال، وعليه فهكذا تكون الآية: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ - يعلمون التأويل- حال كونهم: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾.

يقول ابن مالك في ألفيته:

وذات بدء بمضارع ثبت حوت ضميراً ومن الواو خلت

كما لو قلنا: جاء فلان يضحك، فإن يضحك جملة فعلية واقعة موقع الحال.

وطبقاً للاتجاه الثاني: يجب أن تقرأ الآية الشريفة على النحو التالي: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ونقف، ثم نقول في جملة جديدة: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ فيكون الراسخون مبتدأ ويقولون خبر، وعليه فإن الراسخين في العلم لا يعلمون التأويل.

المعصومون عليهم السلام والعلم بالتأويل:

يبدو للنظر أن الاتجاه الأوّل هو الأقرب وذلك لعدة قرائن:

القرينة الأولى: التاريخ يشهد بعلمهم بالتأويل:

لم نجد طوال التاريخ أن أحداً أتى إلى النبي الأعظم صلى الله عليه وآله أو أحداً من أهل البيت عليهم السلام الذين هم أدرى بما نزل في البيت، سائلاً: ما معنى هذه الآية؟ فكان جوابه: لا أعلم لأن هذه من الآيات المتشابهات التي اختص الله بها!! بل كان العكس.

فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[١] فالنبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام كانوا مبيّنين، فلا يُسألون عن آية متشابهة إلا ويكون الجواب حاضراً عندهم.

وكان كبار العلماء يرجعون إلى أهل البيت عليهم السلام، بل أئمة المذاهب الأربعة كلهم عيال عليهم عليهم السلام، فقد قال أبو حنيفة تلميذ الإمام الصادق عليه السلام: لولا السنتان لهلك النعمان[٢] وكذا مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل كلهم تلاميذ أو تلاميذ تلاميذ الإمام الصادق عليه السلام.

وفي كثير من الحالات كبارهم- خلفائهم، قضاتهم- عندما كانوا يتورطون في آية أو حكم أو رواية كانوا يلجأون إلى أهل البيت عليهم السلام أو إلى تلاميذهم، فقد روى الكليني رضوان الله عليه في كتاب الكافي قصة ركب الجارية عندما جاؤوا إلى ذلك القاضي وسألوه مسألة حول ركب الجارية، فحار في الجواب وقال: إني أجد أذىً في بطني وتهرّب من الجواب، وجاء إلى أحد تلاميذ الإمام الصادق عليه السلام وسأله المسألة[٣].

---

(١) سورة النحل: ٤٤.

(٢) الطوسي، محمد بن الحسن، الخلاف، ج١، ص: ٣٣.

(٣) روي عن ابن أبي ليلى أنه قدم إليه رجل خصماً له فقال: إن هذا باعني هذه الجارية فلم أجد على ركبها حين كشفتها شعراً وزعمك أنّه لم يكن لها قط، قال: فقال له ابن أبي ليلى: إن الناس ليحتالون لهذا بالحيَل حتى يذهبوا به فما الذي كرهت؟ قال: أيها القاضي إن كان عيباً فاقض لي به، قال: حتى أخرج إليك فإني أجد أذىً في بطني، ثم دخل وخرج من باب آخر فأتى محمد بن مسلم الثقفي فقال له: أي شيء تروون عن أبي جعفر عليه السلام في المرأة لا يكون على ركبها شعر أيكون ذلك عيباً؟ فقال له محمد بن مسلم: أمّا هذا نصاً فلا أعرفه، ولكن حدثني أبو جعفر عن أبيه عن آبائه عليهم السلام عن النبي ﷺ أنه قال: كل ما كان في أصل الخلقة فزاد أو نقص فهو عيب. فقال له ابن أبي ليلى: حسبك ثم رجع إلى القوم فقضى لهم بالعيب. أصول الكافي، ج٥، ص: ٢١٥. ح١٢.

القرينة الثانية: روايات تشهد على عملهم بالتأويل:

لقد وردت روايات مأثورة في تفسير الآية المباركة تشهد بعلمهم بالتأويل، وهي كثيرة مذكورة في تفسيري البرهان ونور الثقلين وغيرهما من الكتب التفسيرية، منها:

١- عن بريد بن معاوية عن أحدهما- الباقر أو الصادق عليه السلام- في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ قال الإمام عليه السلام: رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل الراسخين في العلم قد علّمه الله جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل- ثم الرواية تشير إلى نقطة لطيفة وتقول- وما كان الله لينزل عليه شيئاً ولم يعلّمه أوصيائه من بعده يعلمونه كله[1].

فمع نزول الكتاب على قلب النبي صلى الله عليه وآله كيف يكون جاهلاً بتأويله؟

فهو أشبه بأن يكتب مؤلف كتاباً لا يعلمه إلا هو!!

وهذا العلم انتقل إلى أوصياء النبي الأعظم صلى الله عليه وآله.

٢- عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث: علّمني رسول الله صلى الله عليه وآله ألف باب من العلم يفتح لي من كلّ باب ألف باب ووصاني بما أنا قائم به إن شاء الله[2].

القرينة الثالثة: مناسبة الحكم والموضوع:

إنّ المناسبة في صفة رسوخ الأئمة عليهم السلام في العلم بالتأويل هي ما

---

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، ج١، ص: ٢١٣، ح٢.

(٢) الطبرسي الفضل بن الحسن، إعلام الورى بأعلام الهدى: ج١، ص: ٢٦٧.

يصطلح عليه في علم البلاغة: (مناسبة الحكم والموضوع)، إذ يجب أن تكون هناك مناسبة بين(المسند) (والمسند إليه) كقول الشاعر حول الكعبة:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

فمن(المسند إليه) وهو اسم إنَّ يمكن كشف طبيعة (المسند) الذي هو خبر إنَّ، فهناك مناسبة بين هذا المبتدأ وهذا الخبر.

فصفة الرسوخ في العلم تناسب العلم بالتأويل ولا تناسب عدم العلم به، فلو كان المراد أنّ الراسخين لا يعلمون التأويل لكان ينبغي أن يُقال: والمؤمنون يقولون آمنا به، لأن الإيمان يمثل حالة تسليم وحالة خضوع، ولكن حيث ذُكرت كلمة ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ فهي تناسب معرفة التأويل لا عدمها، فمن هذه القرائن وقرائن أخرى نستطيع أن نقول: إنّ الواو في الآية الكريمة هي للعطف.

العلماء وبعض مراتب التأويل:

النقطة الثانية: هل معرفة التأويل تختص بالمعصومين عليهم السلام أو يمكن للآخرين العلم بالتأويل أيضاً؟ ما يمكن أن يُقال على نحو الاحتمال والله أعلم بحقيقة الحال: إنّ معرفة التأويل من الحقائق التي لها مراتب مختلفة- ويعبّر عنها في علم المنطق بالحقائق المشككة[1]-، فالمرتبة العُليا من معرفة التأويل والتي هي عبارة عن المعرفة الكاملة والإحاطة التامة تختص بالنبي الأعظم صلى الله عليه وآله وبأهل البيت الطاهرين عليهم السلام، ولكنّ هذا

---

(١) «المشكك: هُوَ المتفاوتة أفراده في صدق مفهومه عليها، لذا فهُوَ متفاوت في الشدة والضعف أو الكثرة أو القلة أو الأولوية والتقدم، والعلم من الحقائق الكلية التي ينطبق عليها هذا المعنى. كتاب المنطق، المظفر محمد رضا، ج١، ص: ٧٠.

لا ينافي أن تكون هنالك مراتب من العلم بالتأويل يمكن لبعض العلماء الربانيين أن يعرفوها، وربما يؤيد ما ذكرناه ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام، يقول الراوي: «قلت لأبي جعفر- الباقر- عليه السلام: في قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ ما معنى هذه الكلمة؟ فقال عليه السلام: يعني تأويل القرآن كله»[1] فالمعرفة الكلية والمعرفة الإحاطية تختص بأهل البيت عليهم السلام[2].

---

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، ج١، ص: ٢١٣.

(٢) ذكر الشريف الرضي (ره) في كتابه حقائق التأويل أن العلماء انقسموا تجاه هذه الآية إلى ثلاثة أقسام: الأول: وقف على الواو وجعلها بداية جملة استئنافية وبذلك أخرج العلماء من أن يعلموا بكنه التأويل وحقائقه. الثاني: وقف على إلا واتخذ الواو على أنها عاطفة، لذلك أعطوا للعلماء ميزة الاشتراك بمعرفة التأويل. الثالث: وقف ما بين الأول والثاني على مسافة واحدة فلم يعطهم ميزة معرفة التأويل كل العطاء ولم يمنعها منهم كل المنع. ونحن إذا ما أردنا تمحيص هذه الآراء على ضوء تفسير هذه الآية المباركة والروايات الشريفة بتكون النتيجة: مَعَ ملاحظة أن معرفة التأويل من الحقائق التشكيكية التي لها مراتب مختلفة كما ذكر المؤلف رحمه الله آنفاً، وكذلك الرأي الذي ذكره الشريف الرضي رحمه الله في كتابه والذي يعطي مفهوماً بوجود إمكانية الاشتراك في المعرفة بالتأويل، كذلك توفر المصداق أو المصاديق لعنوان (الراسخون في العلم) الذي صرحت به الروايات الشريفة وذكره علماء التفسير آنفاً، إذا أردنا كنه المعرفة بالتأويل وحقيقته بتمامها فهذا منحصر بالنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته المعصومين عليهم السلام، وإذا أردنا بعض مراتب العلم بالتأويل بالأمر مشترك بين النبي وأهل بيته عليهم السلام وبين العلماء الذين أيضاً يصدق عليهم أنهم الراسخون في العلم، لكن كل بحسب نسبته ودرجته العلمية والمعرفية.

الآيتان

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً
إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ
فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران: ٨-٩.

المفردات

﴿لَا تُزِغْ﴾: الزيغ هو الانحراف. وزيغ القلب انحرافه.

﴿هَبْ﴾: الهبة: إعطاء الشيء بلا انتظار عوض.

﴿رَحْمَةً﴾: جيء بـ «رحمة» مُنكَّرة لأن الإنسان لا يعرف خيره من شره فعليه أن يجعل الرحمة موقوفة على الإدارة الإلهية.

﴿الْوَهَّابُ﴾: كثير الهبة.

﴿لِيَوْمٍ﴾: يوم القيامة ويوم الحشر(١).

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: الريب أخص من الشك، وهو الذي تختلط به حالة من سوء الظن.

﴿الْمِيعَادَ﴾: الوعد يكون في الخير والشر، يقال: وعدته بنفع وضر وعداً وموعداً وميعاداً، وأما الوعيد فهو في الشر خاصة.

---

(١) التقدير في هذهِ المفردة هُو (جامع الناس للجزاء في يوم لا ريب فيه) فلما حذف لفظ الجزاء دخلت على ما يليه فأغنت عن حرف الجر (في)لأن حروف الإضافة متوافية لما يجمعها من معنى الإضافة.

التفسير:

وقتية النعم المادية والمعنوية:

هل يتصف ما يملكه البشر من النعم والمواهب الإلهية بصفة الديمومة والثبات؟

الجواب كلا، ومع ذلك فإن الإنسان يتعامل مع المواهب الإلهية وكأنه يمتلكها وأنها باقية إلى النهاية!!

فمثل العين يتصور الإنسان أنها نعمة باقية إلى النهاية ولا يخطر في ذهنه أنها قد تسلب منه في يوم ما، ألا يرى البشر أنه يوجد أكثر من مليوني مكفوف في العالم- حسب بعض التقارير، كثير من هؤلاء كانوا في يوم ما مبصرين وفجأة سُلبت منهم هذه النعمة.. وهكذا كثير من المعوقين الراقدين في المستشفيات، في لحظة ما تصدمه سيارة فينقطع نخاعه الشوكي ويبقى مشلولاً إلى آخر حياته.

هذه النعم لا نملكها نحن البشر وإنما هي عطاء الله تعالى وتبقى إلى الوقت الذي يريده الله عزّ وجلّ بالطبع هذه الحقيقة الموجودة في النعم المادية توجد أيضاً في النعم المعنوية، الجاهلون يظنون أنهم في أمان، علماً بأن الأمن من مكر الله عزّ وجلّ من المحرّمات المذكورة في الفقه، قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1].

يظن الجاهل أنه يسير في طريق معبد وأن موهبة الإيمان والهداية باقية له إلى النهاية!! إلا أنّ الراسخين في العلم يشعرون بالخطر العظيم-

---

(١) سورة الأعراف: ٩٩.

وهذا من رسوخهم في العلم- فهم كمن يمشي على حافة هوة سحيقة أو على جبل خطر يحتمل السقوط في أية خطوة والهلاك في أية لحظة، إنّهم يسيرون في الحياة كمن يسير في منطقة مملوءة بالألغام في كلّ خطوة يمكن أن ينفجر لغم فيحوّل هذا الرجل إلى معوق حتى آخر حياته، أو تنتهي حياته فوراً[١].

التضرع طريق استمرار الهداية:

من عادة الراسخين في العلم أنهم يتوجهون إلى الله سبحانه وتعالى في ضراعة مرددين: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ فإنّ القلب السليم قد ينحرف بعد الهداية التي هي نور من الله عزّ وجلّ، وقد يسلب الله عزّ وجلّ هذا النور على أثر غفلة- كمن يقع من الجبل على أثر غفلة، قال تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾[٢] وفي آية أخرى ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾[٣].

وهنا يُطرح سؤالٌ هو: ما هي مناسبة الدعاء بالآيات المتقدمة؟

الجواب: إنّ في القرآن الكريم آيات متشابهات- من المتشابهات في عالم التشريع كما توجد متشابهات في عالم التكوين- يمكن أن تكون نقطة انحراف، لأن الفرد قد لا يفهم حكماً من الأحكام الشرعية فيؤدي الجهل به إلى الانحراف.. أو قد يقع الفرد في امتحان من الامتحانات الإلهية- تكون مقدمته اختيارية أو غير اختيارية- ففي الكافي الشريف في

---

(١) توجد هناك مناطق في الكرة الأرضية ملغمة وبعضها من آثار الحرب العالمية الثانية (منه رَحِمَهُ اللهُ).

(٢) سورة البقرة: ١٧.

(٣) سورة البقرة: ٢٥٧.

رواية موثقة: قال الإمام الصادق عليه السلام: «ومن همَّ بسيئة فلا يعملها فإنه ربما عمل العبد السيئة فيراه الله سبحانه، فيقول: لا وعزّتي وجلالي لا أغفر لك بعدها أبداً»[1].

متى تُسلَبُ روح الإيمان؟

وفي مضمون حديث آخر في الكافي الشريف: إنّ الّذي يزني، في حالة الزنى يسلب الله منه روح الإيمان، وإذا سُلبت روح الإيمان[2] فقد لا تعود فإنّ النعمة قلّما أدبرت عن قوم فأقبلت إليهم كما في حديث آخر[3]. ولذلك ورد في الحديث[4] أكثروا من قراءة هذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾.

ينتقل في أحوال الجد رحمه الله[5] أنّه كان ملتزماً بقراءة الدعاء التالي في

---

(١) عنه، عن ابن فضال، عن أبي بكير، عن بعض أصحابنا، عن أبي عبد الله قال: (من هم بخير فليعجله ولا يؤخره، فإنّ العبد ربما عمل العمل فيقول الله تبارك وتعالى: قد غفرت لك ولا أكتب عليك شيئاً أبداً ومن هم بسيئة فلا يعملها، فإنّه ربما عمل العبد السيئة فيراه الله سبحانه فيقول: لا وعزتي وجلالي، لا أغفر لك بعدها أبداً). الكليني محمد بن يعقوب، أصول الكافي، ج٢، ص: ١٤٢، ح٧.

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا زنى الرجل فارقته روح الايمان. قال: هو قوله: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ (ذاك الذي يفارقه). الفيض الكاشاني، محمد محسن، الأصفى في تفسير القرآن الكريم، ج٢، ص: ١٢٨.

(٣) محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسن بن محبوب، عن زيد الشحام قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: أحسنوا جوار نعم الله واحذروا أن تنتقل عنكم إلى غيركم أما إنها لم تنتقل عن أحد قط فكادت أن ترجع إليه، قال: وكان علي يقول: قلّ ما أدبر شيء فأقبل. الكليني، محمد بن يعقوب، فروع الكافي، ج٤، ص٣٨، ح٣.

(٤) عن سماعة بن مهران قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: أكثروا من أن تقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ ولا تأمنوا. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج٩١، ص: ١٨١، ح٨.

(٥) آية الله العظمى السيد ميرزا مهدي الحسيني الشيرازي (١٣٠٥ ـ ١٣٨٠هـ).

سجود الركعة الأخيرة من كل صلاة: «اللهم اجعل عواقب أمورنا خيراً»، فقيل له: لماذا تدعو بهذا الدعاء وأنت رجل معروف بالإيمان والتقوى وقد بلغت السبعين من العمر؟ فمثلك ممن قضى عمره في خط الإيمان والجهاد هل يحسّ بخطر؟ فقال رحمه الله: إنّي أخاف أن أكون ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾[1].

رجال سقطوا في التاريخ:

١- **الزبير**: رجل طالما كشف الكرب عن وجه النبي صلى الله عليه وآله كما قال أمير المؤمنين عليه السلام، وفجأة ولما شبّ ولده عبد الله وقع في منعطف اجتماعي[2] وكانت له طموحات في الحكم والقيادة، فسقط في الامتحان وخسر كل تاريخه وانتهى، وعندما جيء برأسه إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: سيف طالما كشف الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم قال: بشِّر ابن صفية وقاتله بأنهما في النار[3].

٢- **الشلمغاني**: عالم كبير ومتقدم على أهل زمانه اجتماعياً، ولكنه فجأة وقع في منعطف اجتماعي، فصدر اللعن من الناحية المقدسة بحقه وحق أتباعه فخسر آخرته ودنياه، حيث أخذه السلطان وصلبه[4].

---

(١) سورة النحل: ٩٢.

(٢) روى الصدوق في الخصال رواية الإمام الصادق عليه السلام تحت رقم ١٩٩ في الصفحة ١٥٧ أنّه قال: ما زال الزبير منّا أهل البيت حتى أدرك فرخه فنهاه عن رأيه.

(٣) الشيخ المفيد، الفصول المختارة، ص: ١٤٤.

(٤) من هامش كتاب فقه الرضا ص: ٤٥. محمد بن علي الشلمغاني- بالشين المعجمة والغين المعجمة- ويكنى أبا جعفر، ويعرف بابن أبي العزاقر- بالعين المهملة والزاي والقاف والراء أخيراً- وإليه تنسب العزاقرة، وكان متقدماً في أصحابنا مستقيم الطريقة، فحمله الحسد لأبي القاسم الحسين بن روح على ترك المذهب والدخول في المذاهب الردية وإحداث شريعة منها أن الله يَحلّ في كل إنسان على قدره، وظهرت منه مقالات =

٣- **العابد المعروف برصيصا**: البداية كانت نظرة واحدة- وهذه هي المقدمة الاختيارية نظرة واحدة فقط ولكنّها هي المنعطف في تاريخه- ثم بعدها ارتكب الفاحشة وعبد الشيطان- حيث سجد له- فكفر بالله تعالى وكان عاقبة أمره أن صلب فخسر دنياه وآخرته(١).

= منكرة، فتبرأت الشيعة منه، وخرجت فيه توقيعات كثيرة من الناحية المقدسة على يد أبي القاسم بن روح وكيل الناحية. قال الحافظ الذهبي في العبر: في سنة (٣٢٢) اشتهر محمد بن علي الشلمغاني ببغداد، وشاع أنه يدعي الألوهية وأنه يحيي الموتى وكثر أتباعه، فأحضره الوزير ابن مقلة عند الراضي بالله - فسمع كلامه- وقال: إنّ لم تنزل العقوبة بعد ثلاثة أيام - وأكثره تسعة أيام - وإلا فدمي حلال. ولما طُلِب هرب إلى الموصل وغاب سنين ثم عاد ودعا إلى الألوهية وتبعه - فيما قيل- الحسين وزير المقتدر ابن الوزير القاسم ابن الوزير عبيد الله بن وهب، وابنا بسطام، وإبراهيم بن أبي عون، فلما قبض عليه ابن مقلة كبس بيته فوجد فيه رقاعاً وكتباً مما قيل عنه. ويخاطبونه في هذه الرقاع بما لا يخاطب به البشر. فأحضر وأصر على الإنكار، فصفعه ابن عبدوس، وأما ابن أبي عون فقال: إلهي وسيدي ورازقي، فقال الرضي لابن الشلمغاني: أنت زعمت أنك لا تدعي الربوبية، فما هذا؟ فقال: وما علي من قول ابن أبي عون؟ ثم أحضروا غير مرة وجرت لهم فصول، وأحضرت الفقهاء والقضاء ثم أفتى الأئمة بإباحة دمه، فأحرق في ذي القعدة وضربت رقبة ابن أبي عون، ثم أحرق وهو فاضل مشهور صاحب تصانيف أدبية.

(١) روى الطبرسي في تفسير مجمع البيان الجزء التاسع في الصفحة ٤٣٨ عن ابن عباس قال: إنّه كان في بني إسرائيل عابد اسمه برصيصا، عبد الله زماناً من الدهر حتى كان يؤتى بالمجانين يداويهم ويعوذهم فيبرأون على يده، وإنّه أتي بامرأة في شرف قد جُنَّت، وكان لها إخوة فأتوه بها، فكانت عنده فلم يزل به الشيطان يزين له حتى وقع عليها فحملت. فلمّا استبان حملها قتلها ودفنها. فلمّا فعل ذلك، ذهب الشيطان حتى لقي أحد إخوتها فأخبره بالذي فعل الراهب، وأنّه دفنها في مكان كذا ثم أتى بقية إخوتها رجلاً رجلاً، فذكر ذلك له، فجعل الرجل يلقى أخاه فيقول: والله لقد أتاني آت فذكر لي شيئاً يكبر علي ذكره! فذكر بعضهم لبعض حتى بلغ ذلك ملكهم، فسار الملك والناس، فاستنزلوه فأقر لهم بالذي فعل، فأمر به فصُلب. فلمّا رُفع على خشبته تمثل له الشيطان فقال: أنا الذي ألقيتك في هذا، فهل أنت مطيعي فيما أقول لك أخلصُك مما أنت فيه؟ قال: نعم. قال: اسجد لي سجدة واحدة. فقال: كيف أسجد لك وأنا على هذه الحالة؟ فقال: أكتفي منك بالإيماء. فأومى له بالسجود فكفر بالله، وقتل الرجل.

المطالبة من الله تعالى:

هذا هو الخطر الذي يشعر به الراسخون في العلم فيتضرعون بالله قائلين﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ ولكنهم لا يقتصرون على هذا الدعاء بل هناك قاعدة عامة في التعامل مع الله سبحانه وتعالى وهي الأخذ والمطالبة منه، لأنه القادر المطلق، الكريم المطلق، فكان لا بد من عدم الاقتصار على طلب عدم الزيغ بل طلب أمر آخر أيضاً، فيضيفون على ذلك قولهم: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ الثبات أولاً والرحمة ثانياً.

رحمة مبهمة:

ما هي الرحمة التي يطلبها الراسخون في العلم؟

هذه الرحمة نكرة وليست بمعرفة، قال تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ ولعلّ العامل في تنكيرها أن المؤمن لا يعرف ماذا يحتاج إليه، فهو يعرف بعض الأشياء التي يطلبها من الله سبحانه وتعالى، ولكنّه يجهل أكثر الأشياء، ولذلك ورد في دعاءٍ أنّ المؤمن عندما يسأل الله سبحانه وتعالى عليه أن يقول هكذا: «اللهم إني أسألك من كل خير أحاط به علمك»[1].. فما هو ذلك الخير؟ لا نعلم.

بل في بعض الأحيان نطلب من الله ما نتصوره خيراً بينما يكون ذلك شراً لنا، فقد يطلب المرء أولاداً من الله ويتصور أن خيره في ذلك وإذا بالطفل يكون كعبد الله بن الزبير الذي قاد والده إلى جهنم.

لذا كانت الرحمة مبهمة، وحتى لو طلبنا من الله سبحانه شيئاً معيناً

---

(١) الطوسي، محمد بن الحسن بن علي بن الحسن، مصباح المتهجد، ص: ٥٠.

يجب أن نعلّقه على الإرادة الإلهية، فنطلب ما نتصوره رحمة، ولكن نجعل الأمر موقوفاً على إرادة الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ لم نطلب شيئاً في غير محلّه، بل الذي طلبنا منه هو الكريم وهو الوهّاب والوهّاب يعني: كثير الهبة أي: من يعطي بلا انتظار عوض.

كيف نتغلب على الشهوات؟

تذكر الآخرة الوقاية والعلاج:

أما الدعاء الأخير للراسخين في العلم فهو: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ حيث يتوجه الراسخون في العلم في هذا المقطع بقلوبهم إلى ذلك اليوم الذي لا ريب فيه: يوم القيامة ويوم الحشر.

ولكن ما هو موقع هذا الدعاء في هذه الأجواء؟

في الجواب نقول: الالتفات إلى يوم القيامة يشكّل أهم ضمانة لاستقامة المؤمن، إذ إن الفرد ضعيف وأهوائه وشهواته القوية تضغط عليه، فتسلب منه عقله الذي طالما أعطاه حالة الثقل والسيطرة على النفس، ولكن عندما تهيج الشهوة قد يغلب العقل فتتخبط رؤية الإنسان ويفقد السيطرة على إرادته.

وبعض الشهوات عنيفة جداً يصعب التغلب عليها، منها الشهوة الجنسية وشهوة الرئاسة والمال و...، ففي الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «حبّ الرئاسة رأس المحن»[1]، بحيث تُرتكب

---

(١) مستدرك الوسائل، ج١١، ص: ٣٨٣، ح٩.

ملايين المحرّمات لإرضائها، فالعلاقات الاجتماعية تضغط على الإنسان بقوة ومن الصعب جداً عدم الرضوخ لها، فقد يرى الفرد أنه أصبح وحيداً، فهذا أصبح ضده، وذلك الصديق متبرأ منه، فيكون كأبي ذر الغفاري رَحِمَهُ اللهُ الّذي عاش وحده ومات وحده[1]، فقد يريد الإنسان أن يكون مقبولاً في المجتمع إلا أنّ الوظيفة الشرعية أحياناً تفرض عليه أن يجهر بالحق، فإن جهر به خسر جميع علاقاته الاجتماعية وأصبح منبوذاً في المجتمع وهذه حالة مؤذية جداً، وما أصعب أن يشعر الإنسان أنّه منبوذ في عائلته كامرأة ترى أنّ زوجها لا يعتني بها ولا يحبها ولا يلتفت إليها، أي حالة تحدث في قلب هذه المرأة؟

إنّ الضغوط الاجتماعية ضغوطاً هائلة، ولكن ماذا يفعل الفرد حينما تقتضي الوظيفة الشرعية أن يتخذ هذا الموقف أو ذاك؟

هنا يوجد خطر الانحراف، والذي يقف أمام هذا الخطر هو تذكر ذلك اليوم الذي لا ريب فيه. فيقول الإنسان لنفسه: إن خسرت هذه العلاقات الاجتماعية فقد خسرت الدنيا ولكني ربحت الآخرة، هذه الشهوة تجاوزتها ولكني ربحت الجنّة، هذه المرأة خسرتها ولكن ربحت رضا الله تعالى...

فلا بد من هذا الدعاء في هذه الأجواء: «ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه».

والريب أخص من الشك فهو الشك الذي تختلط به حالة من سوء

(١) قال عبد الله بن مسعود: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبي ذر الغفاري: (تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك) الأميني، عبد الحسين، الغدير، ج٨، ص: ٣١٤.

الظن، فلا يقال ريب إذا حصل الشك في نزول المطر غداً، ويقال ريب إذا سيء الظن برجل أنّه ربما يكون قاتلاً.

﴿لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾: الكفّار يرتابون في يوم القيامة إلا أنّ ما وعد به الأنبياء صدق وليس بكذب، كما زعم عمر بن سعد لعنه الله حيث قال: «يقولون إنّ الله خالق الجنّة ونار. . .» إلى أن يقول:

فإن صدقوا فيما يقولون إنني أتوب إلى الرحمن من سنتين!!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ هذه ربما تكون بمنزلة العلّة أو الدليل حيث الله وعد، والله لا يخلف الميعاد: لأنّه ليس بجاهل ولا ناسٍ ولا عاجز، أما من يخلف الميعاد: فهو إما جاهل أو ناسٍ نسي الوعد فأخلفه، أو عاجز عن الالتزام بوعده.

القميان والخوف من الآخرة:

لا بأس أن نذكر شواهد من التاريخ الحاضر لنرى كيف أنّ تذكُر الآخرة ـ اليوم الذي لا ريب فيه ـ يحفظ المؤمن أمام هذه الضغوط الهائلة:

١- جاء السيد حسين القمي رحمه الله إلى كربلاء المقدسة ولم يكن له بيت، فأضافه أحد وجهاء كربلاء في بيته، فبقي السيد القمي رحمه الله فترة طويلة هناك، وكان الرجل يقوم بخدمته، وبعدها انتقل إلى بيت آخر، ثم بعد فترة حدث خلاف على أرض بين رجل وبين ذلك الوجيه الذي كان القمي رحمه الله ضيفاً عنده فاتفقا على أن يحكم بينهما السيد القمي رحمه الله والوجيه مسرور لكونه ذا فضل على السيد وله يد عليه فلا بد أن يراعي جانبه.

جاء المتنازعان وعرضا الأمر، والسيد القمي استمع بإمعان إليهما، ثم التفت إلى الوجيه وقال له: أنا أشكرك على ما تحملت من العناء طوال تلك المدة وأنا معك في كل شيء ولا أفارقك! ولكن: لا أدخل لأجلك في جهنم، الحق ليس معك وإنما هو مع خصمك!.

كثير من الناس لو تعرّضوا لمثل هذا الموقف يشعرون بالحرج وصعوبة إظهار الحق، وكثير من الأفراد يدخلون جهنّم بسبب علاقاتهم الاجتماعية، ولكن على المؤمن أن يقول: وإن أصبح هذا عدواً لي لا بأس بذلك فإني لا أعيش في هذه الدنيا إلا فترة قليلة وتنتهي هذه الدنيا، وقد نقل أنّه زادت علاقة الوجيه بالسيد القمي رحمه الله بعد تلك القضية مع أنّه حكم ضده.

٢- الروحية التي كانت في السيد القمي رحمه الله انتقلت إلى ابنه السيد تقي القمي وهكذا يورث الآباء أبنائهم:

يُنقلُ أنّ السيد القمي بعيدٌ عن الكذب إلى أبعد الحدود، مع أنّ الإنسان قد يقع في الحرج ولا طريق له للتهرب من الكذب، فهنا يدور الأمر بين الله جلّ جلّاله وبين المجتمع، فهل يخسر رضا الله تعالى ليرضي الناس فيكون مصداقاً لقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]، أو يكون مثل الحر الرياحي الذي قال: إني أخير نفسي بين الجنّة والنار؟ ولذلك كان يرتجف ـ هذه رعشة القرار الصعب ـ القرار الذي لم يتخذه أحد من قواد الجيش المنتصر في التاريخ فيما نعلم، ومن الطبيعي أن يرتعش من يرى أنّه مخيّر بين الموت والخلود في الآخرة أو

(١) سورة النحل: ١٠٥.

الحياة والعيش الهنيء في الدنيا، فأحياناً يرى الإنسان نفسه بين الجنة والنار ولا بد أن يختار بينهما، هنا قضية الإيمان باليوم الآخر تعينه في هذا الموقف.

كذلك كان السيد القمي لا يفتي مع أنه مجتهد وقد قضى من عمره سبعين عاماً في الخط العلمي، وعندما طبعت رسالته العملية جمعها وأتلفها، فقيل له: لماذا؟

قال: كلما أتذكر القبر وسؤال الله عندما أقف بين يديه: لماذا أفتيت بهذه الفتيا، يرتعش بدني ولا أتمكن أن أتحمل ذلك..

وفي المقابل نرى شخصاً لم يقرأ من العلم شيئاً يجلس ويفتي في العقائد والأحكام والتشريعات وفي كل شيء، فيقول: بنظري هكذا.

ولا يخفى أنّ الفقيه المطمئن بينه وبين الله سبحانه إن توصل إلى قناعة في مسألة يحق له أن يفتي فيها، ففقهاؤنا عندما يتوصلون إلى قناعة يفتون، ولكن لاحظوا تذكر الآخرة ماذا يصنع بالمؤمن، خوف أن يكون هنالك نوع من القصور أو التقصير في المقدمات.

فيجب أن ننّمي في أنفسنا حالة التوجه والالتفات إلى الآخرة التي﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾﴾[1] فإن نمّينا هذه الحالة نتمكن أن نتغلب على ضغوط الشهوات وضغوط المطامع والضغوط الاجتماعية وبالتالي نضمن استقامتنا في طريق الإيمان إن شاء الله تعالى.

---

(١) سورة الواقعة: ٢.

الآيات

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ
أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ
ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ
وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ
وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ
ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ
كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ
مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾(١).

---

(١) سورة آل عمران: ١٠-١٣.

المفردات

﴿لَن تُغْنِيَ﴾ : لن تجدي ولن تنفع من عذاب الله وبأسه ونكاله في الدنيا والآخرة.

﴿وَقُودُ﴾ : آلة الإيقاد والوسيلة التي توقد بها النار.

﴿كَدَأْبِ﴾ : الدأب هو المنهج والطريقة الدائمة.

﴿فَأَخَذَهُمُ﴾ : عاقبهم.

﴿تُحْشَرُونَ﴾ : الحشر يعني جمع جماعة وسوقهم باتجاه هدف معين.

﴿ٱلْمِهَادُ﴾ : المكان الذي مهد حتى يستقر فيه الإنسان كالفراش.

﴿ءَايَةٌ﴾ : علامة واضحة.

﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ : ضعفهم.

﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ : حقيقة واضحة ولم يكن خيالاً ولا توهماً.

﴿يُؤَيِّدُ﴾ : التأييد هو التقوية.

﴿لَعِبْرَةً﴾ : العبرة هي الانتقال من شيء إلى شيء آخر، والدمع إنما يقال له عبرة لأنه ينتقل من الأجفان إلى الخد، والكلام يقال له تعبير لأنه

ناقل للمعاني، فعندما يرى الفرد ظاهرة عليه أن لا يجمد عليها بل ينتقل إلى مدلولاتها.

﴿ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾: الرؤية بالقلب لا العين الظاهرية.

الإعراب:

يرونهم مثليهم: فيه بحث طويل، فمن يرى من؟ هل الكفار يرون المسلمين ضعفهم أو المسلمون يرون الكفار كذلك؟

إحدى الاحتمالات هو أن يعود ضمير الفاعل في يرونهم إلى المسلمين، وضمير المفعول إلى المشركين، أي إن الكفار هم ضعف المسلمين.

التفسير:

المدخل:

أشرنا سابقاً إلى أن هذه السورة المباركة أو على الأقل ثمانين آية منها نزلت في أجواء تحديات كبرى كانت تعيشها الفئة المؤمنة في المدينة المنورة، هذه الآيات الأربعة تتناول السناد الّذي تستند إليه الجبهة الكافرة والمصير الذي ينتظر هذه الجبهة، إذ إنّ كلّ إنسان في هذه الحياة يحتاج إلى سند ويحتاج إلى سناد يعتمد عليه.

الله عزّ وجلّ سند المؤمن:

السند الذي يعتمد عليه المؤمنون واضح وهو الله سبحانه وتعالى، ففي الحديث عن الإمام زين العابدين عليه السلام: إنه لو هلك جميع أهل العالم

ولم يبق أحد من البشر في هذه الحياة ما كنت لاستوحش ما دام كتاب الله معي[1].

ولكنّ الكفّار الّذين قطعوا ارتباطهم بالله سبحانه وتعالى لا يوجد لهم ذلك الركن الشديد الذي هو الله عزّ وجلّ ولذلك يعتمدون على ما يتصورونه ركناً.

المال والرجال ركنا الكفار:

سؤال يطرح هنا وهو: الكفّار الّذين قطعوا ارتباطهم بهذا الركن الشديد، ما هو ركنهم الذي يستندون إليه؟

الجواب: إنّ الّذين قطعوا ارتباطهم بما وراء الطبيعة يضطرون إلى الاستناد إلى ركنين في إطار عالم الطبيعة:

الأول: القوة الاقتصادية، وهي تمثل الوسيلة للإنسان الكافر فيشعر أنه قوي بأمواله وأنها طريقه لفعل كل شيء ولوصوله إلى مبتغاه.

الثاني: القوة البشرية أي الأفراد، الرجال والأولاد- فقد ذكر في أحوال فرعون أنه كان مغسّلاً للأموات متواضعاً بسيطاً، ولكنّه وصل إلى مقام ومرتبة ادعى فيها الربوبية قائلاً: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[2] فيا ترى من الّذي أوصله إلى هذا الموقع؟

الجواب: المال الذي كان تحت يديه والرجال الّذين كانوا ورائه هما

---

(١) عن الزهري قال: قالَ عليُّ بنُ الحسينِ عليه السلام: [لو مات ما بينَ المشرق والمغرب لما استوحشت بعد أن يكون القرآن معي..] العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، ج١، ح٢٣.

(٢) سورة النازعات: ٢٤.

اللذان أوصلاه إلى هذا الموقع، فكان يقول: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾[1] وكذلك صدّام العصر الّذي ظهر ضعفه وعجزه عندما قبضوا عليه فتعجب الجميع: لأن هذا الطاغية الّذي أرهب العالم وقتل الملايين يظهر بمظهر الضعيف المختبئ في جحر من الجحور؟ فمن الذي صنع من هذا الرجل الضعيف طاغوتاً جباراً؟

الجواب:

١- الأموال التي كان يملكها.

٢- الرجال أو أشباه الرجال الّذين كانوا وراءه.

فقلب الكفّار قوي بهاتين القدرتين.

هل يصمد ركنا الكفّار أمام القوة المطلقة؟

والسؤال هنا هو: أن هاتين القدرتين- الاقتصادية والبشرية- التي تقف وراء الكفّار، هل تغنيان عنهم شيئاً؟

والجواب: إن هناك حالتين:

١- قد يكون في قبال الجبهة الكافرة إنسان ضعيف عندها يمكن مواجهته بالأموال والرجال.

٢- قد يكون في قبال الجبهة الكافرة القوة المطلقة التي بيدها كلّ شيء، عندها لا يمكن مواجهتها بالأموال والرجال.

فهل تغني هذه الأموال؟ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ اعتمدوا على

---

(١) سورة الزخرف: ٥١.

قوتين؛ قوة المال وقوة الأفراد، كما نرى الآن القوى العظمى الحاكمة في العالم إنما تعتمد على:

الثروات الضخمة التي ربما لم تشهد دولة لها مثيل في التاريخ المدوّن، وعلى الجيوش التي تقف خلفها، وبهما تتقدم وتبطش وتفرض رأيها وتفعل ما يحلو لها، ولكن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ هذه القدرة الاقتصادية، ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾: هذه القدرة البشرية: لأن الّذي في مقابلهم هو القدرة الإلهية المطلقة ولا يمكن للأموال والجيوش والأولاد أن تقف أمامها.

الوثوق بالأبناء:

هناك ملاحظتان جديرتان بالتأمل:

الأولى: القرآن الكريم لا يعبّر عن القوة البشرية بالرجال أو الأفراد وإنما يعبّر عنها بالأولاد، وذلك لأمرين:

أ ـ قد يكون لأن الأولاد أقوى وأقرب وأكثر من يطمئن إليهم الإنسان، إذ الصديق يمكن أن يخون، كذلك الجندي البعيد، ولكنّ العلاقات العاطفية التي توجد بين الأبناء والآباء عادة تمنع الخيانة، ولذلك غالباً ما يعتمد الأفراد على أولادهم أكثر من اعتمادهم على الآخرين..

ب ـ وقد يكون الاعتماد على الأولاد يمثل ظاهرة عامّة، فليس للأكثر رجال أو جيوش يعتمدون عليها، إلا أنّهم يملكون من الأموال بمقدار ويوجد عندهم أولاد يعتمدون عليهم.

الثانية: هناك احتمالان في معنى عدم الإغناء:

الأول: ذهب بعض المفسرين إلى أنّ عدم الإغناء المذكور في هذه الآية المباركة بمعنى عدم الفائدة والنفع في الآخرة، فمن الممكن للكفّار أن يحققوا بعض مآربهم في الحياة الدنيا، ولكن في الآخرة المعادلات كلها تتبدل، فالمال يصبح لا قيمة له: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾[1] حيث تخرج الأرض ما في جوفها لأن المعادلات تتبدل، كما تتبدل العملات السابقة لدى تبدل الحكومات التي تُسقط في نظامها الجديد القوة الشرائية للعملات السابقة، فلا تبقى لتلك العملات أية قيمة، لأن القدرة الشرائية كانت لزمن آخر ومعادلات سابقة، أما في الوضع الجديد فلا تنفع ولا تجدي شيئاً.

وكذلك الأمر في الآخرة حيث تتبدل المعادلات: المال والذهب لا قيمة لهما، حيث لا ينفع شيء من الله سبحانه وتعالى وكذلك الجيوش والأولاد: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾[2] فيأتي أمثال فرعون وصدّام يوم القيامة وحدهم لا جيش معهم ولا ينفعهم الأفراد ولا الأولاد: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦﴾[3].

الثاني: شمول الآية للدنيا أيضاً، فلن تغني عنهم حتى في هذه الدنيا..

ينقل أن حاكما دخل مدينة وأخذ يدمرها، فجاءته امرأة كبيرة في

---

(١) سورة الزلزلة: ٢.

(٢) سورة الأنعام: ٩٤.

(٣) سورة عبس: ٣٤-٣٦.

العمر وقالت له: لماذا تدمر وتقتل، أنت الفاتح والمدينة بيدك ألا يكفيك هذا؟

قال الحاكم: ألم تسمعي قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾[1].

قالت العجوز: نعم سمعت الآية ولكن هنالك آية أخرى أيضاً، وهي: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾[2] ولما سمع الملك الآية من العجوز- إما ليقظة ضمير أو لعامل آخر- أمر جيشه بالكفّ عن الإفساد..

بل هناك العديد من الحضارات التي سادت ثم بادت، ومنها:

١- أقرب حضارة منّا التي كانت ترهب الدنيا برؤوسها النووية التي تكفي لتحطيم الكرة الأرضية عدة مرات، حتى أن البعض في يوم من الأيام كانوا يتخوفون أن تسيطر هذه الحضارة على جميع الكرة الأرضية، وإذا بهذه الحضارة تنتهي ويتحول الاتحاد السوفياتي إلى عدة دول من دول العالم المتخلّف.

٢- الامبراطورية التي لم تكن تغرب عنها الشمس تحوّلت إلى دولة من الدول العادية.

إذن الأموال والجيوش لا تغني أمام الله سبحانه وتعالى حتى في هذه الدنيا فلا تغني: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي لا تغني من عذابه وبأسه ونكاله في الدنيا والآخرة.

---

(١) سورة النمل: ٣٤.

(٢) سورة النمل: ٥٢.

الكافر آلة إيقاد النّار:

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ هناك فرق بين كلمة فَعول- بفتح الفاء-، وكلمة فُعُول- بالضم- ففَعُول تعني الآلة، وفُعُول تعني العمل، وهما مثل الفرق بين الوَضوء والوُضوء، فالوُضوء: يعني عملية الوضوء، أي غسلتان ومسحتان، والوَضوء يعني آلة العملية، أي الماء الذي يتوضأ به، كذا الفرق بين الفُطور والفَطور، فإنّ الفُطور هو عملية الإفطار في شهر رمضان على التمر مثلاً، والفَطور يعني الوسيلة التي تتم بها عملية الإفطار وهو التمر: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ الوَقود آلة الإيقاد كالحطب والنفط والبنزين، والكفّار مضافاً إلى أنّ أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم من الله شيئاً، مصيرهم في الآخرة أنهم﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾، بالطبع هناك فرق بين أن يحترق شخص بالنار وبين أن يكون الوسيلة التي توقد بها النار، وقد تشير هذه الكلمة- والله أعلم- إلى أن نار جهنّم ليس عذاباً من الخارج وإنّما الكفّار بأنفسهم يوقدون هذه النّار، فآلة الإيقاد هم هؤلاء كما في آية أخرى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[1] وقد احتمل البعض أن يكون المقصود بالحجارة الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، فهي تشعل جهنّم وهم أيضاً وقود جهنّم، فلا يغتر الكافر بقدراته الاقتصادية والبشرية لأن هذه مصيره.

معرفة التاريخ والنظرة الشاملة

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾[2].

---

(١) سورة البقرة: ٢٤.

(٢) سورة آل عمران: ١١.

مدخل:

هناك مسألة تتكرر في القرآن الكريم وتلاحظ دائماً، وهي أن القرآن يربط الحاضر بالماضي، وذلك لأن الأفراد على نوعين:

١- صاحب النظرة الناقصة.

٢- صاحب النظرة الشاملة.

فمن يعيش الحاضر يؤطر الحاضر فكره من حيث الزمان والمكان، فهما يمثلان سجنين للفكر، فمن يفتح عينيه على حضارة قائمة بيدها القوة والقدرة وتبطش: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾[1] يغلّف الحاضر تفكيره كما لو جلس الشخص في غابة ونظر إلى شجرة أو عدة أشجار وظن أن الغابة هي هذه الأشجار.

أما لو أراد أن تكون له رؤية كاملة فلا بد أن يحلّق في طائرة ليرى الغابة بأجمعها، فالنظرتان مختلفتان، حيث إن الأولى ناقصة محدودة، والثانية شاملة.

علم التاريخ يعطي للفرد النظرة الشاملة، ونحن عندما نفتح أعيننا على حضارة بيدها الآن كل شيء نتصور أنها خالدة ولن يأتي يوم تنتهي فيه هذه الحضارة، ولكن الذي له نظرة تاريخية يختلف رأيه، الإنسان بدراسة التاريخ يكشف السنن التاريخية.

وليس هذا من قياس ظاهرة على ظاهرة أخرى وإنما من خلال التاريخ نكتشف القانون العام، مثل ما يذكره علماء الطبيعة من أن الماء يتركب من أوكسجين وهيدروجين، فهل أنهم درسوا جميع ذرات المياه في العالم؟

---

(١) سورة الشعراء: ١٣٠.

الجواب: كلا، ولعله لا يمكن ذلك، إلا أنهم لاحظوا مجموعة من العينات وبطرق معينة وتوصلوا من هذه الجزئيات إلى القانون الكلي.

ونحن عندما ندرس التاريخ لا نقيس ظاهرة بظاهرة وإنما نكتشف السنة الإلهية العامة التي تسيّر التاريخ، فننتقل من الجزئي إلى الكلي، ثم نطبق ذلك الكلي على جزئياته الأخرى.

وقد دعا القرآن الكريم الكفار إلى عدم الانخداع بقدراتهم.. حيث كانت لهم قدرات ضخمة في مقابل المؤمنين وفي مقابل النبي الأعظم ﷺ إذ كانت الحضارة الرومية حضارة عالمية وكذلك حضارة الفرس وكانت بيد اليهود قلاع وثروات وارتباطات هائلة، إلا أن القرآن يدعو إلى عدم الانخداع بهذه الظواهر من خلال مراجعة التاريخ.

لماذا آل فرعون؟

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ الدأب هو المنهج والطريقة الدائمة، فمنهج هؤلاء الكفّار المعاصرين كمنهج الّذين تقدموهم ومصيرهم كمصيرهم، وربما ذكر آل فرعون ولم يذكر فرعون لأن هذا الطاغية رجل ضعيف ليس بيده شيء وإنّما المهم آله الّذين كانوا خلفه حيث إنهم هم الّذين أعطوه هذه القوة والقدرة.

الحضارة الفرعونية على قمة الحضارات:

يوجد احتمالان في علّة التمثيل بآل فرعون:

١- ذهب بعض العلماء إلى أن الخطاب مع اليهود في هذه الآية: الله يذكرهم بتجربتهم التاريخية لأنّهم عانوا ورأوا مصير الكفّار.

٢- يحتمل- والله أعلم- أن الحضارة الفرعونية إحدى أقوى

الحضارات في التاريخ المدوّن، هذه الأهرامات المبنيّة في مصر لا يمكن لأعظم مهندسي العالم مع كلّ التقدم العلمي وكل التقنيات الحاضرة أن يصنعوا مثلها- كما قرأت في تقرير-، فبأي حضارة صنعت هذه الأهرامات؟

البعض يحتمل أن الفراعنة كانت لهم حضارة متقدمة علينا بكثير ويحتمل أنه كانت لديهم ارتباطات بقوى خارج نطاق الطبيعة، هذه الصخور العملاقة كيف حملوها إلى هذا المكان رغم بُعد المسافة؟ هذه قضية محيرة في التاريخ، لعل الله سبحانه يستشهد بهذه الحضارة لأنها تمثل حضارة قوية: ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الحضارات المتقدمة: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ اعتمدوا على قوتهم وعلى أموالهم ولكن: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي عاقبهم وطبعاً هذا الأخذ كما يبدو لم يكن في الآخرة فقط وإنما كان في هذه الدنيا أيضاً حيث دُمّروا تدميراً في هذه الدنيا: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ قُل﴾ الله تعالى أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة، وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة(١)، فلا يظن الكفّار أن العقاب الإلهي عقاب هيّن يمكن للفرد تحمله.

الغلبة للحق وإن ضعف ناصروه:

بعد التعرض إلى هذه السنّة التاريخية، يتوجه السياق القرآني إلى الكفّار المعاصرين للنبي الأعظم ﷺ أو لجميع الكفّار على امتداد العصور: بـ ﴿قُل﴾ يا رسول الله ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾ في هذه الدنيا وهذا يؤيد أن عدم الإغناء يشمل الدنيا أيضاً: ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ هزيمة في الدنيا ونكالاً إلهياً في الآخرة، ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

---

(١) كما ورد في دعاء الافتتاح.

ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية نزلت بعد غزوة أُحد حينما خالف بعض المسلمين أمر النبي الأعظمﷺ ومُنِيَ المسلمون بهزيمة فادحة كاد الكفّار أن يقضوا فيها حتى على النبي الأعظمﷺ، ولولا سيف الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام، وثلّة قليلة من الّذين ثبتوا لانتهى الإسلام ولم يُعبد الله تعالى في الأرض بعد ذلك.

آنذاك انتعشت آمال الكفّار وأصبح المسلمون في موضع الضعف، فاليهود- مع أنّه كانت لهم حلف ومعاهدة مع النبي الأعظمﷺ- نقضوا العهد وخرج ستون شخصاً منهم مع كعب بن الأشرف أحد وجهائهم إلى مكة وتحالفوا مع المشركين، وفي هذا الموقف الّذي يبدو ضعيفاً، يقول: القرآن الكريم: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لا يغرنّكم هذا الضعف الظاهري للمسلمين ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ وفعلاً هذا هو الّذي تحقق، فاليهود كلهم غُلِبُوا: بنو النضير، وبنو قينقاع، ويهود خيبر الّذين تآمروا ضد المسلمين كلهم غُلِبُوا.. وقلعة الشرك التي كانت مكة افتتحت بعد فترة قليلة..

ولا يخفى أن حرف «السين» تدل على المستقبل القريب و«سوف» تدل على المستقبل البعيد، عاصمة الشرك تحطمت بعد وقت قريب، وهذه من إعجازات القرآن الكريم، وهنا ملاحظة ينبغي الدقّة فيها وهي أن الأفراد حتى القائد والحاكم عندما يتكلمون إنما يتكلمون مع ليت ولعل لأنهم لا يحيطون بالمستقبل ولكن عند ملاحظة القرآن الكريم نجده يتحدث بقاطعية كاملة وهذه من دلائل كونه من عند الله سبحانه.

معركة بدر والتأييد الإلهي:

القرآن الكريم هنا يستشهد بقضية بدر: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ وآية: العلامة الواضحة، ﴿فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

المؤمنون، هذه الفئة تعمل من أجل الله تعالى ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ المشركون﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ في هذه الضمائر بحث طويل، من يرى من؟ هل الكفّار يرون المسلمين أو المسلمون يرون الكفّار؟ وإحدى الاحتمالات في يرونهم: أنّ ضمير الفاعل يعود إلى المسلمين وضمير المفعول يعود إلى المشركين: ﴿رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ حيث لم يكن خيالاً ولا توهماً، بل كانت حقيقة واضحة وربما كلمة ﴿رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ تؤيد هذا الاحتمال الذي ذكرناه، إذ كان المسلمون في بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر، والكفّار ألفاً، هذا من ناحية العدد، وأما من ناحية العُدّة فالمسلمون كانوا مجموعة ما يصطلح عليهم بالحفاة- بالمعنى المجازي للحفاة-، المؤرخون يذكرون أن المسلمين الّذين جاؤوا في قبال هذه الجبهة الكافرة في بدر كان لهم عدد قليل من الفرسان والبقية كلهم مشاة، والمشركون كان لهم مائة فرس، والمسلمون كانت لهم من الدروع- التي توضع للوقاية وتحمي المقاتل- ستة فقط والبقية جاؤوا بثيابهم، وسيوف المسلمين ثمانية والكفار مدججون بالأسلحة، ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ اعتمادهم على الله وهدفهم رضاه وإن لم يكن معهم شيء من الناحية الظاهرية﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ فئة كافرة بالله تعالى﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ ضعفهم ﴿رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ يعني المسلمون كانوا يعلمون أن هؤلاء ضدهم وهم أكثر عدداً.

فتارة الفرد لا يعلم عدد العدو ولكنّه لو علم قد ينهار انهياراً، إلا لو اعتمد على القوة المطلقة فيرى نفسه المنتصر لا محالة، ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ﴾ والتأييد يعني التقوية، هذه الفئة كانت فئة ضعيفة ولكن أيّدها الله يعني قوّاها، ضعف في العدد وضعف في العُدّة ولكنْ وراؤهم التأييد

الإلهي﴿مَن يَشَآءُ﴾ ولا تكون المشيئة الإلهية عبثاً وإنما تكون لحكمة وفي المحل القابل.

الاعتبار: النظرة الواقعية لآية ظاهرة:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ في هذا الانتصار، انتصار الفئة المؤمنة الضعيفة على الفئة الكافرة القوية﴿لَعِبْرَةً﴾ والعبرة معناها عدم جمود الفرد على الظاهرة كظاهرة مادية بلا روح وإنما ينتقل إلى الروح الكامنة وراء هذه الظاهرة، ولذلك يقال للدمع: عبرة لأنه ينتقل من الأجفان إلى الخد أو من داخل العين إلى خارجه، وكذلك يقال للكلام تعبير وعبارة: لأنه ناقل للمعاني، فالانتقال من ظاهرة إلى مؤداها هو العبرة كما في مرور أمير المؤمنين عليه السلام على إيوان كسرى في المدائن، فقرأ هذه الآية ـ ليعتبر أصحابه ـ ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝٢٨ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾[1] وهذا الموقف هو موقف المعتبر، وأما الموقف الآخر فهو موقف من يذهب إلى إيوان كسرى ويرى الظاهر ويلاحظ علو هذا المكان والهندسة البنائية فيه، وهذه النظرة لا عبرة فيها أبداً.

مثال آخر: تارة يرى الفرد جنازة ميت يأخذونه للقبر: هذه نظرة لا عبرة فيها، وتارة يفكر أنا أيضاً في يوم من الأيام أحمل في جنازة: هذه نظرة اعتبارية، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ الذين لهم بصر، ولا يراد بالبصر العين الظاهرية والإبصار الظاهري، وإنما يراد به الإبصار بالقلب.

---

(١) سورة الدخان: ٢٥-٢٩.

بين الأسباب الغيبية والمعادلات الدنيوية:

وقفة أخيرة على ضوء الآيات المباركات: ففي بعض الأحيان يبني الفرد حياته وعمله على المعادلات المادية الطبيعية، ولكن المؤمن الحقيقي يسلك الطرق الطبيعية ولكنه لا يبني حياته عليها.

أكثر أنبياء الله سبحانه كانت المعادلات الظاهرية كلها ضدهم، فمن كان نبي الله عيسى عليه السلام؟

رجل لا يملك بيتاً، والحكام الّذين بيدهم القدرة والقوة ضده، ولا مأوى له.. حتى أنّه ذات مرة خاطب الله تعالى قائلاً: يا الله حتى الوحوش لها مأوى تأوي إليه- في الجبل مثلاً- وأنا لا مأوى لي[1].

إلا أنّه أصبح الآن يملك قلوب مئات الملايين من النصارى في العالم من الذين يقدسونه ويتبعونه بل المسلمون أيضاً يكنون له أشد احترام[2] ويعتقدون أنّه نبي من أنبياء الله العظام، وهذا هو الأثر الذي تركه في التاريخ، فالأنبياء لم تكن المعادلات المادية معهم غالباً ولكن ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾.

ولنذكر مثالين من الواقع المعاصر:

١- يذكر أن رئيس شركة التبغ في إيران سأل البعض: كم يملك هذا السيد من الجيوش- ويقصد به المجدد الكبير قائد ثورة التبغ الذي أصدر الفتوى الشهيرة ضد أقوى إمبراطورية في العالم دخلت إيران تحت ستار التبغ- قالوا له: لا يملك جيشاً، هو رجل جالس في بيته، قال: كم

---

(١) الجزائري، نعمة الله، النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، ص: ٤٧١.
(٢) فالنصارى يعبدونه والمسلمون يقدّسونه.

يملك من الثروة، قالوا: لا يملك شيئاً، فقال: إن هذا الرجل لا يمكن مقاومته، لا أموال له ولا جيوش ولكنّه وقف أمام أعظم دولة في العالم وأجبرها على أن تخرج من إيران.

٢- الشيخ محمد تقي الشيرازي قائد ثورة العشرين لم يكن يملك شيئاً، وكذلك الشعب العراقي لم يكن يملك شيئاً ومورس بحقه أبشع الجرائم الحربية فقد استخدم السلاح الكيماوي لأوّل مرة ضد هذا الشعب- كما قال بعض المؤرخين- ولكنّهم بقوة الإيمان أجبروا الامبراطورية التي سيطرت على الهند حوالي أربعمائة عاماً على الخروج من العراق، والفرق بين البلدين أنه في الهند لم تكن قوة الإيمان بخلاف الأمر في العراق، فالفرد في أموره العامة والشخصية والاجتماعية والسياسية والقضائية عليه أن لا يبني حياته على المعادلات المادية، وإنّما يجب عليه أن يعرف أيضاً أن وراءه قوة هي أكبر قوة في هذا الوجود، وهذه القوة هي قوة الله التي وعدت بالنصر ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[١].

(١) سورة محمد: ٧.

الآيات

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾(١).

(١) سورة آل عمران: ١٤-١٥.

المفردات

﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: المشتهيات كما في مجمع البيان[1] لا الغريزة، بقرينة تفسيره بـ (من البيانية).

﴿وَٱلْبَنِينَ﴾: قيل: يشمل الذكور والإناث، فهما إذا افترقا اجتمعا وإذا اجتمعا افترقا، والمعروف أنّه يعني الأولاد الذكور فحسب.

﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ﴾: جمع قنطار وهو ملء جلد الثور ذهباً[2].

﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾: المكدسة بعضها فوق البعض الآخر، المنضّدة، المجتمعة.

﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾: قيل: الخيل المعلّمة، أي التي عليها علامة، وقيل: الخيل المدربة لركوب ميادين القتال.

﴿ذَٰلِكَ﴾: ذا إشارة إلى الشهوات، والكاف كاف الخطاب.

﴿مَتَٰعُ﴾: الشيء الذي يُتمتع به ويُستلذ به لمدة مؤقتة، والمتعة تعني اللذة المؤقتة.

﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: الحياة القريبة أو الحياة الهابطة الدنية.

---

(١) الطبرسي، الفضل بن الحسن، تفسير مجمع البيان، ج٢، ص: ٦٣.
(٢) الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، ج٣، ص: ١٥٢.

﴿حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ : المرجع والمستقبل الحَسن المضمون.

﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾ : النبأ هو الخبر المهم.

﴿ٱلتَّقْوَىٰ﴾ : الكف مع وجود انشداد داخلي نحو الشيء، أي الكف الداخلي والكف العملي[1].

﴿جَنَّـٰتٌ﴾ : بساتين.

﴿تَجْرِى﴾ : فعل مضارع يدل على الاستمرارية.

﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ : قيل: الأنهار تجري من تحت الأشجار إلا أنّ الّذي يبدو للنظر أنّ الأنهار تجري تحت الجنّات والبساتين حقيقة كالبيوت الزجاجية التي يُرى باطنها من ظاهرها.

﴿مُّطَهَّـرَةٌ﴾ : خالية عن أية قذارة مادية أو معنوية.

المدخل:

الشهوات أهم عامل للكفر:

تتناول الآية الأولى موضوع الشهوات، ودورها في الحياة الدنيا، والمكانة الصحيحة التي ينبغي أن توضع فيها، ولكن قبل أن ندخل في

---

(١) التقوى لغةً مأخوذةٌ من الوقاية، وهي: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، يقال: وقيت الشيء أقيه وقاية ووقاء، قال: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾. والتقوى اصطلاحاً: جعل النفس في وقاية مما يخاف، وهي في عرف الشرع حفظ النفس مما يؤثم وذلك بترك المحظور، ويتم ذلك بترك بعض المباحات لما روي: «الحلال بيّن، والحرام بيّن، ومن رتع حول الحمى فحقيق أن يقع فيه». لقد ركز القرآن على التقوى في آيات عديدة منها الحشر/١٨ ومنها: الحج/١ ومنها آل عمران/ ١٠٢ والسرّ في ذلك هو أنّ الله جعلها هي المقياس في القرب والبعد منه والتشريف لعبده دنيا وآخرة (الحجرات ١١٣) كما أن بها ينال السعادة الحقيقية.

صلب البحث لا بأس بأن نتوقف قليلاً عند الارتباط بين الآية الكريمة والآيات المتقدمة: فقد تمحورت الآيات المتقدمة حول الكفّار والجبهة الكافرة التي وقفت قِبال الأقليّة المؤمنة، بينما تمحورت هذه الآية الكريمة حول الشهوات.. ولعل الرابطة فيما بينهما أن الشهوات هي إحدى القاعدتين التي تستند إليها جبهة الكفر والإلحاد.. بل لعلها الأهم من هاتين القاعدتين والأخطر منهما.

الشبهات والشهوات:

هنا ينتصب السؤال التالي ليقول: ما هي العوامل التي ينشأ منها الكفر؟.

الجواب هناك عاملان رئيسيان:

الأول: العامل الفكري ويتمثل في الشبهات.

الثاني: العامل النفسي ويتمثل في الشهوات.

فقد يكون للشبهات دور محدود في الكفر بالله، ولكنّ العامل الأهم هو عامل الشهوات، قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾[1].

لأنّ الفرد عادة ما يحب أن يكون منطلقاً.. لا مانع أمامه ولا رادع.. بحيث يحقق جميع مشتهياته في الحياة الدنيا..

يفجر أمامه: يفعل ما يحلو له من الفسق والفجور وهو عامل نفسي يدفعه إلى الكفر، بحيث يتساءل قائلاً: أيّان يوم القيامة؟

---

(١) سورة القيامة: ٥-٦.

وبالتالي ينكر المعاد والمبدأ.. والحركات الإلحادية التي غزت مجتمعاتنا كالحركة الشيوعية، كانت تعتمد اعتماداً جزئياً على الشبهات، بينما كانت تعتمد اعتماداً كلياً على الشهوات.. والفرد الذي ينتمي إليها تلبى شهواته بأنواعها المختلفة..

وكما ورد في بروتوكولات حكماء صهيون أنّ أفضل وسيلة للحركة اليهودية العالمية كي تنفذ إلى الآخرين خاصّة القادة هي الشهوات، وفي مقدمتها الشهوة الجنسية!

ومن هنا تظهر العلقة بين الآية المباركة والآيات المتقدمة، حيث إنها تشير إلى الجذر الأهم الذي تبتني عليه قضية الكفر بالله وآياته..

الله يزين أم الشيطان؟

وبعد هذا المدخل نأتي إلى ظِلال هذه الآية الكريمة:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ كلمة زُين فعل مبني للمجهول يدل على فاعل لم تحدد هويته في الكلام،.. فمن الذي يزين الشهوات للناس؟

وعلى سبيل المثال: البيت لو أريد بيعه: يُزَيّن حتى يبدو بمظهر جميل كي يباع، وفي الزمن السابق قبل أن تزف المرأة إلى بيت زوجها كانت تأتي الماشطة- المزيّنة- لتزيّينها، وما زالت بعض محلّات الحلاقة يكتب عليها(محلات التزيين)..

على كلٍّ هناك جبهة مجهولة تحبب المشتهيات إلى نفوس الناس، فمن هي هذه الجبهة؟

القول الأول: الشيطان يزين.

ذهب بعض المفسرين إلى أنّ الفاعل المجهول هو الشيطان، مستدلّين على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[1]، وفي آية أخرى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2] إذ إنّ التزيين والتجميل كما هو جلي من فعل الشيطان..

مناقشة هذا القول:

ويمكن المناقشة فيه: بأن التزيين على نوعين:

١ـ التزيين للأعمال الطالحة وهو من الشيطان.. ويظهر ذلك في حياة المجرمين وكلماتهم، ففي كثير من الأحيان- كما في رأيهم- يكون إجرامهم حسناً في رأيهم لمسخ الفطرة، والآيتان الكريمتان تتحدثان عن تزيين الأعمال الطالحة، قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أو﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

٢ـ التزيين للأمور غير السيّئة بل الحسنة، وهذا لا يكون من عمل الشيطان.

القول الثاني: الله هو المزين.

ويمكن القول أيضاً إنّ التزيين من قبل الله سبحانه وتعالى، إذ إن محور السورة ذلك، ويدل عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾[3]، فالله عزّ وجلّ جعل القلوب تنشّد على طبيعتها إلى

---

(١) سورة النمل: ٢٤.

(٢) سورة الأنعام: ٤٣.

(٣) سورة الكهف: ٧.

المزينات من الذهب والنساء، وهو الذي جعل المرأة جميلة في نظر الرجل والرجل جميلاً في نظر المرأة.

فلسفة التزيين:

هنا يُطرح سؤال آخر: لماذا كانت عملية التزيين؟

الإجابة الأولى: الاختبار، فلو لم يكن التزيين لم يتم الاختبار الإلهي.. وحينذاك كيف كان يُمتحن الخلق؟

الإجابة الثانية: لولا التزيين لما كانت الحياة تبقى وتستمر، فلو لم تكن المرأة جميلة في نظر الرجل ما كان يندفع إلى تحمّل مسؤوليات الزواج، فالإنسان الأعزب سواء كان رجلاً أم امرأة لا مسؤولية له، ينام مرتاح البال.. ولكنّه بمجرد أن يتزوج تبدأ المسؤوليات..

ولعل أغلب الرجال لم يكونوا مستعدين للزواج لولا الانجذاب القوي، وكذلك النسوة ما كن ليتزوجن.. وتشهد لذلك قصة المرأة التي عرَّفها النبي ﷺ بعض الحقوق الزوجية فقالت: «لا تزوجت بعد ذلك أبداً»[1]، فما تعانيه المرأة في تنشئة الأولاد لا حد له، حيث تبذل مجهوداً عظيماً يشد على أعصابها وروحها وجسدها.. وحيث يمتص كلّ من الجنين والطفل قواها البدنية والروحية.. وبالتالي فإنّ الاندفاع الموجود في المرأة نحو الإنجاب لوجود هذه الشهوة، ولولاها لم تكن الزوجة مستعدة لهذه التضحية الكبيرة..

---

(١) الحويزي، عبد علي بن جمعة العروسي، تفسير نور الثقلين، ج٣، ص: ٦٢٣، ح٢٣٦.

ما هي الشهوات؟

تطلق الشهوة تارة على الغريزة وأخرى على المشتهيات، ومنها المرأة والأولاد، ويدل عليه تفسيره بـ(من البيانية) التي تبيّن ما قبلها، . . .

أنواع الشهوات:

والسؤال هنا هو: ما هي الشهوات والمشتهيات التي زُيّنت للناس؟

أولاً: المرأة: أعنف الشهوات.

قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: أي المرأة، ولعل الوجه في تقديم شهوة النساء لأنها من أعنف الشهوات في الحياة البشريّة، وقد أكد علماء النفس هذه الحقيقة.. والواقع الخارجي والتاريخي يؤكدان ذلك أيضاً، بل إن ملايين الجرائم التي تُرتكب في كلّ يوم بمختلف أنواعها إنما هي لهذه الشهوة..

ثانياً: البنون: قيمة اقتصادية، سياسية وعسكرية.

﴿وَٱلْبَنِينَ﴾ أي شهوة الأولاد، ولكن هل يراد بالبنين خصوص الأولاد الذكور؟

ذهب بعض العلماء: أنّ كلمة البنين تشمل الذكور والإناث، لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾(١) حيث لم يقتصر قوله: (بني آدم) على الذكور فقط من أولاد آدم، بل شمل الذكور والإناث.

وكما يصرّح علماء البلاغة: أن البنين والبنات إذا اجتمعا افترقا وإذا

(١) سورة الأعراف: ٢٧.

افترقا اجتمعا- كالظرف والجار والمجرور في مصطلح النحاة- إلا أن المعروف أنّ كلمة (بنين) تقتصر على الأولاد الذكور.

وإنما خصّ الأولاد الذكور بالذكر، لما لهم من أهمية في أنظار الناس، فإنّهم يرون أن للابن قيمة اقتصادية بخلاف البنت حيث لا قيمة اقتصادية لها في الأنظار.. وكذلك قيمة عسكرية للابن حيث إن البنت لا تحارب، ولكنّ الابن يدخل ميدان القتال ويحارب.. وهكذا.

إذن للابن قيمة اقتصادية واجتماعية وعسكرية وسياسية متفوقة في أنظار الناس.. ولا يخفى أنه لا يوجد فرق بلحاظ الكرامة بين الذكر والأنثى لدى الله عزّ وجلّ.. إلا أن الأمر يختلف في أنظار الناس.. خاصة أن شهوة البنين فيها مسألة الامتداد، ومن طبع الإنسان أنه يحب أن يمتد في أبنائه..

ثالثاً: المال.

﴿وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ﴾ يوجد اختلاف في ماهية القنطار، إلا أن الخبر المروي عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام: أن القنطار: ملء مسك ثور ذهباً[1] والمسك هو الجلد الذي يسع عشرات الكيلوات من الذهب والفضة.

﴿ٱلۡمُقَنطَرَةِ﴾: أي المكدسة بعضها فوق البعض الآخر، المنضّدة والمجتمعة.

رابعاً: الخيل.

﴿وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ﴾ : ما زالت الخيل حتى عصرنا الراهن- عالم

---

(١) الكاشاني، محمد محسن الفيض، الأصفى في تفسير القرآن، ج١، ص: ١٤١.

الآلة- لها موقعية مهمة.. ففي تقرير: إن في الولايات المتحدة فقط ما يقارب عشرة ملايين فرساً.. وهناك هواة للخيل يبذلون أوقاتهم وأعمارهم من أجله.

﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾: أي المعلّمة بعلامة،.. وذهب البعض إلى أن المراد منها هو المدربة لركوب ميادين القتال.. وقد تشير كلمة الخيل في الآية الكريمة إلى نحو من أنحاء الارتباط بالقوة.. فإن الخيل في العهود القديمة تعد مظهراً من مظاهر القوة والسلطة.. فظلاً عن كونها مظهراً من مظاهر الجمال.

خامساً: الأنعام: الإبل والبقر والغنم.

سادساً: ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾: المزارع.

هذه مجموعة من الشهوات التي زُيّنت للناس.

الإسلام والنظرة الوسطية للشهوات:

كيف ننظر إلى هذه الشهوات؟

لم يؤيد الإسلام ما في النصرانيّة المحرفة من وجوب إلغاء الشهوات خاصة الشهوة الجنسية، حيث يعتبرونها خطيئة.. وليست نظرة الإسلام إلى الشهوات نظرة إلغاء وتحريم. بل الإسلام يجعلها في إطارها الصحيح.

الشهوات وضرورة الموازنة بين الحاضر والمستقبل:

ولكنّ الخطر الذي تمثله الشهوات إذا خرجت عن مسارها الصحيح- وهو خطر جدي وقائم- أنها تحجب عن المستقبل الذي خلقه الله للإنسان وخلق الإنسان له، فهناك مرحلتان:

١ ـ مرحلة قريبة.

٢ ـ مرحلة بعيدة.

والسؤال هنا: كيف يحجب الحاضر القريب، المستقبل البعيد؟

لكي تتضح الإجابة لا بأس ببيان المثال التالي:

موظف يعيش في بيت مستأجَر.. يحتاج إلى ضمان لأيام شيخوخته وضعفه: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾[1]، فقد يستلم راتبه الشهري ويفكر في الحاضر، ويصرفه في ملذاته الحاضرة- كما هو حال الكثير، حيث يصرفون مرتباتهم قبل نهاية الشهر- فهو ممن حجبه الحاضر عن المستقبل..

وهناك موظف آخر يوازن بين الحاضر والمستقبل ويدّخر مقداراً من المال في المصرف -البنك- ليشتري به بيتاً في المستقبل أو ليكون له رصيد يكفي لقوت يومه ويمرر به حياته في أيام ضعفه وشيخوخته..

كذا هي الشهوات، فإن الأغلب ينشغلون بالشهوات الحاضرة وينسون المستقبل.. وقد قيل لأحد العلماء عندما حدثت قضية اجتماعية: ألا تدخل في هذه المعمعة؟

فتلا قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[2] أي أحياناً شهوة الرئاسة تستغرقه فيدخل في معمعة..

وقد قيل: إنّ من يدخل في النزاع الاجتماعي لا يتقي الله.. لأن

---

(١) سورة الروم: ٥٤.

(٢) سورة القصص: ٨٣.

الحاضر- يحجبه عن المستقبل فيدخل في المعمعة حتى النهاية.. بلا حدود ولا ضوابط...

وهكذا في الشهوات فإنّ الإسلام لا يؤيد إلغاء الشهوة الجنسية ولا سائر الشهوات، بل يدعو إلى الموازنة بين الحاضر والمستقبل..

لذا فإن الآية المباركة كما يظهر منها لا تذم الشهوات ولا تلغيها من واقع الحياة بنحو مطلق.. بل إنها تُصرّح أنّ: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وذا في الآية: إشارة إلى الشهوات والكاف للخطاب، فإن كان المخاطب شخصاً واحداً يقال: ذلك، وإن كانا اثنين يقال: ذلكما كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾[1]، أما في الجماعة فيقال: ذلكم كما في الآية الآتية: ﴿أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾[2].

الحياة الدنيا متعة:

﴿مَتَٰعُ﴾: الشيء الذي يتمتع به ويستلذ به لمدة مؤقتة، والمتعة، اللذة المؤقتة: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وذلك لأن هنالك حياتين:

الأولى: حياة دنيا قريبة أو هابطة لأنّ هناك مسيرة تكاملية ربما بدأت منذ ألوف الأعوام عندما كنا في المرحلة الترابية النباتية والنشآت المتقدمة، فالحياة الدنيا هي الحياة القريبة الهابطة الدنية وهناك سُلّم صعودي يصعد الإنسان فيه.

الثانية: الحياة الأبدية العالية التي تبتدئ بعد الموت والفناء، والآية تدعو إلى أن لا تحجبنا متعة الحياة الدنيا عن ذلك المآل والنشأة

---

(١) سورة يوسف: ٣٧.
(٢) سورة آل عمران: ١٥.

الأخرى، فإنّه: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ أي المرجع والمستقبل الحسن المضمون.

اللذات المادية في الآخرة:

﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم﴾ النبأ: هو الخبر.

﴿بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ﴾: حيث يوجد هناك ما هو أفضل.

﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾: الآية تشير إلى القيد، بأن لا يسير الإنسان مع الشهوات بلا ضوابط، بل يسير ضمن ضوابط وحدود، .. فالمتقون لم يحرموا أنفسهم من شهوات الحياة، ولكن ضمن إطار محدد..

جنات بلا نقص:

﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: تحرك الآية الإنسان نحو الآخرة داعية إيّاه إلى المقارنة بين الدنيا والآخرة، فكما في الدنيا يوجد حرث وأراضي مخصبة، هناك لذّات أفضل.. إذ إن لذّات الدنيا موجودة، في الآخرة ولكن بنحو أكمل، بعيدة عن النواقص.

﴿جَنَّٰتٖ﴾ بساتين: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: قيل: تجري الأنهار من تحت أشجارها، ولكن يحتمل أن يكون من تحتها حقيقة كما في قوله تعالى: ﴿صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ﴾[1] كالبيوت الزجاجية التي يُرى باطنها من ظاهرها، وجري الأنهار من تحت البيوت- وما أروعه من منظر- .. وربما كان المراد أنّ الأنهار تجري من تحت نفس الجنات.. وتجري: فعل مضارع يدل على استمرارية جريان الماء.. بخلاف ماء الدنيا الذي

---

(١) سورة النمل: ٤٤.

قد يجري أو ينقطع. ولا يخفى أنّ وجود الماء واستمرار تدفقه مهم جداً، خاصة أنّ العلماء تنبؤوا أنّ معركة المستقبل هي معركة الماء.. بل في زماننا أيضاً الماء يشكل مشكلة عظيمة لكثير من المناطق في العالم.. أما في الجنة: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ دائماً.

أعظم النعم الماديّة لأهل الجنة:

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ﴾: إنّ الآخرة دار الحيوان والبقاء والاستمرار، بخلاف الدنيا فإنّها إما لا تبقى أو لا يبقى الإنسان فيها.

نُقل أنّ أحد الملوك صنع قصراً مشيداً عظيماً ثم دعا إليه الوجهاء، فقال لهم: اذكروا عيوب القصر، فأدلى كلٌّ بدلوه وأجمعوا على عدم العيب فيه، سوى رجل من الحاضرين لم يقل شيئاً؛ فقال له الملك: لماذا سكت؟ قال: لأن في القصر عيبين، قال: وما هما؟

قال: الأول: أنه لا يبقى لك، والثاني: أنك لا تبقى له، وإن بقي هو معك..

أمّا الآخرة ففيها نعمة الخلود، ولا يمكن تصورها أبداً، فكم يبقى الإنسان في الجنّة إن كان من أهل التقوى؟ مليار عام! ألف مليار عام؟ كلما يفكر فإنّه لن يصل إلى النهاية.. فهو باق ببقاء الله عزّ وجلّ، ولعل أعظم مصيبة تحلّ بأهل النار- أن يؤتى بالموت علىٰ هيئة كبش ويُذبح.. عندها يعرف أهل النار أنهم سوف يبقون في النار خالدين؛ وربما كانت هذه أعظم مصيبة على أهل الجحيم؛. ولعل أعظم نعمة من النعم المادية لأهل الجنة نعمة الخلود.. الذي يبحث عنه البشر.. الذي له غريزة الخلود.. ولذلك يحاول أن يفرّ من الموت بأي طريقة..

وعلى أي حال فهذه الغريزة لا تُؤَمَّن في الحياة الدنيا.. وإنما تُؤَمَّن في الآخرة حيث يصبح الناس ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾.

أزواج بلا قذارات:

﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾: لأهل الجنّة، بخلاف الدّنيا حيث لا توجد فيها امرأة مطهّرة كاملاً غير بعض الاستثناءات كالصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام فإنها مطهّرة تطهيراً كاملاً ولها الطهارة الكاملة كما في آية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1]، ولكن في الأغلب لا توجد في هذه الدنيا الطهارة الكاملة بنحو كامل..

ففي الدنيا تحيط النواقص الجسديّة والنفسيّة بالإنسان، نعم كلّ ما اقترب الرجل أو المرأة إلى الإيمان أكثر كلّ ما اقتربا إلى الطهارة الكاملة، أما في الجنة: ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾: لا توجد فيهن أية قذارة مادية كانت أو معنوية.

يقول أحد العلماء: بما أن البشر متكبر بطبعه، فقد أركسه الله تعالى في القذارات المادية من قمّة رأسه إلى أخمص قدميه، فهو مصدر لأكثر من اثنين وعشرين نوعاً من أنواع القذارات، والعبارة وإن كانت بمقدار حادة وجارحة إلا أنّها تعبّر عن واقعية، وقد أشار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى ذلك في قوله: «مسكين ابن آدم.. وتنتنه العرقة»[2].

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٣.

(٢) نهج البلاغة، تحقيق محمد عبده، ج٤، ص: ٩٨، ح٤١٩.

النّعم المعنوية:

علاوة على وجود النّعم الماديّة في الجنّة هناك نعم معنويّة، عابرة:
ففي نّعم الجنّة هناك نظريتان:

الأولى: تذهب إلى أن نّعيم الجنّة مادي محض، ولعل أغلب النّاس يتصورون ذلك، وقد ردّ أحد العلماء على ذلك فقال:

صوروها مرتعاً للشهوات وحشوها بجميع المغريات
وادّعوها ليلة حمراء فيها تستفيق الشهوات

الثانية: ذهب إليها بعض العرفاء والفلاسفة: إنّ نّعيم الجنّة نّعيم معنوي محض، ولا يوجد نعيم مادي في الجنة.

ولكن كلتا النظريتين تخالفان القرآن الكريم، حيث تؤكد الآيات المباركة والأحاديث الشريفة وجود النوعين[1]: فالنعم المادية: جنات، أنهار، أزواج مطهرة، والأخيرة من أعظم اللذائذ المادية كما في رواية في الكافي الشريف[2]. وأمّا النّعم المعنويّة: فقمتها ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ سورة الطور:١٧-٢٨.

(٢) عدة من أصحابنا عن أحمد بن أبي عبد الله البرقي، عن الحسن بن أبي قتادة، عن رجل، عن جميل بن دراج قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ما تلذذ الناس في الدنيا والآخرة بلذة أكثر لهم من لذة النساء وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ ـ إلى آخر الآية ـ ثم قال: وإن أهل الجنة ما يتلذذون بشيء من الجنة أشهى لهم من النكاح لا طعام ولا شراب. الكليني/ محمد بن يعقوب/ الفروع من الكافي، ج٥، ص: ٣٢١، ح١٠.

يُنقل أنّ الشيخ محمد طه نجف رحمه الله وهو أحد المراجع، كانت له أسئلة تؤرق باله لأعوام طويلة، منها: هل أنّ الله عزّ وجلّ راض عنه أو لا؟ وهل أنّ النّبي الأعظم صلى الله عليه وآله راض عنه أو لا؟ وهل أن الإمام الحجّة المنتظر عجلّ الله تعالى فرجّه الشريف راض عنه أو لا؟

وكان لسنوات يتوسل بأمير المؤمنين عليه السلام ليعرف الجواب- حيث إنّ معرفة رضوان الله أهم الأمور على الإطلاق.. وشعور الإنسان بأنّ الله تعالى راض عنه من أعظم اللّذائذ المعنويّة في الجنّة، لذا قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1] وبعد التوسل الدائم رأى شخصاً- لعله كان الإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف حسب بعض القرائن- وقال له: أنت مرضي عندنا..

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ﴾: ربما كان المراد من الآية التحذير، حيث ورد فيها: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾ وبما أن الخوف من الله والتقوى أمر غير ظاهر ذُكِر ضمن الآية أنّ الله: بصير وخبير، ناظر وحاضر، لذا ينبغي للإنسان أن لا يتبع الشهوات بل عليه أن يؤطر نفسه بحدود، فعندما يقع تحت ضغوط الشهوة والمجتمع والأصدقاء، عليه أن يتذكّر الله تعالى ليجبر الضعف الموجود فيه، لأنّ الالتفات إلى أن الله تعالى ناظر يجعل الإنسان قوياً في مواقفه ومتقياً في أعماله.

---

(١) سورة التوبة: ٧٢.

الآيات

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ
وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران: ١٧.

المفردات

﴿ءَامَنَّا﴾: صدقنا بما أنزلت وما بعثت من رسول.

﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾: اصفح عنا.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: الصبر حبس وتملك النفس وحفظ الذات.

﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: الذين يطابق قولهم الواقع، والكلمة لها عمومية حيث تشمل: الصدق في النيّة والعمل واللهجة والكلمة.

﴿ٱلْقَٰنِتِينَ﴾: القنوت هو الخضوع والتسليم، أي القبول النفسي والعملي، وبعبارة واضحة: حالة من الانقياد الباطني لله تعالى والنّبي ﷺ والدِّين.

﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾: نفق الشيء مضى ونفد، والمراد: الباذلون لأموالهم في سبيل الله غاية البذل.

﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ﴾: الاستغفار: طلب المغفرة من الله تعالى.

﴿بِٱلْأَسْحَارِ﴾: مادة «س ح ر» في اللغة: الخفاء والتغطية، ويقال لفترة قبل طلوع الفجر: السَّحَر لأنّ الظلام يعمّ الكون كلّه ويخفي فيها حال الفرد على الآخرين لأنّ الناس نائمون، والسَّحَر فقهاً: الثلث الأخير من الليل، وفي رواية المستغفرين بالأسحار: من يُصلّون صلاة الليل.

الإعراب:

الّذين يقولون: قد تكون هذه الكلمة في محلّ خفض صفة لكلمة ﴿بِٱلْعِبَادِ﴾، أو في محلّ خفض صفة لكلمة: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ إلا أن الأقرب لسياق الآية الاحتمال الثاني، حيث للمتقين قاعدة تبتني عليها التقوى وهي الإيمان.

التفسير:

المدخل:

منشأ التقوى وقاعدتها:

سؤالان مهمان:

الأول: ما هي القاعدة التي تبتني عليها صفة التقوى؟

الثاني: ما هي صفات المتقين؟

تتكفل الآية الأُولى الإجابة على السؤال الأوّل، فإن التقوى حالة من الكفّ الداخلي والعملي، ومفهوم الكفّ لا يتحقق إلا مع وجود الانشداد الباطني نحو الشيء، وأمّا مع عدم الانشداد لها فلا يقال له: كفّ نفسه، إذ إن الكفّ يكون إذا كانت للشيء جاذبيّة، ومالت النفس إليه واندفعت نحوه، والكفّ لا يأتي من فراغ بل يحتاج إلى قاعدة ورادع يبتني عليهما، يقول الشاعر:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفّة فلعلّة لا يظلم

نعم إن النفوس تميل إلى الظلم، فالحاكم يميل إلى الظلم(1)، وكذا

(1) الدليل على القول بأن الظلم أصل في الإنسان هُوَ قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ الأحزاب: ٧٢.

الأب في العائلة، فالطبيعة لديهم طبيعة الظلم، ولكن قد يردعهم رادع من الظلم، والرادع يتنوع إلى نوعين:

الأول: الرادع الخارجي.

الثاني: الرادع الباطني.

أمّا الأوّل فهو محدود الأثر، وهو يؤثر في بعض الأفراد، وفي بعض الظروف، وفي بعض المحظورات، ولا توجد فيه صفة العمومية، أما الرادع الباطني المتمثل في الإيمان بالله سبحانه وتعالى، فهو الرادع الوحيد الذي يمكن أن تبتني عليه مَلكة التقوى.

المنع من الخمر بين الرادع الخارجي والرادع الداخلي:

التفتت إحدى الحكومات الغربية الكافرة في عهد ماضي، إلى أنّ مضار شرب الخمر: الفتك بالفرد والعائلة والمجتمع والروح والبدن، ففكر عقلائهم أن يمنعوه، فدخلت في ميدان محاربة الخمر بكل قواها علماً أنّها كانت تملك إمكانات هائلة، لا تحد ـ من الأموال والشرطة والجيش والمعتقلات والإعلام ـ، ولكن النتيجة كما ينقل المؤرخون: «أنّ كل ذلك لم يُجْدِ نفعاً، وكأنّ الجهود لم تكن، لأن الأفراد كانوا يتحدون القانون ويقفون أمامه، فقد يوفق القانون من منع الناس عن شرب الخمر في الشارع، ولكن لا يمكن أن يمنع ذلك في البيت»[1].

---

(١) منع الكحول بسبب أضراره على المجتمع في أميركا وشرع المنع دستورياً عام ١٩١٩م ثم أعيد عام ١٩٣٤م وأما في روسيا فالمحاولات لمنعه كانت أقدم حيث كان أول منع له ومحاربته رسمياً عام ١٩١٤م من قبل القيصر نيقولاي الثاني الذي سار على نهجه لنفس السبب الرئيس السوفيتي غورباتشوف عام ١٩٨٥م وكل المحاولات باءت بالفشل.

ويظهر الفرق الشاسع بين الرادعين- الداخلي والخارجي- لو قارنا ذلك بما نقله المؤرخون من أن آية تحريم الخمر لما نزلت وهي لا تتعدى السطر الواحد: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾[1]: «جرت سكك المدينة بأنهار من الخمور» حيث أخذ المسلمون الخمور وأراقوها كلها.. والحال أن شرب الخمر لدى حديثي الإسلام كان كشرب الماء، وكما أن بيوت الغربيين مليئة بالخمور، كذلك بيوت المشركين كانت مليئة بالخمور، حيث كانت الخمور في كل بيت تقريباً، فذاك هو الرادع الخارجي وهذا هو الرادع الداخلي الذي يتمثل في الإيمان.

المنع من التدخين بين الرادعين:

هناك نموذج آخر: وهو أن دول العالم اليوم تبذل الكثير من الأموال والجهود والطاقات لمحاربة التدخين، ولعلّ جميع إعلانات التدخين تحتوي على تحذير بمختلف اللغات، وفي القنوات الفضائية والتلفاز والإذاعات والصحف تحذيرات بأن: «التدخين مضر بالصحة»، وقد منعت بعض البلاد التدخين في الأماكن العامّة، إلا أن ظاهرة التدخين في اتساع مستمر.

ويكفي أن نقارن ذلك بما يفعله الإيمان في الأفراد لكفّ النفس عن الشهوات ـ.. فقد كتب المجدد الشيرازي رحمه الله الذي كان من مراجع التقليد العظام، سطراً واحداً أو سطرين في قضية التنباك- ترجمته-: «بسم الله الرحمن الرحيم: استعمال التبغ في هذا اليوم بأي نحو من الأنحاء في

---

(١) سورة المائدة: ٩٠.

حكم محاربة الإمام المهدي المنتظر(عجل الله تعالى فرجه الشريف)»، وإذا بالأمّة تمتنع عن التدخين حتى في قصور شاه- ملك - إيران، حيث خدم الشاه؟ كسروا كلّ آلة (النرجيلة) يُشرب بها التبغ في قصوره.

ويذكر المؤرخون: أن الشاه طلب من زوجته آلة شرب التبغ (النرجيلة)- حيث كان مدخناً-، فقالت له: إن التدخين حرام. فقال: ومن الذي حرّم التدخين؟ قالت: الذي أحلّني لك! أي الله عزّ وجلّ حرّم التدخين.

وعلى أثر هذه المقاطعة الشاملة، اضطرت تلك الامبراطورية العظمى التي لا تغرب عنها الشمس، أن تنسحب من إيران...

إذاً الآية المباركة تبين القاعدة التي تبتني عليها صفة التقوى، ولكن هذه التقوى كيف تحصل؟ وعند من؟ ذلك ما تبينه الآية مشيرة إلى أنّ الامتناع يحصل لـ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ هؤلاء هم المتقون، وعليه فإنّ كلمة: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ تكون في محل خفض صفة لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ لا في محل خفض صفة لكلمة ﴿بِٱلۡعِبَادِ﴾، وبعبارة أخرى إنّ سياق الآية يوحي بأنّها صفة ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾، ويتضح الأمر أكثر لو أعدنا قراءة الآية المتقدمة: ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾، فإنّ جوّ الآية بعيد عن إضافة ﴿بِٱلۡعِبَادِ﴾ بكلمة الّذين، والقريب إلى سياق الآية أن تكون صفة ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ لأن الحديث في الآيات حول المتقين، والّذين يمتنعون عن الاندفاع مع الشهوات الطائشة، وهم المتقون.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾.

وهنا قد يطرح سؤال وهو: بماذا يؤمن المؤمنون؟ والجواب: آمنا بك... آمنا بكتابك... آمنا بوعدك ووعيدك، بما أنّ حذف المتعلَق يفيد العموم، فالإيمان شامل لكلّ ما ذكرناه.

هل المتقون يرتكبون المعصيّة؟

هل إنّ الإيمان بالله سبحانه وتعالى يساوي العصمة من الذنب؟

الجواب: إن الخط العام للمتقين هو الاستقامّة في جادة الشرع، وهو لا ينافي أن يقترفوا بعض اللمم، بشرط أن لا يكون ذلك خطه العام، فإنّ من يرتكب كل يوم عشرين ذنباً لا يعد متقياً.

وعلى سبيل المثال من يصمّم أن لا يسمع الغناء في حياته ولكن قد يميل لغفلة وضعف إلى الغناء لحظات فقط، كما لو جلس في سيارة أجرة وسمع صوت الغناء، وكأن يصمّم أن لا ينظر إلى امرأة أجنبية؛ ولكن في لحظة ضعف وفي لحظة عشوة كما في الآية المباركة: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾(١) ربما ينظر ثانية بنظرة متعمدة إلى امرأة أجنبية- والاستثناء في المعصومين وأولياء الله الكبار الّذين لا يعصون بل ولا يفكرون في الذنب البتة- أمّا المتقي العادي ربما يعصي، إلا أن الفرق بين واجد ملكة التقوى وفاقدها هو: أنّ المتقي يعود إلى ذاته وإلى ربّه ويستغفر، بخلاف من لا يملك ملكة التقوى وليس له إيمان حقيقي فإنه يمر على الذنوب والمعاصي بلا اكتراث، فـ ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا

---

(١) سورة الزخرف: ٣٦.

﴿ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٦﴾ : في حالة يقظة المؤمنين، ولو كان لهم ذنوب يطلبون من الله سبحانه أن يغفرها ويعودون إلى أنفسهم.

فقد يخرج الإنسان خلال البحث عن طوره ويحتدّ، أو يحتدّ الرجل في بيته مع زوجته، أو أنّه لمّا يدخل بيته يرى ابنه يؤذي، فيفقد اتزانه ويحمل عليه ويضربه تشفياً... قد يتفق هكذا أمر لمؤمن أو متقي في حياته مرة واحدة، ولكنّه فوراً يعود إلى ذاته ويستغفر الله سبحانه وتعالى.

ينقل أن أحد التلامذة تطاول على السيد البروجردي رحمه الله خلال البحث، فغضب السيد البروجردي واحتدّ معه، ولكنّه بعد لحظات قال له: يا فلان لقد كلفتني صيام عام كامل، وذلك لأنه كان ناذراً أن يصوم عاماً كاملاً لو احتد مع شخص!

بالطبع باستثناء العيدين لكون الصيام فيهما محرّماً، وصوم شهر رمضان لكونه واجباً، وبالفعل صام السيد البروجردي رحمه الله بعد هذه القضية عاماً كاملاً!!.

﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ : تشير الآية إلى حالة المؤمنين، فهم يشعرون بالمسؤولية تجاه أعمالهم، ويحذرون عاقبة الذنوب التي قد تسوقهم إلى نار جهنّم.

﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ : اصفح عنّا.

﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ : كأنهم يطلبون من الله سبحانه وتعالى المغفرة والوقاية لقاء إيمانهم وتصديقهم.

تجليّات الإيمان في الحياة العملية:

أما الآية الثانية فهي تجيب على السؤال الثاني من خلال ذكر مجموعة من صفات المتقين، فقد قال تعالى: ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ هذه خمس صفات للمتقين، ويمكن القول بأنّها: «تجليات الإيمان في الحياة العملية».

صفات المتقين:

١- لا تقوى بدون صبر.

الصفة الأولى: التقوى تحتاج إلى صبر، لأنّها تمثل نوعاً من التعهد والالتزام أمام الله سبحانه وتعالى، والالتزام يحتاج إلى صبر، وهو: حالة حبس النفس... فلو تركت سيارة في منحدر جبلي، فإنّها لا تحتاج إلى وقود بل تنطلق، ولكن إن لم يكن للسيارة كابح، فإنها تهوي في الوادي، بينما لو كان لها كابح فهو يكبحها ويحول دون سقوطها. كذا هي الشهوات، فالشاب غير المتزوج لديه حالة من هيجان الشهوة وعادة ما تمضي عليه أيام وأشهر على ذلك، لذا فهو يعاني من اندفاعات طائشة نحو إرواء الشهوة، وورد في التاريخ: أنّ حاكماً مرّ على بيت فوجد هاتفاً من داخل البيت يقرأ الأبيات التالية:- والشاهد في البيت الثاني-:

تطاول هذا الليل واسود جانبه   وليس إلى جنبي خليل ألاعبه
فوالله لولا الله تخشى عواقبه   لزعزع من هذا السرير جوانبه

ومثل هذا الشاب كالظمآن المتلهف إلى الماء لو وجد الماء أمامه - كما في قضية أصحاب طالوت- خاصة لو عاش الشاب في أجواء

المهيجات كجامعة مختلطة، فإنّه لا يمكنه أن يحفظ صفة التقوى إلا بالصبر.

وهناك مثال آخر للصبر وهو مثال: الذين عاشوا المعتقلات كمعتقلات البعثيين- وحيث لا يمكن تصور العناء الّذي عانوه إلا بمقدار ما نقرأه من مذكراتهم- حيث يعلّق المعتقل من قدميه بالمروحة السقفية مدة ثلاثة أيّام.

وقد نقل أن أحد المعتقلين- في سجون صدّام- كان صامداً رغم كلّ أنواع التعذيب، فتعجب أحدهم من صموده، وتساءل منه قائلاً: من الّذي يُصبرك؟

إذاً الصبر هو أن يعزم الإنسان على التحمل وحفظ ذاته، وهي أوّل صفة يحتاجها للوصول إلى التقوى...

٢- الصدق طريق التقوى.

الصفة الثانية ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾: هناك تأكيد شديد في القرآن الكريم على صفة الصدق، حيث شدد الباري تعالى عليه في قوله: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] فمن يكذب لا إيمان له، ففي بعض المجتمعات يعدّ الكذب من الصفات البشعة، بحيث إنّ الحاكم إن ارتكب جريمة وكذب للتخفي عليها يقولون: لقد ارتكب جريمة، والأبشع منها محاولته التستر عليها، وكذبه على شعبه، وربما كانت حالة- التنفر من الكذب- جديدة في المجتمعات غير الإسلامية.

---

(١) سورة النحل: ١٠٥.

والسؤال هنا هو: لماذا ذكرت صفة عدم الكذب في جملة صفات المتقين؟ وماذا يفعل الفرد لو عاش في مجتمع يهدد الصدق مصالحة؟

نقل أحد المؤمنين القضية التالية قال: أردت أن أعمل عند رجل يعمل في السوق- في عاصمة دولة إسلامية- ولمّا دخلت عليه قال: أريد أن أذكر لك كيفية سير العمل: الله... الدّين... الأخلاق... حق، ولكن مكانها المسجد والبيت، أمّا هنا فلا وجود لله أو الدّين أو الأخلاق!!

ولذا ورد في الأحاديث الشريفة إن «التاجر فاجر ما لم ينفقّه في الدين»[1].

فمن يعيش في السوق لا يمكنه حفظ تقواه غالباً، فلمّا يسأل المشتري عن قيمة البضاعة لو أجابه بالقيمة الواقعية يخسر- كما يظن البائع-، ولكن ليس الأمر كذلك. لأنّ الله تعالى يقول: ﴿... وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2]، لأن المتقي يربح على المدى البعيد أضعاف ما قد يخسره لفترة وجيزة.

إذاً لا يكون المتقي متقياً إلا بالصدق.. الجدير بالذكر أنّ البعض يرى أنّ كلمة ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لها عمومية بحيث تشمل:

١- الصدق في النيّة.

٢- الصدق في القول.

٣- الصدق في العمل.

---

(١) الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، ج١٧، ص: ٣٨٤، ح٥.

(٢) سورة الطلاق: ٢-٣.

أما الصدق في النيّة: ففي الحديث أن النّبي ﷺ قال: «فاسألوا الله بنيات صادقة»[1].

فقد يذهب الشخص إلى الجامعة بنيّة صادقة وأخرى تكون نيّته كاذبة، فمن أراد أن يكون طبيباً بنيّة صادقة ينبغي له أن يسلك هذا الخط إلى أن يتخرج، كذا هو رجل الدّين... عليه أن يمشي في خط الاجتهاد، إلى أن يصبح مجتهداً ولكن بشرط النيّة الثابتة، أمّا المتزلزل فإن نيّته ليس فيها صدق.

أمّا الصدق في القول: فهو أن يكون الفرد صادق اللهجة لا يكذب أبداً كما ورد عن الرسول الأعظم ﷺ في مدح أبي ذر قال: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر»[2].

وأمّا الصدق في العمل: فتشير إليه الآية المباركة: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[3].

وعلى أية حال سواء كان للصدق في الآية المباركة معنى عاماً شاملاً أو لم يكن فإنّها تشمل الصدق في اللهجة والكلمة بما لا يخفى.

بالطبع ليس من الهيّن أن يكون الإنسان صادقاً، فعالم الدّين عندما يسأل وليست لديه إحاطة كاملة، أو طبيب يراجعه المريض وليست له تلك الإحاطة الكاملة- وذلك لأن فروع العلم لا تتناهى حقيقة على نحو اللاتناهي الحقيقي- هنا يكمن الامتحان، فعلى رجل الدّين أن يصدق

(١) الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، ج١٠، ص: ٣١٣، ح٢٠.
(٢) الأميني، عبد الحسين، الغدير، ج٦، ص: ٢٩٦.
(٣) سورة الأحزاب: ٢٣.

ويقول: لا أعرف، وكذلك على الطبيب أن يصدق ويقول: لا أعرف ويحوّل المريض إلى طبيب آخر، وهذا شرط أساسي في صفة التقوى.

٣- القبول النفسي والعملي.

﴿وَٱلْقَـٰنِتِينَ﴾: ذكرت لهذه الكلمة تفاسير متعددة منها:

١- الطاعة.

٢- دوام الطاعة.

٣- الخضوع.

٤- الخضوع والطاعة.

والظاهر: أنّ المراد من القنوت: «الخضوع والتسليم» أي القبول النفسي والعملي.

فقد يقصد المريض طبيباً ويذعن بأنّه طبيب فهيم يريد إرشاده إلى ما فيه مصلحة، فإن نهاه عن طعام معيّن أو عن الذهاب إلى طقس خاص، يقبل المريض كلامه نفسياً وعملياً.

وقد يقصد من لا يقرّ بفهمه ولا يعتقد بكونه طبيباً، آنذاك كل ما يقوله الطبيب لا أثر له...

كذا الحال في قضايا الدين، إذ إنّ بعض الأفراد خاصة بعض الشباب المتجدد!! لا توجد لديهم حالة الخضوع للدّين، علماً أنّ الله تعالى يعبّر عن ذلك بقوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾[1].

---

(١) سورة النحل: ٣١.

بل إنّ البعض لديه حالة العلو أمام الدّين؛ فيقول: لم هذا الحكم؟ لماذا شُرّع هذا التشريع؟ فيكرر المقولة الموجودة في التاريخ التي كانت ولا تزال شعار مجموعة من الناس: «قال الله وأقول أنا»، وقد نقل في التاريخ كثيراً من الاجتهادات في قبال النص، منها:

١- إن النبي ﷺ صام وأفطر ولكنّ النّاس ومن جملتهم بعض الصحابة صاموا ولم يفطروا، وهي مخالفة صريحة لنبيّهم إذ اجتهدوا في قبال فعل النبي ﷺ، ونحن هنا نخاطبهم فنقول لهم: من الّذي أوجب الصوم؟ أليس النبي ﷺ الّذي أوجب الصوم هو نفسه الّذي حرمه؟ وهل أنّكم تعترفون بنبوته أو لا؟

على كلّ هذا منطق القوم: قال النبي ونقول! إذ إنّ كثيراً من أصحاب النبي ﷺ لم تكن لديهم حالة الخضوع للدّين وللنبي ﷺ، وقد قال النبي ﷺ عنهم: «أولئك العصاة، أولئك العصاة، أولئك العصاة، إلى يوم القيامة»[1].

٢- النبي ﷺ شرَّع متعة الحج بين عمرة التمتع وحج التمتع، فجاء ذلك الرجل معترضاً عليه وقال: أنُحرم وكذا يقطر كذا[2]!! وقد ذكر

---

(١) «إنّ رسول الله ﷺ خرج عام الفتح إلى مكة في رمضان فصامَ حتى بلغ كراع الغميم فصام الناس، ثم دعا بقدح من ماء فرفعه حتى نظر الناس إليه ثم شرب، فقيل له بعد ذلك! إنَّ بعض الناس قد صام، فقال: أولئك العصاة، أولئك العصاة» رواه مسلم (٣/ ١٤١- ١٤٢) والنسائي (١/ ٢٦٨).

(٢) نقل الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد في تفسيره في الصفحة ٤١٦ من الطبعة الأولى قال: حدثنا أحمد بن زهير التستري ثنا علي بن المنذر الطريقي ثنا محمد بن فضيل ثنا إسماعيل بن مسلم عن عطاء عن جابر بن عبد الله قال: أهللنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فقدمنا مكة لأربع خلون من ذي الحجة فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحلها ونجعلها عمرة، فأحللنا الحل كله فطفنا بالبيت وبين الصفا والمروة =

عبارة لا تليق أن تذكر في محضر عادي فكيف أمام النبي الأعظم ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «إنّك لن تؤمن بهذا أبداً»، وفعلاً هذه القضية بقيت في قلبه إلى أن استولى على الحكم، فقال النبي ﷺ: «حلّل متعة النساء ومتعة الحج وأنا أحرمهما»[1]!!

«قال النبي وأقول أنا»!! ذلك النص وهذا الاجتهاد...

إذاً التقوى تحتاج إلى حالة الخضوع ليُقبل الإنسان على الله مسلماً خاضعاً، فإن لم تكن للفرد حالة القنوت والخضوع لله وللدّين لا يمكنه أن يمشي في الإطار الشرعي، ولا ينال ملكة التقوى.

وبذلك تكون الاحتمالات في القنوت هي:

الأول: القنوت هو الخضوع.

الثاني: القنوت هو الطاعة: ولعلّه كان من باب وضع المعلول أمام العلّة، يعني حالة الخضوع تنتهي إلى الطاعة ودوامها وفي العلاقة

= حتى إذا كان يوم التروية أمرنا فأهللنا الحنفية فقال بعضنا لبعض خرجنا من أرضنا حتى إذا لم يكن بيننا وبين منى إلا أربع نخرج ومذاكيرنا تقطر منياً؟ فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أتتهموني وأنا أمين أهل السماء وأهل الأرض، أما إني لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما كان الهدي إلا من مكة ولم يذكر قصة سراقة. المصادر الأخرى للرواية: ابن ماجة/ القزويني/ محمد بن يزيد/ سنن ابن ماجة، ج٢، ص: ٩٩٢، ح٢٩٨٠. ابن حبان في صحيحه/ ج٩، ص: ٢٣٣. الطبراني/ المعجم الكبير، ج٧، ص: ١٢٥ و١٢٧. الشيخ النجمي/ محمد صادق/ أضواء على الصحيحين، الصفحتان ٢٩٥و ٢٩٨. الأحمدي الميانجي/ مواقف الشيعة، ج٣، ص: ٣٩٥. ابن حنبل/ أحمد/ المسند، ج٢، ص: ٣١٧.

(١) الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، ج١، ص: ١٨. العسقلاني، ابن حجر، سيل الإسلام، ج٣، ص: ١٧٣ رقم٣.

المجازيّة- في علم البلاغة- أحياناً يعبّر بالعلّة عن المعلول وأحياناً بالمعلول عن العلّة وأحياناً بأحد المتلازمين عن الآخر.

ولعلّ جميع المعاني تؤدي إلى المعنى التالي: حالة الانقياد الباطني لله والنبي ﷺ والدّين.

٤- الصلة الوثيقة بين التقوى والإنفاق.

الصفة الرابعة: الإنفاق، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾.

وفي الإنفاق مباحث متعددة:

١- أنوع الإنفاق.

٢- كيفية الإنفاق.

٣- المنفق عليهم.

لا نريد الخوض في هذه المباحث لكن نشير إلى نقطة واحدة، وهي العلاقة بين صفة الإنفاق والتقوى، حيث وردت هذه الصفة ضمن الحديث عن المتقين، فيبدو من ذلك وجود علاقة وثيقة بين التقوى والإنفاق، ويمكن أن نقرر العلاقة على النحو التالي:

كثير من الواجبات والوظائف الشرعية ترتبط ارتباطاً مباشراً بالإنفاق، والّذي لا توجد عنده حالة الإنفاق بل له حالة البخل والإمساك، لا يمكن أن يتحلى بهذه الصفات، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(١)، وعلى سبيل المثال:

١- **الخمس**: من الوظائف الشرعيّة الماليّة، وقد ورد ذكره في القرآن

---

(١) سورة الحشر: ٩.

الكريم، ومعناه أن يدفع الإنسان عشرين بالمائة من أمواله لله سبحانه وتعالى - إن توفرت الشروط الشرعيّة المذكورة في الفقه-، وهو أمر صعب، فالفقير الذي يملك مائة دينار يجب أن يدفع منها عشرين ديناراً، والحال أن الشيطان يُلقي إليه أنّك تفقد عشرين بالمائة من أموالك دفعة واحدة وأنت بحاجة إليها! وكذا هو التاجر الذي له مائة مليار، فإنّ الوظيفة الشرعية تقتضي أن يدفع عشرين ملياراً دفعة واحدة.. فهذه وظيفة شرعية ماليّة.

٢- **الزكاة المفروضة**: وهي تتعلق بالذهب والفضة والحنطة والشعير والتمر والزبيب والبقر والغنم والإبل، على التفصيل المذكور في الكتب الفقهية، وكثير من الناس لا يؤدون هذه الفريضة.

٣- **الديون**: التي يستثقل الكثير أدائها لوجود التسامح فيها عند كثير من الأفراد، كالمهر المؤجل للزوجة الذي يعيّن عند العقد، فإنّ الزوجة عندما تطالب به الرجل وهو قادر عليه لا يدفعه إليها وهو حقها!، وغالباً ما تكون المرأة ضعيفة لا حول لها ولا قوة، وقد نقل لي أنّ في بعض البلاد المرأة تُهَدَد بالضرب أو تُضرَب إن طالبت بمهرها المؤجل، لذا فهي لا تفكر أبداً فيه؛ مع أنّه حق من الحقوق المالية..

٤- **الإنفاق على العمودين**: - الآباء والأمهات- وفي بعض الظروف الفقهية الإنفاق على الأولاد...

٥- **الأمور المالية التي تقع في ذمة المكلف بالعرض لا بالأصالة:** كالكفّارات وغيرها كما هو مدوّن في الفقه، فمن لا يملك حالة الإنفاق لا يمكنه أن يقوم بهذه الحقوق المالية.

٦- ما ذكرناه من الوظائف الشرعية المالية قد تكون هينة بالنسبة إلى من اقتضت وظيفته الشرعيّة أن يُخرِج من كل أمواله- في بعض الحالات النادرة- لكون ما اكتسبه أجمعه حرام!! ولكن هل يمكن للفرد أن يتخلى عن جميع أمواله؟!!

ينقل أنّ رجلاً كان يملك أراضي كبيرة كلها كانت محرمة، ولكنّه في لحظة يقظة ضمير قرر أن يتخلى عنها جميعاً فتخلى عنها وذهب إلى فلاح وعمل لديه كعامل بأجرة!.

وينقل أنّ والياً من ولاة بني أمية في لحظة واحدة تخلى عن جميع أمواله- لأنها جميعاً أو كثير منها كانت محرّمة ـ! والإمام الصادق عليه السلام ضمن له الجنّة.

وبالتالي هناك علاقة وثيقة بين كون الفرد متقياً والإنفاق، ولعلّ ذِكر كلمة: ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ في سياق الآية يعود إلى الارتباط الوثيق بين التقوى وصفة الإنفاق.

أهمية السَّحَرِ ومكانته:

الصفة الأخيرة في هذه المجموعة: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾، وفي هذه الجملة توجد عدة مباحث:

المبحث الأول: السَّحَر في اللغة:

الأسحار جمع سحر، وفي اللغة السَّحَر يدل على الخفاء والتغطية، مثل كلمة سِحْرٌ، يقال للساحِر: ساحِر لأنه يقوم بأعمال خفية: فتارة يقع الشخص في الفراش مريضاً! وقد يحدث خلاف شديد بين زوج وزوجته

بحيث ﴿يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾[1] والعامل وراء ذلك عامل خفي، ولذلك يقال له سِحر.

والسَّحَر: إنما سمي بالسَّحَر، لخفائه، فعندما يعمّ الظلام الكونَ وتنام العيون وتهدأ النفوس، لا ترى ولا تشاهد الأعمال، ويخفى الفرد بحالاته على الآخرين.

المبحث الثاني: وقت السَّحَر:

السَّحَر كما يقول الفقهاء: هو الثلث الأخير من الليل، وأفضل أوقاته السُّدُس الأخير من الليل، أي النصف الثاني من الثلث الثالث، والأفضل منه كلمّا كان أقرب من الفجر، - كما يقوله بعض العلماء-.

المبحث الثالث: مزايا وقت السَّحَر:

الحكمة الكامنة وراء التأكيد على هذا الوقت: هي أنّ لهذا الوقت خصوصيات معينة، منها:

أولاً: تمحض العمل لله سبحانه أكثر، فلا يوجد من يراقب الانطلاق بين العبد وربّه، فما أكثر من يقوم الليل لأعوام كثيرة من غير أن يطلع عليه حتى أهله.

ثانياً: توجد حالة من الحدود في ذلك الوقت، فالإنسان يعيش في النهار خضمّ الحياة وينشغل بها- فيكون- فكره مشوش بالمشاغل المتعددة، ولكنّه في وقت السَّحَر: حيث لا يوجد ما يشغله، يكون الإشراق الروحي في السَّحَر أكثر عادة، وقيل: إنّ بعض العلماء كان يخصص وقت السَّحَر لحل المعادلات والمشكلات العلمية، ففي هذا الوقت يكون التوجه العقلي، والروحي والفكري أكثر بكثير؛ ولعل لهذه

---

(١) سورة البقرة: ١٠٢.

الجهات ولجهات أخرى أكدَ في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة على وقت السَّحَر.

المبحث الرابع: وقفة لمراجعة الماضي.

لماذا ذكرت صفة ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ في سياق صفات المتقين؟

بين فترة وأخرى يحتاج الفرد إلى جرد أعماله، كالتجار فإنّهم في كل عام أو شهر لهم جرد يرون فيه النتيجة من الأرباح والخسائر، وعلى ضوء مسيرة الماضي يرسمون خريطة للمستقبل، ولكن المؤمن عنده جرد كل يوم، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ فمن يعيش في خضم وتيار ربما لا يلتفت إلى أعماله، فقد يجلس الإنسان مع أصدقائه ولا يعلم ماذا قال وماذا قيل له، ولكن هناك وقت للجرد، وهو السَّحَر، حيث يستيقظ المؤمن في السَّحَر ويفكر ماذا فعل؟ ويتذكّر أفعاله ويستغفر الله سبحانه.

فالسَّحَر: وقفة لمراجعة الماضي: وتكون المحاسبة في كلّ يوم وعلى ضوء ما فعل يعيّن المستقبل، والجرد أمر مهم جداً في تحصيل صفة التقوى، إذ مع وجود المراجعة والمراقبة تقل المعاصي والنواقص والذنوب، وهذه ضمانة قويّة لصفة التقوى في المؤمن.

تفسيرات الاستغفار:

١- بعض الروايات فسرت ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ بـ: صلاة الليل[(١)] وكذلك مطلق الصلاة، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «أنّه فسّر الاستغفار بالأسحَار: المصلين وقت السَّحَر»[(٢)].

٢- بعض الروايات فسّرته بنفس الاستغفار وطلب المغفرة من الله

---

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٦، ص: ٢٨١، ح٩.
(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج٨٤، ص: ١٢٠.

عزّ وجلّ، ففي تفسير نور الثقلين عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن من استغفر سبعين مرة في وقت السَّحَر فهو من أهل هذه الآية»[1].

ولا تنافي بين التفسيرين فإنّ نفس الصلاة تمثل نوعاً من الاستغفار وطلب المغفرة أو أنّها تحتوي على الاستغفار أو أنها تلازم الاستغفار.

روايات في نافلة الليل:

ونختم الكلام ببعض الروايات حول نافلة الليل أو قيام الليل:

علامة الشيعي:

١- عن الإمام الصادق عليه السلام: «ليس من شيعتنا من لم يصلّ صلاة الليل»[2].

نوم الليل والفقر في الآخرة:

٢- عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضوان الله عليه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «قالت أم سليمان بن داود لسليمان عليه السلام: يا نبي الله إياك وكثرة النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تدع الرجل فقيراً يوم القيامة»[3].

فالتاجر الذي لم يتجر في وقت التجارة يصبح فقيراً في مستقبل أيامه، والرجل الذي لم يعد لشيخوخته ولم يدخر شيئاً لوقت حاجته،

---

(١) الحويزي، عبد علي بن جمعة، تفسير نور الثقلين، ج١، ص: ٣٢١، ح٦١.
(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٨، ص: ١٦٢، ح١٠.
(٣) الصدوق، محمد بن علي الحسين، الأمالي، ص: ٣٠٤، ح٣.

يظلّ محتاجاً فقيراً في كبره، وكذلك كثرة النوم بالليل تدع الرجل فقيراً يوم القيامة لا يملك شيئاً حيث إنّه لم يمهد لآخرته.

من هو المغبون؟

٣- عن الإمام الصادق عليه السلام: أنّه خاطب أحد أصحابه: «يا سليمان لا تدع قيام الليل فإنّ المغبون من حرم قيام الليل»[١].

جيفة الليل:

٤- عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ أبغض الخلق إلى الله جيفة الليل وبطّال بالنهار»[٢].

من يحب الله عزّ وجلّ؟

٥- عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الله خاطب نبيّه موسى بن عمران: يا ابن عمران كذب من زعم أنّه يحبني فإذا جنّه الليل نام، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه؟ ابن عمران هب لي من قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ومن عينك الدموع في ظلم الليل، وادعني تجدني قريباً مجيباً»[٣].

المستجاب دعوته:

٦- عن النبي صلى الله عليه وآله: «إن العبد إذا تخلّى بسيده في جوف الليل المظلم وناجاه أثبت الله النور في قلبه[٤]، فإذا قال: يا رب يا رب، ناداه

---

(١) الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام، ج٢، ص: ١٢٢، ح٢٣٠.
(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج٨٤، ص: ١٥٨، ح٤٦.
(٣) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٤، ص: ١١٢٥، ح٢.
(٤) أي قلبه يكون قلباً نورانياً. منه رحمه الله.

الجليل جلّ جلاله: لبيك عبدي سلني أعطك، وتوكل عليّ أكفك، ثم يقول جلّ جلاله لملائكته: انظروا إلى عبدي فقد تخلى في جوف الليل المظلم والبطالون لاهون[١]، والغافلون نيام، اشهدوا أني قد غفرت له»[٢].

اهتمام السابقين بصلاة الليل:

كان السابقون يهتمون بقيام الليل وصلاة الليل ونافلة الليل: يُنقل أنّ شخصاً لم يَقُم ليلة لنافلة الليل فَرُئي باكياً، ولما قيل له: لماذا تبكي؟ قال: لم أقم البارحة لنافلة الليل وأفكر أنّه أي ذنب صدر مني حتى حُرِمت من ذلك؟!

وفي قضية مذكورة عن الشيخ حبيب الله الكلبايكاني:

إنّه كان يستيقظ وقت السَّحَر مدة أربعين عاماً ويتوضأ ثم يتوجه إلى حرم الإمام الرضا عليه السلام سواء في الحرّ أو البرد القارص والثلوج الكثيرة ويقف خلف باب الحرم يصلي صلاة الليل إلى أن تفتح الباب، فكان أول من يدخل على الإمام روحي فداه وكان هذا برنامجه اليومي لمدة ٤٠ عاماً.

وربما يتصور البعض أن هؤلاء ليس لهم عمل أو برنامج، لكنّ بعضهم كانوا ينامون الليل لساعتين فقط.. وكثير من التجار في البلاد المقدسة- كما ينقل المعمرون- كانوا يستيقظون قبل طلوع الفجر

(١) أي ساهون: قال الشيخ الطريحي في كتابه مجمع البحرين في مادة (ل ه و) في قوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أي ساهية بالباطل مشغولة عن الحق..
(٢) الحر العاملي، الجواهر السنية في الأحاديث القدسية، ص: ١٤٠.

ويسبغون الوضوء في بيوتهم ثم يذهبون إلى حرم الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء المقدسة ويقفون خلف الباب المغلق ويصلون صلاة الليل إلى أن يُفتح الباب فيدخلون الحرم المبارك.

إذاً صلاة الليل ليست للعاطلين عن العمل بل هي جزء من البرنامج الذي ينبغي الاهتمام به، ونحن أيضاً ينبغي لنا أن نلتحق بهذا الركب وأن لا يسلب منّا هذا التوفيق العظيم، فعلى الفرد أن ينظم نومه بشكل ليتمكن من الاستيقاظ في ذلك الوقت ويختلي بسيده ويناجي ربّه ويمهد لآخرته.

التوحيد ومكانته

الآية

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٨﴾[1].

(١) سورة آل عمران: ١٨.

المفردات

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾: الشهادة لغة تطلق على أحد معنيين:

الأول: تحمّل الشهادة، أي المعاينة عن حضور.

الثاني: أداء الشهادة أي إظهار الشاهد ما تحمّله من العلم.

﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾: القسط هو العدل ويشمل العدل في التكوين والتشريع والجزاء.

الإعراب:

﴿قَآئِمَۢا﴾: هناك رأيان من الناحية الأدبية حول كلمة قائماً:

الأوّل: أنها حال للفظة «الله»: فيكون المراد شهد الله والملائكة وأولو العلم بالوحدانية حال كون الله قائماً بالقسط، وعلى هذا الرأي يقع العدل الإلهي ضمن المشهود به.

الثاني: أنّها حال من كلمة «هو»، فيقع العدل ضمن دائرة المشهود به ودائرة الشهادة، وتكون الآية: شهد الله أنه لا إله إلا هو حال كونه قائماً بالقسط- هذا ضمن المشهود حال من كلمة هو- وشهدت الملائكة بما شهد به الله أي شهدوا بالوحدانية وبالعدالة وكذلك شهد أولو العلم.

التفسير:

المدخل:

الآية المباركة إحدى الآيات التي كانت موضع اهتمام النبي الأعظم ﷺ وأهل بيته الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين..

قال بعض العلماء: إنّ النبي الأعظم ﷺ في ليلة عرفة كان يُكثر من تلاوة هذه الآية المباركة، وفي الأحاديث المروية أنّها كانت موضع اهتمام أهل البيت عليهم السلام وعنايتهم، ففي تفسير نور الثقلين بإسناده إلى محمد بن عثمان العمروي قال: لما ولد الخلف المهدي سطع نور من فوق رأسه إلى عنان السماء، ثم سقط لوجهه ساجداً لربه تعالى ذكره، ثم رفع رأسه، ثم تلا هذه الآية المباركة: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ إلى آخر الآية[1].

وفي الكافي في خبر طويل يظهر منه أنّ كلّ إمام من أئمة أهل البيت عليهم السلام كان يتلو الآية عند ولادته، فإذا قال ذلك أعطاه الله العلم الأوّل والعلم الآخر[2].

---

(١) الحويزي، عبد علي بن جمعة العروسي، تفسير نور الثقلين، ج١، ص: ٣٢١، ح٦٣.

(٢) روى «علي بن محمد، عن عبد الله بن إسحاق العلوي، عن محمد بن زيد الرزامي عن محمد بن سليمان الديلمي، عن علي بن أبي حمزة، عن أبي بصير قال: حججنا مع أبي عبد الله عليه السلام في السنة التي ولد فيها ابنه موسى عليه السلام، فلما نزلنا الأبواء وضع لنا الغداء وكان إذا وضع الطعام لأصحابه أكثر وأطاب، قال: فبينا نحن نأكل إذا أتاه رسول حميدة فقال له: إن حميدة تقول: قد أنكرت نفسي وقد وجدت ما كنت أجد إذا حضرت ولادتي، وقد أمرتني أن لا أستبقك بابنك هذا، فقام أبو عبد الله عليه السلام فانطلق مع الرسول، فلما انصرف قال له أصحابه: سرّك الله وجعلنا فداك فما أنت صنعت من حميدة؟ قال: سلّمها الله وقد وهب لي غلاماً وهو خير من برأ الله في خلقه، ولقد أخبرتني حميدة عنه بأمر ظنت أني لا أعرف ولقد كنت أعلم به منها، فقلت: جعلت فداك وما الذي أخبرتك به حميدة عنه؟ قال: ذكرت أنه سقط من بطنها حين سقط واضعاً يديه على =

وعلى ما يبدو أنّ الآية تتناول القاعدة التي يبتني عليها البنيان الفكري والعقائدي والعملي للأمّة، ألا وهي قاعدة التوحيد والعدل، فالنبوة تبتني على التوحيد والعدل، وكذا الإمامة فإنّ قاعدتها التوحيد والعدل، وكذلك المعاد أيضاً مبتنٍ على التوحيد والعدل.

= الأرض، رافعاً رأسه إلى السماء، فأخبرتها أن ذلك أمارة رسول الله ﷺ وأمارة الوصي من بعده، فقلت: جعلت فداك وما هذا من أمارة رسول الله ﷺ وأمارة الوصي من بعده؟ فقال لي: إنه لما كانت الليلة التي علق فيها بجدي أتى آت جد أبي بكاس فيه شربة أرق من الماء وألين من الزبد وأحلى من الشهد وأبرد من الثلج وأبيض من اللبن، فسقاه إياه وأمره بالجماع، فقام فجامع فعلق بجدي ولما أن كانت الليلة التي علق فيها بأبي أتى آت جدي فسقاه كما سقى جد أبي وأمره بمثل الذي أمره فقام فجامع فعلق بأبي، ولما أن كانت الليلة التي علق فيها بي أتى آت أبي فسقاه بما سقاهم وأمره بالذي أمرهم به فقام فجامع فعلق بي، ولما أن كانت الليلة التي علق فيها بابني أتاني آت كما أتاهم ففعل بي كما فعل بهم فقمت بعلم الله وإني مسرور بما يهب الله لي، فجامعت فعلق بابني هذا المولود فدونكم فهو والله صاحبكم من بعدي، إن نطفة الإمام مما أخبرتك وإذا سكنت النطفة في الرحم أربعة أشهر وأنشئ فيها الروح بعث الله تبارك وتعالى ملكاً يقال له: حيوان فكتب على عضده الأيمن ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ وإذا وقع من بطن أمه وقع واضعاً يديه على الأرض رافعاً رأسه إلى السماء، فأما وضعه يديه على الأرض فإنه يقبض كل علم لله أنزله من السماء إلى الأرض وأما رفعه رأسه إلى السماء فإن منادياً ينادي به من بطنان العرش من قبل رب العزة من الأفق الأعلى باسمه واسم أبيه يقول: يا فلان بن فلان اثبت تثبت، فلعظيم ما خلقتك أنت صفوتي من خلقي وموضع سري وعيبة علمي وأميني على وحيي وخليفتي في أرضي، لك ولمن تولاك أوجبت رحمتي ومنحت جناني وأحللت جواري، ثم وعزتي وجلالي لأصلين من عاداك أشد عذابي وإن وسّعت عليه في دنياي من سعة رزقي فإذا انقضى الصوت - صوت المنادي - أجابه هو واضعاً يديه رافعاً رأسه إلى السماء يقول: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ قال: فإذا قال ذلك أعطاه الله العلم الأول والعلم الآخر واستحق زيارة الروح في ليلة القدر، قلت: جعلت فداك الروح ليس هو جبرئيل؟ قال: الروح هو أعظم من جبرئيل، إن جبرئيل من الملائكة وإن الروح هو خلق أعظم من الملائكة، أليس يقول الله تبارك وتعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾. أصول الكافي، ج١، ص: ٣٨٥-٣٨٧، ح١.

وبعبارة جامعة: البناء العقائدي كله، والبناء العملي، والبناء الفكري يبتني على التوحيد والعدل، ولعلّه لذلك كان الاهتمام من قبل النبي وأهل بيته عليهم السلام بتلاوة الآية المباركة.

وفي هذه الآية عدة بحوث:

الأول: ما هي الشهادة؟

البحث الثاني: أنواع الشهادة.

البحث الثالث: كيف تكون شهادة الله تعالى بالوحدانية؟

البحث الرابع: كيف تكون شهادة الملائكة وأولو العلم بالوحدانية؟

البحث الخامس: ما هي الرابطة بين العلم والشهادة بالألوهية والوحدانية؟

البحث السادس: ما هو دور العدل في البناء الفكري والعقائدي والعملي في الأمة.

وسنتعرض لهذه المباحث على نحو الإجمال.

الشهادة: التحمّل أو الأداء؟

البحث الأول: ما هي الشهادة وما معناها؟

تطلق الشهادة في اللغة العربية- على نحو من الاشتراك اللفظي- بين معنيين:

الأوّل: المعاينة عن حضور أو ما يقوم مقامه كأن يريد شخص أن يقرض آخر فيطلب ممن حوله أن يشهدوا عليه بأن يعاينوا الواقعة، فيقال: شهدت الواقعة الكذائية.

الثاني: إظهار الشاهد ما تحمّله من العلم: كأن يحدث اختلاف وتُطلبون إلى المحكمة لأنّكم تحملتم علماً فتظهرون ذلك العلم الذي تحملتموه.

وبعبارة أخرى: الشهادة تطلق على التحمّل وعلى الأداء أيضاً.

الإظهار اللفظي والعملي:

البحث الثاني: تنقسم الشهادة بالمعنى الثاني إلى قسمين:

الأوّل: أن يكون الإظهار لفظياً.

الثاني: أن يكون الإظهار عملياً، ولعلّ الشهادة العملية غالباً أو دائماً أقوى من الشهادة اللفظية، حيث يكون الواقع حينئذ هو الذي على الحقيقة.

هل الشهادة اللفظية، دورية؟

البحث الثالث: كيف تكون شهادة الله تعالى بالألوهية؟ وكيف تفسّر الآية المباركة التي تقول: شهد الله أنّه لا إله إلا هو؟

هناك جوابان على ذلك:

الأوّل: أن تكون الشهادة لفظية ولا مانع منها إلا أنّ البعض يخالف كونها في المقام لفظية لمانع عقلي، وتقريره: أن الشهادة اللفظية هل هي لمن لا يعتقد بالألوهية أو لمن يعتقد بها؟ ومن المشهود عنده؟ فإن كان مؤمناً يعتقد بالله عزّ وجلّ فهو لا يحتاج إلى الشهادة لكونه آمن مسبقاً بالألوهية، وإن كان كافراً، لا يعتقد بالألوهية فإن الشهادة دورية - على حسب اصطلاح العلماء- فمن لا يعتقد بالله ويكتب كتاباً عنوانه

«أين الله» لا تفيده شهادة كهذه، لأنّه لا يقرّ بالله عزّ وجلّ فكيف يقبل شهادته.

ولذا لا معنى لأن تكون الشهادة لفظية بل هي بمعنى آخر سنذكره إن شاء الله تعالى.

إلا أنّ هذا الكلام غير وارد- على ما يبدو في بادئ النظر- حيث لا مانع من أن تكون الشهادة لفظية- لأن الشاهد عندما يشهد بقضية، فإنّ شهادته تتضمن مضموناً معيناً، إما لا تحمل إثباتها في ذاتها أو تحملها في ذاتها، فلو شهدت بوجود الليل فالشهادة تحمل برهانها في ذاتها ولا مانع منها، وكذا الشهادة بوجود الناس في الخارج، فالشهادة بالحقائق الخارجية والنفسية تحمل إثباتاتها في ذاتها ولا مانع حينئذ أن تكون الشهادة لفظية، والمضمون الذي تحمله الآية المباركة إثباته كامن في ذاته، حيث إنّ كلّ شيء في الوجود يُقرّ وينادي بالألوهية، وفي دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة: «عميت عين لا تراك ولا تزال عليها رقيباً»(١) والذي لا يرى الله عزّ وجلّ أو لا يراه عليه رقيباً هو أعمى القلب، يقول الشاعر:

وفي كلّ شيء له آية ... تدل على أنّه واحد

التقيت بشاب في إحدى البلاد العربية معه شخص آخر، فقال: إنّه ينُكر وجود الله عزّ وجلّ، فتحدثت معه من زوايا مختلفة، ومما قلت له: إن قيل لك: بأن نظارتك [العوينات] وجدت صدفة بصنع الرياح التي هبت وجمعت المعادن والزجاج و... الخ، هل تقبل ذلك؟

---

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج٦٤، ص: ١٤٢.

قال: لا. قلت: عينك أدق أم النظارة؟ فالنظارة جهاز بسيط مقابل العين التي لم يصل العلماء على طول التاريخ إلى جميع أسرارها، فكيف تعتقد: أن النظارة لا يمكن أن توجد إلا إذا كان ورائها علماء وخبراء ومفكرون ومعامل دقيقة وبالمقابل تعتقد أن عينك وجدت بلا مكوّن وبلا...!! فاحتار الشاب بالجواب..

العلم والوصول إلى الله:

عندما يذهب الفرد إلى المختبر ويرى دقائق الخلقة، يوقن بوجود الله سبحانه وتعالى.. ولذا صرّح ذلك العالم الكبير قائلاً: وجدت الله في المختبر[١].

وقد أكدّ القرآن الكريم على العلم، فإنّ العلم يؤثر تأثيراً بالغاً في الإيمان وفي درجاته، وفي دعاء كميل: «وعلى ضمائر حوت من العلم بك حتى صارت خاشعة»، فالخشوع له منشأ ومنبع، إذا وُجد وُجد الخشوع لله تعالى قهراً، والخشوع حالة باطنية، ويتبعها الخضوع: وهي حالة ظاهرية.

وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[٢]. فالعلم يقود إلى الله وإلى الخشوع والخضوع والخشية، ولأهمية العلم ومكانته أكدت عليه الروايات الشريفة أشد تأكيد، منها:

---

(١) هو العالم ألبرت أنشتاين: صاحب نظرية ازدواجية المادة والجُسَيم، قال هذا الكلام في إحدى المقابلات الصحفية عندما طُرح عليه سؤال: أين الله في فكرك؟ فأجاب.. عندما أدخل المختبر.

(٢) سورة فاطر: ٢٨.

١- «كونوا علماء»[1] أي اجعلوا العلم جزء المنهج إلا أنّ في بلادنا الإسلامية العلم ليس ضمن المنهج.

٢- قال النبي ﷺ: «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد»[2].

٣- وقال ﷺ: «اطلبوا العلم ولو بالصين»[3].

ومما يؤسف له أنّ الطفل في بعض البلاد غير الإسلامية يولد وينشأ ضمن منهج ويصرف أربعين بالمائة من الأموال التي تعطى له في الكتاب.. فينشأ هذا الطفل وهو محب للعلم ومدمن على المطالعة.

أمّا الذي لم يعهد الكتاب من طفولته ولم يتعلم على المطالعة فهو لا يحب الكتاب ويبتعد عنها.. لذا ينبغي أن يكون التعلم ضمن المنهج..

نقل أحد الأخوة المؤمنين، قال: ركبت القطار في بلد غربي فرأيت أنّ كلّ شخص أخرج كتاباً وشرع بمطالعته، أمّا أنا فلم يكن لدي كتاب فخجلت من نفسي! .. هناك ثلاث كتب تبيّن كيف أنّ العلم يقود إلى الله عزّ وجلّ ولا بأس بقراءتها:

١- الله يتجلى في عصر العلم[4].

---

(١) الطبرسي، الفضل بن الحسن، تفسير مجمع البيان، ج٢، ص: ٣٣١، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾.

(٢) القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي، ج٢، ص: ٤٠١.

(٣) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٢٧، ص: ٢٧، ح٢٠.

(٤) الكتاب للمؤلف جون كلوفر، وهو قسيس أميركي عاش في منتصف القرن العشرين، صدر هذا الكتاب في أميركا عام ١٩٥٨م وهو عبارة عن جمع لمقالات أربعين عالماً في مختلف علوم الطبيعة، وقد كتبت تلك المقالات في معرض الإجابة على سؤالين طرحهما القسيس كلوفر، الأول: هل تؤمن بوجود الرب؟ والثاني: كيف دل العلم الذي تدرسه على ذلك؟

٢- **العلم يدعو إلى الإيمان**[١].

٣- **الطب محراب للإيمان**[٢].

وبعد بيان أهمية العلم نعود إلى ما أردنا بيانه: من عدم المانع من أن تكون الشهادة لفظية لأن المضمون الذي تحتوي عليه هذه الآية المباركة تثبته كل ذرة من ذرات الكون الفسيح، ووزان هذه الشهادة وزان بقية الإخبارات التي ذكرت في القرآن الكريم عن العالم الربوبي عما يتعلق بساحة الربوبية مثل قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٣] وقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾[٤] و...، فلا مجال للقول بدورية الشهادة.

الجواب الثاني: إنّ الشهادة تكون شهادة عملية وقد سبقت الإشارة في المبحث الثاني إلى أنّ الشهادة العملية أقوى أنواع الشهادة..

في معنى «آية» ودلالتها لإثبات صفات الله فضلاً عن وجوده:

هناك ملاحظة جديرة بالذكر وهي: إن القرآن الكريم في آيات متعددة يستخدم كلمة (آية) كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾[٥] وقوله: ﴿لَآيَاتٍ﴾[٦]، وقد ذكر بعض العلماء في علم العقائد أنّ الإلفات إلى قضية الآيوية لم تكن مطروحة قبل القرآن الكريم عند المفكرين، فالأشياء

---

(١) أصل الكتاب للمؤلف كريسي موريسون رئيس الأكاديمية العالمية في نيويورك سابقاً، وعنوانه (الإنسان لا يقوم وحده) كتبه رداً على كتاب (الإنسان يقوم وحده).

(٢) أصل هذا الكتاب رسالة أعدت لنيل لقب الدكتوراه في الطب تأليف الطبيب خالص جلبي كنجو.

(٣) سورة الزمر: ٦٧.

(٤) سورة محمد: ١٩.

(٥) سورة البقرة: ٢٤٨.

(٦) سورة الأنعام: ٩٩.

كما تدلّ على أصل الوجود تدلّ على صفات الله تعالى، فكل ورقة من أوراق الأشجار كما تثبت أصل الوجود تثبت صفات الله تعالى، وعلى سبيل المثال: عندما نرى كتاباً معيناً فإنّ ذلك يثبت شيئين:

١ ـ وجود مؤلف لهذا الكتاب أي أصلُ الوجود، وهو مفاد كان التامة- كما يصطلح عليه العلماء-.

٢ ـ مجموعة من صفات المؤلف، فالكتاب يثبت أن المؤلف عالم أو لا؟ قادر أو لا؟ حكيم أو لا؟ فكما أنّ الآيات الآفاقية والآيات الأنفسية[1] وكل ذرة في الكون تثبت أصل وجود الله سبحانه فإنّها في الوقت نفسه تثبت مجموعة كبيرة من صفات الله سبحانه وتعالى، ومنها علمه وحكمته وعدله وقدرته، وتثبت قيوميته ورحمته: إلى كثير من هذه الصفات..

والحاصل أن شهادة الله سبحانه وتعالى يمكن أن تكون شهادة لفظية فضلاً عن كونها عملية.. فإنّ الخلق والتكوين شهادة عملية من الله سبحانه على وجوده وعلمه ووحدانيته وغيرها من الصفات..

الآية المباركة: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: تشير إلى أنّ شهادة الملائكة شهادة لفظية أولاً وشهادة عملية ثانياً: لأنهم لا يخضعون إلا لله سبحانه وتعالى و: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[2] فهذه شهادة عملية.

---

(١) إشارة إلى الآية المباركة: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ فصلت: ٥٣.

(٢) سورة التحريم: ٦.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾ : أي إنّهم ممن شهدوا بتلك الشهادة، وجعل الباري تعالى أولي العلم إلى جانب الملائكة ليظهر موقعهم ومكانتهم المرموقة عنده، حيث إن علمهم قادهم إلى الإيمان بالله وبوحدانيته، وأولو العلم كلهم يشهدون شهادة لفظية وشهادة عملية بوجود الله وصفاته، فالأنبياء - الذين عددهم ١٢٤ ألف نبي ويعتقد البعض أنّهم ٣٠٠ ألف نبي- والأوصياء الّذين عددهم بعدد الأنبياء أو أكثر- حيث كان لكثير من الأنبياء أكثر من وصي واحد- يمثلون قمة البشرية، والتاريخ لم يشهد مثل موسى وعيسى وإبراهيم وخاتم الأنبياء محمد ﷺ، هؤلاء كلهم يشهدون بقولهم وبعملهم بوحدانية الله وبتفرد الله تعالى بالألوهية. وكذا العلماء الكبار.

من لا يعتقد بالغيب ليس بعالم:

هناك بعض الشذاذ بين العلماء وهؤلاء لا يسمون بالعالم، لكون علمهم حجاب.. أو لأنّهم أدركوا الحقيقة ناقصة، فمثلهم كمن يسمع طرقاً على الباب ويتسمر ذهنه على الطرق ولا ينتقل إلى وجود طارق خلف الباب فهل يطلق على هذا أنّه عالم؟

حتى الطفل يؤمن بالغيب فما بالك بالعالم لا يؤمن بالغيب؟

فالطفل لو رأى حقيبة مفتوحة ودفاتره مبعثرة، يتساءل قائلاً: من عمل هذا العمل؟ فإن أجيب بأنّ الحقيبة هي التي انفتحت والدفاتر بنفسها تبعثرت، هل يرضى بالجواب ويقتنع أم يعيد السؤال بأنّه من فعل هذا؟ بل حتى الحيوان بما له من السعة العلمية الضيقة والضعيفة- حيث له درجة من العلم وإن كانت أقلّ من البشر كما يبدو- يؤمن بالغيب، فلما يسمع

صوتاً يلتفت ليرى مَن خلف الصوت.. فالّذي لا يعتقد بالغيب ولا تقوده جميع هذه الآيات إلى الله سبحانه أنزل درجة من الحيوان كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[1]. فالعلم يقود إلى الله سبحانه، وقمم البشرية والعلماء الكبار كلهم يشهدون شهادة لفظية وشهادة عملية بألوهية الله سبحانه وبوحدانية الله تعالى.

العدل الإلهي ومكانته:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾[2] قد أشرنا مسبقاً أنّ هذه الآية المباركة تتناول القاعدتين الأساسيتين التي يبتني عليها البنيان العقائدي والفكري والعملي للدّين، وقد تمَّ البحث في القاعدة الأولى وهي التوحيد.

العامة والإنكار الخفي للعدل:

أمّا القاعدة الثانية: فهي قاعدة العدل الإلهي، وهو أصل من أصول المذهب لدى الإمامية، وقد أشارت إليه الآية المباركة، والمعتزلة أيضاً وافقت الإمامية في ذلك إلا أنّ الحقيقة المؤسفة أنّ أغلب المسلمين وللأسف حتى اليوم ينكرون العدل الإلهي، إلا أن إنكارهم العدل الإلهي إنكار خفي وليس بصريح، فقد يُنكَر الشيء بصراحة كأن يُقال: الحاكم الفلاني ليس بعادل بل هو ظالم، وأخرى يُنكر الشيء بخفاء كأن يُقال: ليس للعدل وجود واقعي حقيقي بل كلّ ما يفعله الحاكم فهو عدل، فقتله

---

(١) سورة الفرقان: ٤٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٨.

عدل، وسجنه عدل، وانتهاكه المحرمات عدل، وبعبارة جامعة الأمر كلّه بيد الحاكم وكلّ ما يفعله فهو عين العدل، كما يقول الشاعر:

لك جسمي تُعلُّه فدمي لا تُطِلهُ قال إن كنت مالكاً فلي الأمر كله

وهذا الرأي في واقعه إنكار خفي لعدالة الحاكم..

دور العقل في معرفة العدل:

والحق هو وجود العدل، لأنّه يمثل حقيقة ذاتيه يدركها العقل: فهو يدرك العدل والظلم، نعم ربما في بعض الموارد لا يدرك العقل الواقع، إلا أنّه في مواقع كثيرة يدرك العدل والظلم.

وأفعال الله سبحانه وتعالى كلّها في إطار العدل.. والّذين يلغون دور العقل في إدراك العدل والظلم ويذهبون إلى عدم استقلالية العقل في الحكم، فإنّهم قد ألغوا دور العقل في إدراك أصل الألوهية.. وإلا كيف يتوصل العبد إلى معرفة الله سبحانه؟ أليس عن طريق العقل؟ فهو الذي يقودنا إلى الله سبحانه وتعالى، فلو شككنا في إدراكات العقل ولم نثق بواقعيتها ومطابقتها للواقع كما ذهب إلى ذلك الآخرون ممن خرجوا عن نطاق مذهب أهل البيت عليهم السلام- لزم أن نلتزم بـ:

١- أن الله سبحانه وتعالى هو الّذي أجبر أبا جهل على الكفر!! وهو يحاسبه على كفره ويقذفه في نار جهنم!! إذ إنّ الأشاعرة الّذين يمثلون أكثرية المسلمين غير الشيعة يصرّحون أنّ هذا عين العدل!! وإن قيل لهم: إنّ العقول تقضي بأنّ هذا ظلم، يقولون: «لا ثقة بإدراكات العقل: ولا يمكن الاطمئنان بالعقل في إدراك العدل والظلم».

٢- ولنذكر مثالاً آخراً: فلمّا يسألون: من الّذي جعل صدّام يرتكب

هذه الجرائم والجنايات والمجازر التي ارتكبها بحق الملايين ممن قتلهم وشرّدهم وسجنهم وأيتمهم؟ يقولون: «الله أجبر صداماً على كل جرائمه!! وفي يوم القيامة يأتي صدّام إلى محكمة العدل الإلهي فيقول له الله عزّ وجلّ: لماذا ظلمت وارتكبت الإبادة الجماعية؟ يجيب قائلاً: يا الله أنت الّذي أجبرتني على ذلك، فيقول له الله عزّ وجلّ: إجباري إياك على الظلم هو عين العدل! وإلقائي إيّاك في جهنّم عين العدل أيضاً!!» وطبعاً باعتقاد الأشاعرة يمكن أيضاً لله عزّ وجلّ: أن يأخذ صدّاماً ويضعه في قمة الجنّة في مصاف الأنبياء والأولياء!! وإن اعترض أحد المظلومين قائلاً: «يا الله كيف تضع الظالم في عداد الأنبياء والأولياء؟ يقول له الله عزّ وجلّ: عقولكم لا تدرك وما أقوم به هو عين العدل»!!، ..

ولا يخفى أنّ هذا الاعتقاد ليس منطق شخص يقول كلاماً غير مسؤول، بل هو منطق الملايين ممن لا يعتقدون بمنهج أهل البيت عليهم السلام.

٣- يمكن أن يلقي الله جميع أوليائه وجميع أنبيائه وجميع الأوصياء في قعر الجحيم خالدين فيها.. هؤلاء الّذين ضحوا من أجل الله وأفنوا حياتهم من أجل مرضاته لو قذف بهم إلى قعر النار التي ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ ووضع الجناة والظلمة والكفّار في صدر الجنّة، لكان عين العدل الإلهي!!، هذا ما التزمه الأشاعرة بحجة: أنّ العقل لا يدرك!

الأشاعرة والوقوع في التناقض:

لا يخفى أن تجريد العقل من قيمته وسلب الثقة عنه في إدراك الظلم والعدل يستلزم عدم جواز إثبات أصل الألوهية عبر العقل! ولو سُئِلَ

الأشاعرة: كيف توصلتم إلى معرفة الله سبحانه؟ لأجابوا: بهذا العقل الّذي مَنَّ الله به علينا، ولو قيل لهم: بعد أن سلبتم الثقة من العقل في إدراكه للعدل والظلم، كيف تعتمدون على إدراكه في إثبات الألوهية؟

هذا هو التناقض بعينه، فإمّا أن نعطي للعقل قيمته في إدراك الألوهية والعدل والظلم ونعتقد بكلتا القضيتين، وإمّا أن نجرد الإدراكات العقلية من قيمتها في كلتا القضيتين.. أمّا التفكيك بينهما بأن نؤمن بالإدراك العقلي في قضية الألوهية، ونسلب الثقة من إدراكه في قضية العدل والظلم، فهو تناقض فاحش في ذاته...

هل العدل الإلهي ضمن المشهود به؟

﴿قَآبِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾: القسط هو العدل، وقد أكّدت الآية المباركة وغيرها من آيات القرآن الكريم على العدل الإلهي، أمّا كلمة ﴿قَآبِمًا﴾ ففيها- من الناحية الأدبية- رأيان:

الأول: أنها حال مؤكدة للفظة الله سبحانه وتعالى، ومعه يكون المراد من الآية: شهد الله حال كونه قائماً بالقسط أنّه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم، وبناءً على ذلك: لا يقع العدل الإلهي ضمن المشهود به.

وبعبارة أخرى: المراد من الآية كالتالي: شهد الله والملائكة وأولو العلم بالوحدانية، حال كون الله سبحانه وتعالى قائماً بالقسط.

الثاني: أنّ قائماً حال من كلمة هو، فيقع ضمن المشهود به، أي ضمن دائرة الشهادة، ومعه يكون المعنى كالتالي: شهد الله أنه لا إله إلا هو حال كونه قائماً بالقسط- هذا ضمن المشهود، حال من كلمة هو-،

وشهدت الملائكة بما شهد به الله- أي شهدوا بالوحدانية وبالعدالة-، وأولو العلم أيضاً شهدوا بما شهد به الله والملائكة- يعني شهدوا بالوحدانية والعدل-.

فالعدل الإلهي هو الركن الثاني الذي يبتني عليه بناء الدّين كله.. والعدل يكون في جميع الأبعاد: العدل في التكوين وفي التشريع.. والجزاء.. والكتاب.

أمّا قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فهو يثير تساؤلاً جديراً بالتأمل وهو لماذا تكررت كلمة لا إله إلا الله؟

ذهب الوالد رحمه الله[1] في تفسيره (تقريب القرآن إلى الأذهان) أنّ التكرار للتأكيد، لأنّ العالم قبل مجيء النبي الأعظم صلى الله عليه وآله كان غارقاً في أوحال الشرك والوثنية، وحتى زماننا الراهن الكثير من نقاط العالم غارقة في الوثنية والشرك، في الهند والصين وغيرها.. ومئات الملايين من المشركين في العالم المسيحي واليهودي، فالتكرار إنّما هو للتأكيد على الوحدانية لله عزّ وجلّ..

عاملان وراء الظلم:

سؤال آخر يُطرح وهو: لماذا ذكرت هاتان الصفتان ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ في سياق هذه الآية المباركة؟

لعلّ ذلك باعتبار ذكر صفة العدل- التي تقابل صفة الظلم- في الآية الكريمة، حيث يوجد عاملان وراء الظلم:

---

(١) هو الإمام الراحل المرجع: آية الله العظمى السيد محمد الحسيني الشيرازي رحمه الله.

الأول: الضعف، فهو من الأسباب الرئيسية وراء ظلم الظالم ووجود عقدة الضعف فيه، كما نقرأ في الدعاء الشريف «وإنّما يحتاج إلى الظلم الضعيف وقد تعاليتَ يا إلهي عن ذلك علواً كبيراً»[1] فالحاكم يظلم شعبه لأنّه يشعر بالضعف وأن كيانه يتهدم فيشعر بخطر على نفسه فيظلم ويقتل ويهدم.. إذن العدل يحتاج قوة.

الثاني: الجهل، ففي بعض الأحيان لا يريد الشخص أن يظلم ولكنّه يجهل: يقول الشاعر:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى مضر كوضع السيف في موضع الندى

والكثير من الآباء يحتارون في طريقة التعامل مع أطفالهم، فهل يحتاجون إلى الترغيب أو إلى الترهيب؟

فإن الأب لا يعرف فربما يصفع الطفل لأنّه يظن أنّ تأديبه بصفعه ولكنّه أخطأ في تشخيص القضية،.. فالعدل يحتاج إلى معرفة: أين تضع الشيء وكيف. ولعلّه من هذا المنطلق قالت الآية الكريمة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيداً لقضية الألوهية، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العزيز، القوي الّذي لا يُغلَب، الحكيم: العالم الّذي يضع الأشياء في موضعها.

خلاصة القول: إنّ ما ذكرناه إشارة مختصرة إلى قضية العدل والظلم والأمر بحاجة إلى بحوث مستوعبة سنؤجلها إلى مجال آخر بإذن الله جلّ وعلا.

أمّا الآية اللاحقة فإنّها تتناول البنية الفوقية التي تبتني على هاتين القاعدتين سوف نتحدث عنها في حديث قادم بإذن الله تعالى. وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

---

(١) الطوسي، محمد بن الحسن، مصباح المتهجد، ص: ١٩٥.

يقول المقرر:

وهذا آخر ما تفوّه به الأستاذ الفقيه المقدس آية الله السيد محمد رضا الشيرازي رضوان الله عليه في تفسيره لسورة آل عمران، فرحمه الله من عالم كان اللسان الناطق لهدي أهل البيت عليهم السلام وتعاليمهم فحشره الله معهم وفي درجتهم إنّه كريم سميع مجيب وقد أهديت هذا الجهد القليل إلى سيدي ومولاي أبي عبد الله الحسين عليه السلام وإلى ابنته المضطهدة التي جادت بنفسها في فراق إمامها.

اللهم تقبل منّا هذا القليل بفضلك ومنّك، واغفر لنا تقصيرنا وخطايانا بعفوك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

وقد تمَّ مراجعته في ثالث ليالي القدر في مشهد الإمام الرضا عليه السلام ليلة ٢٣ من شهر رمضان المبارك من عام ١٤٢٩ هجري. تمَّ تقريره بيد: محمد علي الشيرازي.

بسم الله الرحمن الرحيم

الإطار العام للسورة[1]

سورة آل عمران

آية: ١-٥

تأملات:

الأول: هذه السورة ترتكز على محورين[2]:

---

(١) التاريخ: ٢٠- محرم- ١٣٩٨هـ.

وجدت هذه التأملات- بعد وفاة الفقيه المقدس- بين أوراقه، كتبها ولمّا يبلغ العشرين، وثم أضاف عليها حواشي، وبعضها إشارات- إلا أنا حذفنا الرموز والإشارات لأنها لم تكن واضحة المراد، ولعله كان خلاصة لمحاضرات ألقاها، ثم أضاف إليها أمور أخرى لمحاضرات أخرى.

وقد ارتأينا أن نطبع هذه التأملات - كملحق لكتاب التدبر في القرآن، خاصة أن الجزء الثالث- وهو تقرير لمحاضرات أخرى له كانت في أواخر حياته- يتناول سورة آل عمران أيضاً.

ومن البيِّن أن هنالك عموماً من وجه بين ما في هذه التأملات وبين ما في الجزء الثالث، وخاصة أن هذه التأملات تمَّ تأليفها في أوائل الحياة العلمية للمؤلف، والجزء الثالث في أواخرها.

نسأل الله أن يجعل القرآن شفيع المؤلف وأن يحشره مع محمد وآله الطاهرين. [الناشر].

(٢) * السورة مربوطة بواقعنا باعتبار وضع المسلمين: غزو فكري- غزو مسلح- المؤامرات.

* ومهمة هذه السورة هو «التحصين الايدلوجي» و«إعداد العدة للقتال» كرد على التحدي.

١) الوحدة بين رسالات السماء- كما نلاحظ ذلك في بداية السورة ونهايتها ـ.. وخلال الآيات القرآنية أيضاً.

٢) السلوك الرسالي السليم الذي يجب أن يتمتع به الفرد المسلم تجاه الظروف والأشياء.

الثاني: الحروف المقطعة فيها أقوال:

١) رمز بين الله وأولياءه.

٢) إشارة لحوادث معينة.

٣) من أجل ضمان استماع الكافرين لهذه الكلمات الغريبة.. حتى لا يشوشوا على النبي.. وهكذا إلى(٢٤) قولاً..

ولكن الذي يبدو أن ذلك إشارة إلى إعجاز القرآن البلاغي.. حيث يبين القرآن أنه مكون من هذه الحروف العادية المتداولة عندكم.. وعدم استطاعتكم الإتيان بمثله دليل على عنصر الإعجاز الكامن فيه(مثل أن يصنع مهندس عمارة من الطابوق والاسمنت يعجز جميع المهندسين عن صنع مثلها).

وما يؤكد ذلك أن هناك إشارة إلى القرآن بعد أكثر هذه الحروف ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾...

الثالث: يبين القرآن في الآية الثانية وحدة الخالق، لكي يبين بعد ذلك وحدة الرسالات السماوية التي صدرت عنه.. فوحدة المصدر تؤكد وحدة ما صدر عنها[1].

---

(١) بداية هذه السورة ردّ للنصارى في الألوهية والنبوة.

الرابع: «لا إله إلا هو» هل هو شيء نظريّ منفصل عن واقع حياة الفرد؟! كلا.

لقد ركز القرآن على التوحيد.. وكان شعار الأنبياء دائما «لا إله إلا الله».. وكان ذلك من أجل أنه المنطلق للخضوع والطاعة بدليل:

١) رفض مشركي قريش لقول «لا إله إلا الله» «تفلحوا».

٢) قول الإمام بشرطها وشروطها وأنا(القيادة السليمة) من شروطها..

وبتركيز هذه الفكرة يضرب القرآن:

أولاً: عبادة الهوى والشهوات ﴿ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾.

ثانياً: الخضوع للطواغيت ﴿...وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ﴾.

ثالثاً: الأنظمة البشرية فهو يثبت الحاكمية لله وحده ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ﴾.

الخامس: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾.

ليس معزولاً ولم يتعاقد. والأثر؟! هو التقويم للسلوك الإنساني. لأنه لا يمكن إلا بالرقيب «كالبوليس وشرطي المرور».. عكس اليهود «اتحدثونهم.. ليحاجوكم به عند ربكم»[1].

السادس: ارتباط «القيّوم» بـ «نزل»؟!

---

(١) * الحي: أي «الله الحيّ» وهو يفيد الحصر.
* انواع القيمومة الإلهية:
ا/ التكوين.
ب/ الإبقاء.
ج/ الإنماء.
د/ الرقابة ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

القانون أمر أساسيّ في حياة الجماعة لكي لا يعيش كل فرداً ثانياً..[1]
ولكن من الذي يضعه؟ إنه الكبير القائم على شؤونهم.. ضماناً للطاعة والخضوع..(مشكلة القانون البشري عدم وجود كبير يضع القانون).

فما دام القائم على أمورهم فلا بد أن يضع القانون.

السابع: تصديق القرآن للكتب السماوية كان من أجل استقطاب المنتمين إلى تلك الرّسالات كما أسلم كثيرون في الزمن الحاضر- لذلك[2].

الثامن: الآية «٤-٥»[3].

هناك ثلاث حواجز تمنع إنزال العقوبة أو الدفاع ضد الطرف الآخر وهي:

١- الضعف.

٢- شدة الشفقة المفرطة (كالأب والابن المدلّل).

٣- الجهل سواءً بالجريمة أو بالمرتكبين.

وفي خلال هاتين الآيتين ينفي القرآن هذه الصفات الثلاثة عن الله، فهو:

١- العزيز.. اي القوي الذي لا يعجزه شيء.

٢- ذو انتقام- وليس كما يتصور البعض رحمة مطلقة فهو «أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة، وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة».

---

(١) نزل يفيد التدريج - بقرينة(أنزل)-: بالحق، مصاحباً له(وبحمده).

(٢) ثم أن حقيقته (كالابتدائية والجامعة فهل تنساها لو انتقلت إليها).

(٣) (من قبل) لرفع الاستبعاد (قال كذلك الله يفعل)، (نزل) دلالة على صدق النبوة فقال (بالحق) كدعوى، فعرفتم صدقها بالفرقان (أي بالمعجزة).

٣- وهو عالم. . ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

إذن..

فليحذر الكافرون.. وليدهنوا جلودهم استعداداً لذلك اليوم الرهيب.. حيث ينتظر الذين كفروا بآيات الله عذاب شديد» الآية الرابعة».

التاسع: «من قبل» في الآية الرابعة إشارة- ولو من بعيد- إلى محدودية الرّسالات السماوية السابقة.. عكس الدين الإسلامي الذي هو خالد إلى يوم القيامة.

آية: ٦-٩

تأملات:

الأول: بعد أن تناول القرآن موضوع «وحدة المصدر» ووحدة الرسالات التي انبثقت من هذا المصدر الواحد.. وبيّن- من ثمّ- المصير الرهيب الذي يتهدد الذين يكفرون بآيات الله..

بعد ذلك يتناول القرآن موضوع الإيمان بالله.. حيث يدعو الناس إلى الإيمان، والخضوع لله- باعتباره ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها..

الثاني: من هنا يبيّن القرآن أن للإنسان جانبين:

جانب يتسامى على إرادته واختياره، وهو جانب الجسد، وما فيه من أجهزة وآلات.

وجانب آخر يقع تحت نفوذ إرادته واختياره.. وهو جانب «الروح»- تلك المنطقة الحرة التي يستطيع الإنسان أن يتصرف فيها كما يريد ـ..

وهنا يبين لنا القرآن- وفي الآية السادسة وبالذات كلمة ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾: إنه مادامت أجسادنا تخضع لله من حيث نريد أو لا نريد- فعلينا أن نخضع الجانب الآخر لله- أيضاً.

من هنا يعقّب القرآن على كلمة ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ (حيث يبيّن فيها الجانب الأول) بقوله ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: يجب عليكم أن لا تتخذوا إلهاً سواه، ولا معبوداً غيره.. وذلك لا يتم إلا بالخضوع الكامل لمناهج الله في الحياة.

الثالث: كما يبيّن القرآن العلاقة الجدلية التي تربط بين «التكوين» و«التشريع».

فالمكون يجب أن يكون هو المشرع.. والمشرع يجب أن يكون مكوّناً.. باعتبار أن الصانع للشيء أعرف به.. لذلك فهو أقدر على وضع القانون له..

ونستطيع أن نفهم ذلك من الربط بين ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ و ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾. فما دام الله قد خلقنا وصوّرنا فإذن هو الأجدر أن يشرّع لحياتنا- عن طريق كتاب يرسله إلينا-.

كما أن علينا كمخلوقين، أن نستمع إلى تعاليم هذا الخالق، ونطبق قوانينه..

تماماً كما أن الذي يصنع جهازاً معيناً (الراديو مثلاً) هو الأجدر بوضع الدساتير التي تحدّد كيفية الاستفادة من هذا الجهاز.. والتي من دون الاستماع إليها لن تستطيع أن تستفيد من الجهاز بالشكل المطلوب.. بل قد يتحول ذلك إلى وبالٍ عليك- كالاستعمال الخاطئ لأجهزة الكهرباء بعيداً عن إرشادات المخترع لها-.

الرابع: في ختام الآية السادسة يأتي القرآن بصفتي «العزيز» والحكيم لله.. فلماذا؟

إن القرآن- هنا- يتحدث عن خلق الله للإنسان، وتصويره له.. لذا

جاء بهاتين الصفتين.. باعتبار أن صنع أيّ شيء يحتاج إلى العلم، والقدرة..

فبناء الدار- مثلاً- يحتاج إلى علم، هو فن الهندسة، وإلى قدرة مالية، وعضلية والقدرة على امتلاك أدوات الإنشاء، واستئجار مجموعة من العمال.

من هنا.. يذكر القرآن صفتي «العزّة»- وهي القوة والقدرة- (من جانب) كما يذكر(من جانب آخر) صفة: «الحكمة» وهي: العلم[1] باعتبارهما العنصران الضروريان في أية عملية خلق أو بناء..[2].

الخامس: في القرآن محكم ومتشابه.. آيات واضحة.. وآيات غامضة تحتمل وجوهاً متعددة.. وعلى الفرد أن يُرجع الآيات المتشابهة إلى المحكمة ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: (أي مرجعه).

أ/ ففي المجال العقائدي مثلاً.. نرجع آية ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ إلى ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ و﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أو آية «٦٢» من سورة البقرة إلى ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾[3].

---

(١) المنجد- مادة (ح. ك. م).

(٢) أو هكذا: الصنع بحاجة للقدرة وللعلم.

ووضع الشيء موضعه (لا يكون الا بالعلم المسبق) الحكمة تغني عن العلم، لانها مسبوقة به، ولكنه لا يغني عنها.

(٣) ربط(المتشابه) بما سبق: الثغرة التي ينفذ منها في التحديات الفكرية فبعد أن سدّ القرآن باب البرهان يحاول سد باب المغالطة.

المسيحيون استدلوا بأن المسيح (روح الله) إذن هو الله(للنبي).

* سر وجود المتشابه: ١- دور أهل البيت «وأنهما لن يفترقا». ٢- الفرز والامتحان هنالك امتحانات فكرية وعملية (محك هذه الأمة الإمام، قرآن ناطق وصامت) ٣- اقتصاد البلاغة ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ و﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟﴾ ٤- تقريب المطلب للأذهان ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

* الفتنة وابتغاء تأويله: أحدهما اجتماعي (الإضلال)، والآخر شخصي، (التبرير).

ب/ وفي المجال العملي نرجع آيات «العسر والحرج» و«التهلكة» ولا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الآيات الآخرى «آيات الجهاد والعلم».

السادس: في ختام الآية السابعة يجدّد القرآن الموقف الذي يجب علينا اتباعه من الذين في قلوبهم زيغ.. وتجاه تفسيراتهم الخاطئة للقرآن..

حيث يقول ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾..

أولا: أولو الألباب.. اللب يعني «خالص كل شيء» والعقل يسمى «لباً» باعتباره خالص وعمق الإنسان..

فإذن.. أولو الألباب يعني: أصحاب البصائر النافذة التي ترى العمق، متجازوة ما يطفو على السطح الظاهري..

ثانيا: وإذا أردنا أن «نتذكر»-(والتذكر يعني «التفطن» ويعني التيسير)- وأن نفصل بين التفسيرات الخاطئة للقرآن علينا أن نتجاوز القشرية في التفكير لكي ننفذ ببصائرنا إلى العمق..

علينا أن نفهم «روح» الإنسان و«محتواه» وليس «إطاره» فحسب..

فمثلا: يستدل لك شخص ما على أن العمل غير واجب بدليل آيات الصبر والتوكل والتهلكة والحرج.. الخ.. لكن معرفتك بـ «واقع الدين» و«روحه» تجعلك ترفض هذه التأويلات الخاطئة «وابتغاء تأويله»..

ولكن السؤال: كيف لنا أن نفهم روح الدين؟!

ذلك ما تجيب عليه النقطة السابقة- الآية الخامسة - وملخصها: إن

علينا أن نرجع إلى تلك الآيات الواضحة «المحكمة» من القرآن فنفهم منها جوهر الدين.. ثم نرجع هذه الآيات التي أسيء تفسيرها «ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله» إلى تلك الآيات المحكمة..[1].

السابع: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ...﴾ تفسّر على صورتين:

الأولى: اعتبار «الواو» عاطفة.. ويقولون.. جملة مستأنفة.. وهنا يشترك الراسخون في العلم في فهم واقع الآيات المتشابهة..

الثانية: اعتبار «الواو» استئنافية.. و﴿يَقُولُونَ﴾ خبراً لـ ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾..

والتفسير الأول أقرب إلى الواقع الخارجي..

والتفسير الثاني أقرب إلى سياق الآيات..[2].

الثامن: واذا سلّمنا بالتفسير الثاني فإننا سنحصل على حقيقة وهي

---

(١) معنى التأويل: المآل- وتفسير المشكل.

(٢) والظاهر إنه عطف لأنه:

١- ما فائدته؟

٢- قبح أن نجهل، ونرجع للإمام، ثم للرسول ثم يقول: لا أعلم!

٣- لم نجد طول التاريخ عالماً توقف.

* كل من عند ربنا:

ثلاث طوائف:

العامة_ يأخذون بالظاهر.

المُغرضون_ يؤولون.

الراسخون_ لا يظهر لهم إلا بعد التأمل، ولكنهم يستسلمون.

الجاهلون_ يرفضونه بسرعة.

حقيقة التسليم المطلق الذي يجب أن يتمتع به المؤمن تجاه آيات الله، وأحكامه..

وقبل أن نفسر هذه الحقيقة لا بد أن نبيّن «العلاقة بين العقل والدين»..

والواقع: إن العقل له مرحلتان:

أ/ مرحلة «ما قبل الإيمان».. وهنا يكون دور العقل كمرشد للدين، وكطريق إليه..

ب/ مرحلة «ما بعد الإيمان».. وهنا ينبغي أن يكون العقل خاضعاً للدين، ومستسلماً إليه.. فحتى لو لم يفهم العقل شيئاً من أمور الدين وفلسفتها فإن عليه التسليم[1].

من هنا نجد القرآن يقول عن لسان الراسخين في العلم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ فحتى لو كانت هذه الآيات غامضة، وفوق العقل فإننا نؤمن بها.. وبصدورها من قبل الله..

---

(١) لا يعني هذا الكلام أن هناك تناقضاً بين الدين والعقل.. بل هنالك ثلاثة أمور:
١- ما يؤيده العقل.. وطبعاً يجب على الإنسان أن يؤمن به.. وكثير من قضايا الدين من هذا النوع.
٢- ما يناقضه العقل.. مثل: «التناقض» أو «اجتماع الضدين». أو ما أشبه، ولا يوجد هذا في الدين إطلاقاً.
٣- ما هو فوق العقل.. وهو تلك الأمور التي لا يناقضها العقل.. ولكنّه أيضاً لم يتوصل إلى فهم حقيقتها، أو إلى فهم فلسفتها.
وهذا ما يوجد في بعض قضايا الدين..
فالأول مثّل حقيقة الله الخالق..
والثالث مثّل فلسفة بعض التشريعات الدينية التي لم تتوصل إليها عقولنا حتى الآن..

عكس المنافقين الذين كانوا يقولون- عن الآيات المتشابهة-: إنها ليست من قبل الله!![1].

التاسع: العلم يدعو للإيمان.. هذه الحقيقة.. من هنا فإن العالم الذي يرفض الإيمان إنما هو عالم سطحي.. أو عالم مزيف.. من هنا يقول القرآن: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾.

العاشر: من خلال الدعاء «ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا» يبيّن القرآن ضرورة الاستمرارية للإنسان.. رغم كل المصاعب والعقبات.. حيث يدعو الفرد المؤمن أن لا يصبح مثل أولئك الذين عاشوا الإيمان ثم انحرفوا.

* أما كيف يحدث «الزيغ»- الانحراف؟!

فإن من أهم أسبابه

١: الذنوب الصغيرة التي يمارسها الفرد، والتي تقوده بشكل طبيعي إلى الذنوب الكبيرة.. وبالتالي: الانحراف..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾.

---

(١) بعض الآيات القرآنية أو الأحاديث الواردة عن أهل البيت كانت غامضة لفترة طويلة من الزمن.. بل كانت تناقض المعارف التي كانت تسود ذلك اليوم.. ولكن تقدم العلم كشف عن بعض الحقائق التي استطعنا- نحن- من خلالها أن نتوصل إلى فهم تلك الروايات.. ونجد أن العلماء الكبار- من أمثال العلامة المجلسي- الذين عاشوا في عصور غابرة استعصى عليهم فهم بعض الأخبار، بل كانت بعض تلك الأخبار تناقض معارفهم، ومع ذلك لم يرفضوها، بل قالوا «نرد علمها إلى أهلها».. والآن كشف العلم كثيراً من أسرار تلك الأخبار..
ثم: العقل أما عاطفة أو عقل حقيقي.

﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾.

٢: والسبب الآخر عدم البناء الذاتي[١].

الآية: ١٠- ١٧

تأملات:

الأول: «لن تغني» يريد نسف تصور خاطئ.. وبيان أن القيم التي تسيّر الدنيا لا تسيّر الآخرة..[٢].

ففي الواقع الخارجي

أ/ المال «حلّال للمشاكل» «الرشوة»-.

ب/ العلاقات التي تربط الإنسان بأفراد المجتمع. وإنما عبّر بالأولاد لأنهم الأقرب.

---

(١) * رحمة بعد، تزغ: سلب وإيجاب.
* ربنا إنك جامع: ضمانة لاستمرار الإيمان.

(٢) * الربط بما سبق: للكفر أساسان:
مشكلة فكرية، ونفسية، والأهم الثاني عند الأكثر.
فبعد ضرب الأساس الفكري- يضرب الأساس النفسي.
* كمال العذاب أنه لا ينتفع بما تحت يده- ثم يجتمع عليه العذاب المؤلم.-
* تقديم المال على الولد عكس بعد آيتين. لأنه الآن في مجال النفع، وهناك في مجال الحث.. وقوله ﴿لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ مؤيد.
في مجال النفع: المال أكثر عملاً.
في مجال الحب: الإنسان يفدي ماله لأولاده.
* وقود النار لماذا أو ماذا فائدة إيراده:
١- العذاب نابع منهم(تجسم العمل).
٢- مرعب ومخيف- كانفجار قنبلة من داخل أو خارج.
٣- لا ينتهي لأنهم خالدون.

أما يوم القيامة فتنعكس المعادلات ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾.

فهي لا تفيد حتى بالقدر البسيط «شيئاً».

الثاني: العلاقة بين الإيمان والاستقامة.. «الإيمان ملجم» «المؤمن لا يغدر».. بينما هم «كذبوا» فأذنبوا فأخذهم بذنوبهم.. وإلا: فلماذا جاء بـ «كذبوا» قبل ذلك.. بل كان يقول أخذهم بذنوبهم..

والذنب الذي أهلكوا به كان «ذنباً اجتماعياً» الذي لا نهتم نحن به في الوقت الحاضر.

الثالث: للكفار نتيجتان: الدنيا والآخرة الآية «١٢»(١).

---

(١) لادنيا ولا آخرة- فلم الكفر.(الآية ١٣).

١- العبرة بالنهاية والجولة الاخرة(مثل «أُحد».

٢- القضية طبيعية لا حتمية(مثل الثواب المنكور في الروايات) ولذا قال (بشرطها وشروطها).

* ستغلبون: لا «سوف» للسرعة «قد أجيبت دعوتكما» وإن بدا لنا طويلاً ﴿يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾.

* الحشر هو الإخراج بازعاج ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ﴾.

* «مهاد» هو الذي مهدتموه لأنفسكم- مرة الجزاء من خارج ومرة من داخل(كمن زرع شوكاً).

* يرونهم: احتمالان ١- أما بيان ضعف المسلمين(بقتلهم) ٢- أو بيان كيفية تأييد الإله سبحانه للمسلمين، فعلى الأول «يرونهم» أي الكفار يرى المسلمين وعلى الثاني أي يرى الكفار المسلمين.

* «يؤيد بنصره» أي يرفعهم والباء للسببية.

* أبصار: رؤية كما يرى الإنسان الجوانب بعينه.

* زين «الجانب الإيجابي من القضية «ترهيب وترغيب».

أي حل مشكلة الكفر وأسبابها. كقولك للتلميذ: من لا يدرس يفشل- ثم حلّ مشكلته.

سر تقديم الترهيب على الترغيب والحل لأنه أكثر تأثيراً.

* ملاحظات في الشهوات:

١- عامة(للناس) جميعاً (أفقياً) ودائماً(عمودياً).

٢- طامعة وغير محدودة.

٣- عنيفة(بدليل المبالغة «شهوات» لا مشتهيات).

الرابع: آخر آية «١١» للدلالة على أن أخذه ليس عادياً.

الخامس: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ يريد نسف «معادلات الضعف والقوة العسكرية» وهذا يعطي الأمل.. خصوصاً إذا لاحظنا ميزة الفئة المؤمنة وهو: ترتبط بالله.. ولذا صمود المؤمنين عادة أكثر.

السادس: موقف الإسلام تجاه الشهوات: لا الكبت، ولا الاطلاق.. بل التنظيم.. تماماً مثل السيل.. فهو يقف موقفاً وسطاً بين الرهبنة والصوفية، وبين التحرر والانطلاق..

السابع: تصنيف الشهوات:

١- شهوة الجنس «من النساء»

٢- شهوة الخلود والامتداد «والبنين» والذي يعرف ذلك العقيم.

= ٤- قوة خارجية(مثل دُفع الناس واندفع الناس) وهذا يدل على أنها غير داخلة في ذاتياتهم.. أما شهوة أو شيطان.

الشهوات هي:

١- النساء (الجنس) أقوى الشهوات.-

٢- البنين (الامتداد).

٣- القناطير- يصور نَهَم الإنسان (الشهوة المالية).

٤- الخيل(رمز القوة).-

٥- والأنعام والحرث: الاقتناء.

فإذن الشهوات ١- الجنس ٢- الامتداد ٣- المال ٤- القوة ٥- الاقتناء.

سر هذا التسلسل:

١-جنس ٢- يريد الأولاد ٣- يحتاج للمال ٤- المال يولّد القدرة ٥- بعد القدرة يريد الإنسان الاقتناء.

متاع: يتمتع به في حياة سافلة- كلعب الأطفال (منحطة المستوى الفكري) والأولياء ينظرون لنا كنظرنا للأطفال.

حسن المآب: والعيش في المستقبل (كالطالب والامتحانات).

ميزات الآخرة: ١- الخلود ٢-النوعية ٣- المعنويات (الرضوان).

٣- شهوة الاقتناء سواء كان في شكل سيولة نقدية «والقناطير»، أو على شكل أنعام وزروع.

وهذه هي أقصى أماني كل فرد عادي في المجتمع.

الثامن: يريد القرآن منا أن نعيش الحاضر، بل المستقبل.(والنجاح متوقف عليه) فذات العلاقة التي تحكم الحاضر والمستقبل، تربط الدنيا بالآخرة.

التاسع: ويبيّن أن للآخرة ميزتين: كمي وكيفي.

العاشر: نفس الصفات التي يحتاجها النجاح في المستقبل لفلّاح في الحقل.. نفسها يحتاج إليها الفلاح الأخروي(الدنيا مزرعة الآخرة) وهي:

أ/ الاستمرارية «الصبر».

ب/ الصدق والعزم الأكيد والإرادة الصادقة «والصادقين».

ج/ الخضوع للقوانين الطبيعية «في زراعة الدنيا» باعتباره شعوراً بالتقصير في الحاضر: تطلعاً نحو مستقبل أرحب في المستقبل.

* السياق العام للآيات:

بعد ذكر موقف المؤمنين في يوم القيامة.. والذي يتسم بالرجاء والأمل.. يذكر موقف أو المصير الرهيب الذي يتهدد الكافرين في هذا اليوم..

ثم يبيّن أن ذلك ليس مقتصراً على الآخرة.. بل هو قاسم مشترك بينها وبين الدينا. ثم يستعرض الموقف السليم الذي يجب أن يتخذه المؤمن تجاه يوم القيامة.. من خلال تعامله، مع شهوات..

الآية: ١٨- ٢٢

تأملات:

الأول: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾: العلم يقودنا للإيمان (العلم يدعو إلى الإيمان)، من هنا نجد الإسلام يحرّض عليه لأنه حق، والعلم يقود إلى الحق..

والذين لا يؤمنون لا يأتي ذلك لسبب عقلي، بل من مشكلة نفسية.

الثاني: «إن الدين عند الله الإسلام»: ليس الشهادتان فحسب، بل التسليم المطلق لله!.. ولذلك تفسر كون الأنبياء السابقين مسلمين.. وكذلك اللغة.. فسواء وافق فكرك أو خالفه، أو وافق هواك أو خالفه فيجب عليك التسليم.

الثالث: جزاء الكفر سريع ﴿سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ فمن لا يتبع الإسلام يصاب بانتكاسة.

الرابع: علينا البلاغ لا استثمار النتيجة ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾.

الخامس: مصير أعداء الحرية:

أ- حبط العمل في الآخرة.

ب- وفي الدنيا.. سواء الحضارية والدينية.. وهذا يجعلنا أو ينبهنا إلى أن أعمالهم يجب أن لا تخدعنا.

ج- ليس لهم ناصر.. بل الكل ضدهم.

السادس: آية «١٩» تبيّن: الوحدة.. وأن كل رسالات السماء واحدة محتوى وهدفاً.. وهنا يقفز سؤال: إذن لماذا الاختلاف؟ الجواب: البغي، أي التعدي ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾. أغلب الخلافات الآن من منطلق شخصي..

السابع: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ لأن القرآن في مجال التحدث عن العدل أتى بهاتين الصفتين لأن الظلم إما من الضعف والخوف، أو الجهل: إما الجهل بالمجرم، أو الصالح والضار.

الثامن: التسلسل في الآية «٢١» إنه يكفر بالرسالة أولاً.. ثم يقتل حاملها.. ثم يقتل أتباعه.. أو أن هدف الآية بيان عظم قتل المصلحين.. أو أن القتل هو الرضا بالقتل مثل ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ ومثل: «آيات سورة البقرة الموجهة لليهود».

الآيات: ٢٣- ٣٠

تأملات:

الأول: أ- يريد ضرب (دين المصالح) فالدين قسمان: أمور سهلة، وصعبة.. (أهل الكتاب وعدم تحكيم كتابهم في الحدود).

ب- ثم يبين القرآن السبب..

ج- ثم يرد بفكرة (العلاقة بين الكسب والجزاء) آية(٢٥)..

د- ثم ينتقل للأمل..

هـ- ويقول القرآن: إن الله هو المالك لذلك من الطبيعي أن يكون بيده(سلطة توزيع) هذا الملك على من يشاء(مثل من يملك مالاً).

و- ثم ان ذلك ليس عبثاً وفوضى، بل بحكمة ونظام ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾.

ز- ثم يؤكد سيطرته على مقاليد الحياة (الملك- العزة) بامتلاكه لمقاليد الكون ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾.

ح- ثم تأتي قضية «العلاقة مع أهل الكتاب».. وموقعها من السياق: إنكم عندكم هذا الإله القادر.. فما بالكم بالاعتماد والموالاة للكفار!!.

ط- ويستثني القرآن من ذلك التقية.

ي- ثم يحذرنا من نفسه ويبين أنه:

أولاً: إليه المصير(خلاف ما في إجرام البعض حيث «اللجوء السياسي»).

ثانياً: عالم.. لا تخفى عليه خافية.

ثالثاً: قادر.. على كل شيء..

الثاني: التقية ماذا تعني؟!

للتقية مجالان:

١- المجال الفكري والآيديولوجي..

٢- المجال العملي.. ويعني الكتمان.. وذلك يستلزم وجود عمل.. «التقية درع المؤمن».

الثالث: ولكن: ممن تكون التقية؟

١- سلطان جائر تسعى للقضاء عليه.

٢- مجتمع تحاول تغييره.

الرابع: ما هي مواصفات الفرد المُتَّقي؟!

١- العمل المضاعف.. باعتباره يعيش حياتين..

وهذا يستلزم التضحية.

٢- الإخلاص الكامل.. وعدم محاولة استعراض العضلات العملية.

٣- الصبر.. والنفس الطويل- .

٤- عدم التطرف..

الآيات: ٣١- ٣٤

تأملات:

الأول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ الذي يحب جهة أو شخصاً فلا بد أن يخضع لمن يمثلها.. وأنت تحب الأئمة فلا بد أن تخضع لمن يجسد مبادئهم..

وإلا فعدم الطاعة= عدم الحب، تعصي الإله وأنت تظهر حبه!!.

الثاني: ﴿وَيَغْفِرْ﴾.

يعتبر الناس الشفاعة بديلاً عن العمل.. ولكنّها في الواقع «تكميل» والدليل:

أ/ من وجهة نظر لغوية(كلمة «شفع» تعني المساعدة).

ب/ من وجهة نظر قرآنية حيث إنه يعتمد على العمل. .؟

ج/ من وجهة نظر عقلية.

د/ من وجهة نظر خارجية(كابن وأبيه.. تارة يخطئ.. وأخرى يتمرد..

وهذه الآية تبيّن أن مغفرة الذنوب إنما لو كان الفرد في الخط العام- فاتبعوني-.

الثالث: الغفران نتيجة الحب.. كما أنّك لو أحببت ابنك تغفر له..

الرابع: «الكافرين» اما أ/ باعتبار المآل ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ...﴾ ب/ أو أن عدم الإطاعة نفسها كفر.

الخامس: الآيتان «٣١- ٣٢» الأولى تبيّن الجانب الإيجابي ومعطياته.. والأخرى تبين الجانب السلبي ومضاعفاته.. فهما وجهان لعملة واحدة. وعادة يجب أن يكون ذلك للمبلّغ.

السادس: علاقة الاصطفاء بما سبقها:

أ/ أما إثبات قضية الطاعة، وإذهاب استغرابهم باصطفاء الرسول؟

ب/ أو مثل استعراضه يوم القيامة ثم خلق السموات ثم يوم القيامة فيبيّن جدارتهم بالطاعة عندما يبين ما جرى لهم.

السابع: «سميع عليم» صحيح أنهم كانوا ذرية.. ولكن الله اختارهم بدقة وعلم..، مثل قولك «اشتريت كذا، وأنا الخبير».

فليس النسب وحده مبرراً.

الآيات: ٣٥- ٤١

تأملات:

الأول: يجب أن نجعل كل شيء في خدمة الله. المحور يجب أن يكون الله.. المرأة الحاملة ماذا تفكر عادة؟ في الملبس، وتذهب للسوق لتشتري لها الملابس..

عكس امرأة عمران.. هذه هي نساؤهم، فكيف برجالهم؟

الثاني: وليس الذكر كالأنثى.. يبيّن دورهما.. وإن هناك مجالات مقفلة لايمكن للمرأة أن تقتحمها.. لاختلافهما.

الثالث: على أن ذلك لايعني العنصرية.. أو الاستهانة بالمرأة ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ (قول المفسرين) قالت: إنها أنثى.. أنثى.. ولا يمكن أن يكون لها دور.. فبيّن أنها يمكن أن تفعل شيئاً فلا يعني أنوثتها أنها لا تصل لشيء.

الرابع: انعكاس الاسم ﴿سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ﴾ أي المرتفعة وهنا يصنع الطموح..

الخامس: ﴿فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ طلب عند المحراب الولد، وجاءته البشارة فيه «عنصر التشابه».

السادس: ﴿مُصَدِّقَۢا﴾ ﴿وَسَيِّدٗا﴾..

أ- مصدقاً بعيسى.

ب- وليس تابعاً ضعيفاً «تحت الشعاع» بل «سيداً».

ج- عادة يشغل السادة والوجهاء منصبهم لإشباع غرائزهم.. لكنه ﴿وَحَصُورٗا﴾.

د- ثم يبلغ أعلى مراتب الكمال الإنساني ﴿وَنَبِيّٗا﴾.

السابع: آية «٤٠» لها جانبان:

أ/ إن قدرة الإله تتحدى كل القوانين الطبيعية باعتباره هو الخالق لها، فبإمكانه تغييرها.

ب/ إن على الإنسان أن لا ييأس مهما كانت الظروف حالكة.. وهذا كما يجري في ولادة فرد، يجري كذلك في ولادة أمة.

الثامن: موقع كلمة «كذلك» وإشارتها إلى الاستمرارية، وأنه ليس شيئا جديداً حتى تتعجب منه.. كما يقول شخص قام بعمل غريب «كذلك أنا».

التاسع: الذكر قلباً.. والتسبيح انعكاساً ومظاهر.

العاشر: عنصر(التوقيت):

أ/ العشي.. ظلام ورهبة وإيحاء.

ب/ الإبكاء.. لكي يتذكر الإنسان الله فلا يحيد عن خطه أبداً.

وهذا يشعر أن البداية يجب أن تكون الله، كما النهاية.

الآية: ٤٢- ٥١

تأملات:

الأول: ثلاث مراحل:

أ/ الاصطفاء الابتدائي.

ب/ التهيئة.

ج/ الاصطفاء النهائي.

الثاني: الشكر العملي لاصطفاء الله «٤٣».

الثالث: البعد الاجتماعي للعمل الديني «مع الراكعين».

الرابع: «عيسى ابن مريم» بيان للجانب البشري.. ونسف الجانب الإلهي «٤٥».

الخامس: آية «٤٧» لها جانبان:

أ/ إن قدرة الله تتحدى كل القوانين الطبيعية.

ب/ إن على الإنسان أن لا ييأس.

وهذا كما في ولادة فرد كذلك في ولادة أمة.

السادس: «٤٧» قال هنا ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ وقال في الآية «٤٠» ﴿يَفْعَلُ﴾.. لأنه هنالك كانت عوامل طبيعية لكن كان مانع(زوج وزوجة وعلاقات طبيعية لكن مع العقم).. أما هنا «٤٧»، فليس هناك مقتض كامل للولادة.. لذلك فهذا «خلق». وكلمة «كذلك» هنا تفيد الدأب والاستمرار والعادة.. وأنه ليس «بدعاً»!

السابع: انسجام المعجزة مع مستوى الناس «الطب لعيسى عليه السلام والبيان لمحمد صلى الله عليه وآله» «٤٩».

الثامن: كل دعوة لدين يجب فيه:

أ/ ألا تنسف الطرف المقابل الصحيح ﴿وَمُصَدِّقًا...﴾.

ب/ أن يتبيّن بعض وجوه المفاضلة.

التاسع قدمت في الآية «٥٠» التقوى على الطاعة.. لأن الثانية فرع الأولى، فالإيمان أرضية العمل.

العاشر: لأن الله هو «الرب» لذلك «فاعبدوه».. فالإنسان يخضع لمن رباه «٥١».

الحادي عشر: القنوت= الخضوع. السجود= السلوك. الركوع= البعد الاجتماعي «٤٢»..

الآية: ٥٢- ٥٧

تأملات:

الأول: ربط المحتويات الاجتماعية للدين بالقرآن.. وهي أهم المحتويات الحضارية في الإسلام..

فالدين جاء:

أ- لإنقاذ المظلومين من الظالمين.

ب- وإنقاذ الظالمين من الظالمين(الرأسماليون الكبار يبتلعون الصغار).

ج- وإنقاذ الظالمين من أنفسهم(الخمر والقمار)

فعدم الاتباع= العذاب.

فلو بين أهمية القيم الدينية في المجتمع.. ثم بيّن أن تركها يسبب العذاب.. فلا يعود مفهوماً غيبياً، بل أمراً واقعياً يلمسه.

فمادام الجذر خراباً لن تنفع الإصلاحات الفوقية.

الثاني الحواريون.. كان لكل نبي حواريون.. لـ:

أ/ كونهم اليد التي يعتمد عليها في إنجاز المهمات.

ب/ كونهم الامتداد.

الثالث: يبدو أنه بنى الحواريين قبل الدعوة العامة.. وإلا فلا يمكن بناؤهم بين ليل ونهار.. حتى يقبلوا بمجرد رفض المجتمع.

الرابع يبدو أنه قام بعملية فرز وامتحان صعب للأفراد.. كان هنالك طريق يريد أن يسلكه «إلى الله».. لذا استجاب الحواريون دون غيرهم رغم أنه كان هنالك مؤمنون آخرون «غير حواريين».. لا أنه صعد فوق الجبل ونادى: «من أنصاري؟».. بل وضعهم أمام أنفسهم، وأمام الاختبار الصعب.

الخامس: هنالك ربٌّ، وفكرة.. والحواريون:

أ/ آمنوا قلباً.

ب/ واستلموا عملاً- كانعكاس ـ.

ج/ آمنوا بالفكرة.

د/ واتبعوا حاملها.

وهذا يشعرنا أنه لا يكفي الإيمان بفكرة، بل يجب وجود قيادة أيضاً.

السادس: طموحهم : أن يكونوا من الشاهدين على عصرهم (بدليل سائر استخدامات هذه الكلمة في القرآن) وهذا يستلزم:

أ/ النزول للمجتمع- أي عدم الغيبة عن العصر-.

ب/ القيام بدور إيجابي.

السابع: بعد أن ذكر موقف المؤمنين ذكر موقف الكافرين.. وأنهم خططوا.. لكنّ الله يمكر أيضاً.

الثامن: معنى «خير الماكرين» أما أفضل المخططين أو أخيرهم.. الله ينصر الإنسان المؤمن كثيراً فليس مختصاً بعيسى.

التاسع: «لا يحب الظالمين» بيان للعلة.. فإذا لا يُحِبُّ الظالم فكيف يظلم؟!

الآية: ٥٨- ٦٣

تأملات:

الأول: موقفنا تجاه التاريخ:

أ/ القراءة «الآيات= الإشارات».

ب/ الاعتبار «الذكر= التذكر».

ج/ العمل «الحكيم».

الثاني: «٥٩» ذلك يضرب القاعدة التي اعتمد عليها المسيحيون في ألوهية عيسى.

الثالث: بعد انتهاء دور «الحوار الكلامي» جاء دور «الحجة العملية أو الخارجية» حيث نحتكم فيها إلى الواقع الخارجي.

الرابع: «٦٢» بعد أن لم يقتنع الطرف الآخر، فربما يصاب المؤمن بانتكاسة روحية، فيريد أن يركز المبادئ والمنطلقات والأفكار.

الخامس: «بالمفسدين» أما المآل.. أو أن التولي بذاته إفساد!

الآية: ٦٤- ٦٨

تأملات:

الأوّل: موقع الآيات:

بعد أن ولّد جواً من الشك والارتباك فيهم(من خلال المباهلة) يدعوهم للدين الجديد.. إلا أن هنا شبهاً فيضربها.

الثاني: التأكيد على التوحيد ثلاث مرات.

الثالث: عدو التوحيد:

أ/ الجبت ب/ الطاغوت.

فهنا يضرب الشيء، ويضرب الشخص!

الرابع: لماذا أقدم (الشيء) على(الشخص)؟ لأن الثاني نتيجة للأول.

الخامس: كيف اتخذوا أرباباً؟ هل حكام؟ كلا! بل رجال الدين(ونفهم ذلك من خلال طبيعة مرحلة مواجهتهم للنبي ﷺ) بدليل ﴿اتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ...﴾.

السادس: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ تضع يدنا على مدلولها الحقيقي للإسلام (بالمفهوم لا المنطوق) الذي هو «التوحيد»، فمن لا يوحّد ليس مسلماً.

السابع: ربط ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ بما بعده؟!-: على الأغلب أنهم سيتولون لذا ناقش الجانب السلبي(التولي) وأخذ ينسف المبررات التي يعتمدون عليها في هذا التولي.

الثامن: آية «٦٥»:

أ/ المؤيدات التاريخية تعطي صفة شرعية للدين.. باعتبارهم(الورثة) والامتداد التاريخي.

ب/ سرقة الشخصيات التاريخية.

ج/ فوّت القرآن عليهم الخطة.. وسحب البساط من أقدامهم.

التاسع: آية(٦٥- ٦٦): العقل مقدم على العلم.. وإلا فلا يمكن النجاح.

العاشر: «٦٧» الحنيف: أي الرافض.

الحادي عشر: «٦٧» يبيّن الجانب الإيجابي(مسلماً) والسلبي(حنيفاً) أي «لا إله»= حنيفاً، و«إلا الله»= مسلماً!

الثاني عشر: «وما كان من المشركين» نغزة على اليهود والنصارى.

الآيات: ٦٩- ٧٤

تأملات:

الأوّل: موقع الآيات:

بعد فشل الحوار- جاء دور العمليات التخريبية.. فهم قد بدأوا الحوار (وفد النصارى والرسول).

الثاني: «طائفة» وجذورها التاريخية إذ عادة ما يكون المضلّون مجموعة.

الثالث: «طائفة» أي قسم منهم لا كلهم.. ففيهم سذّج وخبثاء.. إذن:

أ/ خطأ «النظرة الكاسحة».

ب/ وهذا يحجّم الصراع.

الرابع: التضليل الذاتي: إن استمرار الإنسان في عمل معيّن يؤدي

بالنالي إلى تكوين قناعات حول ذلك الموضوع حتى لو لم يكن مقتنعاً في بداية العمل.

لماذ؟

للتعوّد، وموت الضمير، ويصبح جزءاً من كيانه. وهذا يحدث من غير شعور «وما يشعرون»

الخامس: الآية (٧٠- ٧١) تبيّن موقفين لهم: موقف مع أنفسهم «الحجد».. وموقف مع الآخرين «التضليل».. ثم ينسف كلا الموقفين.. باعتبار أنهم يرون آيات الله فلا داعي للكفر، وأنهم يعلمون الحقائق فلا مبرر لتلبيسها.

السادس: قدمت (الشهادة) على(العلم) لأنها أولى منه.. فالعلم قد يكون خاطئاً.. بينما المشاهدة صحيحة(المنهج التجريبي).

السابع: أهل الباطل يقومون بعمليتين:

أولاً: لبس الحق بالباطل، فقد يأتي بأدلة صحيحة لا تدل، أو أدلة باطلة تدل.

ثانياً: يكتم الحق ويخفيه..

الثامن: ﴿وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ قد تكون عملية «تسلل»، يؤيده «وجه» أي وضوح «آخره» أي: ظلام؟

أي: التلبس بلباس الفكرة المضادة لضربها.

بل كانت مؤامرة شريرة هدفها أن تهتز ثقة المسلمين بدينهم حيث يدخلون ويخرجون.. كما يستفاد من ﴿...لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

التاسع: يضرب في الآيات الأخيرة: عنصرية أهل الكتاب الذي انعكس في مجالين.. العقائدي والسلوكي..

فالعقائدي «أن يؤتى أحد» تصور أنهم أفضل من غيرهم، والسلوكي «ليس علينا في الأميين».

العاشر: ويرد القرآن، فيذكر هذه الحقائق.

أولاً: الاختيار والتزكية بيد الله لا بيدكم.

ثانياً: ولأنه بيده لذلك يؤتيه من يشاء كانعكاس لذلك. فالمالك هو الذي يتعرف.

ثالثاً: إنه واسع- وليس رحمته أو عطاؤه ضيقاً أو محدوداً.

رابعاً: ولكن مع ذلك فهو دقيق، وبموضعه.

الآيات: ٧٥- ٧٨

تأملات:

الأوّل: يبين(الأمانة)، وأنها تكون أمانة الإله وأمانة الناس..

الثاني: ثم يبين أن قسماً منهم خانوا أمانة الناس؟ وخانوا أمانة الله بشكلين: المصلحية- والتزييف.

أولاً: الاستهانة بمواثيق الله قبال ثمن بسيط «المصلحية».

ثانياً: تزييف المبادئ والقيم..

الثالث: قدم التعامل المصلحي مع الدين على التزييفي، لأن الثاني نابع من الأول.. حيث يكون محور الإنسان ذاته.

الرابع: ﴿فِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ لأنه لهم خلاق في الدنيا، إذ هو يحصل على مكاسب.

الخامس: التسلسل في العقاب «٧٧» حيث إن كل واحد مرتب على الآخر الذي بعده

لماذا لهم العذاب أليم؟ لأنه لم يزكهم.. وهكذا..

السادس: «٧٨» الأغلب أنّهم رجال الدين المزيفون..

الآيات: ٧٩- ٨٣

تأملات:

الأول: عندما يصل الإنسان لموقع حساس يغيّر ويكفر.. لكنّ الأنبياء رغم وصولهم لهذا المنصب.. حيث امتلكوا

أ/ اللوائح القانونية.

ب/ السلطة الزمنية.

ج/ السلطة الروحية.

رغم كل ذلك فلا يمكن أن يدّعوا هذا الادعاء!

الثاني: ولكن: لماذا؟

أ/ لأن هذا المنصب هو من عند الله.. فلا يمكن أن يتمردوا على من أحسن إليهم.

ب/ ولأن الذي أعطاهم إياه هو الله.. واختياره لا يكون إلا للشخص المتقيم.

٣- كلمة «كنتم» باعتبار أن المراحل الأولى لدراسة الإنسان هي أصفى وأخلص مراحله.

الرابع: الآية «٨٠» النبي لا يوجهكم للأصنام الاجتماعية والآية «٧٩» النبي لا يوجهكم لذاته.

الخامس: يوجه القرآن في آية «٨٣» الناس للإيمان بأسلوبين:

أ/ إن كل ما في الكون أسلم لله تكويناً حتى جسدك.. فعليك أن تسلم له تشريعاً.

ب/ إن المرجع إلى الله.. فعليك أن تطيعه.

الفهرس

مقدمة الناشر ٥

الجزء الأول

المدخل

المطلوب فهم القرآن بشكل جديد! ١٥
١ ـ تحجيم التعامل».. .... ١٦
٢ ـ التلاوة السطحية.. للقرآن.. .... ١٧
٣ ـ الاهتمامات الثانوية ١٧
٤ ـ الفهم التجزيئي للقرآن ١٩
٥ ـ الفهم المصلحي للقرآن ١٩
٦ ـ الفهم الميت للقرآن ١٩
٧ ـ الفهم بديلاً عن العمل.. .... ٢٠

الفصل الأول:أفلا يتدبرون القرآن؟

القرآن حروف بلا معان! ٢٣
التدبر؟ أم التحجر؟؟ ٢٦
وماذا نصنع بهذه الشبهات؟ ٣٥
الشبهة الأولى: الروايات نهت عن ذلك ٣٥

الشبهة الثانية: كيف نعرف العام والخاص والمطلق والمقيد والناسخ والمنسوخ؟ ٤٨
الشبهة الثالثة: الذين أخطأوا في فهم القرآن ٤٩
الشبهة الرابعة: القرآن كتاب غامض.. فكيف نفهمه؟ ٥٠
معطيات التدبر في القرآن ٥٤
منهج التدبر في القرآن ٥٨
أولاً: معنى الكلمة ٦٠
ثانياً: تخيّر الكلمة ٦٦
ثالثاً: موقع الكلمة ٧١
رابعاً: الشكل الخارجي ٧٦
خامساً: الارتباط والتسلسل ٨٤
سادساً: التصنيف ٩٤
شروط التدبر في القرآن ٩٧

الفصل الثاني: الفهم الشمولي للقرآن

الفهم التجزيئي للقرآن ١٠٥
(١) فصل الجملة القرآنية عن السياق ١٠٧
أولاً: في المجال العَمَلي ١١١
ثانياً: في المجال العقائدي ١١٣
ثالثاً: في مجال فهم «الكملة القرآنية» ١١٥
(٢) التجزئة الموضوعية ١١٧
أولاً: الجمع التفسيري ١٢١
ثانياً: الجمع الترتيبي ١٢٤

ثالثاً: الجمع الاستنباطي ١٢٦
رابعاً: الجمع الموضوعي ١٣٠
الشفاعة.. ماذا تعني ١٣١
المجموعة الأولى: لا.. للشفاعة ١٣٢
المجموعة الثانية: الشفيع.. هو الله ١٣٤
المجموعة الثالثة: هنالك شفعاء.. ولكن بعد إذن الله ١٣٥
المجموعة الرابعة: شروط خاصة ١٣٥

الفصل الثالث: الفهم الحيوي للقرآن

الذين يفهمون القرآن.. كتاب موت ١٤١
أولاً: الفهم التجريدي ١٤٦
ثانياً: الفهم التاريخي ١٥١
ثالثاً: عدم فهم الأبعاد الحقيقية ١٦٣

سورة الحمد

فضل السورة ١٧١
الآية ١٧٤
المفردات ١٧٤
المدخل ١٧٤
لماذا البدء بالبسملة؟ ١٧٥
عود إلى الآية ١٧٧
معنى الرحمة الإلهية ١٨١
﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ ١٨٢

الرحمة الخاصة والرحمة العامة ١٨٤
مقومات الرحمة الخاصة ١٨٧
لماذا هاتان الصفتان؟ ١٨٩
هل البسملة آية قرآنية؟ وهل تقرأ في الصلاة؟ ١٩٣
تتمة ١٩٩
روايات في البسملة ٢٠٠
الآية ٢٠٤
٢ ـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ ٢٠٤
المفردات ٢٠٤
الحمد: إلفات إلى الجانب المضيء من الحياة ٢٠٤
تفسير آخر لـ«الحمد» ٢٠٩
«اختصاص الحمد بالله» ٢١٠
العناية المستمرة ٢١٣
لا للربوبيات البديلة ٢١٧
تنبيه ٢١٩
الآثار التربوية للإعتقاد بالربوبية الإلهية ٢٢١
الآية ٢٢٥
٣ ـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ٢٢٥
المفردات ٢٢٥
كيف نوفق بين الرحمة الإلهية ووجود الشرور؟ ٢٢٥
عينات خارجية ٢٢٩
فلسفة الشرور في النصوص الشرعية ٢٣٠

الآية ٢٣٢
٤ ـ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ ٢٣٢
المفردات ٢٣٢
التفسير ٢٣٢
محاكم ست ٢٣٣
القانون وحده لا يكفي ٢٣٧
نماذج عملية ٢٣٩
أنواع من الملكية ٢٤٣
الآية ٢٤٧
﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ ٢٤٧
المفردات ٢٤٧
التوحيد العملي فرع التوحيد النظريّ ٢٤٧
التوحيد.. والحرية ٢٤٨
قصص في العبودية ٢٤٩
لماذا حصرت الإستعانة بالله؟ ٢٥١
حصر الإستعانة بالله لا ينافي التوسل بالأسباب الطبيعية ٢٥٩
حصر الإستعانة بالله لا ينافي التوسل بالأسباب الغيبية ٢٦٢
المقام الأول ٢٦٢
في طلب الشفاعة من الأنبياء والأولياء ٢٦٢
المقام الثاني ٢٦٧
في الاستغاثة بغير الله والإستعانة به وطلب الحوائج منه ٢٦٧
المقام الثالث ٢٦٩
في التوسل إلىٰ الله تعالى بالأنبياء والأولياء ٢٦٩

تتمة ٢٧١

الآيتان ٢٧٣

المفردات ٢٧٣

كيف يطلب المهتدي: الهداية؟ ٢٧٣

الإجابة الأولىٰ ٢٧٤

نماذج ٢٧٧

تنبين ٢٧٨

الإجابة الثانية ٢٨١

الصراط المستقيم بين المنهج والنموذج ٢٨٢

من هم الذين أنعم الله عليهم؟ ٢٨٤

الفرق بين ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ ٢٨٥

الخوارج مصداق بارز للضلال ٢٨٧

عدم تغير الآثار الوضعية للضلال بالعلم والجهل ٢٩١

تقديم ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ على ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ ٢٩٢

الجزء الثاني

سورة البقرة

فضل السورة ٣٠١

الآيات ٣٠٣

المفردات ٣٠٥

البدء بالبسملة.. لماذا؟ ٣٠٦

الإعجاز القرآني ٣٠٩

مؤيدات: ٣١٢
القرآن يتحدى: ٣١٤
ملاحظات حول الحروف المقطعة ٣٢٢
لا ريب فيه ٣٢٣
ثلاثة مواقف ٣٢٦
التقسيم القرآني تقسيم عقائدي ٣٢٧
المجموعة الأولى: المتقون ٣٢٨
«صفات المتقين» ٣٣٢
١ ـ الإيمان بالغيب ٣٣٢
محاورات ٣٤٢
تأثير الإيمان بالغيب في سلوك الإنسان ٣٤٦
٢ ـ إقامة الصلاة ٣٥٢
٣ ـ الانفاق مما رزق اللَّه ٣٥٤
٤ ـ الإيمان بما أنزل على النبي ﷺ ٣٥٧
٥ ـ الإيمان بما أنزل من قبل ٣٥٨
ما هي ضرورة الإيمان بالرسالات السابقة؟ ٣٥٩
٦ ـ اليقين بالآخرة ٣٦٢
أولئك على هدى من ربهم ٣٦٢
نتيجة التقوى ٣٦٤
الآيتان ٣٦٥
المفردات ٣٦٧
القراءة ٣٦٧

الإعراب ٣٦٨
النزول ٣٦٩
التفسير ٣٧٠
معنى الكفر ٣٧٠
ثلاثة مواقف ٣٧١
لماذا العناد؟ ٣٧٢
نتيجة العناد ٣٧٣
ما تهدفه الآيتان الكريمتان ٣٧٤
هل العلم الأزلي يلازم الجبر؟ ٣٧٦
التقرير الأول ٣٧٧
التقرير الثاني ٣٨٠
القرآن الكريم.. يؤكد ٣٨٢
هل الختم على القلوب ينافي الاختيار؟ ٣٨٥
مفاد القاعدة الأولى ٣٨٥
مفاد القاعدة الثانية ٣٨٦
تأثير العمل في الرؤية ٣٨٦
محاولات أخرى ٣٩٠
منافذ المعرفة ٣٩١
ملاحظة ٣٩٣
روايات المقام ٣٩٤
الآيات ٣٩٩
المفردات ٤٠١

الإعراب ٤٠١
النزول ٤٠٢
مدخل ٤٠٣
ألوان من المنافق ٤٠٣
اهتمام القرآن بظاهرة النفاق ٤٠٤
التفسير ٤٠٧
كذب المنافقين في ادعاءاتهم ٤٠٧
الوجه الأول ٤٠٨
الوجه الثاني ٤٠٩
ما يستهدفه المنافقون ٤١١
معنى «المخادعة» ٤١٣
من هو المخدوع ٤١٤
ولكن لا يشعرون ٤١٦
السبب الرئيسي للنفاق ٤١٧
ازدياد المرض ٤١٨
نتيجة النفاق ٤٢٠
وقفات: دوافع حركة النفاق ٤٢١
١ ـ الحفاظ على المكاسب الشخصية ٤٢١
٢ ـ الإستفادة من الامتيازات التي يوفرها الإيمان ٤٢٣
٣ ـ الأحقاد الدفينة ٤٢٦
٤ ـ الظروف الطارئة ٤٢٧
لماذا قبل النبي ﷺ المنافقين؟ ٤٢٩

الإجابة الأولى ٤٢٩
الإجابة الثانية ٤٣٠
الإجابة الثالثة ٤٣٢
الإجابة الرابعة ٤٣٥
استعراض لأسماء بعض المنافقين ٤٣٦
أولاً: من الأوس والخزرج ٤٣٦
ثانياً: من أحبار اليهود ٤٣٧
ثالثاً: منافقون آخرون ٤٣٧
روايات في المقام ٤٣٨
الآيتان ٤٣٩
المفردات ٤٤١
الإعراب ٤٤١
التفسير ٤٤٢
الصفة الأولى: الافساد في الأرض ٤٤٢
تموجات الإفساد ٤٤٤
معنى آخر لـ«الإفساد» ٤٤٥
الصفة الثانية: التبجحات الفارغة ٤٤٦
الصفة الثالثة: اختلاط المقاييس ٤٤٨
نماذج تاريخية ٤٥٠
الآية ٤٥٩
المفردات ٤٦١
الإعراب ٤٦١

التفسير ٤٦١
رؤية متميزة ٤٦٢
كيف ينظرون إلى المؤمنين؟ ٤٦٥
تذنيب ٤٦٨
روايات في المقام ٤٦٩
الآيتان ٤٧١
المفردات ٤٧٣
الإعراب ٤٧٤
النزول ٤٧٤
التفسير ٤٧٥
من هم «الشياطين»؟ ٤٧٨
عقوبتان ٤٨٠
سلاح «الاستهزاء» ٤٨٦
روايات في المقام ٤٩٠
الآية ٤٩٣
المفردات ٤٩٥
الإعراب ٤٩٥
التفسير ٤٩٥
ولكن: ما هي النتيجة ٤٩٨
أقوال أخر ٤٩٩
رواية في المقام ٥٠٠
الآيات ٥٠١

المفردات ٥٠٣
الإعراب ٥٠٥
النزول ٥٠٦
التفسير ٥٠٧
المثال الأول: العمىٰ بعد المعرفة ٥٠٧
أقوال أُخر ٥١٠
المثال الثاني: الخسارة... بدل الربح ٥١١
وجوه أخر ٥١٥
فوائد ٥٢٠
الأمثال في القرآن الكريم ٥٢١
لاحظ الرواية التالية ٥٢٢
أركان المثال ٥٢٣
تذييل ٥٢٤
روايات في المقام ٥٢٦
الآيتان ٥٢٩
المفردات ٥٣١
الإعراب ٥٣٢
التفسير ٥٣٣
الطريق إلى اللّٰه ٥٣٦
أثر العبادة ٥٣٩
احتمالات أخر ٥٤٠
نعم أخر ٥٤١

١ ـ المسكن المناسب ٥٤١
٢ ـ نعمة الأمن ٥٤٢
٣ ـ الماء ٥٤٣
٤ ـ الرزق ٥٤٤
لا... للأنداد ٥٤٥
فائدتان ٥٤٦
ما هي التقوىٰ؟ ٥٤٧
برهانان ٥٤٩
السماء بناءً ٥٥٤
أنواع من الشرك ٥٥٧
١ ـ الشرك في الذات ٥٥٧
٢ ـ الشرك في الصفات... .... ٥٥٨
٣ ـ الشرك في الأفعال ٥٥٨
٤ ـ الشرك في المحبة ٥٥٨
٥ ـ الشرك في الطاعة ٥٥٩
٦ ـ الشرك في العبادة ٥٦٠
٧ ـ الشرك الأصغر ٥٦٠
لماذا عبدوا الأصنام؟ ٥٦١
روايات في المقام ٥٦٤
أ ـ في خلق الإنسان ٥٦٦
(كيفية ولادة الجنين وغذائه وطلوع أسنانه وبلوغه) ٥٦٦
(حال من ينبت في وجهه الشعر وعلة ذلك) ٥٦٨

ب ـ زعم الطبيعيين وجوابه ٥٦٨
جـ ـ هيئة الأرض ٥٦٩
د ـ الصحو والمطر ٥٧١
هـ ـ مصالح نزول المطر ٥٧٢
و ـ النبات ٥٧٣
(الريع في النبات وسببه) ٥٧٣
(بعض النباتات وكيف تصان) ٥٧٤
(الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات) ٥٧٥
(خلق الورق ووصفه) ٥٧٦
(العجم والنوى والعلة في خلقه) ٥٧٦
(موت الشجر وتجدد حياته وما في ذلك من ضروب التدبير) ... ٥٧٧
(خلق الرمانة وأثر العمد فيه) ٥٧٨
(حمل اليقطين وما فيه من التدبير والحكمة) ٥٧٨
(موافاة أصناف النبات في الوقت المشاكل لها) ٥٧٩
(في النخل وخلقة الجذع والخشب وفوائد ذلك) ٥٧٩
(العقاقير وخواص كل منها) ٥٨٠

الجزء الثالث

سورة آل عمران

فضل السورة ٥٨٧
المدخل ٥٨٨
التحدي مفترق طرق الحضارات ٥٨٨
١ ـ التحدي العسكري ٥٨٩

٢ ـ التحدي الحضاري ٥٩٠
نصارى نجران نموذجاً للتحدي الحضاري ٥٩٠
الآيات ٥٩٣
المفردات ٥٩٥
التفسير ٥٩٦
الوحي مصدر القرآن الكريم ٥٩٧
العلل الأربع في الماديات ٥٩٨
القرآن يتحدى ٥٩٩
إعجاز القرآن في تشريعاته ٦٠٢
صفات القيمومة الإلهية ٦٠٤
موقف القرآن الكريم من الديانات السابقة ٦٠٦
معنى التصديق ٦٠٦
جزاء المكذبين في الدنيا والآخرة ٦١٥
الانتقام الإلهي حكمة وضرورة ٦١٦
من هو الحاكم والمشرع؟ ٦١٧
الجاهل لا يحكم ٦١٨
الإنسان المُحاط بالجهل ٦١٩
سعة علم الله تعالى ٦٢٠
صانع الشيء أعرف به ٦٢١
الخالق هو الحاكم لا غيره ٦٢١
الآية ٦٢٥
المفردات ٦٢٧

الإعراب ٦٢٨
التفسير ٦٢٨
١ ـ قصور الألفاظ عن حمل المعاني الشامخة ٦٣٠
٢ ـ اللغة العربية والاعتبارات البلاغيّة ٦٣٤
٣ ـ الاختبار الإلهي في التكوين والتشريع ٦٣٧
البشر وَصُنعُ الويلات ٦٣٩
٤ ـ الارتباط بالقادة الإلهيّين ٦٣٩
الحكام وعدم فهم القرآن ٦٤١
الانطلاق من القرآن أو من الأفكار والشهوات؟ ٦٤٨
الإسلام عنوان ديننا ٦٤٩
الانطلاق من الأفكار المتبناة أو الأهواء والشهوات ٦٥٠
السبب: الانحراف الفكري والروحي ٦٥٠
النظرة التجزيئية للقرآن ٦٥١
الخبير هو المخول بالتأويل ٦٥٣
أهل الكتاب وإرادة الفتنة ٦٥٤
التأويل الباطل والتكفير ٦٥٤
من هو الخبير بالتأويل؟ ٦٥٦
التأويل عبر القاعدة العلمية ٦٥٦
حوار حول القاعدة العلمية ٦٥٧
التأويل والقاعدة الإيمانية ٦٥٨
الطريق اللمي لكشف الغموض ٦٥٩
من له الحق في التأويل؟ ٦٦٠

المعصومون عليهم السلام والعلم بالتأويل ٦٦١
العلماء وبعض مراتب التأويل ٦٦٤
الآيتان ٦٦٧
المفردات ٦٦٩
التفسير ٦٧٠
وقتية النعم المادية والمعنوية ٦٧٠
التضرع طريق استمرار الهداية ٦٧١
متى تُسلَبُ روح الإيمان؟ ٦٧٢
رجال سقطوا في التاريخ ٦٧٣
المطالبة من الله تعالى ٦٧٥
رحمة مبهمة ٦٧٥
كيف نتغلب على الشهوات؟ ٦٧٦
الآيات ٦٨١
المفردات ٦٨٣
الإعراب ٦٨٤
التفسير ٦٨٤
المدخل ٦٨٤
الله عزّ وجلّ سند المؤمن ٦٨٤
المال والرجال ركنا الكفار ٦٨٥
هل يصمد ركنا الكفّار أمام القوة المطلقة؟ ٦٨٦
الوثوق بالأبناء ٦٨٧
الكافر آلة إيقاد النّار ٦٩٠

لماذا آل فرعون؟ ٦٩٠
الحضارة الفرعونية على قمة الحضارات ٦٩٢
الغلبة للحق وإن ضعف ناصروه ٦٩٣
معركة بدر والتأييد الإلهي ٦٩٤
الاعتبار: النظرة الواقعية لآية ظاهرة ٦٩٦
بين الأسباب الغيبية والمعادلات الدنيوية ٦٩٧
الآيتان ٦٩٩
المفردات ٧٠١
المدخل ٧٠٢
الشهوات أهم عامل للكفر ٧٠٢
الشبهات والشهوات ٧٠٣
الله يزين أم الشيطان؟ ٧٠٤
فلسفة التزيين ٧٠٦
ما هي الشهوات؟ ٧٠٧
أنواع الشهوات ٧٠٧
الإسلام والنظرة الوسطية للشهوات ٧٠٩
الشهوات وضرورة الموازنة بين الحاضر والمستقبل ٧٠٩
الحياة الدنيا متعة ٧١١
اللذات المادية في الآخرة ٧١٢
جنات بلا نقص ٧١٢
أعظم النعم الماديّة لأهل الجنة ٧١٣
أزواج بلا قذارات ٧١٤

النّعم المعنوية ٧١٥
الآيتان ٧١٧
المفردات ٧١٩
الإعراب ٧٢٠
التفسير ٧٢٠
منشأ التقوى وقاعدتها ٧٢٠
المنع من الخمر بين الرادع الخارجي والرادع الداخلي ٧٢١
المنع من التدخين بين الرادعين ٧٢٢
تجليّات الإيمان في الحياة العملية ٧٢٦
صفات المتقين ٧٢٦
أهمية السَّحَرِ ومكانته ٧٣٥
تفسيرات الاستغفار ٧٣٧
روايات في نافلة الليل ٧٣٨
اهتمام السابقين بصلاة الليل ٧٤٠
التوحيد ومكانته ٧٤٣
الآية ٧٤٥
المفردات ٧٤٧
الإعراب ٧٤٧
التفسير ٧٤٨
الشهادة: التحمّل أو الأداء؟ ٧٥٠
الإظهار اللفظي والعملي ٧٥١
العلم والوصول إلى الله ٧٥٣

العدل الإلهي ومكانته ٧٥٨
دور العقل في معرفة العدل ٧٥٩
الأشاعرة والوقوع في التناقض ٧٦٠
هل العدل الإلهي ضمن المشهود به؟ ٧٦١
عاملان وراء الظلم ٧٦٢
الإطار العام للسورة ٧٦٥